قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة
لقصص ونوادر وطرائف العرب
في العصر الجاهلي والإسلامي

إعداد
إبراهيم شمس الدين

الجزء الثاني

يحتوي على:

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ١١ـ٩٤٢٤ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X
90000>
9782745134233

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الباب الرابع

أولًا: قصص العقلاء والأذكياء

ثانيًا: قصص الحمقى والمغفلين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أولًا: قصص العقلاء والأذكياء

قال في المستطرف[1]:

نصّ الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه العزيز ومُنزّل خطابه الوجيز على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبيّن بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: الآية ١٢]. ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل، فأقبل ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال عزّ من قائل: «وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقًا أعزّ عليَّ منك. بك آخذ وبك أُعطي وبك أُحاسب وبك أُعاقب». وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضيء خلقه الله عزّ وجلّ في الدماغ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما. فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء. وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلًا وأتمّ دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهمًا وأرجح معرفة، ولهذا قيل: مَن بيّضت الحوادث سواد لمّته، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأقضيته. كان جديرًا برزانة العقل ورجاحة الدراية، وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفيّة مَن يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرّجه عن حدّ

---

(١) المستطرف ص ١٩.

الاكتساب ويصير بها راجحًا على ذوي التجارب والآداب، ويدل على ذلك قصة يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في مُحكَم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: الآية ١٢]. فمَن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة، وأدركته عناية أزلية، أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث.

قصة سليمان بن داود وصاحبي الحرث والغنم

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث[1]. فقال أحدهما: أن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئًا، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضًا عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك. فقال: غير هذا أرفق بالفريقين. فعادا إلى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث. ـ وكان الحرث كرمًا قد تدلّت عناقيده في قول أكثر المفسرين ـ فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته، فقال له داود: القضاء كما قلت. وحكم به كما قال سليمان عليه السلام.

وفي هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[2] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٨، ٧٩]. فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانيه وألطاف إلٰهية، وإذا

(١) الحرث: الزرع.
(٢) نفشت: أفسدت.

قذف الله تعالى شيئًا من أنوار مواهبه في قلب مَن يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوي التجارب والاكتساب في كثير من الأسباب، ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام، فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عارًا ويورثه سوء السمعة.

وقد قيل لبعض الحكماء: بِمَ يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائبًا، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها. وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه. فإنه رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَن حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن مَن رزق المداراة لم يحرم التوفيق. وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه. وقال رسول الله ﷺ: «الجنّة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس» وقال علي بن عبيدة، العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله. وقيل: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شيء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج. واختلف الحكماء في ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعًا وغريزة في القلب كالنور في العين. وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦]. وقيل: محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما رُوِيَ عن الشافعي رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾

[قَ: الآية ٣٧]. أي عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة. قال الشاعر:

ألـم تـرَ أنَّ الـعـقـلَ زيـنٌ لأهـله ولكنْ تمامُ العقلِ طولَ التجاربِ

وقال آخر:

إذا طال عمرُ المرء في غير آفةٍ أفادت له الأيام في كرّها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عقلك[1] عقَلْك عما لا يعنيك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر:

إذا لـم يـكـن لـلمـرء عـقـلٌ فـإنّـه وإن كان ذا بيتٍ على الناس هيّن
ومَن كان ذا عقلٍ أجلّ لعقله وأفـضـل عـقـلٍ مـن يـتـديـنِ

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره[2] أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح. وقيل لعليّ رضي الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت. يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عني ثنْتَين. لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير. وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير. وقال القاسم بن محمد: مَن لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه. وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه. وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: مَن أعجب برأي نفسه بطل رأيه، ومَن ترك الاستماع من ذوي

(١) عقلك: منعك، والعقال: ما يعقل به ويربط.
(٢) تبطره: من البطر، وهو التكبّر عند حلول النعمة.

العقول مات عقله. وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغارًا، وأرحمهم كبارًا. وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق. وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعامًا حتى يستمرئه، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه، وقيل: طول اللحية أمان من العقل. وسئل بعضهم: أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الخبن. وقيل: غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عويمر ازدد عقلًا تزدد من الله تعالى قربًا» بأبي وأمي ومن لي بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلًا، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزد في الدنيا عقلًا، وتزدد من الله قربًا وعزًا». وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إنّ المكارم إخلاقٌ مطهرةٌ ... فالعقل أوّلُها والدينُ ثانيها
والعلمُ ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعُرْفُ[1] ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم أني من عينيّ محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ... ولست أرشدُ إلّا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد. والجاهل من جهله في إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم. ولا يكتفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته[2] ونظافة بزته، إذ كم من كنيف[3] مبيض، وجلد مفضّض.

---

(١) العرف: سلوك مستقيم تعارف عليه الناس في تقاليدهم وعاداتهم. وهو أيضًا: الصبر والكرم والمعروف.

(٢) صلفته: من الصلف وهو الادعاء والتكبّر. (٣) الكنيف: المرحاض.

قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخًا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلّة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غرارة خرجه ودخله. وقد يكون الرجل موسومًا بالعقل مرموقًا بعين الفضل، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلّة عقله واختلاله.

قصة إياس بن معاوية القاضي

قيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها مَن لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلًا أراد أن يحج، فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسًا فيه جملة من الذهب، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقصّ عليه القصة، فقال القاضي: هل أخبرت بذلك أحدًا غيري؟ قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلي؟ قال: لا. قال: انصرف واكتم أمرك، ثم عد إلي بعد غد. فانصرف. ثم إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال: قد حصل عندي أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيىء لها موضعًا حصينًا. فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضي إياس: امضِ إلى خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له: امضِ معي إلى القاضي إياس أتحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك. ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعًا في تسليم المال، فسبّه القاضي وطرده. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

من عقلاء الروم

لما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها. فقال: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكننا الغرة[1] منهم والوثبة عليهم، وعقدوا لذلك

---

(١) الغرة: الفرصة والغفلة.

المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر. وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائبًا عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صوابًا. فسألوه عن عِلّة ذلك فقال: في غد أخبركم إن شاء الله تعالى. فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعًا وطاعة. وأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما، ثم حرض بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر، فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئبًا كان قد أعده لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعًا على الذئب فقتلاه. فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج[1] بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه.

فطنة وذكاء رسول الله ﷺ[2]

عن عليّ عليه السلام قال: لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندها رجلين رجلًا من قريب ومولى لعقبة بن أبي معيط. فأما القرشي فأفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبيّ ﷺ فقال له: كم القوم؟ فقال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجهد النبيّ ﷺ أن يخبره كم هم فأبى، ثم أن النبيّ ﷺ سأله: كم ينحرون من الجزر؟ فقال: عشرًا لكل يوم، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ألف كل جزور لمائة وتبعها».

وعن كعب بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزاة يغزوها إلا ورّي بغيرها» أخرجاه في الصحيحين.

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إن الله عزّ وجلّ يعرض بالخمر سينزل فيها أمرًا فَمَن كان عنده منها شيء فليبعه فلينتفع به» قال: فما لبثنا إلا يسيرًا حتى قال ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ حرّم الخمر

(١) الهرج: الفتنة والاختلاط والقتل.
(٢) كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٢٨.

فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء، فلا يشربه ولا يبيع فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها» انفرد بإخراجه مسلم.

وعن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليأخذ بأنفه ثم لينصرف».

وأبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله! إن لي جار يؤذيني فقال: «انطلق واخرج متاعك إلى الطريق» فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس عليه، فقالوا: ما شأنك؟» قال: لي جار يؤذيني، فذكرت ذلك للنبي ﷺ: فقال: انطلق واخرج متاعك إلى الطريق، فجعلوا يقولون: اللهم العنه، اللهم اخزه، فبلغه فأتاه، فقال: ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك.

وعن زيد بن أسلم، أن رجلًا قال لحذيفة: يا حذيفة: نشكو إلى الله صحبتكم رسول الله أدركتموه ولم ندركه، ورأيتموه ولم نره، فقال حذيفة: ونحو نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه، والله ما تدري يا ابن أخي لو أدركته كيف كنت تكون. لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مظلمة مطيرة، وقد نزل أبو سفيان وأصحابه بالعرصة، فقال رسول الله ﷺ: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم أدخله الله الجنة» فما قام منا أحد، ثم قال: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة» فوالله ما قام منا أحد. فقال: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيقي يوم القيامة». فوالله ما قام أحد منا. فقال أبو بكر: يا رسول الله! ابعث حذيفة. فقال رسول الله ﷺ: «يا حذيفة» فقلت: لبيك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال: «هل أنت ذاهب» فقلت: والله ما بي أن أقتل، ولكنني أخشى أن أؤسر. فقال: «إنك لن تؤسر» فقلت: مرني يا رسول الله بما شئت. فقال: «اذهب حتى تدخل بين ظهراني القوم فأت قريشًا فقل: يا معشر قريش إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين قريش، أين قادة الناس، أين رؤوس الناس، فيقدمونكم، فتصلون القتال فيكون القتل بكم، ثم ائت قيسًا فقل: يا معشر قيس! إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين أحلاس الخيل، أين الفرسان، فيقدمونكم فتصلون القتال فيكون القتل بكم».

فانطلقت حتى دخلت بين ظهراني القوم، فجعلت اصطلي معهم على نيرانهم، وجعلت أبث ذلك الحديث الذي أمرني به، حتى إذا كان وجاء السحر

قام أبو سفيان فدعا اللات والعزى وأشرك، ثم قال: لينظر كل رجل من جليسه ومعي رجل منهم يصطلي على النار، فوثبت عليه فأخذت بيده مخافة أن يأخذني، فقلت: مَن أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان. فقلت: أولى، فلما دنا الصبح نادوا: أين قريش أين رؤوس الناس؟ فقالوا: هات الذي أتيتنا به البارحة أين بنو كنانة أين الرماة فقالوا: هات الذي أتيتنا به البارحة، فتخاذلوا وبعث الله عليهم تلك الليلة الريح، فما تركت لهم بناء إلا هدمته ولا إناء إلا أكفأته، حتى لقد رأيت أبا سفيان وثب على جمل له معقول، فجعل يسحبه ولا يستطيع أن يقوم، فجئت رسول الله ﷺ، فجعلت أخبره عن أبي سفيان، فجعل يضحك حتى بدت نواجذه وجعلت أنظر إلى أنيابه.

وعن عاصم الأحول، عن الحسن أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ برجل قد قتل حميمًا له، فقال له النبيّ ﷺ: «أتأخذ الديّة؟» قال: لا. قال: «أفتعفو؟». قال: لا. قال: «اذهب فاقتله». فلما جاوزه الرجل قال رسول الله ﷺ: «إن قتله فهو مثله». قال: فلحق الرجل رجل فقال له: إن رسول الله ﷺ قال: كذا، فتركه وهو يجز نسعه في عنقه.

قال ابن قتيبة لم يرد رسول الله ﷺ أنه مثله في المأثم واستيجاب النار إن قتله. وكيف يريد هذا وقد أباح الله عزّ وجلّ قتله بالقصاص، ولكن كره رسول الله ﷺ أن يقتص واجب له العفو، فعرض تعريضًا أوهمه به أنه إن قتله كان مثله في الإثم ليعفو عنه، وكان مراده أنه يقتل نفسًا كما قتل الأول نفسًا، فهذا قاتل وهذا قاتل، فقد استويا في قاتل وقاتل. إلّا أن الأول ظالم والآخر مقتص.

فطنة وذكاء إبراهيم عليه السلام[١]

عن ابن عباس قال: لما رأت سارة إبراهيم قد شغف بأم إسماعيل غارت غيرة شديدة، وحلفت لتقطعن عضوًا من أعضاء هاجر، فبلغ ذلك هاجر، فلبست درعًا وجرت ذيلها، فهي أول نساء العالمين جرت الذيل، وإنما فعلت ذلك لتعفي أثرها في الطريق على سارة، فقال إبراهيم: هل لك في خير أن تعفي عنها وترضي بقضاء الله عزّ وجلّ؟ قالت: وكيف لي بما قد حلفت؟ قال: خفضيها[٢]، فتكون

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) الخفض للأناث كالختان للذكور.

سنَّة النساء وتبر يمينك. قالت: أفعل. فخفضتها فمضت السنَّة للنساء بالخفض منها.

وعن سعيد بن جبير قال، قال ابن عباس: لما شبّ إسماعيل تزوج امرأة من جرهم، فجاء إبراهيم فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم، فقالت: نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه، فقال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يُغَيِّر عتبة بابه، فلما جاء فأخبرته. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك إلحقي بأهلك.

فطنة وذكاء سليمان عليه السلام(١)

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على أحدهما، فأخذتا يختصمان في الصبي الباقي فاختصمتا إلى داود عليه الصلاة والسلام، فقضى به للكبرى منهما، فمرّتا على سليمان عليه السلام، فقال: ما أمركما؟ فقصّتا عليه القصة. فقال: ائتوني بالسكين أشق الغلام بينكما، فقالت الصغرى: أتشقه؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل حظي منه لها، فقال: هو ابنك، فقضى به لها» أخرجاه في الصحيحين.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: بعث سليمان عليه السلام إلى مارد من مردة الجن فأتي به، فلما كان على باب سليمان أخذ عودًا فذرعه بذراعه ورمى به وراء الحائط، فوقع بين يدي سليمان، فقال: ما هذا؟ فأخبر بما صنع المارد، قال: أتدرون ما أراد؟ قالوا: لا، قال: يقول اصنع ما شئت، فإنك تصير إلى مثل هذا من الأرض.

وعن مكحول قال أبو هريرة: بينا سليمان بن داود عليه السلام يسعى في موكبه إذ مرّ بامرأة تصيح بابنها يالدين، فوقف سليمان وقال : أن دين الله ظاهر، فأرسل إلى المرأة، فسألها، فقالت: إن زوجها سافر وله شريك، فزعم شريكه أنه مات وأوصى إن ولدت غلامًا أن أسميه يالادين، فأرسل إلى الشريك فاعترف أنه قتله، فقتله سليمان عليه السلام.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: جاء رجل إلى سليمان النبيّ ﷺ فقال: يا نبيّ الله! إن لي جيرانًا يسرقون إوزي، فنادى: الصلاة جامعة، ثم خطبهم فقال في

(١) كتاب الأذكياء ص ٣٤.

خطبته: واحدكم يسرق إوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه فمسح رجل برأسه فقال سليمان: خذوه فإنه صاحبكم.

ومن المنقول عن عيسى عليه السلام: أن إبليس جاء إليه، فقال له: ألست تزعم أنه لا يصيبك إلا ما كتب الله لك؟ قال: بلى، قال: فارم بنفسك من هذا الجبل، فإنه إن قُدِّر لك السلامة تسلم، فقال له: يا ملعون إن لله عزّ وجلّ أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربّه عزّ وجلّ.

لقمان الحكيم وشرب النهر(١)

عن مكحول أن لقمان الحكيم كان عبدًا نوبيًا أسود، وكان قد أعطاه الله تعالى الحكمة، وكان لرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالًا ونش. يعني نصف مثقال، وكان يعمل له، وكان مولاه يلعب بالنرد يقامر عليه، وكان على بابه نهر جار، فلعب يومًا بالنرد على أن من قمر صاحبه شرب الماء الذي في النهر كله أو افتدى منه، وإن هو قمر صاحبه فعل به مثل ذلك قال: فقُمِر سيد لقمان، فقال له القامر: اشرب ما في النهر وإلا فافتد منه، قال: فسلني الفداء. قال: عينيك افقؤهما أو جميع ما تملك، قال: امهلني يومي هذا، قال: لك ذلك، قال: فأمسى كئيبًا حزينًا إذ جاءه لقمان وقد حمل حزمة على ظهره، فسلّم على سيده ثم وضع ما معه ورجع إلى سيده، وكان سيده إذا رآه عبث به ويسمع منه الكلمة الحكيمة فيعجب منه، فلما جلس إليه قال لسيده: ما لي أراك كئيبًا حزينًا فأعرض عنه، فقال له: الثانية مثل ذلك فأعرض عنه، ثم قال له: الثالثة مثل ذلك فأعرض عنه، فقال له: أخبرني فلعل لك عندي فرجًا فقصّ عليه القصة، فقال له لقمان: لا تغتم فإن لك عندي فرجًا، قال: وما هو؟ قال: إذا أتاك الرجل فقال لك: اشرب ما في النهر، فقل له: أشرب ما بين ضفتي النهر أو المد، فإنه سيقول لك: اشرب ما بين الضفتين، فإذا قال لك ذلك، فقل له: احبس عني المد حتى أشرب ما بين الضفتين، فإنه لا يستطيع أن يحبس عنك المد، وتكون قد خرجت مما ضمنت له، فعرف سيده أنه قد صدق، فطابت نفسه، فلما أصبح جاءه الرجل، فقال له: فِ لي بشرطي، قال له: نعم أشرب ما بين الضفتين أو المد، قال: لا بل ما بين الضفتين، قال: فاحبس عني المد، قال: كيف أستطيع؟ قال: فخصمه، قال: فأعتقه مولاه.

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٦.

وقال لقمان لابنه يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

عبد الله بن عامر الأزدي وسيل العرم(١)

ومن ذلك ما نقل عن عبد الله بن عامر الأزدي في الاحتيال للسلامة من سيل العرم: حدّثنا الضحاك، عن ابن عباس: لقد كان لسبأ في مساكنهم آية، قال: كانت لا تنقطع عنهم جنتهم شتاء ولا صيفًا، فكفروا ما أنعم الله عليهم، فأرسل عليهم سيل العرم فسلّط على الردم الذي بنوه على غير شربهم جرذًا له مخاليب وأنياب من حديد، فأول مَن علم بذلك عبد الله بن عامر الأزدي، فانطلق نحو الردم، فرأى الجرذ يحفر بمخاليب من حديد ويقرض بأنياب من حديد، فانصرف إلى أهله فأخبر امرأته وأراها ذلك وأرسل إلى بنيه، فقال: هل ترون ما رأينا؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا الأمر ليس لنا إليه سبيل اضمحلت الحيل فيه، لأن الأمر لله وقد أذن في هلاكه، فأتى بهرة والجرذ يحفر ولا يكترث بالهرة، فلما رأت الهرة ذلك ولّت هاربة، فقال عبد الله: احتالوا لأنفسكم. قالوا: يا أبت كيف نحتال؟ قال: إني محتال لكم بحيلة قال: فدعا أصغر بنيه ثم قال له: إذا جلست اليوم في المجلس، وكان الناس يجتمعون إليه وينتهون إلى رأيه، فإذا اجتمعوا أمرت أصغركم بأمر فليغفل عنه، فإذا شتمته فليهم إليَّ فليلطمني ولا تتغيروا أنتم عليه، فإذا رأى الجلساء أنكم لم تتغيروا على أخيكم لم يجسر أحد منهم أن يتغير عليه، أحلف أنا عند ذلك يمينًا لا كفارة لها أن لا أقيم بين أظهر قوم قام إليَّ أصغر بني فلطمني، فلم يتغيروا عليه لذلك قالوا: نفعل.

فلما راح الناس إليه أمر ابنه ببعض أمره فلهى عنه، ثم أمره فلهى عنه فشتمه، فقام إليه فلطم وجهه، فعجبوا من جرأة ابنه، فنكسوا رؤوسهم وظنوا أن وَلده يتغيرون عليه، فلما لم يتغير أحد منهم قام الشيخ، فحلف أن يتحول عنهم ويستبدلوا بداره، فلا يقيم بين أظهر قوم لم يتغيروا على ابنه، فقام القوم معتذرين وقالوا: أما كنا ظننا أن ولدك لا يتغيرون، فذلك الذي منعنا. قال: قد سبق مني ما ترون وليس إلى غير التحويل سبيل، فعرض ضياعه على

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٧.

البيع، وكان الناس يتنافسون فيها واحتمل بثقله وعياله فتحول عنهم، فلم يلبث القوم إلا قليلًا حتى أتى الجرذ على الردم فاستأصله، فلم يفاجىء القوم ليلة بعدما هدأت العيون إذا هم بالسيل قد أقبل، فاحتمل أنعامهم وأموالهم وخرب ديارهم.

فطنة وذكاء الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم(١)

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

عن أنس قال: لما هاجر رسول الله ﷺ كان رسول الله يركب، وأبو بكر رديفه. وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام، فكان يمر بالقوم فيقولون: مَن هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هاد يهديني.

حدّثنا الحسن قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من الغار لم يستقبلهما أحد يعرف أبا بكر إلَّا قال له: مَن هذا معك يا أبا بكر؟ فيقول: دليل يدلني الطريق. وصدق والله أبو بكر.

حدّثنا الحسن قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر الناس، فقال: «إنّ الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله عزّ وجلّ». قال: فبكى أبوبكر فعجبنا من بكائه أن خبر رسول الله ﷺ عن عبد خير فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن أسلم، عن أبيه قال: قدمت على عمر بن الخطاب حلل من اليمن فقسمها بين الناس، فرأى فيها حلة رديئة. فقال: كيف أصنع بهذه إذا أعطيتها أحد لم يقبلها إذا رأى هذا العيب فيها؟ قال: فأخذها فطواها فجعلها تحت مجلسه، وأخرج طرفها ووضع الحلل بين يديه، فجعل يقسم بين الناس. قال: فدخل الزبير بين العوام، وهو تلك الحال قال: فجعل ينظر إلى تلك الحلة فقال له: ما هذه الحلة؟ قال عمر: دع هذه عنك. قال: ما هيه ما هيه ما شأنها؟ قال: دعها عنك. قال: فأعطينيها. قال: إنك لا ترضاها. قال: بلى قد رضيتها. فلما توثق منه. واشترط عليه أن يقبلها، ولا يردها رمى بها إليه، فلما أخذها الزبير ونظر إليها إذا

(١) كتاب الأذكياء ص ٣١ ـ ٤١.

هي رديئة، فقال: لا أريدها. فقال عمر: أيهات قد فرغت منها، فأجازها عليه وأبى أن يقبلها منه.

وعن عمر قال له والناس يتحامون العراق وقتال الأعاجم: سر بقومك، فما قد غلبت عليه فلك ربعه، فلما جمعت الغنائم غنائم جلولاء ادعى جرير أن له ربع ذلك كله، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فكتب عمر صدق جرير قد قلت ذلك له، فإن شاء أن يكون قاتل هو وقومه على جعل فأعطوه جعله، وإن يكن إنما قاتل لله ولدينه ولحبيبه فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، فلما قدم الكتاب على سعد أخبر جرير بذلك، فقال جرير: صدق أمير المؤمنين لا حاجة لي به، بل أنا رجل من المسلمين.

وعن ابن عمر قال: بينما عمر رضي الله عنه جالس إذ رأى رجلًا، فقال: قد كنت مرة ذا فراسة وليس لي رأي إن لم يكن هذا الرجل ينظر ويقول في الكهانة شيئًا ادعوه لي، فدعوه فقال: هل كنت تنظر وتقول في الكهانة شيئًا؟ قال: نعم.

وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يعس المدينة بالليل، فرأى نارًا موقدة في خباء، فوقف وقال: يا أهل الضوء وكره أن يقول يا أهل النار. وهذا من غاية الذكاء.

قال لرجل عرس هل كان؟ فقال: لا أطال الله بقاك. فقال عمر: قد علمتم فلم تتعلموا. هلا قلت لا وأطال الله بقاك.

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

عن أبي البختري قال: جاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب، فأطراه وكان بغضه، فقال له: إني ليس كما تقول وأنا فوق ما في نفسك.

وعبد الله بن سلمة قال: سمعت عليًا يقول بمسكن: لا أغسل رأسي بغسل حتى آتي البصرة وأحرقها وأسوق الناس بعصاي إلى مصر قال: فأتيت أبا مسعود البدري، فأخبرته أن عليًا يورد الأمور مواردها لا يحسنون يصدرونها على رجل أصلع إنما رأسه مثل الطست، إنما حوله زغيبات أو قال: شعيرات.

وعن خنبش بن المعتمر أن رجلين أتيا امرأة من قريش، فاستودعاها مائة دينار وقالا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع، فلبثا حولًا، فجاء

أحدهما إليها، فقال إن صاحبي قد مات، فادفعي إليَّ الدنانير، فأبت وقالت: إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه، فلست بدافعتها إليك، فثقل عليها بأهلها وجيرانها فلم يزالوا بها حتى دفعتها إليه، ثم لبثت حولًا فجاء الآخر، فقال ادفعي إليَّ الدنانير، فقالت: إن صاحبك جاءني، فزعم أنك مت فدفعتها إليه، فاختصما إلى عمر بن الخطاب، فأراد أن يقضي عليها، فقالت: أنشدك الله أن تقضي بيننا ارفعنا إلى عليّ، فرفعهما إلى عليّ وعرف أنهما قد مكرا بها، فقال: أليس قد قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟ قال: بلى. قال: فإن مالك عندنا، فاذهب فجيء بصاحبك حتى ندفعها إليكما.

عن عليّ أنه جيء برجل حلف، فقال: امرأته طالق ثلاثًا إن لم يطأها في شهر رمضان نهارًا، فقال تسافر بها ثم لتجامعها نهارًا.

الحسن بن عليّ رضي الله عنه

عن أبي الوفاء بن عقيل قال: لما جيء بابن ملجم إلى الحسن قال له: أريد أن أسارك بكلمة، فأبى الحسن وقال: إنه يريد أن يعض أذني، فقال ابن ملجم: والله لو مكّنني منها لأخذتها من صماخه.

قال ابن عقيل: انظر إلى حسن رأي هذا السيد الذي قد نزل به من المصيبة الفادحة ما يذهل الخلق وتقصيه إلى هذا الحد، وانظر إلى ذلك اللعين كيف لم يشغله حاله عن استرداد غشه.

الحسين بن عليّ رضي الله عنه

عن إبراهيم بن رياح الموصلي قال: يروى أن رجلًا ادّعى على الحسين بن عليّ مالًا وقدمه إلى القاضي، فقال الحسين: ليحلف عليّ ما ادّعى ويأخذه، فقال الرجل: والله الذي لا إلـٰه إلّا هو فقال: قل والله والله والله إن هذا الذي تدعيه لك قبلي، ففعل الرجل وقام، فاختلفت رجلاه وسقط ميتًا. فقيل للحسين في ذلك، فقال: كرهت أن يمجد الله فيحلم عنه.

العباس رضي الله عنه

عن أبي رزين قال: سئل العباس أنت أكبر أم النبيّ ﷺ؟ فقال: هوأكبر مني وأنا ولدت قبله.

وعن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك العير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه: أنه لا يصلح لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله تعالى إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك.

وعن مجاهد قال: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ وجد ريحًا فقال: ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ، فاستحيا الرجل ثم قال: ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ، فإن الله لا يستحي من الحق، فقال العباس: ألا نقوم مرسلًا، ووصله عنه محمد بن مصعب القرساني، فقال عن مجاهد، عن ابن عباس. وقد جرى مثل هذه القضية عند عمر رضي الله عنه، عن الشعبي: أن عمر كان في بيت ومعه جرير بن عبد الله، فوجد عمر ريحًا فقال: عزمت على صاحب هذه الريح أن قام فتوضأ، فقال جرير: يا أمير المؤمنين أو يتوضأ القوم جميعًا. فقال عمر: رحمك الله نعم السيد كنت في الجاهلية، ونعم السيد أنت في الإسلام.

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

عن عكرمة مولى ابن عباس أن عبد الله بن رواحة كان مضطجعًا إلى جنب امرأة، فخرج إلى الحجرة فواقع جارية له فاستنبهت المرأة فلم تره فخرجت فإذا هو على بطن الجارية، فرجعت فأخذت شفرة، فلقيها ومعها الشفرة، فقال لها: مهيم؟ فقالت: مهيم. أما أني لو وجدتك حيث كنت لو جأتك بها. قال: وأين؟ قالت: على بطن الجارية. قال: ما كنت. قالت: بلى. قال: فإن رسول الله ﷺ نهى أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جُنُب، فقالت: إقرأ، فقال:

أتـانـا رسـولُ الله يـتـلو كـتـابَـهُ كما لاحَ منشورٌ مِنَ الصُّبح سَاطِعُ
أرانا الهدى بعد العَمَى فقلوبُنا بـه مُـوقِـنـاتٌ أنّ مـا قـال واقِـعُ
يبيتُ يجافي جَنْبه عن فراشِه إذا استُثقِلتْ بالكافرين المَضَاجِعُ

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري. قال: فغدوت إلى النبيّ ﷺ فأخبرته، فضحك حتى بدت نواجذه.

محمد بن مسلمة رضي الله عنه

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد أذى الله ورسوله»؟ فقال له محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله يا رسول الله؟ قال: «نعم».

قال: أنا له يا رسول الله. فائذن لي أن أقول قال: قل، فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد أخذنا بالصدقة، وقد عنانا وقد مللنا منه. قال الخبيث لما سمعها: والله لتملنه أو لتملن منه، وقد علمت أن أمركم سيصير إلى هذا. قال: إنا لا نستطيع أن نسلمه حتى ننظر ما يفعل، وإنا نكره بعد أن تبعناه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، وقد جئت لتسلفني تمرًا. قال: نعم على أن ترهنوني نساءكم قال محمد: أترهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فأولادكم. قال: فيعير الناس أولادنا بأنا رهناهم بوسق أو وسقين، وربما قال: فيسب ابن أحدنا، فيقال برهن وسق أو وسقين. قال: فأي شيء ترهنوني؟ قال: نرهنك اللامة يعني السلاح. قال: نعم، فواعده أن يأتيه، فرجع محمد إلى أصحابه فأقبل وأقبل معه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، وجاء معه برجلين آخرين، فقال: إني مستمكن من رمّته فإذا أدخلت يدي في رأسه فدونكم الرجل، فجاؤوه ليلًا فأمر أصحابه، فقاموا في ظل النخل، وأتاه محمد فناداه، فقالت امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ قال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة، فنزل إليه ملتحفًا في ثوب واحد وينفخ منه ريح الطيب، فقال محمد: ما أحسن جسدك وأطيب ريحك. قال: إن عندي ابنة فلان وهي أعطر العرب. قال: أفتأذن لي أن أشمه؟ قال: نعم. قال: فأدخل محمد يده في رأسه فشمه، ثم قال: أتأذن لي أن أشمه أصحابي؟ قال: نعم. فأدخلها في رأسه ثم شبك يده في رأسه قبضًا، ثم قال لأصحابه: دونكم عدو الله، فخرجوا عليه فقتلوه ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره.

وعن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ رجلًا من أصحابه إلى رجل من اليهود ليقتله، فقال: يا رسول الله إني لن أستطيع ذلك. إلّا أن تأذنَ لي. فقال رسول الله ﷺ: «إنما الحرب خدعة فاصنع ما تريد».

قال مؤلف الكتاب: قلت، وقد روينا عن الضحاك في اغتيالهم أبا رافع اليهودي ما يقارب هذه القصة، فلم نر التطويل بذكرها.

سويبط بن حرملة رضي الله عنه

عن وهب بن عبد الله بن زمعة قال: أخبرتنا أم سلمة قالت: خرج أبو بكر في تجارة إلى بصرى قبل موت رسول الله ﷺ بعام، ومعه نعيمان وسويبط بن

حرملة، وكانا قد شهدا بدرًا، وكان نعيمان على الزاد وكان سويبط رجلًا مزاحًا، فقال النعيمان: أطعمني. قال: حتى يجيء أبو بكر. قال: أما لأغيظنك. قال: فمروا بقوم فقال لهم سويبط: أتشترون مني عبدًا لي؟ قالوا: نعم. قال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم إني حر، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا عليَّ عبدي. قالوا: لا، بل نشتريه منك. قال: فاشتروه بعشر قلائص. قال: ثم أتوه فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلًا، فقال نعيمان: إن هذا يتسهزىء بكم إني حر ولست بعبد. فقالوا: أخبرنا بخبرك فانطلقوا به، فجاء أبو بكر فأخبر بذلك، فاتبع القوم فرد عليهم القلائص، وأخذ نعيمان، فلما قدموا على النبيّ ﷺ وأخبروه فضحك النبيّ ﷺ وأصحابه منه حولًا.

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

عن ربيعة بن ناجد قال: قيل لمعاوية بن أبي سفيان: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما وثقت بأحد قط.

وقال ثعلب: نظر معاوية يوم صفين إلى إحدى جنبتي عسكره وقد مالت فلمحها فاستوت، ثم نظر إلى الجنبة الأخرى وقد مالت فلمحها فاستوت، فقال له رجل من أصحابه: أهذا كنت دبرته من زمن عثمان؟ فقال: هذا والله كنت دبرته منذ زمن عمر رضي الله عنهم.

وجاء رجل إلى حاجب معاوية فقال له: قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك، ثم قال له: ما أعرف هذا، ثم قال: ائذن لي فدخل، فقال له: أي الأخوة أنت؟ فقال: ابن آدم وحواء. فقال يا غلام: اعطه درهمًا. فقال: تعطي أخاك لأبيك وأمك درهمًا. فقال: لو أعطيت كل أخ لي من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا.

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

عن كعب القرظي قال: قال فتى منا لحذيفة: رأيت رسول الله؟ قال: نعم. قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض. قال حذيفة: دعاني رسول الله ﷺ ونحن بالخندق قال: اذهب فاجلس في القوم، فانظر ماذا يفعلون، فذهبت فدخلت في القوم والريح تفعل في جنود الله عزّ وجلّ ما تفعل لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا ماء، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش! لينظر كل امرىء مَن

يجالس، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت له: مَن أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان.

المغيرة بن شعبة رضي الله عنه

عن أبي الخليل قال: أخبرنا عليّ قال: كان للمغيرة رمح، فكنا إذا خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خرج به معه، فيركزه فيمر الناس عليه فيحملونه، فقلت: لئن أتيت على النبيّ ﷺ لأخبرنه، فقال: إنك إن فعلت لم ترفع ضالة.

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين فكرهوه وأبغضوه. قال: فعزل عنهم. قال: فخافوا أن يرد عليهم، فقال دهقانهم: إن فعلتم ما آمركم لم يردّ علينا. قالوا: أمرنا بأمرك. قال: تجمعون مائة ألف درهم حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول إن المغيرة اختار هذا فدفعه إليَّ. قال: فجمعوا له مائة ألف درهم. قال: فأتى عمر فقال إن المغيرة اختار هذا ودفعه إليَّ. قال: فدعا عمر المغيرة فقال: ما يقول هذا؟ قال: كذب أصلحك الله إنما كانت مائتي ألف. قال: فما حملك على ذلك؟ قال: العيال والحاجة. قال فقال عمر للعلج: ما تقول؟ لا والله لأصدقنك أصلحك الله والله ما دفع إليَّ قليلًا ولا كثيرًا. قال فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا العلج؟ قال: الخبيث كذب عليَّ فأحببت أن أخزيه.

وعن مسلم بن صبيح الكوفي قال: سمعت أبي يقول: خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان الفتى طريرًا جميلًا، فأرسلت إليهما المرأة فقالت: إنكما خطبتماني ولست أجيب أحد منكما دون أن أراه وأسمع كلامه، فاحضرا إن شئتما، فحضرا فأجلستهما بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رآه المغيرة ونظر إلى جماله وشبابه وهيئته يئس منها، وعلم أنها لن تؤثره عليه، فأقبل على الفتى فقال له: لقد أوتيت جمالًا وحسنًا وبيانًا، فهل عندك سوى ذلك؟ قال: نعم. فعدد فحاسنه ثم سكت، فقال له المغير: كيف حسابك؟ قال: ما يسقط عليَّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردلة. فقال له المغيرة: لكنني أضع البدرة في زاوية البيت فينفقها أهلي على ما يريدون فما أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها، فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليَّ من هذا الذي يحصي عليّ مثل صغير الخردل، فتزوجت المغيرة.

عمرو بن العاص رضي الله عنه

قال ابن الكلبي: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل على غزة، فبعث إليها علجها أن أرسل إليّ رجلًا من أصحابك أكلمه، ففكر عمرو، فقال: ما لهذا العلج أحد غيري، فقام حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلامًا لم يسمع مثله قط، فقال له العلج: حدّثني هل من أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هواني عندهم إذ بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني، فلا يدرون ما تصنع بي. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فمرّ برجل من النصارى من غسان فعرفه، فقال يا عمرو: قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج، فرجع، فقال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية: فيكون معروفك عند عشرة خيرًا من أن يكون عند واحد. قال: صدقت. أعجل بهم وبعث إلى البواب خلّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبدًا. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج فقال له: أنت هو. قال: على ما كان من غدرك.

خزيمة بن ثابت رضي الله عنه

عن الزهرية قال: أخبرنا عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدّثه أن النبيّ ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي فاستتبعه النبيّ ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبيّ ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومون الفرس لا يشعرون أن النبيّ ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم للأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبيّ ﷺ، فنادى الأعرابي النبيّ ﷺ فقال: إن كانت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته. فقام النبيّ ﷺ فقال: «أليس قد ابتعته منك»؟ قال: لا. فطفق الناس يلوذون بالنبيّ ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان. فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد أني قد بايعتك، فمن جاء من المسلمين، قال للأعرابي: ويلك إن النبيّ ﷺ لا يقول إلا حقًا، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبيّ ﷺ ومراجعة الأعرابي. فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد إني قد بايعتك. فقال: خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبيّ ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبيّ ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

وفي رواية أخرى أن النبيّ ﷺ قال لخزيمة: «لم تشهد ولم تكن معنا؟» قال: يا رسول الله أنا أصدقك بخبر السماء، أفلا أصدقك بما تقول؟

الحجاج بن غلاط رضي الله عنه

عن معمر، عن ثابت البناني قال: حدّثنا أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالًا، وإن لي بها أهلًا، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئًا، فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم، وفشا ذلك بمكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون سرورًا وفرحًا قال: وبلغ الخبر العباس بن عبد المطلب، فعقر وجعل لا يستطيع أن يقوم. قال معمر: وأخبرني عثمان الجزري، عن مقسم قال: فأخذ ابنًا له كان يشبه برسول الله ﷺ، فقال له: قم واستلقي، فوضعه على صدره وجعل يقول: حبي قثم ذي الأنف الأشم، ثم أرسل غلامًا له إلى الحجاج بن علاط فقال له: ويلك مذ جئت به، وماذا تقول؟ ما وعد الله خير مما جئت به. قال: فقال الحجاج بن علاط: اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له: ليخل لي في بعض بيوته لأتيه فإن الخبر على ما يسره. قال: فجاء غلامه فلما بلغ الباب قال: أبشر يا أبا الفضل. قال: فوثب العباس فرحًا حتى قبل بين عينيه فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه.

قال ثم جاء الحجاج، فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى صفية بنت حيي واتخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها وتكون زوجه، أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجه، ولكني جئت لمالي كان هٰهنا أردت أن أجمعه فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت، فأخف عني ثلاثًا ثم اذكر ما بدا لك، قال: فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فدفعته إليه، ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أن قد ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يحزنك الله يا أبا الفضل لقد شق علينا الذي بلغك. قال: أجل. لا يحزنني الله، ولم يكن بحمد الله إلاما أحببنا، فتح الله خيبر على رسوله، وجرت سهام الله في أموالهم واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن

كان لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقًا، قال: فإني والله صادق والأمر على ما أخبرتك.

قال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل. قال: لم يصبني إلا خير بحمد الله لقد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر فتحها الله على رسوله، وجرت سهام الله فيهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه. وقد سألني أن أخفي عنه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء هٰهنا ثم يذهب. فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ممن كان دخل بيته مكتئبًا حتى دخل أبو الفضل العباس، فأخبرهم الخبر، فسرّ المسلمون ورد الله تعالى ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين.

نعيم بن مسعود رضي الله عنه

عن ابن إسحٰق قال: بينما الناس على خوفهم يوم الأحزاب أتى نعيم بن مسعود رسول الله ﷺ فحدّثني رجل عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: جاء نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي، مرني أمرك. فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت منا رجل واحد، فحدّث عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة». فانطلق نعيم حتى أتى بني قريظة فقال لهم: يا معشر قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، إني لكم نديم وصديق، قد عرفتم ذلك. قالوا: صدقت. قال: تعلمون والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، إن البلد لبلدكم به أموالكم ونساءكم وأبناءكم، وإن قريشًا وغطفان بلادهم غيرها، وإنما جاؤوا حتى نزلوا معكم، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل فلا طاقة لكم به، فإن هم فعلوا ذلك فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم تستوثقون به، ولا تبرحوا حتى تناجزوا محمد. فقالوا: لقد أشرت برأي ونصح، ثم ذهب إلى قريش فأتى أبا سفيان وأشراف قريش، فقال: يا معشر قريش، إنكم قد عرفتم وِدّي إياكم وفراقي محمد أو دينه، وإني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علي. فقالوا: نفعل، ما أنت عندنا بمتهم. فقال: تعلمون أن بني قريظة من يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، فبعثوا إليه: ألا يرضيك أن نأخذ لك من القوم رهنًا من أشرافهم،

فندفعهم إليك، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك حتى نخرجهم من بلادك؟ فقال: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرًا من رجالكم، فلا تعطوهم رجلًا واحدًا فاحذروا. ثم جاء غطفان، فقال: يا معشر غطفان، قد علمتم إني رجل منكم. قالوا: صدقت، فقال لهم كما قال لهذا الحي من قريش، فلما أصبحوا بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش: إن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر يهود إن الكراع والخف قد هلكا إنا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه، فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا من رجالكم نستوثق بهم، لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدًا. فقال أبو سفيان: قد والله حذرنا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان إنا لا نعطيكم رجلًا واحدًا، فإن شئتم أن تخرجوا فتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا، فقالت يهود: هذا والله الذي قال لنا نعيم. والله ما أراد القوم إلَّا أن يقاتلوا محمدًا فإن أصابوا فرصة انتهزوها وإلَّا مضوا إلى بلادهم وخلوا بيننا وبين الرجل، فبعثوا إليهم: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا، فأبوا، فبعث الله تعالى الريح على أبي سفيان وأصحابه وغطفان، فخذلهم الله عزّ وجلّ.

الأشعث بن قيس

عن الهيثم بن عدي قال: أخبرنا ابن عباس قال: خطب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب على الحسن ابنه أم عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني، فقال: فوقي أمير ذو أمرة يعني أمها. فقال: قم فوامرها، فخرج من عنده، ولقيه الأشعث بن قيس بالباب، فأخبره الخبر فقال: ما تريد إلى الحسن يفخر عليها ولا ينصفها ويسيء إليها، فيقول: ابن رسول الله وابن أمير المؤمنين، ولكن هل لك في ابن عمها فهي له وهو لها قال: ومَن ذلك؟ قال: محمد بن الأشعث. قال: قد زوجته، ودخل الأشعث على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، خطبت على الحسن ابنة سعيد؟ قال: نعم. قال: فهل لك في أشرف منها بيتًا وأكرم منها حسبًا وأتم منها جمالًا وأكثر مالًا. قال: ومَن هي؟ قال: جعدة بنت الأشعث بن قيس. قال: قد قاولنا رجلًا. قال: ليس إلى ذلك الذي قاولته سبيل. قال: إنه قد فارقني ليؤامر أمها. فقال: قد زوجها من محمد بن الأشعث. قال: متى؟ قال: الساعة بالباب. قال: فزوج الحسن جعدة، فلما لقي سعيد الأشعث قال: يا أعور، خدعتني. قال: أنت أعور خبيث حيث تستشيرني

في ابن رسول الله ﷺ. ألست أحمق؟ ثم جاء الأشعث إلى الحسن فقال: يا أبا محمد، ألا تزور أهلك؟ فلما أراد ذلك قال: لا تمشي والله إلا على أردية قومي، فقدمت له كندة سماطين وجعلت له أرديتها بسطًا من بابه إلى باب الأشعث.

وحشي بن حرب

عن سليمان بن يسار قال: حدّثنا جعفر بن عمرو الضمري قال: خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار فقال لي: هل لك في وحشي، فجئنا حتى وقفنا عليه، فسلّمنا فرد السلام، وعبيد الله معتجر بعمامته ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه، فقال عبيد الله: يا وحشي، أتعرفني؟ فنظر إليه ثم قال: لا والله إلَّا أني أعلم أن عدي بن الخيار تزوج امرأة فولدت له غلامًا فاسترضعه، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فكأني نظرت إلى قدميه.

فطنة كعب بن سور(١)

الشعبي قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: أشكو إليك خير أهل الدنيا إلا رجل سبقه بعمل أو عمل مثل عمله يقوم الليل حتى يصبح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم أخذها الحياء فقالت: أقلني يا أمير المؤمنين، فقال: جزاك الله خيرًا فقد أحسنت الثناء قد أقلتك. فلما ولّت قال كعب بن سور: يا أمير المؤمنين، لقد أبلغت إليك في الشكوى، فقال: ما اشتكت؟ قال: زوجها. قال: عليَّ بالمرأة وزوجها، فجيء بهما، فقال لكعب: اقضِ بينهما. قال: أأقضي وأنت شاهد؟ قال: إنك قد فطنت ما لم أفطن إليه. قال: فإن الله يقول: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: الآية ٣] صُم ثلاثة أيام وافطر عندها يومًا، وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة. فقال عمر: لهذا أعجب إليَّ من الأول، فرحّله بدابة وبعثه قاضيًا لأهل البصرة.

قضاء شريح(٢)

قيل: إن عدي بن أرطأة أتى شريحًا وهو في مجلس القضاء فقال لشريح: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: اسمع مني. قال: لهذا جلست مجلسي. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: الحبيب القريب. قال: وتزوجت امرأة من

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٤.
(٢) نفس المصدر ص ٦٥.

قومي، قال: بارك الله لك بالرفاه والبنين. قال: وشرطت لأهلها أن لا أخرجها. قال: الشرط أملك. قال: وأريد الخروج. قال: في حفظ الله. قال: اقضِ بيننا. قال: قد فعلت.

فطنة إياس بن معاوية(١)

صالح بن أحمد العجلي قال: حدّثني أبي قال: دخل على إياس بن معاوية ثلاثة نسوة، فقال: أما واحدة فمرضع، والأخرى بكر، والثالثة ثيب، فقيل له: بمَ علمت؟ قال: أما المرضع فإنها لما قعدت أمسكت ثديها بيدها، وأما البكر فلما دخلت لم تلتفت إلى أحد، وأما الثيب فلما دخلت رمقت بعينها يمينًا وشمالًا.

ذكاء قاضي واسط(٢)

يزيد بن هارون قال: تقلد القضاء في واسط رجل ثقة كثير الحديث، فجاء رجل فاستودع بعض الشهود كيسًا مختومًا ذكر أن فيه ألف دينار، فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة الرجل قدَّر أنه قد هلك، فهمَّ بإنفاق المال، ثم دبر وفتق الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم، وأعاد الخياطة كما كانت. وقدّر أن الرجل وافى وطلب الشاهد بوديعته، فأعطاه الكيس بختمه، فلما حصل في منزله فضّ ختمه فصادف في الكيس دراهم، فرجع إلى الشاهد، فقال له: عافاك الله، أردد عليَّ مالي فإني استودعتك دنانير والذي وجدت دراهم مكانها، فأنكره ذلك واستعدى عليه القاضي المقدم ذكره، فأمر بإحضار الشاهد مع خصمه، فلما حضرا سأل الحاكم: منذ كم أودعته هذا الكيس؟ قال: منذ خمس عشرة سنة، فأخذ القاضي الدراهم وقرأ سككها، فإذا هي دراهم إليها ما قد ضرب منذ سنتين وثلاث ونحوها، فأمره أن يدفع الدنانير إليه، فدفعها إليه وأسقطه وقال له: يا خائن. ونادى مناديه: ألا إن فلان ابن فلان القاضي قد أسقط فلان ابن فلان الشاهد، فاعلموا ذلك ولا يغترن به أحد بعد اليوم، فباع الشاهد أملاكه في واسط وخرج عنها هاربًا، فلم يعلم له خبر ولا أحسن منه أثر.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٥.
(٢) نفس المصدر ص ٦٦.

إياس بن معاوية وجاحد الوديعة(١)

أبو محمد القرشي قال: استودع رجل رجلًا مالًا، ثم طلبه فجحده فخاصمه إلى إيّاس بن معاوية، فقال الطالب: إني دفعت المال إليه قال: ومَن حضر؟ قال: دفعته في مكان كذا وكذا ولم يحضرنا أحد. قال: فأي شيء في ذلك الموضع؟ قال: شجرة. قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة، فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يتبين به حقك، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت، فتتذكر إذا رأيت الشجرة، فمضى الرجل، قال إياس للمطلوب: إجلس حتى يرجع خصمك، فجلس وإياس يقضي وينظر إليه ساعة ثم قال له: يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكر؟ قال: لا. قال: يا عدو الله إنك لخائن. قال: أقلني أقالك الله، فأمر مَن يحتفظ به حتى جاء الرجل، فقال له إياس: قد أقر لك بحقك فخذه.

حفص بن غياث وإنفاذ الحكم(١)

ابن الليث قال: باع رجل من أهل خراسان جِمَالًا بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر، فمطله بثمنها وحبسه، فطال ذلك على الرجل، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوروه، فقال: اذهب إليه فقل له: أعطني ألف درهم، وأحيل عليك بالمال الباقي، واخرج إلى خراسان، فإذا فعل هذا فأْتني حتى أشاور عليك، ففعل الرجل، فأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم، فرجع إلى الرجل فأخبره فقال: عد إليه فقل له إذا ركبت غدًا فطريقك على القاضي، فأحضر وأوكل رجلًا بقبض المال وأخرج، فإذا جلس إلى القاضي فادع عليه بما بقي لك من المال، ففعل ذلك، فحبسه القاضي فأخرجته أم جعفر وقالت لهارون: قاضيك حبس وكيلي، فمره لا ينظر في الحكم، فأمر لها بالكتاب، وبلغ حفصًا الخبر فقال للرجل: أحضر لي شهودًا حتى أسجل لك على المجوسي قبل ورود كتاب أمير المؤمنين، فحضر، فقال للرجل: مكانك. فلما فرغ من السجل أخذ الكتاب، فقرأه وقال للخادم: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وأخبره أن كتابه ورد، وقد أنفذت الحكم.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٧.

ابن أبي داود والأفشين(١)

قال أبو بكر الصولي: حدّثنا أبو العيناء قال: كان الأفشين يحسد أبا دلف ويبغضه للفروسية والشجاعة، فاحتال عليه حتى شهد عليه عنده بخيانة وقتل، فأحضر السيَّاف، فبلغ ابن أبي داود، فركب مع مَن حضر من عدوله، فدخل على الأفشين، ثم قال: إني رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرك أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثًا حتى تحمله إليه مسلَّمًا، ثم التفت إلى العدول فقال: اشهدوا إني قد أدّيت الرسالة عن أمير المؤمنين إليه، فلم يقدم الأفشين عليه وسار ابن أبي داود إلى المعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أدّيت عنك رسالة لم تقلها لي ما اعتد بعمل خير خير منها، وإني لأرجو لك الجنة بها، ثم أخبره الخبر، فصوّب رأيه ووجّه مَن أحضر القاسم، فأطلقه ووهب له، وعنّف الأفشين فيما عزم عليه.

الأعمش وأبو حصين(٢)

حدّثنا أبو بكر بن عياش قال: كان الأعمش إذا صلى الفجر جاءه القراء، فقرؤا عليه، وكان أبو حصين إمامهم. فقال الأعمش يومًا: إن أبا حصين يتعلم القراءة منا لا يقوم من مجلسه كل يوم، حتى يفرغ ويتعلم بغير شكر، ثم قال لرجل ممن يقرأ عليه: إن أبا حصين يكثر أن يقرأ بالصافات في صلاة الفجر، فإذا كان غدًا فاقرأ على الصافات واهمز الحوت، فلما كان من الغد قرأ عليه الرجل الصافات وهمز الحوت، ولم يأخذ عليه الأعمش، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة قرأ أبو حصين بالصافات في الفجر، فلما بلغ الحوت همز، فلما فرغوا من صلاتهم ورجع الأعمش إلى مجلسه دخل عليه بعض إخوانه، فقال له الأعمش: يا أبا فلان لو صلّيت معنا الفجر لعلمت ما لقي الحوت من هذا المحراب، فعلم أبو الحصين ما الذي فعل به، فأمر بالأعمش فسحب حتى أخرج من المسجد قال: وكان أبو حصين عظيم القدر في قومه من بني أسد.

أبو حنيفة واللصوص(٢)

محمد بن الحسن قال: دخل اللصوص على رجل، فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثًا أن لا يعلم أحدًا قال: فأصبح الرجل وهو لا يرى اللصوص يبيعون

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٩.

(٢) نفس المصدر ص ٧٢.

متاعه وليس يقدر أن يتكلم من أجل يمينه، فجاء الرجل يشاور أبا حنيفة، فقال له أبو حنيفة: أحضرني إمام حيك والمؤذن والمستورين منهم، فأحضره إياهم فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد الله على هذا متاعه؟ قالوا: نعم. قال: فاجمعوا كل ذي فجر عندكم وكل منهم فادخلوهم في دار أو في مسجد، ثم أخرجوا واحدًا واحدًا، فقولوا: هذا لصك، فإن كان ليس بلصه، وإن كان لصه فليسكت، فإذا سكت فاقبضوا عليه، ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة، فرد الله عليه جميع ما سرق منه.

أبو حنيفة ورجل من الطالبيين(١)

حسين الأشقر قال: كان بالكوفة رجل من الطالبيين من خيارهم، فمرّ بأبي حنيفة، فقال له: أين تريد؟ قال: أريد ابن أبي ليلى قال: فإذا رجعت أحب أن أراك، وكانوا يتبركون بدعائه، فمضى إلى ابن أبي ليلى ثلاثة أيام، وإذ رجع مرّ بأبي حنيفة، فدعاه وسلّم عليه فقال له أبو حنيفة: ما جاء بك ثلاثة أيام إلى ابن أبي ليلى، فقال شيء كتمته الناس، فأملت أن يكون لي عنده فرج. فقال أبو حنيفة: قل ما ماهو. قال: إني رجل موسر وليس لي من الدنيا إلا ابن كلما زوجته امرأة طلقها، وإن اشتريت له جارية أعتقها قال: فما لي ما عندي في هذا شيء، فقال أبو حنيفة: اقعد عندي حتى أخرجك من ذلك، فقرب إليه ما حضر عنده فتغدّى عنده، ثم قال له: ادخل أنت وابنك إلى السوق فأي جارية أعجبته ونالت يدك ثمنها، فاشترها لنفسك لا تشترها له، ثم زوجها منه، فإن طلقها رجعت إليك، وإن أعتقها لم يجز عتقه، وإن ولدت ثبت نسبه إليك قال: وهذا جائز؟ قال: نعم هو كما قلت، فمر الرجل إلى ابن أبي ليلى فأخبره فقال: هو كما قال لك.

شربة ماء بخمسة دراهم(٢)

يحيىٰ بن جعفر قال: سمعت أبا حنيفة يقول: احتجت إلى ماء بالبادية، فجاءني أعرابي ومعه قربة من ماء، فأبى أن يبيعنيها إلا بخمسة دراهم، فدفعت إليه خمسة دراهم وقبضت القربة، ثم قلت: يا أعرابي، ما رأيك في السويق؟ فقال:

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٣.
(٢) نفس المصدر ص ٧٤.

هات. فأعطيته سويقًا ملتوتًا بالزيت، فجعل يأكل حتى امتلأ، ثم عطش، فقال: شربة. قلت: بخمسة دراهم، فلم أنقصه من خمسة دراهم على قدح من ماء، فاستردت الخمسة وبقي معي الماء.

أبو حنيفة وطالب القضاء(١)

عبد المحسن بن علي قال: ذكر أبو حنيفة وفطنته، فقال: استودع رجل من الحجاج رجلًا بالكوفة وديعة، فحج ثم رجع، فطلب وديعته، فأنكر المستودع وجعل يحلف له، فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة يشاوره، فقال: لا تعلم أحدًا بجحوده. قال: وكان المستودع يجالس أبا حنيفة، فخلا به وقال له: إن هؤلاء قد بعثوا يستشيروني في رجل يصلح للقضاء، فهل تنشط؟ فتمانع الرجل قليلًا، وأقبل أبو حنيفة يرغبه فانصرف على ذلك وهو طمع، ثم جاء صاحب الوديعة، فقال له أبو حنيفة: اذهب إليه وقل له: أحسبك نسيتني أودعتك في وقت كذا والعلامة كذا. قال: فذهب الرجل فقال له، فدفع إليه الوديعة، فلما رجع المستودع قال أبو حنيفة: إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أجل من هذا.

المهر الغالي(١)

قال ابن الوليد: كان في جوار أبي حنيفة فتى يعتني مجلس أبي حنيفة ويكثر الجلوس عنده، فقال يومًا لأبي حنيفة: إني أريد التزويج إلى فلان من أهل الكوفة، وقد خطبت إليهم، وقد طلبوا مني من المهر فوق وسعي وطاقتي، وقد تعلقت نفسي بالتزويج، فقال أبو حنيفة: فاستخر الله تعالى وأعطهم ما يطلبونه منك فأجابهم إلى ما طلبوه فلما عقدوا النكاح بينهم وبينه جاء إلى أبي حنيفة، فقال له: إني قد سألتهم أن يأخذوا مني البعض وليس في وسعي الكل، وقد أبوا أن يحملوها إلا بعد وفاء الدين كله، فماذا ترى؟ قال: احتل وافترض حتى تدخل بأهلك، فإن الأمر يكون أسهل عليك من تشدد هؤلاء القوم، ففعل ذلك وأقرضه أبو حنيفة فيمن أقرضه، فلما دخل بأهله وحملت إليه قال أبو حنيفة: ما عليك أن تظهر أنك تريد الخروج عن هذا البلد إلى موضع بعيد، وإنك تريد أن تسافر

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٤.

بأهلك معك، فاكترى الرجل جملين وجاء بهما وأظهر أنه يريد الخروج إلى خراسان في طلب المعاش، وأنه يريد حمل أهله معه، فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤوا إلى أبي حنيفة ليسألوه ويستعينوه في ذلك، فقال لهم أبو حنبيفة: له أن يخرجها إلى حيث شاء. قالوا له: ما يمكننا أن ندعها تخرج. فقال لهم أبو حنيفة: فارضوه بأن تردوا عليه ما أخذتموه منه، فأجابوه إلى ذلك. فقال أبو حنيفة للفتى: إن القوم قد سمحوا أن يردوا عليك ما أخذوه منك من المهر ويبرؤك منه، فقال له الفتى: وأنا أريد منهم شيئًا آخر فوق ذلك، فقال أبو حنيفة: أيما أحب إليك أن ترضى بهذا الذي بذلوه لك، وإلا أقرّت المرأة لرجل بدين لا يمكنك أن تحملها ولا تسافر بها حتى تقضي ما عليها من الدين قال، فقال الرجل: الله الله لا يسمعوا بهذا، فلا آخذ منهم شيئًا، فأجاب إلى الجلوس وأخذ ما بذلوه من المهر.

قيمته عشرة آلاف درهم(١)

أحمد بن الدقاق قال: بلغني أن رجلًا من أصحاب أبي حنيفة أراد أن يتزوج، فقال أهل المرأة: نسأل عنه أبا حنيفة، فأوصاه أبو حنيفة، فقال: إذا دخلت عليّ فضع يدك على ذكرك، ففعل ذلك، فلما سألوه عنه قال: قد رأيت في يده ما قيمته عشرة آلاف درهم.

أبو يوسف والرشيد(٢)

عن عليّ بن المحسن التنوخي، عن أبيه قال: حدّثني أبي قال: كان عند الرشيد جارية من جواريه وبحضرته عقد جوهر، فأخذ يقلبه ففقده فاتهمها، فسألها عن ذلك، فأنكرت فحلف بالطلاق والعتاق والحج لتصدقنه، فأقامت على الإنكار وهو متهم لها، وخاف أن يكون قد حنث في يمينه، فاستدعى أبا يوسف وقصّ عليه القصة، فقال أبو يوسف: تخليني مع الجارية وخادم معنا حتى أخرج من يمينك، ففعل ذلك. فقال لها أبو يوسف: إذا سألك أمير المؤمنين عن العقد فانكريه، فإذا أعاد عليك السؤال فقولي قد أخذته، فإذا أعاد عليك الثالثة فانكري، وخرج. فقال للخادم: لا تقل لأمير المؤمنين ما جرى. وقال للرشيد: سلها يا أمير المؤمنين ثلاث دفعات متواليات عن العقد، فإنها تصدقك، فدخل الرشيد فسألها،

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٥.

(٢) نفس المصدر ص ٧٦.

فأنكرت أول مرة، وسألها الثانية، فقالت: نعم قد أخذته، فقال: أي شيء تقولين؟ فقالت: والله ما أخذته ولكن هكذا قال لي أبو يوسف، فخرج إليه فقال: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك أنها قد أخذته، وأخبرتك أنها لم تأخذه، فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين، وقد خرجت أنت من يمينك فسرَّ ووصل أبا يوسف، فلما كان بعد مدة وجد العقد.

الإمام الشافعي والرشيد(١)

عن الحسن بن الصياح قال: لما أن قدم الشافعي إلى بغداد، وأوفق عقد الرشيد للأمين والمأمون على العهد. قال: فبكر الناس ليهنوا الرشيد، فجلسوا في دار العامة ينتظرون الإذن، فجعل الناس يقولون: كيف ندعو لهما فإنا إذا فعلنا ذلك كان دعاء على الخليفة، وإن لم ندعو لهما كان تقصيرًا قال: فدخل الشافعي، فجلس فقيل له في ذلك، فقال: الله الموفق، فلما أذن دخل الناس، فكان أول متكلم الشافعي فقال:

لا قَصَرا عنها ولا بَلَغَتَهَا　　　حتّى يطولَ على يديْك طُولُهَا

أبو العيناء والمتوكل(٢)

عن محمد بن يحيىٰ قال: حدّثنا أبو العيناء قال: قال المتوكل قد أردتك لمجالستي، فقلت: لا أطيق ذلك ولا أقول هذا جهلًا بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكنني محجوب والمحجوب تختلف إشارته، ويخفى عليه الإيماء، ويجوز أن يتكلم بكلام غضبان، ووجهك راضٍ، وبكلام راضٍ ووجهك غضبان، ومتى لم أميّز هذين هلكت. قال: صدقت، ولكن تلزمنا. فقلت: لزوم الفرض الواجب، فوصلني بعشرة آلاف درهم.

قال: ورُوِيَ أن المتوكل قال: أشتهي أن أنادم أبا العيناء لولا أنه ضرير. فقال أبو العيناء: إن عفاني أمير المؤمنين من رؤية الهلال ونقش الخواتم، فإني أصلح.

وبلغنا عن أبي العيناء أنه شكا تأخر رزقه إلى عبد الله بن سليمان، فقال: ألم يكن كتبنا لك إلى فلان فما فعل في أمرك؟ قال: جرني على شوك المطل. قال:

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٧.
(٢) نفس المصدر ص ٨٠.

أنت اخترته. قال: وما عليَّ وقد اختار موسى قومه سبعين رجلًا فما كان فيهم رشيد فأخذتهم الرجفة، واختار رسول الله ﷺ ابن أبي سرح كاتبًا فلحق بالكفار مرتدًا، واختار علي أبا موسى، فحكم عليه.

شكا بعض الوزراء كثرة الأشغال، فقال أبو العيناء: لأراني الله يوم فراغك. وقيل لأبي العيناء: بقي مَن يلقي؟ قال: نعم في البئر، وسأل أبو العيناء عن حماد بن زيد بن درهم، وعن حماد بن سلمة بن دينار فقال: بينهما في القدر ما بين أبوابهما في الصرف.

ابن جرير الطبري والأيمان(١)

قال غلام لابن المزوق البغدادي: كان مولاي مكرمًا لي، فاشترى جارية وزوجنيها فأحببتها حبًا شديدًا، وأبغضتني بغضًا شديدًا عظيمًا، وكانت تنافرني دائمًا وأحتملها إلى أن أضجرتني يومًا، فقلت لها: أنتِ طالق ثلاثًا إن خاطبتيني بشيء إلّا خاطبتك بمثله، فقد أفسدك احتمالي لك، فقالت لي في الحال: أنت طالق ثلاثًا بتاتًا قال: فأبلست ولم أدرِ ما أجيبها به خوفًا أن أقول لها مثل ما قالت، فتصير بذلك طالقًا مني، فأرشدت إلى أبي جعفر الطبري، فأخبرته بما جرى، فقال: أقم معها بعد أن تقول لها أنت طالق ثلاثًا إن أنا طلقتك، فتكون قد خاطبتها به فوفيت بيمينك ولم تطلقها ولا تعاود الأيمان.

ذو النون والأمانة(٢)

حدّثنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: قيل لي: إن ذا النون يعرف اسم الله الأعظم، فدخلت مصر وخدمته سنة، ثم قلت: يا أستاذي إني قد خدمتك وقد وجب حقي عليك، وقيل لي: إنك تعرف اسم الله الأعظم، وقد عرفتني ولا تجد له موضعًا مثلي، فأحب أن تعلمني إياه قال: فسكت عني ذو النون ولم يجبني وكأنه أومأ إليَّ أنه يخبرني قال: فتركني بعد ذلك ستة أشهر، ثم أخرج لي من بيته طبقًا ومكبة مشدودًا في منديل، وكان ذو النون يسكن الجيزة، فقال: تعرف فلانًا صديقنا من الفسطاط؟ قلت: نعم. قال: فأحب أن تؤدي هذا إليه. قال: فأخذت الطبق وهو

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٠.

(٢) نفس المصدر ص ٨٢.

مشدود وجعلت أمشي طول الطريق، وأنا متفكر فيه مثل ذي النون يوجه إلى فلان بهدية ترى أي شيء هي فلم أصبر إلى أن بلغت الجسر، فحللت المنديل ورفعت المكبة، فإذا فأرة قفزت من الطبق ومرت. . . قال: فاغتظت غيظًا شديدًا وقلت: ذو النون يسخر بي ويوجه مع مثلي فأرة، فرجعت على ذلك الغيظ، فلما أن رآني عرف ما في وجهي، فقال: يا أحمق، إنما جربناك ائتمنتك على فأرة، فخنتني أفأئتمنك على اسم الله الأعظم؟ مرّ عني، فلا أراك.

أولاد نزار والأفعى الجرهمي(١)

حدّثنا علي بن المغيرة قال: لما حضرت نزار بن معد الوفاة قسم ماله بين بنيه وهم أربعة: مضر وربيعة وإياد وأنمار، فقال: يا بني، هذه القبة الحمراء وهي من أدم وما أشبهها من المال لمضر، فسمي مضر الحمراء. وهذا الخباء الأسود وما أشبه من المال لربيعة فأخذ خيلًا دهمًا فسمي ربيعة الفرس. وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد، وكانت الخادم شمطاء، فأخذ إياد البلق. وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه، فأخذ أنمار ما صار له. وقال لهم: إن أشكل الأمر عليكم في ذلك واختلفتم في القسمة، فعليكم بالأفعى الجرهمي، فاختلفوا فتوجهوا إلى الأفعى، فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلاء قد رعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا لأعور فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبتر، وقال إنمار: وهو شرود، فلم يسيروا إلّا قليلًا حتى لقيهم رجل توضع به راحلته، فسألهم عن البعير فقال مضر: هو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: هو أزور؟ قال: نعم. قال إياد: هو أبتر؟ قال: نعم. قال أنمار: هو شرود؟ قال: نعم. هذه والله صفة بعيري دلوني عليه، فحلفوا له أنهم ما رأوه. فلزمهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته، فساروا حتى قدموا على نجران، فنزلوا بالأفعى الجرهمي، فنادى صاحب البعير أصحاب بعيري وصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نره. فقال الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه، فقال مضر: رأيته يرعى جانبًا ويدع جانبًا، فعرفت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر، فعرفت أنه أفسدها بشدة وطئته لازوراره. وقال إياد: عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان ذيالًا لمصع بعره به، وقال أنمار: عرفت أنه شرود أنه كان يرعى في المكان الملتف نبته، ثم

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٣.

يجوز إلى مكان آخر أرق منه وأخبث. فقال الشيخ: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه. ثم سألهم مَن هم؟ فأخبروه فرحّب بهم وقال: تحتاجون إليَّ وأنتم كما أرى؟ فدعا لهم بطعام فأكل وأكلوا وشرب وشربوا، فقال مضر: لم أر كاليوم خبزًا أجود لولا أنها على قبر. وقال ربيعة: لم أر كاليوم لحمًا أطيب لولا أنه ربي بلبن كلبة. وقال إياد: لم كاليوم رجلًا سريًا لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له. وقال أنمار: لم أر كاليوم كلامًا أنفع من حاجتنا. فلما سمع صاحبهم كلامهم، فقال: ما هؤلاء إلّا شياطين، فسأل أمه فأخبرته أنها كانت تحت ملك ولا يولد له ولد، فكرهت أن يذهب الملك فأسكنت رجلًا نزل بهم من نفسها، فوطئها، وقال للقهرمان: الخمر التي شربناها ما أمرها؟ قال: من حبة غرستها على قبر أبيك، وسأل الراعي عن اللحم ما أمره؟ فقال: شاة أرضعناها من لبن كلبة ولم يكن ولد في الغنم شيء غيرها. فأتاهم فقال: قصّوا قصتكم، فقصّوا عليه ما وصى به أبوهم وما كان من اختلافهم، فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر فصارت له الدنانير والإبل وهن حمر فسميت مضر الحمراء، وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة فصارت له الخيل وهي دهم فسمي ربيعة الفرس، وما أشبه الخادم وكانت شمطاء من مال فيه بلق، فهو لإياد، فصارت له الماشية البالق من الخيل والبقر. وقضى لأنمار بالدراهم والأرض فساروا من عنده على ذلك.

أحيل من عمرو بن معديكرب(١)

عن الشعبي قال: خرج عمرو بن معديكرب يومًا حتى انتهى إلى حي، فإذا بفرس مشدودة ورمح مركوز، وإذا صاحبه في وهدة يقضي حاجته، فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك. قال: ومَن أنت؟ قلت: عمرو بن معديكرب. قال: يا أبا ثور ما أنصفتني أنت على ظهر فرسك وأنا في بئر، فاعطني عهدًا أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري، فأعطيته عهدًا أن لا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره، فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احتبى بسيفه وجلس، فقلت له: ما هذا؟ قال: ما أنا براكب فرسي ولا مقاتلك، فإن كنت نكثت عهدًا، فأنت أعلم، فتركته ومضيت، فهذا أحيل مَن رأيت.

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٤.

رسالة تحذير(١)

عن أبي حاتم الأصمعي قال: حدّثنا شيخ من بني العنبرة قال: أسرت بني شيبان رجلًا من بني العنبر، فقال لهم: أرسل إلى أهلي ليفدوني. قالوا: ولا تكلم الرسول إلّا بين أيدينا، فجاؤه برسول فقال له: ائت قومي فقل لهم: إن الشجر قد أورق، وإن النساء قد اشتكت، ثم قال له: أتعقل؟ قال: نعم أعقل. قال: فما هذا وأشار بيده؟ قال: هذا الليل. قال: أراك تعقل انطلق، فقل لأهلي عرُّوا جملي الأصهب، واركبوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثة عن أمري. فأتاهم الرسول فأرسلوا إلى حارثة فقصّ عليهم الرسول القصة، فلما خلا معهم قال: أما قوله إن الشجر قد أورق، فإنه يريد أن القوم قد تسلحوا. وقوله: أن النساء قد اشتكت، فإنه يريد أنها قد اتخذت الشكل للغزو وهي الأسقية. وقوله: هذا الليل، يريد يأتوكم مثل الليل أو في الليل. وقوله: عروا جملي الأصهب يريد ارتحلوا عن الصمان. وقوله: اركبوا ناقتي يريد اركبوا الدهناء، فلما قال لهم ذلك تحملوا من مكانهم، فأتاهم القوم فلم يجدوا منهم أحد.

حوار شعري(٢)

ابن الأعرابي عن بعض مشايخه: أن رجلًا من بني تميم كانت له ابنة جميلة وكان غيورًا فابتنى لها في داره صومعه، وجعلها فيها، وزوجها من أكفائه من بني عمها، وإن فتى من كنانة مرّ بالصومعة، فنظر إليها ونظرت إليه، فاشتد وجد كل واحد منهما بصاحبه ولم يمكنه الوصول إليها، وأنه افتعل بيتًا من الشِّعْرِ ودعا غلامًا من الحي، فعلمه البيت وقال له: ادخل هذه الدار وأنشد كأنك لاعب، ولا ترفع رأسك ولا تصوبه ولا تومىء في ذلك إلى أحد، ففعل الغلام ما أمر به، وكان زوج الجارية قد أزمع على سفر بعد يوم أو يومين، فأنشد الغلام يقول:

لَحَى اللهُ مَنْ يُلحي على الحبِّ أَهْلَه   وَمَنْ يمنعُ النفس اللجوجَ هَواهَا

قال: فسمعت الجارية ففهمت، فقالت:

ألا إنّما بين التفرُّق ليلة   وتُعطى نُفُوس العاشقينَ مُنَاهَا

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٤.
(٢) نفس المصدر ص ٨٥.

قال: فسمعت الأم ففهمت، فأنشأت تقول:

ألا إنَّما تَعنون ناقة رحلِكم ... فَمَن كانَ ذا نُوقٍ لديه رَعَاهَا

قال، فسمع الأب، فأنشأ يقول:

فإنَّا سَنَرعاها ونُوثِقُ قَيْدَها ... ونطردُ عنها الوَحْشَ حين أتَاها

فسمع الزوج ففهم، فأنشأ يقول:

سَمِعتُ الَّذي قُلتم فها أنا مُطَلِّقٌ ... فَتَاتُكم مَهجُورةٌ لِبَلاَهَا

قال: فطلقها الزوج وخطبها ذلك الفتى وأرغبهم في المهر فتزوجها.

قسمة ضيف ثقيل(١)

حدّثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي قال: قدم إعرابي من أهل البادية على رجل من أهل الحَضر قال: فأنزله وكان عنده دجاج كثير وله امرأة وابنان وابنتان منها، قال: فقلت لامرأتي اشوي لي دجاجة وقدميها لنا نتغدى بها، فلما حضر الغداء جلسنا جميعًا أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي، قال: فدفعنا إليه الدجاجة، فقلنا اقسمها بيننا نريد بذلك أن نضحك منه قال: لا أحسن القسمة، فإن رضيتم بقسمتي قسمت بينكم قلنا: فإنا نرضى. قال: فأخذ رأس الدجاجة، فقطعه، ثم ناولينه، وقال: الرأس للرئيس، ثم قطع الجناحين قال: والجناحان للابنين، ثم قطع الساقين فقال: والساقان للابنتين، ثم قطع الزمكي وقال: العجز للعجوز، ثم قال: الزور للزائر، فأخذ الدجاجة بأسرها، فلما كان من الغد قلت لامرأتي: اشوي لنا خمس دجاجات، فلما حضر الغداء قلنا: اقسم بيننا قال: أظنكم وجدتم من قسمتي أمس. قلنا: لا. لم نجد، فاقسم بيننا، فقال: شفعًا أو وترًا قلنا: وترًا. قال: نعم. أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ورمى بدجاجة، ثم قال: وابناك ودجاجة ثلاثة ورمى الثانية، ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة، ثم قال: وأنا ودجاجتان ثلاثة، فأخذ الدجاجتين، فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه قال: ما تنظرون لعلكم كرهتم قسمتي. الوتر ما تجيء إلا هكذا، قلنا: فاقسمها شفعًا. قال: فقبضهن إليه ثم قال: أنت وابناك ودجاجة أربعة، ورمى إليه بدجاجة، والعجوز

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٦.

وابنتاها ودجاجة أربعة ورمى إليهن بدجاجة، ثم قال: وأنا وثلاث دجاجات أربعة وضم إليه ثلاث دجاجات، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله أنت فهمتها لي.

أين التين؟(١)

مهدي بن سابق قال: أقبل أعرابي يريد رجلًا وبين يدي الرجل طبق تين، فلما أبصر الأعرابي غطى التين بكسائه، والأعرابي يلاحظه، فجلس بين يديه، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئًا؟ قال: نعم. قال: فاقرأ. فقرأ: ﴿وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞﴾ [التين: الآيتان ١، ٢]. قال الرجل: فأين التين؟ قال: التين تحت كسائك.

زياد ورجل من الخوارج(٢)

عن عبد الملك بن عمير قال: أخذ زياد رجلًا من الخوارج، فأفلت منه، فأخذ خاله، فقال: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك قال أرأيت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي قال: نعم قال: فأنا آتيك بكتاب من العزيز الرحيم، وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى عليهما السلام: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۞﴾ [النجم: الآيات ٣٦ - ٣٨] قال زياد: خلوا سبيله هذا رجل لقن حجته.

مَن غلب الجاحظ(٢)

قال يموت بن المزرع: قال لنا الجاحظ: ما غلبني أحد قط إلا رجل وامرأة، فأما الرجل، فإني كنت مجتازًا في بعض الطرق، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية متزر بمئزر، وبيده مشط يسقي به شقه ويمشطها به، فقلت في نفسي: رجل قصير بطين ألحى، فاستزريته، فقلت: أيها الشيخ! قد قلت فيك شعرًا، فترك المشط من يده وقال: قل، فقلت:

كأنك صَعْوةٌ في أصلِ حُشٍّ ... أصابَ الحشّ طَشٌّ بَعْدَ رَشٍّ

فقال لي: اسمع جواب ما قلت، فقلت: هات، فقال:

كأنَّكَ كِنْدَرٌ فِي ذَنَبِ كَبْشٍ ... يُدَلْدَلُ هكذا والكُبْش يَمْشِي

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٢٦.

وأما المرأة، فكنت مجتازًا ببعض الطرقات، فإذا أنا بامرأتين، وكنت راكبًا على حمارة، فضرطت الحمارة، فقالت: إحداهما للأخرى: وي حمارة الشيخ تضرط، فغاظني قولها فاحتدت ثم قلت لها: إنه ما حملتني أُنثى قط إلا وضرطت، فضربت بيدها على كتف الأخرى وقالت: كانت أم هذا منه تسعة أشهر على جهد جهيد.

مَن يتمنى أكثر(١)

عن الأصمعي قال: قال الوليد بن عبد الملك لبديح: خذ بنا في المنى، فوالله لأغلبنك، قال: لا تغلبني. قال: بلى لأفعلن، وقال: فستعلم. قال الوليد: فإني أريد أتمنى ضعف ما تتمنى أنت فهات. قال: فإني أتمنى سبعين كفلًا من العذاب، ويلعنني الله لعنًا كثيرًا، فقال: غلبتني قبحك الله.

سعيد بن العاص ومولى له(١)

مرض مولى لسعيد بن العاص، ولم يكن له مَن يخدمه ويقوم بأمره، فبعث إلى سعيد بن العاص، فلما أتاه قال له: ليس لي وارث غيرك، وهٰهنا ثلاثون ألف درهم مدفونة، فإذا أنا مت فخذها، فقال سعيد حين خرج من عنده: ما أرانا إلا قد أسأنا إلى مولانا وقصرنا في تعاهده، فتعاهده كل التعاهد ووكل به مَن يخدمه، فلما مات اشترى له كفنًا بثلاثمائة درهم وشهد جنازته، فلما رجع إلى البيت حفر البيت كله، فلم يجد شيئًا، وجاء صاحب الكفن يطالب بثمن الكفن، فقال: لقد هممت أن أنبش عليه وأسلبه كفنه.

الحجاج ورجل(١)

أتي الحجاج برجل ليقتله وبيده لقمة، فقال: والله لا أكلتها حتى أقتلك. قال: أو خير من ذلك تطعمنيها ولا تقتلني، فتكون قد بررت في يمينك ومننت عليَّ، فقال: ادن مني، فأطعمه إياها وخلاه.

عمرو بن العاص ورجل(١)

عن عمرو بن العاص أنه منع أصحابه ما كان يصل إليهم، فقام إليه رجل، فقال: أيها الأمير أتتخذ جندًا من حجارة لا تأكل ولا تشرب، فقال له عمرو:

(١) كتاب الأذكياء ص ١٢٧.

اخسأ أيها الكلب، فقال له الرجل: أنا من جندك، فإذا كنت كلبًا، فأنت أمير الكلاب وقائدها.

خطبة من بئر جلولاء(١)

قال المتوكل يومًا لجلسائه: أتدرون ما الذي نقم المسلمون من عثمان؟ قالوا: لا. قال: أشياء منها أنه قام أبو بكر دون مقام الرسول بمرقاة، ثم ومقام عمر دون مقام أبي بكر بمرقاة، فصعد عثمان ذروة المنبر فقال عباد: ما أحد أعظم منه عليك يا أمير المؤمنين من عثمان. قال: وكيف؟ ويلك. قال: لأنه صعد ذروة المنبر، فلو أنه كلما قام خليفة نزل عمن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر جلولاء، فضحك المتوكل ومَن حوله.

مَن أخجل الصاحب بن عباد(٢)

قال الصاحب بن عباد: ما أخجلني غير ثلاثة، منهم أبو الحسين البهديني، فإنه كان في نفر من جلسائي، فقلت له، وقد أكثر من أكل المشمش: لا تأكله، فإنه يلطخ المعدة. فقال: ما يعجبني ما يطبب الناس على مائدته. وآخر قال لي، وقد جئت من دار السلطان، وأنا ضجر من أمر عرض لي: من أين أقبلت؟ فقلت: من لعنة الله، فقال: رد الله غربتك، فأحسن عليَّ إساءة الأدب. وصبي مستحسن داعبته فقلت: ليتك تحتي، فقال: مع ثلاثة أخر. يعني في رفع جنازتي، فأخجلني.

زوال محنة(٣)

قال أبو الحسن علي بن هشام بن عبيد الله الكعب، المعروف أبوه بأبي قيراط قال: سمعت حامد بن العباس يقول: ربما انتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير أكثر من منفعته بالرجل الكبير، فمن ذلك أن إسماعيل بن بلبل لما حبسني جعلني في يد بواب كان يخدمه، فكان رجلًا حرًا، فأحسنت إليه وبررته، وكان ذلك البواب يدخل إلى مجلس الخاصة، ولا ينكر عليه لسابق خدمته، فجاءني في بعض الليالي، وقال: قد حرر الوزير علي بن الفرات، وقال: ما يكسّر المال على

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٢٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٢٨.

(٣) نفس المصدر ص ١٢٩.

حامد غيرك، ولا بد من الجد في مطالبته بباقي مصادرته، وسيدعو بك الوزير غدًا إلى حضرته ويهددك، فشغل ذلك قلبي، فقلت له: فهل عندك من رأي؟ فقال: أكتب رقعة إلى رجل من معامليك تعرف شحه، والتمس منه لعيالك ألف درهم يقرضك إياها، واسأله أن يجيبك على ظهر الرقعة لترجع إليك لتخرجها، فإنه لشحه يردك بعذر احتفظ بالرقعة، فإذا طالبك أخرجتها إليه، وقلت له: قد أفضت حالي إلى هذا، فأخرجتها على غير مواطئة، فلعل ذلك ينفعك، ففعلت ما قال، وجاءني الجواب بالرد كما حسبنا، فلما كان من الغد أخرجني الوزير وطالبني، فأخرجت الرقعة، فقرأها فلان واستحى وكان ذلك سبب خفة أمري وزوال محنتي.

كُلْ لا واشرب لا(١)

قال عيسى بن محمد الطوماري: سمعت أبا عمر محمد بن يوسف القاضي يقول: اعتل أبي علة شهورًا، فانتبه ذات ليلة فدعا بي وبأخوتي وقال لنا: رأيت في النوم كأن قائلًا يقول: كُلْ لا، واشرب لا، فإنك تبرأ، فلم ندر تفسيره. وكان بباب الشام رجل يعرف بأبي علي الخياط، حسن المعرفة بعبارة الرؤية، فجئنا به، فقصّ عليه المنام، فقال: ما أعرف تفسيره، ولكني أقرأ كل ليلة نصف القرآن، فأخلوني الليلة حتى أقرأ رسمي وأتفكر، فلما كان من الغد جاءنا، فقال: مررت على هذه الآية: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النُّور: الآية ٣٥] فنظرت إلى «لا». وهي تردد فيها. اسقوه زيتًا وأطعموه زيتًا، ففعلنا وكانت سبب عافيته.

هو في الكوز(١)

الأصمعي قال: رأيت رجلًا قاعدًا على قصر أوس في الطاعون، يعد الموتى في كوز، فعد أول يوم عشرين ومائة ألف، فلما كان في اليوم الثاني عد خمسين ومائة ألف، فمرّ قوم بميتهم وهو يعد، فلما رجعوا إذا عند الكوز غيره، فسألوه عنه، فقالوا لهم: هو في الكوز.

أبو عثمان الخالدي ومخنث(١)

أبو عثمان الخالدي قال: عملت قصيدة أمدح سيف الدولة أبا الحسن بن حمدان، وعرضتها على جماعة أتعرف ما عندهم فيها، إذ حضر مخنث وأنا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٠.

أقرؤها، فلما انتهيت إلى قولي:

وأنكَرَتْ شيبةً في الرأسِ واحِدة فَعَاد يَسْخِطُها ما كَانَ يُرضيهَا

قال: هذا غلط، قلت: ما هو؟ قال: تقول للأمير في الرأس واحدة. ألا قلت: في الرأس طالعة أو لائحة، فعجبت من فطنته وجودة خاطره.

أنا ابن آدم(١)

روى سعيد بن يحيىٰ الأموي عن أبيه قال: كان فتيان من قريش يرمون، فرمى منهم من ولد أبي بكر وطلحة فقرطس، فقال: أنا ابن القرنين، فرمى آخر من ولد أبي بكر وطلحة فقرطس، فقال: أنا ابن القرنين، فرمى آخر من ولد عثمان فقرطس، فقال: أنا ابن الشهيد، ورمى رجل من الموالي فقرطس، فقال: أنا ابن مَن سجدت له الملائكة. فقالوا له: مَن هو؟ فقال: آدم.

فطنة أبي بكر الرازي(٢)

قال محمد بن علي الأمين: حدّثنا بعض الأطباء الثقات أن غلامًا من بغداد قدم الري، فلحقه في طريقه أنه كان ينفث الدم، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق، فأراه ما ينفث ووصف له ما يجد، فنظر إلى نبضه وقارورته، واستوصف حاله، فلم يقم له دليل على سل ولا قرحة، ولم يعرف العلة، فاستنظر العليل لينظر في حاله، فاشتد الأمر على المريض، وقال: هذا يأس لي من الحياة لحذق المتطبب وجهله بالعلّة، فزاد ألمه، ففكر الرازي، ثم عاد إليه، فسأله عن المياه التي شرب. فقال من صهاريج ومسقفات، فثبت في نفس الرازي بحدة خاطره وجودة ذكائه أن علقة كانت في الماء، وقد حصلت في معدته، وذلك الدم من فعلها. فقال: إذا كان في غد عالجتك، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما آمرهم. قال: نعم، فانصرف الرازي، فجمع مركنين كبيرين من طحلب، فأحضرهما في غد معه، فأراه إياهما قال: ابلع جميع ما في هذين المركنين، فبلع شيئًا يسيرًا، ثم وقف. قال: ابلع. قال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فأقيموه، ففعلوا به ذلك وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه، فأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقه ويكبسه كبسًا شديدًا ويطالبه ببلعه ويتهدده بأن

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣١.

(٢) نفس المصدر ص ١٥٤.

يضرب إلى أن بلعه كارهًا أحد المركنين بأسره، والرجل يستغيث ويقول: الساعة قذف، فزاد الرازي فيما يكبسه في حلقه، فذرعه القيء، فتأمل الرازي ما قذف فإذا فيه علقة، وإذا هي لما وصل إليها الطحلب قربت إليه بالطبع وتركت موضعها، فالتفت على الطحلب، ونهض العليل معافى.

ذكاء طبيب[١]

عليّ بن الحسن الصيدلاني قال: كان عندنا غلام حدث من أولاد النبا. فلحقه وجع في معدته شديد بلا سبب يعرفه، فكانت تضرب عليه أكثر الأوقات ضربًا عظيمًا حتى يكاد يتلف، وقلّ أكله، ونحل جسمه، فحمل إلى الأهواز، فعولج بكل شيء، فلم ينجع فيه، ورد إلى بيته وقد يئس منه، فجاز بعض الأطباء فعرف حاله، فقال للعليل: اشرح لي حالك من زمن الصحة، فشرح إلى أن قال: دخلت بستانًا فكان في بيت البقر رمان كثير للبيع، فأكلت منه كثيرًا. قال: كيف كنت تأكله؟ قال: كنت أعض رأس الرمانة بفمي، وأرمي به وأكسرها قطعًا وآكل، فقال الطبيب: غدًا أعالجك بإذن الله تعالى، فلما كان الغد جاء بقدر أسفيداج قد طبخها من لحم جروٍ سمين، فقال للعليل: كل هذا. قال العليل: ما هو؟ قال: إذا أكلت عرفتك، فأكل العليل، فقال له: امتلىء منه فامتلأ، ثم قال له: أتدري أي شيء أكلت؟ قال: لا. قال: لحم كلب، فاندفع يقذف، فتأمل القذف إلى أن طرح العليل شيئًا أسود كالنواة يتحرك، فأخذه الطبيب وقال: ارفع رأسك، فقد برأت، فرفع رأسه فسقاه شيئًا يقطع الغثيان، وصب على وجهه ماء ورد، ثم أراه الذي وقع فإذا هو قرادًا، فقال: إن الموضع الذي كان فيه الرمان كان فيه قردان من البقر، وأنه حصلت منهم واحدة في رأس إحدى الرمانات التي اقتلعت رؤوسها بفيّك، فنزل القرد إلى حلقك وعلق بمعدتك يمتصها، وعلمت أن القراد[٢] تهش إلى لحم الكلب، فإن لم يصح الظن لم يضرك ما أكلت، فصح، فلا تدخل فمك شيئًا لا تدري ما فيه، والله الموفق.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٤.

(٢) القراد: نوع من الحشرات. الواحد منها على قدر حجم الذبابة تلتصق بجلد البقر لتمتص الدم.

الغم هو الدواء[١]

قال أبو إدريس الخولاني: سمعت محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: ما أفلح سمين قط إلَّا أن يكون محمد بن الحسن، وقيل له قال: لا تعدو العاقل إحدى خصلتين: إما أن يهتم لآخرته ومعاده أو الدنيا ومعاشه، والشحم مع الهم لا ينعقد، فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم، فانعقد الشحم، ثم قال: كان ملك في الزمان الأول وكان مثقلًا كثير الشحم لا ينتفع بنفسه، فجمع المتطببين وقال: احتالوا إليَّ بحيلة يخف عني لحمي هذا. قليلًا. قال: فما قدروا له على شيء. قال: فبعث له رجل عاقل أديب متطبب فارِه، فبعث إليه وأشخصه فقال له: عالجني ولك الغنى. قال: أصلح الله الملك أنا متطبب منجم دعني حتى أنظر الليلة في طالعك. أي دواء يوافق طالعك فأسقيك، قال: فغدا عليه، فقال: أيها الملك، الأمان قال: لك الأمان. قال: رأيت طالعك يدل على أن الباقي من عمرك شهر، فإن أحببت عالجتك، وإن أردت بيان ذلك، فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخلّ عني، وإلَّا فاستقص مني، قال: فحبسه قال: ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس، وخلا وحده مهتمًّا كلما انسلخ يوم ازداد غمًّا حتى هزل وخفّ لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يومًا، فبعث إليه وأخرجه، فقال: ما ترى. قال: أعز الله الملك. أنا أهون على الله عزّ وجلّ من أن أعلم الغيب، والله ما أعرف عمري، فكيف أعرف عمرك. إنه لم يكن عندي دواء إلا الغم، فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلَّا بهذه العلّة، فأذاب شحم الكلي، فأجازه وأحسن إليه.

القطيعي الطبيب[٢]

أبو الحسن بن الحسن بن محمد الصالحي الكاتب قال: رأيت بمصر طبيبًا كان بها مشهورًا يعرف بالقطيعي، وقال: إنه يكسب في كل شهر ألف دينار من جرايات يجريها عليه قوم من رؤساء العسكر، ومن السلطان، ومما يأخذه من العامة قال: وكان له دار قد جعلها شبه المرستان من جملة داره يأوي إليها الضعفاء والمرضى فيداويهم ويقوم بأغذيتهم وأدويتهم وخدمتهم، وينفق أكثر كسبه في ذلك، فاتفق أن بعض فتيان الرؤساء بمصر أسكت. قال: فجعل إليه أهل الطب،

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٥.
(٢) نفس المصدر ص ١٥٦.

وفيهم القطيعي، فأجمعوا على موته إلا القطيعي، وعمل أهله على غسله ودفنه، فقال القطيعي: أعالجه وليس يلحقه أكثر من الموت الذي قد أجمع هؤلاء عليه، فخلاه أهله معه، فقال: هات غلامًا جَلِدًا ومقارع، فأتي بذلك، فأمر به، فمدّ وضربه عشر مقارع أشد الضرب ثم مسّ جسده، ثم ضربه عشرًا أخر، ثم جسّ مجسه، ثم ضربه عشر أخر، ثم جسّ مجسه، وقال: أيكون للميت نبض؟ قالوا: لا. قال: فجسّوا نبض هذا فجسّوه، فأجمعوا أنه نبض متحرك، فضربه عشر مقارع أُخر، ثم جسّوه فجسّوه، فقالوا: قد زاد نبضه، فضربه عشرًا أُخر، فتقلب فضربه عشرًا فتأوّه، فضربه عشرًا فصاح، فقطع عنه الضرب، فجلس العليل يتأوّه، فقال له: ما تجد؟ قال: أنا جائع. فقال: أطعموه، فجاؤوا بما أكله، فرجعت قوته وقمنا، وقد برأ. فقال له الأطباء: من أين لك هذا؟ قال: كنت مسافرًا في قافلة فيها أعراب يخفرونا، فسقط منهم فارس عن فرسه، فأسكت، فقالوا: قد مات؟ قال: فعمد شيخ منهم فضربه ضربًا شديدًا عظيمًا، وما رفع الضرب عنه حتى أفاق، فعلمت أن الضرب جلب إليه حرارة أزالت سكتته، فقست عليه أمر هذا العليل.

الجراد الشافي (١)

قال أبو منصور ابن مارية، وكان من رؤساء البصرة قال: أخبرني شيوخنا قال: كان بعض أهلنا قد استسقى وأيسوا من حياته، فحمل إلى بغداد وشاوروا الأطباء فيه، فوصفوا له أدوية كبار، فعرفوا أنه قد تناولها، فلم تنفع فأيسوا من حياته، وقالوا: لا حيلة لنا في برئه، فسمع العليل، فقال: دعوني الآن أتزود من الدنيا وآكل ما أشتهي ولا تقتلوني بالحمية، فقالوا: كل ما تريد، فكان يجلس بباب الدار، فمهما اجتاز به اشتراه وأكله، فمرّ به رجل يبيع جرادًا مطبوخًا، فاشترى منه عشرة أرطال، فأكلها بأسرها، فانحل طبعه، فقام في ثلاثة أيام أكثر من ثلاثمائة مجلس، وكاد يتلف، ثم انقطع القيام وقد زال كل ما كان في جوفه وثابت قوته، فبرأ وخرج يتصرف في حوائجه، فرآه بعض الأطباء فعجب من أمره وسأله عن الخبر فعرفه، فقال: ليس من شأن الجراد أن يفعل هذا الفعل، ولا بد أن يكون في الجراد الذي فعل هذا خاصية، فأحب أن تدلني على صاحب هذا الجراد

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٦.

الذي باعه لك، فما زالا في طلبه حتى علما به، فرآه الطبيب فقال له: ممن اشتريت هذا الجراد؟ فقال: ما اشتريته أنا أصيده، وأجمع منه شيئًا كثيرًا وأطبخه وأبيعه. قال: فمن أين تصطاده؟ فذكر له مكانًا على فراسخ يسيرة من بغداد، فقال له الطبيب: أعطيك دينارًا وتجيء معي إلى الموضع الذي اصطدت منه الجراد. قال: نعم، فخرجا وعاد الطبيب من الغد ومعه من الجراد شيء ومعه حشيشة، فقالوا له: ما هذا؟ قال: صادفت الجراد الذي يصيده هذا الرجل يرعى في صحراء جميع نباتها حشيشة يقال لها: مازريون وهي من دواء الاستسقاء، فإذا دفع إلى العليل منها وزن درهم أسهله إسهالًا عظيمًا لا يؤمن أن ينضبط والعلاج بها خطر، ولذلك ما يكاد يصفها الأطباء، فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة ونضجت في معدته، ثم طبخ الجراد ضعف فعلها بطبختين، فاعتدلت بمقدار ما أبرأت هذا.

القاضي حسين والفتاة العليلة[١]

قال أبو بكر الجفاني: دخلت يومًا على القاضي حسين بن أبي عمر وهو مهموم حزين، فقلت: لا يغم الله قاضي القضاة أبدًا. ومن يزيد المائي حتى إذا مات يغتم عليه قاضي القضاة هذا الغم كله، فقال: ويحك مثلك يقول هذا في رجل أوحد في صناعته قد مات ولا خلف له يقاربه في حذقه وهل فخر البلد إلّا أن يكون رؤساء الصناع وحذاق أهل العلوم فيه، فإذا مضى رجل لا مثل له في صناعة لا بد للناس منها، فهلا يدل هذا الأمر على نقصان العلم وانحطاط البلدان، ثم أخذ يعدد فضائله، والأشياء الظريفة التي عالج بها، والعلل الصعبة التي زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء كثيرة. ومنها: أنه قال لقد أخبرني من مدة مديدة رجل من جلّة هذا البلد أنه كان حدث بابنة له علة ظريفة فكتمتها عنه، اطلع عليها فكتمها هو مدة، ثم انتهى أمرها إلى الموت، قال: فقلت: لا يسعني كتم هذا أكثر من هذا. قال: وكانت العلة أن فرج الصبية كان يضرب عليها ضربانًا عظيمًا لا تكاد تنام منه الليل ولا تهدأ بالنهار، وتصرخ من ذلك أعظم صراخ، ويجري في خلال ذلك منه دم يسير كماء اللحم، وليس هناك جرح يظهر ولا ورم كثير، فلما خفت المأتم ثم أحضرت يزيد فشاورته، فقال: أتأذن لي في الكلام وتبسط عذري

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٧.

فيه؟ فقلت: نعم، فقال: إنه لا يمكنني أن أصف شيئًا دون أن أشاهد الموضع وأفتشه بيدي، وأسأل المرأة عن أسباب لعلها كانت الجالبة للعلة. قال: فلعظم الصورة وبلوغها حد التلف أمكنه من ذلك، فأطال مساءلتها وحديثها بما ليس من جنس العلة بعد أن حبس الموضع حتى عرف بقعة الألم حتى كدت أن أثب به ثم تصبرت ورجعت إلى ما أعرفه من ستراه، فصبرت على مضض إلى أن قال: تأمر من يمسكها، ففعلت ثم أدخل يده في الموضع دخولًا شديدًا، فصاحت الصبية وأغمي عليها وانبعث الدم، فأخرج في يده حيوانًا أقل من الخنفساء فرمى به، فجلست الابنة في الحال واستترت وقالت: يا أبت استرني فقد عوفيت، قال: فأخذ الحيوان في يده وخرج من الموضع، فلحقته وأجلسته وقلت: أخبرني ما هذا؟ قال: إن تلك المسألة التي لم أشك أنك أنكرتها إنما كنت لأطلب شيئًا أستدل به على العلّة إلى أن قالت لي إن يومًا من الأيام جلست في بيت دولاب البقر من بستان لكم، ثم حدثت العلة بها من غير سبب تعرفه من بعد ذلك اليوم، فتخايلت أنه قد دبّ إلى فرجها من القردان، وكلما امتصّ من موضعه ولد الضربان، وأنه إذا شبع نقط من الفرج الذي يمتصّ منه إلى خارج الفرج هذه النقطة اليسيرة من الدم، فقلت: أدخل يدي وأفتش، فأدخلت يدي، فوجدت القراد، فأخرجته وهو هذا الحيوان، وقد كبر وتغيّرت صورته لكثرة ما يمصّ من الدم على طول الأيام قال: فتأملت الحيوان، فإذا هو قراد قال: برئت الصبية. قال: فقال لي أبو الحسن القاضي: هل ببغداد اليوم مَن له صناعة مثل هذا؟ فكيف لا أغتمّ بمن هذا بعض حذقه.

الرشيد وجبريل بن بختيشوع[1]

قال جبريل بن بختيشوع: كنت مع الرشيد بالرقة ومعه محمد والمأمون، وكان رجلًا كثير الأكل والشرب، فأكل يومًا أشياء خلط فيها، ودخل المستراح فغشي عليه، فأخرج وقوي الأمر حتى لم يشكوا في موته، فأحضرت وجسيت عرقه، فوجدت نبضًا خفيًا، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاء وحركة الدم، فقلت: الصواب أن يحتجم الساعة، فقال كوثر الخادم: لما لم تقدر من أمر الخليفة يا ابن الفاعلة تقول: احجموا رجلًا ميتًا لا نقبل قولك ولا كرامة. فقال

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٨.

المأمون: الأمر قد وقع وليس يضر أن تحجمه، فأحضر الحجام وتقدمت إلى جماعة من الغلمان بإمساكه ومصّ الحجام المحاجم، فاحمرّ المكان ففرحت، ثم قلت: أشرطه فشرطه، فخرج الدم فسجدت شكرًا، فكلما خرج الدم أصفر لونه إلى أن تكلم وقال: أين أنا؟ أنا جائع فغديناه وعوفي، فسأل صاحب الحرس عن غلّته، فعرفه أنها ألف درهم في كل سنة وسأل صاحبه، فعرفه أنها خمسمائة ألف، فقال: يا جبريل كم عليك؟ قلت: خمسون ألفًا. قال: ما أنصفناك إذ غلات هؤلاء وهم يحرسوني كذلك وغلتك كما ذكرت، فأمر بإقطاعه ألف ألف درهم.

ابن نوح الطبيب(١)

قال أبو الحسن المهدي القزويني: كان عندنا طبيب يقال له ابن نوح، فلحقتني سكتة، فلم يشك أهلي في موتي وغسلوني وكفنوني وحملوني على الجنازة، فمرت الجنازة عليه ونساء خلفي يصرخن، فقال لهم: إن صاحبكم حي فدعوني أعالجه، فصاحوا عليه، فقال لهم الناس: دعوه يعالجه، فإن عاش وإلّا فلا ضرر عليكم، فقالوا: نخاف أن تصير فضيحة، فقال: علي أن لا تصير فضيحة، قالوا: فإن صرنا؟ قال: حكم السلطان في أمري، وإن برأ فأي شيء لي؟ قالوا: ما شئت. قال: ديّته. قالوا: لا نملك ذلك، فرضي منهم بمال أجابه الورثة إليه، وحملني فأدخلني الحمام وعالجني، وأفقت في الساعة الرابعة والعشرين من ذلك الوقت، ووقعت البشائر، ودفع إليه المال، فقلت للطبيب بعد ذلك: من أين عرفت هذا؟ فقال: رأيت رجليك في الكفن منتصبة وأرجل الموت منبسطة ولا يجوز انتصابها، فعلمت أنك حي، وخمنت أنك أسكت وجربت عليك، فصحت تجربتي.

ناكح الحمار(١)

قال أبو أحمد الحارثي: كان طبيب نصراني يقال له موسى بن سنان قد أتي برجل منتفخ الذكر لا يقدر أن يبول، وهو يستغيث ويصيح، فسأله عن علّته، فذكر أنه لم يبل منذ أيام، ورأى ذكره منتفخًا، فنظر في حاله، فلم يجد شيئًا يوجب عسر البول ولا حصاة، فتركه عنده يومًا يسأله، فقال له: حدّثني أدخلت ذكرك في

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٩.

شيء لم تجر عادة الناس به، فلحقك هذا، فسكت الرجل واستحى، فلم يزل الطبيب يبسطه ويشرط له الكتمان إلى أن قال: نكحت حمارًا ذكرًا، فقال الطبيب: هاتوا مطرقة وغلمانًا، فجاؤوه، فأمسكوا الرجل، وجعل ذكره على سندان حداد وطرقه بالمطرقة مرة واحدة وجيعة، فبرزت شعيرة، وذاك أنه خمن أن شعيرة من جاعرة الحمار قد دخلت في ثقب الذكر، فلما طرقها خرجت.

جارية تتمطى(١)

قال أبو القاسم الجهني: أن حظية لبعض الخلفاء أظنه الرشيد قامت لتتمطى، فلما تمطت جاءت لترد يدها فلم تقدر وبقيتا حافتين، فصاحت وآلمها ذلك، وبلغ الخليفة فدخل وشاهد من أمرها ما أقلقه وشاور الأطباء، فكل قال شيئًا واستعمله فلم ينجح، وبقيت الجارية على تلك الصورة أيامًا والخليفة قلق بها، فجاءه أحد الأطباء، فقال: يا أمير المؤمنين، لا دواء لها إلا أن يدخل إليها رجل غريب، فيخلو بها ويمرخها ومروخًا يعرفه، فأجابه الخليفة إلى ذلك طلبًا لعافيتها، فأحضر الطبيب رجلًا وأخرج من كمه دهنًا وقال: أريد أن تأمر يا أمير المؤمنين بتعريتها حتى أمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن، فشق ذلك عليه، ثم أمر أن يفعل ذلك ووضع في نفسه قتل الرجل، وقال للخادم: خذه فأدخله عليها بعد أن تعريها، فعريت الجارية وأقيمت، فلما دخل الرجل وقرب منها سعى إليها، وأومأ إلى فرجها ليمسه، فغطّت الجارية فرجها بيدها ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع حمي بدنها بانتشار الحرارة الغريزية، فعاونتها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال بدنها في ذلك، فلما غطّت فرجها قال لها الرجل: قد برأت، فلا تحركي يديك، فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد، وأخبره الخبر، فقال له الرشيد: كيف تعمل بمن شاهد فرج حرمتنا، فجذب الطبيب بيده لحية الرجل، فإذا هي ملصقة، فانقلعت، فإذا الشخص جارية، وقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت لأبدي حرمتك للرجال، ولكن خشيت أني أكشف لك الخبر، فيتصل بالجارية، فتبطل الحيلة لأني أردت أن أدخل إلى قلبها فزعًا شديدًا بحمى طبعها، ويقودها إلى الحمل على يديها وتحريكها وإعانة الحرارة الغريزية على ذلك، فلم يقع لي غير هذا؟ فأخبرتك به، فأجزل الخليفة جائزته وأصرفه. قال أبو القاسم: ولهذا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٩.

استعملت الأطباء في علاج اللقوة الضعيفة الصفعة الشديدة على غفلة من ضد الجانب الملقو ليدخل قلب المصفوع ما يحميه، فيحول وجهه ضرورة بالطبع إلى حيث صفع، فترجع لقوته.

الطبيبات الثلاث(١)

الصلت بن محمد الجحدري قال: حدّثنا بشر بن الفضل قال: خرجنا حجاجًا، فمررنا بمياه من مياه العرب، فوصف لنا فيه ثلاث أخوات بالجمال وقيل لنا: إنهن يتطببن ويعالجن، فأحببنا أن نراهنَّ، فعمدنا إلى صاحب لنا، فحككنا ساق بعود حتى أدميناه، ثم رفعناه على أيدينا وقلنا: هذا سليم فهل من راق، فخرجت أصغرهن، فإذا جارية كالشمس الطالعة، فجاءت حتى وقفت عليه، فقالت: ليس سليم. قلنا: وكيف؟ قالت: لأنه خدشه عود بالت عليه حية ذكر، والدليل أنه إذا طلعت عليه الشمس مات، فلما طلعت الشمس مات. فعجبنا من ذلك.

نباهة صبي(٢)

إن عبد الملك بن مروان قال لرأس الجالوت، أو لابن رأس الجالوت: ما عندكم من الفراسة في الصبيان؟ قال: ما عندنا فيهم شيء لأنهم يخلقون خلقًا بعد خلق غير أنا نرمقهم، فإن سمعنا منهم مَن يقول في لعبه: من يكون معي رأيناه ذا همة وحنو وصدق فيه، وإن سمعناه يقول: مع مَن أكون كرهناها منه، فكان أول ما علم من ابن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، وهو صبي، فمرّ رجل، فصاح عليهم، ففرّوا ومشى ابن الزبير القهقرى وقال: يا صبيان، اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه. ومرّ به عمر بن الخطاب، وهو صبي يلعب مع الصبيان، ففرّوا ووقف، فقال له: ما لك لم تفر مع أصحابك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أجرم، فأخاف، ولم تكن الطريق ضيقة، فأوسع لك.

يحتمي بعمر بن الخطاب(٢)

قال سنان بن مسلمة وكان أميرًا على البحرين: كنا أغيلمة بالمدينة في أصول النخل نلتقط البلح الذي يسمونه الخلال، فخرج إلينا عمر بن الخطاب، فتفرّق

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٠.

(٢) نفس المصدر ص ١٧٩.

الغلمان وثبت مكاني، فلما غشيني قلت يا أمير المؤمنين: إنما هذا ما ألقت الريح، قال: أرني أنظر، فإنه لا يخفى عليَّ، قال: فنظر في حجري، فقال: صدقت. فقلت: يا أمير المؤمنين، ترى هؤلاء الغلمان، والله لئن انطلقت لأغاروا عليَّ، فانتزعوا ما في يدي، قال: فمشى معي حتى بلغني مأمني.

المأمون ومؤدبه(١)

قال أبو محمد الترمذي: كنت أؤدب المأمون وهو في حجر سعيد الجوهري. قال: فأتيته يومًا وهو داخل، فوجهت إليه بعض خدامه يعلمه بمكاني، فأبطأ عليَّ ثم وجهت آخر، فأبطأ فقلت لسعيد: إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر. قال: أجل، ومع هذا إنه إذا فارقك تعزم على خدمه ولقوا منه أذى شديدًا، فقومه بالأدب، فلما خرج أمرت بحمله، فضربته سبع درر. قال: فإنه ليدلك عينيه من البكاء إذ قيل جعفر بن يحيىٰ قد أقبل، فأخذ منديلًا، فمسح عينيه من البكاء، وجمع ثيابه وقام إلى فرشه فقعد عليه متربعًا، ثم قال: ليدخل، فقمت عن المجلس وخفت أن يشكوني إليه فألقى منه ما أكره. قال: فأقبل بوجهه وحدّثه حتى أضحكه وضحك إليه، فلما همّ بالحركة دعا بدابته ودعا غلمانه، فسعوا بين يديه، ثم سأل عني، فجئت فقال: خذ على بقية حزني، فقلت: أيها الأمير، أطال الله بقاءك. لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر بن يحيىٰ، ولو فعلت ذلك لتنكر لي، فقال: تراني يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذا، فكيف بجعفر بن يحيىٰ حتى أطلعه إنني أحتاج إلى أدب إذن، يغفر الله لك بعد ظنك ووجيب قلبك خذ في أمرك فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدًا لو عدت في كل يوم مائة مرة.

الصبي والحمار(٢)

قال الصولي، قال الجاحظ، قال ثمامة: دخلت إلى صديق لي أعوده وتركت حماري على الباب، ولم يكن معي غلام، ثم خرجت، وإذا فوقه صبي، فقلت: أتركب حماري بغير إذني؟ قال: خفت أن يذهب، فحفظته لك. قلت: لو ذهب كان أحب إليَّ من بقائه. قال: فإن كان هذا رأيك في الحمار، فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لي، واربح شكري، فلم أر ما أقول.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٠.
(٢) نفس المصدر ص ١٨١.

ذاك الفعل من أبي(١)

قال رجل من أهل الشام: قدمت المدينة، فقصدت منزل إبراهيم بن برهة، فإذا بنية له صغيرة تلعب بالطين، فقلت لها: ما فعل أبوك؟ قالت: وفد إلى بعض الأجواد، فما لنا به علم منذ مدة، فقلت: انحري لنا ناقة، فإنا أضيافك. قالت: والله ما عندنا قلت: فشاة قالت: والله ما عندنا. قلت: فدجاجة. قالت: والله ما عندنا. قلت فبيضة، قالت: والله ما عندنا. قلت: فباطل ما قال أبوك:

كَمْ نَاقة قد وجأت مَنْحَرها بمستهلّ الشؤبوب أو جَمَلِ

قالت: فذاك الفعل من أبي هو الذي أصارنا إلى أن ليس عندنا شيء.

المعتصم والفتح بن خاقان(١)

قيل: إن المعتصم ركب إلى خاقان يعوده، والفتح صبي يومئذٍ، فقال له المعتصم: أيما أحسن دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟ قال: إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي أحسن، فأراه فصًا في يده، فقال: هل رأيت يا فتح أحسن من هذا الفصّ؟ فقال: نعم اليد التي هو فيها.

صبر امرأة(٢)

قال الأصمعي: مات ابن لأعرابية، فما زالت تبكي حتى خدد الدمع خدها، ثم استرجعت، فقالت: اللهم إنك قد علمت فرط حب الوالدين لولدهما، فلذلك لم تأمرهما ببره، وعرفت قدر عقوق الولد لوالديه، فمن أجل ذلك حضضته على طاعتهما. اللهم إن ولدي كان من البار بوالديه على ما يكون الوالدان بولدهما، فأجزه مني بذلك صلاة ورحمة، ولقه سرورًا ونضرة، فقال لها أعرابي: نِعْمَ ما دعوت له. لولا أنك شببته من الجزع بما لا يجدي. فقالت: إذا وقعت الضرورات لم يجر عليها حكم المكتسبات، وجزعي على ابني غير ممكن في الطاقة صرفه، ولا في القدرة منعه، ولي عذري بفضله، فقد قال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٣].

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨١.
(٢) نفس المصدر ص ١٨٨.

إني وإياك في الجنة(١)

قال أبو الحسن المدائني: دخل عمران بن حطان يومًا على امرأته. وكان عمران قبيحًا ذميمًا قصيرًا، وقد تزينت، وكانت امرأة حسناء، فلما نظر إليها ازدادت في عينه جمالًا وحسنًا، فلم يتمالك أن يديم النظر إليها، فقالت: ما شأنك؟ قال: لقد أصبحت والله جميلة. فقالت: أبشر فإني وإياك في الجنة. قال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: لأنك أعطيت مثلي فشكرت، وابتليت سلامته بمثلك فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة.

عمران بن حطان وأبو الطيب الطبري(١)

كان عمران بن حطان أحد الخوارج، وهو القائل يمدح عبد الرحمـٰن بن ملجم على قتله عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه بمنّه وكرمه:

يا ضَرْبةً مِنْ تَقِيٍّ ما أرادَ بها إلّا ليبلغَ مِنْ ذي العَرْش رِضْوانا
إنّي لأذكُرُه يومًا فأحسبُه أوْفَى البريّة عِنْد اللهِ مِيزَانا
أكْرِمْ بِقومٍ بُطُونُ الأرضِ أقبُرُهم لَمْ يَخْلِطُوا دِيْنَهُمْ بِغْيًا وَعُدْوانا

فبلغت هذه الأبيات القاضي أبا الطيب الطبري، فقال مجيبًا له على الفوز:

إنّي لأبْرَأُ ممّا أنت قائله على ابنِ مِلْجَم الملعون بُهْتانا
إنّي لأذكرُه يومًا فألعنُه دِينًا وألعنُ عُمرانًا وحطّانا
عليْكَ ثمّ عليه الدّهر متصلًا لعائن الله أسرارًا وأعلانا
فأَنْتُم مِنْ كِلَاب النّارِ جاء به نصّ الشريعة تِبيانًا وبُرهانا

أشار أبو الطيب إلى قول النبيّ ﷺ: «الخوارج كلاب النار».

كُثَيِّر عَزَّة والعجوز(٢)

قال إسحـٰق بن إبراهيم الموصلي: حدّثني أبو المشيع قال: خرج كثّير يلتمس عزّة، ومعه شنينة فيها ماء، فأخذه العطش، فتناول الشنينة، فإذا هي عظم، ما فيها شيء من الماء، فرفعت له نار فأمّها فإذا بقربها مظلة بفنائها عجوز، فقالت

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٨. (٢) نفس المصدر ص ١٨٩.

له: مَن أنت؟ قال: أنا كثير. قالت: قد كنت أتمنى ملاقاتك، فالحمد لله الذي أرانيك. قال: وما الذي تلتمسينه مني؟ قالت: ألست القائل:

إذا ما أَتَيْنا خِلّة كي نزيلَها ... أبَيْنا وقُلْنا الحاجبية أوّلُ

سنوليك عرفًا إن أردتِ وِصَالَنا ... ونحنُ لِتلك الحاجبيّة أوصلُ

قال: بلى. قالت: أفلا قلت كما قال سيدك جميل:

يا ربّ عارضة علينا وصْلَها ... بالجدّ تخلطه بقول الهَازلِ

فأجبتها في القَوْلِ بعد تأمّل ... حبي بثينةَ عَنْ وِصَالك شَاغلي

لَوْ كان في قلبي كقدر قَلامة ... فَضْلًا لغيرك ما أَتَتْك رسائلي

قلت: دعي هذا واسقيني. قالت: والله لا أسقيك شيئًا. قلت: ويحك إن العطش قد أضرّ بي. قالت: ثكلت بثينة إن طعمت أن عندي قطرة ماء، فكان جهده أن ركض راحلته ومضى يطلب الماء، فما بلغه حتى أضحى النهار وكاد يقتله العطش.

ذو الرمة والجارية السوداء(١)

قال: دخل ذو الرمة الكوفة فبينا هو يسير في شوارعها على نجيب له إذ رأى جارية سوداء واقفة على باب دار، فاستحسنها ووقعت بقلبه، فدنا إليها، فقال: يا جارية، اسقني ماء، فأخرجت إليه كوزًا، فشرب فأراد أن يمازحها ويستدعي كلامها، فقال: يا جارية، ما أحر ماءك، فقالت: لو شئت لأقبلت على عيوب شعرك وتركت حر مائي وبرده، فقال لها: وأي شعري له عيب؟ فقالت: ألست ذا الرمة؟ قال: بلى. قالت:

فأنت الذي شبّهت عنزّ بقفرةٍ ... لها ذَنَبٌ فوق استها أم سالمِ

جَعَلْتَ لها قَرْنَين فَوقَ جَبينها ... وطِبْسين مسوِدين مِثْلَ المَحاجِمِ

وساقيْنِ إنْ يستمكنا مِنك يتركا ... بجلدك يا غيلان مثل المآثمِ

أيا ظبيةَ الوعَساءِ بين جَلَاجل ... وبين النّقا أأنت أم أُم سالمِ؟

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٩.

قال: نشدتك بالله ألا أخذت راحلتي وما عليها ولم تظهري هذا، ونزل راحلته، فدفعها إليها، فذهب ليمضي، فدفعتها إليه وضمنت له ألا تذكر لأحد ما جرى.

الحجاج وأم البنين بنت عبد العزيز(١)

قال زهير بن حسن مولى الربيع بن يونس: قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك فصلّى عنده ركعتين، وركب الوليد، فمشى الحجاج بين يديه، فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد. فقال: يا أمير المؤمنين، دعني أستكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عن الجهاد زمنًا طويلًا، فعزم عليه الوليد أن يركب ودخل، فركب مع الوليد، فبينا هو يتحدث ويقول: ما فعلت بأهل العراق وفعلت، أقبلت جارية فنادت الوليد ثم انصرفت، فقال الوليد: يا أبا محمد، أتدري ما قالت الجارية؟ قال: لا. قال: قالت: أرسلتني إليك أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أن مجالستك هذا الأعرابي وهو في سلاحه وأنت في غلاله غرر، فأرسلت إليها أنه الحجاج بن يوسف فراعها ذلك، وقالت: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليَّ من أن يخلو بك الحجاج، وقد قتل أحباء الله له وأهل طاعته ظلمًا وعدوانًا. فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، إنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة لا تطلعهن على سرك، ولا تستعملهن بأكثر من وثبهن، ولا تكثرن مجالستهم صغارًا وذلائم، ثم نهض فخرج، ودخل الوليد على أُم البنين، فأخبرها بمقالته، فقالت: إني أحب أن تأمره بالتسليم عليّ فسيبلغك بالذي يكون بيني وبينه، فغدا الحجاج على الوليد، فقال الوليد: ائت أُم البنين، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: فلتفعلن فأتاها، فحجبته طويلًا، ثم أذنت له، ثم قالت له: يا حجاج، أنت تفتخر على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث. أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه عليه ما ابتلاك بقتل ابن ذات النطاقين ابن حواري رسول الله ﷺ، وابن الأشعث فلعمري لقد استعلى عليك حتى عجعجت ووالى عليك الهرار حتى عويت، فلولا أن أمير المؤمنين نادى في أهل اليمن، وأنت في أضيق من القرن، فأظلتك رماحهم وعلاك كفاحهم لكنت مأسورًا قد أخذ الذي فيه عيناك وعلى هذا، فإن نساء أمير المؤمنين قد نفضن العطر عن غدائرهن وبعنه في

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٠.

أعطية أوليائه وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذاته وبلوغ أوطاره من نسائه، فإن يكن إنما ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين، فغير مجيبك إلى ذلك، وإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أمك البظراء عنك من ضعف الغريزية وقبح المنظر في الخلق والخلق، يا لكع، فما أحقه أن يقتدي بقولك قاتل الله الذي يقول:

أَسَدٌ عليَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامة فَتَخَاءُ تَنْفرِ مِنْ صَفيرِ الصَّافِرِ
هلَّا برزت إلى غَزالةِ في الوغا أو قد كان قلبك في جَنَاحَيْ طائِرِ

ثم أمرت جارية لها، فأخرجته، فلما دخل على الوليد قال: ما كنت فيه يا أبا محمد، فقال: والله ياأمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظهرها. قال: إنها بنت عبد العزيز.

محمد بن عبد الله وجارية شاعرة[1]

قال ابن السكيت عزم محمد بن عبد الله بن طاهر على الحج، فخرجت إليه جارية شاعرة، فبكت لما رأت آلة السفر، فقال محمد بن عبد الله:

دَمْـعَـةٌ كـالـلّؤلـؤ الـرّطْـ ـبِ عَـلَى الـخَـدِّ الأسـيـلِ
هَـطَـلَتْ فـي سـاعـةِ الـبَـ ـيْـنِ من الطَّرْفِ الكَحيلِ

ثم قال أجيزي فقالت:

حـيـن هَـمَّ الـقَـمَـرُ الـبا هِـرُ عـنّـا بـالأفُـولِ
إنّـمـا يُـفْـضَـحُ الـعـشّـ ـاقُ فـي وقْـتِ الـرَّحِـيْـلِ

الرشيد والجارية[1]

قال أيوب الوزان، قال المفضل: دخلت على الرشيد، وبين يديه طبق ورد، وعنده جارية مليحة شاعرة أديبة قد أهديت إليه، فقال: يا مفضل، قل في هذا الورد شيئًا تشبهها به، فأنشأت أقول:

كـأَنَّـهُ خـدُّ مـرمـوقٌ بـقَـبـله فَم الحَبيب وقَدْ أَبْدى به خَجَلَا

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩١.

فقالت الجارية:

كأنّه لونُ خدِّي حينَ يَدْفعُني كفّ الرّشيد لأمرٍ يُوجِبُ الغُسْلَا

فقال: يا مفضل، قم، فاخرج، فإن هذه الماجنة قد هيّجتنا، فقمت وأرخيت الستور.

الرشيد والصبية السائلة[١]

قال الأصمعي: لما قدم الرشيد البصرة يريد الخروج إلى مكة، فخرجت معه، فلما صرنا بضرية إذا أنا على شفير الوادي بصبية قدامها قصعة لها، وإذا هي تقول:

طَحَنَتْنَا طَوَاحِنُ الأعوام وَرَمَتْنَا نوائبُ الأيام

فأتيناكمو لمذ أكفًا لَفَضَالاتِ زَادِكم والطّعامِ

فاطلبُوا الأجْرَ والمثوبَة فِينَا أيُّها الزائرون بيت الحَرَام

مَنْ رآني فَقَد رآني وَرَحْلي فارحموا غربتي وذُلّ مَقَامي

قال: فرجعت إلى أمير المؤمنين، فقلت: صبية على شفير الوادي، وأنشدته ما قالت، فعجب، فقلت: يا أمير المؤمنين، أفآتيك بها؟ قال: لا. بل نحن نذهب إليها. قال الأصمعي: فوقف عليها أمير المؤمنين، فقلت لها: أنشديه ما كنت تقولينه، فأنشدته ولم تهبه، فقال: يا مسرور املأ قصعتها دنانير، قال: فملأها حتى فاضت يمينًا وشمالًا.

ابن الشيظمي والجارية من ولد الحسين[٢]

ابن الشيظمي قال: حججت في سنة قحطة جدبة، فبينا أنا أطوف بالكعبة، إذ أبصرت جارية من أحسن الناس قدًّا وقوامًا وخلقًا وهي متعلقة بأستار الكعبة تقول: إلٰهي وسيدي. ها أنا أمتك الغريبة وسائلتك الفقيرة حيث لا يخفى عليك بكائي، ولا يستتر عنك سوء حالي. قد هتكت الحاجة حجابي وكشفت الفاقة نقابي، فكشفت وجهًا رقيقًا عند الذل، وذليلًا عند المسألة. طال وعزّتك ما حجبه عنه ماء الغناء وصانه ماء الحياء. قد جمدت عني كف المرزوقين، وضاقت بي

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩١.

(٢) نفس المصدر ص ١٩٢.

صدود المخلوقين، فمن حرمني لم ألمه، ومَن وصلني وكلته إلى مكافأتك ورحمتك، وأنت أرحم الراحمين. قال: فدنوت منها فبررتها، ثم قلت لها: مَن أنت؟ وممن أنت؟ فقالت: إليك عني. من قل ماله، وذهب رجاله كيف يكون حاله. ثم أنشأت تقول:

بعضُ بَنَاتِ الرِّجال أبرزها ... الدّهر لما قَدْ ترى وأخرجها
أبرزها من جَليل نِعمتها ... فابتزّها ملكها وأحوجها
وطالما كانَتِ العُيونُ إذا ... ما خَرجت تستشف هودَجَها
إن كانَ قد سَاءَها وأحز ... نَها فَطالما سرّها وأَبْهَجها
الحمدُ للهِ ربّ معسرة ... قد ضَمِن الله أن يفرجَها

قال: فسألت عنها، فأخبرت أنها من ولد الحسين بن عليّ رضوان الله عليهم أجمعين.

جميل وبثينة(١)

قيل: إن كثير عزة لقي جميلًا، فقال له: متى عهدك ببثينة؟ قال: ما لي بها عهد منذ عام أول، وهي تغسل ثوبًا بوادي الدوم، فقال له كثير: تحب أن أعهدها لك الليلة؟ قال: نعم. فأقبل راجعًا إلى بثينة، فقال له أبوها يا فلان: ما ردك، أما كنت عندنا قبيل؟ قال: بلى، ولكن حضرتني أبيات قلتها في عزة قال: وما هي؟ قلت:

فقلتُ لها يا عزّ ارسل صاحبي ... على بابِ داري والرّسول موكلُ
أمَا تذكرينَ العَهْدَ يَوْم لقيتكم ... بأَسْفل وادي الدّوم والثّوب يُغْسَلُ

فقالت بثينة: أخسأ. فقال أبوها: ما هاجك يا بثينة؟ قالت: كلب لا يزال يأتينا من وراء الجبل بالليل وأنصاف النهار. قال: فرجع إليه، فقال: قد وعدتك من وراء هذا الجبل بالليل وأنصاف النهار، فألقها إذا شئت.

موعد غرامي(٢)

ومن هذا الفن حُكِيَ أن أعرابيًا بعث غلامًا له إلى امرأة يواعدها موضعًا يأتيها فيه، فذهب الغلام وأبلغها الرسالة، فكرهت المرأة أن تقر للغلام بما بينهما،

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٢.
(٢) نفس المصدر ص ١٩٣.

فقالت: والله لئن أخذتك لأعركنّ أذنك عركة تبكي منها، وتستند إلى تلك الشجرة ويغشى عليك إلى وقت العتمة، فلم يعرف الغلام معنى هذا الكلام، وانصرف إلى صاحبه وحكى له، فعلم أنها واعدته تحت الشجرة وقت العتمة.

بلاغة جارية(١)

قال الأصمعي: كنت عند أمير المؤمنين الرشيد إذ دخل رجل ومعه جارية للبيع، فتأملها الرشيد، ثم قال: خذ جاريتك، فلولا كلف في وجهها وخنس في أنفها لاشتريتها، فانطلق بها، فلما بلغت الستر قالت: يا أمير المؤمنين، اردني إليك أنشدك بيتين حضراني، فردها فأنشأت تقول:

ما سلّم الظبيُ على حُسنه   كلّا ولا البَدْرُ الذي يُوصَف
الظَبْيُ فيه خَنَسٌ بيِّنٌ   والبَدْرُ فيهِ كَلَفٌ يُعْرَفُ

فأعجبته بلاغتها فاشتراها وقرب منزلها، وكانت أحظى جواريه عنده.

اصعد حتى ترى الدنيا(٢)

قال الجاحظ: رأيت بالعسكر امرأة طويلة القامة جدًّا، ونحن على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت: انزلي حتى تأكلي معنا. قالت: وأنت، فاصعد حتى ترى الدنيا.

هل أقبل الحجر الأسود(٢)

قال الجاحظ: رأيت جارية بسوق النخاسين ببغداد ينادى عليها وعلى خدها خال، فدعوت بها وجعلت أقلبها، فقلت لها: ما اسمك؟ قالت: مكة. فقلت: الله أكبر قرب الحج أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود؟ قالت له: إليك عني ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ [النحل: الآية ٧].

الخيزران والمهدي(٣)

قال هارون بن عبد الملك بن المأمون: لما عرضت الخيزران على المهدي قال لها: والله يا جارية إنك لعلى غاية المتمنى، ولكنك خمشة الساقين، فقالت:

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٣.
(٢) نفس المصدر ص ١٩٤.
(٣) نفس المصدر ص ١٩٥.

يا أمير المؤمنين، إنك أحوج ما يكون إليهما لا تراهما، فقال: اشتروها، فحظيت عنده، فأولدها موسى وهارون.

المهدي وجاريته الحسناء[١]

حكى أبو بكر الصولي: أن المهدي اشترى جارية فاشتد شغفه بها، وكانت به أشغف، وكانت تتجافاه كثيرًا، فدسّ إليها من عرف ما في نفسها، فقالت: أخاف أن يملّني ويدعني فأموت، فأنا أمنع نفسي بعض لذتها منه لأعيش، فقال المهدي:

ظَفَرَتْ بِالقَلْب مني غَادَةٌ مِثْلُ الهِلَالِ
كُلّما صَحَّ لهَا ودّي جَاءَت بِاعْتِلَالِ
لا تحبّ الهَجْرَ منّي والتنائي عَنْ وِصَالِي
بَلْ لمأمنِها عَلَى حبّي لَها خَوْفَ المَلَالِ

حيلة ناجحة[١]

حدّثنا رجل من تغلب قال: كان فينا رجل له ابنة شابة، وكان له ابن أخ يهواها وتهواه، فمكثا كذلك دهرًا، ثم أن الجارية خطبها بعض الأشراف فأرغب في المهر، فأنعم أبو الجارية، واجتمع القوم للخطبة، فقالت الجارية لأمها: يا أماه: ما يمنع أن يزوجني من ابن عمي؟ قالت: أمر كان مقضيًا. قالت: والله ما أحسن رباه صغيرًا، ثم تدعوه كبيرًا، ثم قالت لها: يا أماه، إني والله حامل، فاكتمي إن شئت أو نوحي، فأرسلت الأم إلى الأب، فأخبرته الخبر، فقال: اكتمي هذا الأمر، ثم خرج إلى القوم، فقال: يا هؤلاء إني كنت أجبتكم، وأنه قد حدث أمر رجوت أن يكون فيه الأجر وأنا أشهدكم أني قد زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان، فلما انقضى ذلك قال الشيخ: ادخلوها عليه، فقالت الجارية: هي بالرحمٰن كافرة إن دخل عليها من سنة أو تبين حملها. قال: فما دخل عليها إلّا بعد حول، فعلم أبوها أنها احتالت عليه.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٥.

نكره منك ما تكره منّا(١)

قال الصولي، قال العتبي: رأيت امرأة أعجبتني صورتها، فقلت: ألك بعل؟ قالت: لا. قلت: أفترغبين في التزويج؟ قالت: نعم. ولكن لي خصلة أظنك لا ترضاها. قلت: وما هي؟ قالت: بياض برأسي. قال: فثنيت عنان فرسي وسرت قليلًا، فنادتني أقسمت عليك لتقفن، ثم أتت موضع خال، فكشفت عن شعر كأنه العناقيد السوناي، فقالت: والله ما بلغت العشرين، ولكنني عرفتك أنا نكره منك ما تكره منا. قال: فخجلت وسرت وأنا أقول:

فَجَعلتُ أطلبُ وَصْلَها بتملُّقٍ والشَّيْبُ يغمزُها بأَنْ لا تَفْعلي

وافق شن طبقة(٢)

قال الشرقي بن قطامي: كان شن من دعاة العرب، فقال: والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي، فأتزوجها، فسار حتى لقي رجلًا يريد قرية يريدها شن، فصحبه، فلما انطلقا قال له شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال الرجل: يا جاهل، كيف يحمل الراكب الراكب، فسارا حتى رأيا زرعًا قد استحصد فقال شن: أترى هذا الزرع قد أكل أم لا؟ فقال: يا جاهل، أما تراه قائمًا. فمرّا بجنازة فقال: أترى صاحبها حيًّا أو ميتًا؟ فقال: ما رأيت أجهل منك. أتراهم حملوا إلى القبور حيًّا. ثم سار به الرجل إلى منزله، وكانت له ابنة تسمى طبقة، فقصّ عليها القصة، فقالت: أما قوله أتحملني أم أحملك، فأراد تحدّثني أم أحدّثك حتى نقطع طريقنا، وأما قوله: أترى هذا الزرع قد أكل أم لا، فأراد باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا، وأما قوله في الميت، فإنه أراد أترك عقبًا يحيا به ذكره أم لا، فخرج الرجل فحادثه، ثم أخبره بقول ابنته، فخطبها إليه فزوجه إياها، فحملها إلى أهله، فلما عرفوا عقلها ودهاءها. قالوا: وافق شن طبقة.

بانت وهي في الحياة(٣)

قال أبو بكر بن الأزهر: حدّثني بعض إخواني أن رجلًا كان بالأهواز، وكان له ثروة ونعمة وأهل، فسار إلى البصرة مرة، فتزوج بها، فكان يأتي تلك المرأة في

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٥.
(٢) نفس المصدر ص ١٩٦.
(٣) نفس المصدر ص ١٩٧.

السنة مرة أو مرتين، وكان للبصرية عم يكاتبه، فوقع كتاب منه في يد الأهوازية، فعلمت الحال، فكتبت إليه: من حميه البصري بأن امرأتك قد ماتت، فالحق، فقرأه ثم أخذ في إصلاح أمره ليخرج، فقالت الأهوازية: إني أراك مشغول القلب، وأظن أن لك بالبصرة امرأة، فقال: معاذ الله، فقالت: لا أقنع بقولك دون يمينك، فتحلف بطلاق كل امرأة لك غائبة أو حاضرة، فحلف لها ظنًا أن تلك قد ماتت، فقالت له: لا حاجة لك في الخروج، فإن تلك بانت وهي في الحياة.

يسترزق من بيوت الجيران(١)

خاصمت امرأة زوجها في تضييقه عليها وعلى نفسه، فقالت: والله ما يقيم الفأر في بيتك إلا لحب الوطن، وإلّا فهو يسترزق من بيوت الجيران.

الأدرع والغولة(٢)

قال: حدّثني أبو القاسم عبد الله بن محمد الكاتب قال: حدّثني بعض الأشراف بالكوفة أنه كان بها رجل حسني يعرف بالأدرع، شديد القلب جدًا. قال: وكان في خرائب الكوفة شيء يظهر للمجتازين فيه نار يطول تارة ويقصر أخرى، يقولون هو غولة يفزع منه الناس، فخرج الأدرع ليلة راكبًا في بعض شأنه. قال لي الأدرع، فاعترض لي السواد والنار، فطال الشخص في وجهي، فأنكرته ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: أما شيطان وغولة فهوس، وليس إلّا إنسانًا، فذكرت الله تعالى وصلّيت على نبيه ﷺ، وجمعت عنان الفرس وقرعته بالمقرعة وطرحته على الشخص، فازداد طوله وعظم الضوء فيه، فنفر الفرس، فقرعته فطرح نفسه عليه، فقصر الشخص حتى عاد على قدر قامة، فلما كاد الفرس يخالطه ولّى هاربًا، فحركت خلفه، فانتهى إلى خربة، فدخلها، فدخلت خلفه، فإذا هو قد نزل سردابًا فيها، فنزلت عن فرسي وشددته، ونزلت وسيفي مجرد، فحين حصلت في السرداب أحسست بحركة الشخص يريد الفرار مني، فطرحت نفسي عليه، فوقعت يدي على بدن إنسان، فقبضت عليه فأخرجته، فإذا هي جارية سوداء، فقلت: أي شيء أنت وإلا قتلتك الساعة؟ قالت: قبل كل شيء أنت إنسي أم جني، فما رأيت أقوى قلبًا منك قط؟ فقلت: أي شيء أنت؟ قالت: أمة لآل فلان قوم بالكوفة

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٠.
(٢) نفس المصدر ص ٢٠١.

أبقت منهم سنين، فتغربت في هذه الخربة، فولد لي الفكر أن أحتال بهذه الحيلة وأوهم الناس أني غولة حتى لا يقرب الموضع أحد، وأتعرّض ليلًا للأحداث، وربما رمى أحدهم منديلًا أو إزارًا، فآخذه فأبيعه نهارًا وأقتات به أيامًا، قلت: فما هذا الشخص الذي يطول ويقصر، والنار التي تظهر؟ قالت: كساء معي طويل أسود، فأخرجته من السرداب وقضبان مهندبة أدخل بعضها في بعض في الكساء، وأرفعه فيطول، فإذا أردت تقصيره رفعت من الأنابيب واحدة واحدة فيقصر، والنار فتيلة شمع معي في يدي لا أخرج إلا رأسها مقدار ما يضيء الكساء، وأرتني الشمعة والكساء والأنابيب، ثم قالت: قد جازت هذه الحيلة نيّفًا وعشرين سنة، واعترضت فرسان الكوفة وشجعانها، وكل أحد، فما أقدم أحد عليّ غيرك، ولا رأيت أشد قلبًا منك، فحملها الأدرع إلى الكوفة، فردها إلى مواليها، فكانت تحدث بهذا الحديث، ولم ير بعد ذلك أثر غولة، فعلم أن الحديث حق.

يسار الكواعب(١)

قال المبرد: كان يسار الكواعب عبدًا لأناس من بني الحرث بن سعد بن قضاعة، وكان راعيًا في إبلهم، فبعث ببعض نسائهم، وكان أسود، فخدعته امرأة منهم، وأرته أنها قد قبلته وواعدته ليوم، فعلم به بعض أصحابه من الرعاة، فنهاه عنها، وقال له: يا يسار! كُلْ من لحم الجوار، وأشرب من لبن العِشَار، ودع عنك بنات الأحرار، فقال له يسار: إني إذا جئتها زحكت أراد ضحكت ولاعبتني. فأتاها في اليوم الذي واعدته فيه، فقالت: مكانك حتى أطيبك، فعمدت إليه، فجدعت أنفه وأذنه، فرجع إلى صاحبه الذي كان نهاه، فأنكره، فقال: مَن أنت ويلك؟ قال: يسار. قال: فيسار كان لا أنف له ولا أذنين؟ قال: أفما ترى ويحك وبيض العينين، فذهبت مثلًا وسمي يسار الكواعب ممن ذكره جرير حين تزوج الفرزدق إحدى نساء بني شيبان، وزاد في مهرها، فعيّره جرير بذلك فقال:

وإنّي لأخشى إن خطبتَ اليهمُو عَلَيك الّذي لَاقى يَسَارَ الكَواعبِ

---

(١) الأذكياء ص ٢٠٢.

ثانيًا ـ قصص الحمقى والمغفــلين

أسماء الأحمق

الأحمق، الرقيع، المائق، الأزبق، الهجهاجه، الهلباجة، الخطل، الخرف، الملغ، الماج، المسلوس، المأفون، المأفوك، الأعفك، الفقاقة، الهجأة، الألق، الخوعم الألفت الوطيء، الباحر، الهجرع، المجع، الأنوك، الهبنك، الأهوج، الهبنق، الأخرق، الداعك، الهداك، الهبنقع، المدله، الذهول، الجعبس، الأوره، الهوف، المعضل، الفدم، الهتور، عياياء، طباقاء. فإذا كان يتجه لشيء في أسماء كثيرة وقريب هذه الأسماء على أحمق، وقيل: لو لم يكن من فضيلة الأحمق إلا كثرة أسمائه لكفى. قال ابن الأعرابي: الرقيع هو الذي يحتاج أن يرقع من حمقه. وسئل بعض الأعراب، ما الفرق بين الأحمق والمائق؟ فقال: الأحمق مثل المائح على رأس البئر، والمائق هو مثل المائح الذي هو أسفل البئر، فبينهما من الجودة في الحماقة ما بين هذين. والعرب تقول: أحمق ما يتوجه إلى ما يحسن أن يأتي الغائط. والأخرق هو الذي يخرق الأشياء ولا يحسن لها مأتى.

ومن أسماء النساء ذوات الحمق: الورهاء، الخرقاء، الدفنس، الخذعل، الهوجاء، القرثع، الداعكة، الرطيئة.

قال في المستطرف[١]: قال ابن الأعرابي[٢]؛ الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر

(١) المستطرف ص ٢٢.

(٢) ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد أبو عبد الله راوية وعلامة باللغة من أهل الكوفة، لم ير في علم الشعر أغزر منه وهو ربيب المفضل بن محمد صاحب المفضليات. له تصانيف كثيرة. توفي سنة ٢٣١ هـ.

من الأمور. والحق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت. قال الشاعر:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُستطبّ به إلّا الحماقة أعيتْ مَن يُداويها

والحمق مذموم. قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل» ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قلّ دماغه، ومَن قلّ دماغه قلّ عقله، ومَن قلّ عقله فهو أحمق. وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب[1] وكثرة الكلام وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات والخلو من العلم، والعجلة والخفّة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء، إن استغنى بطر وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وأن سئل بخل، وإن سأل ألحّ، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق. قال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني» والسكوت عند الأحمق جوابه. ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجره.

وحُكِيَ أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعالى نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث. فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئًا. قال: ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة. فتصايحا وتخاصما، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا من أن أول مَن يطلع عليهما يكون حكمًا بينهما، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال: يا

(١) العجب: الاغترار بالنفس.

رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم أن يدعو عليه، فأوحى الله إليه: لا تدع عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم. ويقال: فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه. وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال:

وما هوجي يا هند إلا سجيةٌ[(١)] أجرّ لها ذيلي بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصِهِ[(٢)] ولاطمت في البطحاء من كلّ طارقِ

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

مَن ضرب المثل بحمقه[(٣)]

هبنقة

«هبنقة» واسمه يزيد بن ثروان ويقال: ابن مروان أحد بني قيس بن ثعلبة، ومن حمقه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وقال: أخشى أن أضلّ نفسي ففعلت ذلك لأعرفها به، فحوّلت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه فلما أصبح قال: يا أخي أنت أنا فمن أنا؟

وأضل بعيرًا فجعل ينادي من وجده فهو له، فقيل له: فلم تنشده؟ قال: فأين حلاوة الوجدان؟ وفي رواية: مَن وجده فله عشرة، فقيل له: لم فعلت هذا؟ قال: للوجدان حلاوة في القلب.

واختصمت طفاوة وبنو راسب في رجل ادّعى كل فريق أنه في عرافتهم، فقال هبنقة: حكمه أن يلقى في الماء فإن طفا فهو من طفاوة وإن رسب فهو من راسب، فقال الرجل إن كان الحكم هذا فقد زهدت في الديوان. وكان إذا رعى

(١) السجية: الطبع.
(٢) قلوصة: القلوص: الناقة، والطارق: الآتي ليلًا.
(٣) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ص ٤١ ـ ٥١.

غنمًا جعل يختار المراعي للسمان وينحي المهازيل ويقول: لا أصلح ما أفسده الله.

أبو غبشـــان

«أبو غبشان» وهو من خزاعة كان يلي الكعبة، فاجتمع مع قصي بن كلّاب بالطائف على الشرب، فلما سكر اشترى منه قصي ولاية البيت بزق خمر، وأخذ منه مفاتيحه وسار بها إلى مكة، وقال: يا معشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم. وأفاق أبو غبشان فندم فقيل: (أندم من أبي غبشان) وأخسر من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان، قال بعضهم:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت عن المقام وضلّ البيت والنادي

ثم جاءت خزاعة فغالبوا قصيًا فغلبهم.

شيخ مهو

ومنهم «شيخ مهو» وهي قبيلة من عبد القيس واسمه عبد الله بن بيدرة وكانت إياد تعير بالفسو، فقام رجل منهم بعكاظ ومعه بردًا حبرة فنادى: ألا إنني من إياد فمن يشتري مني عار الفسو ببردي هذين، فقام عبد الله بن بيدرة فقال: أنا، واتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، واشهد الأيادي عليه أهل القبائل وانصرف عبد الله إلى قومه فقال: جئتكم بعار الأبد، فلزم العار بذلك عبد القيس.

عجل بن لجيم

«عجل بن لجيم» بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. من حمقه أنه قيل له: ما سميت فرسك؟ فقام إليه ففقأ إحدى عينيه وقال: سميته الأعور.

قال العنزي:

رمتـــني بنـــو عـــجل بـداء أبيـــهـم
وأي امرىء في النـاس أحـمق من عـجل
ألـــبس أبـــوهـــم عـــار عـــين جـواده
فـصـارت بـه الأمـثـال تـضـرب بـالـجـهـل

حمزة بن بيض

ومنهم «حمزة بن بيض». عن أبي طالب عمر بن إبراهيم أنه قال: دعا حمزة بن بيض حجامًا وكان الحجام ثقيلًا كثير الكلام، فلما أرهف المشاريط قال له: الساعة توجعني، قال: لا، قال: فانصرف اليوم، قال: لا تفعل فإنك محتاج إلى إخراج الدم وذلك بين في وجهك وهي سنّة نبوية، قال: انصرف وعد إلي غدًا، قال: لست تدري ما يحدث إلى غد والمشاريط حادة وإنما هي لحظة، قال: إن كان كما تقول فاعطني فردة بيضة من خصيتك تكون في يدي رهينة إن أوجعتني أوجعتك، فقام الحجام وقال: أرى أن تدع الحجامة في هذا العام، وانصرف.

عن محمد بن العلاء الكاتب أنه قال: قال حمزة بن بيض لغلام له: أي يوم صلّينا الجمعة في الرصافة؟ ففكر الغلام ساعة ثم قال: يوم الثلاثاء، وقيل لحمزة بن بيض: كم تشرب من النبيذ؟ قال: أكثر من رطلين شيء.

أبو أسـيد

ومنهم «أبو أسيد». عن محمد بن رجاء قال: قال أبو أسيد وحدث بحديث: كان ذلك في خلافة المهدي قبل موت المنصور وقال: مرّ على أبي أسيد بعيران فقال قوم كانوا حوله: ما أفرههما؟ فقال أبو أسيد: أحدهما أفره من الآخر، قالوا: أيهما أفره؟ قال: القدامى أفره من الأول. وعزّى أبا أسيد رجل عن مصيبته فقال له: رزقنا الله مكافأتك. وعن محمد بن عبد المطلب قال: قال أبو أسيد ونظر إلى رجل نائم: قم، فكم تنام كأنك بعير ناد. وقيل لأبي أسيد: حدّثنا عن ابن عمر، فقال: كان يحف شاربه حتى يبدو بياض إبطيه.

جـحـــا

ومنهم «جحا» ويكنّى أبا الغصن، وقد رُوِيَ عنه ما يدل على فطنة وذكاء، إلا أن الغالب عليه التغفيل، وقد قيل: إن بعض مَن كان يعاديه وضع له حكايات والله أعلم. عن مكي بن إبراهيم أنه يقول: رأيت جحا رجلًا كيسًا ظريفًا وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه، وكان له جيران مخنثون يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه. وعن أبي بكر الكلبي أنه قال: خرجت من البصرة فلما قدمت الكوفة، إذا أنا بشيخ جالس في الشمس، فقلت: يا شيخ أين منزل الحكم؟ فقال لي: وراءك،

فرجعت إلى خلفي، فقال: يا سبحان الله! أقول لك وراءك وترجع إلى خلفك. أخبرني عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: الآية ٧٩] قال: بين أيديهم، فقلت: أبو مَن؟ قال: أبو الغصن، فقلت: الاسم؟ قال: جحا. وقد رُوِيَت لنا هذه الحكاية على غير هذه الصفة. وعن عباد بن صهيب قال: قدمت الكوفة لأسمع من إسماعيل بن خالد، فمررت بشيخ جالس فقلت: يا شيخ، كيف أمر إلى منزل إسماعيل بن خالد؟ فقال: إلى ورائك، فقلت: أرجع؟ فقال: أقول لك وراءك وترجع! فقلت: أليس ورائي خلفي؟ قال: لا. ثم قال: حدّثني عكرمة عن ابن عباس (وكان وراءهم) أي بين أيديهم، قال: قلت بالله مَن أنت يا شيخ؟ قال: أنا جحا، قال المصنّف: وجمهور ما يُروى عن جحا، تغفيل نذكره كما سمعناه.

عن أبي الحسن، قال رجل لجحا: سمعت من داركم صراخًا، قال: سقط قميصي من فوق، قال: وإذا سقط من فوق؟ قال: يا أحمق لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه؟

وحكى أبو منصور الثعالبي في كتاب «غرر النوادر» قال: تأذى أبو الغصن جحا بالريح مرة فقال يخاطبها: ليس يعرفك إلا سليمان بن داود الذي حبسك حتى أكلت خراك.

وخرج يومًا من الحمام في يوم بارد، فضربته الريح فمسّ خصيتيه، فإذا إحدى بيضتيه قد تقلّصت، فرجع إلى الحمام وجعل يفتش الناس، فقالوا: ما لك؟ فقال: قد سرقت إحدى بيضتي، ثم إنه دفيء وحمي، فرجعت البيضة، فلما وجدها سجد شكرًا لله، قال: كل شيء لا تأخذه اليد لا يفقد.

ومات جار له، فأرسل إلى الحفّار ليحفر له، فجرى بينهما لجاج في أجرة الحفر، فمضى جحا إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها، فسُئل عنها فقال: إن الحفار لا يحفر بأقل من خمسة دراهم، وقد اشترينا هذه الخشبة بدرهمين لنصلبه عليها ونربح ثلاثة دراهم ويستريح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير.

وحُكِيَ أن جحا تبخّر يومًا فاحترقت ثيابه فغضب وقال: والله لا تبخّرت إلا عريانًا.

وهبت يومًا ريح شديدة فأقبل الناس يدعون الله ويتوبون، فصاح جحا يا قوم، لا تعجلوا بالتوبة وإنما هي زوبعة وتسكن.

وذكر أنه اجتمع على باب دار أبي جحا تراب كثير من هدم وغيره، فقال أبوه: الآن يلزمني الجيران برمي هذا التراب واحتاج إلى مؤنة وما هو بالذي يصلح لضرب اللبن فما أدري ما أعمل به، فقال له جحا: إذا ذهب عنك هذا المقدار فليت شعري أي شيء تحسن، فقال أبوه: فعلمنا أنت ما تصنع به فقال: يحفر له آبار ونكبسه فيها.

واشترى يومًا دقيقًا وحمله على حمال فهرب بالدقيق، فلما كان بعد أيام رآه جحا فاستتر منه، فقيل له: ما لك فعلت كذا؟ فقال: أخاف أن يطلب مني كراه.

ووجهه أبوه ليشتري رأسًا مشويًا، فاشتراه وجلس في الطريق، فأكل عينيه وأذنيه ولسانه ودماغه، وحمل باقيه إلى أبيه، فقال: ويحك ما هذا؟ فقال: هو الرأس الذي طلبته. قال: فأين عيناه؟ قال: كان أعمى. قال: فأين أذناه؟ قال: كان أصم. قال: فأين لسانه؟ قال: كان أخرس. قال: فأين دماغه؟ قال: فكان أقرع. قال: ويحك، رده وخذ بدله، قال: باعه صاحبه بالبراءة من كل عيب.

وحُكِيَ أن جحا دفن دراهم في صحراء وجعل علامتها سحابة تظلها. ومات أبوه فقيل له: اذهب واشتر الكفن، فقال: أخاف أن أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.

وحُكِيَ أن المهدي أحضره ليمزح معه، فدعا بالنطع والسيف، فلما أقعد في النطع، قال للسياف: انظر لا تصب محاجمي فإني قد احتجمت.

ورأوه يومًا في السوق يعدوا فقالوا: ما شأنك؟ قال: هل مرت بكم جارية رجل مخضوب اللحية؟

واجتاز يومًا بباب الجامع فقال: ما هذا؟ فقيل: مسجد الجامع، فقال: رحم الله جامعًا ما أحسن ما بنى مسجده.

ومرّ بقوم وفي كمّه خوخ، فقال: مَن أخبرني بما في كمي فله أكبر خوخة، فقالوا: خوخ، قال ما قال لكم هذا إلا من أمة زانية.

وسمع قائلًا يقول: ما أحسن القمر، فقال: أي والله خاصة في الليل.

وقال له رجل: أتحسن الحساب بإصبعك؟ قال: نعم، قال: خذ جريبين حنطة، فعقد الخنصر والبنصر، فقال له: خذ جريبين شعيرًا فعقد السبابة والإبهام وأقام الوسطى فقال الرجل: لم أقمت الوسطى، قال: لئلا يختلط الحنطة بالشعير.

ومرّ يومًا بصبيان يلعبون ببازي ميت، فاشتراه منهم بدرهم وحمله إلى البيت، فقالت أمه: ويحك ما تصنع به وهو ميت؟ فقال لها: أسكتي فلو كان حيًّا ما طمعت في شرائه بمائة درهم.

وخرج أبوه مرة إلى مكة فقال له عند وداعه: بالله لا تطل غيبتك واجتهد أن تكون عندنا في العيد لأجل الأضحية.

مـزبـــد

ومنهم «مزبد». قال أبو زيد: قيل لمزبد إن فلانًا الحفار قد مات، فقال: أبعده الله، من حفر حفرة سوء وقع فيها.

وقال مزبد لرجل: أيسرك أن تعطى ألف درهم وتسقط من فوق البيت؟ قال: لا، قال مزبد: وددت أنها لي وأسقط من فوق الثريا، فقال له الرجل: ويلك فإذا سقطت مت، قال: وما يدريك! لعلي سقطت في التبانين أو على فرش زبيدة، وقيل له: أيسرك أن تكون هذه الجبة لك؟ قال: نعم وأضرب عشرين سوطًا، قالوا: ولم تقول هذا؟ قال: لأنه لا يكون شيء إلا بشيء.

أزهر الحمـار

ومنهم «أزهر الحمار» كان جالسًا بين يدي الأمير عمرو بن الليث يومًا يأكل بطيخًا فقال له عمرو: كيف طعمه يا أزهر أحلو هو؟ قال: ما أكلت (الخرا) قط؟

وقدم على الأمير عمرو رسول من عند السلطان، فأحضر مائدته، فقال لأزهر: جملنا بسكوتك اليوم، فسكت طويلًا ثم لم يصبر فقال: بنيت في القرية برجًا ارتفاعه ألف خطوة، فأومأ إليه حاجبه أن اسكت، فقال له الرسول: في عرض كم؟ قال: في عرض خطوة، فقال له الرسول: ما كان ارتفاعه ألف خطوة لا يكفي عرضه خطوة! قال: أردت أن أزيد فيه فمنعني هذا الواقف.

وقدم رسول آخر فقيل لأزهر: لا تتكلم اليوم وتجمّل لهذا الرسول، فسكت ساعة فعطس الرسول فأراد أزهر أن يشمته فيقول: يرحمك الله فقال: صبحك الله،

فقال الأمير: أليس قد قدمت إليك أن لا تتكلم! فقال: أردت أن لا يرجع الرسول إلى بغداد فيقول: إن هؤلاء لا يعرفون العربية.

وقال له الطبيب: خذ رمانتين فاعصرهما بشحهما واشرب ماءهما، فعمد إلى رمانتين وقطعة شحم ودقهما في موضع واحد وعصرهما وأخذ ماءهما فشربه.

جامع الصيدلاني

ومنهم «أبو محمد جامع الصيدلاني». قال عليّ بن معاذ: كتبت إلى جامع الصيدلاني كتابًا فكتب جوابه وجعل عنوانه، إلى الذي كتب إليّ. وجاء إليه قوم في أمر حائط فقالوا: يا أبا محمد منذ كم تعرف هذا الحائط؟ فقال: أعرفه منذ كان وهو صغير لفلان.

وقيل له يومًا: كم سنة تعد؟ فقال: إحدى وسبعين سنة، قيل له: فمن تذكر من ولد العباس؟ قال: إيتاخ.

وركب زورقًا فأعطى الملاح قطعة فاستزاده، فقال: مسخني الله ذو أربع قوائم مثلك إن زدتك شيئًا.

ومضى إلى السوق ليشتري لابنه نعلًا، فقيل له: كم سنة؟ فقال: ما أدري ولكنه ولد أول ما جاء العنب الداراني، ومحمد ابني، استودعه الله، أكبر منه بشهرين ونصف سنة.

وكانت له بنت فقيل له: كم سنّها؟ فقال: ما أدري إلا أنها ولدت أيام البراغيث.

وانبثق كنيف لجامع الصيدلاني، فقال لغلامه: بادر وأحضر مَن يصلحه حتى نتغدى به قبل أن يتعشى بنا. وحجّ ابنه في بعض السنين فقال له: يا بني أنت تعلم أنني لا أصبر عنك، فأجهد نفسك أن لا تضحّي إلا عندنا، فإنك تعلم أن أمك لا تأكل شيئًا في العيد حتى تجيء من الصلاة.

الجصـــاص

ومنهم «أبو عبد الله الجصاص». حُكِيَ عنه أنه كان يومًا يأكل مع الوزير، فلما فرغ من الأكل قال: الحمد لله الذي لا يحلف بأعظم منه، ونظر يومًا في المصحف وجعل يقول: رخيص والله، وهذا من فضل ربي، آكل وأتمتع بدرهم،

وإذا في المصحف ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحِجر: الآية ٣] فصحف (ذرهم) فظن أنه درهم.

ودخل ابن الجصاص يومًا على ابن الفرات الوزير الخاقاني وفي يده بطيخة كافور، فأراد أن يعطيها الوزير ويبصق في دجلة، فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في دجلة، فارتاع الوزير وانزعج ابن الجصاص وتحيّر وقال: والله العظيم لقد أخطأت وغلطت أردت أن أبصق في وجهك وأرمي البطيخة في دجلة فقال له الوزير: كذلك فعلت يا جاهل. فغلط في الفعل وأخطأ في الاعتذار.

ونظر يومًا في المرآة فقال: اللهم بيّض وجوهنا يوم تبيض وجوه وسوّدها يوم تسود وجوه.

وقال يومًا أشتهي بغلة مثل بغلة النبيّ ﷺ حتى أسميها دلدل.

وقال يومًا: خريت على يدي، فلو غسلتها ألف مرة لم تنظف حتى أغسلها مرتين.

ونظر يومًا في المرآة فقال لإنسان عنده: ترى لحيتي طالت؟ فقال له: المرآة في يدك، فقال: صدقت، ولكن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

وكسر يومًا لوزًا فطارت لوزة فقال: لا إلـه إلا الله، كل شيء يهرب من الموت حتى البهائم.

وأهدى إلى العباس بن الأحنف الوزير نبقًا وكتب إليه «تفيلت[1] أن تبقى فأهديتك النبقا» فكتب في جوابه «ما تفيلت يا أبا عبد الله ولكن تبقرت[2]». وكان ابن الجصاص يسبح كل يوم فيقول: نعوذ بالله من نعمه، ونتوب إليه من إحسانه، ونستقيله من عافيته، ونسأله عوائق الأمور حسبي الله وأنبياؤه والملائكة الكرام. ومن دعائه اللهم ادخلنا في بركة القصور على قبورهم والبيع والثغور الكنائس، سبحان الله قبل الله سبحان الله بعد الله.

وأتاه غلامه يومًا بفرخ فقال: انظروا إلى هذا الفرخ ما أشبهه بأمه، ثم قال: أمه ذكر أم أنثى؟

واعتلّ مرة فقيل له: كيف تجدك؟ فقال: الدنيا كلها محمومة.

---

(١) يريد (تفاءلت).

(٢) أي لم تصبح فيلاً ولكنك أصبحت بقرة.

وذكر محمد بن أحمد الترمذي قال: كنت عند الزجاج أعزيه بأمه وعنده الخلق من الرؤساء والكتاب، إذ أقبل ابن الجصاص فدخل ضاحكًا وهو يقول: الحمد لله قد سرّني والله يا أبا إسحٰق، فدهش الزجاج ومَن حضر، وقيل له: يا هذا، كيف سرّك ما غمّه وغمّنا؟ فقال: ويحك، بلغني أنه هو الذي مات، فلما صح عندي أنها هي التي ماتت سرّني ذلك، فضحك الناس جميعًا.

وكتب ابن الجصاص إلى وكيل له يحمل إليه مائة مَنٍّ قطنًا فحملها، فلما حلجها خرج منها ربع الوزن، فكتب إلى الوكيل لم يحصل من هذا القطن إلا خمسة وعشرون منًّا فلا تزرع بعد هذا إلا قطنًا محلوجًا وشيئًا من الصوف أيضًا.

ودخل يومًا بستانًا فثار به المرار، فطلب بصلًا بخل ليطفيء المرار، ولم يكن عند البستاني فقال له: لِمَ لَم تزرع لنا بصلًا بخل.

وكان يومًا خلف الإمام فقال الإمام: ولا الضالين، فقال ابن الجصاص: أي لعمري.

وكان إذا سبح يقول: حسبي الله وحدي.

وقال يومًا: ينبغي للإنسان أن يصير إلى المقابر ليغتاظ، أراد يسير ليتعظ.

وقال يومًا: كان الفأر يؤذينا في سقوفنا، فوصف لي إنسان دواء فما سمعت لهم حسوه، وأراد حسًّا.

وذكر يومًا ثلاثة أصناف من الثياب ثم قال: إذا لبست واحدًا من هؤلاء فما أبالي بغيرها.

وقال يومًا: كان الهواء البارحة باردًا، إلا أني لم أجده.

وقدمت له هريسة من نعامة فاستطابها فقال: كيف لو أكلتها بقرية؟ أراد سكباجًا. ومرض فقيل له: لعلك تناولت شيئًا ضارًا؟ فقال: لا والله ما أكلت إلا مزورة بفرخ فروج.

وذكر بين يديه رجل فقال: أخبرتني أمه أنه ولد أبوه وله ثمانون سنة.

وقدمت إليه اسفيداجة فقال لمن حوله: كلوا فهذه أُم القرى.

وقال يومًا: قمت البارحة إلى المستراح وقد انطفأ القنديل، فما زلت أتلمظ المقعدة حتى وجدتها.

ودخل يومًا على مريض فجلس عنده، فشكا إليه الكتف فقال: والله ما أغفل من وجع كتفي هذين، وضرب بيديه على ركبتيه.

وقد نقل عن ابن الجصاص ما يدل على أنه كان يقصد التطابع لا أنه كان بهذه المثابة. عن عليّ بن أبي عليّ التنوخي عن أبيه قال: اجتمعت ببغداد سنة ست وخمسين وثلاثمائة مع أبي عليّ بن أبي عبد الله بن الجصاص فرأيته شيخًا حسنًا طيب المحاضرة، فسألته عن الحكايات التي تنسب إلى أبيه، مثل قوله خلف الإمام حين قرأنا ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] فقال: أي لعمري بدلًا عن آمين، ومثل قوله: أراد أن يقبّل رأس الوزير فقيل له: أفيه ذهب؟ فقال: لو كان في رأس الوزير خرا لقبّلته، ومثل قوله وقد وصف مصحفًا بالعتق فقال: كسروي! فقال: أما أي لعمري ونحو هذا فكذب، وما كان فيه ملامة تخرجه إلى هذا وما كان إلا من أدهى الناس، ولكنه يطلق بحضرة الوزراء قريبًا مما يحكى عنه لسلامة طبع كان فيه، ولأنه كان يحب أن يصوّر نفسه عندهم بصورة الأبله ليأمنه الوزراء لكثرة خلواته بالخلفاء فيسلّم عليهم. وأنا أحدثك عنه حديثًا حدّثنا به تعلم معه أنه كان في غاية الحزم، فإنه حدّثني فقال: إن أبا الحسن بن الفرات لما ولي الوزراة قصدني قصدًا قبيحًا، فأنفذ العمال إلى ضياعي وأمر بقبض معاملاتي وبسط لسانه بثلبي وتنقصني في مجلسه، فدخلت يومًا داره فسمعت حاجبه يقول وقد وليت: أي بيت مال يمشي على وجه الأرض ليس له مَن يأخذه؟ فقلت: إن هذا من كلام صاحبه وإني مسلوب، وكان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عينًا وجواهر، سوى ما يحتويه عليه ملكي. فسهرت ليلتي أفكر في أمري معه، فوقع لي الرأي في الثلث الأخير، فركبت إلى داره في الحال فوجدت الأبواب مغلقة فطرقتها، فقال البوابون: مَن هذا؟ قلت: أين الجصاص؟ فقالوا: ليس هذا وقت وصول، والوزير نائم، فقلت: عرفوا الحجاب إني حضرت في مهم، فعرفوهم فخرج إليّ أحدهم فقال: إنه إلى ساعة ينتبه فيجلس، فقلت: الأمر أهم من ذلك، فنبّهه وعرّفه عني، فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلني إلى دار حتى انتهيت إلى مرقده وهو جالس على سرير له وحواليه نحو خمسين فراشًا وغلمان كأنهم حفظة وهو مرتاع قد ظنّ أن حادثة حدثت وأني جئته برسالة الخليفة وهو متوقع لما أورده، فقام فرفعني وقال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ هل حدثت حادثة أو معك من الخليفة رسالة؟ قلت: خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئت إلا

في أمر يخصّني ويخصّ الوزير ولم تصلح المفاوضة فيه إلا على خلوة، فسكن وقال لمن حوله: انصرفوا. فمضوا وقال: هات، قلت: أيها الوزير إنك قد قصدتني أقبح قصد وشرعت في هلاكي وإزالة نعمتي، وفي إزالتها خروج نفسي وليس عن النفس عوض، ولعمري إني أسأت في خدمتك وقد كان في هذا التقويم بلاغ وجد عندي، وقد اجتهدت في إصلاحك بكل ما قدرت عليه، وأبيت إلا الإقامة على إيذائي، وليس شيء أضعف في الدنيا من السنور، وإذا عوينت في دكان البقال وظفر صاحبها بها ولزها إلى زاوية ليخنقها وثبت عليه فخدشت وجهه وبدنه ومزّقت ثيابه وطلبت الحياة بكل ما يمكنها، وقد وجدت نفسي معك في هذه الصورة ولست أضعف من السنور بطشًا، وقد جعلت هذا الكلام عذرًا بيّنًا فإن نزلت تحت حكمي في الصلح وإلا فعلي وعلى، وحلفت أيمانًا مغلظة لأقصدن الخليفة الساعة ولأحوّلن إليه من خزائني ألفي ألف دينار عينًا وورقًا ولا أصبح إلا وهي عنده، وأنت تعلم قدرتي عليها، وأقول خذ هذا المال وسلّم ابن الفرات إلى فلان واستوزره، واذكر له أقرب مَن يقع في نفسي أنه يجيب إلى تقليده ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن، ولا أعتمد إلا على بعض كُتّابك فإنه لا يفرق بينك وبينهم إذا رأى المال حاضرًا، فيسلّمك في الحال ويراني المتقلد بعين مَن أخذه وهو صغير فجعله وزيرًا وغرم عليه هذا المال الكثير فيخدمني ويتدبر برأيي وأسلمك إليه فيفرغ عليك العذاب حتى يأخذ ألفي ألف الدينار منك بأسرها، وأنت تعلم أن حالك تفي بهذا ولكنك تفتقر بعدها ويرجع المال إليّ ولا يذهب مني شيء، وأكون قد أهلكت عدوي، وشفيت غيظي، واسترجعت مالي، وصفت نعمتي، وزاد محلي بصرفي وزيرًا وتقليدي وزيرًا، فلما سمع هذا الكلام سقط في يده وقال: يا عدو الله أوَ تستحل هذا؟ قلت: لست عدو الله، بل عدو الله مَن استحلّ مني هذا الذي أخرجني إلى الفكر في مثل هذا، ولم لا أستحل مكروه مَن أراد هلاكي وزوال نعمتي؟ فقال: أو إيش؟ فقلت: أو تحلف الساعة بما استحلفك به من الإيمان المغلظة أنك تكون لي لا علي في صغير أمري وكبيره، ولا تنقص لي رسمًا ولا تغير لي معامل ولا تدسس علي المكاره ولا تشر لي في سوء أبدًا ظاهرًا ولا باطنًا، فقال: وتحلف أنت أيضًا لي بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة والمؤازرة؟ فقلت: افعل، فقال: لعنك الله فما أنت إلا إبليس والله لقد سحرتني، واستدعى دواة وعملنا نسخة يمين فأحلفته أولًا بها ثم حلفت له،

فلما أردت القيام قال: يا أبا عبد الله لقد عظمت في نفسي وخففت ثقلًا عني، والله ما كان المقتدر يفرق بين كفاءتي وبين أخس كتابي مع المال الحاضر، فليكن ما جرى مطويًا فقلت: سبحان الله. فقال: إذا كان غدًا فصر إلى المجلس لتر ما أعاملك به، فنهضت فقال: يا غلمان بأسركم بين يدي أبي عبد الله، فخرج بين يدي نحو مائتي غلام وعدت إلى داري، ولما طلع الفجر واسترحت جئته في المجلس فعرفني الذين كانوا بحضرته وعرفهم ما جرى من التفريط التام وعاملني بما شاهده الحاضرون، وأمر بإنشاء الكتب إلى عمال النواحي باعزازي وإعزاز وكلاتي وعمالي وصيانة أسبابي وضياعي، فشكرت الله وقمت، فقال: يا غلمان بين يديه فخرج الحجاب يجردون سيوفهم بين يدي والناس يعجبون، ولم يعلم أحد سبب ذلك فما حدثت بذلك إلا بعد القبض عليه. قال لي أبو علي: هل هذا فعل من يحكى عنه تلك الحكايات؟ قلت: لا. وقد حكى التنوخي أن ابن الجصاص صودر في أيام المقتدر فارتفعت مصادراته سوى ما بقي له من الظاهر وكانت ستة آلاف ألف دينار.

قال التنوخي: وحدّثني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن مكرم قال: حدّثني بعض شيوخنا قال: كنا بحضرة أبي عمرو القاضي فجرى ذكر ابن الجصاص وغفلته فقال أبو عمرو: معاذ الله ما هو كما يقال عنه، ولقد كنت عنده منذ أيام وفي صحن داره سرادق مضروب فجلسنا بالقرب منه نتحدث فإذا بصرير نعل من خلق السرادق فقال: يا غلام جئني بصاحب هذا النعل، فأخرجت إليه جارية سوداء فقال: ما كنت تصنعين هٰهنا، قالت: جئت إلى الخادم أعرفه أني قد فرغت من الطبيخ وأستأذن في تقديمه، فقال: انصر في لشأنك، فعلمت أنه أراد يعرفني بذلك الوطء أن وطء جارية سوداء مبتذلة وأنها ليست من حرمه، فهل يكون هذا من التغفيل؟ عن أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: حدّثني أبو القاسم الجهني قال: كنت بحضرة أبي الحسن بن الفرات وابن الجصاص حاضر فذكروا ما يعتقده[1] الناس لأولادهم، فقال ابن الفرات: ما أجل ما يعتقده الناس لأعقابهم؟ فقال: مَن حضر الضياع، وقال بعضهم: العقار، وقال بعضهم: العقار الصامت، وقال بعضهم: الجوهر الخفيف الثمين فإن بني

(١) أي ما يقتنيه لأولادهم من الضياع والأموال.

أمية سئلوا أي الأموال كانت أنفع لكم في نكبتكم؟ فقالوا: الجوهر الخفيف المثمن كنا نبيعه فلا نطالب بمعرفته والواحدة منه أخف من ثمنها، وابن الجصاص ساكت فقال له ابن الفرات: ما تقول أنت يا أبا عبد الله؟ فقال: أجل ما يعتقده الناس لأولادهم الضياع والأخوان، فإنهم إن اعتقدوا لهم ضياعًا أو عقارًا أو صامتًا من غير إخوان ضاع ذلك وتمحق، وأحدث الوزير بحديث جرى منذ مديدة يعلم منه صدق قولي، فقال له ابن الفرات: ما هو؟ فقال: الناس يعرفون أن أبا الحسن كان رجلًا مشتهرًا بالجوهر يعتقده لنفسه وأولاده وجواريه فكنت جالسًا يومًا في داري فجاءني بوابي فقال: بالباب امرأة تستأذن، فأذنت لها، فدخلت فقالت لي: تخلي لي مجلسك، فأخليته، فقالت لي: أنا فلانة جارية أبي الحسن، فعرفتها وبكيت لما شاهدتها عليه ودعوت غلماني ليحضروا لي شيئًا أغير به حالها فقالت: لا تدع أحدًا فإني أضنك دعوتهم لتغير حالي وأنا في غنية وكفاية ولم أقصدك لذلك ولكن لحاجة هي أهم من هذا، فقلت: ما هي؟ فقالت: تعلم أن أبا الحسن لم يكن يعتقد لنا إلا الجوهر، فلما جرى وتشتتنا وزال عنا ما كنا فيه، كان عندي جوهر قد سلمه إلي ووهبه لي ولابنته مني فلانة وهي معي هٰهنا فخشيت أن أظهره بمصر فيؤخذ مني، فتجهزت للخروج وخرجت مستخفية وابنتي معي فسلّم الله تعالى ووصلنا هذا البلد وجميع ما لنا سالم، فأخرجت من الجوهر شيئًا قيمته خمسة آلاف دينار وسرت به إلى السوق فبلغ ألفي دينار، فقلت: هاتوا فلما أحضروا المال قالوا: أين صاحب المتاع؟ قلت: أنا هي، قالوا: ليس محلك أن يكون هذا لك وأنت لصة، فعلقوا بي ليحملوني إلى صاحب الشرطة فخشيت أن أقع فأعرف فيؤخذ الجوهر وأطالب أنا بمال، فرشوت القوم دنانير كانت معي وتركت الجوهر عليهم وأقبلت، فما نمت ليلتي غمًّا مما جرى عليَّ من خشية الفقر، لأن مالي هذا سبيله، فأنا غنية فقيرة فلم أدر ما أفعل، فذكرت ما بيننا وبينك فجئتك، والذي أريد منك جاهك وبذله لي حتى تخلص لي حق وما أخذ مني وتبيع الباقي وتخلص لي ثمنه وتشتري لي ولابنتي به عقارًا نقتات من غلته. قال: فقلت: مَن أخذ منك الجوهر؟ قالت: فلان، فأنفذت إليه فاستخليت به وقلت: هذه امرأة من داري وإنما أنفذت المتاع لأعرف قيمته ولئلا يراني الناس أبيع شيئًا بدون قيمته فلم تعرضتم لها؟ فقالوا: ما علمنا ذلك، ورسمنا كما تعلم لا نبيع شيئًا إلا بمعرفة، ولما طالبناها بذلك اضطربت فخشينا أن تكون لصة، فقلت له: أريد الجوهر

الساعة، فجاء به، فلما رأيته عرفته، وكنت أنا اشتريته لأبي الحسن بخمسة آلاف دينار، فأخذته منه وصرفته، وأقامت المرأة في داري وتلطفت لها في بيع الجوهر بأوفى ثمن، فخصّها منه أكثر من خمسة آلاف دينار، فابتعت لها بذلك ضياعًا ومسكنًا فهي تعيش في ذلك وولدها إلى الآن. فنظرت فإذا الجوهر لما كان معها بلا صديق حجر، بل كان سببًا لمكروه، ولما وجدت صديقًا يعينها حصل لها منه هذا المال الحليل فالصديق أفضل من العقد، فقال ابن الفرات: أجدت يا أبا عبد الله.

التي نقضت غزلها

قال مقاتل بن سليمان: هي امرأة من قريش تسمى «ريطة» بنت عمرو بن كعب كانت إذا غزلت نقضته، قال ابن السائب: اسمها رايطة، وقال أبو بكر بن الأنباري: اسمها ريطة بنت عمرو المرية ولقبها الجعرا وهي من أهل مكة وكانت معروفة عند المخاطبين فعرفوها بصنعتها ولم يكن لها نظير في فعلها وكانت متناهية الحمق تغزل الغزل من القطن أو الصوف فتحكمه ثم تأمر خادمها بنقصه، قال بعضهم: كانت تغزل هي وجواريها ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن.

دغـــــة

«دغة» بنت مغنج، ومغنج هو ربيعة بن عجل، واسم دغة ماوية ودغة لقب، وكانت قد تزوجت صغيرة في بني العنبر فحبلت، فلما جاءها المخاض ظنت أنها أحدثت فقالت لضرتها: يا هنتهاه هل يفتح الجعر فاه؟ قالت: نعم ويدعو أباه، فمضت ضرتها فأخذت الولد، فبنو العنبر تنسب إليها فسموا بنو الجعر لذلك. ورأت يافوخ ولدها يضطرب فشقته بسكين وأخرجت دماغه، وقالت: أخرجت هذه المادة من دماغه ليسكن وجعه. وذكر عنها أنها كانت حسنة الثغر فولدت غلامًا، وكان أبوه يقبله ويقول وا بأبي دردرك، فظنت أن الدردر أعجب إليه، فحطمت أسنانها، فلما قال: وا بأبي دردرك، قالت: يا شيخ كلنا ذو دردر، فقال: أعييتني باشر فكيف بدردر (والأشر التحزيز في أطراف أسنان الأحداث والدردر مغارز الأسنان) فضرب المثل بحمق دغة.

ريطـــــة

«ريطة» بنت عامر بن نمير كانت تعلم رأس أولادها بالقزع لتعرف أولادها من أولاد غيرها.

حماقة عيسى بن صالح[١]

قال محمد بن زياد: كان عيسى بن صالح بن علي يحمق وكان له ابن يقال له عبد الله من عقلاء الناس فتولّى عيسى جند (قنسرين) فاستخلف ابنه على العمل، قال ابنه: فأتاني رسوله في بعض الليل يأمرني بالحضور في وقت مبكر لا يحضر فيه إلا لأمر مهم، فتوهمت أن كتابًا ورد من الخليفة في بعض الأشياء التي يحتاج فيها إلى حضوري وحضور الناس، فلبست السواد وتقدمت بالبعثة إلى وجوه القواد وركبت إلى داره، فلما دخلتها سألت الحجاب هل ورد كتاب من الخليفة أو حدث أمر؟ فقالوا: لم يكن من هذا شيء، فصرت من الدار إلى موضع تخلف الحجاب عنه فسألت الخدام أيضًا، فقالوا: مثل مقالة الحجاب، فصرت إلى الموضع الذي هو فيه، فقال لي: ادخل يا بني، فدخلت فوجدته على فراشه، فقال: علمت يا بني إني سهرت الليلة في أمر أنا مفكر فيه إلى الساعة، قلت: أصلح الله الأمير، ما هو؟ قال: اشتهيت أن يصيرني الله من الحور العين ويجعل في الجنة زوجي يوسف النبيّ فطال في ذلك فكري، قلت: أصلح الله الأمير، فالله عزّ وجلّ قد جعلك رجلًا فأرجو أن يدخلك الجنة ويزوجك من الحور العين، فإذا وقع هذا في فكرك فهلّا اشتهيت محمدًا ﷺ أن يكون زوجك فإنه أحق بالقرابة والنسب وهو سيّد الأولين والآخرين في أعلى عليين؟ فقال: يا بني لا تظن أني لم أفكر في هذا فقد فكّرت فيه ولكن كرهت أن أغيظ السيدة عائشة.

رسالة مستعجلة[٢]

المدائني قال: جاء رجل من أشراف الناس إلى بغداد، فأراد أن يكتب إلى أبيه كتابًا يخبره، فلم يجد أحدًا يعرفه فانحدر بالكتاب إلى أبيه وقال: كرهت أن يبطىء عليك خبري ولم أجد أحدًا يجيء بالكتاب فجئت أنا به ودفعه إليه.

خطبة للمهلب[٣]

وبلغنا أن المهلب ولى بعض الأعراب كورة بخراسان وعزل واليها فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اقصدوا لما أمركم الله به، فإنه

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٩٢.
(٢) نفس المصدر ص ٩٣.
(٣) نفس المصدر ص ٩٤.

رغبكم في الآخرة الباقية وزهدكم في الدنيا الفانية، فرغبتم في هذه وزهدتم في تلك، فيوشك أن تفوتكم الفانية ولا تحصل لكم الباقية فتكونوا كما قال الله تعالى: (لا ماءك أبقيت ولا حرك أنقيت)[١] واعتبروا بالمغرور الذي عزل عنكم سعى وجمع فصار ذلك كله إلى علي رغم أنفه وصار كما قال الله سبحانه وتعالى:

أبشري أم خالد رب ساع لقاعد

ثم نزل عن المنبر.

خطبة الجمعة[٢]

قيل: إن يزيد بن المهلب ولّي إعرابيًا على بعض كور خراسان فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر وقال: الحمد لله ثم ارتجّ عليه فقال: أيها الناس إياكم والدنيا فإنكم لم تجدوها إلا كما قال الله تعالى:

وما الدنيا بباقية لحي وما حي على الدنيا بباقي

فقال: كاتبه أصلح الله الأمير هذا شعر، قال: فالدنيا باقية على أحد؟ قال: لا، قال: فيبقى عليها أحد؟ قال: لا، قال: فما كلفتك إذن؟

استقللتها[٣]

وبلغنا أن بعض العرب خطب في عمل وليه فقال في خطبته: إن الله خلق السمٰوات والأرض في ستة أشهر، فقيل له: في ستة أيام، فقال: والله أردت أن أقولها ولكن استقللتها.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب[٣]

أبو بكر النقاش قال: كتب كاتب منصور بن النعمار إليه من البصرة أنه أصاب لصًا فكره الإقدام على قطعه دون الاستطلاع على أمره، وأنه خياط، فكتب إليه: اقطع رجله ودع يده، فقال: إن الله أمر بغير ذلك، فكتب إليه: أنفذ ما أمرتك به، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

(١) مثل معروف ذكره الميداني في مجمع الأمثال.

(٢) أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٩٤. (٣) نفس المصدر ص ٩٥.

مقوم الناقة

قال المدائني: كان عبد الله بن أبي ثور والي المدينة فخطبهم فقال: أيها الناس اتقوا الله وارجوا التوبة، فإنه أهلك قوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم. فسموه مقوم الناقة وعزله الزبير.

حماقة قباذ

وعن جرير بن المقفع عن وزير كسرى قال: كان قباذ أحمق، كان يأتي البستان فيشم الريحان في منبته ويقول: لا أقلعه رحمة له.

حماقة نصر بن مقبل

عن نصر بن مقبل ـ وكان عامل الرشيد على الرقة أنه أمر بجلد شاة الحد، فقالوا: إنها بهيمة، قال: الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا، فانتهى خبره إلى الرشيد فلما وقف بين يديه قال: مَن أنت؟ قال: مولى لبني كلاب، فضحك الرشيد وقال: كيف بصرك بالحكم؟ قال: الناس والبهائم عندي واحد في الحق، ولو وجب الحق على بهيمة وكانت أمي أو أختي لحددتها ولم تأخذني في الله لومة لائم، فأمر الرشيد أن لا يستعان به.

الموت خير للجاهل من الحياة

حضر بعض حكماء الهند مع وزير ملكهم وكان الوزير ركيكًا فقال للحكيم: ما العلم الأكبر؟ قال: الطب، قال: فإني أعرف من الطب أكثره، قال: فما دواء المبرسم أيها الوزير؟ قال: دواؤه الموت حتى تقل حرارة صدره، ثم يعالج بالأدوية الباردة ليعود حيًا، قال: ومَن يحييه بعد الموت؟ قال: هذا علم آخر وجد في كتاب النجوم ولم أنظر في شيء منه إلا في باب الحياة فإني وجدت في كتاب النجوم أن الحياة للإنسان خير من الموت، فقال الحكيم: أيها الوزير الموت على كل حال خير للجاهل من الحياة.

حسبة ذكية

عرض أبو خندف دوابه فأصاب فيها واحدة عجفاء مهزولة فقال: هاتوا الطباخ، فبطحه وضربه خمسين مقرعة وقال له: ما لهذه الدابة على هذه الحال؟ قال: يا سيدي أنا طباخ ما علمي بأمر الدواب، قال: بالله أنت طباخ! فلم لم تقل

لي، اذهب الآن فإذا كان غدًا أضرب السائس ستين مقرعة يفضل عشرون فطب نفسًا.

ثلاثة وهم رجل واحد[١]

وروى أبو الحسن محمد بن هلال الصابي قال: خرج قوم من الديلم إلى أقطاعهم فظفروا باللص المعروف بالعراقي فحملوه إلى الوزير أبي عبد الله المهلبي فتقدم بإحضار أبي الحسين أحمد بن محمد القزويني الكاتب وكان ينظر في شرطة بغداد، فقال له المهلبي: هذا اللص العيار العراقي الذي عجزتم عن أخذه فخذوه واكتب خطك بتسليمه، فقال: السمع والطاعة إلى ما يأمر به الوزير، ولكنك تقول ثلاثة وهذا واحد فكيف اكتب خطي بتسليم ثلاثة؟ فقال: يا هذا، هذا العدد صفة لهذا الواحد فكتب يقول: أحمد بن محمد القزويني الكاتب تسلمت من حضرة الوزير اللص العيار العراقي ثلاثة وهم واحد رجل، وكتب بخطه في التاريخ. فضحك الوزير وقال لنصراني: هناك قد صحح القزويني مذهبكم في تسليم هذا اللص.

ضـرطـة[٢]

صعد بعض الولاة المنير فخطب فقال: إن أكرمتموني أكرمتكم وإن أهنتموني ليكونن أهون علي من ضرطتي هذه، وضرط ضرطة.

زن من الثاني[٢]

جاز بعض الأمراء المغفلين على بياع الثلج فقال: أرني ما عندك، فكسر له قطعة وناوله، فقال: أريد أبرد من هذا، فكسر له من الجانب الآخر، فقال: كيف سعر هذا؟ فقال: رطل بدرهم ومن الأول رطل ونصف بدرهم، فقال: زن من الثاني.

أبو دلامة وعافية[٣]

عن ابن الأعرابي قال: خاصم أبو دلامة رجلًا إلى عافية فقال:

لقد خاصمتني غواة الرجال ... وخاصمتهم سنة وافيه

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٩٨.
(٢) نفس المصدر ص ٩٩.
(٣) نفس المصدر ص ١٠١.

فـمـا أدحـض الله لـي حـجـة ... ومـا خـيـب الله لـي قـافـيـه
فمن كنت من جوره خائفًا ... فـلسـت أخـافـك يـا عـافـيـه

فقال له عافية: لأشكونك لأمير المؤمنين، قال: لم تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني. قال: والله لئن شكوتني إليه ليعزلنك، قال: لم؟ قال: لأنك لا تعرف الهجو من المدح. (عافية هذا هو ابن زيد القاضي ولاه المهدي القضاء على بغداد).

المثني على نفسه(١)

حدّث عبد الرحمٰن بن مسهر قال: ولّاني القاضي أبو يوسف القضاء (بجبل) وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرّقوا، فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له، فوافى وأبو يوسف في الحراقة، فقلت: يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل، قد عدل فينا وفعل وصنع، وجعلت أثني على نفسي، فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك، فقال هارون: مِمَ تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي، فضحك هارون حتى فحص برجليه وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله، فعزلني.

الأمير أخر الجمعة

عن عليّ بن هشام أنه قال: كان للحجاج قاض بالبصرة من أهل الشام يقال له: أبو حمير، فحضرت الجمعة فمضى يريدها، فلقيه رجل من العراق فقال له: يا أبا حمير فأين تذهب؟ قال: إلى الجمعة، فقال: ما بلغك أن الأمير قد أخّر الجمعة اليوم؟ فانصرف راجعًا إلى بيته، فلما كان من الغد قال له الحجاج: أين كنت يا أبا حمير لم تحضر معنا الجمعة؟ قال: لقيني بعض أهل العراق فأخبرني أن الأمير أخّر الجمعة فانصرفت، فضحك الحجاج وقال: يا أبا حمير أما علمت أن الجمعة لا تؤخر.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠١.

صاحب الشرطة ينظر في الدماء

قال ابن خلف: قال بعض الرواة، تقدم رجلان إلى أبي العطوف قاضي حران فقال أحدهما: أصلح الله القاضي، هذا ذبح ديكًا لي فخذ لي بحقي، فقال لهما القاضي: عليكما بصاحب الشرطة فإنه ينظر في الدماء.

حبس صاحب الحق

قال أبو الفضل الربعي: حدّثنا أبي قال: سأل المأمون رجلًا من أهل حمص عن قضاتهم، قال: يا أمير المؤمنين، إن قاضينا لا يفهم وإذا فهم وهم، قال: ويحك كيف هذا؟ قال: قدم عليه رجل رجلًا فادّعى عليه أربعة وعشرين درهمًا، فأقرّ له الآخر، فقال: أعطه، قال: أصلح الله القاضي، إن لي حمارًا اكتسب عليه كل يوم أربعة دراهم، أنفق على الحمار درهمًا وعلي درهمًا وأدفع له درهمين، حتى إذا اجتمع ماله غاب عني فلم أره فأنفقتها، وما أعرف وجهًا إلا أن يحبسه القاضي اثنا عشر يومًا حتى أجمع له إياها، فحبس صاحب الحق حتى جمع ماله، فضحك المأمون وعزله.

استحلف جاره

وعن أبي بكر الهذلي قال: كان ثمامة بن عبد الله بن أنس على القضاء بالبصرة قبل بلال بن أبي بردة وكان مخلطًا، فاستدعت امرأة إلى ثمامة على رجل أودعته شيئًا ولم يكن لها بينة، فأراد استحلافه لها، فقالت: إنه رجل سوء فيحلف ويذهب حقي، ولكن استحلف إسحٰق بن سويد فإنه جاره، فأرسل إلى إسحٰق واستحلفه.

قاضي تاهرت

حكى أبو الخير الخياط عن بعض أصحابه قال: دخلت (تاهرت) فإذا فيها قاضٍ من أهلها وقد أتى رجل جنى جناية ليس لها في كتاب الله حد منصوص ولا في السنة، فأحضر الفقهاء فقال: إن هذا الرجل جنى جناية وليس لها في كتاب الله حكم معروف فما ترون؟ فقالوا بأجمعهم: الأمر لك، قال: فإني رأيت أن أضرب المصحف بعضه ببعض ثلاث مرات، ثم أفتحه فما خرج من شيء عملت به، قالوا له: وفقت ففعل بالمصحف ما ذكره، ثم فتح فخرج قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [القَلَم: الآية ١٦] فقطع أنف الرجل وخلّى سبيله.

كاتب أحمق(١)

وعن الحسين بن السميدع الإنطاكي قال: كان عندنا بإنطاكية عامل من حلب وكان له كاتب أحمق، فغرق في البحر (شلنديتان) من مراكب المسلمين التي يقصد بها العدو، فكتب ذلك الكاتب عن صاحبه إلى العامل بحلب بخبرهما: بسم الله الرحمٰن الرحيم، اعلم أيها الأمير أعزه الله تعالى إن شلنديتين أعني مركبين قد صفقا من جانب البحر أي غرقا من شدة أمواجه فهلك من فيهما أي تلفوا، قال: فكتب إليه أمير حلب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ورد كتابك أي وصل وفهمناه أي قرأناه أدِّب كاتبك أي اصفعه واستبدل به أي اعزله فإنه مائق أي أحمق والسلام أي انقضى الكتاب.

صام الناس يوم الفطر

عن أبي علي النميري قال: تراءينا هلال شوال، فأتينا سوار بن عبد الله لنشهد عنده، فقال حاجبه: أنتم مجانين، الأمير لم يختضب بعد ولم يتهيأ ولئن وقعت عينه عليكم ليضربنكم مائتين، انطلقوا، فانصرفنا وصام الناس يوم الفطر.

شهادة أحمق

عن أبي بكر النقاض قال: قيل لعبد الله بن مسعود القاضي: تجيز شهادة العفيف التقي الأحمق؟ قال: لا وسأريكم هذا، ادع يا غلام أبا الورد حاجبي، ـ وكان أحمق ـ فلما أتاه قال: اخرج فانظر ما الريح، فخرج ثم رجع فقال: شمال يشوبها جنوب، فقال: كيف ترون أتروني أجيز شهادة مثل هذا؟

تعـــزيـــة

عن عبد الله بن إبراهيم الموصلي قال: نابت الحجاج في صديق له مصيبة ورسول لعبد الملك شامي عنده، فقال الحجاج: ليت إنسانًا يعزيني بأبيات، فقال الشامي: أقول؟ قال: قل، فقال:

(وكل خليل سوف يفارق خليله، يموت أو يصاب أو يقع من فوق البيت أو يقع البيت عليه أو يقع في بئر أو يكون شيئًا لا نعرفه) فقال الحجاج: قد سليتني عن مصيبتي بأعظم منها في أمير المؤمنين إذ وجه مثلك لرسولًا.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠٥.

رسالة إلى طبيب

كتب بعضهم إلى طبيب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ويلك يا يوحنا وامتع بك، قد شربت الدواء خمسين مقعدًا، المغص والتقطيع يقتل بطني والعينين والرأس، فلا تؤخر باحتباسك عني فسوف تعلم أني سأموت وتبقى بلا أنا، فعلت موفقًا إن شاء الله.

نسي علّته

كتب بعضهم إلى صديق له: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وجعلني الله فداءك، لولا علة نسيتها لسرت إليك حتى أُعرفك بنفسي والسلام.

لم يحدث إلا كل خير

كتب رجل من البصرة إلى أبيه: كتبت إليك يا أبت نحن كما يسرك الله عونه وقوته، لم يحدث علينا بعدك إلا كل خير، إلا أن حائطًا لنا وقع على أمي وأخي الصغير وأختي والجارية والحمار والديك والشاة ولم يفلت غيري.

لا تردني فأحرد

كتب بعض ولد الملوك إلى بعض: استوهب الله المكاره فيك برحمته، أنا وحق جدي رسول الله الذي لا إلـٰه إلا هو، أحبك أشد من جدي المتوكل، فقد بلغني أنه قد جاءك من النبيذ شيء كثير كثير شطرًا، وأنا أحبه شديد شديد شطرًا آخر، وبحياتي عليك إلا بعثت إليّ دستجة أو خمس دبات أو ستة أو سبعة أو أكثر جياد بالغة وإلّا فثلاث خماسيات ولا تردني فأحرد موفقًا إن شاء الله.

أما أنا فأذهب(١)

قال الجاحظ: أخبرني أبو العنبس قال: كان رجل طويل اللحية أحمق جارنا، وكان أقام بمسجد المحلة يعمره ويؤذن فيه ويصلّي، وكان يعتمد السور الطوال ويصلي بها، فصلّى ليلة بهم العشاء فطول، فضجُّوا منه، وقالوا: اعتزل مسجدا حتى نقيم غيرك فإنك تطول في صلاتك وخلفك الضعيف وذو الحاجة، فقال: لا أطول بعد ذلك، فتركوه، فلما كان من الغد أقام وتقدم فكبّر وقرأ

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٢.

«الحمد»، ثم فكّر طويلًا وصاح فيهم، إيش تقولون في عبس؟ فلم يكلمه أحد إلا شيخ أطول لحية منه وأقل عقلًا، فإنه قال: كَيْسة مرّ فيها. وقرأ إمام في صلاته (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر، فتم ميقات ربه خمسين ليلة) فجذبه رجل وقال: ما تحسن تقرأ، ما تحسن تحسب. وتقدم إمام فصلّى فلما قرأ «الحمد» افتتح بسورة يوسف، فانصرف القوم وتركوه، فلما أحس بانصرافهم قال سبحان الله! ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: الآية ١] فرجعوا فصلّوا معه وقرأ إمام في صلاته ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ [التكوير: الآية ١] فلما بلغ قوله فأين تذهبون، ارتجّ عليه وجعل يردد حتى كادت تطلع الشمس، وكان خلفه رجل معه جراب فضرب به رأس الإمام وقال: أما أنا فأذهب، وهؤلاء لا أدري إلى أين يذهبون.

أعرابي أحمق

عن أبي عثمان المازني أنه قال: قدم أعرابي على بعض أقاربه بالبصرة، فدفعوا له ثوبًا ليقطع منه قميصًا، فدفع الثوب إلى الخياط فقدر عليه ثم خرق منه، قال: لم خرقت ثوبي؟ قال: لا يجوز خياطته إلا بتخريقه، وكان مع الأعرابي هراوة من أرزن فشجّ بها الخياط، فرمى بالثوب وهرب، فتبعه الأعرابي وأنشد يقول:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فيما مضى من سالف الأحقاب
مَن فعل علج جئته ليخيط لي ... ثوبًا فخرقه كفعل مصاب
فعلوته بهراوة كانت معي ... فسعى وأدبر هاربًا للباب
أيشق ثوبي ثم يقعد آمنًا ... كلا ومنزل سورة الأحزاب

الكريم لا يرجع بهبته

وعن الأصمعي أنه قال: مررت بأعرابي يصلّي بالناس فصلّيت معه، فقرأ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ① وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ②﴾ [الشمس: الآيتان ١، ٢] كلمة بلغت منتهاها لن يدخل النار ولن يراها رجل نهى النفس عن هواها، فقلت له: ليس هذا من كتاب الله، قال: فعلمني فعلمته الفاتحة والإخلاص، ثم مررت بعد أيام، فإذا هو يقرأ الفاتحة وحدها، فقلت له: ما للسورة الأخرى؟ قال: وهبتها لابن عم لي، والكريم لا يرجع في هبته.

فانظر ما تعطيني[(١)]

قال عن الأصمعي: كنت في البادية فإذا بأعرابي تقدم فقال: الله أكبر (سبح اسم ربك الأعلى، الذي أخرج المرعى، أخرج منها تيسًا أحوى ينزو على المعزى) ثم قام في الثانية فقال: (وثب الذئب على الشاة الوسطى وسوف يأخذها تارة أخرى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى إلَا بَلى ألَا بَلى) فلما فرغ قال: اللهم لك عفرت جبيني وإليك مددت يميني فانظر ماذا تعطيني.

يا أعداء الله[(١)]

وعن أبي الزناد قال: جاء أعرابي إلى المدينة فجالس أهل الفقه ثم تركهم، ثم جالس أصحاب النحو فسمعهم يقولون نكرة ومعرفة، فقال: يا أعداء الله يا زنادقة.

القوم لم يرحلوا[(١)]

وعن العلاء بن سعيد قال: قعد طائي وطائية في الشمس، فقالت له امرأته: والله لئن ترحل الحي غدًا لأتبعن قماشهم وأصوافهم ثم لأنفشنه ولأغسلنه ولأغزلنه، ثم لأبعثنه إلى بعض الأمصار فيباع وأشتري بثمنه بكرًا فأرتحل عليه مع الحي إذا ترحلوا، قال الزوج: أفتراك الآن تاركتني وابني بالعراء؟ قالت: أي والله، قال: كلا والله، وما زال الكلام بينهما حتى قام يضربها، فأقبلت أمها فقالت: ما شأنكم، وصرخت: يا آل فلانة أفتضرب ابنتي على كد يديها ورزق رزقها الله، فاجتمع الحي فقالوا: ما شأنكم؟ فأخبروهم بالخبر! فقالوا: ويلكم، القوم لم يرحلوا وقد تعجلتم الخصومة.

امرأتي طالق لوجهك تعالى[(٢)]

عن الأصمعي قال: خرج قوم من قريش إلى أرضهم وخرج معهم رجل من بني غفار، فأصابهم ريح عاصف يئسوا معها من الحياة ثم سلّموا، فأعتق كل رجل منهم مملوكًا، فقال ذلك الأعرابي: اللهم لا مملوك لي أعتقه ولكن امرأتي طالق لوجهك ثلاثًا.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٤. (٢) نفس المصدر ص ١١٥.

لا شــكرًا(١)

كان رجل من الأعراب يعمل في معمل للذهب فلم يصب شيئًا، فأنشأ يقول:

يا ربّ قدر لي في حماسي ... وفي طلاب الرزق بالتماس
صفراء تجلو كل النعاس

فضربته عقرب صفراء سهرته طول الليلة وجعل يقول: يا رب الذنب لي إذ لم أبين لكم ما أريده، اللهم لك الحمد والشكر، فقيل له: ما تصنع أما سمعت قول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] فوثب جزعًا وقال: لا شكرًا لا شكرًا.

صلاة الشتاء(١)

قال الأصمعي: رأيت أعرابيًا يصلّي في الشتاء قاعدًا ويقول:

إليك اعتذاري من صلاتي قاعدًا ... على غير ظهر موميًا نحو قبلتي
فما لي ببرد الماء يا رب طاقة ... ورجلاي لا تقوى على طيّ ركبتي
ولكنني أقضيه يا رب جاهدًا ... وأقضيكه إن عشت في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم ... إلٰهي في صفعي وفي نتف لحيتي

عاتبت غنيًا

وقيل: إن محمد بن عليّ عليه السلام رأى في الطواف أعرابيًا عليه ثياب رثّة وهو شاخص نحو الكعبة لا يصنع شيئًا، ثم دنا من الأستار فتعلّق بها ورفع رأسه إلى السماء وأنشأ يقول:

أما تستحي مني وقد قمت شاخصًا ... أناجيك يا ربي وأنت عليم
فإن تكسني يا رب خفًا وفروة ... أصلي صلاتي دائمًا وأصوم
وإن تكن الأخرى على حال ما أرى ... فمن ذا على ترك الصلاة يلوم
أترزق أولاد العلوج وقد طغوا ... وتترك شيخًا والداه تميم

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٥.

فدعا به وخلع عليه فروة وعمامة وأعطاه عشرة آلاف درهم وحمله على فرس، فلما كان العام الثاني جاء الحج وعليه كسوة جميلة وحال مستقيم، فقال له أعرابي: رأيتك في العام الماضي بأسوأ حال وأراك الآن ذا بزة حسنة وجمال، فقال: إني عاتبت كريمًا فأغنيت.

ما أرى المطلوب غيري

صلّى بعض الأعراب خلف بعض الأئمة في الصف الأول وكان اسم الأعرابي (مجرمًا) فقرأ الإمام: والمرسلات... إلى قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٦] فتأخر البدوي إلى الصف الآخر فقال: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٧] فرجع إلى الصف الأوسط فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٨] فولّى هاربًا وهو يقول: ما أرى المطلوب غيري.

صلاة أعرابي

وكان أعرابي يصلّي، فأخذ قوم يمدحونه ويصفونه بالصلاح، فقطع صلاته وقال: مع هذا إني صائم!

أعرابي يقوم بالليل

وتذاكر قوم قيام الليل وعندهم إعرابي، فقالوا له: أتقوم بالليل؟ قال: أي والله، قالوا: فما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام.

استك(١)

عن سلمة قال: كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه يومًا المهدي وهو يستاك فقال: كيف تأمر من السواك؟ قال: استك يا أمير المؤمنين، فقال المهدي: إنا لله، ثم قال: التمسوا من هو أفهم من هذا، قالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريبًا فلما قدم على الرشيد قال له: يا علي، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف تأمر من السواك؟ قال: سك يا أمير المؤمنين، قال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢١.

مَن ختنــك(١)

عن الوليد أنه قال لرجل: ما شأنك؟ فقال الرجل: شيخ نايفي، فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك؟ فقال: ختني ظلمني، فقال الوليد: ومَن ختنك؟ فنكس الأعرابي رأسه وقال: ما سؤال أمير المؤمنين عن هذا؟ فقال عمر: إنما أراد أمير المؤمنين مَن ختنك؟ فقال: هذا وأشار إلى رجل معه.

أنت في الخرا إلى الحلق

وقع نحوي في كنيف فصاح به الكناس أنت في الحياة قال: ابغِ لي سلمًا وثيقًا وأمسكه إمساكًا رفيقًا ولا بأس علي، فقال له: لو كنت تركت الفضول يومًا لتركته الساعة وأنت في الخرا إلى الحلق.

من طرائف النحاة(٢)

وقف نحوي على زجاج فقال: بكم هاتان القنينتان اللتان فيهما نكتتان خضراوتان؟ فقال الزجاج: (مدهامتان فبأي آلاء ربكما تكذبان).

وعن أبي زيد النحوي قال: وقفت على قصاب وعنده بطون، فقلت: بكم البطنان؟ فقال: بدرهمان يا ثقيلان.

وعن أحمد بن محمد الجوهري قال: سمعت أبا زيد النحوي، قال: وقفت على قصاب وقد أخرج بطنين سمينين فعلقهما، فقلت: بكم البطنان؟ فقال: بمصفعان يا مضرطان. ففررت لئلا يسمع الناس فيضحكون.

قال: حدّثنا أبو حمزة المؤدب قال: حدّثنا أحمد بن محمد القزويني ـ وكان شاعرًا ـ أنه دخل سوق النخاسين بالكوفة فقعد إلى نخاس فقال: يا نخاس اطلب لي حمارًا لا بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر، إن أقللت علفه صبر وإن أكثرت علفه شكر، لا يدخل تحت البواري ولا يزاحم بي السواري، إذا خلا في الطريق تدفق وإذا أكثر الزحام ترفق، فقال له النخاس بعد أن نظر إليه ساعة: دعني، إذا مسخ الله القاضي حمارًا اشتريته لك.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢١. (٢) نفس المصدر ص ١٢٦.

حدّثنا بعض أصحابنا قال: قلت لبقال عندك بسر فرسًا؟ قال: عندي قرعة.

وعن إسحٰق بن محمد الكوفي قال: جاء أبو علقمة إلى عمر الطبيب فقال: أكلت دعلجًا فأصابني في بطني سجح، فقال: خذ غلوص وخلوص، فقال أبو علقمة: وما هذا؟ قال: وما الذي قلت أنت؟ كلمني بما أفهم، قال: أكلت زبدًا في سكرجة فأصابني نفخ في بطني، فقال: خذ صعترًا.

ودخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب، فقال امتع الله بك، إني أكلت من لحوم هذه الجوازم فطئست طسأة[1] فأصابني وجع من الوالبة إلى ذات العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الحلب والشراسيف فهل عندك دواء؟ قال: نعم خذ حرقفًا وسلقفًا وسرقفًا فزهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه، فقال أبو علقمة: لم أفهم عنك هذا، فقال: أفهمتك كما أفهمتني.

قال: حدّثنا أبو عثمان عن أبي حمزة المؤدب قال: دخل أبو علقمة النحوي سوق الجرارين بالكوفة، فوقف على جرار فقال: أجد عندك جرة لا فقداء ولا دباء ولا مطربلة الجوانب، ولتكن نجوية خضراء نضراء قد خفّ محملها وأتعبت صانعها قد مستها النار بألسنتها، إن نقرتها طنت وإن أصابتها الريح رنت؟ فرفع الجرار رأسه إليه ثم قال له: النطس بكور الجروان أحر وجكى، ولدقس باني والطبر لري شك لك بك، ثم صاح الجرار يا غلام شرج ثم درب وإلى الوالي فقرب، يا أيها الناس مَن بلي بمثل ما نحن فيه؟ وأنشد لثعلب:

إن شئت أن تصبح بين الورى ... ما بين شتام ومغتاب
فكن عبوسًا حين تلقاهم ... وكلم الناس بإعراب

مادح سيف الدولة

عن أبي الحسن علي بن منصور الحلبي قال: كنت أحضر مجلس سيف الدولة فحضرته وقد انصرف من غزو عدو له ظفر به، فدخل الشعراء ليهنئوه فدخل رجل وأنشده:

وكانوا كفأر وسْوسُوا خلف حائط ... وكنت كسنور عليهم تسلقا

(١) طسيء: أي أتخم وأكل فوق طاقته.

فأمر سيف الدولة بإخراجه، فقام على الباب يبكي، فأخبر سيف الدولة ببكائه فأمر برده فقال: مالك تبكي؟ فقال: (قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه فلما خاب أملي وقابلني بالهوان ذلت نفسي فبكيت) فقال له سيف الدولة: ويلك مَن يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم! فكم أملت؟ قال: خمس مائة درهم فأمر له بألف درهم.

أُمك طالق

عن الصولي، قال: كان لمحمد بن الحسن ابن فقال له: إني قد قلت شعرًا، قال: أنشديه، قال: فإن أجدت تهب لي جارية أو غلامًا؟ قال: أجمعهما لك فأنشده:

إن الديار طيفا ... هيجن حزنًا قد عفا
أبكينني لشقاوتي ... وجعلن رأسي كالقفا

فقال: يا بني، والله ما تستاهل جارية ولا غلامًا، ولكن أمك مني طالق ثلاثًا إذا ولدت مثلك.

حماقة سيفويه(١)

عن محمد بن العباس بن حيوية قال: قيل لسيفويه: قد أدركت الناس فلم لم تحدث؟ قال: اكتبوا حدّثنا شريك عن مغيرة عن إبراهيم بن عبد الله مثله سواء، قالوا له: مثل إيش؟ قال: كذا سمعنا وكذا نحدث.

عن ابن خلف قال: جاء يومًا رجل من عرس، فسأله سيفويه ما أكل؟ فأقبل يصف له، فقال: ليت ما في بطنك في حلقي.

وقال ابن خلف: قال عبد العزيز القاص: ليت إن الله لم يكن خلقني وإني الساعة أعور، فحكيت ذلك لابن غياث، فقال: بئس ما قال، ووددت والله الذي لا إله إلا هو، إن الله لم يكن خلقني وإني الساعة أعمى مقطوع اليدين والرجلين.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٣١.

وروى أبو العباس بن مشروح قال: كان سيفويه اشترى لمنزله دقيقًا بالغداة وراح عشاء يطلب الطعام، فقالوا: لم نخبز، لم يكن عندنا حطبًا، قال: كنتم تخبزونه فطيرًا.

وحكى أبو منصور الثعالبي أن رجلًا سأل سيفويه عن الغسلين في كتاب الله تعالى فقال: على الخبير سقطت، سألت عنه شيخًا فقيهًا من أهل الحجاز فما كان عنده قليل ولا كثير.

وقف سيفويه راكبًا على حمار في المقابر، فنفر حماره عند قبر منها، فقال: ينبغي أن يكون صاحب هذا القبر بيطارًا.

وقرأ سيفويه (ثم في سلسلة ذرعها تسعون ذراعًا[١]) فقيل له: قد زدت عشرين، فقال: هذه خلقت لبغاء ووصيف، فأما أنتم فيكفيكم شريط بدانق ونصف. وقرأ قارىء بين يديه: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾ [يُونس: الآية ٢٧] فقال: ماذا لقي القوم والله من أجل صلاتهم بالليل.

وقرأ القارىء ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٥٨] فقال: هؤلاء خلاف نسائكم الفجار.

قيل لسيفويه: إن اشتهى أهل الجنة عصيدة كيف يعملون؟ قال: يبعث الله لهم أنهار دبس ودقيق وأرز، ويقال: اعملوا وكلوا واعذرونا.

من هذا عجبت

عن محمد بن الجهم أنه قال: سمعت الفراء يقول: كان عندنا رجل يفسر القرآن برأيه فقيل له: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ [المَاعون: الآية ١] فقال: رجل سوء والله فقيل: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [المَاعون: الآية ٢] فسكت طويلًا، ثم قال: مَن هذا عجبت.

اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف

عن عبد الرحمٰن بن محمد الحنفي قال: قال أبو كعب القاص في قصصه: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا، فقالوا له: فإن يوسف لم يأكله الذئب، قال: فهو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

(١) صحتها «ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه» سورة الحاقة الآية ٣٢.

مَن أحب أن يشهد خاتمة السورة

عن العلاء بن صالح قال: كان عبد الأعلى بن عمر قاصًا، فقصّ يومًا، فلما كاد مجلسه ينقضي قال: إن ناسًا يزعمون إني لا أقرأ من القرآن شيئًا وإني لا أقرأ منه الكثير بحمد الله، ثم قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، فارتجّ عليه فقال: مَن أحب أن يشهد خاتمة السورة فليحضرنا إلى مجلس فلان.

بلبل عليهم عيشهم

حكى أبو محمد التميمي أن أبا الحسن السماك الواعظ دخل عليهم يومًا وهم يتكلمون في أبابيل، فقال: في أي شيء أنتم؟ فقالوا: نحن في ألف أبابيل هل هو ألف وصل أو ألف قطع؟ قال: لا ألف وصل ولا ألف قطع، وإنما هو ألف سخط، ألا ترون أنه بلبل عليهم عيشهم! فضحك القوم من ذلك.

قاصّ أحمق

قال الجاحظ: سمعت قاصًا أحمق وهو يقصّ حديث موسى وفرعون وهو يقول: لما صار فرعون في وسط البحر في الطريق اليابس قال الله للبحر انطبق، فما زال حتى علاه الماء، فجعل فرعون يضرط مثل الجاموس نعوذ بالله من ذلك الضراط. قال: وسمعت قاصًا بالكوفة يقول: والله لو أن يهوديًا مات وهو يحب عليًا ثم دخل النار ما ضرّه حرها.

اقتلوا الشيطان عطشًا

قال بعض القصاص: يا معشر الناس إن الشيطان إذا سمي على الطعام والشراب لم يقربه، فكلوا خبز الأرز المالح ولا تسموا، فيأكل معكم ثم اشربوا الماء وسموا حتى تقتلوه عطشًا.

لا تسألوا عن أشياء

سئل بعض الوعاظ لِم لم تنصرف (أشياء) فلم يفهم ما قيل له، ثم سكت ساعة فقال: تسأل سؤال الملحدين لأن الله يقول: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾(١)

(١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [المائدة: الآية ١٠١].

[المَائدة: الآية ١٠١]. قال بعض الأشياخ: إنه كتب في رقعة إلى بعض القصاص يسأله الدعاء لامرأة حامل، فقرأ الرقعة ثم قلبها وفي ظهرها صفة دواء قد كتبه طبيب وفيه «قنبيل» «وخشيرك» و«افتيمون» ونحو هذا، فظنها كلمات يسأل بها، فدعا وجعل يقول: يا رب قنبيل، يا رب خشيرك ويا رب افتيمون إلى أن نهى ما ذكر.

المزابلي وابن الزكوري(١)

عن عليّ بن المحسن التنوخي قال: كان عندنا بجبل اللكام رجل يسمى أبو عبد الله المزابلي يدخل البلد بالليل فيتتبع المزابل فيأخذ ما يجده ويغسله ويقتاته ولا يعرف قوتًا غيره، أو يتوغل في الجبل فيأكل من الثمرات المباحات، وكان صالحًا مجتهدًا إلا أنه كان قليل العقل، وكان بإنطاكية موسى الزكوري صاحب المجون، وكان له جار يغشى المزابل، فجرى بين موسى الزكوري وجاره شر، فشكاه إلى المزابلي فلعنه في دعائه فكان الناس يقصدونه في كل جمعة فيتكلم عليهم ويدعو، فلما سمعوه يلعن ابن الزكوري جاء الناس إلى داره لقتله فهرب ونهبت داره، فطلبه العامة فاستتر فلما طال استتاره قال: إني سأحتال على المزابلي بحيلة أتخلّص بها فأعينوني، فقالوا له ما تريد؟ قال: أعطوني ثوبًا جديدًا وشيئًا من مسك ونارًا وغلمانًا يؤنسوني الليلة في هذا الجبل، قال: فأعطيته ذلك، فلما كان نصف الليل صعد فوق الكهف الذي يأوي فيه المزابلي فبخر بالند ونفخ المسك فدخلت الرائحة إلى كهف أبي عبد الله المزابلي، فلما اشتمّ المزابلي تلك الرائحة وسمع الصوت قال: مالك عافاك الله ومَن أنت؟ قال: أنا جبرائيل أرسلني ربي، فلم يشك المزابلي في صدق القول وأجهش بالبكاء والدعاء، فقال: يا جبرائيل ومَن أنا حتى يرسلك الله إليّ؟ فقال: الرحمٰن يقرئك السلام ويقول لك موسى الزكوري غدًا رفيقك في الجنة، فصعق أبو عبد الله فتركه موسى فرجع، فلما كان من لغد كان يوم الجمعة أقبل المزابلي يخبر الناس برسالة جبرائيل ويقول: تمسحوا بابن الزكوري واسألوه أن يجعلني في حل واطلبوه لي، فأقبل العامة إلى دار ابن الزكوري يطلبونه ويستحلونه.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٣٥.

يبدل الله سنانهم خشبات

عن أبي النقاش عن شيخ له قال: كنت في جامع واسط ورجلان يحدثان في حديث جهنم، فقال أحدهما: بلغني أن الله عزّ وجلّ يعظم خلق الكافر حتى يكون ضرسه مثل أحد، فقال له الآخر: ليس هذا أمره، وإلى جانبهما شيخ متأله كثير الصلاة فالتفت إليهما فقال: لا تنكروا هذا، إن الله على كل شيء قدير، وتصديق ما كنتما فيه كتاب الله، قالا: وما ذاك يا عم؟ قال: قوله تعالى: (فأولئك يبدل الله سنانهم خشبات) فهو ما يبدل السن خشبة إلا وهو قادر على أن يجعله مثل أحد.

تــــواضـع

عن محمد المخرمي قال: كنا في مجلس فشممت رائحة أنكرتها، فنظرت فإذا رجل قد وضع في شاربه عذرة[1]، فقلت له: ما هذا؟ قال: تواضعًا لربي عزّ وجلّ.

طول اللحية لا يخلف

عن أبي عثمان الجاحظ قال: أخبرني يحيىٰ بن جعفر قال: كان لي جار من أهل فارس وكان بلحية ما رأيت أطول منها قط، وكان طول الليل يبكي، فأنبهني ذات ليلة بكاؤه ونحيبه وهو يشهق ويضرب على رأسه وصدره ويردد آية من كتاب الله تعالى، فلما رأيت ما نزل به قلت: لأسمعن هذه الآية التي قتلت هذا وأذهب نومي، فتسمعت عليه فإذا الآية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢] فعلمت أن طول اللحية لا يخلف.

دعـــــاء

قال الجاحظ: رأيت أبا محمد السيرافي: وكان طويل اللحية يدعو ربه وقد رفع يديه إلى السماء وهو يقول: يا منقذ الموتى ومنجي الغرقى وقابل التوبات وراحم العثرات، أنت تجد مَن ترحمه غيري وأنا لا أجد مَن يعذبني سواك.

---

(١) العذرة: الغائط، أردأ ما يخرج من الطعام.

دعـــاء آخـر

قال الجاحظ: رأيت أبا سعيد البصري يدعو ربه، وكان طويل اللحية أحمق، وهو يقول: يا رباه، يا سيداه، يا مولاه، يا جبرائيل، يا إسرافيل، يا ميكائيل، يا كعب الأحبار يا أويس القرني بحق محمد وجرجيس عليك، ارخص أمتك على الدقيق.

دعـــاء آخـــر

عن بشر بن عبد الوهاب قال: كان يجلس إلى عمود في دمشق رجل جميل الهيئة فرأيته يومًا وقد سجد ويقول في سجوده: سجد لك خضرتي وحمرتي وصفرتي وبياضي وسوادي، خاشعًا ضارعًا خاضعًا ماصًا لبظر أمه ومن أنا عندك الزاني ابن الزانية حتى لا تغفر له؟

لا أدخل بين الأنبياء

قال بعض معارفنا إنه حضر في بعض البلاد عند متزهد، وحضر جماعة يتبركون به، منهم قاضي البلد، فجرى ذكر لوط عليه السلام فقال المتزهد: عليه لعنة الله، فقيل له: ويحك هذا نبيّ، فقال: ما علمت، ثم التفت إلى القاضي فقال: خذ علي التوبة مما قلت، فتاب، ثم أفاضوا في الحديث فجرى ذكر فرعون فقالوا له: ما تقول فيه؟ فقال: أنا الآن تبت فلا أدخل بين الأنبياء.

فطنـة معلم(١)

قال الجاحظ: حدّثنا محمد بن خلف قال: قال بعض المجان مررت ببعض دور الملوك، فإذا أنا بمعلم خلف ستر قائم على أربعة ينبح نبح الكلاب، فنظرت إليه فإذا صبي خرج من خلف الستر، فقبض عليه المعلم، فقلت للمعلم: عرفني خبرك، قال: نعم هذا صبي يبغض التأديب ويفرّ ويدخل إلى الداخل ولا يخرج، وإذ طلبته بكى، وله كلب يلعب به فأنبح له فيظن أني كلبه ويخرج إلي فآخذه.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٤١.

أبلغ من العصا[1]

قال الجاحظ: قلت لبعض المعلمين ما لي لا أرى لك عصا؟ قال: لا أحتاج إليها إنما أقول لمن يرفع صوته أمه زانية فيرفعون أصواتهم وهذا أبلغ من العصاة وأسلم.

معلم مريض[1]

قال غلام للصبيان: هل لكم أن يفلتنا الشيخ اليوم؟ قالوا: نعم، قال: تعالوا لنشهد عليه أنه مريض، فجاء واحد منهم فقال: أراك ضعيفًا جدًا وأظنك ستحم، فلو مضيت إلى منزلك واسترحت، فقال لأحدهم: يا فلان يزعم فلان أني عليل فقال: صدق الله وهل يخفى هذا على جميع الغلمان إن سألتهم أخبروك، فسألهم فشهدوا، فقال لهم: انصرفوا اليوم وتعالوا غدًا.

معلّــم أبله

قيل: إن معلمًا جاء إلى الجاحظ فقال: أنت الذي صنعت كتاب المعلمين تعيبهم؟ قال: نعم، قال: وذكرت فيه بعض المعلمين جاء إلى الصياد وقال: إيش تصطاد طريًا أم مالحًا؟ قال: نعم، قال: ذلك أبله ولو كان فيه ذكاء كان يقف فينظر إن خرج طري علم أو خرج مالح علم.

أدخل سورة في سورة

قال الجاحظ: مررت بمعلم وقد كتب لغلام ـ وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك، فيكيدوا لك كيدًا وأكيد كيدًا فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا ـ فقلت له: ويحك فقد أدخلت سورة في سورة، قال: نعم، إذا كان أبوه يدخل شهرًا في شهر، فأنا أيضًا أدخل سورة في سورة فلا آخذ شيئًا ولا ابنه يتعلم شيئًا.

جمل يعضّ أُذُن نفسه

قال الجاحظ: ومررت بمعلم صبيان وهو جالس وحده وليس عنده صبيانه فقلت له: ما فعل صبيانك؟ قال: ذهبوا يتصافعون، فقلت: اذهب وانظر إليهم،

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين.

فقال: إن كان ولا بد، فغط رأسك لئلا يحسبوك أنا فيصفعوك حتى تعمى. ورأيت معلمًا قد جاءه غلامان قد تعلق كل واحد منهما بالآخر، فقال: يا معلم هذا عض أذني، فقال: ما عضضتها وإنما عضّ أذن نفسه، فقال: يا ابن الخبيثة جمل حتى يعضّ أذن نفسه؟

معلّم يشتم الصبيان

قال أبو العنبس: كان ببغداد معلم يشتم الصبيان، فدخلت عليه وشيخ معي، فقلنا: لا يحل لك، فقال: ما أشتم إلا مَن يستحق الشتم، فاحضروا حتى تسمعوا ما أنا فيه، فحضرنا يومًا فقرأ صبي ـ عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون ـ فقال: ليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد فضحكنا حتى بال أحدنا في سراويله.

بينه وبينهم شرط

قال بعضهم: مررت بمعلم الصبيان، يضربونه وينتفون لحيته، فتقدمت لأخلصه فمنعني وقال: دعهم، بيني وبينهم شرط، إن سبقتهم إلى الكتاب ضربتهم وإن سبقوني ضربوني، واليوم غلبني النوم فتأخرت ولكن وحياتك إلا بكرت غدًا من نصف الليل وتنظر فعلي بهم، فالتفت إليه صبي وقال: أنا أبات الليلة هٰهنا حتى تجيء وأصفعك.

منقذ ذكي

عن أبي الفتح محمد بن أحمد الحريمي قال: كان عندنا بخراسان إنسان قروي فكان له عجل، فدخل داره وأدخل رأسه في جب الماء ليشرب، فبقي رأسه في الجب فجعل يعالج رأسه ليخرجه من الجب فلم يقدر، فاستحضر معلم القرية فقال: قد وقعت واقعة، قال: فما هي؟ فأحضره وأراه العجل فقال: أنا أخلصك أعطني سكينًا فذبح العجل فوقع رأسه في الجب وأخذ حجرًا وكسر الجب، فقال القروي: بارك الله فيك قتلت العجل وكسرت الجب.

مَن عيّر عُيّر

عن أبي العيناء قال: قال لي الجاحظ، كان لنا جار مغفل جدًا وكان طويل اللحية فقالت له امرأته: مَن حمقك طالت لحيتك، فقال: مَن عيّر عُيّر.

أخبرتها بعيوبي كلها

عن إسماعيل بن زياد قال: نشزت على الأعمش امرأته، وكان يأتيه رجل يقال له: «أبو البلاد» فصيح يتكلم بالعربية يطلب منه الحديث، فقال له: يا أبا البلاد: إن امرأتي قد نشزت عليّ وغمّتني، فأدخل عليها وأخبرها بمكاني من الناس وموضعي عندهم، فدخل عليها فقال: إن الله قد أحسن قسمك، هذا شيخنا وسيّدنا، وعنه نأخذ ديننا وحلالنا وحرامنا، لا يغرّك عموشة عينيه ولا خموشة ساقيه، فغضب الأعمش عليه وقال: أعمى الله قلبك، قد أخبرتها بعيوبي كلها، أخرج من بيتي، فأخرجه.

الأحنف والشاب

عن محمد بن سلام قال: قال الشعبي: كان شاب يجلس إلى الأحنف، فأعجبه ما رأى من صمته إلى أن قال له ذات يوم: أود أن تكون على شرف هذا المسجد وأن لك مائة ألف درهم، فقال له: يا ابن أخي، والله إن مائة الألف لمحروص عليها، ولكني قد كبرت وما أقدر على القيام على هذه الشرفة، وقام الفتى، فلما ولّى قال الأحنف:

وكأين ترى من صامت لك معجب   زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أبو الشوارب

عن محمد بن الحسن بن زياد عن بعض ولد أبي الشوارب ـ وكان أحمق ـ أن أباه أمره بتقيير حب فقيَّرَهُ من خارج، فقال له أبوه: ما هذا الفعل؟ قال: إذا شئت أن تقلبه فاقلبه. وحكى أن هذا المذكور قد احتلم ليلة في وقت بارد، وكره أن ينغمس في الماء البارد وطلب شيئًا يسخن فيه الماء فلم يجد، فنزع ثوبه وعبر النهر سباحة حتى استعار شيئًا يسخن فيه الماء ورجع سباحة ثم سخن فيه واغتسل.

روّاد مسجد حمص

عن معمر أنه قال: دخلت مسجد حمص فإذا أنا بقوم لهم رواد، فظننت فيهم الخير فجلست إليهم، فإذا هم ينتقصون عليّ بن أبي طالب ويقعون فيه،

فقمت من عندهم، فإذا شيخ يصلّي ظننت فيه الخير فجلست إليه، فلما أحس بي وسلم قلت: يا عبد الله ما ترى هؤلاء القوم ينتقصون عليًا ويشتمونه، وجعلت أحدثه بمناقبه وأنه زوج بنت رسول الله ﷺ وأبو الحسنين وابن عم الرسول، فقال: يا عبد الله، ما لقي الناس من الناس، ولو أن أحدًا نجا من الناس، لنجا منهم أبو محمد رحمه الله، هوذا يشتم وحده، قلت: ومَن أبو محمد؟ قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي، فقمت عنه وقلت: لا يحل لي أن أبيت في هذه البلدة، فخرجت من يومي.

يفضلون الكباشي على معبد

قال: وفي هذا المعنى قال ابن الماجشون: كان لي صديق مدني فقدته مدة ثم رأيته، فسألته عن حاله فقال: كنت بالكوفة، فقلت: كيف أقمت بها وهم يسبون أبا بكر وعمر؟ فقال: يا أخي قد رأيت منهم أعجب من ذا، قلت: ما هو؟ قال: يفضلون الكباشي على معبد في الغناء، فسمع المهدي بذلك فضحك حتى استلقى.

ما علمت أنك حمار

وعن عليّ بن مهدي قال: مرّ طبيب بأبي واسع فشكا إليه ريحًا في بطنه، فقال له: خذ الصعتر. فقال: يا غلام دواة وقرطاس، وقال: قلت ماذا أصلحك الله؟ قلت: كَفُّ صعتر ومكوك شعير، فقال: لم لَمْ تذكر الشعير أولًا؟ قال: ما علمت أنك حمار إلا الساعة.

بصير بالبراذين

عن ابن خلف قال: كان رجل يعرف بالمسكي يدعي البصر بالبراذين، فنظر يومًا إلى برذون واقف، قد بلع رأس اللجام، فقال: العجب كيف لا يزرعه القيء، أنا لو أدخلت أصبعي في حلقي لما بقي في جوفي شيء، قال: قلت الآن علمت أنك بصير بالبراذين.

يموت إن شاء الله

عن أبي حصين قال: عاد رجل عليلًا فعزاهم فيه، فقالوا له: إنه لم يمت، فقال: يموت إن شاء الله.

متى يحرم على الصائم الطعام؟

عن أبي بكر بن مروان قال: كان يجلس إلى أبي حنيفة رجل يطيل الصمت، فأعجب ذلك أبو حنيفة وأراد أن يبسطه، فقال له: يا فتى، ما لك لا تخوض فيما نخوض فيه؟ فقال الفتى: متى يحرم على الصائم الطعام؟ فقال أبو حنيفة: أنت رجل أعرف بنفسك.

متى يفطر الصائم؟

عن طاهر الزهري قال: كان رجل يجلس إلى أبي يوسف فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تتكلم؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غابت الشمس، قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف وقال: أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعائي لنطقك، ثم قال:

عجبت لازراء العيي بنفسه وصمت الذي كان بالصمت أعلما
وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

أنا أفطر عن أمي

عن المرزبان قال: قال أبو عثمان البصري: كان إخوة ثلاثة، أبو قطيفة والطبلي وأبو كلير، وهم ولد غياث بن أسيد،، فأما أحدهم فكان يحج عن حمزة بن عبد المطلب ويقول: استشهد قبل أن يحج، والآخر يضحي عن أبي بكر وعمر ويقول: غلطا في ترك الأضحية، والآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق، ويقول: غلطت في صوم أيام العيد، فمَن صام عن أبيه فأنا أفطر عن أمي عائشة.

عالِم بالأنساب

وعن ثمامة بن أشرس قال: شهدت رجلًا وقد قدم خصمًا له إلى بعض الولاة فقال: أصلحك الله، أنا رافضي ناصبي، وخصمي جهمي مشبّه مجسم قدري، يشتم الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة على عليّ بن أبي سفيان ويلعن معاوية بن أبي طالب؛ فقال له الوالي: ما أدري مِمَ أتعجب، من علمك بالأنساب أم من معرفتك الألقاب، قال: أصلحك الله، ما خرجت من الكتاب حتى تعلّمت هذا كله.

أسوأ الناس حالًا

عن محمد بن المبرد، عن الحسن بن رجاء، أن الرشيد لما غضب على ثمامة دفعه إلى سلام الأبرش، وأمره أن يضيق عليه، وأن يدخله بيتًا ويطين عليه ويترك فيه ثقبًا، ففعل دون ذلك، وكان يدسّ إليه الطعام، فجلس سلام عشية وهو يقرأ في المصحف، فقرأ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٥] فقال ثمامة: إنما هو (المكذبين)، وجعل يشرح ويقول، المكذبون هم الرسل، والمكذبين هم الكفار، فقال: قد قيل لي إنك زنديق ولم أقبل، ثمَّ ضيق عليه أشد الضيق، قال: ثم رضي الرشيد عن ثمامة فجالسه، فقال: أخبروني عن أسوأ الناس حالًا، فقال كل واحد شيئًا، قال ثمامة وبلغ القول إلي، فقلت: يا أمير المؤمنين، عاقل يجري عليه حكم جاهل فتبينت الغضب في وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعت بحيث أردت، قال: لا والله، فانشرح، فحدّثته بحديث سلام، فضحك حتى استلقى وقال: صدقت، والله لقد كنت أسوأ الناس حالًا.

قياس لا يصح

وعن ابن المرزبان، قال: أخبرني بعض الأدباء قال: قال رجل من العراق لرجل من الشام في كلام جرى بينهما: حلق الله لحيتك، قال: بمكة إن شاء الله. كذلك قال بعض الأدباء، قال: سُئل خطيب أي أفضل معاوية أم عيسى ابن مريم؟ فقال: لا إلـه إلا الله أتقيس كاتب الوحي بنبيّ النصارى...

إقــــرار

وعن ابن المرزبان، قال: دعا رجل من الأشراف بمكة فقال: اللهم إن كنت ما تعرفني فأنا فلان ابن فلان، وأني مررت بعبدك فلان وهو يقول شيئًا فيه فحش، فرفسته فانبطح يفحص برجليه ميتًا، اللهم قد أقررت لك الآن فاغفر لي كما تريد.

ليس هـٰهنا موضع إن شاء الله

خرج رجل إلى السوق يشتري حمارًا، فلقيه صديق له فسأله، فقال: إلى السوق لأشتري حمارًا، فقال: قل إن شاء الله، فقال: ليس هـٰهنا موضع إن شاء الله، الدراهم في كمي، والحمار في السوق، فبينما هو يطلب الحمار سرقت منه الدراهم فرجع خائبًا، فلقيه صديقه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: سرقت الدراهم إن شاء الله، فقال له صديقه: ليس هـٰهنا موضع إن شاء الله.

من تمــد

عن الهذيل، أنه قال: كان عندنا بالمدينة لحام، فجاءته عجوز فقالت: أعطني بدرهم لحمًا وطيّبه لي وأخبرني باسمك حتى أدعو لك، فأعطاها شر لحم وقال: اسمي (من تمد)، فلما أفطرت العجوز جعلت تمد اللحم فلا تقدر عليه، فجعلت تقول لعن الله (من تمد) فتلعن نفسها. وحكى أن قصابًا كان ينادي على اللحم، سري تعالوا على أربعة.

ذكــاء مفرط

عن محمد الداري قال: كان عندنا رجل بدارًا وكان فيه غفلة، فخرج من دارًا ومعه عشرة أحمر، فركب واحدًا وعدها، فإذا هي تسعة، فنزل وعدّها فإذا هي عشرة، فلا زال كذلك مرارًا، فقال: أنا أمشي وأربح حمارًا خير من أن أركب ويذهب مني حمار، فرأيته يمشي حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ تقتل الحمير

عن أبي سعيد الحربي قال: كان إبراهيم بن الخصيب أحمق وكان له حمار، وكان بالعشي إذا علق الناس المخالي أخذ مخلاة حماره فقرأ عليها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] وعلقها عليه فارغة وقال: لعن الله مَن يرى أن مكوك شعير خير من ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾، فما زال حتى نفق الحمار، فقال: والله ما ظننت أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ تقتل الحمير، هي والله للناس أقتل لا قرأتها ما عشت.

فتــــوى

عن أبي إسحٰق الجوني قال: كان لنا جار نحاس يقال له عباس، قد أتى عليه خمس وثمانون سنة؛ قال: فسألته امرأة عن مسألة فقالت له: زوجي طلقني ثلاثًا، فقال: أرضي أبوك وأمك؟ قالت: لا، قال: فإذن يجوز العود حتى يرضى أبوك وأمك، قالت: قد سألت أبا إسحٰق فقال لي: قد طلقت، فقال: وما يدري أبا إسحٰق، أنا أبصر منه وأعلم منه وأكبر منه، أنا ألقيت على أبا إسحٰق مسألة فلم يخرج منها.

سمكة لذيذة

عن المروزي قال: اشترى أبو عبد الحميد سمكة فنام إلى أن تستوي فجيء بالسمكة فأكلتها امرأته مع نساء، ثم مسحت شفتيه وأطراف أصابعه منها، فانتبه فدعا بالغداء وقال: هاتوا السمكة، فقالت له امرأته: يا مخبل أَلَسْتَ قد أكلتها ونمت ولم تغسل يديك؟ فشم يده فوجد ريح السمك فغسل يده وقال: ما رأيت سمكة أمرأ من هذه، قد جعت فهيئوا لي الغداء.

ما شبعت

عن يحيىٰ بن معين قال: اشترى غندر سمكًا فقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده به، فلما انتبه قال: قدّموا السمك، قالوا: قد أكلت، قال: صدقتم ولكني ما شبعت.

نزلت في عهد عمر

دخل على حاتم العقيلي شيخ من أهل الري، فقال: أنت الذي تروي أن النبيّ ﷺ أمر بقراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام؟ قال: قد صح الحديث عن النبيّ ﷺ في ذلك، فقال له: كذبت، إن فاتحة الكتاب لم تكن في عهد رسول الله ﷺ، إنما نزلت في عهد عمر بن الخطاب.

أعظم من المصيبتين

قال المدائني: سمع أسماء بن خارجة نادبة فقال:

فمن للمنابر والخافقات ... والجرد بعد إمام العرب
ومن للطعان وغداة الهياج ... ومَن يمنع البيض عند الهرب
ومَن للعفاة وفك العتاة و ... مَن يفرج الكرب عند الكرب

فقال أسماء: إنها لتندب رجلًا شريفًا فمَن هو؟ فقيل له: إنه فلان البقال ابن وردان الحائك، فقال: هذه أعظم من المصيبتين.

كلبـــــان

عن المدائني: لقي رجل رجلًا ومعه كلبان، فقال: هب لي أحدهما، فقال: أيهما تريد؟ فإن الأسود أحب إليّ من الأبيض، قال: فهب لي الأبيض، قال: الأبيض أحب إليّ من كليهما.

ثلـث القرآن

عن عبد الرحمٰن بن داود قال: لقي تاجر تاجرًا فقال له: ما اسمك ولا تطول، فقال: (أبو عبد منزل القطر عليكم من السماء تنزيلًا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فقال: مرحبًا بك يا ثلث القرآن.

أتعلم السفر

وقال: أخبرني بعض أصحابنا، قال: أراد ناجية الخروج إلى بغداد، فوضع سلمًا وجعل يصعد وينزل، فقيل له: ما تصنع؟ قال: أتعلّم السفر.

قال: ودخل الماء إلى كعبه فصاح الغرق، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن آخذ بالوثيقة. وعنه، دخل على أبي يعقوب وهو يجود بنفسه، فقيل له: قل لا إلٰه إلا الله، فقال:

أمـثـلـي يـروع بـالـنـائـبـا ... ت ويخشى حوادث صرف الزمن
أذلّنـــي الله ذل الـــحـــمـــ ... ـار وأدخـلـنـي حـرّ أمـي إذن

ارفــق بـه

قال: وأخبرني بعض أهل الأدب قال: أراد رجل أن يختن ابنه فقال للحجام: ارفق به، فإنه ما اختتن قط.

أنسى كل يوم

قال الحاكم: سمعت أبا الحسن بن عمر يقول: بعت دارًا لي، فكنت كلما أذنت بباب المسجد أنسى أنني بعتها فأصلّي وأرجع إليها وأفتح الباب وأدخل، فيصحن بي النساء يا رجل اتقِ الله فينا، فأقول: اعذرنني، فإنني ولدت في هذه الدار، وأنسى كل يوم، إلى أن أتى على ذلك مدة.

نصيحـــة

عن أبي الحسن الدامغاني ـ حاجب معز الدولة ـ قال: كنت في دهليز معز الدولة، فصاح صائح، نصيحة، فاستدعيته وقلت: ما نصيحتك! قال: لا أذكرها إلا للأمير، فدخلت فعرفته، فقال: هاته، فأحضرته بين يديه فقال: ما عندك! قال: أنا رجل صياد بناحية المدائن، وكنت أصيد فعلقت شبكتي بأسفل جرف، فاجتهدت في تخليصها فتعذر ذلك عليّ حتى نزلت وغصت في الماء، فإذا هي

معلّقة بعروة حديد، فحفرت فإذا قمقم مملوء مالًا فرددته مكانه وناديت لأعرف الأمير، قال الدمغاني: فانحدرت معه في الوقت إلى المدائن العتيقة وقصدنا الجرف فوجدنا القمقم وقلعناه، وسعيت بنفسي في تتبع الموضع فتقدمت إلى الصياد استقصاء الحفر، فوجدنا سبعة قماقم أخر مملوءة مالًا، فحملنا الجميع إلى معز الدولة فسرّ به فأمر للصياد بعشرة آلاف درهم فامتنع من قبولها وقال: الذي أريده غيرها، قال: ما هو! قال: تجعل لي صيد تلك الناحية وتمنع كل أحد غيري من الصيد، فضحك الأمير وعجب من جهله وحمقه: وأمر له بما سأل.

نهرب من شهر رمضان

عن المدائني عن عمرو بن الحسن قال: خرج أهل بيت من اليمن من منازلهم حتى صاروا إلى شعب من الجبل، فاختفوا فيه وقالوا: نهرب من شهر رمضان لا يدخل علينا.

تفصيل

قال أبو علي الداراني: كان الطالقاني من أصحاب أبي حنيفة، وكان شديد الغفلة، فقال يومًا لابن عقيل: كيف مذهبكم في المرة هل يجوز أن يزوجها ابنها! قال له ابن عقيل: في ذلك تفصيل، إن كانت بكرًا جاز، وإن كانت ثيبًا لا يجوز، فقال: ما سمعت هذا التفصيل قط.

فرس طائر

كان بواسط رجل من المعدلين، إلى جانب داره إصطبل، فقال له أهله: إنا نغسل الثياب في السطح فيطير بعضها إلى الإصطبل فلا يردونه علينا، فقال: وأنتم إذا طار لهم شيء فلا تردوه، قالوا: أي شيء يطير من أرض الإسطبل إلى سطحنا! قال: أي شيء طار مثل لجام ومقود وفرس وغيره.

دجاجة تعرف الطريق

قيل: إن رجلًا من (السندية) وهي على ستة فراسخ من بغداد، جاز بدجاج ليبيعه قريبًا من دجلة ببغداد، فأفلتت دجاجة، فطلبها فلم تقع بيده، فقال لها: اذهبي إلى القرية حتى أبيع الباقي، ثم جاء وباع البواقي ورجع إلى القرية وجعل

يتفقد الدجاجة فلم يرها، فقال لزوجته: أين الدجاجة الرقطاء! فقالت: لا أدري، فقال: تركتها من بغداد لترجع إليكم فما جاءت.

يصح الوقف

عن إبراهيم بن دينار قال: كان رجل يقول إنه فقيه يكنّى أبا الغوث وفيه تغفيل، فقلت له: ما تقول فيمن نذر صوم عاشوراء فاتفق عاشوراء في رمضان هل يجزئه عنها! قال الخرقي: فقد نصّ على أنه يجزئه، فقلت: ما تقول فيمن طلّق امرأته، ثم وقفها، هل يفتقر في هذا الوقف إلى حكم حاكم، قال: أما مذهب أبي حنيفة فيفتقر إلى حكم حاكم، وأما مذهبنا مذهب الشافعي فيصح الوقف.

حيـــــلـة

عن الصقلاطي: أن رجلًا كان عندهم بالجانب الغربي له غلام، فبعثه إلى قرية ليأتيه منها بغنم، فبعثوا معه من الحملان عشرة، وكتبوا معه بعددها رقعة، فجاء الغلام بتسعة، فقال له سيده: كم سلموا إليك! قال: عشرة، قال: هذه تسعة، قال: عدها، فجعل يعدها، يقول واحد، اثنين، ثلاثة إلى أن قال تسعة، فقال الغلام: والله ما أدري ما تقول، وما هي إلا عشرة، فقال: ويحك إني أعدّها، قال: ما هي إلا عشرة وإلا فتدخل إلى الدار عشرة من الرجال وتمسك كل واحد حملًا، قال: افعل؛ فأدخلوا عشرة ومسك كل رجل حملًا وبقي واحد، فقال له السيد: هذا ما معه شيء، فقال: هذا مدير، كان يدخل ويأخذ في الأول.

مَن طلّق مَن؟

عن أبي الفضل أحمد الهمذاني قال: جاءت امرأة إلى القاضي وذكرت أن زوجها طلّقها، فقال القاضي: لك بينة! فقالت: نعم جار لنا، قال: فأحضرته، فقال القاضي: أسمعت طلاق هذه المرأة! فقال: يا سيدي خرجت إلى السوق فاشتريت لحمًا وخبزًا ودبسًا وزعفرانًا، فقال له القاضي: ما سألتك عن هذا، هل سمعت طلاق هذه المرأة! قال: ثم تركته في البيت وعدت فاشتريت حطبًا وخلًا، فقال: دع هذا عنك، فقال: ما أحسن الحديث من أوله، ثم قال: جلت في الدار جولة فسمعت زعقاتهم وسمعت الطلاق الثلاث، فما أدري أهي طلّقته أم هو طلّقها.

تبــــذيـر

عن عليّ بن المحسن عن أبيه قال: بلغنا أن رجلًا أسرع في ماله فبقي منه خمسة آلاف دينار، فقال: أشتهي أن يفنى بسرعة حتى أنظر أيش أعمل بعده، فقال له بعض أصحابه: تبتاع زجاجًا بمائة دينار وتبقيه، وتنفق خمسمائة دينار في أجور المغنيات في يوم واحد مع الفاكهة والطعام، فإذا قارب الشراب أن يفنى أطلقت فأرتين بين الزجاج وأطلقت خلفهما سنورًا فيتعادون في الزجاج فيتكسر وننهب نحن الباقي، فقال: هذا جيد فعمل ذلك وجعل يشرب فحين سكر أطلق الفأرتين والسنور وتكسر الزجاج وهو يضحك فقام الرفقاء وجمعوا الزجاج المكسّر وباعوه، قال الذي أشار عليه: فمضيت إليه بعد فإذا هو قد باع قماش بيته وأنفقه، ونقض داره وباع سقوفها حتى لم يبق إلا الدهليز وهو نائم فيه على قطن متغط بقطن، فقلت: ما هذا! قال: ما تراه، فقلت: بقيت في نفسك حسرة! قال: نعم، أريد أرى المغنية، فأعطيته ثيابًا فلبسها، فرحنا إليها فدخل عليها فأكرمته وسألته عن خبره فحدّثها بالحال، فقالت: قم لئلا تجيء ستي فتراك وليس معك شيء فتحرد علي لم أدخلتك، فاخرج حتى أكلّمك من فوق، فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من الطاقة، فسكبت عليه مرقة سكباج فصيرته فضيحة، فبكى وقال: يا فلان لا تبلغ من أمري هذا، أشهد الله وأشهد أني تائب، قلت: أيش ينفعك التوبة الآن، ورددته وأخذت ثيابي، وبقيت ثلاث سنين لا أعرف له خبرًا، فبينا أنا في باب الطاق يومًا إذ رأيت غلامًا خلف راكب، فلما رآني قال فلان: فعلمت أنه صاحبي وأن حاله قد صلحت، فقبلت فخذه، فقال: قد صنع الله وله الحمد البيت، فتبعته فإذا بالدار الأولى قد رمها وجعل فيها أسبابًا، وأدخلني حجرة أعدها له وفيها فرش حسان وأربعة غلمان، وجاء بفاكهة متوسطة وطعام نظيف، إلا أنه قليل، فأكلنا ومد ستارة فإذا بغناء طيب فلما طابت نفسه قال: يا فلان تذكر أيامنا الأول! قلت: نعم، قال أنا الآن في نعمة متوسطة، وما وهب لي من العقل والعلم بأبناء الزمان أحب إليّ من تلك النعمة، تذكر يوم عاملتني المغنية بما عاملتني به؟ فقلت: من أين لك هذا المال! قال: مات خادم لأبي وابن عم لي بمصر في يوم واحد، فخلفا لي ثلاثين ألف دينار فحملت ووصلت إليّ وأنا بين القطن كما رأيت فعمرت الدار واشتريت ما فيها بخمسة آلاف دينار، وجعلت خمسة آلاف تحت الأرض للحوادث، واشتريت عقارًا بعشرة آلاف وأمري يمشي، وأنا في طلبك منذ سنة

لترى رجوع حالي، ومن دوام صلاح حالي أن لا أعاشرك، أخرجوه ياغلمان، قال: فجروا برجلي وأخرجوني، وكنت ألقاه بعد في الطريق فإذا رآني ضحك.

البصرة في دارك

دخل ربيعة بن عقيل اليربوعي على معاوية فال: يا أمير المؤمنين أعنّي على بناء داري، فقال: أين دارك؟ قال: بالبصرة وهي أكثر من فرسخين في فرسخين، فقال له: فدارك في البصرة أم البصرة في دارك!

لا تقطعوا اللطم

ضاع لرجل ولد، فجاؤوا بالنوائح ولطموا عليه، وبقوا على ذلك أيامًا، فصعد أبوه يومًا الغرفة فرآه جالسًا في زاوية من زواياها، فقال: يا بني أنت بالحياة، أما ترى ما نحن فيه! قال: قد علمت، ولكن هٰهنا بيض قد قعدت مثل القرقة عليه، ما يمكنني أن أبرح، أريد فريخات، أنا أحبهم، فاطلع أبوه إلى أهله فقال: قد وجدت ابني حيًا ولكن لا تقطعوا اللطم عليه، ألطموا كما كنتم.

عادة سـيئة

قال بعضهم: دخلت الكوفة فرأيت صبيًا قائمًا عند شق حائط ومعه خبز وهو يكسر اللقمة ويتركها في شق الحائط ويأكلها، فبينما أنا أنظر إليه إذ أقبل أبوه فرأى ما يفعل فقال: إيش تصنع! قال: يا أبت هؤلاء قد طبخوا سكباجة ويأتي النسيم بريحها فآكل خبزي، فلطمه أبوه وقال: تتعود من صغرك أن لا تأكل خبزًا إلا بأدام.

أمصّه وأرمي تفله

مرض بعض المغفلين فدخل عليه طبيب فسأله عن حاله، فقال: قد اشتهيت الثلج، فقال: الثلج يزيد في رطوبتك فينقص من قوتك، فقال: أنا أمصّه وأرمي تفله.

حب مُفـرِط

حكى عبد الله النوفلي قال: قال مدني إني أحب رسول الله ﷺ حبًا لم يحبه أحد قط، قيل: وما بلغ من حبك له؟ قال: وددت أن عمه أبا طالب أسلم ويسر النبيّ بذلك وأموت كافرًا بدله.

نيّـــة حسنة

قال: ذهب بصر عمرو بن هذاب فدخل عليه إبراهيم بن مجاشع فقام بين يديه فقال: يا أبا أسيد لا تجزعن من ذهاب عينيك وإن كانتا كريمتان عليك، فإنك لو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن يكون الله قد قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وأدمى ظلفك، قال: فصاح به القوم وضحك بعضهم، فقال عمرو: معناه صحيح ونيته حسنة وإن كان قد أخطأ في اللفظ.

ما سمعت منهما شيئًا

وقال: ضرط أبو النجم في ليلة ضرطتين، فخاف أن تكون امرأته قد سمعته، فقال: أسمعتِ شيئًا؟ قالت: لا ما سمعت منهما شيئًا، فقال: لعنك الله فمن أعلمك أنهما اثنتان؟

علـــم

قال بعضهم: رأيت رجلًا محمومًا مصدعًا يأكل التمر ويجمع النوى، فقلت: ويحك، أنت بهذه الحال وتأكل التمر؟ فقال: يا مولاي عندي شاة ترضع وما لها نوى فأنا آكل هذا التمر مع كراهيتي له لأطعمها النوى، فقلت: أطعمها التمر والنوى، قال: أو يجوز ذلك! قلت: نعم، قال: والله لقد فرجت عني، لا إلـٰه إلا الله ما أحسن العلم.

اللجام لي

أجريت خيل فطلع منها فرس سابق فجعل رجل يثب من الفرح ويكبر، فقال له رجل إلى جانبه: أهذا الفرس لك؟ قال: لا ولكن اللجام لي.

تعـــزيـة

دخل بعض المغفلين على رجل يعزيه بأخ له فقال: أعظم الله أجرك ورحم أخاك وأعانه على ما يرد عليه من مسألة يأجوج ومأجوج، فضحك مَن حضر وقالوا له: ويحك ويأجوج ومأجوج يسائلان الناس؟ فقال: لعن الله إبليس، أردت أن أقول هاروت وماروت.

مـزيـــن

وعظ بعض القصاص فقال: إذا كان يوم القيامة خرج من النار رأس عظيم، من صفته كذا وكذا، وفي المجلس رجل يميد من الخوف فقال له: ما الذي بك

أتنكر قدرة الله؟ قال: لا بل إني رجل مزين فلو كلفت حلق هذه الرأس كيف كنت أعمل.

قنـــاعـة

سمع بعض المغفلين أن صوم يوم عاشوراء يعدل صوم سنة، فصام إلى الظهر وأكل، وقال: يكفيني ستة أشهر.

خرى الأسد في سروالي

اعترض الأسد قافلة فرآه رجل منهم فخرّ إلى الأرض فركبه الأسد، فشدّ القوم بأجمعهم على الأسد واستنقذوه، فقالوا له: ما حالك؟ قال: لا بأس عليّ ولكن خرى الأسد في سروالي.

متاع قائم ومتاع مسترخ

قال المأمون لمحمد بن العباس: ما حال غلتنا بالأهواز وسعرها؟ قال: أما متاع أمير المؤمنين فقائم على سوقه، وأما متاع أم جعفر فمسترخٍ، فقال أغرب: لعنك الله.

أبو رَافع لَا يَكْذبُ فِي نَوْمٍ وَلَايقَظةٍ[١]

حُكِيَ أن امرأة أبي رافع[٢] رأته في نومها بعد مَوْته، فقال لها: أتعرفين فلانًا الصَّيْرفيّ[٣]؟ قالت له: نعم، قال: فإن لي عليه مائتي دينار.

فلما انتبهت غَدَتْ إلى الصَّيْرفي فأخبرته، وسألته عن المائتي الدينار! فقال: رحم الله أبا رافع، والله ما جرتْ بيني وبينه معاملة قط!

فأقبلتْ إلى مسجد المدينة فوجدتْ مشايخ من آل أبي رافع، كلهم مقبولُ القول، جائز الشهادة، فقصَّت عليهم الرؤيا، وأخبرتْهم خبرَها مع الصَّيرفي، وإنكاره لما ادّعاه أبو رافع.

---

(١) العقد الفريد: ٤ ـ ٢٠٤.

(٢) أبو رافع: مولى رسول الله ﷺ. وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم، مع بله فيهم وعي شديد.

(٣) الصيرفي: صراف الدراهم.

قالوا: ما كان أبو رافع ليكذبَ في نوم ولا يقظة! قرِّبي صاحِبَك إلى السلطان، ونحن نشهدُ لك عليه.

فلما علم الصيرفي عَزْمَ القوم على الشهادة لها! وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤديَها، قال لهم: إن رأيتم أن تُصْلِحوا بيني وبين هذه المرأة على ما ترونه فافعلوا، قالوا: نعم، والصلحُ خيرٌ، ونعمَ الصلح الشَّطْرُ، فأدِّ إليها مائة دينار من المائتين، فقال لهم: أفعل، ولكن اكْتُبوا بيني وبينها كتابًا يكون وثيقةً لي، قالوا: وكيف تكون هذه الوثيقة؟ قال: تكتبون لي عليها أنها قَبَضَتْ مني مائة دينار صلحًا عن مائتي الدينار التي ادّعاها أبو رافع في نومها، وأنها قد أبْرَأتْني منها، وشرطتْ على نفسها ألا ترى أبا رافع في نومها مرةً أخرى، فيدّعي عليّ بغير هذه المائتي الدينار؛ فتجيء بفلان وفلان يَشْهَدان عليّ لها. فلما سمعوا الوثيقة انْتَبه القوم لأنفسهم، وقالوا: قبَّحك الله، وقبحَ ما جئت به!

أهلِك أعْلَم بِك![1]

كان لأبي الأسود[2] الدؤلي دُكان[3] إلى صدر الجبل يجلس فيه وحده، ويضع بين يديه مائدةً، ويدعو إليها كلَّ مَن يمرّ به، وليس لأحد أن يجلس، فينصرفون عنه.

فمرَّ به صبيٌّ من الأنصار، فقال له أبو الأسود: هلمَّ إلى الغداء يا فتى! فأتى إليه، فلم يَرَ موضعًا يجلسُ فيه، فتناول المائدة فوضعها في الأرض؛ ثم قال: يا أبا الأسود، إن كان لك في الغداء حاجة فانْزل، وأقبل الفتى يأكل، حتى أتى على جميع ما في المائدة، وسقطت آخر الطعام من يده لقمةٌ على الأرض فأخذها، وقال: لا أدَعُها للشياطين! فقال أبو الأسود: والله ما تدعُها للملائكة المقرّبين، فكيف تدعها للشياطين؟ ثم قال له: ما اسْمُك؟ قال: لُقْمان. فقال أبو الأسود: أهْلك كانوا أعلم زمانهم إذ سمَّوْك بهذا الاسم؛ ولم يَعُدْ إلى ما كان يصنع!

---

(١) ذيل زهر الآداب: ١٦٧.

(٢) هو: ظالم بن عمرو، وأبو الأسود كنيته، وكان قد أدرك حياة النبي، وسافر إلى البصرة على عهد عمر، واستعمله عليّ بن أبي طالب على البصرة وكان شيعيًا، وهو أول مَن وضع العربية، توفي سنة ٦٩ هـ.

(٣) الدكان: الدكة المبنية للجلوس عليها.

المقَادِير تصيّر العَيّ خَطيبًا(١)

وُصف عند الحجاج(٢) رجلٌ بالجهل؛ وكانت له إليه حاجةٌ، فقال في نفسه: لَأَخْتَبِرَنَّه! ثم قال له حين دخل عليه: أعِصاميٌّ أنت أم عظاميّ(٣)؟ فقال الرجل: أنا عِصامي وعظامي، فقال الحجاج: هذا أفضلُ الناس، وقضى حاجتَه وزاده، ومكث عنده مُدَّة.

ثم باحَثَه فوجده أجهلَ الناس، فقال له: تصدقني وإلّا قتلْتُك، قال له: قُلْ ما بَدَا لك وأصدقك! قال: كيف أجبتني بما أجبت لمَّا سألْتك عما سألْتُ؟ قال له: واللهِ لم أعلم: أعِصامي خيرٌ أم عظامي! فخشيتُ أن أقول أحدهما فأخطىء فقلتُ: أقول كليهما، فإن ضرَّني أحدهما نفعني الآخر؛ فقال له الحجاج عند ذلك: المقاديرُ تصيّرُ العَيِيَّ خطيبًا!

لَئِن شَكَرتُم لأزيدَنكم(٤)

أخذ الحجّاج لِصًّا أعرابيًّا؛ فضربه سبعمائة سوط، فكلما قرعه بسوط قال: اللّهم شكرًا! فأتاه ابنُ عم له فقال: والله ما دعا الحجاجَ إلى التمادي في ضَرْبِك إلا كثرةُ شُكْرك، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]؛ فقال: أهذا هو في كتاب الله؟ فقال: اللهم نعم، فأنشأ الأعرابي يقول:

يـا ربِّ لا شُـكْـرَ فـلا تَـزدْنـي ... أسرفتُ في شُكْرك فاعفُ عني

بـاعِـدْ ثـواب الـشـاكـريـن مـنّـي

فبلغ قولُه الحجاج، فخلّى سبيله.

يَوْم الحِسَاب(٥)

قال أحد الرواة: كان في زمنِ المهدي(٦) رجل صُوفيّ؛ يركب قَصبةً في كل

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٦٠.
(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي: قائد خطيب، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام، وهو مشهور بشدته، توفي سنة ٩٥ هـ.
(٣) يريد: أشرفت بنفسك أم تفتخر بآبائك الذين صاروا عظامًا.
(٤) عيون الأخبار: ٢ ـ ٥٧. (٥) العقد الفريد: ٤ ـ ١٩٨.
(٦) محمد بن عبد الله من خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولي بعد وفاة أبيه وقام في الخلافة عشر سنين ومات سنة ١٦٩ هـ.

جمعة يومين: الاثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين لمعلّم على صبيانه حُكم ولا طاعة، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان.

شاهدتُه يومًا وقد صعد تلًّا؛ فنادى بأعْلَى صَوْته: ما فعل النبيُّون والمرسلون؟ ألَيْسُوا في أعلى علِّيين؟ فقالوا: بلى! قال: هاتوا أبا بكر الصديق؛ فأُخِذ غلام فأُجْلِس بين يديه، فقال: جزاك الله خيرًا أبا بكرٍ عن الرعيَّة، فقد عَدَلْتَ وقُمْتَ بالقِسط، وخلفت محمدًا ـ عليه السلام ـ في حُسْن الخلافة، ووصلتَ حَبْل الدِّين بعد حَلٍّ وتنازعٍ، وفرغتَ منه إلى أوثق عُروة وأحْسن ثقة، اذهبوا به إلى أعْلى عَلِّيين!

ثم نادى: هاتوا عُمَر، فأُجْلِس بين يديه غلام، فقال: جزاك الله خيرًا يا أبا حفص عن الإسلام، قد فتحتَ الفتوح، ووَسَّعْتَ الفَيْءَ، وسَلَكْتَ سبيل الصالحين، وعدلتَ في الرعية، اذهبوا به إلى أَعْلَى عِلِّيين بحذاء أبي بكر.

ثم قال: هاتوا عثمان؛ فأُتِيَ بغلام فأُجْلِس بين يديه، فقال له: خَلطتَ في تلك السنين، ولكنَّ الله تعالى يقول: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٢]. ثم قال: اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين.

ثم نادى: هاتُوا عليَّ بن أبي طالب، فأُجْلِس بين يديه غلام؛ فقال له: جزاك الله عن الأمة خيرًا أبا الحسن فأنت الوصيُّ، ووليّ النبيّ، بَسَطْتَ العدل، وزهدت في الدنيا، واعتزلت الفَيْءَ، فلم تَخْمِش فيه بناب ولا ظفر، وأنت أبُو الذُّرِّيَّةِ المباركة، وزوج الزكية الطاهرة، اذهبوا به إلى أعلى عِلِّيين.

ثم قال: هاتوا معاوية، فأُجْلِس بين يديه غلام؛ فقال له: أنت القاتل عمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، وأنت الذي جعل الخلافةَ مُلْكًا، واستَأْثَرَ بالفَيْءِ، وحكم بالهَوَى، وبَطِرَ بالنعمة، وأنت أولُ مَن غيَّر سنّة رسولِ الله ﷺ، ونَقَضَ أحكامه، وقام بالبغي؛ اذهبوا به فأَوْقِفوه مع الظَّلَمة.

ثم قال: هاتوا يزيد؛ فأُجلس بين يديه غلام؛ فقال له: أنت الذي قتلتَ أَهْلَ الحَرَّةِ[1]، وأَبَحْتَ المدينة ثلاثة أيام، وانتهكتَ حُرَمَ رسول الله ﷺ،

---

(١) موضع بظاهر المدينة بها كانت وقعت الهرة أيام يزيد.

وآويت المُلْحِدِين، وبُؤْتَ باللعنة على لسان رسول الله ﷺ، وتمثلتَ بشعرِ الجاهلية:

لَيْتَ أَشْياخِي بِبَدرٍ شهِدوا   جَزَعَ الخَزْرَجِ[1] من وَقْعِ الأَسَلِ[2]

وقَتَلْتَ حُسَيْنًا، وحملت بناتِ رسول الله ﷺ سبايا على حَقائب[3] الإبل، اذهبوا به إلى الدَّرَك الأسفل من النار!

ولم يزل يذكر واليًا بعد والٍ حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: هاتوا عمر، فأُتِيَ بغلام، فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام؛ فقد أحييتَ العَدْل بعد موته، وأَلَنْتَ القلوبَ القاسية؛ وقام بك عمودُ الدِّين على ساق بعد شقاق ونِفَاق، اذهبوا به فأَلْحِقُوه بالصديقين، ثم ذكر مَنْ كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكتَ، فقيل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين، قال: فبلغ أمرنا إلى بني العباس! ارفعوا حساب هؤلاء جملة، واقذفوا بهم في النار جميعًا!

إن أعطُو مِنهَا رَضُوا[4]

ركب محمدُ بن سليمان[5] يومًا بالبَصرة وسَوَّار القاضي يُسايره في جنازة ابن عم له، فاعترضه مجنونٌ يُعرف برأسِ النعجة، فقال له: يا محمد؛ أمِنَ العَدْلِ أن تكون نِحلتُك[6] في كلِّ يوم مائة ألفِ درهم، وأنا أطلبُ نصف درهم فلا أقدرُ عليه؟

ثم التفت إلى سوَّار فقال: إن كان هذا عَدْلًا فأنا أَكْفُرُ به؟ فأَسرع إليه غلمانُ محمد؛ فكَفهم عنه، وأمر له بمائة درهم!

---

(١) الخزرج: إحدى قبيلتي الأنصار. (٢) الأسل: الرماح.

(٣) الحقيبة: الرفادة في مؤخر القتب، وكل ما شد في مؤخر رجل أو قتب فقد احتقب.

(٤) المسعودي: ٢ ـ ٢٦٣.

(٥) محمد بن سليمان بن علي العباسي: أمير البصرة وليها في أيام المهدي، واستمر إلى أن توفي فيها، وكان غنيًا نبيلًا سمت نفسه إلى الخلافة؛ وصده عن الجهر بطلبها ما كانت عليه من القوة أيام المهدي والرشيد، توفي سنة ١٧٣ هـ.

(٦) النحلة: العطية.

فلما انصرف محمد وسوّار معه اعترضه رأسُ النعجةِ فقال: لقد كرّم الله مَنْصِبَك[١]، وشرّف أبوّتك، وحسَّن وجهك، وعظّم قدرك، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريده الله بك!

فدنا منه سوّار فقال: يا خبيث؛ ما كان هذا قولَك في البُدَاءَةِ! فقال له: سألتُك بحقِّ الله وبحقِّ الأمير إلا ما أخبرتَني في أي سورة هذه الآية: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: الآية ٥٨]؟ قال: في «براءة» قال: صدَقتَ؛ فبرىء الله ورسوله منك! فضحك محمد بن سليمان حتى كاد يَسقطُ عن دَابَّتِه!

مَا اختَار غَير عَبْد الله بن طَاهِر[٢]

شكا اليزيدي[٣] إلى المأمون خَلَّةً[٤] أصابته وَدينًا لَحِقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ما تُريد؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الأمر قد ضَاقَ عليّ، وإن غُرَمائي قد أَرْهَقوني، قال: فَرُمْ لنفسك أمرًا تنلْ به نَفْعًا.

فقال: لك منادمون، فيهم ما إن حَرَّكتُه نِلتُ منه ما أُحِبُّ، فأَطْلِقْ لي الحيلةَ فيهم، قال: قل ما بَدَا لكَ؛ قال: فإذا حضروا وحضرت فَمُرْ فلانًا الخادم أن يوصّل إليك رُقْعتي، فإذا قرأتَها فأرسل إليّ: دخولُك في هذا الوقت متعذّر؛ ولكن اخْتَرْ لنفسك مَن أحْبَبْت.

فلما علم اليزيدي بجلوس المأمون، واجتماع ندمائه إليه، وتيقّن أنهم في سرورهم أتى البابَ فدَفع إلى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها، فأوصلها إلى المأمون فقرأها، فإذا فيها:

يا خيرَ إخواني وأصحابي ... هذا الطُّفَيليّ لدى البابِ
خُبِّرَ أن القومَ في لذّةٍ ... يَصبُو إليها كلُّ أوّابِ
فصيِّروني واحدًا منكم ... أو أَخرِجوا لي بعضَ أترابي

(١) المنصب: الأصل. (٢) عصر المأمون: ١ - ٣٣٣.
(٣) اليزيدي: يحيى بن المبارك بن المغيرة من علماء العربية والأدب، اتصل بالرشيد فعهد إليه في تأديب المأمون فعاش إلى أيام خلافته، توفي سنة ٢٠٢ هـ.
(٤) الخلّة: الحاجة والفقر.

فقرأها المأمون على مَنْ حَضَره؛ فقالوا: ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيلي على مثلِ هذه الحالةِ؛ فأَرسل إليه المأمونُ: دخولُك في هذا الوقت متعذِّر، فاختر لنفسك مَن أحببتَ تنادمه.

فقال: ما أرى اختيارًا غير عبد الله بن طاهر، فقال له المأمون: قد وقع اختيارُه عليك؛ فسِرْ إليه. قال: يا أمير المؤمنين؛ فما أكون شريك الطفيليّ! قال: ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين، فإن أحببتَ أن تخرجَ وإلا فافْتَدِ نفسك!

فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ له عليّ عشرةُ إلاف درهم! قال: لا أحسب ذلك يُقْنِعهُ منك ومن مُجَالستك؛ قال: فلم يزل يزيده عشرة عشرة، والمأمونُ يقول له: لا أَرْضَى له بذلك، حتى بلغ مائة ألف، فقال له المأمون: فَعجِّلها له؛ فكتب له بها إلى وكيله، ووجّه معه رسولًا، فأرسل إليه المأمون: قبضُ هذه في مثل هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله، وأنفعُ عاقبةً.

أترى الله يُعطِيك وَيَنسَانِي[1]

خرج الرشيد إلى الحجّ فلمّا كان بظَاهِرِ الكُوفة إذ أبْصر بُهلُولًا[2] المجنون على قَصبةٍ، وخَلْفَه الصِّبْيَان وهو يَعْدو، فقال: مَنْ هذا؟ فقيل له: بهلول المجْنون، فقال: كنت أَشْتَهِي أن أراه، فاذعوه مِنْ غير تَرْوِيع فَذَهبُوا إليه وقالوا: أَجِبْ أميرَ المؤمنين؛ فلم يجب، فذهب إليه الرّشيد، وقال: السلام عليك يا بهلول، فقال: عليك السلام يا أمير المؤمنين، فقال: دعَوْتُك لاشتياقي إليك، فقال بهلول: لكنّي لم أَشْتَق إليك! فقال الرشيد: عظْني يا بهلول، فقال: وبِمَ أَعِظك؟ هذي قصورُهم وهذي قُبورُهم! فقال الرشيد: زدني فقد أحسنتُ فقال يا أمير المؤمنين: مَن رزقه الله مالًا وجمالًا، فعفّ في جماله، وواسى في ماله كُتب في ديوان الأَبْرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئًا؛ فقال: قد أمرنا لك أن تَقْضِي دَينَك، فقال: لا، يا أمير المؤمنين، لا يُقضَى الدَّيْن بدَين، ارْدُدِ الحق على أهله، واقْض دين نفسك من نَفْسِك، قال: فإنا قد أمرنا أن يُجري عليك. فقال: يا أمير المؤمنين؛ أَتَرى الله يُعطيك ويَنْساني! ثم ولّى هاربًا.

---

(١) عقلاء المجانين: ٦٩.

(٢) هو بهلول بن عمرو، كان من عقلاء المجانين، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه، وله كلام مليح، ونوادر وأشعار، توفي سنة ١٩٠.

أبو دُلَف وَجُعَيْفِرَان المُوسَوِي[١]

قال عليّ بن يوسف: كنتُ عند أبي دُلَفٍ[٢] القاسم بن عيسى العجليّ، فاستأذَنَ عليه حاجبُه لجُعيْفِران[٣] الموسوس، فقال له: أي شيء أصنع بموسوس؟ قد قضينا حقوقَ العقلاء، وبقي علينا حقوقُ المجانين! فقلت له: جُعِلتُ فداءَ الأمير، موسوس أفضلُ من كثيرٍ من العقلاء، وإن له لسانًا يُتَّقَى، وقولًا مأثورًا يَبْقَى. فالله الله أن تَحْجُبَهُ! فليس عليك منه أذًى ولا ثقل؟ فأَذِنَ له. فلما مَثَلَ بين يديه قال:

يا أكرمَ العَالَم مَوْجودًا ويا أعزَّ الناس مفقودًا
لما سألتُ الناسَ عن واحدٍ أصبح في الأُمَّةِ محمودًا
قالوا جميعًا: إنه قاسمٌ أَشْبَهَ آباءَ له صِيدًا[٤]
لو عَبَدُوا شيئًا سِوَى ربِّهِمْ أصبحتَ في الأمَّةِ معبودًا
لا زلتَ في نُعمى وفي غِبْطَةٍ مُكَرَّمًا في الناس مَغْدُودًا

فأمر له بِكُسْوَة وبألف درهم فلما جِيء بالدراهم أخذ منها عشرة وقال: تأمر القَهْرَمان[٥] أن يُعْطِيني الباقي مُفَرّقًا كلما جئتُ؛ لئلا تضيعَ مني، فقال للقهرمان: أعطِهِ المال، وكلما جاءك فأعْطِه ما شاء حتى يفرِّق الموت بيننا، فبكى عند ذلك جُعيفران وتنفّس الصُّعَدَاء وقال:

يَمُوتُ هذا الذي أَرَاهُ وكل شيء له نفادُ
لو غيرُ ذي العرش دام شيءٌ لدام ذَا المُفْضِلُ الجوادُ

ثم خرج. فقال أبو دُلَف: أنت كنتَ أعلم به مني.

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٦٤.

(٢) أبو دلف: هو أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده، كان كريمًا سريًا جوّادًا ممدحًا شجاعًا. مقدمًا ذا وقائع مشهورة، وصنائع مأثورة. وله مشاركة في الغناء، توفي سنة ٢٢٦ هـ.

(٣) ولد جعيفران ببغداد ونشأ بها، ثم سكن سر من رأى، وكان أديبًا شاعرًا مطبوعًا، وغلبت عليه المرة السوداء فاختلط في أوقاته، ثم كان إذا أفاق تاب إليه عقله وطبعه فقال الشعر الجيّد.

(٤) الأصيد: الملك، ورافع رأسه كبرًا.

(٥) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على ما تحت يده، وهو من أُمناء الملك وخاصته.

قال: وغَبَر[١] عني مدة ثم لقيني، وقال: يا أبا الحسن؛ ما فعلَ أميرُنا وسيدنا؟ وكيف حالُه؟ فقلت: بخير وعلى غاية الشوق إليك. فقال: أنا والله يا أخي أشوق. ولكني أعرفُ أهلَ العسكر وشرَهَهُم وإلحاحهم؛ والله ما أراهم يتركونه من المسألة ولا يتركُه كرمُه أن يخلِّيهم من العطية حتى يخرجَ فقيرًا. فقلت: دع هذا عنك وزِرْه؛ فإن كثرة السؤال لا تضرُّ بماله. فقال: وكيف؟ أهو أيسر من الخليفة؟ قلت: لا. قال: والله لو تبذَّل[٢] لهم الخليفة كما يتبذَّل أبو دلف وأطمعَهم في ما كما يُطْمِعُهم لأفقَروه في يومين، ولكن اسمعْ ما قلته في وقتي هذا. فقلت: هاته يا أبا الفضل! فأنشأ يقول:

أبا حسَنٍ بَلِّغَنْ قاسمًا ... بأني لم أجْفُه عن قِلَا[٣]
ولا عن مَلَالٍ لإتيانِهِ ... ولا عن صدود ولا عَنَا
ولكن تعَفَّفْتُ عن ماله ... وأصْفَيْتُه[٤] مِدْحتي والثَّنا
أبو دلف سيدٌ ماجدٌ ... سنِيُّ العطيَّةِ رحبُ الفِنَا
كريم إذا انْتَابَهُ المعْتَفُو ... ن عمَّهُم بجزيلِ الحِبَا[٥]

قال: فأبلغتها أبا دلف، وحدّثْتُه بالحديث الذي جرى. فقال لي: قد لقيتُه منذ أيام، فلما رأيته وقفتُ له وسلّمت عليه وتحفَّيْتُ[٦] به؛ فقال لي: سِرْ أيُّها الأمير على بركة الله، ثم قال لي:

يا معديَ الجود على الأموال ... ويا كريمَ النفس في الفعالِ
قد صُنْتَنِي عن ذِلَّةِ السؤال ... بجودِك المُوفِي على الآمالِ
صانك ذُو العزةِ والجلالِ ... من غِيَرِ الأيام واللَّيَالِي

قال: ولم يزل يختلفُ إلى أبي دُلَف ويَبَرّه حتى افترقَا.

أعجَب مَا رَأيت مِنَ المجانِين[٧]

حدث المبرد[٨] قال: قال لي المازني: بلغني أنك تنصرف من مجلسنا إلى

---

(١) غبر: مكث وذهب ضد.
(٢) الابتذال: ضد الصيانة.
(٣) القلا: البغض.
(٤) أصفيته مدحتي: أخلصتها له.
(٥) الحباء: العطاء.
(٦) تحفى به: بالغ في إكرامه.
(٧) معجم الأدباء: ١٩ ـ ١١٦.
(٨) هو محمد بن يزيد، المعروف بالمبرد إمام العربية في زمنه ببغداد وأحد أئمة الأدب والأخبار. =

مواضع المجانين والمعالجين[1] فما معنى ذلك؟ فقلت: أعزّك الله تعالى؛ إن لهم طرائف من الكلام! قال: فأخبرني بأعجب ما رأيت من المجانين! فقلت: صرتُ يومًا إليهم فمررت على شيخٍ منهم، وهو جالسٌ على حصير قصبٍ، فجاوزتُه إلى غيره، ففال: سبحان الله! أين السلام؟ مَن المجنون؛ أنا أم أنت؟ فاستحييتُ منه، وقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: لو كنتَ ابتدأتَ لأوجبتَ علينا حُسْنَ الرَّدِّ، على أنّا نصرفُ سوءَ أدبك إلى أحسنِ جهاته من العذر، لأنه كان يقال: إن للداخل على القوم دهشةً، اجلس ـ أعزّك الله ـ عندنا، وأومأ إلى موضعٍ من الحصير، فجلستُ إلى ناحية منه، فقال لي ـ وقد رأى معي مَحْبَرتي: أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما: أصحابِ الحديثِ الأغثاث، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟ قلت: الأدباء! قال: أتعرفُ أبا عثمانَ المازني؟ قلت: نعم! قال: أتعرف الذي يقول فيه القائل:

وفـتًـى مِـن مـازنٍ أسـتـاذ أهـل الـبَـصْـرَهْ
أمُّـهُ مـعـرفـةٌ وأبـوه نَـكِـرَهْ

فقلت: لا أعرفه، فقال: أتعرفُ غُلامًا له قد نبغَ في هذا العصر، له ذهنٌ وحفظ وقد برّز في النحو، يعرف بالمُبَرِّد؟ فقلت: أنا والله الخبير به! قال: فهل أنشدكَ شيئًا من شعره؟ قلت: لا أحسِبُه يُحْسِنُ قول الشعر! فقال: يا سبحان الله! أليس هو القائل:

حَـبَّـذَا مـاءُ الـعـنـاقـيـد بـريـقِ الـغـانـيـاتِ
بـهـمـا يـنـبـتُ لَـحْـمِـي ودَمِـي أيَّ نـبـاتِ

قلت: قد سمعتُه ينشد هذا في مجلس أُنسٍ؛ فقال: يا سبحان الله! ألا يستحي أن ينشد مثل هذا الشعر حول الكعبة؟ ثم قال: ألم تسمع ما يقولون في نَسَبه؟ قلت: يقولون: إنه من الأزد أزدشنوءة، ثم من ثُمَالة! قال: أتعرفُ القائل في ذلك:

سـألْـنـا عـن ثُـمَـالَةَ كـل حَـيٍّ فـقـال الـقـائـلون: ومـا ثُـمَـالَهْ؟

= مولده ببغداد وتوفي بها سنة ٢٨٦ هـ.

(١) المدخولين في عقولهم، والمتعاطين للعلاج.

فقلت: محمد بن يزيد منهم فقالوا: زِدْتَنا بهمُ جَهالَهْ!
فقال لي المبرّدُ: خلّ قومي فقومي مَعْشَرٌ فيهمْ نَذالَهْ!

فقلت: أعرفه! هذا عبدُ الصمد بن المعذّلِ يقولها فيه! فقال: كذب فيما ادّعاه! هذا كلامُ رجلٍ لا نسب له، يريد أن يُثْبتَ له بهذا الشعر نسبًا، فقلت له: أنت أعلم! فقال: يا هذا، قد غلبت خفَّةُ روحك على قلبي، وقد أخَّرتُ ما كان يجب تقديمه، ما الكنية؟ أصلحك الله! فقلت: أبو العباس، قال: فما الاسم؟ قلت: محمد، قال: فالأب؟ قلت: يزيد. قال: قبّحَك الله! أحوجتني إلى الاعتذار بما قدمتُ ذكرَه، ثم وثب وبسط يده فصافحني، فرأيتُ القيدَ في رجْله، فأمِنْتُ غائلته، فقال: يا أبا العباس، صُنْ نفسَك من الدخول في هذه المواضع؛ فليس يتهيّأ في كل وقتٍ أن تصادف مِثْلي على مثل حالي، ثم قال: أنت المبرّد! أنت المبرّد! وجعل يصفِّقُ، وانقلبت عيناه، واحمرّت وتغيّرت حالته، فبادرت مسرعًا خوفَ أن تبدرَ إليّ منه بادرة؛ وقبلتُ منه والله نُصْحه، ولم أعاودْ بعدها إلى تلك المواضع أبدًا!

مَجنُون أديب[1]

قال أبو العباس أحمد بن يحيىٰ المعروف بثَعْلَب[2]: كان ببغداد فتًى يُجَنُّ ستَّةَ أشهر، فاستقبلني يومًا ببعض السكك فقال: ثعلب! قلت: نعم، قال: فأنشدني، فأنشدته:

وإذا مررتَ بقَبْرِه فاعْقِر به كُومَ[3] الهِجان وكلَّ طِرْفٍ[4] سابحِ
وانْضَحْ جوانبَ قبره بدمائها فَكذا يكون أخا دَمٍ وذبائحِ

فضحك ثم سكت ساعة؛ وقال: ألا قال:

اذهبا بي إن لم يكن لكما عقـ ـرٌ على تُرْب قبره فاعقِراني
وانْضَحا من دمي عليه فقد كا نَ دَمِي من نَدَاه لو تعلمانِ

(١) عقلاء المجانين: ١٣٥، نهاية الأرب: ٣ ـ ٢١٣.
(٢) أحمد بن يحيىٰ إمام الكوفيين في النحو واللغة كان راوية للشعر مشهورًا بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة، توفي سنة ٢٩١ هـ.
(٣) الكوم: القطعة من الإبل. (٤) الطرف: الكريم من الخيل.

ثم رآني يومًا بعد ذلك فتأمّلني، وقال: ثعلب! قلت: نعَم؛ قال: أنشدني، فأنشدته:

أعَارَ الجَوْدَ[١] نائِله ... إذا ما مالُهُ نَفَدا
وإنْ أسدٌ شَكَا جُبنًا ... أعار فؤادَه الأسَدَا

فضحك وقال: ألا قال:

عَلمَ الجَوْدَ الندى حتى إذا ... ما حكاه علم البأسَ الأسدْ
فله الجوْدُ مُقِرٌّ بالندى ... وله الليثُ مقرٌّ بالْجَلدْ

غِنًى وغفلَة[٢]

كان بمصر شريف من وَلَد العباس يعرف بأبي جعفر؛ شبيه بابن الجصاص في الغفلة والجَدّ والنّعمة.

قال أبو القاسم بن محمد التنوخي: بعثني أبي إليه من قرية تعرف بتلا يستَقْرضه عشرة أرادب قمحًا وثلاثين زوج بقر، وكتب معي بذلك رقعة، فأتيتُ إليه وسلّمت عليه، ودفعت إليه الرقعة؛ فقال: ذكرتُ أباك، فهو صاحبي وصديقي وخليطي! وأين هو الآن؟ قلت: بقرية تلا ـ أعزَّ الله سيدي الشريف! قال: نعم! حفظه الله! هو بالفُسْطاط معنا، وقد انقطع عنا كذا! ما كنت أظنه إلا غائبًا!

قلت: لا سيدي هو بتلا! قال: فما لك ما قلتَ لي؟ فما كان سبيله أن يؤنسني برقعة من قبَله؟ قلت: يا سيدي، قد دفعت إليك رُقْعته! قال: وأين هي؟ قلت: تحت البساط! فأخذها وقرأها، وقال: قل لي الآن، أكان لك أخٌ أعرفه حاد الذهن يحسن النحو والعروض والشعر؛ فما فعلَ الله به؟ قلت: أنا هو ـ أعزَّك الله! قال: كبرتَ كذا! وعهدي بك تأتيني معه؛ قلت: نعم! أيّد الله الشريف!

قال: وما الذي جئتَ فيه؟ قلت له: والِدِي بعثني إليك برقعة يسألك فيها قرض عشرة أرادب قمحًا وثلاثين زوج بقر. قال: وهو الآن بالفسطاط؟! قلت: لا يا سيدي هو بتلا! قال: نعم! وإنما ذاك الفتى أخوك؟ قلت: لا! أنا هو.

---

(١) الجود: المطر الغزير.

(٢) ذيل زهر الآداب: ٢٢٢.

فصار يراجعني في الكلام وقد ضجرتُ من شدَّة غَفْلَته، وكثرة نسيانه لما أقُول له، حتى أقبل كاتبُه أبو الحسين، فقال له: سَلْ هذا الفتى ما يريد؟ فسألني فعرَّفْتُه فأخبره، فقال له: نفِّذْ له حاجته. فوقّع لي الكتاب بما أراد، وقال: تَلْقَاني للقَبْضِ بالديوان، فشكرت الشريف ونهضت! فقال: اصبر يا بنيّ فقد حضرَ طعامُنا؛ وقدم الطعام، وفيه طعام غير جيد، فرفع يده، وقال: مثل مطبخي يكون فيه مثل هذا! عليّ بالطبّاخ! فأتى، فقال له: ما هذا العمل! فقال: يا سيدي؛ إنما أنا صانع، وعلى قَدْرِ ما أُعْطَى أعمل! وقد سألت المُنفِق أن يشتريَ لي ما أحتاجُ إليه فتأخر عنّي، فعملتُ على غير تمكّن؛ فجاء التقصير كما ترى.

فقال: عليّ بالْمُنْفِق فأُحْضر، فقال: مَالي قليل؟ قال: لا، يا سيدي إنما أُنْفِق ما أُعْطَى، وقد سألت الجِهْبِذَ[1] أن يدفعَ لي فتأخر عني؛ فقال: علي بالجِهْبِذِ! فأُتِي به. فقال: مالك لم تدفع للمُنْفِق شيئًا؟ قال: لم يوقِّع لي الكاتب! فقال للكاتب: لِمَ لَمْ تدفع إليه شيئًا؟ فتَلعْثم في الكلام، ولم يكن عنده جوابٌ؛ فقال للكاتب: قف هٰهنا، فوقف، ووقف خلفه الجِهْبِذُ، ووقف خلف الجهبذ المنفق، وخلف المنفق الطباخ، وقال: ليصنع كلُّ واحد منكم بمن يَليه بأكثر ما يقدر عليه فتصافعوا.

قال: فخرجت وأنا متعجّب من غباوته وغَفْلته!

حِذاء أَبِي القَاسِمِ[2]

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطُّنْبُورِي، وكان له مَدَاسٌ[3]، وهو يَلْبَسُه سبعَ سنين، وكان كلما تقطّع منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في غاية الثِّقَل، وصار الناسُ يضربون به المثل.

فاتّفق أنه دخل يومًا سوق الزجاج، فقال له سِمْسَار[4]: يا أبا القاسم، قد قَدِمَ إلينا اليوم تاجر من حَلَب، ومعه حِمْلُ مُذَهَّب قد كسدَ، فاشتَرِه منه، وأنا أبيعه لك بعد هذه المدة؛ فَتَكْسِبُ به المثل مِثْلَيْنِ! فمضى واشتراه بستِّين دينارًا.

(١) الجهبذ: النقاد الخبير، ويريد القائم بالإنفاق وحفظ الأموال.
(٢) مجاني الأدب: ٣ ـ ٢٣٢. (٣) المداس كسحاب: الذي يلبس في الرجل.
(٤) السمسار: المتوسط بين البائع والمشتري.

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين؛ فصادفه سِمْسَار آخر، وقال له: يا أبا القاسم، قد قدِم إلينا اليوم من نَصِيبين[١] تاجرٌ، ومعه مَاءُ وَرْد، ولِعَجَلَةِ سفره، يمكن أن تشتريه منه رخيصًا، وأنا أبيعه لك فيما بعد، بأقرب مدة؛ فتكْسِبُ به المثل مِثْلين!

فمضى أبو القاسم، واشتراه أيضًا بستين دينارًا أخرى، وملأ به الزجاج المذهّب وحمله، وجاء به فوضعه على رَفٍ من رفوف بيته في الصَّدْر!

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يغتسل؛ فقال له بعض أصدقائه: يا أبا القاسم؛ أشْتهي أن تغيّر مداسك هذا! فإنه في غاية الشناعة! وأنت ذو مال بحمد الله! فقال له أبو القاسم: الحقُّ معك؛ فالسَّمْعُ والطاعة.

ثم إنه خرج من الحمام، ولبس ثيابه، فرأى بجانب مداسه مداسًا آخر جديدًا؛ فظنّ أن الرجلَ من كرمه اشتراه له؛ فلبسه، ومضى إلى بيته!

وكان ذلك المَدَاسُ الجديدُ للقاضي، وقد جاء في ذلك اليوم إلى الحمَّام، ووضع مَدَاسَه هناك، ودخل يَسْتَحِمُّ!

فلما خرج فتّش عن مداسه؛ فلم يَجِدْهُ؛ فقال: أَمَنْ لبس حذائي لم يترك عوضه شيئًا؟ ففتّشُوا؛ فلم يجدوا سوى مداس أبي القاسم! فِعرفوه؛ لأنه كان يُضْرَب به المثل!

فأرسل القاضي خدَمَه، فكَبَسُوا[٢] بيته، فوجدوا مداسَ القاضي عنده؛ فأحضره القاضي، وضربه تأديبًا له، وحبسه مدة، وغرمه بعض المال وأطلقه!

فخرج أبو القاسم من الحبس، وأخذ حذاءه، وهو غضبان عليه، ومضى إلى دجلة، فألقاه فيها؛ فغاص في الماء!

فأتى بعض الصيادين ورمى شَبَكته، فطلع فيها! فلما رآه الصيَّاد عرفه، وظنّ أنه وقع منه في دجلة! فحمله وأتى به بيت أبي القاسم؛ فلم يجده! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت، فرماه منها إلى البيت، فسقط على الرف الذي فيه الزجاج، فوقع، وتكسّر الزجاج وتبدّد ماءُ الورد!

---

(١) قاعدة ديار ربيعة.

(٢) كبس داره: هجم عليها واحتاط بها.

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك فعرف الأمر، فلطم وجهه، وصاح يبكي، وقال: وافَقْرَاه! أفْقَرني هذا المداس الملعون!

ثم إنه قام ليَحْفُرَ له في الليل حُفْرَة، ويدفنه فيها، ويرتاح منه؛ فسمع الجيرانُ حسّ الحفْرِ؛ فظنوا أن أحدًا ينقب عليهم؛ فرفعوا الأمر إلى الحاكم؛ فأرسل إليه، وأحضره، وقال له: كيف تَسْتَحِلُّ أن تنقبَ على جيرانك حائطهم! وحبَسه، ولم يُطْلِقَه، حتى غَرِم بعض المال!

ثم خرج من السجن ومضى وهو حَرْدان[١] من المداس، وحمله إلى كنيف الخان، ورماه فيه، فسدَّ قصبة الكنيف؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة الكريهة! وبحثوا عن السبب؛ فوجدوا مداسًا فتأملوه؛ فإذا هو مداسُ أبي القاسم! فحملوه إلى الوالي، وأخبروه بما وقع؛ فأحضره الوالي، ووبخه وحبسه، وقال له: عليك تصليح الكنيف! فغرم جُمْلة مال، وأخذ منه الوالي مقدار ما غرّم تأديبًا له وأطلقه.

فخرج أبو القاسم والمدَاسُ معه، وقال ـ وهو مغتاظ منه: والله ما عدتُ أُفارقُ هذا المدَاس!

ثم إنه غَسَلَه وجعله على سطح بيته حتى يجف؛ فرآه كلب؛ فظنّه رِمَّة[٢] فحمله وعبر به إلى سطح آخر؛ فسقط من الكلب على رأس رجل، فآلمه وجرحه جرحًا بليغًا، فنظروا وفتشوا لمن المداس، فعرفوا أنه لأبي القاسم!

فرفعوا الأمر إلى الحاكم؛ فألْزَمه بالعِوَض، والقيام بلوازم المجروح مُدّة مرضه! فنفِدَ عند ذلك جميعُ ما كان له، ولم يبق عنده شيء!

ثم إن أبا القاسم أخذ المداس، ومضى به إلى القاضي، وقال له: أريد من مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا المداس مبارأة شرعية على أنه ليس مني ولستُ منه! وأن كلّا منا بريء من صاحبه، وأنه مهما يفعلْه هذا المداس لا أُؤاخذ أنا به! وأخبَره بجميع ما جرى عليه منه!

فضحك القاضي منه ووصله ومضى!

---

(١) حردان: عضبان.

(٢) الرمة بالكسر: العظام البالية.

من طرائف الحمقى والمغفلين(١)

قيل لمغفل: قد سرق حمارك فقال: الحمد لله الذي ما كنت عليه.

نظر رجل في الجب فرأى وجهه فعاد إلى أمه فقال: في الجب لص، فجاءت الأم فاطلعت فقالت: أي والله ومعه فاجرة.

ذكر رجل بين يدي رجل فقال: إنه رجل سوء، قيل له: من أين علمت؟ قال أفسد بعض أهلي، قيل: ومَن أفسد؟ قال: أمي صانها الله.

سئل بعضهم عن مولده فقال: ولدت رأس الهلال للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام، احسبوا الآن كيف شئتم.

كتب بعضهم إلى أبيه: كتابي إليك يوم الجمعة، عشية الأربعاء لأربعين ليلة خلت من جمادى الأوسط، وأعمك أني مرضت مرضة لو كان غيري كان قد مات، فقال أبوه: أمك طالق ثلاثًا، لو مت لما كلمتك أبدًا.

دعا بعض المغفلين فقال: اللهم ارزقني خمسة آلاف درهم حتى أتصدق منها بألفي درهم وإن لم تصدقني فادفع إلي ثلاثة آلاف درهم واحبس الباقي، فإن تصدقت وإلا فتصدق بها على مَن شئت.

خرج بعض المغفلين من منزله ومعه صبي عليه قميص أحمر، فحمله على عاتقه، ثم نسيه، فجعل يقول لكل مَن رآه: رأيت صبيًا عليه قميص أحمر؟ فقال له إنسان: لعله الذي على عاتقك؟ فرفع رأسه ولطم الصبي وقال: يا خبيث ألم أقل لك إذا كنت معي لا تفارقني.

نظر بعض المغفلين إلى منارة الجامع فقال: ما كان أطول هؤلاء الذين عمروا هذه! فقال آخر: اسكت ما أجهلك، ترى أنه في الدنيا أحد طول هذه؟ وإنما بنوها على الأرض ثم رفعوها.

قال: ورأيت رجلًا طويل اللحية على حمار يضربه، فقلت: ارفق به، فقال: إذا لم يقدر يمشي فلم صار حمارًا.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٧٠.

تفاخر مصري ويمني، فقال المصري: هلكت والله اليمن إذ لم يكن منها رسول الله ﷺ ولا يدخل الجنة أهلها، فقال اليمني: فابن المهلب وأولاده يحاربون عليها حتى يدخلوها بالسيف.

كان بعض المغفلين يقول: اللهم اغفر لي من دنوبي ما تعلم وما لا تعلم.

قدم رجل من الحمقى فسأله رجل متى قدمت! قال: غدًا، قال: لو قدمت اليوم سألتك عن إنسان، فمتى تخرج؟ قال: أمس، قال: لو أدركتك كتبت معك كتابًا.

كان لبعض الأدباء ابن أحمق، وكان مع ذلك كثير الكلام، فقال له أبوه ذات يوم: يا بني لو اختصرت كلامك إذ كنت لست تأتي بالصواب! قال: نعم، فأتاه يومًا فقال: من أين أقبلت يا بني؟ قال: من (سوق) قال: لا تختصرها هنا، زد الألف واللام، قال: من (سوقال) قال: قدم الألف واللام، قال: من (ألف لام سوق) قال: وما عليك لو قلت: (السوق) فوالله ما أردت في اختصارك إلا تطويلًا. وقال هذا الولد يومًا لأبيه: يا أبت اقطع لي جباعة، المال: وما جباعة في الثياب؟ قال: ألست قلت لي اختصر كلامك، يعني جبة ودراعة.

اشترى بعض المغفلين نصف دار فقال يومًا: قد عزمت على بيع نصف الدار الذي لي وأشتري بثمنه النصف الآخر حتى تصير الدار كلها لي.

كتب بعض المغفلين إلى رجل يعزيه بابنته: بلغني مصيبتك وما هي بمصيبة، وقد جاء بالخبر عن النبيّ ﷺ أنه قال: مَن تُوفيت له بنت كان له من الأجر ذهب والله عني، ومَن توفيت له ابنتان كان له من الأجر مثل الذي ذهب عني مرتين، وبعد فقد ماتت عائشة بنت النبيّ ﷺ فمن ابنتك البظراء حتى لا تموت.

كان محمد بن أبي سعيد سليم الجانب، وقد سمع من أبي الحسين الطيوري يسأل بعض مَن يعرف الأدب أن يعلمه شيئًا من العربية، فقال: إذا دخلت على أحد فقل: أنعم الله صباحك، فربما كان يدخل على أحد آخر النهار فيقول: أنعم الله صباحك فيضحك.

حكى أقضى القضاة الماوردي قال: كنت جالسًا في مجلس مقبلًا على تدريس أصحابي، فدخل علينا شيخ قد ناهز الثمانين ـ أو جاوزها ـ فقال لي: قد قصدتك في مسألة اخترتك لها، فقلت: وما هي! وظننته يسأل عن حادثة حدثت

له، فقال: أيها الشيخ أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم ما هما، فإن هذين لا يسأل عنهما لعظم شأنهما إلا علماء الدين، قال: فعجبت منه وعجب من في المجلس من سؤاله، وبدر جماعة بالإنكار عليه والاستخفاف به، فكففتهم عنه وقلت: هذا لا يقنع مما ظهر من حاله إلا بجواب مثله، فأقبلت عليه وقلت: يا هذا إن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة موالدهم، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله، فقال: جزاك الله خيرًا وانصرف مسرورًا، فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا مَن يعرف مولد هذين.

قيل للفضل بن عبد الله: مالك لا تتزوج؟ قال: إني دفع لي أبي جارية ولأخي، فقيل: ويحك دفع إليك وإلى أخيك جارية واحدة؟ قال: وأيش تتعجب من هذا، هو ذا جارنا فلان له جاريتان.

قال أبو العنبس: اجتزت في بعض الطريق لحاجة، فإذا امرأة عرضت لي فقالت: هل لك أن أزوجك جارية فيجيئك منها ابن؟ قلت: نعم، قالت: وتدخله الكتّاب فينصرف فيلعب فيصعد إلى السطح فيقع فيموت، وصرخت ويلاه ولطمت، ففزعت وقلت هذه مجنونة وهربت من بين يديها، فرأيت شيخًا على باب، فقال: ما لك يا حبيبي؟ فقصصت عليه القصة، فلما انتهيت إلى موضع لطمها استعظم ذلك وقال: لا بد للنساء من البكاء إذا مات لهن ميت، فإذا هو أحمق منها وأجهل.

قال رجل آخر: رأيت البارحة أباك في المنام وثيابه وسخة، فقال: قد كفنته أمس في أربعة أثواب جدد، وما ينبغي أن تكون قد اتسخت ثيابه. وقيل لبعض أهل الموصل: كم بينكم وبين موضع كذا؟ قال: ثلاثة أميال ذاهب وميلين جاي.

قال ثمامة لحاجبه: عجل الفراغ مما أمرتك به فقد قصر النهار، فقال: أي والله يا سيدي والليل أيضًا قد قصر.

دعا بعض المغفلين فقال: اللهم اغفر لأمي وأختي وامرأتي، فقيل له: لم تركت ذكر أبيك؟ قال: لأنه مات وأنا صبي لم أدركه.

قال عبد الله بن محمد: قلت لرجل مرة كم في هذا الشهر من يوم؟ فنظر إلي وقال: لست أنا والله من هذا البلد.

قال أبو العباس: سألت رجلًا طويل اللحية فقلت: إيش اليوم؟ فقال: والله ما أدري فإني لست من هذا البلد، أنا من دير العاقول.

انكسرت خشبة في سقف بعضهم، فمضى يشتري عوضها، فقيل: كم تريد طولها؟ فقال: سبعة في ثمانية.

قال بعضهم: ولد لي غلام الليلة فسميته باسم خالته.

أصيب بعضهم بمصيبة فقيل له: عظم الله أجرك، فقال: سمع الله لمن حمده.

قال الجاحظ: دخلت الكوفة، فبينا أطوف في طرقاتها رأيت شيخًا ذا هيبة جالسًا على باب داره ومن جانب الدار صياح، فقلت له: يا عم، ما هذا الصياح؟ فقال: هذا رجل افتصد، فبلغ موضع، شاذروانة فمات، يريد شريانه.

قال الحجاج بن هارون لصديق يحبه: أنا والله لك مائق، يريد وامق.

شهد رجل عند والٍ فقال: سمعت بأذني (وأشار إلى عينية) ورأيت بعيني (وأشار إلى أدنيه) بأنه جاء إلى رجل فتلبب بعنقه (وأشار إلى صدره) وما زال يضرب خاصرته (وأشار إلى فكه) فقال له الوالي: أحسبك قد قرأت «كتاب خلق الإنسان»، قال: نعم، قرأته على الأصمعي.

قيل لبعض المغفلين: سأل عنك فلان، فقال: يسأل الله عنه وملائكته.

دخل بعض المغفلين إلى بعض القضاة فجلس بين يديه فقال: أعدمني الله القاضي، مات فلان والذي ما خلفوا بعدي سواهم وهو ذا يظلموني إخوتي، نسيباتي تسعة وهم واحد وكل يوم يجعلون عمامتي في عنق القاضي يجرونه إلي، فقال القاضي: ليس الممتحن غيري.

وقال أبو العنبس: صحبني رجل في سفينة فقلت له: ممن الرجل؟ فقال من أولاد الشام، ممن كان جدي من أصدقاء المنصور علي بن أبي سالم شاعر الأنبار، وكان من الذين بايعوا تحت الشجرة مع أبي سالم بن يسار في وقعة الفاروق، أياد قتل الحجاج بن يونس بالنهروان على شاطىء الفرات مع أبي السرايا، قال أبو الهنبس: فلم أدر على أي شيء أحسده، على معرفته بالأنساب، أم على بصره بأيام الناس، أم حفظه للسير.

عزّى رجل رجلًا بابنه فقال له في الجواب: رزقنا الله مكافأتك.

قال الحسن بن يسار: قلت لبعضهم أن فلانًا ليس يعدك شيئًا، فقال: والله لو كنت أنا أنا، وأنا ابن مَن أنا منه، لكنت أنا أنا وأنا ابن مَن أنا منه فكيف وأنا ابن مَن أنا منه.

سمع بعض الحمقى قومًا يتذاكرون الموت وأهواله فقال: لو لم يكن في الموت إلا أنك لا تقدر أن تتنفس لكفى.

قال ثمامة لخادمه: اذهب إلى السوق واحمل كذا وكذا، فقال: يا سيدي أنا ناقة، وليس في ركبتي دماغ، فقال ثمامة: ولا في رأسك.

ورُئِيَ أعمى يمشي في الطريق ويقول: يا منشىء السحاب بلا مثال.

دخل رجل على المعتضد فقال: يا أمير المؤمنين، إن فلانًا العامل ظلمني، قال: ومن فلان؟ قال: والله لا أدري اسمه ولكن في خده الأيمن خال أو تؤلول أو أثر لطمة أو أثر حرق نار أو أثر مسمار أو في خده الأيسر، وكان له مرة غلام يقال له جرير أو نجم إلا أن في اسمه طاء أو لام، فضحك المعتضد، وقال: كأنه موسوس؟ قال: سلني عما شئت حتى أجيبك، قال: كم أصبع لك؟ قال: ثلاثة أرجل فأمر بإخراجه، فقال: ما أقول لبنتي إذا دخلت وقد فتحت حجرها لأطرح فيه ألجوز يوم العيد؟ فأمر المعتضد أن يحمل معه إلى منزله طعام وجائزة.

دخل بعضهم إلى المستراح فأراد أن يحل لباسه فحل أزاره وخرى في لباسه.

حُكِيَ أن جماعة من أهل حمص تذاكروا في حديث الأعضاء ومنافعها فقالوا: الأذن للشم والفم للأكل واللسان للكلام فما فائدة الأذنين! فلم يتوجه لهم في ذلك شيء، فأجمعوا على قصد بعض القضاة ليسألوه، فمضوا فوجدوه في شغل، فجلسوا على باب داره، وإذا هناك خياط فتل خيوطًا ووضعها على أُذنه، فقالوا: قد أتانا الله بما جئنا نسأل القاضي عنه، وإنما خلقت للخيوط، وانصرفوا مسرورين مما استفادوه.

قال الجاحظ: مررت بحمص فمرّ عنز يتبعه جمل، فقال رجل لرجل معه: هذا الجمل من هذا العنز؟ فقال له: لا ولكنه يتيم في حجرها.

عرض هشام بن عبد الملك الجند فأتاه رجل حمصي بفرس، كلما قدمه نفر، فقال هشام: ما هذا؟ قال الحمصي: يا سيدي هو جيد، لكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر.

اجتاز أهل حمص بشيخ لهم، لم يكن فيهم أعقل منه ولا أكمل مع ابنين له معروفين عندهم بالعقل والكمال، فأوفدهم إلى الرشيد لمظلمة كانت بهم، فلما وردوا الباب وأذن لهم دخل الشيخ فقال: السلام عليك يا أبا موسى، فعلم أنه أحمق وأمره بالجلوس، ثم قال: أحسبك قد طلبت العلم وجالست العلماء؟ قال: نعم يا أبا موسى، قال: مَن جالست من العلماء؟ قال: أبي، قال: وما كان يقول في عذاب القبر، قال: كان يكرهه، فضحك الرشيد ومَن حضر ثم قال: يا شيخ مَن حفر البحار فيما سمعت؟ فسكت الشيخ، فقال أحد ولديه، قد حفرها موسى حين طرق له، قال: فأين طينها؟ فقال الولد الثاني: الجبال، ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه، وقال: والله ما علمتهما، ما هو إلا إلهام من الله تعالى وله الحمد.

وفد على الرشيد ثلاثة من حمص، فدخل أحدهم فرأى غلامًا على رأسه فظنّه جارية، فقال: السلام عليك يا أبا الجارية، فصفع وأخرج، فدخل الثاني فقال: السلام عليك يا أبا الغلام، فصفع وأخرج، فدخل الثالث فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له: كيف صحبت هذين الأحمقين؟ قال: يا أمير المؤمنين لا تتعجب منهم فإنهم لما رأوك بهذا الزي ورأوا لحيَتك طويلة قدروا أنك أبو فلان، فقال الرشيد: أخرجوه، قبّح الله بلدة هؤلاء خيارهم.

قال بعضهم: رأيت رجلًا ألحى قائمًا في حلقة قاص يقص مقتل عثمان بن عفان، فلما فرغ قال الألحى: أعيذك بالله ما أحسن ما تروي كلام منصور بن عمار.

قال الجاحظ: مررت بمنجد في (قنطرة بردان) طويل اللحية وامرأة تطالبه بشيء لها عنده وهو يقول: رحمك الله، متاعك جاءني يحتاج إلى حشو كثير وأنت من العجلة تمشين على أربع.

قال أبو حاتم: سأل رجل أبا عبيدة عن اسم رجل فقال: ما أعرف اسمه فقال له بعض أصحابه: أنا أعرف الناس به، اسمه خراش أو خداش أو رياش أو شيء آخر.

خرج عبادة ذات يوم يريد السوق، فنظر في بعض طرقه إلى شيخ طويل اللحية كلما، أراد أن يتكلم بادرته لحيته، فمرة يدسها في جيبه ومرة يجعلها تحت ركبته فقال له عبادة: يا شيخ لم تترك لحيتك هكذا؟ قال: فتريد أن أنتفها حتى تكون مثل لحيتك! قال عبادة: فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: الآيتان ٩، ١٠] وقال ﷺ: ـ «أحفوا الشارب واعفوا اللحى» ـ ومعنى عفو اللحى أن يزال أثرها، فقال الشيخ: صدق الله ورسوله، سأجعلها كما أمر الله ورسوله، فحلق لحيته وجلس في دكانه، فكان كل مَن رآه وسأله عن خبره قرأ عليه الآية وروى له الحديث.

قيل لمريض: كيف نجدك! فقال: أنا علة، قيل: وما معنى علة؟ قال: أليس يقال للصحيح ليس به علة؟ قالوا: نعم، قال: أنا كما قيل، أنا علة.

قيل لرجل: عندك مال وليس لك إلا والدة عجوز، أن مت ورثت مالك وأفسدته، فقال: إنها لا ترثني، قيل: وكيف؟ قال: أبي طلّقها قبل أن يموت.

قال أبو الأسود لابنه: يا بني إن ابن عمك يريد أن يتزوج ويجب أن تكون أنت الخاطب فتحفظ خطبة، فبقي الغلام يومين وليلتين يدرس خطبة، فلما كان في الثالث قال أبوه: ما فعلت؟ قال: قد حفظتها قال: وما هي؟ قال: اسمع الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح؛ فقال له أبوه: أمسك لا تقم الصلاة فإني على غير وضوء.

أسلم رجل ولده إلى الكتاب، فلما كان بعد حين قال له والده: تعلمت شيئًا من الحساب؟ قال: نعم، قال: فخذ خمسين وخمسين كم تعد؟ قال: أربعين، قال: يا مشؤوم، ثلاث خمسينات ما يحصل معك منها خمسين؟ ثم حبسه عن الكتاب وقال: لا أفلحت.

مرض صديق لحامد بن العباس فأراد أن ينفذ ابنه إليه ليعوده فأوصاه وقال: يا بني إذا دخلت فاجلس في أرفع المواضع، وقل للمريض: ما تشكو؟ فإذا قال: كذا وكذا، فقل له: سليم إن شاء الله، وقل مَن يجيئك من الأطباء، فإذا قال: فلان فقل: ميمون، وقل: ما غداؤك؟ فإذا قال: كذا وكذا فقل: طعام محمود، فذهب فدخل على العليل وكان بين يديه منارة، فجلس عليها لارتفاعها فوقعت

على صدر العليل فأوجعته، ثم قال للمريض: ما تشكو فقال: أشكو علة الموت، فقال سليم: إن شاء الله، فمن يجيئك من الأطباء؟ قال: ملك الموت، قال مبارك ميمون، فما غداؤك؟ قال: سم الموت، قال: طعام طيب محمود.

تقدم رجل إلى معلم ابنه فسأله أن لا يعلّمه سوى النحو والفقه، فعلّمه مسألتين من النوعين (ضرب زيد عمرًا) ارتفع زيد بفعله وانتصب عمرو بوقوع الفعل عليه، والأخرى من الفقه (رجل مات وخلف أبويه فلأمه الثلث ولأبيه الباقي) فقال له: أفهمت؟ قال: نعم، فلما انصرف إلى البيت قال له أبوه: ما تقول في (ضرب عبد الله زيدًا)؟ قال: أقول ارتفع بفعله وما بقي للأب.

كان لبعض التجار المياسير ابن أبله، فقضي أن صار الأب إلى حانوته يومًا فوجد اللصوص قد أخذوا صندوقًا له كان فيه صامت كثير وأسباب جميلة، فجلس الرجل والناس يعزونه ويدعون له بالخلف، فبينما هم كذلك إذ أقبل ابنه، فلما قرب من حانوت أبيه ورأى الناس سأل عن الخبر، فقالوا: دخل اللصوص حانوت أبيك وأخذوا الصندوق الذي كان فيه ما كان، فضحك وقهقه وقال: لا بأس ما فاتنا شيء، فظنّ الناس أنه خبّأه أو يعرف خبره، فأسرعوا إلى أبيه فبشروه بأن ابنه قال: كذا، فقال له أبوه: ما الخبر وأي شيء عندك في هذا الأمر؟ قالوا: مفتاح الصندوق عندي فلا يقدرون أن يفتحوه، فقال أبوه: عجبت والله أن يكون عندك فرح.

قال بعضهم: دخلت على نصر الرصيفي في منزله، فإذا ابنه يصايحه في شيء وقد ارتفعت أصواتهما، فقلت: ما هذا؟ فقال: هذا يزعم أن عليّ بن أبي طالب هاشمي فقلت أنا: بل علوي، فاحكم بيننا فقلت أنا: هو علوي، ألا ترى إلى اسمه (علي)، فقال لي: ابصق في وجهه؟ فقلت: كلاكما يستحق ذلك.

كان بسجستان شيخ يتعاطى النحو، وكان له ابن فقال لابنه: إذا أردت أن تتكلم بشيء فاعرضه على عقلك، وفكر فيه بجهدك، حتى تقومه ثم أخرج الكلمة مقومة، فبينما هما جالسان في بعض الأيام في الشتاء والنار تتقد وقعت شرارة في جبّة خز كانت على الأب وهو غافل والابن يراه، فسكت ساعة يفكر ثم قال: يا أبت أريد أن أقول شيئًا فتأذن لي فيه؟ قال أبوه: إن حقًا فتكلم، قال أراه حقًا، فقال قل: قال إني أرى شيئًا أحمر قال: وما هو؟ قال: شرارة وقعت في جبتك،

فنظر الأب إلى جبته وقد احترق منها قطعة، فقال للابن: لم لم تعلمني سريعًا؟ قال: فكّرت فيه كما أمرتني، ثم قوّمت الكلام وتكلّمت فيه، فحلف أبوه بالطلاق أن لا يتكلم بالنحو أبدًا.

دقّ رجل باب دار نحوي فقال: مَن ذا؟ فقال: أنا الذي أبو عمرو الجصاص عقد طاق باب هذه الدار، فقال النحوي: ما ترى لك في صلة الذي شيئًا، فانصرف راشدًا.

جاءت امرأة إلى جارة لها تستعير منها إزارًا لتمضي في حاجة وترده من ساعتها فقالت: قد غزلت من إزاري عشرة أساتير، فاصبري حتى أتم غزله وأسلمه إلى الحائك ويفرغ منه وأعطيك إياه ولا تمري بمسمار فإنه جديد وقالت امرأة لأخرى: اليوم مشيت إلى قبر أحمد فدخل في رجلي مسمار، فقالت لها: وكان الخف الجديد في رجلك؟ قالت: لا، قالت لها: فاحمدي الله.

قال بعضهم: مررت بسوق وقد اجتمع فيه قوم على رجل يضربونه، فقلت: ما ذنب هذا؟ قالوا: شتم معاوية بن أبي سفيان، صديق النبيّ ﷺ ومَن صلّى معه أربعين سنة على طهر واحد، وكان من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان، وسمى خال المؤمنين لأنه كان أخا حواء من أمها وأبيها.

قال بعضهم: مررت على قوم قد اجتمعوا على رجل يضربونه، فتقدمت إلى شيخ كان يجيد قتله، فقلت: يا شيخ ما قصة هذا؟ قال: لا تكونن منهم، هذا رافضي يقول: نصف القرآن مخلوق ونصفه لا، وليس في القوم خير من النبيّ ﷺ وبعده الخضر، فبادرني الضحك فرددته مخافة الضرب وقلت: يا شيخ زده فإنك مأجور.

قال: ومررت بقوم قد اجتمعوا على رجل يضربونه، فقلت: لرجل يجيد ضربه: ما حال هذا؟ قال: والله ما أدري ما حاله، ولكنني رأيتهم يضربونه فضربته معهم لله عزّ وجلّ وطلبًا للثواب.

قال بعضهم: رأيت رجلًا يبيع الرمان في الأسواق ويطعمه أهل سوقه، ويسألونه عن مسائل تقع لهم في الفقه وهو يكنّى أبا جعفر، فجاءته امرأة فقالت: يا أبا جعفر، مريم بنت عمران كانت نبيّة؟ قال: لا يا غافلة، قالت: وإيش كانت؟ قال: من الملائكة.

قال الجاحظ: دخلت واسط فبكّرت يوم الجمعة إلى الجامع، فقعدت، فرأيت على رجل لحية لم أرَ أكبر منها، وإذا هو يقول لآخر: إلزم السنة حتى تدخل الجنة، فقال له الآخر: وما السنة؟ قال: حب أبو بكر بن عفان وعثمان الفاروق وعمر الصديق وعلي بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي شيبان؟ قال: ومَن معاوية بن أبي شيبان! قال: رجل صالح من حملة العرش وكاتب النبيّ ﷺ وختنه على ابنته عائشة.

قال بعضهم: مررت على قوم اجتمعوا على رجل يضربونه، فقلت لشيخ منهم: ما ذنب هذا؟ قال: يسب أصحاب الكهف، قلت: ومَن أصحاب الكهف؟ قال: لست مؤمنًا، قلت: بلى ولكني أحب الفائدة. قال أبو بكر وعمر ومعاوية بن أبي سفيان، ومعاوية هذا رجل من جملة سرادق العرش، فقلت له: يعجبني معرفتك بالأنساب والمذاهب، فقال: نعم خذ العلم عن أهله، فقال واحد منهم لآخر: أبو بكر أفضل أم عمر، قال: لا بل عمر، قال: وكيف علمت؟ قال: لأنه لما مات أبو بكر جاء عمر إلى جنازته، ولما مات عمر لم يجيء أبو بكر لجنازته.

مرض بعض المغفلين فأتي بطبيب فقال الطبيب: إذا كان غدًا فاحفظوا البول حتى أجيء وأنظره، فلما خرج الطبيب من عنده بقي لا يبول إلى الغد، فلما جاء الطبيب قال له المريض: يا عبد الله قد كادت مثانتي تنشق من إحباسي البول فلماذا تأخرت، فقال: إنما أمرتك أن تحفظ البول في إناء، فلما كان الغد جاء الطبيب فإذا هو قد أخذ برنية خضراء، فقال الطبيب: ما هذا، أخطأت ألم يكن في الدنيا شيء من الزجاج كنت تأخذ في قارورة أو في قدح، فلما كان من الغد، أخذ البول في قدح من الخشب فعرضه عليه، فقال له: أنت في حرج، ألا نظرت إلى هذا الماء فاصدقني في أمري هل يخاف عليّ من هذه العلة؟ قال: أما إذ حلفتني فلا بد أن أقول: أنا خائف أن تموت من هذا العقل لا من هذه العلة.

دخل بعض الحمقى من الأطباء على عليل، فشكا إليه العليل ما يجد فقال: خذ مثل رأس الفأرة كلنجبين وصبّ عليه مقدار محجمة ماء واضربه حتى يصير مثل المخاط واشربه، فقال العليل: قم لعنك الله، فقد قذرت إلى كل دواء في الأرض. كان طبيب أحمق قد أعطى رجلًا من جيرانه شربة فأقامته قيامًا حتى مات منه، فجاء الطبيب يتعرّف خبره فوجده قد مات فقال: لا إلـه إلا الله من شربة ما كان أقواها، لو عاش ما كان يحتاج إلى أن يشرب الدواء سنة أخرى.

سرقت ثياب رجل من الحمام فخرج عريانًا وعلى باب الحمام طبيب أحمق، فقال له: ما قصتك؟ فقال: سرقت ثيابي قال: بادر وافتصد تخف عنك حرارة الغم.

أصيب بعضهم بأمه فقعد يبكي ويقول: يا أمي أماتني الله قبلك، أمي زانية إن لم تدخل الجنة، لا دخلتها امرأة أبدًا.

مات ولد لرجل فقيل له: ادع فلانًا يغسله، فقال: لا أريد، لأن بيني وبينه عداوة فيعنّف بابني في الغسل حتى يقتله.

اجتمع رجلان في طريق الحج، فقال أحدهما للآخر: كم قد حججت؟ قال: مع هذه التي نحن فيها واحده.

ماتت جارية لرجل فلما دفنها قال: لقد كنت تقومين بحقوقي، فلأكافئنك، اشهدوا على أنها حرة.

وقفت سائلة على باب قوم، فقال لها رجل اذهبي يا زانية، فقالت: إذا لم تعطني فلم تسبني؟ قال: والله ما أردت بهذا إلا الخير، أردت أن تؤخّري وآثم.

حُكِيَ أن بعض المغفلين اشترى بقطعة شيرجًا في غضارة، فامتلأت الغضارة، فقال البقال: قد بقي لك من الشيرج في أي شيء تأخذه، فقلب الغضارة وقال في هذه وأشار إلى كعبها، فطرح البقال الباقي في ذلك الكعب، فأخذه الرجل ومضى، فلقيه رجل فقال: بكم اشتريت هذا الشيرج؟ فقال: بقطعة، فقال هذا القدر فقط؟ فقلبها وقال: هذا أيضًا.

كان لرجل على رجل أربعة دراهم، فجاء يومًا يقتضيه فقال: غدًا أعطيك، فقال: لا أذهب حتى تحلف لي أنك تعطنيها غدًا، فحلف له إنك إن جئت (لا تذهب إلا وهي معك) وأشهد عليه بذلك ومضى، فجاء من الغد فقال له: ما عندي شيء، وإنما حلفت إنك لا ترجع إلا وهي معك أعني (لحيتك) فأشهد عليه بهذا القول وذهب سريعًا إلى الحجام وحلق لحيته وجاء إليه، وما برح حتى أخذ دراهمه.

وقال قوم لغلام: املأ بيت الماء، فنقل ماء كثيرًا وأبطأ عليهم، فقالوا: ما هذا الإبطاء، فصعدوا إليه فإذا به يقلب الماء في بيت الماء، فقال: كلفتموني أن أملأ هذا وما أظنه يمتلىء في شهر.

حكى لي بعض أصدقائنا قال: كان عندنا رجل أُتهم بسرقة، فأُخذ وجرت له قصة، فجاءني بعد أيام فقال لي: عندك الخبر، مضيت إلى المنجم فأعطيته قطعة فحسب لي وقال، والله إنك بريء مما اتهمت به وإنك ما سرقت شيئًا.

رأى بعضهم جنازة قد أقبلت فقال: ربي وربك الله لا إلـه إلا الله، فقال آخر: أخطأت، إذا رأيت جنازة فقل: اللهم البسنا العافية، فتشاجرا في ذلك فاحتكما إلى آخر فقال: إذا رأيتم جنازة فقولوا: «سبحان الله مَن يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته».

قال منجم لرجل من أهل طرسوس: ما نجمك؟ قال: (التيس)، فضحك الحاضرون وقالوا: ليس في النجوم والكواكب تيس، قال: بلى، قد قيل لي وأنا صبي منذ عشرين سنة نجمك (الجدي) فلا شك أنه قد صار تيسًا منذ ذلك الوقت.

كان لبعض الكتَّاب غلام، فأمسى السيد عند بعض أصدقائه، فقال للغلام: اذهب إلى البيت هات شمعة، فقال: يا سيدي أنا لا أجسر أذهب وحدي في هذا الوقت، فأحب أن تقوم معي حتى أحمل الشمعة وأجيء معك.

وقال رجل لغلام: هات نارًا وأشعلها، قال: يا مولاي لأي شيء تزيد النار؟ قال: أريد أتخذ عصيدة، فقال: يا مولاي لقمني حتى أجيء بالعجلة.

لَكَمَ رجلٌ رجلًا فصاح: أدميتني، فلم ير دمًا فقال: أين الدم؟ فقال: أنا أرعف من داخل.

وقع رجلان على قافلة فيها ستون رجلًا، فأخذوا مالهم وثيابهم، فقيل لبعضهم: كيف غلبكم رجلان وأنتم ستون؟ فقال: أحاط بنا واحد وسلبنا الآخر كيف نعمل؟

كلم رجل رجلًا بشيء يغضبه فقال: أتقول لي هذا وأنا رجل من (الأنصار)؟ قال له: النصارى واليهود عندنا في الحق سواء.

عن ابن الرومي قال: قال طبيب لتلميذه: إذا دخلت إلى مريض فانظر إلى أثر ما عنده من طعام أو شراب، فانهه عما لا يصلح من ذلك، فدخل الغلام يومًا على مريض فنظر إلى حداجة جمل في الدار فقال للمريض: أنا والله لا أصف لك

دواء، قال: ولِمَ؟ قال: لأنك قد أكلت جملًا، قال: لا والله ما أكلت جملًا قط، فقال: هذه الحداجة من أين؟

عن إبراهيم بن القعقاع: انتبه قوم ليلة في رمضان وقت السحور فقالوا لأحدهم: انظر هل تسمع أذانًا؟ فأبطأ عنهم ساعة ثم رجع فقال: اشربوا، فإني لم أسمع أذانًا إلا مَن مكان بعيد.

كتب رجل من آل أبي رافع على خاتمه أنا فلان ابن فلان رحم الله مَن قال آمين.

مرض رجل مرة، فلما اشتد به المرض أمر بجمع العيدان والطنابير والمزامير إلى بيته، فأنكروا عليه ذلك فقال: إنما فعلت ذلك لأني سمعت أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه شيء من آلات الملاهي والفجور، فإن كان ملك الموت من الملائكة دفعته عني بهذه الأشياء.

غصب رجل رجلًا شيئًا وتصدّق به، فقيل له في ذلك، فقال: أخذي إياه سيئة، وصدقتي به عشر حسنات، فمضت واحدة وبقيت لي تسعة.

سُئِلت امرأة عن حرفة زوجها فقالت: متولي إخراج المساكين من المسجد الجامع، وقد أرجعت له المقصورة.

قيل لبعضهم: كل، قال: ما بي أكل، لأني أكلت قليل أرز فأكثرت منه.

جاء قوم إلى رجل من الوجوه يسألونه كفنًا لجارية له ماتت فقال: ما عندي شيء فتعودون، قالوا: فنملحها إلى أن يتيسر عندك شيء.

سُئِل بعض المشايخ المغفلين، أتذكر إن حج الناس في رمضان؟ ففكر ساعة ثم قال: بلى أظن مرتين أو ثلاثة.

قيل لمغفل: كيف دملك سكن وجعه؟ قال: والله ما أرى اسألوا أمي.

قال بعض الناس لمملوكه: أخرج وانظر هل السماء مصحية أو مغيّمة، فخرج ثم عاد فقال: والله ما تركني المطر أنظر هل هي مغيّمة أم لا.

قال بعضهم لآخر وكان أحمق: المستشار مؤتمن، وأني أريد أن أغسل ثيابي غدًا، أفترى تطلع الشمس أم لا.

جاء رجل إلى أبي حكيم الفقيه وأنا حاضر، ومع الرجل ابنته ليزوجها من رجل، فقال له الشيخ: أبكر ابنتك أم ثيب؟ فقال: والله يا سيدي ما هي لا بكر ولا ثيب، ولكنها واسطة، فقال الشيخ: فأيش هي، عوان بين ذلك؟ فضحك الجماعة وذلك الوالد لا يدري.

عن أبي محمد بن معروف قال: كان يلزمني فتى نصراني حسن الخط مليح الشعر، إلا أنه كان سوداويًا، فحكم لنفسه أنه يموت في اليوم الفلاني، فجاء ذلك اليوم وهو صحيح، فخاصم امرأته وترقى الشر بينهما إلى أن أخذ عمود الهاون ودقّ به رأسها فماتت، فجزع جزعًا شديدًا فقال: قد علمت أنه يوم قطع عليّ ولا بد أن أموت فيه، والساعة يجيء أصحاب الشرطة فيأخذوني فيقتلوني، فأنا أقتل نفسي عزيزًا أحب إلي، فأخذ سكينًا فشقّ بها بطنه، فأدركته حلاوة الحياة، فلم يتمكن من تخريقها فسقطت السكين، فقال هذا ليس بشيء، فصعد إلى السطح فرمى نفسه إلى الأرض فلم يمت واندقت عظامه، فجاء صاحب الشرطة فأخذوه، فلما كان آخر الليل مات.

عن أبي الحسن علي بن نظيف المتكلم قال: كان يحضر معنا ببغداد شيخ، فحدّثنا أنه دخل على بعض مَن كان يعرفه بالتشيع قال: فوجدته وبين يديه سنور وهو يمسحها ويحك بين عينيها ورأسها، وعيناها تدمعان كما جرت عادة السنانير، وهو يبكي بكاء شديدًا، فقلت له: لم تبكي؟ فقال: ويحك ما ترى هذه السنور تبكي كلما مسحتها، هذه أمي لا شك، وإنما تبكي حسرة من رؤيتها إلي، قال: فأخذ يخاطبها بخطاب من عنده ظانًا أنها تفهم عنه وجعلت السنور تصيح قليلًا قليلًا، فقلت له: فهي تفهم عنك ما تخاطبها به؟ قال: نعم، فقلت له: أتفهم أنت عنها خطابها؟ قال: لا، قلت: فأنت إذن الممسوخ وهي الإنسان.

قال الجاحظ: مررت يومًا بقطان في الكرخ في دكانه وعليه لحية طويلة وقميص جديد غليظ، وكان يومًا صائفًا شديد الحر فتعجبت منه، فقال لي: ما وقوفك أعزّك الله؟ قلت: أتعجب من صبرك على هذا القميص الجديد في هذا الحر الشديد! قال: صدقت أعزّك الله، عندي غزل كثير، وعزمي أن أسلم منه إلى الحائك قميصًا خلقًا أتخفف به طول هذه الصيفية، فقلت: الصواب ما رأيت.

وقال: دخلت يومًا على بعض إخواني من التجار أعوده وكان طويل اللحية، فقلت له: ما أكلت؟ فقال: شووا لي خاسرة وأكلت، (يعني خاثرة).

وقال: أخبرت عن الأصمعي قال: عرض الرشيد خيل مصر فما مرّ به فرس إلا وعليه سمة (نتاج الفخر الجنيدي)، فقال: ويلكم من هذا الجنيدي الذي له كل هذا النتاج؟ وأمر بإشخاصه، فكتب إلى عامل مصر فأشخصه، فلما دخل عليه نظر إليه من أول الدار، فإذا عليه لحية قد أخذت لسرته طولًا ولآباطه عرضًا، وإذا هو مستعجل في مشيه ينظر إلى أعطافه، فلما رآه قال أحمق ورب الكعبة، فلما دنا منه قال: يا جنيدي من أين لك هذا الخيل؟ قال: من رزق الله وأفضاله، فلما رآه هالكًا قال: ما أحسن لحيتك يا جنيدي، قال: اقبلها يا أمير المؤمنين خلعة لك، والخيل معك فبك فداهما الله، فإن قدرك عندي أعظم القدور وكرامتك عندي عزيزة جدًا، فصاح به أغرب عليك لعنة الله، ثم قال: أخرجوه، فقد أسمعني كل مكروه لعن الله هذا وخيله معه.

قال ابن قتيبة: حدث جار لأبي حية النميري قال: كان لأبي حية سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق، وكان يسميه «لعاب المنية» قال: فأشرفت عليه ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيت في داره وقد سمع حسًا وهو يقول: أيها المغتر بنا والمجترىء علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة ضربته لا تخاف نبوته، أخرج بالعفو عنك لا أدخل بالعقوبة عليك؛ إني والله أن أدع قيسًا تملأ الفضاء خيلًا ورجلًا، يا سبحان الله ما أكثرها وأطيبها، ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفاني حربًا.

قال الفضل: ابن مرزوق: أتدرون لأي شيء كثر مالي؟ قالوا: لا، قال: لأني سميت نفسي بيني وبين الله محمد، وإذا كان اسمي عند الله محمدًا فما أبالي ما قال الناس.

عن المزرودي قال: اشترى أحمد الجوهري كساء أبيضًا طبريًا بأربعمائة درهم، وهو عند الناس فيما تراه عيونهم (قوهي) يساوي مائة درهم، قال: إذا علم الله أنه طبري فما علي من الناس.

قال الجاحظ: كان أبو خزيمة يكنّى (أبا جاريتين) فقلت له يومًا: كيف اكتنيت بهذه الكنية وأنت فقير لا تملك جاريتين: أفتبيعهما الساعة بدينار وتكنّى أي كنية شئت؟ قال: لا والله ولا بالدنيا وما فيها.

وقال عن ثمامة بن أشرس قال: كان رجل يقوم كل يوم فيأتي دالية لقوم، فلا يزال يمشي مع رجال الدالية على ذلك الجزع ذاهبًا وجائيًا في شدة البرد والحر حتى إذا أمسى نزل إلى النهر فتوضأ وصلّى وقال: اللهم اجعل لي من هذا فرجًا ومخرجًا ثم انصرف إلى البيت، فكان كذلك حتى مات.

قال: وحدّثني يزيد مولى إسحٰق بن عيسى قال: كنا في منزل صاحب لنا إذ خرج واحد منا ليقيل في البيت الآخر، فلم يلبث ساعة حتى سمعناه يصيح أواه، فنزلنا بأجمعنا إليه فزعين وقلنا: ما لك ما لك؟ وإذا هو على شقه الأيسر وهو قابض بيده على خصيتيه، فقلنا له: لم صحت؟ قال: إذا غمزت خصيتي اشتكيتها وإذا اشتكيتها صحت، فقلنا: لا تغمزها، قال: نعم إن شاء الله، جزاكم الله خيرًا.

قال: وحدّثني ثمامة، قال: مررت يومًا وإذا شيخ أصفر كأنه جرادة وزنجي يحجمه قد مصّ دمه حتى كاد يستفرغه، فقلت: يا شيخ لم تحتجم؟ قال: لمكان هذا الصفار الذي بي.

كان لرجل من أصدقائنا غلام، فأعطاه قطعًا ليشتري بها شيئًا، وكان فيها قطعة رديئة، فقال له: يا سيدي هذه ما يأخذها الرجل، فقال: اجتهد أن تصرفها كيف اتفق، فلما اشترى وجاء قال: وقد صرفتها، قال: كيف فعلت؟ قال: تركته يزن الذهب وتغفلته فرميتها في ميزانه.

حكى لي بعض إخواننا أن رجلًا أتى مفسر المنامات فقال: رأيت كأن معي رجلين ونحن نمضي إلى فلان في حاجة، فقال له: أتعرف الرجلين؟ قال: أعرف أحدهما ومنزله في باب البصرة، فأريد أسأل صاحبي عن ذلك الرجل الآخر.

سمع رجل في زماننا قومًا يتكلمون في القرآن، ويقول بعضهم: ليس بقديم، فقال: ما أبله هؤلاء قد تكلم الله بالقرآن منذ خمسمائة سنة فكيف لا يكون قديمًا.

اشترى رجل في زماننا من بقّال رطلين دبسًا، فأعطاه طاسًا ليجعله فيها، فغرف بالطاسة من التغار وترك صنجة الرطلين، فلما رآها ترجح صب من الدبس ثم أعادها إلى الميزان، فرجحت فجعل يصب ثم يعيدها وهي ترجح، فقال لصاحبها: ما أرى يبقى لك شيء فقال له صاحبها: هذه الطاسة فيها ثلاثة أرطال فإن أردت أن تستوي الميزان فاكسر من جانب الطاسة، وإلا ما تستوي.

قرأت بخط بعض المغفلين وقد نظر في كتاب ثم كتب عليه: «نظرت في هذا الكتاب والأقوات رخيصة، والكارة السميد تساوي دينارًا ودانقًا، والخشكار بثمانية عشر قيراطًا، فالله تعالى يديم ذلك».

وكتب آخر على كتاب: «نظر فيه فلان ابن فلان وأنا من ولد داود ابن عيسى ابن موسى وموسى هو أخو السفاح».

حدَّثني بعض إخواني أنه كان بتكريت وأن رجلًا اشترى من خباز مائتين وعشرين رطلًا من الخبز بدينار، ثم كان يأخذ كل يوم شيئًا إلى أن تحاسبا يومًا، فقال: قد أخذت مائة وعشرين رطلًا وبقي لك مائة وعشرين، فقال له: اندر هذه بهذه واعطني الدينار، فجعل الرجل يستغيث ويقول: كيف افعل بهذا؟ فيقول: أليس لك عندي مائة وعشرين ولي عندك مائة وعشرين؟ فيقول: بلى، فيقول: انذر هذه بهذه واعطني الدينار، فاجتمع الناس عليهم على ذلك إلى أن رفعت قصتهم إلى الأمير.

رجع بعض القريشيين إلى امرأته وكانت قريشية وقد حلقت شعرها، وكانت أحسن النساء شعرًا. فقال: ما خطبك؟ فقالت: أردت أن أغلق الباب فلمحني رجل ورأسي مكشوف فحلقته، وما كنت لأدع شعرًا رآه من ليس لي بمحرم. ومثل هذا بلغني عن بعض القصاص أنه قال لأصحابه: احلقوا اللحى التي تنبت في مواقف الشيطان.

حدّثني بعض العلماء أن رجلًا مغفلًا نظر في المصحف فقال: قد وجدت فيه غلطتين فأصلحوها، قالوا: وما هي؟ قال: (كل بناء وعواص) هذا غلط إنما يجب أن يكون ـ كل بناء وجصَّاص ـ والأخرى (والتين والزيتون) إنما هي ـ والجبن والزيتون ـ.

حدّثني بعض الأصدقاء أن رجلًا وقف بباب داره يوم الجمعة والمطر يأتي سيلًا، فقال لرجل من المارّين: يا أخي هوذا الذي يجيء مطر؟ فقال له: أما ترى؟ فقال: أردت أن أقلّد غيري في انقطاعي عن الجمعة ولا أعمل بعلمي.

وروى أبو بكر الصولي عن إسحٰق قال: كنا عند المعتصم، فعرضت عليه جارية، فقال: كيف ترونها؟ فقال واحد من الحاضرين: امرأتي طالق إن كان الله عزّ وجلّ خلق مثلها، وقال الآخر: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها، وقال

الثالث: امرأتي طالق وسكت، فقال المعتصم: إن كان ماذا؟ فقال إذا كان لا شيء، فضحك المعتصم حتى استلقى وقال: ويحك ما حملك على هذا؟ قال: يا سيدي هذان الأحمقان طلقا لعلة، وأنا طلقت بلا علة.

قيل لبعض البله وكان يتحرّى من الغيبة: ما تقول في إبليس؟ فقال: أسمع الكلام عليه كثيرًا والله أعلم بسريرته.

حكى لي بعض الإخوان أن بعض المغفلين كان يقود حمارًا، فقال بعض الأذكياء لرفيق له: يمكنني أن آخذ هذا الحمار ولا يعلم هذا المغفل، قال: كيف تعمل ومقوده بيده؟ فتقدم فحل المقود وتركه في رأس نفسه وقال لرفيقه: خذ الحمار واذهب، فأخذه، ومشى ذلك الرجل خلف المغفل والمقود في رأسه ساعة، ثم وقف فجذبه فما مشى، فالتفت فرآه، فقال: أين الحمار؟ فقال: أنا هو، قال: وكيف هذا؟ قال: كنت عاقًّا لوالدتي فمسخت حمارًا، ولي هذه المدة في خدمتك، والآن قد رضِيَت عني أمي فعدت آدميًا، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكيف كنت أستخدمك وأنت آدمي! قال: قد كان ذلك، قال: فاذهب في دعة الله، فذهب ومضى المغفل إلى بيته فقال لزوجته: أعندك الخبر؟ كان الأمر كذا وكذا، وكنا نستخدم آدميًا ولا ندري فبماذا نكفر وبماذا نتوب؟ فقالت: تصدق بما يمكن، قال: فبقي أيامًا، ثم قالت له: إنما شغلك المكاراة فاذهب واشتر حمارًا لتعمل عليه، فخرج إلى السوق فوجد حماره ينادي عليه، فتقدم وجعل فمه في أذنه وقال: يا مدبر عدت إلى عقوق أمك.

ماتت قريبة لأبي منصور بن الفرج، وكان رئيسًا فاجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم لقضاء حقه، وخرجت الجنازة وجعل النساء يلطمن ويقلن واستَّاه واستَّاه، على ما جرت به العادة، فأنكر زوج المرأة هذا وقال: لا ست إلا الله وصاح عليهن، فضحك الناس وصار المقام هزلًا بعد الحزن.

دخل على موسى بن عبد الملك يومًا صاحب خزانة السلاح فقال له: قد تقدم أمير المؤمنين ـ يعني المتوكل ـ ليبتاع ألف رمح طول كل رمح أربعة عشر ذراعًا، فقال: هذا الطول فكم يكون العرض؟ فضحك الناس ولم يفطن لما غلط فيه.

قال المبرد: قرأ ابن رباح بحضرة المنتصر «كتاب الصدقات» فقال: في كل ثلاثين بقرة تبيع، فقال المنتصر: ما التبيع؟ فقال أحمد بن الخصيب: البقرة وزوجها.

سمع أحمد بن الخصيب مغنية تغني:

إن العيون التي في طرفها مرض   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقال: هذا الشعر لأبي.

كان سهل بن بشر ممن ارتفع في الدول الديلمية وكان رقيعًا، فشتم فراشًا فرد عليه، فقام يعدو خلفه فوقعت عمامته، فأخذها سهل وما زال يعضّها ويخرقها ويقول: اشتفيت والله ثم عاد إلى مكانه.

شهد رجل عند بعض القضاة على رجل، فقال المشهود عليه: أيها القاضي تقبل شهادته ومعه عشرون ألف دينار ولم يحج إلى بيت الله الحرام؟ فقال: بلى حججت، قال: فاسأله عن زمزم، فقال: حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها.

قال أبو الحسن بن هلال الصابي: أحضر إنسان بناء لمشاهدة حائط في داره قد عاب، فاتفق أن أمه تغسل الثياب فأخرج إلى البناء ترابًا من تراب ذلك الحائط في طشت وقال: ما يمكن أنك اليوم تدخل فهذا من ترابه فانظر إليه واعرف ما يريد، فقال: أنا أرجع إليك غدًا، فضحك منه وانصرف. قال وكان في جوارنا فقيه يعرف بالكشفلي من الشافعيين، تقدم في العلم حتى صار في رتبة أبي حامد الإسفراييني وقعد بعد موته مكانه، قال: فأهديت إليه عمامة عريضة قصيرة من خراسان، فقلت له: أيها الشيخ، اقطعها والفقها ليمكنك التعمم بها، فلما كان من الغد رأيتها على رأسه أقبح منظر، فتأملتها وإذا به قد قطعها عرضًا ولفقها، فصار عرضها أربعة عشر شبرًا وطولها نصف ما كان، فتعجبت منه ولم أراجعه.

أخبرني عيسى اللحام قال: جاءني رجل له منظر ليشتري مني إلية، فأخرجت له إلية صغيرة، فقال لي: أتهزأ بي؟ هذه إلية وأنا أريد إلية الضان، فقلت له: ليس للبقر إليه، فقال: حدث بهذا غيري ولا تستبلهني، فطالعت له غيرها فأعجبته ورضي بها.

وقع جرف في بعض السنين فقال بعض المغفلين: مات في هذه السنة مَن لم يمت قط.

الباب الخامس

قصص الملوك والخلفاء والوزراء والحجاب والولاة

قصص القضاة والقصاص

قصص العبيد والإماء والخدم

قصص الملوك والخلفاء والوزراء والحجّاب والوُلاة

في ذكر الوزراء

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩﴾ [طه: الآية ٢٩]. فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢﴾ [طه: الآيتان ٣١، ٣٢] دلّت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوّض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة، ثم قال: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ [طه: الآيتان ٣٣، ٣٤] دلّت هذه الآية على أن يصحبه العلماء والصالحين أهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره[2] الخيل إلى السوط، وأحد الشفار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله. وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنّة ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاوره في ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إلـٰه تُعبد إذ صرت تَعْبُد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالًا، ولبئس القرناء شر قرين لشر

(١) المستطرف: ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) أفره الخيل: أحسنها قوامًا ونشاطًا.

خدين[١]، وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، وفي الأمثال: نعمَ الظهير الوزير. وأولى ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في انتخاب الوزراء واستنقاء الجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه الخلال[٢] يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه، وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم.

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان، وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، وفي كل صحيفة: ارحم المسكين واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه، ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحًا وإلى الماء محتاجًا، ومثل السلطان كمثل الطبيب، ومثل الرعية مثل المرضى، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير. وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدًا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل، فيقتله الملك، فمن هٰهنا شرط في الوزير أن يكون صدوقًا في لسانه عدلًا في دينه مأمونًا في أخلاقه بصيرًا بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضًا من أهل الأمانة والبصيرة، وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيمًا، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخفّ بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل.

ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب، فوجد عنده رجلًا ذميًا كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشدًا:

يا ملكًا طاعتُهُ لازمه ... وحبّه مفترضٌ واجبُ
إن الذي شرّفت من أجله ... يزعم هذا أنّه كاذب

وأشار إلى الذمي، فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله، فلم يجد بدًا من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام.

---

(١) الخدين: الصديق. (٢) الخلال: الصفات.

كان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتني غضبان، فادفع إليَّ رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى أنك لست بإلـه، وأنك ستموت، وتعود إلى التراب، فيأكل بعضك بعضًا، وفي الثانية: ارحم مَن في الأرض يرحمك مَن في السماء، وفي الثالثة: اقضِ بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك.

ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشّك الوزير، وإذا أحبك الوزير، فنم لا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج[1] ومَن أتاها من غير بابها انزعج. وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر، فكما أن مَن لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفًا بهم.

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة، وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدأ. كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه.

في ذكر الحجاب

قال في المستطرف[2]: قيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لحاجبه: مَن بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل، فلما دخل قال: حدّثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن ولي شيئًا من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة»، فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب.

---

(١) ولج: دخل.

(٢) المستطرف: ص ١٠٤.

وكان خالد بن عبد الله القشيري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجبن عني أحدًا. فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئًا. وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك، ولا شيء أهيب لرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته.

وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها، قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس العلوي على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضًى كان الحمار مطيتي ... ولكنّ مَن يمشي سيرضى بما ركبْ

ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضربًا شديدًا وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناسًا يسرعون تبادرًا ... إذا فتح البواب بابك أصبعا

ونحن جلوسٌ ساكتون رزانةً ... وحلمًا إلى أن يُفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي[1] حينًا فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ ... فما فضل الكريم على اللئيمِ

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريمُ قليلَ مالٍ ... ولم يعذر تعلّل بالحجابِ

وأبوابُ الملوك محجّباتٌ ... فلا تستنكرنّ حجاب بابي

(١) هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل من بني عجل بن لجيم، أمير الكرخ وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان، قلّده الرشيد أعمال الجبل، ثم كان من قادة جيش المأمون، وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة، وللشعراء فيه مدائح كثيرة، وله مؤلفات كثيرة منها: «سياسة الملوك» و«البزاة والصيد». وهو من العلماء بصناعة الغناء، توفي ببغداد سنة ٢٢٦ هـ.

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم | على أنه لا بدّ سوف يلينُ
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها | وإن لم تكن خانت فسوف تخونُ

وقال آخر:

ماذا على بوّاب داركم الذي | لم يعطنا إذنًا ولا يُستأذنُ
لو ردّنا ردًّا جميلًا عنكمُ | أو كان يدفع بالتي هي أحسنُ

وقال آخر:

أمرت بالتّسهيل في الإذن لي | ولم ير الحاجب أن يأذنا
فلن تراني بعدها عائدًا | ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوةً | فيها لحسن صنيعك التكديرُ(١)
ما بال دارك حين تدخل جنّةً | وبباب دارك منكرٌ ونكيرُ

وقال آخر:

إذا جئت ألقى عند بابك حاجبًا | محيّاه من فرط الجهالة حالكُ
ومن عجبٍ مغناكَ جنّة قاصدٍ | وحاجبها من دون رضوان مالكُ

وقال آخر:

سأترك بابًا أنت تملك إذنه | ولو كنت أعمى عن جميع المسالكِ
فلو كنت بواب الجنان تركتها | وحوّلت رجلي مسرعًا نحو مالكِ

وقال آخر:

ماذا يفيدك أن تكون محجّبًا | والعبد بالباب الكريم يلوذُ(٢)
ما أنت إلّا في الحصار معي فلا | تتعبْ فكلّ محاصرٍ مأخوذُ

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه | على ما أرى حتى يلين قليلا

---

(١) التكدير: تعكير المودة.

(٢) يلوذ: يحتمي.

فما خاب من لم يأته متعمّدًا ولا فاز مَن قد نال منه وصولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعًا وجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قل له إن الكرى قد خطب إلى نفسي وإنما هي هجعة وأهب، فخرج الحاجب، فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلامًا لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه وبذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة[1] والمسألة إلا أغلق الله أبواب السمٰوات دون حاجته وخلته ومسألته»، وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه، فقال:

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا لمثلك من أميرٍ أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا تمادت فيهم غِيَر الدهور
فبتنا بالسلامة وهي غنمٌ وباتوا في المحابس والقبور
ولمّا لم ننل منهم سرورًا رأينا فيهمُ كلّ السرور

وأنشدوا في ذلك أيضًا:

قل للذين تحجبوا عن راغبٍ بمنازلٍ من دونها الحجّاب
إن حال عن لقياكم بوابكم فالله ليس لبابه بواب

معاوية وسعد بن مالك

واستأذن سعد بن مالك على معاوية، فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى الناس وفيهم كعب[2] فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة؟ فقال كعب: لا

(١) الخلة: الفقر.

(٢) هو كعب بن جعيل بن قمبر بن عجرة التغلبي، شاعر تغلب في عصره، مخضرم عرف في الجاهلية والإسلام، وكان لا ينزل بقوم إلا أكرموه وضربوا له قبة أدركه الأخطل في صباه وهاجاه، وكان في زمن معاوية وشهد معه «صفين» قال المرزباني هو شاعر معاوية بن أبي سفيان توفي حوالي سنة ٥٥ هـ.

تبك، فإن في الجنّة قصرًا من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله.

واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم، فحجبه فقال:

في كلّ يومٍ لي ببابك وقفةٌ أطوي إليك سائر الأبوابِ
وإذا حضرتَ رغبت عنك فإنه ذنبٌ عقوبتُهُ على البوّابِ

في ذكر الولاة

قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صَ: الآية ٢٦].

جاء في التفسير أن من اتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك محبة خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناسًا من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدًا.

ورُوِيَ عن عبد الرحمـٰن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمـٰن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة عنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها».

وقال معقل بن يسار رضي الله عنه، سمعت النبيّ ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة».

وفي الحديث: «مَن ولي من أمور المسلمين شيئًا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته، فليتبوأ[١] مقعده من النار». ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة، فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم، فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعالى بالعظام،

(١) فليتبوأ: فليأخذ وليقم.

فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعًا أخذ بيده، وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصيًا انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفًا»، فقال عمر رضي الله عنه سمعت من النبيّ ﷺ ما لم أسمع قال: نعم.

وكان سلمان وأبو ذر حاضرين، فقال سلمان: أي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفًا في واد يلتهب التهابًا، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنّا إليه راجعون. مَن يأخذها بما فيها، فقال سلمان أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود في السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده، فقال النبيّ ﷺ «العرفاء في النار».

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة الإمام الجائر». وقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة».

وقال الحسن البصري إن النبيّ ﷺ دعا عبد الرحمٰن بن سمرة يستعمله، فقال يا رسول الله خر لي فقال: «اقعد في بيتك». وقال أبو هريرة رضي الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولًا، أنجاه عمله أو أهلكه.

وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه، فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيّرون إليه في ألواحهم فلم ينظر إليها، وقال: هذا حكم لا أتولى حكمًا أبدًا. وقال أبو بكر بن أبي مريم: حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة، فلم يجدوا ماء، فأتاهم رجل فقالوا له: دلّنا على الماء. فقال: احلفوا لي ثلاثًا وثلاثين يمينًا أنه لم يكن صرافًا ولا مكاسًا[1] ولا عريفًا، ويروى ولا عرافًا، ولا بريدًا، وأنا أدلكم على

(١) المكاس: من المكوس وهي الضرائب والمكاس أي من جباة الضرائب.

الماء، فحلفوا له ثلاثًا وثلاثين يمينًا كما تقدم، فحلفوا له، فأعانهم على غسله، ثم قالوا له: تقدم فصلِّ عليه، فقال: لا، حتى تحلفوا لي ثلاثًا وثلاثين يمينًا كما تقدم، فحلفوا له فصلّى عليه، ثم التفتوا فلم يجدوا أحدًا، فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أحل لك ما أحب لنفسي، وإني أراك ضعيفًا، فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم».

الوزير المخلص

حُكِيَ أن ملكًا من ملوك الفرس يقال له أردشير، وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير، وكان ذا بأس شديد، وقد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسيّر أردشير مَن يخطبها من أبيها، فامتنع من إجابته، ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت، وليقتلنه هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة، فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنًا وجمالًا وقدرًا واعتدالًا، فبهت أردشير من رؤيته إياها، فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وأن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرني في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر، فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني لها، فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك، فقال أردشير: وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة.

ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للتسري، وقال: هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يومًا، وقد رأته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك، فقال لها: ومَن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأنا ابنته التي خطبتها منه، وأنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني، فلا

يتهيأ لك قتلي، فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مغضبًا، وعوّل على قتلها.

ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قويًا على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع، فقال: أيها الملك إن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأي الملك وحنثته[١] في يمينه لأجل شهوة النفس، ثم قال: أيها الملك إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق، فقال له الملك: نعم ما رأيت خذها غرقها.

فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلًا إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيّل إلى أن طرح شيئًا في البحر أوهم مَن كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرقها، فشكره على ما فعل، ثم إن الوزير ناول الملك حقًا مختومًا وقال: أيها الملك إني نظرت مولدي، فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم، وإن لي أولادًا وعندي مال قد ادخرته من نعمتك، فخذه إذا أنا مت إن رأيت، وهذا الحقُ فيه جوهر اسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه إرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء ما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر، فقال له الملك: يطول الرب في عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيًا أو ميتًا، فألحّ عليه الوزير أن يجعل الحقُ عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولدًا ذكرًا جميلًا حسن الخلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسمًا وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك، فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك، وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه

(١) الحنث باليمين: أي لم يف بها.

مملوك له اسمه شاه بور، إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن في السن وأقعده الهرم، فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أني ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به.

فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد، وكان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها. ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فلعل حملها يكون ذكرًا، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك إنها عندي حية ولقد ولدت ووضعت ولدًا ذكرًا من أحسن الغلمان خَلقًا وخُلقًا، فقال الملك: أحق ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوّة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم[1] أبدًا، وإنني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلامًا في سنه وهيئته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو. وإني أعطي كل واحد منهم صولجانًا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم وشمائلهم، فكل مَن مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو.

فقال الملك: نعم التدبير الذي قلت، فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك، فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم، فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مرارًا، فقال: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور، فقال له: صدقت أنت ابني حقًا، ثم ضمه إليه وقبّله بين عينيه، فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدًا بحضرة الملك، فتحقق الصدق في ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها، فقبّلت يد الملك، فرضي عنها.

فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحُق المختوم، فأمر الملك بإحضاره، ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر

(١) ينخرم: يخرق بباطل.

الوزير وأنثياه مقطوعة مصانه فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولًا من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة، قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة، وشدة مناصحته، فزاده سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه، ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى.

قصص القضاة والقصاص

في ذكر القضاة

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صٓ: الآية ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صٓ: الآية ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «مَن حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه، فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله» وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فسلّم عليه، فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمٰن بن عوف: أخاف أن يكون وجد[2] عليَّ خليفة رسول الله ﷺ، فكلم عبد الرحمٰن أبا بكر، فقال: أتاني، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما وعما قالا وقلت.

وادعى رجل على علي عند عمر رضي الله عنهما وعليٌّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك، فتناظرا، وانصرف الرجل، ورجع عليّ إلى مجلسه، فتبيّن لعمر التغير في وجه عليّ، فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيرًا، أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي. هلا قلت يا علي قم، فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس عليّ رضي الله عنهما، فقبّله بين عينيه، ثم قال: بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور.

---

(١) المستطرف: ص ١٠٩.

(٢) وجد: غضب وحقد.

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحًا.

وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة.

وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزًا، فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فكتب إلينا، لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلّة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خـان الأمـيـر وكـاتـبـاه ... وقاضي الأرض داهنَ في القضاءِ
فـويـلٌ ثـم ويـلٌ ثـم ويـلٌ ... لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم.

عن ابن أبي أوفى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار برىء الله منه ولزمه الشيطان».

وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجبهم فلما ألحّوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك فقبض.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرّون على ظهورهم يوم القيامة».

وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضيًا، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيًا.

وقيل: أول مَن أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضيًا فيها وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ فأجد

أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له. وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيىٰ بن أكثم مع رجل ادّعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيىٰ: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بينة، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة: إني تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيىٰ بمال وأجزل عطاءه.

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فقال أبو يوسف: قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع، يا غلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النحاس فإنه إن قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة، فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم.

وقال العكلي يمدح بعض القضاة:

رُفضتْ وعطلتْ الحكومة قبله ... في آخرين وملّها روّاضها
حتى إذا ما قام ألف بينها ... بالحق حتى جمعتْ أوفاضها[1]

وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكي وأندب ملّة الإسلام ... إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كبيرةٌ ... وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة إلى قاضٍ، فقال لها: جامعك شهودك، فسكتت فقال كاتبه: أن القاضي يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطّت على لبّك ما رأيت ميتًا يقضي بين الأحياء غيرك. وقيل: المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف

(١) أوفاضها: الفرق من الناس. والأخلاط من قبائل شتى.

الأحكام، قاضي مِنًى وقاضي كسكر وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحٰق الصابي:

يا ربَّ علجٍ أعلج[١] مثل البعير الأهوج
رأيته مطلعًا من خلف بابٍ مرتَج[٢]
وخلفه عذيبةٌ[٣] تذهب طورًا وتجي
فقلت مَن هذا ترى فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيت رأسًا كدبه ولحيةً كالمذبه[٤]
فقلت مَن أنت قل لي فقال قاضي شلبه

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادّعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعي:

فُتن الشعبيّ لما رفع الطرف إليها
فتنته ببنان كيف رؤيا معصميها[٥]
ومشت مشيًا رويدًا ثم هزّت منكبيها
فقضى جورًا على الخصم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطًا.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعبي يومًا من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول:

فتن الشعبي لما

(١) علج: الغليظ الأحمق والكافر. (٢) مرتج: مقفل.
(٣) عذيبة: وهي مصغر عذبة العمامة والعذبة طرف الشيء.
(٤) المذبة: المروحة التي يطرد بها الذباب.
(٥) ورد عجز هذا البيت:

«كيف لو رأى معصميها»

وهو غير مستقيم الوزن.

وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال:

رفــع الــطــرف إلــيــهــا

ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق، وأنشد بعضهم في أمين الحكم:

تتماوتن إذا مشيت تخشعًا حتى تصيب وديعةً ليتيم

في ذكر القصاص والمتصوفة

رُوِيَ عن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا». ورُوِيَ أن كعبًا كان يقص، فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة، وقال ابن المبارك: سألت الثوري، من الناس؟ قال العلماء، قلت: فمَن الأشراف؟ قال: المتقون، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام، قلت: فمَن السفهاء؟ قال: الظلمة.

قيل: وهب رجل لقاص خاتمًا بلا فص، فقال: وهب الله لك في الجنّة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن أقوامًا إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال.

وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا، فهو كما قالوا. وكان بمرو قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورًا صغيرًا فيحركه ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك، فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة، فقال: أكلة رقصة.

ووعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل، فأقبلوا يمزّقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب، أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

في ذكر العبيد والإماء والخـــدم

قال في المستطرف[1]: عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول مَن يدخل الجنة شهيدٌ وعبدٌ أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده».

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (رفعه) «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادمًا لخديجة رضي الله تعالى عنها، اشتري لها بسوق عكاظ، فوهبته لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ إن رضي بذلك فعلت، فسئل زيد فقال: ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ أحب إليّ من عز الحرية مع مفارقته. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوّجه أم أيمن، وبعدها زينب بنت جحش.

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي.

وعن ابن مسعود الأنصاري قال: ضربت غلامًا لي فسمعت مَن خلفي صوتًا: «اعلم يا أبا مسعود إن الله أقدر عليك منك عليك». فالتفت فإذا هو النبيّ ﷺ، فقلت يا رسول الله: هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار.

---

(١) المستطرف: ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

ورُوِيَ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدّثني أبو القاسم نبيّ التوبة ﷺ: «مَن قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حدًّا».

وقيل: أراد رجل بيع جاريته فبكت، فقال لها: مالك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت مني ما أخرجتك من يدي، فأعتقها وتزوجها.

وقال أبو اليقظان: إن قريشًا لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم، عليّ بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أتى ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح: واعمراه، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة، فقال عليّ رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر». إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل: استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدي:

نهيتكموا أن تحملوا فوقَ خيلكم ... هجينًا لكم يوم الرهان فيدرك(١)
فتعثر كفّاه ويسقط سوطه ... ويخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوي المرآن هذا ابن حرّةٍ ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرّك(٢)

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلةً ... ولا كلّفت خبزًا ولا طبخت قدرا

---

(١) هجينًا: اللئيم، أو مَن كانت أمه غير عربية وأبوه عربي.
(٢) متشرك: أي يشترك فيه عدة رجال «زانية».

وكم قد ترى فينا من ابن سبية إذا لقيَ الأبطال يطعنهم شزرا[١]
ويأخذ ريّان الطعان بكفّه فيوردها بيضًا ويصدرها حمرا[٢]

فقبّل رأسه وعينيه وقال: أحسنت يا بني ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك». وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمنن امرأة على سرّ ولا تطأ خادمًا تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبدًا فقال: يأكل فارهًا[٣] ويعمل كارهًا ويبغض قومًا ويحب نومًا. وقيل لبعضهم: ألك غلام؟ فقال:

وما لي غلامٌ فأدعو به سوى من أبوه أخو عمتي

وقال أكثم:

الحرُّ حرٌ وإن مسّه الضرُّ والعبدُ عبدٌ وإن ألبسته الدرُّ

ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حرّةٌ رأى خللًا فيما تولّى الولائد
فلا يتخذ منهنّ حرٌّ قعيدة فهنّ لعمر الله بئس القعائد

هذا طبيب وهذا حفّار

كان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يومًا يشتري له عنبًا وتينًا، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضي حاجتين، فمرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر، فسأله عنه فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة، فجئتك بالطبيب، فإن شفاك الله تعالى، وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب وهذا حفّار.

---

(١) شزرًا: مغضبًا وهو ينظر بطرف عينيه. (٢) ريان الطعان: أي الرمح المرن.
(٣) فارهًا: أي هو شديد الأكل.

عمرو الأعجمي والعبد الأسود

قيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند، فكتب إلى موسى الهادي أن رجلًا من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلامًا أسود فربّاه وتبنّاه، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه يومًا على غفلة منه من حيث لا يعلم، فإذا هو على صدر مولاته، فعمد إليه فجب ذَكَره وتركه يتشحط في دمه، ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برىء من علّته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمرًا يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يومًا عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عالٍ، فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه، فرفع رأسه فرأى في شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرّضت ابني للموت، قال: أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذَكَرك مثل ما جببتني لأرمينّ بهما، فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع عذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه ويتضرّع له، وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه، فيدليهما من ذلك الشاهق، فقال أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت، ثم أسرع وأخذ مدة فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطّعا، وقال: إن جبّك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام، وقال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود.

قصص متفرقة

عبد الملك بن مروان وملك الروم(١)

عن ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: وجه عبد الملك بن مروان عامر الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر له، فاستكثر الشعبي فقال له: من أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا، فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال:

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٢.

إذا رجعت إلى صاحبك، فأبلغته جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا، فادفع إليه هذه الرقعة، فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر ما احتاج إلى ذكره ونهض من عنده، فلما خرج ذكر الرقعة، فرجع فقال: يا أمير المؤمنين، إنه حملني إليك رقعة نسيتها حتى خرجت، وكانت في آخر ما حملني فدفعها إليه ونهض، فقرأها عبد الملك قال: فأمر برده، فقال: أعلمت ما في هذه الرقعة؟ قال فيها: عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا. أفتدري لِمَ كتب إليّ بمثل هذا؟ فقال: لا. فقال: حسدني عليك، فأراد أن يغريني بقتلك، فقال الشعبي: لو كان رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرني، فبلغ ذلك ملك الروم، ففكر في عبد الملك، فقال: لله أبوه والله ما أردت إلا ذلك.

السفاح وعبد الله بن حسين(١)

عن سعيد الباهلي عن أبيه قال: حدّثني مَن حضر مجلس السفاح وهو أحسد ما كان لبني هاشم والشيعة ووجوه الناس، فدخل عبد الله بن حسين بن حسن ومعه مصحف، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف، فأشفق الناس أن يجعل السفاح بشيء إليه ولا يريدون ذلك في شيخ بَني هاشم أو يعيا لجوابه، فيكون ذلك نقصًا عليه وعارًا، فأقبل إليه غير مغضب ولا منزعجَ فقال: إن جدك عليًا كان خيرًا مني وأعدل ولي هذا الأمرَ فأعطى جديك الحسن والحسين، وكانا خيرًا منك شيئًا، وكان الواجب أن أعطيك مثله، فإن كنت فعلت فقد أنصفتك، وإن كنت زدتك فما هذا جزائي منك، فما رد عبد الله إليه جوابًا وانصرف والناس يعجبون من جوابه له.

السفاح ورجل من آل أبي طالب(٢)

عن ابن الأعرابي قال: أول خطبة خطبها السفاح في قرية يقال لها العباسية، فلما صار إلى موضع الشهادة من الخطبة قام رجل من آل أبي طالب في عنقه مصحف، فقال: أذكرك الله الذي ذكرته ألا أنصفتني من خصمي وحكمت بيني وبينه بما في هذا المصحف، فقال له: ومَن ظلمك؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة فدكًا. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. مَن؟ قال: عمر. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: مَن؟ قال:

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٢.
(٢) نفس المصدر ص ٤٣.

عثمان. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: مَنْ؟ قال: علي. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: فأسكت الرجل وجعل يلتفت إلى ورائه يطلب مخلصًا، فقال له: والله الذي لا إله إلّا هو لولا أنه أول مقام قمته، ثم لم أكن تقدمت إليك في هذا قبل لأخذت الذي فيه عيناك اقعد وأقبل على الخطبة.

المنصور وابن هرمة[1]

قال إسماعيل بن محمد قال: دخل ابن هرمة علي أبي جعفر، فأنشده فقال: سل حاجتك. قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة متى وجدني سكران لا يحدني. قال: هذا حد ولا سبيل إلى إبطاله. قال: ما لي حاجة غير ذلك. قال: اكتب إلى عاملنا بالمدينة مَن أتاك بابن هرمة وهو سكران، فاجلده ثمانين واجلد الذي جاء به مائة. قال: فكان الشرطة يمرّون به وهو سكران، فيقولون: مَن يشتري ثمانين بمائة، فيمرون ويتركونه

المنصور والخائنة[1]

جلس المنصور في إحدى قباب مدينته، فرأى رجلًا ملهوفًا مهمومًا يجول في الطرقات، فأرسل مَن أتاه به، فسأله عن حاله، فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فأفاد مالًا وأنه رجع بالمال إلى منزله، فدفعه إلى أهله، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها ولم تر نقبًا ولا تسليقًا، فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكرٌ هي تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنّة؟ قال: بل حديثة، فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذه له حادّ الرائحة، غريب النوع، فدفعها إليه وقال له: تطيّب من هذا الطيب، فإنه يذهب همّك، فلما خرج الرجل من عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مرّ بكم فشممتم منه رائحة هذا الطيب وأشمهم منه، فليأتني به. وخرج الرجل بالطيب، فدفعه إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين، فلما شمته بعثت إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال إليه، فقالت له: تطيّب من هذا الطيب، فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي، فتطيب منه الرجل ومرّ مجتازًا ببعض أبواب المدينة،

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٣.

فشمّ الموكل بالباب رائحة الطيب منه، فأخذه فأتى به المنصور، فقال له المنصور: من أين استفدت هذا الطيب فإن رائحته غريبة معجبة؟ قال: اشتريته. قال أخبرنا ممن اشتريته، فتلجلج الرجل وخلط كلامه فدعا المنصور صاحب شرطته، فقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة. فلما خرج من عنده دعا صاحب شرطته، فقال: هوّل عليه وجرّده ولا تقدمن بضربه حتى تؤامرني، فخرج صاحب شرطته فلما جرده وسجنه أذعن برد الدنانير وأحضرها بهيئتها، فأعلم المنصور بذلك، فدعا صاحب الدنانير، فقال له: رأيتك إن رددت عليك الدنانير بهيئتها أتحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك، وقد طلقت المرأة عليك وخبره خبرها.

مكيدة المنصور(١)

عن مبارك الطبري قال: سمعت أبا عبيد الله يقول: خلا أبو جعفر يومًا مع يزيد بن أبي أسيد، فقال: يا يزيد، ما ترى في قتل أبي مسلم؟ فقال: أرى أن تقتله وتقرب إلى الله بدنة، فوالله لا يصفو ملكك ولا تهنأ بعيش ما بقي، فنفر مني نفرة ظننت أنه سيأتي علي، ثم قال: قطع الله لسانك وأشمت بك عدوك أتشير عليَّ بقتل أنصر الناس لنا، وأثقلهم على عدونا. أما والله لولا حفظي لما سلف منك، وإن أعدها هفوة من هفواتك لضربت عنقك قم لا أقام الله رجليك. قال: فقمت وقد أظلم بصري، وتمنيت أن تسيخ الأرض بي، فلما كان بعد قتله قال لي: يا يزيد: أتذكر يوم شاورتك؟ قلت: نعم. قال: فوالله لقد كان ذلك رأيًا وما لا أشك فيه، ولكن خشيت أن يظهر منك فتفسد مكيدتي.

المهدي وشريك بن عبد الله(٢)

عن عليّ بن صالح قال: كنت عند المهدي ودخل عليه شريك بن عبد الله القاضي، فأراد أن يبخره، فقام الخادم بالعود الذي يلهى به، فوضعه في حجر شريك، فقال شريك: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أخذه صاحب العسس البارحة، فأحببت أن يكون كسره على يد القاضي، فقال: جزاك الله خيرًا يا أمير

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٤.
(٢) نفس المصدر ص ٤٥.

المؤمنين. فكسره، ثم أفاضوا في حديث حتى نسي الأمر، ثم قال المهدي لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلًا له أن يأتي بشيء بعينه، فأتى بغيره فتلف ذلك الشيء؟ فقال: يضمن يا أمير المؤمنين، فقال للخدام: اضمن ما تلف بقضيته.

المهدي ونعل رسول الله ﷺ(١)

عن حسن الوصيف قال: قعد المهدي قعودًا عامًا للناس، فدخل رجل، وفي يده نعل ملفوفة في منديل، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك، فقال: هاتها فدفعها إليه، فقبّل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم، فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه: أترون أني لم أعلم أن رسول الله ﷺ لم يرها فضلًا عن أن يكون لبسها، ولو كذبناه قال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله ﷺ، فردّها علي وكان مَن يصدقه أكثر ممن يدفع خبره، إذ كان من شأن العامة ميلها إلى أشكالها والنصرة للضعيف على القوي، وإن كان ظالمًا اشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله، ورأينا الذي فعلنا أنجح وأرجح.

المأمون وابن أبي حفصة الشاعر(١)

قال المبرد: حدّثني عمارة بن عقيل، قال ابن أبي حفصة الشاعر: أعلمت أن أمير المؤمنين يعني المأمون لا يبصر الشعر، فقلت: مَن ذا يكون أفرس منه وإنا لننشد أول البيت فيسبق آخره من غير أن يكون سمعه. قال: فإني أنشدته بيتًا أجدت فيه، فلم أره تحرك له، وهذا البيت فاسمعه:

أضحى إمامُ الهُدى المأمون مشتغلًا ... بالدِّين والنَّاسُ بالدنيا مَشَاغِيلُ

فقلت له: ما زدته على أن جعلته عجوزًا في محرابها في يدها مسبحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولًا عنها، وهو المطوق لها. ألا قلت كما قال عمك جرير لعبد العزيز بن الوليد؟

فَلَا هو في الدُّنيا مُضَيِّعٌ نَصيبَه ... ولَا عرض الدُّنيا عن الدِّين شاغِلُه

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٥.

المعتضد بالله والقاسم بن عبيد الله(١)

عن أبي عبد الله محمد بن حمدون قال لي المعتضد بالله ليلة وقد قدم له عشاء: لقّمني، وكان الذي قدم له فراريج ودراريج، فلقمته من صدر فروج، فقال: لا. لقمني من فخذه، فلقمته لقمًا، ثم قال: هات من الدراريج، فلقمته من أفخاذها، فقال: ويلك. هو ذا تتنادر عليّ هات من صدورها، فقلت: يا مولاي ركبت القياس، فضحك فقلت: إلى كم أضحكك ولا تضحكني؟ قال: فَشِلْ المطرح وخذ ما تحته. قال: فشلته، فإذا دينار واحد فقلت: آخذها؟ قال: نعم، فقلت: بالله هوذا تتنادر أنت الساعة على خليفة يجيز نديمه بدينار، فقال: ويلك لا أجد لك في بيت المال حقًا أكثر من هذا، ولا تسمح نفسي أن أعطيك من مالي شيئًا، ولكن هوذا أحتال لك بحيلة تأخذ فيها خمسة آلاف دينار، فقبلت يده، فقال: إذا كان غد وجاءني القاسم يعني ابن عبيد الله، فهوذا أسارك خبر تقع عيني عليه سرارًا طويلًا التفت فيه إليك كالمغضب وانظر أنت إليه في خلال ذلك كالمتخالس لي نظر المترائي له، فإذا انقطع السرار، فاخرج ولا تبرح من الدهليز أو يخرج، فإذا خرجت خاطبك بخطاب جميل وأخذك إلى دعوته، ويسألك عن حالك، فأشك الفقر والخلّة وقلة حظك مني وثقل ظهرك بالدين والعيال وخذ ما يعطيك، واطلب كل ما تقع عينك عليه، فإنه لا يمنعك حتى تستوفي الخمسة آلاف دينار، فإذا أخذتها، فيسألك عما جرى بيننا، فاصدقه وإيّاك أن تكذبه وعرفه أن ذاك حيلة مني عليه حتى وصل إليك هذا، وحدّثه بالحديث كله على شرحه، وليكن إخبارك إياه بذلك بعد امتناع شديد وإحلاف منه بالطلاق والعتاق أن تصدقه، وبعد أن تخرج من داره كل ما يعطيك إياه تجعله في بيتك.

فلما كان الغد حضر القاسم، فحين رآه ابتدأ يسارني وجرت القصة على ما وضعني عليه، فخرجت فإذا القاسم في الدهليز ينتظرني، فقال: يا أبا محمد، ما هذا الجفاء لا تجيئني ولا تزورني ولا تسألني حاجة؟ فاعتذرت إليه باتصال الخدمة علي، فقال: ما يقنعني إلا أن تزورني اليوم وتتفرج، فقلت: أنا خادم الوزير، فأخذني إلى طيارة وجعل يسألني عن حالي وأخباري وأشكو إليه الخلة والإضاقة والدين والبنات وجفاء الخليفة وإمساك يده ويتوجع ويقول: يا هذا ما لي لك ولن

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٦.

نضيق عليك ما يتسع على أن نجاوزك نعمة حصلت لي. لو عرفتني لعاونتك على إزالة هذا كله عنك، فشكرته وبلغنا داره، فصعد ولم ينظر في شيء، وقال: هذا يوم أحتاج أن أختص فيه بالسرور بأبي محمد فلا يقطعني أحد عنه وأمر كتَّابه بالتشاغل بالأعمال وخلا بي في دار الخلوة، وجعل يحادثني ويبسطني وقدمت الفاكهة، فجعل يلقمني بيده وجاء الطعام، فكان هذا سبيله، فلما جلس للشرب وقع لي بثلاثة آلاف دينار، فأخذتها للوقت وأحضر ثيابًا وطيبًا ومركوبًا، فأخذت ذلك كله، وكان بين يدي صينية فضة فيها مغسل فضة وخردادي بلور وكوز وقدح بلور، فأمر بحمله إلى طيارتي، وأقبلت كلما رأيت شيئًا حسنًا له قيمة وافرة طلبته، وحمل إلي فرشًا نفيسًا وقال هذا للبنات، فلما تقوّض أهل المجلس خلا بي، وقال: يا أبا محمد، أنت عالم بحقوق أبي عليك ومودتي لك، فقلت: أنا خادم الوزير، فقال: أريد أن أسألك عن شيء وتحلف لي أنك تصدقني عنه، فقلت: السمع والطاعة فأحلفني بالله وبالطلاق والعتاق على الصدق، ثم قال لي: بأي شيء سارك الخليفة اليوم في أمري؟ فصدقته عن كل ما جرى حرفًا بحرف، فقال: فرجت عني ولكون هذا هكذا مع سلامة نيته أسهل عليّ فشكرته وانصرفت إلى بيتي، فلما كان من الغد باكرت المعتضد بالله، فقال: هات حديثك فسقته عليه، فقال: احفظ الدنانير ولا يقع لك إني أعمل مثلها بسرعة.

المعتضد بالله والغلام الأسود(١)

عن أبي القاسم عليّ بن المحسن، عن أبيه قال: بلغني أن المعتضد بالله كان يومًا جالسًا في بيت يُبنى له يشاهد الصناع، فرأى في جملتهم غلامًا أسود، منكر الخلقة، شديد المزح يصعد على السلاليم مرقاتين مرقاتين، ويحمل ضعف ما يحملونه، فأنكر أمره فأحضره وسأله عن سبب ذلك، فلجلج، فقال لابن حمدون وكان حاضرًا: أي شيء يقع لك في أمره؟ فقال: ومَن هذا حتى صرفت فكرك إليه ولعله لا عيال له، فهو خالي القلب. قال: ويحك قد خمّنت في أمره تخمينًا ما أحسبه باطلًا إما أن يكون معه دنانير قد ظفر بها دفعة من غير وجهها أو يكون لصًا يتستر بالعمل في الطين، فلاحاه ابن حمدون في ذلك، فقال: عليّ بالأسود فأحضر، وقال مقارع فضربه نحو مائة مقرعة وقرره وحلف إن لم يصدقه ضرب

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٧.

عنقه وأحضر السيف والنطع، فقال الأسود: لي الأمان. فقال: لك الأمان إلّا ما يجب عليك فيه من حد، فلم يفهم ما قال له، وظنّ أنه قد أمنه فقال: إني كنت أعمل في أتاتين الآجر سنين وكنت منذ شهور هناك جالسًا فاجتاز بي رجل في وسطه هميان فتبعته فجاء إلى بعض الأتاتين فجلس وهو لا يعلم مكاني فحل الهميان وأخرج منه دينارًا فتأملته فإذا كله دنانير فثاروته وكتفته وسددت فاه وأخذت الهميان، وحملته على كتفي وطرحته في نقرة الأتون وطينته، فلما كان بعد ذلك أخرجت عظامه، فطرحتها في دجلة والدنانير معي يقوي بها قلبي، فأمر المعتضد من أحضر الدنانير من منزله، وإذا على الهميان مكتوب لفلان بن فلان، فنودي في البلدة باسمه، فجاءت امرأة قالت: هذا زوجي ولي منه هذا الطفل خرج في وقت كذا ومعه هميان فيه ألف دينار، فغاب إلى الآن، فسلّم الدنانير إليها، وأمرها أن تعتد، وضرب عنق الأسود وأمر أن تحمل جثته إلى الأتون.

المعتضد بالله والصياد[1]

قال المحسن: وبلغنا عن المعتضد بالله أن خادمًا من خدمه جاء يومًا فأخبره أنه كان قائمًا على شاطىء الدجلة في دار الخليفة، فرأى صيادًا وقد طرح شبكته، فثقلت بشيء، فجذبها فأخرجها فإذا فيها جراب، وأنه قدره مالًا فأخذه وفتحه، فإذا فيه آجر وبين الآجر كف مخضوبة بحناء. قال: فأحضر الجراب والكف والآجر، فهال المعتضد ذلك، وقال: قل للصياد يعاود طرح الشبكة فوق الموضع وأسفله وما قاربه، قال: ففعل فخرج جراب آخر فيه رِجل قال: فطلبوا فلم يخرج شيء آخر، فاغتمّ المعتضد فقال معي في البلد مَن يقتل إنسانًا ويقطع أعضاءه ويفرقه ولا أعرف به ما هذا ملك. قال: وأقام يومه كله ما طعم طعامًا، فلما كان من الغد أحضر ثقة له، وأعطاه الجراب فارغًا وقال له: طف به على كل مَن يعمل الجرب ببغداد، فإذا عرفه منهم رجل، فسله على مَن باعه، فإذا دلّك عليه، فسل المشتري مَن اشتراه منه ولا تقر على خبره أحدًا. قال: فغاب الرجل وجاءه بعد ثلاثة أيام، فزعم أنه لم يزل يتطلب في الدباغين، وأصحاب الجرب إلى أن عرف صانعه، وسأل عنه فذكر أنه باعه على عطار بسوق بحي، وأنه مضى إلى العطار وعرضه عليه، فقال: ويحك. كيف وقع هذا الجراب في يدك؟ فقلت: أوَ تعرفه؟

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٨.

قال: نعم. اشترى مني فلان الهاشمي منذ ثلاثة أيام عشرة جرب لا أدري لأي شيء أرادها وهذا منها. فقلت له: ومَن فلان الهاشمي، فقال: رجل من ولد علي بن ريطة من ولد المهدي يقال له: فلان عظيم، إلّا أنه شر الناس وأظلمهم وأفسدهم لحرم المسلمين وأشدهم تشوّقًا إلى مكائِدهم، وليس في الدنيا مَن ينهي خبره إلى المعتضد خوفًا من شره ولفرط تمكنه من الدولة والمال، ولم يزل يحدّثني وأنا أسمع أحاديث له قبيحة إلى أن قال: فحسبك أنه كان يعشق منذ سنين فلانة المغنية جارية فلانة المغنية، وكانت كالدينار المنقوش وكالقمر الطالع في غاية حسن الغناء فساوم مولاتها فيها، فلم تقاربه، فلما كان منذ أيام بلغه أن سيدتها تريد بيعها على مشتر قد حضر بذلك فيها ألوف دنانير. فوجه إليها لا أقل من أن تنفذيها إليّ لتودعني، فأنفذتها إليه بعد أن أنفذ إليها جذرها لثلاثة أيام، فلما انقضت الأيام الثلاثة غصبها عليها وغيبها عنها، فما يعرف لها خبر وادّعى أنها هربت من داره. وقالت الجيران: أنه قتلها وقال قوم: لا، بل هي عنده، وقد أقامت سيدتها عليها المأتم وجاءت وصاحت على بابه وسوّدت وجهها، فلم ينفعها شيء، فلما سمع المعتضد سجد شكرًا لله تعالى على انكشاف الأمر له، وبعث في الحال مَن كبس على الهاشمي وأحضر المغنية، وأخرج اليد والرجل إلى الهاشمي، فلما رآهما امتقع لونه وأيقن بالهلاك واعترف، فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاتها من بيت المال وصرفها، ثم حبس الهاشمي، فيقال: إنه قتله. ويقال: مات في الحبس.

المعتضد بالله والقمار[١]

قال عبد الله محمد بن أحمد بن حمدون قال: كنت قد حلفت وعاهدت الله أن لا أعقد مالًا من القمار وأنه لا يقع في يدي منه شيء إلا صرفته في ثمن شمع يحترق، أو نبيذ يشرب، أو جذر مغنية، فجلست يومًا ألاعب المعتضد، فقمرته بسبعين ألف درهم، فنهض المعتضد يصلّي قبل العصر ركعتان من قبل أن يأمر لي بها، فجلست أفكر وأندم على ما حلفت عليه، وقلت: كم أشتري من هذه السبعين ألف شمعًا وشرابًا وكم أجذر وما كانت هذه العجلة في اليمين، ولو لم أكن حلفت كنت الآن قد اشتريت بها ضيعة، وكانت اليمين بالطلاق والعتاق

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٩.

وصدقة الملك، فلما سلّم من السجود قال لي: في أي شيء تفكرت؟ فقلت: خير، فقال: بحياتي أصدقني، فصدقته، فقال: وعندك أني أريد أن أعطيك سبعين ألفًا في القمار، فقلت: أفتصغر؟ قال: نعم. قد صغرت. قم ولا تفكر في هذا. قال: ودخل في صلاة الفرض، فلحقني الغم أعظم من الأول وندمت على فوت المال، وجعلت ألوم نفسي لِمَ صدقته، فلما فرغ من صلاته قال لي: يا أبا عبد الله، بحياتي أصدقني عن هذا الفكر الثاني، فصدقته، فقال: أما القمار فقد قلت إني صغرت، ولكني أهب لك سبعين ألفًا من مالي ولا يكون عليَّ إثم في دفعها إليك، ولا عليك إثم في أخذها، وتخرج من يمينك فتشتري بها ضيعة حلالًا، فقبّلت يده وأخذت المال فاعتقدت به ضيعة، والله أعلم.

يحيىٰ البرمكي والتجارة الرابحة[1]

قال ابن الموصلي: حدّثني أبي قال: أتيت يحيىٰ بن خالد بن برمك، فشكوت إليه ضيقة اليد، فقال: ويحك وما أصنع بك ليس عندنا في هذا الوقت شيء، ولكن عليك هٰهنا أمر أدلّك عليه، فتكن فيه رجلًا قد جاءني خليفة صاحب مصر يسألني أن أستهدي صاحبه شيئًا وقد أبيت ذلك فألحّ علي، وقد بلغني إنك قد أعطيت بجاريتك فلانة آلاف دنانير، فهوذا أستهديه إياها وأخبره إنها قد أعجبتني وإياك أن تنقصها من ثلاثين ألف دينار وانظر كيف يكون. قال: فوالله ما شعرت إلا بالرجل قد أتاني فساومني الجارية، فقلت: لا أنقصها من ثلاثين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها، فبعتها وقبضت العشرين ألفًا، ثم صرت إلى يحيىٰ بن خالد، فقال لي: كيف صنعت في بيعك الجارية؟ فأخبرته فقلت: والله ما ملكت نفسي إن أجبت إلى العشرين ألفًا حين سمعتها. فقال: إنك لخسيس وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني في مثل هذا، فخذ جاريتك، فإذا ساومك، فلا تنقصها من خمسين ألف دينار، فإنه لا بد أن يشتريها منك بذلك. قال: فجاءني الرجل فاستمت عليه خمسين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار، فضعف قلبي على ردّها ولم أصدق بها، فأوجبتها له بها، ثم صرت إلى يحيىٰ بن خالد، فقال لي: بكم بعت الجارية؟ فأخبرته، فقال لي: ويحك. ألم

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٥١.

تؤدبك الأولى عن الثانية؟ قلت: ضعفت والله عن رد شيء لم أطمع فيه. فقال: هذه جاريتك فخذها إليك. قال: فقلت: جارية أفدت بها خمسين ألف دينار ثم أملكها. أشهدك أنها حرة وإني قد تزوجتها.

الفضل بن الربيع وزير الرشيد(١)

عن الرشيد أنه رأى يومًا في داره حزمة خيزران فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ فقال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد. وقال الفضل: إياكم ومخاطبة الملوك بما يقتضي الجواب، فإنهم إن أجابوكم شق عليهم وإن لم يجيبوكم شق عليكم. قال ثعلب: قلت للحسن بن سهل وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله ليس في السرف خير، فقال: بل ليس في الخير سرف. فرد اللفظ واستوفى المعنى.

أمان أبي الحسن بن الفرات(١)

أبو علي بن مقلة قال: كنت أكتب لأبي الحسن بن الفرات أخدم بين يديه، فأول شيء برزق عشرة دنانير في كل شهر وهو يخلف أخاه في ديوان السواد، ثم زادت حاله فرقاني إلى ثلاثين دينارًا في كل شهر، فكنت كذلك معه إلى أن تقلّد الوزارة الأولى، فحصل رزقي خمسمائة دينار في كل شهر، ثم أمر بقبض ما في دور المخالفين الذين بايعوا ابن المعتز، وكانت أمتعتهم تقبض وتحمل إليه فيراها وينفذها إلى خزانة المقتدر. فجاؤوه يومًا بصندوقين، فقالوا له: هذان وجدناهما في دار ابن المعتز، فقال: أفعلمتم ما فيهما؟ قالوا: نعم جرائد مَن بايعه من الناس بأسمائهم وأنسابهم، فقال: لا تفتح. ثم قال: يا غلمان هاتوا نارًا، فجاء الفراشون بفحم وأمرهم فأججوا النار، وأقبل عليّ وعلى مَن كان حاضرًا، فقال: والله لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة لظنّ كل مَن له فيها اسم أني قد عرفته، فتفسد نيات العالم كلهم عليّ وعلى الخليفة وما هذا رأي حرقوهما، قال: فطرحا بأقفالهما في النار، فلما احترقا بحضرته أقبل عليّ، فقال: يا أبا علي قد أمنت كل مَن جنى وبايع ابن المعتز، وأمرني الخليفة بأمانة، فاكتب للناس الأمان مني ولا يلتمس منك أحد أمانًا كائنًا مَن كان إلا كتبته له وجئني به لأوقع فيه، فقد أفردتك لهذا العمل. ثم قال لمن حضر: أشيعوا ما قلته حتى يأنس المستترون بأبي

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٢.

علي ويكاتبونه في طلب الأمان، فشكرناه. ودعت الجماعة له وشاع الخبر وكتبت الأمانات، فكتب في ذلك مائة ألف أو نحوها.

عطر الرجال(١)

عن ابن المحسن عن أبيه قال: سمعت أبا القاسم الحسن بن علي بن مقلة يقول: كان أبو علي بن مقلة يومًا يأكل، فلما رفعت المائدة وغسل يده رأى على ثوبه نقطة صفراء من الحلوى التي كان يأكلها، ففتح الدواة واستمد منها نقطة على الصفرة حتى لم يبق لها أثر، وقال: ذاك أثر شهوة، وهذا أثر صناعتي، ثم أنشد:

إنَّما الزّعفرانُ عِطْرُ العذَارى وَمِدادُ الدّواةِ عِطْرُ الرِّجال

الملك والجاسوس(١)

وذكر أن ملكًا كانت أسراره تظهر كثيرًا إلى عدوه فيبطل تدبيره على العدو، فبلغ ذلك منه، فشكا إلى أحد نصحائه وقال له: إن جماعة يطلعون على أسرار لي لا بد من إظهارها لهم ولست أدري أيهم يظهرها، وأكره أن أنال البريء منهم بما يستحق الخائن، فدعا بكتاب فكتب فيه أخبارًا من أخبار المملكة، وجعلها كذبًا كلها ثم دعا برجل، رجل، كل واحد دون صاحبه ممن كان يفشي الملك إليه سره، فقال للملك: أخبر كل واحد منهم بخبر على حدة لا يظهر عليه سائر أصحابه، وأمر كل واحد بستر ما أسررت إليه، واكتب على كل خبر اسم صاحبه، فلم يلبث أن أظهر الخونة ما أفشي إليهم، وانكتمت أخبار الناصحين، فعرف الملك مَن يفشي سره فحذره.

عضد الدولة والعقد(٢)

قيل: إن رجلًا قدم إلى بغداد للحج، وكان معه عقد من الحب يساوي ألف دينار، فاجتهد في بيعه، فلم ينفق، فجاء إلى عطّار موصوف بالخير، فأودعه إياه، ثم حجّ وعاد، فأتاه بهدية، فقال له العطار: مَن أنت وما هذا؟ فقال: أنا صاحب العقد الذي أودعتك، فما كلمه حتى رفسه رفسة رماه عن دكانه، وقال: تدعي عليّ مثل هذه الدعوى، فاجتمع الناس وقالوا للحاجي: ويلك هذا رجل خير ما لحقت من تدعي عليه إلّا هذا، فتحيّر الحاجي وتردد إليه فما زاده إلّا شتمًا

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٣.
(٢) نفس المصدر ص ٥٤.

وضربًا، فقيل له: لو ذهبت إلى عضد الدولة، فله في هذه الأشياء فراسة، فكتب قصته وجعلها على قصبة ورفعها لعضد الدولة، فصاح به فجاء، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة، فقال: اذهب إلى العطار غدًا، واقعد على دكانه، فإن منعك فاقعد على دكان تقابله، من الصبح إلى المغرب ولا تكلمه، وافعل هكذا ثلاثة أيام، فإني أمرّ عليك في اليوم الرابع وأقف وأسلّم عليك، فلا تقم لي ولا تزدني على رد السلام وجواب ما أسألك عنه، فإذا انصرفت فأعد عليه ذكر العقد، ثم أعلمني ما يقول لك فإن أعطاكه فجيء به إليّ.

قال: فجاء إلى دكان العطار ليجلس فمنعه، فجلس بمقابلته ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع اجتاز عضد الدولة في موكبه العظيم، فلما رأى الخراساني وقف وقال: سلام عليكم. فقال الخرساني ولم يتحرك: وعليك السلام، فقال: يا أخي تقدم فلا تأتي إلينا ولا تعرض حوائجك علينا، فقال: كما اتفق ولم يشبعه الكلام وعضد الدولة يسأله ويستخفي وقد وقف ووقف العسكر كله، والعطار قد أغمي عليه من الخوف، فلما انصرف التفت العطار إلى الحاجي فقال: ويحك متى أودعتني هذا العقد، وفي أي شيء كان ملفوفًا، فذكرني لعلي أذكره، فقال: مَن صفته كذا وكذا، فقام وفتش، ثم نقض جرة عنده فوضع العقد، فقال: قد كنت نسيت، ولو لم تذكرني الحال ما ذكرت. فأخذ العقد ثم قال: وأي فائدة لي في أن أعلم عضد الدولة، ثم قال في نفسه: لعله يريد أن يشتريه فذهب إليه فأعلمه، فبعث به مع الحاجب إلى دكان العطار، فعلّق العقد في عنق العطار وصلبه بباب الدكان ونودي عليه: هذا جزاء مَن استودع فجحد. فلما ذهب النهار أخذ الحاجب العقد فسلمه إلى الحاجي وقال: اذهب.

عضد الدولة والمتلصلص(١)

وعن عضد الدولة أنه كان في بعض أمرائه شاب تركي، وكان يقف عند روزنة ينظر إلى امرأة فيها، فقالت المرأة لزوجها: قد حرم عليّ هذا التركي أن أتطلع في الروزنة، فإنه طول النهار ينظر إليها وليس فيها أحد، فلا يشك الناس أن لي معه حديثًا، وما أدري كيف أصنع. فقال زوجها: اكتبي إليه رقعة وقولي فيها: لا معنى لوقوفك فتعال إليّ بعد العشاء. إذا غفل الناس في الظلمة، فإني

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٥.

خلف الباب، ثم قام وحفر حفرة طويلة خلف الباب ووقف له، فلما جاء التركي فتح له الباب، فدخل، فدفعه الرجل فوقع في الحفرة وطمّوا عليه، وبقي أيامًا لا يدري ما خبره، فسأل عنه عضد الدولة فقيل له: ما لنا فيه خبر، فما زال يعمل فكره إلى أن بعث يطلب مؤذّن المسجد المجاور لتلك الدار، فأخذه أخذًا عنيفًا في الظاهر، ثم قال له: هذه مائة دينار خذها وامتثل ما آمرك إذا رجعت إلى مسجدك فأذن الليلة واقعد في المسجد، فأول مَن يدخل عليك ويسألك عن سبب إنفاذي إليك، فأعلمني به، فقال: نعم. ففعل ذلك، فكان أول مَن دخل ذلك الشيخ، فقال له: قلبي إليك ولأي شيء أراد منك عضد الدولة؟ فقال: ما أراد مني شيئًا وما كان إلا الخبر، فلما أصبح أخبر عضد الدولة بالحال، فبعث إلى الشيخ فأحضره، ثم قال له: ما فعل التركي؟ فقال: أصدقك. لي امرأة ستيرة مستحسنة كان يراصدها ويقف تحت روزنتها، فضجّت من خوف الفضيحة بوقوفه، ففعلت به كذا وكذا، فقال: اذهب في دعة الله، فما سمع الناس ولا قلنا.

عضد الدولة وقطاع الطريق[١]

ذكر محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه أنه بلغ إلى عضد الدولة خبر قوم من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شاقة، فلا يقدر عليهم، فاستدعى أحد التجار ودفع إليه بغلًا عليه صندوقان فيهما حلوى قد شيبت بالسم، وأكثر طيبها، وترك في الظروف الفاخرة وأعطاه دنانير، وأمره أن يسير مع القافلة، ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء أمراء الأطراف. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة، فنزل القوم وأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به مع جماعتهم إلى الجبل، وبقي المسافرون عراة، فلما فتح الصندوقين وجد الحلوى يضوع طيبها، ويدهش منظرها ويعجب ريحها، وعلم أنه لا يمكنه الاستبداد بها، فدعا أصحابه، فرأوا ما لم يروه أبدًا قبل ذلك، فأمعنوا في الأكل عقيب مجاعة، فانقلبوا فهلكوا عن آخرهم، فبادر التجار إلى أخذ أموالهم وأمتعتهم وسلاحهم، واستردوا المأخوذ عن آخره، فلم أسمع بأعجب من هذه المكيدة، محت أثر العاتين وحصدت شوكة المفسدين.

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٥.

عضد الدولة وسارق المال(١)

قيل: إن بعض التجار قدم من خراسان ليحج، فتأهب للحج وبقي معه من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها، فقال: إن حملتها خاطرت بها، وإن أودعتها خفت جحد المودع، فمضى إلى الصحراء، فرأى شجرة خروع، فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد، ثم خرج إلى الحج وعاد، فحفر المكان فلم يجد شيئًا، فجعل يبكي ويلطم وجهه، فإذا سئل عن حاله قال: الأرض سرقت مالي، فلما كثر ذلك منه قيل له: لو قصدت عضد الدولة، فإن له فطنة، فقال: أو يعلم الغيب؟ فقيل له: لا بأس بقصده. فأخبره بقصته، فجمع الأطباء وقال لهم: هل داويتم في هذه السنة أحدًا بعروق الخروع؟ فقال أحدهم: أنا داويت فلانًا وهو من خواصك. فقال: عليّ به فجاء، فقال له: هل تداويت في هذه السنة بعروق الخروع؟ قال: نعم. قال: مَن جاءك به؟ قال: فلان الفراش قال: عليّ به، فلما جاء قال: من أين أخذت عروق الخروع؟ فقال: من المكان الفلاني، فقال: اذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذت منه. فذهب معه بصاحب المال إلى تلك الشجرة، وقال: من هذه الشجرة أخذت فقال الرجل: هٰهنا والله تركت مالي، فرجع إلى عضد الدولة فأخبره، فقال للفراش: هلم بالمال، فتلكأ فأوعده فأحضر المال.

عضد الدولة والسلامي(١)

روى أبو الحسن بن هلال بن المحسن الصابي قال: حكى السلامي الشاعر قال: دخلت على عضد الدولة، فمدحته فأجزل عطيتي من الثياب والدنانير وبين يديه حسام خرواني فرآني ألحظه، فرمى به إليّ وقال: خذه. فقلت: وكل خير عندنا من عنده. فقال عضد الدولة: ذاك أبوك فبقيت متحيّر لا أدري ما أراد، فجئت أستاذي فشرحت له الحال، فقال: ويحك قد أخطأت عظيمة، لأن هذه الكلمة لأبي نواس يصف كلبًا حيث يقول:

أنْـعَـتُ كـلبًـا أَهْـلَه فـي كـدِّه ... قَـدْ سَـعُـدتْ جُـدودهـم بـجـدِّهِ

وكـلُّ خـيـرٍ عـنـده مِـنْ عِـنـدِهِ

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٦.

قال: فعدت متوشحًا بكساء فوقفت بين يدي الملك فقال: ما بك؟ فقلت حممت الساعة. فقال: هل تعرف سبب حماك؟ قلت: نظرت في ديوان أبي نواس، فقال: لا تخف لا بأس عليك من هذه الحمّى. فسجدت بين يديه وانصرفت.

جلال الدولة وسارق البطيخ(١)

روى أبو الحسن بن هلال بن المحسن الصابي في تاريخه قال: حدّثني بعض التجار وقال: كنت في المعسكر، واتفق أن ركب السلطان جلال الدولة يومًا إلى الصيد على عادته، فلقيه سوادي يبكي فقال: ما لك؟ فقال: لقيني ثلاثة غلمان أخذوا حمل بطيخ كان معي وهو بضاعتي. فقال: امضِ إلى المعسكر فهناك قبة حمراء، فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار، فأنا أرجع وأعطيك ما يغنيك، فلما عاد السلطان، قال لبعض شرائه: قد اشتهيت بطيخًا ففتش العسكر وخيمهم على شيء منه، ففعل وأحضر البطيخ، فقال: عند مَن رأيتموه؟ فقيل: في خيمة فلان الحاجب، فقال: أحضروه. فقال له: من أين هذا البطيخ؟ فقال: الغلمان جاؤوا به. فقال: أريدهم الساعة، فمضى وقد أحس بالشر، فهرب الغلمان خوفًا من أن يقتلوا وعاد فقال: قد هربوا لما علموا بطلب السلطان لهم. فقال: أحضروا السوادي، فأحضر فقال له: هذا بطيخك الذي أُخذ منك؟ قال: نعم. قال: فخذه وهذا الحاجب مملوك لي وقد سلمته إليك ووهبته لك حتى يحضر الذين أخذوا منك البطيخ، ووالله لئن أخليته لأضربن رقبتك. فأخذ السوادي بيد الحاجب فأخرجه، فاشترى الحاجب نفسه بثلاثمائة دينار، فعاد السوادي إلى السلطان وقال: يا سلطان قد بعت المملوك الذي وهبته لي بثلاثمائة دينار، فقال: قد رضيت بذلك؟ قال: نعم. قال: اقبضها وامضِ مصاحبًا السلامة.

عمر بن عبد العزيز وأحد وُلاته(١)

قال الأصمعي: وفد فلان بن أبي بردة على عمر بن عبد العزيز وهو بخاصرة، فلزم سارية من المسجد يصلّي إليها بحسن الركوع والخشوع وعمر بن عبد العزيز ينظر إليه، فقال عمر للعلاء بن المغيرة وكان خصيصًا لعمر: إن يكن سرّ هذا كعلانيته، فهو فعل أهل العراق غير مدافع عن فضل. فقال له العلاء بن

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٧.

المغيرة: أنا آتيك يا أمير المؤمنين بخبره، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء، فقال له: اشفع صلاتك فإن لي حاجة، فلما سلم من صلاته قال له العلاء: تعرف منزلتي وموضعي من أمير المؤمنين، فإني إن أشرت عليه أن يوليك العراق ما تجعل لي؟ قال: عمالتي سنة، وكان مبلغها عشرين ومائة ألف، قال: فاكتب لي على ذلك خطًا، فقام من وقته فكتب له خطًا بذلك، فحمل ذلك الخط إلى عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب، وكان واليًا على الكوفة: أما بعد؛ فإن بلالًا غرّنا بالله فكدنا نغترّ به، ثم سبكناه فوجدناه خبثًا كله.

المنصور ومعن بن زائدة(١)

عن غياث بن إبراهيم أن معن بن زائدة دخل على أبي جعفر أمير المؤمنين، فقارب في خطوه، فقال له أبو جعفر: كبرت سنك يا معن، فقال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك لجلد. قال: على أعدائك، قال: وإن فيك لبقية، قال: هي لك.

المأمون وعبد الله بن طاهر(١)

الفضل الربعي قال: حدّثني أبي قال: قال المأمون لعبد الله بن طاهر: أيما أطيب مجلسي أو منزلك؟ قال: ما عدلت به يا أمير المؤمنين. قال: ليس لي إلى هذا، إنما ذهبت إلى الموافقة في العيش واللذة، قال: منزلي يا أمير المؤمنين. قال: ولِمَ ذلك؟ قال: لأني فيه مالك وأنا هٰهنا مملوك.

ابن طولون والقياس الصحيح(١)

عن محمد بن عبد الملك الهمداني أن أحمد بن طولون جلس يومًا في متنزه له يأكل، فرأى سائلًا في ثوب خَلِق(٢) فوضع يده في رغيف ودجاجة وفرخ وقطع لحم وقطعة فالوذج، وأمر بعض الغلمان بمناولته، فرجع الغلام وذكر أنه ما هش له، فقال ابن طولون للغلام: جئني به، فمثل به بين يديه، فاستنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيبته، فقال له: أحضرني الكتب التي معك وأصدقني عمن بعث بك، فقد صحّ عندي أنك صاحب خبر، واستحضر السياط فاعترف له

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٩.

(٢) ثوب خلق: أي ثوب بالٍ ممزق.

بذلك فقال بعض مَن حضر: هذا والله السحر، فقال أحمد: ما هو بسحر، ولكنه قياس صحيح رأيت سوء حال هذا، فوجهت إليه بطعام يسر إلى أكله الشبعان، فما هش له ولا مد يده فأحضرته فتلقاني بقوة جأش، فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جنانه علمت أنه صاحب خبر.

ابن طولون والحمّال[١]

رأى ابن طولون يومًا حمّالًا يحمل صندوقًا وهو يضطرب تحته، فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنقه وأنا أرى عنقه بارزة، وما هذا إلا من خوف ما يحمل، فأمر بحط الصندوق، فوجد فيه جارية قد قتلت وقطعت، فقال: أصدقني عن حالها، فقال: أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة. فضرب الحمال مائتي ضرب بعصا، وأمر بقتل الأربعة.

علم الكسائي[٢]

قال سهل بن محمد السجستاني: وفد علينا عامل من أهل الكوفة لم أرَ في عمال السلطان بالبصرة أبرع منه، فدخلت مسلمًا عليه، فقال يا سجستاني: من أعلمكم بالبصرة؟ قال: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهنا، والشاذكوني أعلمنا بالحديث، وأنا رحمك الله أنسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي من أكتبنا للشروط، قال: فقال لكاتبه: إذا كان غد فاجمعهم إليَّ، قال: فجمعنا قال: أيكم المازني؟ قال: أبو عثمان: ها أنذا يرحمك الله، قال: هل يجزىء في الظهاري عتق عبد أعور، فقال المازني: لست صاحب فقه، أنا صاحب عربية، فقال: يا زيادي كيف تكتب بين بعل وامرأة خالعها زوجها على الثلث من صداقها[٣] قال: ليس هذا من علمي هذا من علم هلال الرأي، قال: يا هلال: كم أسند ابن عون عن الحسن؟ قال: ليس هذا من علمي هذا من علم الشاذكوني، قال: يا شاذكوني مَن قرأ ألا إنهم يثنون صدورهم، قال: ليس هذا من علمي هذا من علم أبي حاتم. فقال: يا أبا حاتم كيف تكتب كتابًا إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسأله لهم

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٩.
(٢) نفس المصدر ص ٦٠.
(٣) صداقها: مهرها أي ما كان من حقوق للزوجة بذمة زوجها.

النظر بالبصرة؟ قال: لست رحمك الله صاحب بدعة وكتابة أنا صاحب قرآن. قال: ما أقبح بالرجل يتعاطى بالعلم خمسين سنة لا يعرف إلا فنًّا واحدًا حتى إذا سئل من غيره لم يجل فيه، ولم يمر. لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب.

الواثقي واللصوص(١)

قال الحسين بن الحسن بن أحمد بن يحيىٰ الواثقي: كان جدي يتقلّد شرطة بغداد للمكتفي بالله، فعمل اللصوص في أيامه عملة عظيمة، فاجتمع التجار يتظلموا إلى المكتفي بالله، فألزمه بإحضار اللصوص أو غرامة المال، فتحيّر حتى كان يركب وحده ويطوف بالليل والنهار إلى أن اجتاز يومًا في زقاق خال في بعض أطراف بغداد، فدخله فوجد فيه منكرًا ووجد فيه زقاقًا لا ينفذ، فدخله فرأى على بعض أبواب دور الزقاق شوك سمكة كبيرة، وعظم الصلب وتقدير ذاك أن تكون السمكة فيها مائة وعشرون رطلًا، فقال لواحد من أصحاب المسالخ: ويحك ما ترى عظام هذه السمكة كم تقدر ثمنها؟ قال: دينار، فقال: أهل هذا الزقاق(٢) لا تحمل أحوالهم شراء مثل هذه السمكة لأنه زقاق بين الاحتلال إلى جانب الصحراء لا ينزله من معه شيء يخافه، أو له مال ينفق منه مثل هذه النفقة، وما هي إلا بلية يجب أن يكشف عنها، فاستبعد الرجل هذا، وقال: هذا فكر بعيد، فقال: اطلبوا امرأة من الدرب أكلمها، فدق بابًا غير الباب الذي عليه الشوك واستسقى ماءً، فخرجت عجوز ضعيفة، فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيهم، والواثقي في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله، وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك إلى أن قال لها: فهذه الدار مَن يسكنها وأومأ إلى التي عليها عظام السمك؟ فقالت: والله ما ندري على الحقيقة من سكانها إلّا أن فيها خمسة شباب أعفار، كأنهم تجار قد نزلوا منذ شهر لا نراهم يخرجون نهارًا إلّا كل مدة طويلة، وإنا نرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعًا، وهم طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون بالشطرنج والنرد، ولهم صبي يخدمهم، وإذا كان الليل انصرفوا إلى دار لهم في الكرخ. ويدعون الصبي في الدار يحفظها، فإذا كان سحرًا بليل جاؤوا ونحن نيام لا نعقل بهم وقت مجيئهم، قال: فقطع الوالي استقساء الماء ودخلت

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٠.

(٢) الزقاق: الطريق الضيق.

العجوز، وقال للرجل: هذه صفة لصوص أم لا؟ فقال: توكّلوا بحوالي الدار ودعوني على بابها. قال: وأنفذ في الحال واستدعى عشرة من الرجال، وأدخلهم إلى سطوح الجيران، ودق هو الباب، فجاء الصبي ففتح فدخل والرجال معه، فما فاتهم من القوم أحد، وحملهم إلى مجلس الشرطة وقررهم، فكانوا هم أصحاب الخيانة بعينها، ودلّوا على باقي أصحابهم فتبعهم الواثقي، وكان يفتخر بهذه القصة.

ابن النسوي والأكل الحلال(١)

قيل إن رجلًا من جيران ابن النسوي كان يصلي بالناس دخل على ابن النسوي في شفاعة، وبين يديه صحن فيه قطائف فقال له ابن النسوي: كُلْ. فامتنع، فقال: كأنني بك وأنت تقول من أين لابن النسوي شيء حلال، ولكن كُلْ، فما أكلت قط أحل من هذا. فقال بحكم المداعبة: من أين لك شيء لا يكون فيه شبهة؟ فقال: إن أخبرتك تأكل؟ قال: نعم، فقال: كنت منذ ليال في مثل هذا الوقت، فإذا الباب يدق، فقالت الجارية: مَن؟ فقالت: امرأة تستأذن، فأذن لها، فدخلت، فأكبّت على قدمي تقبلها، فقلت: ما حاجتك؟ قالت: لي زوج ولي منه ابنتان لواحدة اثنتا عشرة سنة وللأخرى أربع عشرة سنة، وقد تزوّج عليّ وما يقربني والأولاد يطلبونه، فيضيق صدري لأجلهم، وأريد أن يجعل ليلة لي ولتلك ليلة، فقلت لها: صناعته؟ فقالت: خباز، قلت: وأين دكانة؟ قالت: بالكرخ، ويعرف بفلان ابن فلان. فقلت: وأنت بنت مَن؟ فقالت: بنت فلان، قلت: فما اسم بناتك؟ قالت: فلانة وفلانة... قلت: أنا أرده إليك إن شاء الله تعالى، فقالت: هذه شقة قد غزلتها أنا وابنتاي، وأنت في حل منها. قلت: خذي شقتك وانصرفي. فمضت فبعثت إليه اثنين وقلت: أحضراه ولا تزعجاه. فأحضراه وقد طار عقله، فقلت: لا بأس عليك إنما استدعيتك لأعطيك كراء طعام وعمالته تقيمه خبزًا للرحالة، فسكن روعه وقال: ما أريد له عماله. قلت: بلى، صديق مخسر عدو مبين. أنت مني وإليّ. كيف هي زوجتك فلانة تلك بنت عمي، وكيف بناتها فلانة وفلانة؟ فقال: بكل خير، قلت: الله الله لا أحتاج أن أوصيك بها لا تضيق صدرها فقبّل يدي، فقلت: امضِ إلى دكانك وإن كان لك حاجة

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٢.

فالموضع بحكمك فانصرف. فلما كان في هذه الليلة جاءت المرأة فدخلت، وهذا الصحن معها، وأقسمت عليَّ بالله أن لا أردّها، وقالت: قد جمعت شملي وشمل أولادي، وهذا والله من ثمن غزلي، فبالله لا ترده، فقبلته، فهل هو حلال؟ فقال: والله ما في الدنيا أحل من هذا. قال: فكُلْ، فأكل.

في قصور بَنِي أميَّة[(١)]

قال محمد بن أحمد المكِّي: حدّثني أبي قال: دخلتُ إلى عَلَّوَيْهِ[(٢)] أعودُه في علَّةٍ اعتلَّها ثم عُوفي منها. فجرى حديثُ المأمون فقال: كِدْتُ - علم الله - أذهبُ دفعة ذات يوم وأنا معه، لولا أن الله تعالى سلّمني ووهب لي حلمَه. فقلت: كيف كان السببُ في ذلك؟ فقال: كنتُ معه لما خرج إلى الشام، فدخلنا دمَشْق فطُفْنَا فيها، وجعل يطوفُ على قصور بني أمية ويَتَّبعُ آثارهم، فدخل صحنًا من صُحُونهم، فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كلّه، وفيه بِرْكَةُ ماء فيها سمك، وبين يديها بستانٌ على زواياه أربعُ سَرَوات[(٣)] كأنها قُصَّتْ بمقراض من التفافها، أحسنُ ما رأيتُ من السروات قدًّا وَقَدْرًا.

فاستحسَن ذلك وعزم على الصبُّوح، وقال: هاتُوا لي الساعةَ طعامًا خفيفًا، فأتى به بين ماء وورد، فأكل ودَعَا بشرابٍ، وأقبل عليَّ وقال: غَنِّنِي ونَشِّطْني، فكأن الله عزّ وجلّ أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت:

لو كان حولي بنو أميَّة لمْ ... تَنْطِقْ رجالٌ أرَاهُمُ نَطَقُوا

فنظر إليَّ مُغضبًا، وقال: عليك وعلى بني أمية لعنةُ الله! ويلك! أقلتُ لك سُؤْني أو سُرَّني! ألم يكن لك وقتٌ تذكرُ فيه بني أمية إلا هذا الوقت؟ تُعَرِّض بي!

فتحيَّلْتُ[(٤)] عليه، وعلمتُ أني قد غلطت فقلت: أتلومُني على أن أذكَر بني أمية! هذا مولاكم زِرْياب[(٥)] عندهم يركب في مائتي غلام مملوكٍ له ويملك

(١) الأغاني: ١٠ - ١٢٤.
(٢) هو علي بن عبد الله بن سيف، ويكنّى علوية أبا حسن، كان مغنيًا حاذقًا، ومؤدبًا حسنًا. وضاربًا متقدمًا جمع خفّة روح، وطيب مجالسة، وملاحة نوادر، علمه إبراهيم الموصلي وعنى به جدًا، فبرع، وعنى لمحمد الأمين، وعاش إلى أيام المتوكل.
(٣) السرو: شجر واحدته سروة.
(٤) التحيّل: الاحتيال.
(٥) هو علي بن نافع، نابغة الموسيقى في زمنه، رحل إلى الأندلس وذاعت شهرته هناك، وفضله=

ثلاثمائة ألف دينار وهِبُوها له سوى الخيل والضِّيَاع والرقيق. وأنا عندكم أموت جوعًا؟ فقال: أوَلَم يكن لك شيء تُذَكِّرُني به نفسك غيرُ هذا؟ فقلت: هكذا حَضَرني حين ذكرتُه. فقال: اعْدِلْ عن هذا وغنني. فأنساني الله كلّ شيء أُحْسِنُه إلا هذا الصوت.

الْحَيْنُ[١] ساق إلى دِمَشْق ولم أكن   أرْضَـى دِمَـشْـقَ لأهـلِنـا بَـلَدَا

فرماني بالقَدَح فأخطأني فانكسر القدح. وقال: قم عني إلى لعنة الله وحرّ سَقَر. وقام فركب.

فكانت والله تلك الحال آخر عهدي به حتى مرض ومات.

ثم قال لي: يا أبا جعفر، كم تراني أحسنُ أغنّي؟ ثلاثة آلاف صوت، أربعة آلاف صوت، خمسة آلاف صوت، أنا والله أغنّي أكثر من ذلك. ذهب ـ علم الله ـ كلُّه، حتى كأني لم أعرفْ غيرَ ما غَنَّيْت. ولقد ظَنَنْتُ أنه لو كانت لي ألفُ رُوح ما بَحثَ منه واحدةٌ منها، ولكنه كان رجلًا حليمًا، وكان في العُمْرِ بقية!

في دَار الفَضْل بن الرّبيع[٢]

قال أحمد بن يحيىٰ المكّي: دَعاني الفضل[٣] بن الرّبيع ودعا عَلّوَيْهِ ومُخَارِقًا، وذلك في أيام المأمونِ بعد رجُوعه ورِضَاه عنه، إلا أن حالَه كانت ناقصةً مُتَضَعْضِعَة؛ فلما اجْتَمعْنَا عنده كتب إلى إسحٰقَ[٤] الموصلي يسأله أن يصيرَ إليه ويُعلِمه الحالَ في اجتماعنا عنده. فكتب إليهم: لا تنتظروني بالأكل، فقد أكلتُ وأنا أَصِير إليكم بعد ساعة.

فأكلنا وجلسْنَا نشرب حتى قَرُب العصر، ثم وافى إسحٰقُ فجلس، وجاء غلامُه بِقَطْرَميز[٥] نبيذٍ، فوضعه ناحِيةً، وأمرَ صاحبَ الشراب بإسْقَائِه منه، وكان

= عبد الرحمٰن بن الحكم على ما عداه، وأقام بقرطبة إلى أن مات سنة ٢٣٠ هـ.

(١) الحين: الهلاك.   (٢) الأغاني: ٥ ـ ٣٠٦.

(٣) كان الفضل بن الربيع وزيرًا للرشيد بعد زوال دولة البرامكة، وبعد موت الرشيد استوزر للأمين، ووقف معه ضد المأمون، وبعد قتل الأمين تشفع طاهر بن الحسين للفضل عند المأمون فرضي عنه؛ ومات سنة ٢٠٨ هـ.

(٤) إسحٰق الموصلي: من أشهر ندماء الخلفاء تفرد بصناعة الغناء وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ورواية الشعر وحافظًا للأخبار. توفي سنة ٢٣٥ هـ.

(٥) القطرميز: قلة كبيرة من الزجاج.

عَلّوَيْهِ يُغنّي الفضلَ بن الربيع في لَحْنٍ اقترحَه الفَضْلُ عليه وأعجبه، وهو:

فإن تَعْجَبي أو تُبصري الدهرَ طَمَّني[١] بأَحْداثه طَمَّ المقصَّصِ بالجلَمْ[٢]
فقد أترُكُ الأضيافَ تَنْدَى رحالُهم وأُكرِمُهم بالْمَحْضِ والتامكِ السَّنِمْ[٣]

فقال له إسحٰق: أخطأتَ يا أبا الحسن في أَدَاء هذا الصوت؛ وأنا أُصْلحه لك.

فجُنّ عَلّوَيْهِ واغتاظ، وقامت قيامتُهُ. ثم أقبل إسحٰق على عَلّوَيْهِ فقال له: يا حبيبي، ما أردتُ الوَضْعَ[٤] منك بما قلتُه لك، وإنما أردتُ تهذيبَك وتقويمك، لأنك منسوبُ الصوابِ والخطأ إلى أبي وإليّ، فإن كرهتَ ذلك تركتُك؛ وقلتُ لك: أحسنتَ وأجْمَلْتَ. فقال له عَلّوَيْهِ: والله ما هذا أردتُ، ولا أردتُ إلا ما لا تتركُه أبدًا من سوء عِشرَتك! أخبرني عنك حين تجيءُ هذا الوقت لمّا دعاك الأمير وعرّفك أنه قد نشِط للاصطباح: ما حملَك على الترفّع عن مُباكَرَته[٥] وخِدْمَته مع صَنائِعِهِ عندك؟ وما كان ينبغي أن يَشْغلَك عنه شيء إلا الخليفة! ثم تجيئه ومعك قَطْرَمِيزُ نبيذ ترفُّعًا عن شرابه، كما ترفَّعتَ عن طعامه ومُجَالسته إلّا كما تَشْتَهي وحين تَنْشَط، كما تفعل الأكفاء[٦]، بل تَزيد على فِعْلِ الأكفاء. ثم تعمِدُ إلى صوتٍ قد اشْتَهاه واقترَحَه، وسمِعَه جميعُ مَن حضر، فما عابَه منهم أحد، فتَعيبه ليَتمَّ تنغيصُك إياه لذّتَه! أما والله لو الفضلُ بن يحيىٰ أو أخوه جعفر دعاك إلى مثلِ ما دعاك إليه الأمير، بل بعضُ أتباعهم؛ لبادرت وباكرت؛ وما تأخرتُ ولا اعتذرتَ. فأمْسَك الفضلُ بن الربيع عن الجواب إعجابًا بما خاطب به عَلّوَيْهِ إسحٰق.

فقال له إسحٰق: أمّا ما ذكرتَه من تأخّري عنه إلى الوقت الذي حضرتُ فيه، فهو يعلمُ أني لا أتأخرُ عنه إلا بعائقٍ قاطع، إنْ وَثِق بذلك مني، وإلا ذكرتُ له الحجةَ سرًّا من حيث لا يكون لك ولا لغيرِكَ فيه مَدْخَل. وأما ترفّعي عنه فكيف أترفّع عنه وأنا أنتسبُ إلى صنائعه، وأَستَمْنحه وأعيشُ من فَضْلِه مذ كنت؟ وهذا

(١) طمني: غمرني.
(٢) الجلم: الذي يجزّ به الشعر والصوف. والمقصص: الشيء الذي يقص.
(٣) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة. والتامك: العظيم السنام من الإبل، ومثله السنم.
(٤) الوضع: الضعة. (٥) باكره: أتاه بكرة: غدوة.
(٦) الأكفاء: النظراء المتماثلون.

تَضْرِيبُ[١] لا أُبالي به منك، وأما حَملي النبيذ معي فإن لي في النبيذ شَرْطًا من طَعْمِه ورِيحه؛ وإن لم أجِده لم أقدِر على الشرب، وتنغَّصَ عليّ يومئذ، وإنما حملتُه ليتمّ نشاطي ويُنْتَفَعَ بي، وأما طَعْني على ما اختاره فإني لم أطعن على اختياره، وإنما أردتُ تقويمَك؛ ولستَ والله تراني متتبعًا لك بعد هذا اليوم، ولا مُقَوِّمًا شيئًا من خَطَئِكَ، وأنا أُغَنِّي له ـ أعزّه الله ـ هذا الصوتَ فيعلم وتعلم؛ ويعلمُ مَن حضر أنك أخطأتَ فيه وقصّرت. وأما البرامكةُ ومُلازمتي لهم فأشهرُ من أن أجْحَدَه، وإني لحقيق فيه بالمعذرة، وأحْرى أن أشكرهم على صَنيعهم، وبأن أُذيعَه وأنشرَه؛ وذلك ـ والله ـ أقلُّ ما يستحقونه مني.

ثم أقبلَ على الفضل ـ وقد غاظه مدحُه لهم ـ فقال: اسمع مني شيئًا أُخبرك به مما فعلوه، ليس هو بكبير صنائعهم عندي ولا عند أبي قَبْلِي، فإنْ وَجَدْتَ لي عذرًا وإلا فَلُمْ: كنتُ في ابتداءِ أمري نازلًا مع أبي في دَاره، فكان لا يزالُ يجري بين غِلماني وغلمانه وجواريّ وجواريه الخصومةُ؛ كما تجري بين هذه الطبقات فيشكونهم إليه؛ فأَتبين الضجَرَ والتنكرَ في وجهه، فاستأْجرتُ دارًا بقُرْبه؛ وانتقلتُ إليها أنا وغِلْماني وجواريّ، وكانت دارًا واسعةً، فلم أرْضَ ما معي من الآلة لها، ولا لمن يدخل إليّ من إخواني أن يروا مثلَه عندي.

ففكرت في ذلك، وكيفَ أصْنَع؛ وزاد فِكْري حتى خَطَر بقلبي قُبْح الأُحْدوثة من نزول مثلي في دارٍ بأُجرة، وأني لا آمنُ في وقتٍ أن يَستأْذنَ عليَّ صاحبُ داري، وعندي من أَحْتَشم منه[٢] ولا يعلم حالي فيقال: صاحبُ دارك، أو يوجِّه في وقتٍ فيطلبَ أجرةَ الدار، وعندي مَن أحتشم منه؛ فضاقَ بذلك صَدْري ضيقًا شديدًا حتى جاوز الحدّ.

فأمرتُ غُلَامي بأن يُسْرِجَ لي حِمارًا كان عندي، لأمْضيَ إلى الصحراء أتَفَرّجُ فيها مما دخل على قلبي، فأسرَجَه وركبتُ بِرداءٍ ونَعْلٍ، فأَفْضَى بي المسير وأنا مفكِّرٌ لا أميِّز الطريق التي أسلكُ فيها، حتى هجم بي على باب يحيىٰ بن خالد، فتواثب غلمانُه إليّ، وقالوا: إلى أين؟ فقلت: إلى الوزير. فدخلوا فاسْتَأْذنوا لي، وخرج الحاجبُ فأمرني بالدخول؛ وبقيتُ خَجِلًا، قد وقعتُ في أمرين فاضحَيْن: إنْ دخلتُ إليه برداءٍ ونعلٍ؛ وأعلَمْتُه أني قصدته في تلك الحال

---

(١) التضريب: الإغراء بين القوم.

(٢) احتشم منه: استحيا.

كان سوءَ أدب، وإن قلتُ له كنتُ مجتازًا، ولم أقصِدْكَ فجعلتُكَ طريقًا كان قبيحًا.

ثم عزمتُ فدخلت؛ فلما رآني تبسّم وقال: ما هذا الزِّي يا أبا محمد! قد علمنا أنكَ جعلتنا طريقًا، فقلت: لا والله يا سيدي، ولكني أَصْدُقك. قال: هاتِ. فأخبرتُه القصةَ من أولها إلى آخرها، فقال: هذا حق مستوٍ؛ أفهذا شَغَل قلبك؟ قلتُ: إي والله! وزاد فقال: لا تَشْغَلْ قلب بهذا. يا غلام. ردُّوا حماره، وهاتوا له خِلْعَةً. فجاءوني بخِلْعةٍ تامَّةٍ من ثيابه فلبستُها، ودعا بالطعام فأكلت، ووُضعَ النبيذ فشربت وشرب فغنَّيته، ودعا في وسَطِ ذلك بدَوَاةٍ ورُقْعة، وكتب أربع رقاع ظننتُ بعضَها توقيعًا لي بجائزة؛ فإذا هو قد دعا بعضَ وكلائه فدفع إليه الرِّقاع وسَارَّه بشيء، فزاد طَمَعِي في الجائزة، ومضى الرجلُ وجلسنا نشرب، وأنا أَنْتظر شيئًا فلا أراه إلى العَتَمة[1]، ثم اتَّكأ يحيىٰ فنام. فقمت وأنا منكسر خائب، فخرجت وقُدِّم لي حماري.

فلما تجاوزتُ الدار قال لي غلامي: إلى أين تمضي؟ قلت: إلى البيت. قال: قد والله بِيعَتْ دارُك، وأُشهِدَ على صاحبها، وابتيع الدَّرْبُ كلُّه وَوُزِنَ ثمنه، والمشتري جالسٌ على بابك ينتظرُك ليعرِّفَك، وأظنه اشتَرى ذلك للسلطان، لأني رأيتُ الأمر في استعجاله أمرًا سلطانيًا، فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن في حِسابي، وجئتُ وأنا لا أدري ما أعمل، فلما نزلتُ على باب داري إذا أنا بالوكيل الذي سارَّه يحيىٰ قد قام إليّ. فقال لي: ادخل ـ أيّدك الله ـ دارَك حتى أدخلَ لمخاطبتك في أمر أحتاجُ إليك فيه، فطابتْ نفسي بذلك، ودخلتُ، ودخل إليّ فأقرأَني توقيعَ يحيىٰ: «يُطْلَقُ لأبي محمد إسحٰق مائةُ ألف درهم يُبتاع لهُ بها داره وجميعُ ما يجاورها ويلاصقها». والتوقيع الثاني إلى ابنه الفَضْل: «قد أمرتُ لأبي محمد إسحٰق بمائة ألف درهم يُبْتَاعُ له بها دارُه، فأَطلِقْ إليه مثلَها لينفقَها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهي». والتوقيع الثالث إلى جعفر: «قد أمرتُ لأبي محمد إسحٰق بمائة ألف درهم يُبتاع له بها منزلٌ يسكنه، وأمَر له أخوك بدَفْع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومَرَمَّتها على ما يريد، فأطلِقْ له أنت مائة ألف درهم يَبتاع بها فرشًا لمنزله». والتوقيع الرابع إلى محمد: «قد أمرت لأبي محمد

(١) العتمة: وقت صلاة العشاء.

إسحٰق أنا وأخواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزلٍ يبتاعه ونفقة ينفقُها عليه، وفرش يبْتَذِلُه[١]، فمرْ له أنت بمائة ألف درهم يصرفها في سائر نفقته». وقال الوكيل: قد حملتُ المال واشتريتُ كل شيء جاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كُتُب الابتياعات باسْمِي والإقرار لك، وهذا المال بُورِكَ لك فيه فاقْبِضْه.

فقبضتُه وأصبحتُ أحسن حالًا من أبي في منزلي وفَرْشِي وآلتي، ولا والله ما هذا بأكبرِ شيء فَعَلُوه لي أفأُلام على شكر هؤلاء!

فبكى الفضل بن الربيع وكلُّ مَن حضر. وقالوا: لا والله لا تُلام على شكر هؤلاء. ثم قال الفضل: بحياتي غَنِّ الصوتَ، ولا تبخل على أبي الحسن بأن تقوِّمه له! فقال: أفعل. وغناه فتبين عَلّوَيْهِ أنه كما قال: فقام فقبَّل رأسَه، وقال: أنت أستاذُنا وابن أستاذِنا وأولى بتقويمنا واحتمالنا من كل أحد، وردّه[٢] إسحٰق مراتٍ حتى استوى لعَلّوَيْهِ.

المعتَصِم في يَوم العِيد[٣]

قالِ حمدون بن إسماعيل النديم: حضر العيدُ، فعبّى المعتصم[٤] بالله خيلَه تعبية لم يُسْمَعْ بمثلها، ولم يُرَ لأحدٍ من ولدِ العباس شبيهٌ بها، وأمر بالطريق فمُسِح[٥] من باب قصره إلى المصلّى، ثم قسم ذلك على القواد، وأعطى كل واحد منهم مَصَافَه[٦].

فلما كان قبلَ الفِطْرِ بيوم حضر القوّادُ وأصحابُهم في أَجْمل زِيٍّ وأحسن هيئة، فلزموا مصافّهم منذ وقت الظهر، إلى أن ركب المعتصمُ بالله إلى المصلّى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي بعد الحَرَسِي[٧] بحذاء مسجد الخوارزمي، وإبراهيمَ واقفٌ وأصحابُه في المصافّ.

(١) الابتذال: ضد الصيانة.
(٢) ردّه: أعاده، مثل ردّده.
(٣) المحاسن والمساوىء: ١٦٤.
(٤) هو أبو إسحٰق محمد بن هارون الرشيد، ولقب بالمعتصم بالله في اليوم الذي دعي له بالخلافة سنة ٢١٨ هـ.، وكان شجاعًا مقدامًا شديد البأس محبًا للعمارة، منصرفًا إلى الجيش، وتوفي سنة ٢٢٧ هـ.
(٥) يقال: مسح الأرض، أي ذرعها.
(٦) المصف: موضع الصف، وجمعه مصاف.
(٧) الحرسي: واحد حرس السلطان.

فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتَّبوا في المصاف بالمصير إلى المصلَّى على التعبية التي حَدَّها، ولبس ثيابَه، وجلس على كرسي ينتظرُ مُضيّ القوَّاد. فلما انقضى أمرهم تَقَدَّم إلى الرَّجَّالة في المسير بين يديه، فتقدم منهم سبعة آلاف ناشبٍ من الموالي، كلُّ ثلاثمائة منهم في زِيّ مخالف لزيّ الباقين، وأربعة آلاف من المغاربة، وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة، وعِدّتهم أربعة آلاف، وركبتُ لا أدري منزلتي أين هي، ولا أعرفُ مرتبتي، ولم أعلم أين أسيرُ من الموكب؟

فلما وضع رِجلَه في الركاب، واستوى على سَرْجه التفتَ إليّ، وقال: يا حمدون، كُنْ أنتَ خَلْفِي، فلزمتُ مؤخّرَ دَابَّتِه، فلما خرج من باب القصر تلقّاهُ القوَّاد وأصحابُ المصافّ: يخرجُ الرجل من مصافّه، فإذا قرب نزل وسلّم عليه بالخلافة، فيأمره بالركوب ويمضي، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل وسلّم عليه بالخلافة فردّ عليه السلام، فقال: كيف أنْتَ يا إبراهيم؟ وكيف حالُك؟ وكيف كنتَ في أيامك! اركب فركب فلما جاوزه التفت إليّ وقال: يا حمدون، قلت: لبيك يا أميرَ المؤمنين! قال: تذكر؟ قلت: إي والله يا سيدي! وأمسك.

فنظرتُ فيما قال فلم أجدني أذكر شيئًا في ذلك الموضع مما يشبه ما كنّا فيه! فنغص عليَّ يومي، وما رأيت من حسنه وسروره بالمرتبة التي أهّلني بها، وقلت: الخلفاءُ لا يعامَلون بالكذب، ولا يجوزُ أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر، فلا يكونُ له عندي جواب ولا حقيقة! وتخوّفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزلْ واجمًا في طريقي إلى وقتِ انصرافه، ثم أجمعتُ على مغالطته إن أمكنني، وإعمالِ الحيلة في التخلّص إن يسائلني.

فلما استقرّ في مجلسه، وبُسط السِّماط[1]، وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام أقبلتُ أخدم وأختلف، ليست لي همةٌ غير ما كان قد قاله لي، لا أغفلُ عن ذلك، حتى انقضى أمرُ السِّماط، ورفع الستر، ونهض أميرُ المؤمنين، ودخل الحجرة، ومضى إلى المرْقد، فلم ألبثْ أن جاء الخادم وقال: أَجِبْ أميرَ المؤمنين، فمضيتُ.

(١) السماط: ما يمد عليه الطعام.

فلما دخلتُ ضحك إليّ، وقال: يا حمدون رأيتَ؟ قلت: نعم يا سيدي قد رأيت! فالحمدُ لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرَانيه؛ فما رأيتُ ولا سمعتُ لأحدٍ من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا أحسن؟ قال: ويحك! أرأيتَ إبراهيم بن المهدي؟ قلت: نعم يا سيدي! قال: رأيتَ سلامَه عليَّ وردّي عليه، ونزولَه إليّ؟ قلت: نعم! فقال: إنه لما كان من أمره ما كان ـ يعني الخلافة ـ قسَّم الطريقَ في يوم عيدٍ من منزله إلى المصلّى كقِسْمتي إياه في هذا اليوم بين قوّاده، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلتُ فسلّمت عليه، فردّ عليّ مثل ما رددتُ حرفًا حرفًا على ما قال لي.

فدعوتُ له، وانفرج عني ما كنتُ فيه، وتخلّى عني الغمُّ والكَرْب. ثم قال: يا حمدون؛ إني لم آكل شيئًا، وأنا أنتظر أن تأكل معي، فامضِ إلى حجرة الندماء؛ فإنك تجدُ إبراهيم هنالك، فاجلسْ إليه وعاتبه وضاحِكه، وأَجْرِ له هذا الحديث، وقل له: إنك رأيتَه في ذلك اليوم فَعل بي فِعْلي به في هذا اليوم؛ وانظرْ إلى وجهه وكلامه، وما يكون منه فعرِّفنيه على حقيقته، وأصدُقني عنه، وعجّل ولا تحتبس! قلت: نعم يا سيدي!

فمضيتُ، وقد دُفعت إلى أغلظَ مما كنتُ فيه؛ لعلمي بأن إبراهيم لو كان من حَجَرٍ لأثر فيه هذا القول وتغيّر، وظهر منه ما يُكرَه، وخِفْتُ أن يأتي بما يُسفَك به دَمُه، فمضيتُ حتى دخلْتُ الحجرة، فجلست إلى إبراهيم، وقلت: ما أمرَني به، وأنا مبادِرٌ خوفًا من خادم يلحقني، أو رسول، فلا يمكنني معه تحسين الأمر، وما يظهر لي منه؛ فقلتُ لإبراهيم: كيف رأيتَ يا سيدي هذا اليوم؟ أمَا أعجبك حسنُه؟ وما كان من تعبية أمير المؤمنين؟ قال: بلى والله إنه أعجبني! فالحمد لله الذي بلّغنيه وأرانيه، وأطنب في الدعاء للمعتصم.

فلما أمسَك قلت: يا سيدي؛ أذكرك، في أيامك، وقد ركبتَ فعبّيت شبيهًا بهذه التعبية، وقسّمت الطريق مثل هذه القسمة؛ فوقع لأمير المؤمنين الموضع الذي وقع لك واجتزتَ به، فنزل إليك وسلّم، فرددتَ عليه كرده عليه في هذا الموضع.

فوالله ما قلتُ له ذلك حتى أربدّ لونه، وجفّ ريقُه، واعتُقِل لسانه، وبقي لا يتكلم بحَرْف، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم! فالحمد لله الذي رأيتُه لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل.

فتغنّمتُ[١] ذلك وقمت، وأنا ألتفتُ، ونهضتُ حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هِيه يا حمدون! فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ أتيتُ إبراهيم، وقلتُ له: ما أمرتني به، فأظهر سرورًا ودعاء، وقال: كيت وكيت. فقال: والله قال: بحياتي! قلت: وحياتِك يا أميرَ المؤمنين! قال: فكيفَ رأيتَ وجهه! فلم أدر ما أقولُ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، بالله لما تركتَني من وجه عمّكَ الذي لا يتبيّن فيه فرح ولا حزن. فاستضحك، ثم أمسك، ودعا بالطعام فأكلنا، ثم رقد.

فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائرِ الندماء، فشرب وبرّ إبراهيم وألْطَفَه.

رُسل الرُوم عِنْد النَاصِر[٢]

رحل الناصر[٣] لدين الله من قَصْرِ الزَهْرَاء[٤] إلى قصر قُرْطَبَة[٥] لدخول وفود الروم عليه، وقعد لهم في بَهْوِ المجلس الزاهر قعودًا حسنًا نبيلًا، وقعد عن يمينه وليّ العهد من بَنِيه، وقعد عن يساره مُنْذِر بن سعيد؛ وحضر الوزراء على مراتبهم يمينًا وشمالًا، ووقف الحجّابُ من أهل الخِدْمَة من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم، وقد بُسِطَ صَحْنُ الدار أجمع بعِتَاقِ البُسط، وكرائم الدَّرَانك[٦]، وظُلّلَتْ أبوابُ الدار وحنَايَاها بغَالِي الديباج ورَفِيع السُّتور.

فوصل رسلُ ملك الروم حائرين مما رأَوْه من بهجة الملك وفخامة السلطان، ودفعوا كتابَ ملكهم صاحب قُسْطَنْطِينية العظمى؛ وهو في رَقّ[٧] مصبوغ بلونٍ سماوي، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدْرَجَةٌ[٨] مصبوغة أيضًا مكتوبة بِفِضَّة بخط إغريقي أيضًا، فيها وصفُ هديتهِ التي أرسل بها وعددُها، وعلى الكتابِ طابع ذهب وَزْنُه أربعة مثاقيل، على وجهٍ منه صورةُ المسيح وعلى الآخر صورةُ الملكِ وصورةُ ولده.

(١) تغنمه: انتهز غنمه، وعده غنيمة. (٢) نفح الطيب: ١٧٢١.

(٣) هو عبد الرحمٰن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس وأول مَن تلقب بالخلافة منهم؛ وكانت أيامه أيام جهاد، وكان عادلًا محسنًا محبًا للعلم، شغوفًا بالعمارة، توفي سنة ٣٥٠ هـ.

(٤) هي المدينة التي بناها الناصر.

(٥) قرطبة: حاضرة الخلافة بالأندلس، وكانت أخت بغداد عزًا وعلوًا وحضارة وفيها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمٰن الأموي سنة ٧٩٢ م، وهو الآن الكنيسة الكتدرائية.

(٦) الدرانك: الطنافس. (٧) الرق: ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق.

(٨) أدرجت الكتاب: طويته.

وكان الكتابُ بداخل دُرْج[1] فضة منقوش، عليه غطاءُ ذهب، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جَعْبة ملبَّسة بالديباج.

ولما احتفل الناصرُ لدين الله هذا الاحتفال أحبَّ أن يقوم الخطباءُ والشعراء بين يديه ليذكروا جَلالةَ مُلْكِه، وعظيمَ سلطانه، ويَصِفوا ما تهيَّأ من توطيد الخلافة في دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنِهِ ووليِّ عهده بإعداد مَن يقومُ بذلك من الخطباء؛ فأمرَ الحكمُ الفقيهَ محمد بن عبد البر الكَيْساني بالتأهّب لذلك، وإعداد خطبةٍ بليغةٍ يقومُ بها بين يدي الخليفة، وكان يَدَّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وُسع غيره. وحضر المجلسَ السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهَرَه هولُ المقام وأبَّهة الخلافة، فلم يهتدِ إلى لفظة، بل غُشي عليه، وسقط إلى الأرض.

فقيل لأبي علي القالي[2] ـ وهو حينئذٍ ضيفُ الخليفة الوافدُ عليه من العراق، وأميرُ الكلام، وبَحْرُ اللغة: قم فارْقَع هذا الوَهْي، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم انقطع القولُ بالقالي، فوقف ساكتًا مفكرًا في كلام يدخل به إلى ذِكر ما أُريد منه. فلما رأى ذلك مُنْذِرُ[3] بن سعيد قام، فوصل افتتاح أبي عليّ لأول خطبته بكلام عجيب، ونادَى من الإحسان في ذلك المقام كلّ مجيب، يَسُحُّه سحًا، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي فقال[4]:

أما بعدَ حمد الله والثناءِ عليه والتعدادِ لآلائه، والشكرِ لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإنّ لكلِّ حادثةٍ مقامًا، ولكل مقامٍ مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قمتُ في مقام كريم بين يدي ملكٍ عظيم، فاصغُوا إليَّ معشرَ الملإِ بأسماعكم، وألقوا إليَّ بأفئدتكم، إن من الحق أن يُقال

(١) أصل الدرج: السفط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيبها.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم صاحب الأمالي، رحل إلى المغرب، ودخل الأندلس في أيام عبد الرحمٰن الناصر واستوطن قرطبة، توفي سنة ٣٥٦ هـ.

(٣) كان إمامًا فقيهًا خطيبًا شاعرًا فصيحًا، ولي القضاء بقرطبة أيام عبد الرحمٰن، وتوفي بقرطبة سنة ٣٣٥ هـ.

(٤) الخطبة بتمامها في نفح الطيب: ١ ـ ١٧٢ طبع المطبعة الأزهرية. ومعجم الأدباء: ١ ـ ١٧٦.

للمُحِقِّ صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل - تعالى في سمائه وتقدّس بصفاته وأسمائه - أمرَ كَليمَه موسَى أن يُذَكِّرَ قومَه بأيام الله عزّ وجلّ عندهم، وفيه وفي رسولِ الله أسوةٌ حسَنةٌ، وإني أذكِّركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمَّتْ شعثكم، وأمَّنَتْ سِرْبكم، ورفعت قُوَّتَكُمْ، بعد أن كنتم قليلًا فكثّركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلّين فنصركم. . .

واستمرّ كذلك بكلام عجيب بهرَ العقولَ جزالةً، وملأ الأسماع جلالةً؛ فخرج الناسُ يتحدثون عن حسن مقامه وثباتِ جَنانه، وبلاغةِ لسانه؛ وكان الناصرُ أشدَّهم تعجبًا منه؛ فأقبل على ابنه الحكم؛ فسأله عنه؛ فقال له: هذا منذر بن سعيد البلوطي! فقال: والله لقد أحسن ما شاء، ولئن أخَّرني الله بعدُ لأرفعنَّ مِن ذِكْرِه، فضَعْ يدك يا حكمُ عليه، واستخلصه وذكِّرني بشأنه؛ فما للصنيعة مذهبٌ عنه. ثم ولّاه الصلاةَ والخطابةَ في المسجد الجامع بالزَّهراء.

لَيلَة بمَالَقَة[1]

قال أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد التُّجيبيّ: كنتُ بمدينة مَالَقة[2] من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتَلت بها مدّة انقطعتُ فيها عن التصرُّف، ولزمتُ المنزل، وكان يمرّضني[3] حينئذٍ رفيقان كانا معي، يَلُمّان من شَعَثي، ويَرْفُقَان بي.

وكنتُ إذا جنّني الليل اشتدّ سهري، وخَفَقَتْ حولي أوتارُ العيدان والطنابير والمعازف من كلّ ناحية، واختلطت الأصواتُ بالغناء؛ فكان ذلك شديدًا عليّ، وزائدًا في قَلَقي وتألّمي؛ فكانت نفسي تَعافُ تلك الضروبَ طبعًا، وتكره تلك الأصواتَ جِبِلّة، وأودّ لو أجدُ مَسْكَنًا لا أسمعُ فيه شيئًا من ذلك، ويتعذّر عليّ وجودُه لغلَبَةِ ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم.

وإني لساهرٌ ليلةً بعد إغْفَاءَةٍ في أول ليلتي، وقد سكنتْ تلك الألفاظُ المكروهة، وهدأت تلك الضروبُ المضطربة، وإذا ضربٌ خفيّ معتدِل حسن لا

---

(١) شرح المختار من شعر بشار ١٤.

(٢) مدينة بالأندلس كانت ثغرًا حصينًا على بحر الروم، أسسها الفينيقيون، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف.

(٣) مرّضه: قام عليه في مرضه.

أسمعُ غيرَه، فكأن نفسي أنِست به، وسكنَتْ إليه، ولم تنْفِز منه نِفَارها من غيره، ولم أسمغ معه صوتًا، وجعل الضرب يرتفعُ شيئًا فشيئًا، ونفسي تَتْبعه، وسَمْعِي يُصْغِي إليه، إلى أن بلغَ في الارتفاع إلى ما لا غاية وراءَه، فارتحتُ له، ونسيتُ الألم، وتداخلني سرورٌ وطَرَب، وخُيِّلَ إليَّ أن أرضَ المنزل ارتفعتْ بي، وأن حيطانه تَمُورُ(١) حولي، وأنا في كل ذلك لا أسمعُ صوتًا.

فقلتُ في نفسي: أمَّا هذا الضربُ فلا زيادةَ عليه؛ فليت شِعري كيف صوتُ الضارب! وأين يقع من ضرْبه؟ ولم ألبثْ أن اندفعتْ جاريةٌ تغنّي في هذا الشعر بصوتٍ أنْدَى من النَّوّار، غِبّ القِطَار(٢)، وأحلى من البارد العَذْب، على كبد الهائم الصَّبِّ؛ فلم أملك نفسي أن قُمْتُ ورفيقايَ نائمان، ففتحتُ الباب؛ وتبعتُ الصَّوْت، وكان قريبًا مني؛ فاطلعت من وسط منزلي على دار فسيحة، وفي وسط الدار بستانٌ كبير، وفي وسط البستان شَرْب(٣) نحو من عشرين رجلًا، قد اصطفّوا وبين أيديهم شراب وفاكهة، وجوارٍ قيامٌ بِعِيدان وطنابير وآلات لهْو، ومزامير لا يحرّكْنَها، وجاريةٌ جالسةٌ ناحية، وعودُها في حِجْرِها، وكلٌّ يرمقها ببصره، ويُوعيها سمعَه، وهي تغنّي وتَضْرِبُ، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونني، وكلما غنّت بيتًا حفظتُه؛ إلى أن غنّت عدة أبيات وقطعتْ؛ فعُدتُ إلى موضعي، يشهدُ الله وكأنما أُنْشِطْتُ من عِقَال، وكأن لم يكن بي ألم، وقد وَعيتُ الأبيات وهي:

ما بالُ أنجُمِ هذا الليلِ حائرةً ... أضلّتِ القَصْد، أم لَيْسَتْ على فَلَك؟
عادتْ سَوَاريهِ وقْفًا لا حَرَاكَ بها ... كأنما جُثَثٌ صَرْعَى بمُعْتَرَكِ(٤)
هل من بشيرٍ بنورِ الصبح، تُنقِذُني ... بُشْرَاه من طُولِ وَجْدٍ غيرِ متَّرَكِ
فقد أجدّ الْتواءُ الليل لي شجَنًا ... وأضجعتني تَبَاريحي على الحَسَكِ(٥)
خُذْ يا شَمُولُ كؤوسَ الراح مُتْرَعةً ... فسقِّنيها ولا تسألْ عن الدَّرَكِ(٦)
وهِجْ بألْحَانك الطُّنْبُورَ: إن له ... على شُجُونِ المعنَّى سَطْوَةَ الملِكِ

---

(١) تمور: تتحرك وتذهب وتجيء.
(٢) القطار: جمع قطر، وهو المطر.
(٣) جمع شارب.
(٤) السورى: جمع سار.
(٥) تباريح الشوق: توهجه، والتباريح: الشدائد. الحسك: نبات ورقه كورق الرجلة وأدق، وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب.
(٦) شمول: اسم غلام صقلبي من صقالبة المنصور.

ثم انصرفتُ في صباح تلك الليلة، فلقيتُ صديقًا لي من أهل العلم قرطبيًا سكَنَ مَالَقَةَ، فأخبرتُه الخبر، وأنشدتُهُ الشعْرَ، ووصفتُ له الدار، فاغرَوْرَقَتْ عيناه وقال: الدارُ للوزير فلان، والجاريةُ فلانة البغداديّة، إحدى المحْسِنات من جواري المنصور بن أبي عامر؛ وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور، وتَمَزُّقِ مُلكهِ.

الشمعَة وَالسّرَاج[١]

وفد على عمرَ بنِ عبد العزيز بَرِيدٌ[٢] من بعضِ الآفاق، فانتهى إلى بابِ عمر ليلًا؛ فقرع البابَ، فخرج إليه البوّاب، فقال: أَعْلِمْ أميرَ المؤمنين أنَّ بالباب رسولًا من فلان عامِله؛ فدخل فأَعْلم عُمَر ـ وقد كان أراد أن ينام ـ فقعد، وقال: ائذن له!

فدخل الرسولُ فدعَا عمرُ بشَمْعَة غليظةٍ فأجّجَتْ نارًا، وأُجْلِس الرسول، وجلس عمر، فسأله عن حال أهل البلد ومَنْ بها من المسلمين وأهلِ العهد، وكيف سيرةُ العامل؟ وكيف الأسعارُ؟ وكيف أبناءُ المهاجرين والأنصار، وأبناءُ السبيل والفقراء؟ وهل أعْطَى كلَّ ذي حقّ حقَّه؟ وهل له شاكٍ؟ وهل ظَلَم أحدًا؟

فأنْبَأه بجميع ما عَلِم من أمرِ تلك المملكة، يسأله فيُحْفِي[٣] السؤال، حتى إذا فَرَغَ عمرُ من مَسْألته قال له: يا أميرَ المؤمنين، كيف حالكُ في نفسك وبَدَنك؟ وكيف عِيالك وجميع أهل بيتك ومن تُعْنى بشأنه؟ فنفخ عمر الشمعة فأطْفَأها بنَفْختِه، وقال: يا غلام، عليَّ بسراجٍ، فأتى بفَتِيلة لا تكاد تضيء، فقال: سَلْ عما أحببتَ، فسأله عن حاله، فأخبره عن حال ولده وأهل بيته.

فعجب البريدُ للشمعة وإطفائِه إياها، وقال: يا أمير المؤمنين، رأيتُك فعلتَ أمرًا ما رأيتُك فعلتَ مثله! قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إيَّاك عن حالك وشأنِك. فقال: يا عبد الله، إن الشمعةَ التي رأيتَني أطْفأْتُها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألُك عن حوائجهم وأمرهم، فكانت تلك الشَّمْعةُ تَقِدُ بين يديَّ فيما يُصلحهم، وهي لهم. فلما صرتَ لشأني وأمْرِ عيالي ونفسي أطفأتُ نار المسلمين!

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٦١. (٢) رسول.
(٣) أحفى سؤاله: ردده.

حَديث عمر بنَ عبد العَزيزَ مع ابنه عَبد المَلك حين احتُضر[١]

كان عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز مِنْ أَحَبِّ الناسِ إلى أبيه، فمرض فاشتد مرضُه، فأُخبر أبوه بذلك، فأتاه فوقف عليه، وقال: يا بُني! كيف تجدك؟ قال: أجِدُني صالحًا ـ وكتمه ما به كراهةَ أن يَغُمَّه ـ قال: يا بني، اصدُقْني عن نفسك، فإن أحبَّ الأمور إليَّ فيك لموضعُ القضاء. قال: أجِدُني يا أبتِ أموت! فولّى عمر إلى قِبْلَته، فبينما هو في صلاته إذ مات عبد الملك، فأتاه مُزاحم، فقال: يا أمير المؤمنين؛ تُوُفِّي عبدُ الملك، فخرَّ مغشيًّا عليه.

فلما دُفِن عبد الملك قال مزاحم ـ وكان قد عهد إليه إذا رأى منه أمرين مختلفين أن يخبرَه بذلك: يا أمير المؤمنين، رأيتُ منك عَجبًا، أتيتَ عبدَ الملك فسألتَه عن حاله فكَتمَك ما به فقلتَ له: يا بني، اصدقني عن نفسك، فإن أحبَّ الأمور إليّ فيك لموضع القضاء؛ فأخبرك أنه يموت. فلمّا مات خررتَ مَغشيًّا عليك. قال: قد كان ذلك يا مُزاحم! فقد علمتُ أنَّ مَلَكَ الموت قد دخل إلى منزلي؛ فأخذَ بَضْعَةً مني، فراعني ذلك فأصابني ما قد رأيتَ!

المنصُور وَأهله[٢]

قال أحمد بن أسماعيل: كان أبي ومشايخُ أهلي يَجلسون مع أبي جعفر المنصور، وكان أحداثُنا يجلسون دُونَ ذلك، وكان يتفقّدُ من أُمورنا ما كان يتفقَّده من أُمور ولده، حتى يَسْتقْريَ[٣] أحدَنا، ويسألَه ما بَلغ من القرآن، وكُنا نَصِلُ الغَدَاة[٤] والعَشِيّ[٥] فنجلسُ في مجلسه، حتى يخرجَ إلينا.

وإنّا صِرْنا في مجلسه ذاتَ يوم كعَادتنا، فجلسنا ننتظرُ خروجهُ، وأفاض أبي وعمومتي في اسْتِبطَائه واستِئثاره علَيهم، فأطْنبُوا في ذلك، وكان الموكَّلُ بالباب ـ سليم الأسود ـ يرفع الستر إذا جاء، فحانت من سليم غَفلة، وجاء أبو جعفر وهو يتسمَّعُ عليهم، ففهم ما همْ فيه، ووثَب سليم ليرفعَ السِّتر، فأمسك بيده ومنعه من رَفْعه حتى استوعب سَمْعه جميعَ ما كانوا فيه.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٦١. (٢) غرر الخصائص: ١٦٧.

(٣) استقري: تتبع.

(٤) الغداة: ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.

(٥) العشى من صلاة المغرب إلى العتمة.

فلما انقضى كلامهم أمر برَفْع الستر ودخل، فقاموا له كنَحْو ما كانوا يفعلون، فقال: ما هذا؟ إنما ينبغي أن تفعلوا هذا بحضْرَةِ العامة، لتَشدُّوا بذلك سُلْطانكم، فأما مجالسُ الخَلْوَة فنحنُ فيها إخوة.

ثم أمرهم بالجلوس، وأقْبَلَ عليهم، وقال: يا عمومتي، ويا إخوتي، قد سمعتُ ما كنْتُم فيه، وقولَكم: استأثر علينا، ولَعمْرِي لقد كان ذلك، وما استئثاري عليك إلا لَكُم، وإشفاقًا من ذهاب سلطانكم، وزوال أموالكم، وإنما أبكي لكم رِقَّةٍ عليكم، فكأنّي بالرجل منكم ومن أبنائكم، أو من أبناء أبنائكم بين يَدَي الرجلِ من وَلَدِي أو وَلَد ولدي، ينتسبُ له فلا يعرفهُ، بل لعله يبلغ عليّ بن عبد الله بن العباس، فذهبوا ليتكلّموا، فقال: أقسمت عليكم لما سكتّم، أفيضوا بنا في غير هذا الحديث.

قال أحمد: وضرب الدهرُ ضَرَبانَهُ[1]، وماتَ المنصور، وَوَلِي المهديّ ومات، وَوَلى الهادي ثم مات، وولِي الرشيد، وخرج إلى الرقَّة، ونالَتْنا جَفْوَة، ولزِمني دَيْن فخرجتُ إليه، فكان أول ما لقيتُ موكبًا عظيمًا، فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: هذا وَليًا العهد: الأمِين والمأمون.

فترجَّلْتُ وسلَّمْتُ عليهما، فقالا: مَن أنتَ؟ قلت: أحمد بن إسماعيل بن عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وبكيتُ، فانتهى الخبرُ من ساعتِه إلى الرشيد، فلم أصلْ إلى منزلي حتى لَقِيني رسولُه يدعوني.

فلمّا دخلتُ عليه، قال لِي: ممَّ بكيتَ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كان من القصَّة كَيْتَ وكيت، وسُقْتُ إليه خبرَ المنصور، فبكيتُ إذ كنتُ المبتلَى بذلك دون مَن حَضَره، فقال لي: هما ابْنَا أخيك، وهي عَوْرةٌ فاسْتُرها، ولن تُسْأَل عن نَسَبِك بعد اليوم، ما أقدمَك؟ قلت: دينٌ لزمني. قال: وكم هو؟ قلت: عشرون ألفَ دينار. فقال: يا غلامُ، احملها إليه الساعةَ، واجعل معها خمسة آلاف دينار لحِفْظِه الحديثَ عن المنصور. هل من حاجةٍ لك غير ذلك؟ قلت: أودِّع أميرَ المؤمنين، وانصرفت.

---

(١) ضرب الدهر ضربانه ومن ضربانه: مر، وذهب بعضه.

هَذا بُغيه أمير المؤمنِين[١]

أَهدر أميرُ المؤمنين المنصورُ دَمَ رجلٍ، كان يَسْعى بفسادِ دَوْلته مع الخوارج، من أهل الكوفة. وجَعَل لمن دلَّ عليه، أو جاء به مائةَ ألف درهم. ثم إنّ الرجلَ ظهرَ في بغداد، فبينما هو يمشي مُتخفيًا في بعض نواحيها، إذ بَصُر به رجلٌ من أهل الكوفة، فعرفه؛ فأخذ بمجامع ثيابه، وقال: هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين.

فبينما الرجلُ على هذه الحال إذ سَمع وقْعَ حوافر الخيل، فالتفَت فإذا معْن بن زائدة[٢]، فاستغاث به؛ وقال: أَجِرْني أجارَك الله! فالتفَت مَعْنٌ إلى الرجل المتعلِّق به، وقال: ما شأنُكَ وهذا؟ فقال: إنه بُغْيَةُ أمير المؤمنين الذي أَهْدَرَ دَمه وجعل لمن دلّ عليه مائةَ ألف درهم. فقال: دَعْهُ. وقال لغلامه: انزل عن دابَّتك، واحمل الرجلَ عليها.

فصاح الرجلُ المتعلِّقُ به وصرخ واستجار بالناس، وقال: أيُحَالُ بيني وبين بُغية أمير المؤمنين؟ فقال له مَعْن: اذهب فقل لأميرِ المؤمنين، وأخبره أنه عندي.

فانطلق الرجلُ إلى المنصور وأخبره، فأمر المنصور بإحضار مَعْن في الساعة؛ فلما وصل أمرُ المنصور إلى مَعْن دعا جميعَ أهل بيته ومواليَه وأولادَه وأقاربَه وحاشيته، وجميعَ مَن يلوذُ به؛ وقال لهم: أقسم عليكم ألّا يصلَ إلى هذا الرجل مكروه أبدًا؛ وفيكم عين تَطْرف.

ثم أنه سار إلى المنصور؛ فدخل وسلَّم عليه، فلم يردّ عليه المنصورُ السلام، ثم قال له: يا مَعْن؛ أتتجرّأ عليَّ؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! فقال المنصور: ونعم أيضًا! وقد اشتدّ غضبه. فقال مَعْن: يا أميرَ المؤمنين؛ كم من مرة تقدّم في دولتكم بلائي، وحُسْنُ غَنائي[٣]؟ وكم من مرة خاطرتُ بدمي؟ أفما رأيتموني أهلًا لأنْ يُوهَب لي رجلٌ واحد اسْتجارَ بي بين الناس، يوهمه أني عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين، وكذلك أنا! فمرّ بما شئت، وهأنَذا بين يديك!

(١) ذيل ثمرات الأوراق للحموى: ١٦٧، غرر الخصائص: ١٧.

(٢) كان معن بن زائدة جوادًا شجاعًا، جزيل العطاء، كثير المعروف ممدحًا مقصودًا، وكان في أيام بني أمية متنقلًا في الولايات ومتقطعًا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، فلما كانت أيام المنصور اتصل به بعد أحداث، وصار من خواصه، وتوفي سنة ١٥٨ هـ.

(٣) الغناء: النفع.

فأطرق المنصورُ ساعة، ثم رفع رأسه، وقد سكَنَ ما به من الغضبِ، وقال له: قد أجَزْناه لك يا مَعْن. فقال له مَعْن: إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يجمعَ بين الأجْرَين فأمر له بصلة أَحْيَاه وأغْناه.

فقال المنصورُ: قد أمَرْنا له بخمسين ألف درهم. فقال معن: يا أميرَ المؤمنين؛ إن صلاتِ الخلفاء على قَدْرِ جِنَايات الرعية، وإن ذنبَ الرجل عظيم، فأجْزِلْ له صِلَته. قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم. فقال له معن: عَجِّلْها يا أميرَ المؤمنين، فإنّ خيرَ البرِّ عاجلُه، فأمر بتعجيلها؛ فحملها وانصرف؛ وأتى منزله؛ وقال للرجل: يا رجلُ؛ خُذْ صِلَتكَ والحقْ بأهلك؛ وإياك ومخالفَة الخلفاء في أمورهم بعد هذه.

مَعن بن زائدَة والأسود[1]

قال معنُ بن زائدة: لما هربتُ[2] من المنصور خرجتُ من باب حرب، بعد أن أقمتُ في الشمس أيامًا، وخفَّفْتُ لحيتي وعارضيّ، ولبِسْتُ جُبَّةَ صوفٍ غليظة، وركبتُ جَملًا، وخرجتُ عليه لأمضِيَ إلى البادية، فتَبِعني أسود متقلّدٌ سيفًا، حتى إذا غِبْتُ عن الحرس، قبض على خطَام[3] الجمل فأناخَه، وقَبَضَ عليّ، فقلت: ما شأنُك؟ فقال: أنتَ بُغيةُ أمير المؤمنين! فقلتُ له: ومَنْ أنا حتى يطلبَني أميرُ المؤمنين؟ فقال: معنُ بن زائدة. فقلت: يا هذا، اتقِ الله! وأين أنا من مَعْن؟ فقال: دَعْ هذا عنكَ، فأنا والله أعرفُ بك. فقلت له: فإن كانت القصَّةُ كما تقول، فهذا جوهرٌ حملتُه معي بأضعافِ ما بذلَه المنصور لمن جاءه بي، فخذه ولا تَسْفِك دمي.

فقال: هاتِه، فأخرجْتُه إليه، فنظر إليه ساعةً؛ وقال: صدقتَ في قيمتِه، ولستُ قابلَه حتى أسألك عن شيء، فإن صدقْتني أطْلَقْتُكَ؛ فقلت: قلْ، فقال: إن الناس وصَفُوك بالجود، فأخْبرني: هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه؟ قلتُ: لا، قال: فنصفَه؟ قلت: لا، قال: فثلثَه؟ قلت: لا؛ حتى بلغ العشْر، فاستحيَيْتُ، وقلتُ:

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ١١، عصر المأمون ٢ ـ ١٩٧.

(٢) كان سبب غضب المنصور أن معنا كان منقطعًا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة في عهد بني أمية، فلما كان عهد المنصور وجرى القتال بين المنصور ويزيد انضم معن إلى يزيد وأبلى بلاءً حسنًا حتى قتل يزيد، فهرب معن وطلبه المنصور ثم عفا عنه بعد ذلك.

(٣) خطام الجمل: كل حبل يعلق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه.

أظنّ أني قد فعلتُ هذا! فقال: ما ذاك بعظيم! أنا والله رَاجل[١] ورِزقِي من أبي جعفر عشرون درهمًا، وهذا الجوهرُ قيمته ألفُ دينار، وقد وهبته لك، ووهبتُك لنفسك، ولجودِك المأثور بين الناس! ولتعلمَ أنّ في الدنيا مَن هو أجودُ منك، فلا تعجبك نفسك، ولتُحقِّر بعد هذا كلّ شيء تفعلُه، ولا تتوقف عن مكْرُمة، ثم رمى بالعدل إليّ، وخلى خطامَ الجمل وانصرف.

فقلت: يا هذا! قد فَضَحْتَني، ولسَفكُ دَمي أهونُ عليّ مما فعلتَ، فخُذْ ما دَفعتُه إليك، فإني عنه في غنى؛ فضحك، ثم قال: أردتَ أن تكذبني في مقامي هذا! فوالله لا آخذُه، ولا آخذ لمعروف ثمنًا أبدًا، ومضى.

فوالله لقد طلبته بعدأن أمِنتُ، وبذلتُ لمن يجيء به ما شاء، فما عرفتُ له خبرًا، وكأن الأرض ابتلعته.

أموي عِندَ الرَشيد[٢]

رُفع إلى هارون الرشيد أن رجلًا بدمشق من بقايا بني أمية عظيمُ المال، كبير الجاه، مطاع في البلد، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل، يوحملون السلاح، ويغزون الروم، وأنه سمحٌ جواد، وأنه لا يُؤمَن منه، فعظُم ذلك على الرشيد.

فقال لخادمه منارة: اخرج الساعة وابْدَأ بالرجل فقيِّده وجئني به، واجعله في مَحمل تقعد أنت في شِقّه وهو في الآخر، وتَفَقَّدْ دارَه، واحفظ ما يقوله الرجل حرفًا بحرف.

قال منارة: فأتيتُ بيتَ الرجل، ودخلتُ بغير إذنه، فلما رأى القومُ ذلك سألوا بعضَ مَنْ معي عني، فلما صرتُ في صَحْنِ الدار نزلتُ، ودخلتُ مجلسًا رأيت فيه قومًا جلوسًا، فظننتُ أن الرجلَ فيهم، فقاموا ورحّبوا بي، فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: نحن أولاده وهو في الحمّام، فقلت: استعجلوه، فمضى بعضُهم يستعجله، وأنا أتَفَقّد الدارَ والأحوالَ والحاشية؛ فوجدتُها ماجَتْ موجًا كبيرًا. فلم أزل كذلك حتى خرج الرجلُ بعد أن طال مكثُه، واستربتُ به، واشتدَّ خوفي وقلقي من أن يتوارى، إلى أن رأيتُ شخصًا بزيّ الحمام يمشي في صَحْن

---

(١) الراجل: سد الفارس.

(٢) ذيل ثمرات الأوراق: ١٨١.

الدار، وحواليه جماعة كُهول وأحداثٌ وصبيان، وهم أولاده وغلمانه، فعلمتُ أنَّه الرجل.

فجاء وسلَّم وسألني عن أمير المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة، فقال: تقدَّم يا منارة وكل معنا. فقلت: ما لي إلى ذلك من سبيل، فلم يعاودني وأكل هو ومَنْ معه، ثم جاءوا بمائدة حسنة، فقال: يا منارة؛ ساعِدْنا على الأكل، فامتنعتُ عنه، فما عاودني.

فلما فرغ من أكله قام إلى الصلاة فصلّى وأكثرَ من الدعاء والابتهال، ثم قال لي: ما أقدَمَك يا منارة؟ فأَخْرجتُ كتابَ أمير المؤمنين فدفعتُه إليه ففضّه وقرأه، ثم أمر أولاده بالانصراف، وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين، ولست أُقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة، هاتِ قيودَك يا منارة، فدعوتُ بها وقيَّدْتُه وحملته.

وسرتُ بالرجل، وليس معه أحدٌ، حتى صِرْنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدّثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغُوطة، فقال لي: أترى هذا؟ قلتُ: نعم، قال: إنه لي، وفيه من غرائب الأشجار كيتَ وكيتَ، ثم انتهى إلى آخر، فقال: مثلَ ذلك، ثم انتهى إلى مزارعَ حسان وقُرى، فقال: مثل ذلك.

فاشتدَّ غيظي منه وقلتُ: ألستَ تعلم أن أمير المؤمنين أهمّه أمرُك حتى أرسلَ إليك مَن انتَزَعَك من بين أهلك ومالِك وولدِك، وأخرجَك فريدًا مقيَّدًا لا تدري إلى ما يصيرُ إليه أمرُك؛ ولا كيف يكون! وأنتَ فارغُ القلب من هذا حتى تصفَ ضياعَك وبساتينك بعد أن جئتُك؟

فقال لي مجيبًا: إنّا لله وإنا إليه راجعون! أخطأتْ فِراستي فيك. لقد ظننتُ أنَّكَ رجُلٌ كامل العقل، وأنك ما حللتَ من الخلفاء هذا المحلَّ إلا لما عرفوك بذلك، فإذا بكلامك يشبه كلام العوام، والله المستعان!

أمَّا قولُك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه، فإني على ثقةٍ من الله عزّ وجلّ الذي بيده ناصيةُ أمير المؤمنين، ولا يملكُ أميرُ المؤمنين لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا بإذن الله عزّ وجلّ؛ ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافُه. وبعد، إذا عرف أَميرُ المؤمنين أمري، وعرف سلامتي، وصلاح ناحيتي سرَّحني مكرَّمًا؛ فإن الحُسَّادَ والأعداء رَمَوْني عنده بما ليس فيَّ، وتقوَّلوا عليَّ الأقاويلَ،

فلا يستحل دمي؛ وسيردّني مكرَّمًا، ويقيمني ببلاده معظَّمًا مبجَّلًا؛ وإن كان قد سبقَ في علم الله عزّ وجلّ أنه يبدرُ إليَّ منه بادرةُ سوءٍ، وقد حضر أجلي، وكان سَفْكُ دمي على يده، فإني أحسنُ الظَّنَّ بالله الذي خَلَق ورزق، وأحيا وأَمَاتَ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى مَن يَمْلِكُ الدنيا والآخرة! وقد كنتُ أحسب أنك تعرفُ هذا فإذْ عرفتُ مبلغَ فَهْمِكَ فإني لا أكلمُك بكلمة واحدة حتى يفرِّق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى!

قال مَنَارة: ثم أعرض عني فما سمعتُ منه لفظةً غير التسبيح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارَفْنا الكوفة.

ودخلتُ على الرشيد وقبّلتُ الأرض بين يديه، ووقفتُ، فقال: هات ما عندك يا منارة، فسُقْتُ الحديث من أوله إلى آخره، فلما جئتُ على آخره قال: صَدَق والله! ما هذا الرجل إلا محسودُ النعمة مكذُوبٌ عليه، ولعمري لقد أزْعَجْناه وآذيناه وروَّعنا أهلَه، فبادِرْ بنَزْعَ قيوده وائتني به؛ ففعلت وأدخلته على الرشيد.

فما هو إلا إن رآه حتى رأَيتُ ماءَ الحياءِ يَجُول في وَجْه الرشيد، فدنا الأموي وسلم بالخلافة ووقف؛ فردَّ عليه الرشيد ردًّا جميلًا، وأمره بالجلوس فجلس، فأقبل عليه الرشيدُ وسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضلُ هيئة وأمورٌ أَحبَبنا معها أن نراك، ونسمعَ كلامك ونُحْسِنَ إليك؛ فاذكر حاجتك؛ فأجاب الأموي جوابًا جميلًا، وشكر ودعا. ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ أن تردّني إلى بلدي وأهلي ووَلدي، قال: نفعل ذلك، ولكن سلْ ما تحتاج إليه في مصالح جَاهِك ومعاشك، فإنّ مثلك لا يخلو أن يَحْتَاج شيئًا من هذا، فقال: يا أمير المؤمنين؛ عمّالُك مُنصفون، وقد استغنيتُ بعَدْلهم عن مسألتي، فأُموري مستقيمة، وكذلك أهلُ بلدي بالعَدْل الشامل في ظلّ أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظًا إلى بلدك، واكتبْ إلينا بأَمرٍ إن عرض لك؛ فودَّعه الأمويّ وانْصَرَف.

قال منارة: فلمَّا ولّى خارجًا قال الرشيدُ: يا منارة؛ احمله من وقتك وسرْ به راجعًا كما جئتَ به، حتى إذا وصلتَ إلى مجلسه الذي أخذتَه منه فدَعْه وانصرِف!

المَأمُون يَعْفُو عَن الحسَين بن الضحَاك[(١)]

قال محمد بن أبي الأزهر:

كنتُ بين يدي المأمون واقفًا، فأَدْخَلَ عليه ابنُ البوّاب الحاجبُ رقعةً فيها أبيات، وقال: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لي في إنْشادِها! فَظَنَّها له فقال: هاتِ، فأنشده:

أجزْني فإني قد ظَمِئتُ إلى الوَعْدِ ... متى تُنْجِز الوَعْدَ المؤكَّدَ بالعَهْدِ
أُعِيذُك من خُلْفِ الملوك وقد بَدَا ... تَقَطُّعُ أنْفَاسي عليك من الوَجْدِ
أَيبْخلُ فَرْدُ الحُسنِ عني بنائلٍ ... قليلٍ، وقد أَفْرَدْتُه بهوى فردِ

إلى أن بلغ إلى قوله:

رَأى اللهُ عبدَ اللهِ خيرَ عبادِه ... فملّكه، واللهُ أعلم بالعبدِ
أَلَا إنما المأمونُ للناس عِصْمَةٌ ... مميِّزَةٌ بين الضَّلالةِ والرُّشْدِ

فقال المأمون: أحسنتَ يا عبد الله. فقال: يا أمير المؤمنين؛ بل أَحْسَن قائلُها! قال: ومَنْ هو! قال: عبدك الحسين بن الضحاك[(٢)]! فَغَضِب، ثم قال: لا حيًّا الله من ذكرتَ ولا بَيَّاه ولا قرَّ به، ولا أنْعَمَ به عينا! أليس هو القائل:

أَعينيَّ جُودَا وابْكيا لي محمدًا ... ولا تَذْخَرا دَمعًا عليه وأَسْعِدا
فلَا تمَّتِ الأشياء بعد محمد ... ولا زال شملُ الملكِ فيه مُبَدَّدا
ولا فرح المأمونُ بالمُلْكِ بعدَه ... ولا زال في الدنيا طريدًا مُشرَّدا

هذا بذاك، ولا شيءَ له عندنا! فقال له ابنُ البوَّاب: فأين فضلُ أمير المؤمنين وسَعَةُ حلمه، وعادتُه في العفو!

فأمره بإحضاره، فلما حضر سلّم فردَّ عليه ردًّا جافيًا؛ ثم أقبل عليه، فقال: أخبرني عنك؛ هل عرفتَ يومَ قُتِل أخي محمد ـ رحمه الله ـ هاشميّةً قُتِلَتْ أو

---

(١) الأغاني: ٧ ـ ١٦٥، الفرج بعد الشدة: ١ ـ ٦٢.

(٢) هو مولى باهلة، ولد بالبصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بني العباس وكان خليعًا فاسدًا، ولكنه كان حسن التصرف في النظم، ولشعره قبول ورونق. مات سنة ٢٥٠ هـ.

هُتِكت! قال: لا، قال: فما معنى قولك:

وسِرْبُ ظباءٍ من ذُؤابةِ هاشمٍ هَتَفْنَ بدعوى خير حيٍّ وميِّتِ
أَرُدُّ يدًا منِّي إذا ما ذكرتُه على كبدٍ حَرَّى وقلب مُفَتَّتِ
فلَا باتَ ليلُ الشَّامِتين بِغبْطَةٍ ولا بَلَغَتْ آمالُهُمْ ما تَمَنَّتِ

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعَةٌ غَلبتني، وروعةٌ فاجأتني، ونعمةٌ فقدتُها بعد أن غَمَرَتْني، وإحسانٌ شكرتُه فأنطقني، وسيّدٌ فقدتُه فأقلقني، فإن عاقبتَ فبحقّك، وإن عفوتَ فبفضلك.

فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوتُ عنك، وأمرتُ بردّ أرزاقك، وإعطائك ما فات منها، وجعلتُ عقوبةَ ذنبك امتناعي من استخدامك!

شبَّ عَمرُو عَن الطَّوْق[١]

كان جَذِيمة[٢] الأبرشِ ملكُ الحيرة قد جمع غِلْمانًا من أبناء الملوك يخدُمُونه؛ منهم عديُّ بن نَصْر بن ربيعة اللَّخْمِيّ، وكان له حظٌّ من الجمال؛ فقالت له رَقَاشِ أخت جَذيمة: إذا سَقَيْتَ الملك فسكر فاخْطُبني إليه؛ فسقى عديٌّ جَديمةَ ليلة، وألطفَ له في الخدمة، ولما أسرعت الخمرُ فيه، قال له: سَلْنِي ما أحْبَبْتَ، فقال: أسألُك أن تزوجني رَقَاشِ أختَك. قال: ما بها عنك رغبةٌ، قد فعلت!

فدخل بها، وأصبح في ثياب جُدُدٍ وطيب. فلما رآه جَذِيمةُ قال: يا عديّ؛ ما هذا الذي أرى؟ قال: زَوَّجْتَني أختك رقاشِ البارحةَ، قال: ما فعلت! ثم وضع يده في التراب، وجعل يضرب بها وجهه ورأسه، وأقبل على رَقاش فقال:

حدثيني وأنت غيرُ كذوب أبِحُرٍّ زَنَيْتِ أم بهجين
أم بِعَبْدٍ وأنت أهلٌ لعبدٍ أم بدُونٍ وأنت أهلٌ لدون

(١) الأمثال: ٢ ـ ٧٥، القاموس المحيط ـ مادة طوق، بلوغ الأرب: ٢ ـ ١٧٧، المسعودي: ١ ـ ٧٥.

(٢) جذيمة الأبرش ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق، عاش في الجاهلية عمرًا طويلًا، وكان يقال له الوضاح والأبرش لبرص فيه، وهو الذي جاء إلى الزباء فقتلته بثأر أبيها.

فأجابَته رقاش:

أنتَ زَوّجتَني وما كنتُ أدري وأتاني النساء للتزيين
ذاك من شُرْبِك المُدَامة[١] صِرْفًا وتماديك في الصِّبا والمجُون[٢]

فأطرق جَذيمة، فلما رآه عديٌّ قد فعل ذلك خافه على نفسه فهرب منه، ولحِقَ بقومه وبلاده، فمات هناك.

ثم ولدت رَقاش غلامًا، فسماه جَذيمة عمرًا وتبنّاه، وأحبّه حبًا شديدًا ـ وكان جذيمة لا يولَد له.

فلما بلغ الغلامُ ثمانين سنين كان يخرج في عدةٍ من خدم الملك يجتنون له الكَمْأَة، فكانوا إذا وجدوا كمأةً خيارًا أكلوها وراحوا بالباقي إلى الملك. وكان عمرو لا يأكلُ مما يَجْني، ويأتي به جذيمة فيضعه بين يديه، ويقول:

هذا جَنَاي وخيارُه فيه إذْ كلُّ جانٍ يدُهُ إلى فيه

ثم إنه خرج يومًا وعليه ثيابٌ وحَلْيٌ، فاسْتُطير وفُقِد زمانًا، وَضُرِبَ في الآفاق فلم يوجد، وأتى على ذلك ما شاء الله.

ثم وجد مَالك وعَقيلٌ ابنا فارجٍ، وهما رجلان كانا متوجهين إلى الملك بهدايا وتُحَف، فبينما هما بوادٍ في السَّماوَة انتهى إليهما عمرُو بنُ عَديّ، وقد عَفَتْ[٣] أظفارُهُ وشَعره، فقالا له: مَن أنت؟ قال: ابنُ التَّنُوخيَّة؛ فَلَهَيَا عنه، وقالا لجارية معهما: أطعمينا فأطعمتهما؛ فأشار عمرو إلى الجارية أن أطعميني فأطعمته، ثم سقتهما، فقال عمرو: اسقيني. فقالت الجارية: لا تُطعم[٤] العبْدَ الكُرَاعَ فَيطمع في الذراع[٥].

ثم إنهما حملاه إلى جَذيمة فعرفه، ونظر إلى فتى ما شاءَ من فتى! فضمَّه وقبّله وقال لهما: حكّمتُكما. فسألاه منادمته، فلم يزالا نَدِيمَيْه حتى فرَّق الموت

(١) المدامة: الخمر. وصرف: غير ممزوج. (٢) المجون: الهزل.
(٣) عفا الشعر وغيره: كثر. (٤) ذهبت مثلاً.
(٥) الكراع في البقر والغنم كالوظيف في الفرس والبعير وهو مستدق الساق. والذراع أفضل من الكراع لأنه في اليد، والكراع في الرجل.

بينهم؛ وبعث عمرًا إلى أمه، فأدخلته الحمّاح، وألبسَتهُ ثيابه، وطوَّقته طوْقًا كان له من ذهب، فلما رآه جذيمة قال: كَبرَ عمرو عن الطوق[١]!

تأديبُ عُمَر بن الخطّاب لِعمّالِه[٢]

كان عمرُ بن الخطاب جالسًا في المسجد فمرَّ به رجل فقال: ويلٌ لك يا عمر من النار! فقال: قرّبوه إليّ. فدنا منه، فقال: لِمَ قلتَ ما قلت؟ قال: تستعملُ عُمَّالَك وتشترط عليهم، ثم لا تنظر: هل وَفَوْا لك بِشَرْطٍ أم لا؟ قال: وما ذاك؛ قال: عاملك على مصر اشترطتَ عليه فتركَ ما أمرته به، وارتكب ما نهيته عنه؛ ثم شرح له كثيرًا من أمره.

فأرسل عمر رجلين من الأنصار، فقال لهما: انتهيا إليه فاسْألا عنه، فإن كان كذَب عليه فأَعْلماني، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تُمَلِّكاه من أمره شيئًا، حتى تَأْتيا به.

فذهبا فسألا عنه، فوجداه قد صدق؛ فجاءا إلى بابه، فاستأذنا عليه، فقال صاحبه: إنه ليس عليه اليوم إذْنٌ. قالا: ليَخرجَنَّ إلينا أو لنحرِقنَّ عليه بابه، وجاء أحدُهما بشُعْلَةٍ من نار.

فدخل الآذِنُ فأخبره؛ فخرج إليهما، فقالا: إنا رسولا عمر إليك لتأتيه، قال: إن لي حاجة، تمهلانني إلى أن أتزوّد. قالا: إنه عَزَم علينا ألا نُمْهلك.

فاحتملاه وأتيا به عُمَرَ، فلما أتاه سلّم عليه فلم يعرفه، وقال له: مَن أنت؟ وكان رجلًا أسمر، فلما أصاب من رِيْف[٣] مصر ابيضَّ وسمن ـ فقال: أنا عاملك على مصر، أنا فلان. قال: وَيْحَك! ركبتَ ما نهِيت عنه، وتركتَ ما أُمِرتَ به، واللهِ لأعاقبنك عقوبةً أُبْلِغ إليك فيها.

آتوني بكساء من صوف وعصا وثلاثمائةِ شاة من غَنَم الصدقة؛ ثم قال له: الْبس هذه الدُّرَّاعة[٤]؛ فقد رأيتُ أباك، وهذه خير من دُرَّاعته، وخُذْ هذه العصا فهي خير من عصا أبيك، واذهب بهذه الشِّيَاه فارْعَها في مكان كذا ـ وذلك في يوم

(١) ذهبت مثلًا، يضرب للابس ما هو دونه.
(٢) ابن أبي الحديد: ٣ ـ ٩٨.
(٣) الريف هنا: أرض فيها زرع وخصب.
(٤) الدراعة: جبة مشقوقة من المقدم.

صائف[١] - ولا تمنع السَّابِلَةَ[٢] من ألبانها شيئًا إلا آل عمر، فإني لا أعلم أحدًا من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئًا.

فلما ذهب ردَّه، وقال: أفهمتَ ما قلتُ؟ فضرب بنفسه الأرض، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ لا أستطيعُ هذا، فإن شئت فاضربْ عنقي. قال: فإن ردَدْتُك فأي رجل تكون؟ قال: والله لا يبلغك بعدما إلا ما تحبّ. فردّه فكان نعمَ الرجل!

تنصَّرَتِ الأَشْرَاف مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ[٣]

رُوِيَ أن جَبْلَةَ[٤] بن الأيهم بن أبي شَمِرِ الغَسَّاني لما أراد أن يُسلم، كتب إلى عمر بنِ الخطاب من الشام يُعْلِمه بذلك ويستأذنه في القدوم عليه، فَسُرّ بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه: أن أقدم ولك ما لنا وعليك ما علينا.

فخرج جَبَلة في خمسمائة فارسٍ من عَكّ وجَفْنة؛ فلما دنا من المدينة ألبَسهم ثياب الوَشْي المنسوج بالذهب والفِضّة، ولبس يومئذٍ جبلةُ تاجَه وفيه قرطُ مارية - وهي جَدَّته - ودخل المدينة فلم يبق بها أحدٌ إلا خرج يَنظُر إليه حتى النساء والصِّبْيَان؛ فلما انتهى إلى عمر رحَّب به وأدنى مجلسه! ثم أراد الحج، فخرج معه جَبَلة.

فبينا هو يطوف بالبيت إذ وَطِيء على إزارِه رجلٌ من بني فَزارة فحلّه، فالتفت إليه جَبَلة مُغضبًا، فلطَمَه فهشَمَ أنفه، فاستعدى عليه الفَزَاري عمرَ بنَ الخطاب؛ فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جَبَلة إلى أن لَطَمْت أخاك هذا الفَزاري فهشمَت أنفَه! فقال: إنه وَطِيء إزاري فحلّه؛ ولولا حُرْمةُ البيت لضربتُ الذي فيه عيناه[٥]. فقال له عمر: أمّا أنتَ فقد أقررت؛ فإما أن ترضيه، وإلا أَقَدْتُه منك. قال: أتُقِيده مني وأنا ملك وهو سُوقَة!!

(١) يوم صائف: شديد الحر.
(٢) السابلة: أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم.
(٣) الخزانة: ٤ - ٢٩٨، الأغاني: ١٤ - ٤، العقد: ٢ - ٥٦، طبعة لجنة التأليف.
(٤) جبلة بن الأبهم آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، عاش زمنًا في العصر الجاهلي، ولما ظهر الإسلام أسلم في أيام عمر، ثم ارتدّ وعاد إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية حيث أقام عند هرقل إلى أن توفي سنة ٢٠ هـ.
(٥) يريد رأسه.

قال عمر: يا جَبَلَة! إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تَفْضُله بشيء إلا بالتقوى والعافية، قال جبلة: والله لقد رجوتُ أن أكونَ في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية. قال عمر: دَعْ عنك هذا، فإنك إن لم تُرْضِ الرجل أَقَدْتُه منك، قال جبلة: إذن أتنصّر. قال: إن تنصرتَ ضربتُ عنقك. واجتمع قومُ جبلة وبنو فَزَرة فكادت تكون فِتنة. فقال جبلة: أخِّرني إلى غدٍ يا أمير المؤمنين. قال: ذلِكَ لك.

ولما كان جُنْح الليل خرج جبلةُ وأصحابه من مكة، وسار حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر، وأقام عنده؛ وأعْظَمَ هرقلُ قدومَ جبلة، وسُرَّ بذلك، وأقطعه الأموال والأرَضين والرِّباع[1]، وجعله من محدّثيه وسُمّاره.

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولًا[2] إلى هِرَقْل يدعوه إلى الإسلام، وأجابه إلى المصالحة على غيرِ الإسلام، أراد أن يكتبَ جوابَ عمر، وقال للرسول: ألقيتَ ابنَ عمك هذا الذي ببلدنا ـ يعني جبلة ـ الذي أتانا راغبًا في ديننا؟ قال: ما لقيتُه، قال: الْقَه، ثم ائتني أعطك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القَهَارمة والحجَّاب والبَهْجَة وكثرة الجمع مثلُ ما على باب هِرَقْل. قال الرسول: فلم أزل أتلطّف في الإذن حتى أُذِن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلًا أَصْهَب[3] اللحية ذا سِبَال[4]، وكان عهدي به أسمر أسودَ اللحية والرأس، فنظرت إليه فأنكرتُه، فإذا هو قد أتى بسُحالَةِ[5] الذهب، فذرَّها في لحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير[6]، قوائمه أربعة أُسُود من ذهب.

فلما عرفني رفعني معه في السرير، ورحّب بي، ولامني على تَرْكي النزولَ عنده، ثم جعل يسائلني عن المسلمين، فذكرتُ خيرًا وقلت: قد أُضعِفوا[7] أَضعافًا على ما تعرف؛ فقال: كيف تَركتَ عمَر بن الخطاب؟ قلت: بخير، فرأيت الغمَّ قد

(١) الرباع جمع ربع: الدار. (٢) هو جثامة بن مساحق الكناني.
(٣) الصهبة: حمرة يعلوها سواد.
(٤) السبال: جمع سبلة وهي ما على الشارب من الشعر.
(٥) السحالة: ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا بردا.
(٦) القوارير: شجر تعمل منه الرحال والموائد والقوارير من الزجاج أيضًا.
(٧) أضعف الشيء: زيد على أصله فيجعل مثلين أو أكثر.

تبيّن فيه، لما ذكرتُ له من سَلَامة عمر. ثم انحدرتُ عن السرير، فقال: لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا. قال: نعم، ﷺ، ولكن نقِّ قلبَك من الدَّنَس ولا تبالِ علام قعدْتَ. فلما سمعتُه يقول: ﷺ طَمِعتُ فيه، فقلت له: ويحك! يا جبلة، ألا تُسلم وقد عرفتَ الإسلام وفَضْلَه. قال: أبَعْدَ ما كان مني؟ قلت: نعم: قد فعل رجُلٌ من فَزارة أكثرَ مما فعلت: ارتدَّ عن الإسلام، وضرب وجوهَ المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام، وقُبِل ذلك منه، وخلَّفته بالمدينة مسلمًا. قال: ذَرْني مِنْ هذا، إن كنتَ تضمن لي أن يزوّجني عمر ابنتَه، ويولِّيني الإمرة بعده رجعتُ إلى الإسلام. قال: ضمنت لك التزويج، ولم أضمن لك الإمرة. قال: لا.

فأومَأ إلى خادم بين يديه، فذهب مسرعًا، فإذا خَدَم قد جاؤوا يحملون الصناديق فيها الطعامُ، فوضِعت ونُصبت موائدُ الذهب وصِحَاف الفضة، وقال لي: كُلْ فقبضت يدي، وقلت: إنّ رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في آنية الذهب والفخار، فقال: نعم، ﷺ، ولكن نَقِّ قلبك وكُلْ فيما أحببت. وأكل في الذهب والفضة، وأكلت في الخليج[1].

فلما رُفع الطعام جيء بطِسَاس[2] الفضة وأباريق الذهب، وأومأ إلى خادم بين يديه، فمرّ مسرعًا، فسمعت حِسًّا، فالتفتُّ، فإذا خدَمٌ معهن الكراسي مرصَّعة بالجوهر، فوُضِعَت عشرة عن يمين، وعشرةٌ عن يَساره، ثم سمعت حِسًّا، فإذا عشر جوار قد أقبلن مَطْمُوماتٍ[3] الشعر متكسراتٍ في الحَلْي، عليهن ثياب الدِّيباج، فلم أرَ وجوهًا قطّ أحسنَ منهن، فأقعدهن على الكراسي عن يمينه، ثم سمعت حسًّا فإذا عشر جوارٍ أخرى فأجلسهن على الكراسي عن يساره، ثم سمعت حسًّا، فإذا جاريةٌ كأنها الشمس حسنًا وعلى رأسها تاجٌ، وعلى ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه، وفي يدها اليمنى جَامَةٌ[4] فيها مسك وعَنْبر، وفي يدها اليسرى جَامَة فيها ماء ورد، فأومأتْ إلى الطائر، فوقع في جَامَةِ ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومأت إليه فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة، فلم يزل يُرَفرف حتى

---

(١) الخليج: الجفنة.
(٢) الطساس: جمع الطس، وهو الطست.
(٣) طمت شعرها: عقصته وهو مطموم، والعقص: أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها، ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها.
(٤) إناء من فضة.

نفض ما في ريشة عليه؛ وضحك جبلةُ من شدة السرور، حتى بدتْ أنيابه، ثم التفت إلى الجواري التي عن يمينه، فقال: بالله أَطْرِبْنني. فاندفعن يتغَنّين يخفقن بعيدانهن ويَقُلْن[١]:

لله درُّ عِصَابَةٍ نادَمْتُهم ... يومًا بجلّقَ[٢] في الزمانِ الأوّلِ
يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البريص عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفّق بالرحيق السَّلْسَلِ[٣]
أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ ... قبرِ ابن مارية الكريم المُفْضِلِ
يُغْشَوْن حتى ما تهرُّ كلابهم[٤] ... لا يَسألون عن السواد المقبل
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهمُ ... شمُّ الأنوف مِنَ الطِّراز الأوّل

فضحك حتى بدت نَوَاجِذُه، ثم قال: أتدري مَنْ قائل هذا؟ قلت: لا، قال: قائلُه حسانُ بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره، فقال: بالله أبكيننا. فانْدَفَعْنَ يتغنين، وهنّ يخفقن بعيدانهن.

فبكى حتى جعلت الدموعُ تسيل على خدَّيه، ثم قال: أتدري مَن قائل هذا الذي تغنّين به؟ قلت: لا أدري، قال: حسان بن ثابت، ثم أنشأ يقول:

تنصرتِ الأشرافُ من عَارِ لَطْمَةٍ ... وما كان: فيها - لو صبرتُ لها ضَرَرْ
تكنَّفَنِي منها لَجاجٌ ونَخْوَةٌ ... وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فيا ليت أُمّي لم تلدني وليتني ... رجَعتُ إلى الأمر الذي قال لي عُمَرْ
ويا ليتني أَرْعَى المَخَاض[٥] بِقَفْرَةٍ ... وكنتُ أسيرًا في ربيعة أو مُضَرْ
ويا ليتَ لي بالشام أدنَى معيشةٍ ... أجالسُ قَوْمي ذاهبَ السمع والبَصَرْ

ثم سألني عن حسان: أحيٌّ هو؟ قلت: نعم، تركتُه حيًّا. فأمر لي بكُسوة ومال، ونُوق مُوقرة بُرا، ثم قال لي: إن وجدتَه حيًّا فادفع إليه الهديَّة، وأَقْرِئه سلامي، وإنْ وجدته ميتًا فادفعها إلى أهله، وانحر الجمالَ على قبره.

---

(١) الشعر لحسان بن ثابت. (٢) جلق: دمشق.
(٣) البريص: نهر بدمشق. وبردى: نهرى بدمشق أيضًا. وتصفيق الشراب: مزجه، الرحيق: الخمر. سلسل: لين.
(٤) تهر كلابهم: هرير الكلب: صوته دون النباح.
(٥) المخاض، نوق مخاض: حوامل.

فلما قدمتُ على عمر وأخبرتُه خبر جَبَلة، وما دعوته إليه من الإسلام، والشرْط الذي شَرطه، وأني ضَمنت له التزويج، ولم أضمن له الإمرة قال: هلَّا ضمنت له الإمرة؟ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحكمه عزّ وجلّ! ثم ذكرتُ له الهديَّةَ التي أهداها إلى حسان بن ثابت. فبعث إليه، وقد كُفَّ بصره فأُتِي به، وقائدٌ يقوده. فلما دخل قال: يا أمير مؤمنين؛ إني لأَجِد رياح آل جَفْنَة عندك. قال: نعم؛ هذا رجل أقبل من عند جبلة، قال: هات يا ابنَ أخي؛ إنه كريم من كرامِ مَدحتُهم في الجاهلية، فحلف أَنْ لا يَلْقَى أحدًا يعرفني إلا أهْدى إليّ معه شيئًا: فدفعتُ إليه الهدية: المال، والثياب، وأخبرته بما كان أمر به في الإبل إن وُجد ميتًا. فقال: وددت أني كنتُ ميتًا فنُحِرَت على قبري؛ وانصرف يقول:

إنّ ابن جَفْنة من بقيّة مَعْشَر ... لم يَغْذُهم آباؤهم باللّومِ
لم يَنْسني بالشام إذ هو ربُّها ... مَلِكًا ولا مُتَنَصِّرًا بالرُّومِ
يُعْطِي الجزيلَ ولا يراه عنده ... إلا كبعض عَطيَّةِ المذمومِ

فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكرُ ملوكًا كَفَرة أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مُزَنيّ. قال: والله لولا سوابقُ قومك مع رسول الله ﷺ لطوَّقْتُك طَوْقَ الحمامة.

قال: ثم جهّزني عُمَر إلى قيصر، وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قَدِست القسطنطينية وجدتُ الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشَّقاء غَلَب عليه في أُمِّ الكتاب.

بَصِيرة العَبَّاس(١)

كان بين العباس(٢) بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب مُباعدة، فلقي ابنُ عباس عليًّا، فقال: إن كان لك في النظر إلى عمك حاجةٌ فأْتِه، وما أراك تلقاه بعدها لها. فقال عليٌّ: تَقَدَّمني واستأذِنْ. فتقدم ابنُ عباس واستأذن لِعَلِيّ، فأُذن له ودخل، فاعتنق كلٌّ واحد منهما صاحبه، وأقبل عليٌّ على يد العباس ورِجْله

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ١٣١.
(٢) كان من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، كان سديد الرأي، واسع العقل، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة وشهد موقعة حنين وفتح مكة، توفي سنة ٣٢ هـ.

يقبّلهما، ويقول: يا عمّ؛ ارْضَ عني ـ رضي الله عنك ـ قال: قد رضيت عنك. ثم قال: يا ابن أخي؛ قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبلْ، ورأيت في عاقبتها ما كرهتَ، وهأنذا أشيرُ عليك برأيٍ رابع، فإن قبلتَه وإلا نالك ما نالك مما كان قبله. قال: وما ذاك يا عمّ؟ قال: أشرتُ عليك في مرض رسول الله ﷺ أَنْ تسأَله فإن كان الأمرُ فينا أعطاناه، وإن كان في غيرنا أَوْصى بنا، فقلتَ: أخشى إن مَنَعنَاه لا يعطيناه أحد، فمضتْ تلك!

فلما قبض رسولُ الله ﷺ أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نُبَايِعْك، وقلتُ: ابسط يديك أبايْعك ويبايْعك هذا الشيخ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحدٌ من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قُرشِي، وإذا بايَعَتْك قريش لم يختلف عليك أحدٌ من العرب. فقلتَ: لنا بجهاز رسول الله ﷺ شُغلٌ، وهذا الأمر لا يُخْشى عليه، فلم نلبثْ أن سمعنا التكبير من سقيفة بني سَاعِدَة[(١)]، فقلت: يا عم ما هذا؟ قلتُ: ما دَعَوْناك إليه! فأبيتَ وقلتَ: سبحان الله! أو يكون هذا؟ قلتُ: نعم، قلتَ: أفلا يُرَدّ! قلتُ لك: وهل رُدَّ مثل هذا قط.

ثم أشرتُ عليك حين طُعِن عمر، فقلتُ: لا تُدْخِل نفسك في الشورى؛ فإنك إن اعتزلتهم قَدّموك، وإن ساويتَهم تقدَّموك، فدخلت معهم، فكان ما رأيت.

ثم أنا الآن أُشيرُ عليك برأي رابع، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله: إني أرى أنَّ هذا الرجل ـ يعني عثمان ـ قد أُخِذ في أمورِ الله؛ وكأني بالعرب قد سارت إليه حتى يُنحرَ في بيته كما يُنْحَر الجمل، والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة لزمك الناسُ به، فإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئًا إلا من بعد شرٍّ لا خير معه.

قال ابنُ عباس: فلما كان يوم الجمل عرضتُ لعليٍّ، وقد قُتِل طلحة؛ وقد أكثر أهلُ الكوفة في سَبّه وغَمْصِه[(٢)]. فقال عليّ: أما والله لئن قالوا ذلك لقد

(١) السقيفة: هي المكان المظلل، واسمها الصفة، وسقيفة بني ساعدة هي التي بويع فيها لأبي بكر بعد حوار طويل بين المهاجرين والأنصار.

(٢) غمصه: احتقره، وعابه، وتهاون بحقه.

كان كما قال:

فتى كان يُذْنيه الغِنَى من صديقه إذا ما هو استغنى ويُبْعِدهُ الفقرُ

ثم قال: لكأن عمي ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، والله ما نلتُ من هذا الأمر شيئًا إلا بعد شرٍّ لا خيرَ معه!

أَثَــرُ المعْرُوف[١]

وفد أهلُ الكوفة على معاوية في دمشق حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده، وفي أهل الكوفة هانىء بن عُروة المُراديّ[٢]، وكان سيّدًا في قومه، فقال يومًا في مسجد دمشق، والناسُ حوله: العجبُ لمعاوية يريد أن يَقْسِرَنا[٣] على بَيْعَة يزيد، وحالُه حالُه، وما ذاك والله بكائن.

وكان يجلس في القوم غلامٌ من قريش، فتحمَّل[٤] الكلمة إلى معاوية، فقال معاوية: أنت سمعتَ هانئًا يقولُها؟ قال: نعم! قال: فاخرج فأْتِ حَلْقَتَه، فإذا خفَّ الناسُ عنه، فقل له: أيها الشيخ، قد وصلَتْ كلمتُك إلى معاوية، ولست في زمن أبي بكر وعُمَر، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام، فإنهم بنو أمية، وقد عرفتَ جُرْأَتَهم وإقْدَامهم، ولم يَدْعُني إلى هذا القول لك إلا النصيحةُ والإشفاق عليك. ثم انظر ما يقول، فأْتِني به.

فأَقبل الفتى إلى مجلس هانىء، فلما خفّ مَنْ عنده دنا منه، فقصّ عليه الكلام، وأخرجه مُخْرَجَ النصيحة به، فقال هانىء: والله يا ابن أخي ما بلغتْ نصيحتُك كلَّ ما أسمع، وإن الكلام لكلامُ معاوية أعرفه. فقال الفتى: وما أنا ومعاوية؟ والله ما يعرفني. قال: فما عليك! إذا لقيته فقل له: يقول لك هانىء: والله ما إلى ذلك من سبيل، انهض يا ابن أخي راشدًا.

فقام الفتى فدخل على معاوية، فأعلمه، فقال: نستعين بالله عليه.

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد: ارفعوا حوائجكم، وهانىء فيهم، فعرض عليه كتابه فيه ذكرُ حوائجه. فقال: يا هانىء؛ ما أراك صنعت شيئًا؛ زِدْ. فقام هانىء

---

(١) ابن أبي الحديد: ٤ ـ ٣٢٧.

(٢) هانيء بن عروة المرادي: أحد سادات قريش وأشرافهم، قتله عبد الله بن زياد سنة ٦٠ هـ.

(٣) يكرهنا عليها. (٤) تحمل: بمعنى حمل.

فلم يَدَع حاجة عرضت له إلا ذكرَها. ثم عرض الكتاب عليه، فقال: أراكَ قصَّرْت فيما طلبت. زِدْ، فقام هانىء، فلم يدع حاجة لقومه، ولا لأهل مصره إلا ذكَرَها، ثم عرض عليه الكتاب، فقال: ما صنعتَ شيئًا، زِدْ! فقال: يا أمير المؤمنين؛ حاجة بقيت! قال: ما هي؟ قال: أن أتولى أخْذَ البيعة ليزيد ابنِ أمير المؤمنين بالعراق! قال: افعلْ، فما زلتَ لمثل ذلك أهلًا.

فلما قدم هانىء العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبة وهو والي العراق يومئذٍ.

لَا أَحْمَدُ إِلّا الله(١)

أُتي الحجاجُ بقوم ممن خرجوا عليه، فأمر بهم فضُربت أعناقُهم، وأقيمت صلاةُ المغرب وقد بقي من القوم واحد، فقال لِقُتَيْبة بنِ مسلم: انصرف به معك حتى تَغْدُو به عليَّ.

قال قُتيبة: فخرجتُ والرجلُ معي، فلما كنَّا ببعض الطريق قال لي: هل لك في خير؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إني والله ما خرجتُ على المسلمين، ولا استَحلَلت قِتَالهم؛ ولكن ابتُليتُ بما ترى، وعندي ودائع وأموال، فهل لك أن تُخَلِّيَ سبيلي، وتأذنَ لي حتى آتيَ أهلي، وأرُدَّ على كل ذي حقٍّ حقَّه، وأُوصي؛ ولك عليَّ أن أرجعَ حتى أضعَ يدي في يدك؟ فعجبتُ له، وتضاحَكْتُ لقوله، ومَضَيْنا هُنَيهة، ثم أعادَ عليّ القول، وقال: إني أعاهدُك الله، لك عليَّ أن أعودَ إليك. فما ملكتُ نفسي حتى قلت له: اذهبْ!

فلما توارى شَخْصُه أُسْقِط في يدي، فقلت: ماذا صنعتُ بنفسي؟ وأتيتُ أهلي مهمومًا مغمومًا؛ فسألوني عن شأني فأخبرتهم، فقالوا: لقد اجترأْتَ على الحجاج.

فبتْنا بأطولِ ليلة، فلما كان عند أذَان الفجر إذا الباب يُطْرَق، فخرجتُ فإذا أنا بالرجل، فقلت: أَرجعْتَ؟ قال: سبحان الله! جعلتُ لك عهدَ الله عليّ، فأخونُك ولا أرجع! فقلت: أما والله إن استطعتُ لأنفعنَّك. وانطلقتُ به حتى أجلسْتُه على باب الحجاج، ودخلت!

---

(١) غرر الخصائص: ٢٠.

فلما رآني قال: يا قُتيبة؛ أين أسيرُك؟ قلت: أصلح الله الأمير ـ بالباب، وقد اتَّفق لي معه قصةٌ عجيبة، قال: ما هي؟ فحدثتُه الحديث، فأَذن له فدخل، ثم قال: يا قتيبةُ، أتحبُّ أن أهبَه لك؟ قلت: نعم! هو لك! فانصرفْ به معك.

فلما خرجتُ به قلت له: خذ أيَّ طريقٍ شئتَ، فرفع طرْفه إلى السماء وقال: لك الحمدُ يا رب، وما كلّمني بكلمة، ولا قال لي أحسنتَ ولا أسأتَ! فقلت في نفسي: مجنون والله! فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءني، وقال لي: جزاك الله خيرًا، أما والله ما ذهبَ عني ما صنعت، ولكن كرهتُ أن أُشرِكَ مع حَمْد الله حمدَ أحد!

لَا أَسْأَلُكُم عَلَيهِ أَجْرًا[1]

قال عثمان بن عطاء الخرسانيّ: انطلقت مع أبي نُريد هشام بن عبد الملك، فلما قَرُبْنا إذا بشيخ على حمارٍ أسود عليه قميص دَنِس، وجُبّة دِنسة، وقلنسوة لاطِئةٌ[2] دنسة، وركاباه من خشب؛ فضحكت منه، وقلت لأبي: مَن هذا الأعرابي! قال: اسكت! فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عَطَاء بن أبي رباح[3].

فلما قرب منا نزل أبي عن بَغْلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام؛ فما استقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما.

فلما خرج أبي قلتُ له: حدِّثني ما كان منكما. قال: لما قيل لهشام: إن عَطَاء بن أبي رباح بالباب أَذِن له؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه.

فلما رآه هشام قال: مرحبًا مرحبًا! هٰهنا، هٰهنا، ولا زال يقولُ له: هٰهنا هٰهنا، حتى أجْلَسه معه على سريره، ومسَّ بركبته ركبته ـ وعنده أشرافُ الناس يتحدثون فسكتوا. فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقَسَّم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم. قال: يا غلام اكْتُب لأهلِ مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لِسنَة.

---

(١) غرر الخصائص: ١١٧.
(٢) لاطئة: لازقة.
(٣) تابعي من أجلاء الفقهاء، ولد باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها، ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٥ هـ.

ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهلُ الحجاز وأهلُ نجد هم أصلُ العرب، وقادةُ الإسلام، تردُّ فيهم فضولَ صدقاتهم. قال: نعم! يا غلام اكتب بأن تُردّ فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أميرَ المؤمنين؛ أهلُ الثغور يَرُدّون من ورائكم، ويقاتلون عدوّكم، تُجْرِي لهم أرزاقًا تدرّها عليهم؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور. قال: يا غلام؛ اكتب بحمل أرزاقهم إليهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أهل ذمتكم لا يُكلَّفون ما لا يطيقون؛ فإن ما تَجْبونه منهم معونة لكم على عدوكم. قال: نعم، يا غلام؛ اكتب لأهل الذمة بألا يكلَّفوا ما لا يطيقون! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، اتَّق الله في نفسك؛ فإنك خُلِقْتَ وحدك، وتموت وحدك، وتُحْشر وحدك، وتحاسَبُ وحدك، ولا يشبه ما معك ممن ترى أحدًا!

فأكبَّ هشام يَنْكُت[1] في الأرض، وهو يبكي؛ فقام عطاء.

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه؛ فقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا. فقال: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ربّ العَالَمينَ، فوالله ما شرب عنده قَطْرَة ماء.

خَليفَة بَين يَدَيْ قَاض[2]

قال العُتْبي: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة، وصاحب حَرَس هشام[3]، حتى قعدا بين يديه؛ فقال الحرسيّ[4]: إن أمير المؤمنين جَرّاني في خصومة بينه وبين إبراهيم!

فقال القاضي: شاهِدَيك على الجرَاية[5]!

قال: أتُراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل! وليس بيني وبينه إلا هذه السُّتْرة[6]!

(١) النكت: قرعك الأرض بعود أو بإصبع، وهو فعل المفكر المهموم.

(٢) العقد: ٤ ـ ٤٤٧، (طبعة لجنة التأليف).

(٣) هشام بن عبد الملك من ملوك الدولة الأموية، ولد في دمشق وبويع له فيها وتوفي سنة ١٣٥.

(٤) الحرسي: واحد حرس السلطان. (٥) الجراية: الوكالة.

(٦) السترة: ما يستر به.

قال: لا، ولكنه لا يثبت الحقُّ لك، ولا عليك، إلا ببيّنة.

فقام الحَرَسِي فدخل إلى هشام فأخبره؛ فلم نلبث أن قَعْقَعت الأبواب، وخرج الحرسيّ، فقال: هذا أمير المؤمنين!

فقام القاضي فأشار إليه هشام فقعد، وبسط له مُصَلى، فقعد عليه هو وإبراهيم، وكنا حيثُ نسمع بعض كلامهما، ويخفى علينا بعضُه!

فتكلما، وأحضرا البينة، فقضى القاضي على هشام؛ فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق[1]؛ فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظُلْمَك!

فقال هشام: لقد هممتُ أن أضرب عنقك ضربةً ينتثر منها لَحْمُك عن عَظْمك. قال: أما والله لئن فعلتَ لفعلَته بشيخ كبير السن، قريب القرابة، واجب الحق!

فقال هشام: اسْتَرها عليّ يا إبراهيم! قال: لا ستَر الله عليَّ ذنبي يوم القيامة إن سترتُها!

قال: فإني مُعْطِيك عليها مائة ألف! قال إبراهيم: فسترتها عليه طولَ حياتِه.

العَهد لعمَر بن عَبد العزيز[2]

كان لسليمانَ بن عبد الملك ابنٌ يقال له أيوب بن سليمان، فعقَد له ولايةَ العهدِ من بعده؛ ثم إن أيوبَ تُوُفّي قبل سليمان، ولم يبقَ لسليمان إلا ولدٌ صغير.

فلما حضرته الوفاةُ أراد أن يستخلفَ، فحضره عمرُ بنُ عبد العزيز ورجاء بن حَيْوة، فقال لرجاء: اعرض عليّ ولدي في القُمُص والأَرْدِية، فعرضهم عليه، فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القُمُص والأردية، يسحبونها سحبًا. فنظر إليهم وقال: يا رجاء؛

إن بَنِيّ صِبْيَةٌ صِغَارُ ... أَفْلَحَ مَنْ كان له كِبارُ

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أميرَ المؤمنين؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ[3] ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥]».

---

(١) الخرق: الحمق.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٢٩.

(٣) تزكى: تطهر من الشرك والمعاصي.

ثم قال: يا رجاء، اعرض عليّ بَنيّ في السيوف، فقلَّدُوهم السيوف، ثم عرضهم عليه، فإذا هم صِغار لا يحملونها، يجرُّونها جرًّا؛ فنظر إليهم وقال:

إن بَنِيّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونْ أَفْلح مَنْ كانَ لَهُ رِبْعِيُّونْ[١]

فقال له عمر بن عبد العزيز: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥].

فلما لم يَرَ في ولده ما يريدُ حدَّثَ نفسه بولايةِ عمر بن عبد العزيز[٢]؛ لِمَا كان يعرف من حَاله؛ فشاور رَجَاء فيمن يعْقِد له، فأشار عليه بعمر، وسدّد له رأيه فيه، فوافق ذلك سليمان، وقال: لأعقدنَّ عقدًا لا يكون للشيطان فيه نَصيب.

فلما اشتدَّ به وجَعُه عَهِد عَهدًا لم يُطْلِعْ عليه أحدًا إلا رجاء بن حَيْوَةَ الكِنْديّ، استخلف فيه عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر.

فدخل سعيدُ بن خالد مع عُمَر بن عبد العزيز وبعضِ أهل بيته يعودون سليمان؛ فرأَوْا به الموت، فمشى عمر وسعيد بن خالد ورجاء بن حَيْوَة، ثم تخلّف عمر كأنه يعالج نَعْلَيْه، حتى أدركه رَجَاء، فقال له: يا رجاء، إني أرى أمير المؤمنين في الموت، ولا أحسبه إلا سيَعْهَد، وأنا أُناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك إلا صَدَدْتَه عني، وإن لم يذكرني ألّا تذكرني له في شيء من ذلك. فقال رجاء لعمر: لقد ذهب ظَنُّك مذهبًا ما كنتُ أَحْسَبك تذهبه، أتظنُّ بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم! وقد كان سليمان فرَغ من ذلك ولكنه أراد إخفاءَه عن عمر!

فلما احْتُضِر[٣] سليمان، واشتدَّ ما به أمر بالبيعة لمن كان في كتابه ممن عهد إليه، فبايع الناس ولا يعلمون مَنْ في كتابه.

ثم قضى الله على سليمان بالموت، فلما مات كتم موتَه رجاء بن حَيْوَة، ثم خرج إلى الناس فقال: إن أمير المؤمنين يأمُركم بتجديد البيعةِ لمن كان عهدَ إليه،

---

(١) يقال: أضاف الرجل، إذا ولد له على كبر سنه وولده صيفيون. وأربع الرجل: إذا ولد له في فناء سنه، وولده ربعيون.

(٢) هو الخليفة الصالح العادل، ولد بالمدينة ونشأ بها، وبويع له بالخلافة سنة ٩٩ هـ وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة توفي سنة ١٠١ هـ.

(٣) احتضر: حضره الموت.

وقد أصبح بحمد الله صالحًا. فقالوا: أوصِلْنا إلى أمير المؤمنين لننظرَ إليه، ونُنَفِّذَ أمره؛ فدخل وأمر به فأسند بالوسائد وأقام عنده خادمًا، وأمر بالناس فأُدخلوا عليه، فيقفون عند الباب فيسلّمون من بعيد، وهم يَرَوْن شخصه، فيردّ الخادم عنه ردّ المريض وهم ينظرون إليه.

ثم قال: يأمرُكم أميرُ المؤمنين أن تُبَايعوا لمن عهد إليه، وتسمعوا له وتُطِيعوا، فخرجوا إلى المسجد والناسُ مجتمعون: وجوهُ بني مَرْوَان وبني أمية، وأشرافُ الناس، فبايعوا، حتى إذا رضى رَجَاء من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر؛ فخرج يلتمسهُ في المسجد حتى رآه قاصيًا، فوقف عليه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته! قُمْ إلى المنبر، فقال: أنشدك الله يا رَجَاء، فقال رجاء: أناشدك الله أن يضطربَ بالناس حَبْل، فقد لقي سليمانُ رَبّه، وقضى الله عليه بالموت.

فقام عمر حتى جلس على المنبر، فنعى للناس سليمان، وفتح الكتاب، فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر.

فلما قَرَأَ ذِكْرَ عمر جَثَا هشام بن عبد الملك على ركبتيه وقال: هاه[1]! فَسَلَّ رجلٌ من أهل الشام سَيْفَه، وقال: تقول لأمرٍ قد قَضَاه أمير المؤمنين هاه؟ فلما قرأ: «ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر» قال هشام: سمعنا وأَطَعْنا. فسمع الناس وأطاعوا، وقاموا فبايعوا لعُمَر.

عُمَر بن عَبد العَزيز يَحمل النّاس عَلى الحَق[2]

لما دُفِنَ سليمان، وقام عمر بن عبد العزيز قرِّبَتْ إليه المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تُرْكَب قط يركبُها الخليفة أولَ ما يلي. فتركها وخرج يلتمسُ بَغْلَتَه، وقال: يا مُزاحِم؛ ضُمّ هذه إلى بيتِ مالِ المسلمين.

ونُصِبت له سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحدٌ قط، كانت تُضرب للخليفة أولَ ما يلي، فقال: ما هذه؟ فقالوا: سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفةُ أولَ ما يَلِي. قال: يا مُزاحم، ضُمَّ هذه إلى أموال المسلمين.

---

(١) هاه: وعيد.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٣٥.

ثم ركب بَغْلته، وانصرف إلى الفُرُش والوطَاء[١] الذي لم يجلس عليه أحد قط والذي يفرش للخليفة أول ما يكون، فجعل يَدْفَعُ ذلك برجله حتى يُفْضي إلى الحصير. ثم قال: يا مزاحم، ضُمّ هذا لِأَمْوَال المسلمين.

وبات عِيالُ سليمان يُفْرِغُون الأدهان والطيب، من هذه القارورة إلى تلك القارورة، ويلبسون ما لم يُلْبَس من الثياب حتى تتكسَّر - وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب، أو مسّ من الطيب كان لولده، وما لم يُلْبَس من الثياب وما لم يُمَس من الطيب فهو للخليفة بعده.

فلما أصبح عمر قال له أهلُ سليمان: هذا لك وهذا لنا. قال: وما هذا؟ وما هذا؟ قالوا: هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومسَّ من الطِّيب وهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده، وهو لك.

قال عمر: ما هذا لي، ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحمُ؛ ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين.

فتآمر الوزراءُ فيما بينهم، فقالوا: أما المراكبُ والسرادقات والحُجَر والشُّوَار[٢] والوِطَاء فليس فيه رَجَاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتُم، وبقيت خَصلة وهي الجواري، نعرِضهن فعسى أن يكون ما تريدون فيهن؛ فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده. فأُتي بالجواري فعُرِضْن عليه كأمثال الدُّمَى؛ فلما نظر إليهم جعل يسألهن واحدةً واحدةً: مَنْ أنتِ؟ ولمَن كنت؟ ومَن بعثَ بك؟ فتخبره الجاريةُ بأصلها، ولمَن كانت، وكيف أُخذت، فيأمر بردِّهن إلى أهلهن ويُحمَلْن إلى بلادهن، حتى فرغ منهن. فلما رأوا ذلك أيِسوا منه، وعلموا أنه سيحملُ الناسَ على الحق.

واحتجب عَنِ الناس ثلاثًا، لا يدخلُ عليه أحد، ووجوهُ بني مَرْوان وبني أمية، وأشرافُ الجنود والعرب، والقوادُ ببابه، ينظرون ما يخرجُ عليهم به. فجلس للناس بعد ثلاث، وحملهم على شريعةٍ من الحق فعرفوها؛ فردَّ المظالم، وأحيا الكتاب والسُّنَّة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا، وزهد فيها، وتجرّد لإحياء أمر الله عزّ وجلّ، فلم يزل على ذلك حتى قُبِض[٣].

(١) الوطاء: ضد الغطاء. (٢) الشوار: اللباس والزينة ومتاع البيت.
(٣) مات.

لَا تَلُومُوا إلّا أنفسكُم(١)

اجتمعتْ بنو أمية، فكلّموا رجلًا أن يكلّم عمر بن عبد العزيز في صلةِ أرحامِهم والعطفِ عليهم، وكان قد أمرَ لهم بعشرة آلاف دينار فلم تَقَعْ منهم.

فدخل عليه الرجلُ، فكلّمَه وأعْلَمه بمقالتهم، فقال: أجل! والله لقد قسمتُها فيهم، وقد ندِمتُ عليها ألّا أكون مَنَعْتُهم إياها، وقسمتُها فكانت تكفِي أربعة آلاف بيت من المسلمين.

فخرج إليهم الرجلُ وأعلمهم بمقالته، وقال: لا تلوموا إلّا أنفسكم يا معشر بني أمية؛ عَمَدتم إلى صاحبكم فزوّجتموه بنت ابن عُمَر(٢)، فجاءتكم بعمرَ ملفوفًا في ثيابه، فلا تلوموا إلا أنفسكم.

ذَكَّرتني الطَّعْن وكنتُ نَاسيًا(٣)

لما وَلِيَ عمرُ بن عبد العزيز الخلافة ردَّ المظالمَ والقطائع. وكان سليمانُ بن عبد الملك قد أمر لعَنْبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار، فدارتْ في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم، فلم يبقَ إلا قَبْضُها، فتُوُفِّيَ سليمان قبل أن يقبضَها.

وكان عنبسة صديقًا لعمرَ بن عبد العزيز؛ فغدا يرِيدُ كلامَ عمر فيما أمر له به سليمان؛ فوجد بني أميةَ حضورًا بباب عمر، يريدون الإذْنَ عليه ليكلّموه في أمورهم، فلما رأوا عَنْبَسَة قالوا: ننظر ما يصنعُ به قبل أن نكلّمَه، وقالوا له: أَعْلِمِ أميرَ المؤمنين مكانَنَا، وأَعلمنا ما يَصْنَعُ بك في أمورك.

فدخل عَنْبَسة على عمر، فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ إن أميرَ المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار، حتى انتهت إلى ديوان الختم، ولم يبقَ إلا قَبْضها، فَتُوفِّيَ على ذلك، وأميرُ المؤمنين أولى باسْتتمام الصنيعة عندي، وما بيني وبينه أعظمُ مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان.

قال له عمر: كم ذلك؟ قال: عشرون ألف دينار. قال عمر: عشرون ألف دينار تُغْني أربعةَ آلاف بيتٍ من المسلمين وأدفعها إلى رجل واحد! والله ما لي إلى ذلك من سبيل.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٥٠.
(٢) عمر بن الخطاب.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٥٨.

قال عَنْبَسة: فرمَيْتُ بالكتاب الذي فيه الصَّك. فقال لي عمر: لا عليك أن يكونَ معك، فلعله أن يأتيَك مَنْ هو أَجْرأ على هذا المال مني فيأمرَ لك بها.

قال عَنبسة: فأخذته تبرُّكًا برأيه. وقلت له: يا أمير المؤمنين؛ فما بال جَبَل الورس؟ ـ وكان جبل الورس قطيعةً لعمر بن عبد العزيز ـ فقال عمر: ذكَّرْتَنِي الطَّعنَ وكنت ناسيًا! يا غلام: هاتِ ذلك القَفَص، فأُتي بقفص من جريد فيه قَطائع بني عبد العزيز، فقال: يا غلام؛ اقرأ عليّ، فكلما قرأ قطيعة قال: شُقّها، حتى لم يبقَ في القفص شيءٌ إلّا شقّه.

قال عَنْبَسة: فخرجتُ إلي بني أُميّة، وهم قوقفٌ بالبابِ، فأعلمتُهم ما كان من ذلك، فقالوا: ليس بعد هذا شيء، ارجع إليه فاسْأَله أن يأذنَ لنا أن نلحق بالبُلْدَان.

فرجعت إليه فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ إن قومك بالباب يسأَلونك أن تُجْري عليهم ما كان مَنْ قَبْلَك يُجرِي عليهم، فقال عمر: والله ما هذا المال لي، وما إلى ذلك من سبيل. قلت: يا أميرَ المؤمنين؛ فيسأَلونك أن تَأْذنَ لهم يضربون في البُلْدَان.

قال: ما شاءوا، ذلك لهم، وقد أذنت لهم. قلت: وأنا أيضًا؟ قال: وأنت أيضًا قد أَذِنتُ لك، ولكني أرى لك أن تقيمَ فإنك رجلٌ كثير النَّقْد، وأنا أبيعُ تركةَ سليمان، فعلّك أن تشتريَ منها ما يكون لك في ربحه عِوَضٌ مما فاتك.

فأقمت تبرّكًا برأيه، فابتعت من تركةِ سليما بمائة ألف، فخرجتُ بها إلى العراق فبعتُها بمائتي ألف وحبست الصكّ.

فلما تُوفّيَ عمر وولّي يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لي ما كان فيه.

الوَلَدُ سِرُّ أبيه(١)

كان بيدِ عُمَر بن عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعَتُه المعروفة بالسَّهلة، وكانت باليمامة. وكانت بها غَلّةٌ عظيمة كثيرة، عَيْشُه وعيشُ أهله منها.

(١) ابن أبي الحديد: ٤ ـ ١٤٧.

فلما وَلِيَ الخلافة قال لِمُزَاحم مولاه: إني عزمتُ أن أردَّ السَّهلة إلى بيتِ مال المسلمين. فقال مُزاحم: أتدري كم وَلَدُك؛ إنهم كذا وكذا!

فذَرَفتْ عيناه، فجعل يمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: أَكِلُهم إلى الله، أَكِلُهم إلى الله.

فمضى مُزَاحم، فدخل على عبد الملك ابنه، فقال له: ألا تَعْلَمُ ما قد عزم عليه أبوك، إنه يريدُ أن يردَّ السَّهْلَة. قال: فما قلتَ له؟ قال: ذكرتُ له ولدَه؛ فجعل يَسْتَذْمع ويمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: أَكِلُهم إلى الله.

فقال عبد الملك: بئسَ وزيرُ الدين أنت! ثم وثَبَ وانطلق إلى أبيه، فقال للآذن: استأذن لي عليه. فقال: إنه قد وضع رأسه الساعةَ للقائلة[1]. فقال: استأذنْ لي عليه. فقال: أما ترحمونَه؟ ليس له من الليل والنهار إلا هذه الساعة. قال: استأذِنْ لي عليه، لَا أُم لك!

فسمع عمر كلامهما، فقال: ائذن لعبد الملك، فدخل فقال: عَلَامَ عزمتَ؟ قال: أَرَدّ السهلة! قال: فلا تؤخّرْ ذلك. قم الآن، فجعل عمر يرفعُ يديه، ويقول: الحمد لله الذي جعل لي من ذرّيتي من يُعينني على أمر ديني. نعم، يا بنيّ؛ أصلّي الظهر، ثم أصعد المنبر، فأردّ! السَّهْلة علانية على رؤوس الناس.

قال: ومَن لك أن تعيشَ إلى الظهر، ثم مَن لك أن تَسْلَمَ نِيَّتُك إلى الظهر إن عشتَ!

فقام عمر، فصعد المنبر وخطب الناس، وردَّ السَّهْلَة.

أَوَارث أنتَ بَني أمَيّة[2]

قال أحمد بن موسى: ما رأيت رجلًا أَثْبَتَ جنانًا من رجل رُفع فيه عندَ المنصور[3]، وقالوا: إنَّ عنده ودائعَ وأموالًا وسلاحًا لبني أمية. فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره، فأُحْضِر بين يديه.

(١) القائلة: نصف النهار، والنوم في الظهيرة. (٢) المختار من نوادر الأخبار.

(٣) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد، ثاني خلفاء بني العباس وأعظمهم شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا توفي سنة ١٥٨ هـ.

فقال له المنصور: قد رُفِع إلينا أنَّ عندك ودائع وأموالًا وسلاحًا لبني أمية، فأَخْرِجْ لنا ما عندك، واحمل جميعَ ذلك إلى بيت المال. فقال الرجل: يا أميرَ المؤمنين؛ أنت وارثُ بني أميَّة؟ قال: لا. قال: فوصِيٌّ أنت؟ قال: لا. قال: فلِمَ تسألُ عن ذلك؛ فأَطْرَقَ المنصور ساعة وقال: إنَّ بني أميَّة ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين، وأنا آخُذها فأردها إلى بيت المال للمسلمين. قال الرجل: يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إقامةِ بيّنةٍ يقبلها الحاكم على أنَّ المال الذي لبني أمية هو الذي في يديّ، وأنه هو الذي اغتصبوه من الناس؛ وأميرُ المؤمنين يعلمُ أن بني أمية كانت معهم أموالٌ لأنفسهم غيرُ الأموال التي اغتصبوها على ما يزعمُ أمير المؤمنين.

فسكت المنصورُ ساعة ثم قال: يا ربيع؛ صدق الرجل ما يجب لنا عليه شيء، ثم قال للرجل: ألك حاجة؟ قال: نعم. قال: ما هي؟ قال: أن تجمعَ بيني وبين مَنْ سعى بي إليك؛ فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أميَّةَ عندي ودائع ولا مالٌ ولا سلاح؛ ولما حضرتُ بين يدي أمير المؤمنين، وعلمتُ ما هو عليه من العدل والإنصاف، واتباع الحق، واجتناب الباطِل، أيقنتُ أن هذا الكلام الذي صدر مني هو أَنْجَحُ وأصلحُ لما سألني عنه وأقربُ إلى الخلاص.

فقال المنصور للربيع: اجمعْ بينه وبين الرجل الذي اتهمه. ولما جيء بالرجل عرفه، وقال: هذا غلامي أخذ لي خمسمائة دينار وهرب، ولي عليه كتاب بها، ثمَّ استنطق المنصور الغلام، فأقرّ أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكره مولاه، وأَبَقَ[1] به، وسعى بمولاه ليجريَ عليه أمرُ الله، ويَسْلَم هو من الوقوع في يده. فقال: يا أمير المؤمنين؛ فقد وهبتها له لأجلك؛ وأدفعُ له خمسمائة دينار أخرى لحضوره مجلس أمير المؤمنين.

فاستحسن المنصور فِعْلَه، وكان في كل وقت يقول: يا ربيع؛ ما رأيتُ مَنْ حاجَّني مثله.

(١) أبق العبد: استخفى وذهب.

حذَر عِيسَى بن مُوسى(١)

لما خرج أبو جعفر المنصور يريدُ الحجَّ بالناس، قال لعيسى بن موسى(٢): أنت تعلم أن الخلافةَ صائرةٌ إليك، وأريد أن أسلِّم لك عمي وعمَّك عبدَ الله بن عليّ؛ فخذْه واقْتُلْه: وإياك أن تجبنَ في أمره.

ثم مضى المنصورُ إلى الحج، وكتب إليه من الطريق يستحثُّه على ذلك، فكتب إليه: قد أنفَذْتُ أمرَ أمير المؤمنين! فلم يشكّ أبو جعفر أنه قَتَلَه.

ودعا عيسى بنُ موسى كاتبَه يونس؛ فقال له: إن المنصورَ دفع إليّ عمه، وأمرني بقتله. فقال له: إنه يريدُ أن يقتلَك به؛ فقد أمرك بذلك سرًّا، ويدّعي عليك به علانِيَة. والرأيُ أن تستره في منزلك، ولا تُطْلِع عليه أحدًا؛ فإن طلبه منك علانِيَة، دفَعته إليه، ولا تدفعه إليه سرًّا أبدًا! ففعل ذلك.

وقدم المنصور؛ فدسَّ على عمومته مَنْ يحركهم أن يسألوه أن يهبَ لهم أخاهم عبد الله؛ ففعلوا ذلك، واستشفعوا له. فقال: نعم، عليّ بعيسى بن موسى، فأتاه.

فقال: يا عيسى؛ كنتُ قد دفعتُ إليك عمي وعمّك عبد الله قبل خروجي إلى الحج، وأمرتُك أن يكونَ في منزلك مكرّمًا! قال: قد فعلتُ ذلك. قال: قد كَلَّمني فيه عمومتك؛ فرأيتُ الصفح عَنه، فأْتني به.

قال: يا أمير المؤمنين؛ ألم تأمرْني بقَتْلِه قال: لا، بل أمرتُك بحبْسِه عندك.

ثم قال المنصور لعُمُومته: إن هذا قد أقرّ لكم بقَتْل أخيكم، وادّعى أني أمرتُه بذلك! وقد كذبَ! قالوا: دعْه لنا نقتله. قال: شأنكم.

فأخرجوه إلى صَحْن الدار، واجتمع الناس، واشتهر الأمر؛ فقام أحدُهم، وشَهَر(٣) سيفه، وتقدم إلى عيسى ليضربَه؛ فقال عيسى: لا تعجلوا؛ فإن عمّي حيّ، ردّوني إلى أميرِ المؤمنين، فردّوه إليه، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنما أردتَ

(١) المستطرف: ١ ـ ٦٥.
(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد ونشأ بالحميمة من أرض الشام، وكان من فحول أهله وشجعانهم وذوي النجدة والبأس فيهم.
(٣) شهر سيفه: انتضاه فرفعه.

بقَتْله قتلي، هذا عمُّك حيّ، إن أمرتَني بدفعِهِ إليهم دفعتُه. قال: ائتنا به، فأَتَى به، فجعله في بيت، فسقط عليه، فمات.

وركب المنصور بعد موته، وفي خدمته ابنٌ لعمه، وكان يحادثُه، فقال له: هل تعرفُ ثلاثة في أول أسمائهم عين قُتِلوا؟ قال: لا أعرف إلا ما تقولُ العامة يا أمير المؤمنين: إن عليًا قتل عثمان، وكذبوا والله، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير، وسقط البيتُ على عمّ أمير المؤمنين.

فضحك المنصور، وقال: إذا سقط البيتُ على عمي، فما ذَنْبي؟ قلت: ما قلت لك ذَنْبٌ يا أمير المؤمنين!

يَقَظَة المنصُور(١)

قال عُقْبَة الأزدي: دخلتُ مع الجند على المنصور، فارتابني(٢)، فلما خرج الجُنْدُ أَدْنَاني، وقال لي: مَن أنت؟ فقلت: رجلٌ من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين، قدمت الآن مع عمرو بن حَفْص.

فقال: إني لأرَى لك هيبةً، وفيك نَجَابةً، وإني أريدُك لأمر، وأنا به مَعْنِيٌّ، فإن كفَيْتَنيه رَفَعْتُك. فقلت: إني لأرجو أن أصدقَ ظنّ أمير المؤمنين فيّ. فقال: أَخْفِ نفسك، واحْضر في يوم كذا.

فغِبتُ عنه إلى ذلك اليوم وحضرتُ، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لي: اعلم أن بني عمّنا هؤلاء قد أبَوا إلا كيدَ ملكنا واغتيالَه، ولهم شِيعةٌ بخُرَسان بقرية كذا، يكاتبونهم ويرسلون إليهم الصدقات أموالهم وأَلْطَاف(٣) بلادهم، فخذ معك عَيْنًا(٤) من عندي، وألطافًا وكتبًا، واذهب حتى تأتي عبدَ الله بن الحسن، فاقْدَم عليه متخشعًا، واذكر له أن الكتبَ على أَلسنةِ أهلِ تلك القرية، والألطافَ من عندهم إليه. فإذا رآك فإنه سيردُّك ويقول: لا أعرفُ هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده، واكْشِف باطنَ أمره.

فأخذتُ كتبَه والعينَ والألطاف، وتوجّهتُ إلى جهة الحجاز، حتى قَدِمتُ على عبد الله بن الحسن، فلقيتُه بالكتُب، فأنْكَرَها ونَهرَني، وقال: ما أعرفُ هؤلاء

---

(١) المستطرف: ٢ ـ ٩٤.

(٢) ارتبت فلانًا: اتهمته.

(٣) اللطفة: الهدية.

(٤) العين: المال، وما ضرب من الدنانير.

القوم. فلم أنصرفْ، وعاودتُه القول، وذكرتُ له اسمَ القرية وأسماءَ أولئك القوم، وأن معي ألطافًا وعَيْنًا.

فأَنِس بي، وأخذ الكُتُب، وما كان معي، فتركتُه ذلك اليوم، ثم سألتُه الجواب، فقال: أما كتابٌ فلا أكتب إلى أحدٍ، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرئهم السلام، وأخبرهم أن ابنيّ: محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقتَ كذا وكذا.

فخرجت من عنده؛ وسرتُ حتى قدِمتُ على المنصور، فأَخبرتُه بذلك، فقال لي: إني أريدُ الحجِ، فإذا صرتُ بمكان كذا وكذا، وتلقّاني بنو الحسن، وفيهم عبد الله، فإني أعظِّمه وأكرمُه، وأرفعُه وأُحْضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرتُ إليه، فامثُلْ بين يديّ، وقِفْ قدَّامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدُرْ حتى تقفَ من ورائه، واغمز ظهره بإبهامك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرفْ عنه، وإياك أن يراكَ وهو يأكل.

ثم خرج المنصور يريدُ الحج، حتى إذا قارب البلاد، تلقّاه بنو الحسن، فأجلس عبدَ الله إلى جانبِه، فحادثَه ثم طلب الطعام للغَدَاء، فأكلوا منه، فلما فرغوا أمر برفْعهِ فرُفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن، وقال: يا أبا محمد، قد علمتَ أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدُني بسوء، ولا تكيدُ لي سلطانًا.

قال: فأنا على ذلك يا أميرَ المؤمنين.

ثم لَحظنِي المنصور بعَيْنه فقمتُ حتى وقفتُ بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرضَ عني، فدُرْت من خلفه، وغمزت ظَهْره بإبهامي، فرفع رأسه، وملأ عينيه مني، ثم وثَب حتى جَثا بين يدي المنصور، وقال: أقِلني يا أميرَ المؤمنين أقَالَكَ الله! فقال المنصور: لا أقالَني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه، وجعل يتطلَّب ولديه محمدًا وإبراهيم، ويستعلم أخبارهما.

المنصُور فِي سَاحَةِ القضَاء(١)

قال نمَيْر المدنيّ: قَدِم علينا أميرُ المؤمنين المنصورُ المدينة، ومحمد بن عمران الطلحيّ يتولّى القضاءَ بها وأنا كاتبه، فحضر جماعةٌ من الجَمَّالَة(٢)،

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٠.
(٢) الجمالة أصحاب الجمال.

واستعدَوْه على أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكَرُوه، فأمرني أن أكْتُبَ إلى المنصور بالحضُور معهم أو إنصافِهم. فقلت له: أعفني من ذلك فإنه يعرفُ خَطِّي. فقال: اكتب. فكتبتُ وختمتُ. فقال: والله ما يَمْضِي به غيرُك، فمضيتُ به إلى الربيع حاجبِه، وجعلتُ أعتذرُ إليه، فقال: لا بأسَ عليك! ودخل بالكتاب على المنصور.

ثم خرج الرَّبيع، فقال للناس ـ وقد حضر وجوهُ أهل المدينة والأشرافُ وغيرهم: إنَّ أميرَ المؤمنين يقرأُ عليكم السلام ويقول لكم: إني دُعِيتُ إلى مجلس الحكم، فلا أَحد منكم يقوم إذا خرجت، ولا تبدءُوني بالسلام.

ثم خرج وبين يديه المسيَّب[1] والربيع وأنا خَلْفه، وهو في إزار ورِدَاء، فسلَّم على الناس، فما قام إليه أحد، ثم مضى حتى بدأ بقبر النبيّ ﷺ، فسلَّم عليه، ثم التفتَ، فلما رآه ابن عمران القاضي أَطلق رداءه عن عاتقه، ثم اختَبى به، ودعا بالخصوم وهم الجمَّالة، ثم دعا بالمنصور، فادّعى عليه القوم، وقضى لهم عليه، ثم انصرف.

فلما دخل المنصور الدارَ قال للربيع: اذهب، فإذا قام القاضي من مَجْلِسه فاذْعه. فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه، فردّ عليه السلام. وقال له: جزاك الله عن دينك وعن نبيِّك وعن حسَبِك، وعن خليفتك، أحسنَ الجزاء، قد أمرتُ لك بعشرة آلاف، صِلةً لك فاقبضها.

فكانت عامَّةُ أموال محمد بن عمران من تلك الصلة.

نَبنِي كمَا كَانَت أَوَائِلنا تبنِي[2]

كان المنصور معجَبًا بمحادثة محمد بن جعفر، ولعظم قَدْره يفزَع الناسُ إليه في الشفاعات، فثقُل ذلك على المنصور، فحجبه مدَّة، ثم لم يصْبر عنه، فأمر الربيعَ حاجبه أن يكلِّمَه في ذلك، فكلمه وقال: أَعْفِ أميرَ المؤمنين، ولا تُثْقِل عليه في الشفاعات، فقبل ذلك منه.

(١) هو المسيب بن زهير، كان على شرط المنصور والمهدي ببغداد وولاه المهدي خراسان، ولم تطل فيها مدته، وتوفي ببغداد سنة ١٧٥ هـ.
(٢) المجاني: ٣ ـ ١٩٥.

فلما توجَّه إلى الباب اعترضه قومٌ من قريش، معهم رِقَاع[1]، فسألوه إيصالها إلى المنصور، فقصَّ عليهم القصةَ، فأبَوْا إلا أن يأخذَها، فقال: اقذفوها في كُمّي.

ثم دخَل عليه، وهو مشرفٌ على مدينة السَّلَام، وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله، فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك، وهنّأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك! فما بَنَتِ العربُ في دولة الإسلام، ولا العَجَمُ في سالفِ الأيام أَحْصَنَ ولا أحسنَ من مدينتك، ولكن كرَّهَتْها في عيني خَصْلَةٌ! قال: وما هي؟ قال: ليس لي ضَيْعَة، فتبسَّم، وقال: قد حسَّنْتُها في عينك بثلاث ضياع قد أَقْطَعْتُكَها! فقال: لله دَرُّك يا أمير المؤمنين! إنك شريف الموارد، كريم المصادر؛ جعل الله تعالى باقيَ عمرك أكثرَ من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك.

فلما نهض ليقومَ بدتِ الرِّقَاع من كُمِّه، فجعل يردّها ويقول: ارجَعْنَ خائبات خاسرات.

فضحك المنصور، وقال: بحقّي عليك إلّا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرِّقاع؛ فأعلمه، فقال: ما أتيتَ يا ابن مُعَلِّم الخير إلا كريمًا، وتمثَّل بقول عبد الله بن معاوية:

لسنا وإن أحسابُنا كرُمت ... يومًا على الأحساب نتّكل
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم تصفَّح الرقاع، وقضى حوائجَ أصحابها جميعًا.

هَمَداني بَينَ يَديّ المنصُور[2]

بينما كان المنصورُ جالسًا في مجلسه المبنيِّ على أعالي باب[3] خُراسان، من مدينته التي بناها، وأضافها إلى اسمه، مُشْرِفًا على دِجْلَة جاءه سَهْمٌ

(١) الرقاع: جمع رقعة: ما يكتب فيها. (٢) المسعودي: ٢ ـ ٢٣٢.

(٣) كان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة في الأعلى من طاقه المعقود مجلسًا يشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه، وكانت أربعة أبواب: فأولها باب خراسان أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان، ثم باب الشام، وهو تلقاء الشام، ثم باب الكوفة، وهو تلقاء الكوفة، ثم باب البصرة وهو تلقاء البصرة.

عَائِر[١] سقط بين يديه، فذُعِرَ منه ذُعْرًا شديدًا، ثم أخذه فجعل يقلّبه؛ فإذا مكتوب عليه بين الرِّيشتين:

أَتطْمَعُ في الحياةِ إلى التَّنادي[٢] ... وتحسَبُ أنّ مالك مِنْ نَفَاد
سَتُسْأَل عن ذنوبك والْخَطَايا ... وتُسْأَل بعد ذَاكَ عن العِبَاد

ثم قرأ عنْدَ الرِّيشة الأولى:

أحسنْتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ اللَّيالي فاغْتَرَرْتَ بها ... وعند صَفْوِ الليالي يَحْدُث الكَدَرُ

ثم قرأ عند الرِّيشَة الأخرى:

هي المقادِيرُ تَجْري في أَعِنَّتها ... فاصْبر فليس لها صَبرٌ على حَالِ
يومًا تُريك خَسِيسَ القومِ ترفعُه ... إلى السماء ويومًا تخفضُ العالي

وإذا على جانب السهم مكتوب: «هَمَذَان منها رجل مظلوم في حَبْسك»!

فبعث من فوره بعدَّةٍ من خاصَّته، ففتَّشوا الحُبُوسَ[٣]؛ فوجدوا شيخًا في بَنِيّة من الحبس، مُوثَقًا بالحديد، متوجِّهًا نحو القبلة، يردّدُ قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧]؛ فسألوه عن بلده، فقال: هَمَذَان.

فَحُمِلَ ووُضع بين يدي المنصور فَسأَلَهُ عن حاله، فأخبره أنه رجلٌ من أبناء مدينة هَمَذان، ومن أرباب نِعَمِها، ثم قال له: إن وَالِيَك علينا دخل بلدنا، ولي ضيعةٌ تساوي ألف ألف، فأراد أَخْذَها مني، فامتنعتُ، فكبَّلني بالحديد، وحملني وكتب إليك: إني عاصٍ؛ فطُرِحْت في هذا المكان.

فقال: مُنْذُ كم؟ قال: منذ أربعة أعوام. فأمَر بِفَكِّ الحديد عنه، والإحسان إليه، وأَنْزَله أحسنَ منزل.

ثم رُدَّ إليه، وقال له: يا شيخ؛ قد رَدَدْنا عليك ضَيْعَتَكَ بخَرَاجها ما عشتَ وعِشْنَا، وأما مدينتُك هَمَذَان، فقد ولَّيناك عليها، وأما الوالي فقد حكمناك فيه،

(١) السهم العائر: الذي لا يدري مَن رماه. (٢) يوم التنادي: يوم القيامة.
(٣) الحبوس: جمع حبس.

وجعلنا أمره إليك؛ فجزاه خيرًا ودعا له بالبقاء، وقال: يا أمير المؤمنين؛ أما الضَّيْعَةُ فقد قَبِلْتُها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما واليك فقد عَفَوْتُ عنه.

فأمر له المنصورُ بمالٍ جزيل، وبرٍّ واسع، وحمله إلى بلده مكرّمًا، بعد أن صرفَ الوالي وعاقَبَه على ما جنى من انحرافه عن سُنَّةِ العدل والحق، وسأَل الشيخَ مكاتبتَه في أخبار بلده، وإعلامه بما يكون من وُلاته، ثم أنشأَ الحضور يقول:

من يصحب الدهرَ لا يأمن تَصَرُّفَه ... يومًا، وللدهر إحْلَاءٌ وإمرار
لكل شيء، وإن دامت سلامته ... إذا انتهى فله لا بدَّ إقصار

أميرٌ في مَجْلِس القَضَاء[1]

أتت امرأةٌ يومًا شَرِيكَ[2] بن عبد الله قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا باللهِ ثم بالقاضي! قال: مَنْ ظلمك؟ قالت: الأمير مُوسى بن عيسى عمُّ أمير المؤمنين؛ كان لي بُسْتَان على شاطىء الفرات، فيه نخلٌ ورِثْتُه عن أبي، وقاسمْتُ إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطًا، وجعلتُ فيه رجلًا فارسيًّا يحفظُ النَّخْل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بنُ عيسى مِن جميع إخوتي، وسَاوَمَنِي ورغَّبني، فلم أبِعْه؛ فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام، فاقتلعوا الحائط؛ فأصبحتُ لا أعرف من نَخْلِي شيئًا، واختلط بنَخْلِ إخوتي.

فقال: يا غلام! أحضر طِينَةً[3]، فأحضرها فختمها، وقال: امضِ بها إلى بابه حتى يحضرَ معك؛ فأخذها الحاجب، ودخل على موسى، فقال: قد أعْدى[4] القاضي عليك، وهذا خَتْمُه؛ فقال: ادعُ لي صاحب الشرطة فدعا به، فقال: امضِ إلى شريك، وقل: يا سبحان الله! ما رأيتُ أَعْجَبَ من أمرك! امرأة ادّعت دَعْوى لم تصح أعْدَيتها عليَّ! قال صاحبُ الشرطة: إن رأى الأميرُ أن يُعفيني من ذلك! فقال: امضِ، وَيْلَك! فخرج، وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا لي

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٢.

(٢) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، عالم فقيه، اشتهر بقوة ذكائه، وسرعة بديهته، ولي قضاء الكوفة سنة ١٥٣ هـ، وكان مثالًا للعدل والنزاهة في قضائه، توفي سنة ١٧٧ هـ.

(٣) الطينة: القطعة من الطين.

(٤) أعدى عليه: أعان.

إلى حَبْس القاضي بِسَاطًا وفراشًا، وما تدعُو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شَرِيك، فلما وقف بين يديه أدّى إليه ما قاله موسى؛ فقال لغلام المجلس: خذ بيده فضَعْه في الحبس. فقال صاحب الشرطة: والله قد علمتُ أنك تحبسني، فقدمتُ ما أحتاج إليه في الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر؛ فوجَّه الحاجبَ إليه، وقال له: رسولٌ أدّى رسالة أيُّ شيء عليه! فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه في الحَبْس، فحُبس.

فلما صلّى الأمير العصر بعث إلى إسحٰق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شَرِيك، وقال لهم: أَبْلِغُوه السلام، وأعلموه أنه استخفَّ بي. وأني لستُ كالعامَّة؛ فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في جمع من الناس، فكلمتموني؟ مَن هٰهنا من فِتْيَان الحي؟ فأجابه جماعة من الفتيان فقال: ليأخذْ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فِتنةٌ وجزاؤكم الحبس. قالوا له: أجادٌّ أنت؟ قال: نعمْ، حتى لا تعودوا لرسالةِ ظالم. فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليلة إلى باب السجن، وفتح الباب، وأخرجهم كلهم، فلمَّا كان من الغد، وجلس شريك للقضاء جاءه السجّان، فأخبره، فدعا بالقِمْطر[1] فختمه، ووجَّه به إلى منزله، وقال لغلامه: الْحَقْ بثَقَلي[2] إلى بغداد، والله ما طلَبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعْزَازَ إذ تقلدْناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد، وبلغ الخبرُ إلى موسى بن عيسى، فركب في موكبه، فلحقه، وجعل يناشده الله، ويقول: يا أبا عبد الله؛ تثبّت، انظر إخواني، أتحبسهم! قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمرٍ لم يَجُزْ لهم المشي فيه، ولستُ ببارح أو يُردّوا جميعًا، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي، فاستعفيتُه مما قلدَني.

فأمر موسى بردّهم جميعًا إلى الحَبْس، وهو واقفٌ مكانه حتى جاء السجّان، فقال: قد رَجَعُوا جميعًا إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بلِجَام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم، فمرّوا به بين يديه حتى أُدخِلَ المسجد وجلس في مَجْلس القضاء،

---

(١) القمطر: وعاء الكتب.

(٢) الثقل: المتاع.

فجاءت المرأة المتظلمة؛ فقال: هذا خَصْمُكِ قد حضر، فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كلّ أمرٍ أنا قد حضرت، أولئك يخرجون من الحبْس، فقال شَريك: أما الآن فنعم! أَخْرِجوهم من الحبس، فقال: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة؟ قال: صدَقَتْ، قال: تردُّ ما أخذتَ منها، وتنبي حائطها سريعًا كما كان. قال: أفعل ذلك، قال لها: أبَقِيَ لكِ عليه دعوى؟ قالت: لا، وبارك الله عليك، وجزاك خيرًا. قال: قومي، فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأَجْلَسَه في مجلسه؛ وقال: السلام عليك أيها الأمير، أتأمرُ بشيء؟ فقال: بأَيِّ شيء آمر؟ وضحك، فقال له شريك: أيها الأمير، ذاك الفعل حقُّ الشرع، وهذا القول الآن حق الأدب؛ فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه.

قاضٍ يطلب إقالَته مِنَ القضَاء[1]

نُقل أن عاقبةَ بنَ يزيد القاضي كان يَلِي القضاء ببغداد للمهديّ؛ فجاء في بعض الأيام وقتَ الظهر للمهديّ، وهو خال، فاسْتأذَنَ عليه، فلما دخل استأذنه فيمَنْ يُسَلِّمَ إليه القِمَطْر[2] الذي فيه قضايا مجلس الحكم، واستعفاه من القضاء، وطلب منه أن يُقِيلَه من ولايته.

فظن المهدي أن بعضَ الأولياء قد عارضه في حُكْمه، فقال له في ذلك: إنه إن كان قد عارضك أحد نُنْكِر عليه. فقال القاضي: لم يكن شيء من ذلك. قال: فما سبب استعفائك من القضاء؟ قال: يا أمير المؤمنين؛ تقدّم لي خَصْمَان منذُ شهر في قضية مُشْكِلة، وكلٌّ يدّعي بينةً وشهودًا، ويُدْلي بحُجج تحتاج إلى تأمُّل وتلبُّث، فَرَددت الخصوم رجاء أن يَصْطَلِحَوا وأن يظهرَ الفصل بينهما، فسمع أحدُهما أني أحبُّ الرُّطَب، فَعمد - في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب - فجمع رُطبًا لا يتهيّأ الآن جمعُ مِثْلِه لأمير المؤمنين، وما رأيت أحسنَ منه، ورشا بوَّابي بدراهم على أن يُدْخِل الطَّبَق عليّ.

فلما أدخله عليّ أنكرتُ ذلك، وطردت بوَّابي، وأمرتُ بردِّ الطبق، فردَّ عليه.

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٠.
(٢) ما تصان فيه الكتب.

فلما كان اليوم تقدَّم الخصمان إليَّ فما تَساويا في عيني ولا قلبي؛ فهذا يا أمير المؤمنين ولم[1] أقبل، فكيف يكون حالي لو قَبِلت، ولا آمن أن تقعَ عليّ حِيلةٌ في ديني، وقد فسد الناس؛ فأَقِلْني يا أمير المؤمنين، أقالك الله، وأعفني، عفا الله عنك.

أبو دُلَامة وابن أبِي لَيلى القَاضِي[2]

شهد أبو دُلامة لجارةٍ له عند ابن أبي ليلى[3]. القاضي على أتانٍ نازعها فيها رجل، فلما فرغ من الشهادة، قال لابن أبي ليلى: اسْمَعْ ما قلتُ قبل أن آتِيَك، ثم اقْضِ بما شئت. قال: هاتِ، فأنشده:

إنِ الناسُ غَطَّوني تَغَطَّيْتُ عنهُمُ ... وإن بَحَثُوا عني ففيهم مَبَاحِثُ
وإن حَفَروا بئري حفرتُ بِئَارَهُمْ ... لِيُعْلَمَ يومًا كيف تلك النَّبَائِثُ[4]

فأقبل القاضي على المرأة وقال: أتبيعِينَني الأتان؟ قالت: نعم. قال: بكم. قالت: بمائة درهم! قال: ادفعوها إليها، ففعلوا.

وأقبل على الرجل، فقال: قد وهبتُها لك. وقال لأبي دلامة: قد أمضيت شهادتك، ولم أَبْحَثْ عنك، وابتعتُ ممن شهدتَ له، ووهبت مِلكي لمن رأيتُ. أرضيتَ؟ قال: نعم، وانصرف.

صَاحِب شرطَة المهدي مَع الهَادِي[5]

قال عبدُ الله بن مالك: كنت أتولّى الشرطة للخليفة المهدي، وكان يبعث إليّ في نُدماء ولده الهادي أن أضربَهم وأحبَسهم، صيانةً للهادي عنهم، فيبعث إليّ الهادي يسألُني الرفقَ بهم، والتخفيف في أمرهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك، وأَمْضي لما يأمرُ به المهدي. فلما ولي الهادي الخلافة أيقنتُ بالتّلف، فبعث إليّ يومًا، فحضرت ودخلتُ عليه متكفِّنًا مُتَحَنِّطًا، وإذا هو جالسٌ على كرسي والنِّطْعُ والسيفُ بين يديه، فسلّمتُ عليه، فقال: لا سَلَّم الله عليك، تذكر يومًا بعثتُ إليك في أمر

---

(١) معاهد التنصيص: ١ ـ ٢١١، الأغاني: ١٠ ـ ٢٣٨.
(٢) جملة حالية، والمعنى: فهذا ما حصل عندي، مع أني لم أقبل منه الهدية.
(٣) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمٰن قاضي الكوفة.
(٤) النبائث: ما يستخرج من تراب البئر إذا حفرت.
(٥) العقد الفريد للملك السعيد: ١٢٤، عصر المأمون: ١ ـ ١٠٧.

الحرّاني لَمَّا أمر أمير المؤمنين بضرْبه، فلم تُجِبني؟ وفي فلان وفلان ـ وجعل يعدِّدُ ندماءه.

قلتُ: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أفتأذنُ لي أن أتكلم؟ قال: نعم. قلت: أَنشَدْتُك الله! أيسرُّك أنّك ولِّيتني ما ولّاني أبوك وأمرتني بأمر؛ فبعث إليّ بعض ولدك بأمرٍ يخالفُ أمرك فاتّبعتُ أمرَه، وعَصيت أمرك؟ قال: لا. قلت: فكذلك أنا لك، وكذلك كنتُ لأبيك.

فاستَدْنَاني فقبّلتُ يده، فأمر بخَلع أُفيضت عليَّ، وخرجتُ من عنده، وصرتُ إلى منزلي مفكرًا في أمره وأمري، وقلت في نفسي: قد يحدِّث القومَ بالأمر الذي عصيته فيه، وهم ندماؤه ووزراؤه وكتابه، فكأني بهم قد أزالوه عن رأيه فيَّ وحملوه في أمري على ما كنت أتخوفه.

قال: فإني لجالس وبين يديّ خُبْزٌ مَشْطُورٌ بكَامَخ[1]، وأنا أسخِّنُه وأُطْعِمُهُ الصِّبْية، وإذا ضجَّةٌ عظيمة، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتُلِعت وزُلزلت من شدة وَقْعِ حوافر الخيل والدواب، وكَثْرَةِ الضوضاء، فقلت: هاه! والله قد جاء الأمر، وإذا البابُ قد فُتِح، وإذا الخدمُ قد دخلوا، وأميرُ المؤمنين الهادي في وسطهم.

فلما رأيته وثبتُ من مجلسي مبادرًا، فقبَّلْتُ يده ورجلَه. فقال لي: يا عبد الله؛ إني فكرتُ في أمرك بعد انصرافك، فقلت: يَسْبق إلى قلبك أني إذا جلستُ وحولي أعداؤُك الذين أسأتَ إليهم أزالوا ما حَسُنَ من رأيي فيك، فأقلقك ذلك وأَوحشك، ومنعك القَرار، فصرتُ إلى منزلك لأؤانسك، وأعلمك أن الوَحشة قد زالتْ عن قلبي، فهات فأَطْعِمْني مما كنتَ تأكل، وافعلْ فيه ما كنت تفعل، حتى تعلم أن الوَحْشة قد زالت، وقد تحرَّمتُ[2] بطعامك، وأَنِستُ بمنزلك، ليزُولَ خوفُكَ ووحشتك.

فأَدْنَيت منه ذلك الرُّقَاق والسُّكُرُجة[3] التي فيها الكَمَخ، فأكل؛ ثم قال: هاتوا ما أحضرتموه لعبد الله من مجلسي. فأُدْخِلَتْ بغالٌ كثيرة مُوقَرَةٌ[4] دراهم

(١) الكامخ: نوع من الأدم. (٢) تحرم منه بحرمة: تمنع وتحمى.
(٣) إناء صغير يؤكل فيه الشيخ القليل من الأدم، وهي فارسية، وأكثر ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها.
(٤) أوقر دابته: حملها.

وأطعمة، وقال: هذه لك فاستَعِنْ بها، وهذه البغال أيضًا، وقد ولَّتك ما كان أبي قد ولاك. ثم انصرف، وصِرتُ بعد ذلك أعَد من صَنَائِعِه.

لَا أفلَح قاضٍ لَا يقيم الحَق[١]

كان عبيد بن ظبيان[٢] قاضي الرشيد بالرَّقَّة ـ وكان الرشيد إذ ذاك بها ـ فجاء رجلٌ إلى القاضي، فاستعداه[٣] على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن ظبيان: «أما بعد، أبقى الله الأمير وحفظه وأتمَّ نعمته، فقد أتاني رجل فذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير ـ أبقاه الله تعالى ـ خمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم، أو يوكّل وكيلًا يناظر خَصْمَه، أو يرضيه فعله.

ودفع الكتابَ إلى رجل، فأتى بابَ ابن جعفر، فدفع الكتاب إلى خادِمه. فأوصلَه إليه، فقال له: قل له: كُل هذا الكتاب.

فرجع الرجل إلى القاضي؛ فأخبره، فكتب إليه: «أبقاك الله وأَمْتَع[٤] بك، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان، وذكر أنَّ له عليك حقًّا، فسِرْ معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى».

ووجَّه الكتابَ مع عَوْنين[٥] من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر، ودفعا الكتاب إليه فغضب، ورمى به. فانطلقا، فأخبراه فكتب إليه: «حفظك الله وأمْتَعَ بك، لا بدَّ أن تصير أنت أو وكيلُك إلى مجلس الحكم، فإن أبيتَ أنهيتُ أمرك إلى أمير المؤمنين ـ إن شاء الله».

ثم وجّه الكتابَ مع رجلين من أصحابه، فقَعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع؛ فقاما إليه، ودفعا إليه كتابَ القاضي، فلم يقرأه، ورمى به، فعَادَا فأبلغاه ذلك، فختم قِمَطْره[٦]، وأغلق بَابَه، وقعد في بيته.

فبلغ الخبرُ إلى الرشيد فدعاه، وسأله عن أمره، فأخبره الخبر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أعفِني من هذه الولاية، فوالله لا أَفْلَحَ قاضٍ لا يُقيم الحقَّ على القويّ

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٤، (٢) قاضي الرقة.
(٣) استعديت القاضي على الظالم: طلبت منه النصرة.
(٤) أبقاك الله استمتع بك. (٥) العون: الظهير.
(٦) القمطر: ما يصان فيه الكتب.

والضعيف، فقال له الرشيد: مَنْ يمنَعُك من إقامةِ الحق؟ فقال: عيسى بن جعفر، فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان: سرْ إلى دار عيسى بن جعفر، واخْتِم أبوابَه كلها، لا يخرج منها أحدٌ، ولا يدخل إليها أحد، حتى يخرجَ إلى الرجل من حقِّه، أو يسيرَ معه إلى مجلسِ الحكْم.

فأرسل إبراهيم إلى دارِ ابنِ جعفر بخمسمائة فارس، وأغلق الأبواب كلّها، فتوهَّم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأيٌ في قتله، ولم يعرف الخبر، فجعل يكلّم الأعوانَ من خَلْف الباب. وارتفع الصُّرَاخ في منزله، وضجّ النساء.

ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: ادعُ لي أبا إسحٰق لأُكلّمه. فاعلموه، فجاء حتى وقفَ على الباب، فقال له عيسى: وَيْحَك! ما حالُنا؟ فأخبره خبر القاضي ابن ظبيان، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأُحضرت، وأمر أن تُدْفَع إلى الرجل. فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره. فقال: إذا قبض الرجلُ ماله، فافتح أبوابه، وعرِّفه أنَّ ما رأيتَه من سيرتك مع القاضي؛ فإياك ومعارضته.

الغَادِر مَخذول(١)

قال عَمْرو بن حَفْص مولى الأمين: دخلت على محمد الأمين في جوف الليل، وكنتُ من خَاصَّتِه، أصِلُ إليه حيث لا يصل إليه أحد من مواليه وحشمه، فوجدته والشمعُ بين يديه، وهو يُفكِّر، فسلّمتُ عليه فلم يردّ عليّ، فعلمت أنه في تدبير بعضِ أمُوره، فلم أزلْ واقفًا على رأسه، حتى مضى أكثرُ الليل. ثم رفع رأسَه إليّ فقال: أحْضِر لي خزيمة بن خازم(٢)، فمضيتُ إليه فأحضرتُه، فلم يزل في مُنَاظرته حتى انقضى الليل؛ فسمعتُ خزيمة وهو يقول: أَنْشُدُك الله يا أمير المؤمنين أَلّا تكون أول الخلفاء نكثَ عهده، ونَقَض ميثاقه، واستخفَّ بيمينه، وردَّ رَأْيَ الخليفة قبله. فقال: اسكت؛ لله أبوك! فعبد الله بن خازم(٣) كان أفضلَ منك رأيًا وأكملَ نظرًا حيث يجتمع فَحْلَان في هَجْمة(٤).

---

(١) عصر المأمون: ١ ـ ٢٠٤.

(٢) والٍ من أكابر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون، توفي سنة ٢٠٣ هـ.

(٣) عبد الله بن خازم: كان من أشجع الناس، له فتوح وغزوات، وولي إمرة خراسان لبني أمية، توفي سنة ٢٢ هـ.

(٤) الهجمة من الإبل: ما بين السبعين إلى المائة.

ثم جمع وُجوهَ القواد، فكان يعرضُ عليهم واحدًا واحدًا ما اعتزمه فَيَأْبونَه، وربما ساعده قوم، حتى بلغ إلى خُزيمة بن خازم، فشاوره في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لم ينصحْك مَنْ كَذَبك، ولم يغشك من صَدَقَك، لا تجرِّيء القوَّاد على الخَلْع فيخلعوكَ، ولا تَحمِلهم على نَكْث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك؛ إن الغادر مخذول والناكثَ مَفْلول.

رَجُلٌ يُقَاضِي المَأْمُون[1]

دخل رجلٌ على المأمون[2]، وفي يده رقعةٌ فيها مَظْلِمةٌ[3] من أميرِ المؤمنين، فقال: أمظلِمةٌ مني! فقال الرجل: أفأُخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك!

قال: وما هي ظُلامتك؟ قال: إن سعيدًا وكيلَك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار. قال: فإذا اشتَرى سعيدٌ منك الجواهر تشكو الظُّلَامة مني! قال: نعم، إذ كانت الوَكَالةُ قد صحَّتْ منك. قال: لعل سعيدًا قد اشترى منك الجوهر، وحَمَل إليك المال، أو اشْتَراه لنفسه؛ وعليه فلا يَلْزَمني لك حقٌّ، ولا أعرفُ لك ظُلَامة. فقال له: إن في وصيَّةِ عُمر بن الخطاب لقُضَاتكم: «البيِّنةُ على مَن ادَّعى، واليمينُ على مَن أَنْكَر».

قال المأمون: إنك قد عَدِمْتَ البيِّنة؛ فما يجبُ لك إلا حَلْفَةٌ، ولَئِن حَلَفْتُها لَأَنا صَادِقٌ؛ إذ كنتُ لا أعرفُ لك حقًّا يلزمني. قال: إذن أذعوك إلى القاضي الذي نصبتَه لرعيَّتِك. قال: نعم! يا غلام، عليَّ بيحيىٰ بن أَكْثم[4]، فإذا هو قد مثَل بين يَدَيْه، فقال له المأمون: اقْضِ بيننا، قال: في حُكْمٍ وقضيَّة؟ قال: نعم، قال: إنك لم تجعلْ ذلك مجلسَ قضاء. قال: قد فعلت.

قال: فإني أبدأ بالعَامَّة أولًا ليَصْلُحَ المجلسُ للقضاء. قال: افعلْ.

---

(١) عصر المأمون: ١ ٣٤٦.

(٢) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد من أعاظم خلفاء بني العباس وعلمائهم وحكمائهم، كان كريم الخلق عظيم الحلم محبًا للعلم مؤثرًا للحكمة، توفي سنة ٢١٨ هـ.

(٣) المظلمة: ما تطلبه عند الظالم، وكذلك الظلامة.

(٤) يحيىٰ بن أكثم: قاض رفيع القدر، عالي الشهرة، من نبلاء الفقهاء، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب، ولاه المأمون قضاى البصرة وهو شاب، ثم قلّده القضاء ببغداد. توفي سنة ٢٤٢ هـ.

ففتح الباب وقعد في ناحيةٍ، وأذِن للعامة، ثم دُعِي بالرجل المتظلِّم، فقال له يحيىٰ: ما تقول؟ قال: أقول: عليك أن تدعوَ بخَصْمي أميرِ المؤمنين المأمونِ. فنادى المنادي؛ فإذا المأمون قد خرج، ومعه غلام يحمل مُصَلًى، حتى وقف على يحيىٰ وهو جالس؛ فقال له: اجلس؛ فطرح المصلّى ليقعدَ عليها؛ فقال له يحيىٰ: يا أميرَ المؤمنين؛ لا تأْخُذْ على خَصْمك شَرفَ المجلس، فطرح له مصلى ثم نظر في دَعْوى الرجل، وطالبَ المأمونَ باليمين فحلفَ، ووثب يحيىٰ بعد فراغ المأمون من يمينه، فقام على رجليه؛ فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنتُ في حقِّ الله عزّ وجلّ حتى أخذتُه منك، وليس الآن من حقي أن أتَصَدَّر[1] عليك.

ثم أمر المأمونُ أن يُحضَر ما ادعى الرجل من المال، وقال له: خذه إليك، والله ما كنتُ أحلفُ على فَجْرَة[2]؛ ثم أسمح لك بالمال فأُفْسِد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعتُ إليك هذا المال إلا خوفًا من هذه الرعية، لعلها ترى أنّي تناولتُك من وَجْهِ القُدْرة، وإنها لتعلم الآن أني ما كنت أسْمَحُ لك باليمين وبالمال.

لَا يَخلُو أَحَد مِنْ شَجَن[3][4]

دخل طاهر بن الحسين[5] على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون ـ فيما قيل ـ في مجلس شراب، فأمر برِطْلَين من النبيذ، ثم بكى المأمون، واغْرَوْرَقَت عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين؛ لِمَ تبكي لا أَبْكَى الله عَيْنك! فوالله، لقد دانت لك البلاد، وأَذْعَن[6] لك العباد، وصرتَ إلى المحبة في كل أمرك. فقال: أبكي لأمرٍ ذكرهُ ذلٌّ، وسَتْرُه حزن، ولن يخلوَ أحدٌ من شَجَن، فتكلّمْ بحاجة إن كانت لك.

فما زال طاهر بعد ذلك يتّخذ الوسائل إلى معرفةِ السبَب، حتى وُفِّقَ بالمال إلى إغراء ساقي المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب.

---

(١) أتصدر: أتقدم.
(٢) حلف على فجرة: إذا ركب أمرًا قبيحًا من يمين كاذبة أو كذب.
(٣) الشجن: الهم والحزن. (٤) عصر المأمون: ١ ـ ٢٧٠.
(٥) كان طاهر بن الحسين قائدًا من قوّاد المأمون، وهو الذي تولّى قتل الأمين ونصب رأسه سنة ١٩٨ هـ.
(٦) أي خضعوا لك.

فلما تغدَّى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين؛ اسْقِني، قال: لا والله لا أسقيك أو تقولَ: لم بكيتَ حين دخل عليك طاهر؟ قال: يا حسين؛ وكيف عُنيتَ بهذا حتى سألتَني عنه؟ قال: لِغَمِّي بذلك. قال: هو أمرٌ إن خرج من رأسك قَتَلْتُك، قال: يا سيدي؛ ومتى أخرجتُ لك سِرًّا! قال: إني ذكرت محمدًا أخي، وما ناله من الذلة، فخنقتني العَبْرَة فاسترحت إلى الإفاضة؛ وأن يفوتَ طاهرًا مني ما يكره.

فأخبر حسين الساقي طاهرًا بذلك فركب طاهرٌ إلى أحمد بن أبي خالد ـ وهو وزير المأمون ـ فقال له: إن الثناءَ مني ليس برخيص، وإن المعروفَ عندي ليس بضائع، فغيِّبني عن عين المأمون. فقال: سأفعل؛ فبكِّر عليَّ غدًا.

وركب ابنُ أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال له: ما نمتُ الليلة، فقال له: ولِمَ وَيحَك! قال: لأنك وليتَ غسانَ خراسان، وهو ومَنْ معه أَكَلة رأس[1]، فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيَصْطلمه[2].

قال: لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه. فَمنْ ترى؟ قال: طاهر بن الحسين. قال: ويلك يا أحمد! قال: أنا الضامن له. قال له: فأَنفِذْه[3].

فدعا بطاهر من ساعته، وجعله حاكمًا على خراسان.

كَيف يَعتذِرُ إنسَانٍ مِن كَلام تكلّم بهِ[4]

حدَّث أحمد بن أبي خالد الأحول أنه سمع المأمونَ يومًا ـ وعنده عليّ بن هشام، وأخواه ـ ذكر عَمْرَو بن مسعدة[5]، وقال: أيحسَبُ عَمْرو أني لا أعرف أخبارَه، وما يُجْبَى إليه، وما يعاملُ به الناس! بلى والله، ونهض وانصرفنا.

فقصدتُ عَمْرًا من ساعتي، فخبَّرتُه بما جرى، وأُنسيتُ أن أستحلّه من حكايته عنِّي، فراح عمرو إلى المأمون، فظنَّ المأمونُ أنه لم يحضُرْ إلا لأمرٍ مهمّ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة، فأَذِن له.

(١) يريد أن عددهم قليل، يشبعهم رأس واحد. (٢) اصطلمه: استأصله.
(٣) المراد: أرسله، ونفذ رأيك. (٤) عصر المأمون: ١ ـ ٣٤٢.
(٥) وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء توفي سنة ٢١٧ هـ.

فلما دخل عليه وضع سَيْفَه بين يديه، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنا عائذٌ بالله من سُخْطِه، ثم عائذ بك من سُخطك يا أمير المؤمنين، أنا أقلُّ من أن يشكوَني أميرُ المؤمنين إلى أحد، أو يُسِرَّ عليَّ ضِغْنًا يبعثُه بعضُ الكلام على إظهار ما يظهر منه.

فقال: وما ذاك؟ فخبَّره عمرو بما بلَغَه، ولكنه لم يُسَمِّ له مُخْبرَه. فقال المأمونُ: لم يكن الأمرُ كما بَلَغك، وإنما كانت جملةً من تفصيلٍ كنتُ عَلَى أن أُخبرك به، وإنما أخرج مني ما خرج معنًى تَجَارَيْنَاه، وليس عندي إلا ما تحبُّ، فليُفرِخ رَوْعُك[1]، ولْيَحْسُنْ ظنُّك. فأعدت الكلام، فما زال يسكُنُ مني، ويطيِّب من نفسي، حتى ذَهب بعضُ ما كان في قلبي، ثم بدأ فضمَّني إلى نفسه، وقبَّلت يده، فأهْوَى ليعانقَني؛ فشكرته، وتبيّنتُ في وجهه الحَيَاء والخجل مما تأدَّى إليّ.

قال أحمد: فلما غدوتُ على المأمون، قال لي: يا أحمد؛ أما لمجلسي حُرْمَةٌ! فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين؛ وهل الحُرَم إلا لما فصل عن مجلسك! قال: ما أراكم تَرْضَوْن بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأيةُ معاملةٍ يا أمير المؤمنين؟ هذا كلامٌ لا أعرفه؛ قال: بلى، أما سمعتَ ما كُنّا فيه أمس من ذكر عمرو!

ذهب بعضُ مَن حضر من بني هاشم فخبّره به، فراح إليَّ عمرو مُظْهِرًا منه ما وجب عليه أن يُظْهِره، فدفعتُ منه ما أمكن دَفْعُه، وجعلتُ أعتذرُ إليه منه بعذرٍ قد تبيَّن فيَّ الخجلُ منه، وكيف يكونُ اعتذارُ إنسان من كلام قد تكلم به! ألا يتبيَّن في عينيه وشفتيه ووجهه! ولقد أعطيتُه ما كان يقنع مني بأقلَّ منه، وما حَدَاني عليه[2] إلا ما دخَلَني من الخسَاسة، وما كان قد نَطَق به اللسانُ من غير رويَّة ولا احتمال مكروه به.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أنا أخبرتُ عَمرًا به، لا أحدٌ من ولد هاشم؛ فقال: أنت! قلت: أنا، فقال: ما حملَك على ما فعلتَ؟ فقلت: الشكرُ لك

(١) ليفرخ روعك: ليذهب رعبك وفزعك، فإن الأمر ليس على ما تحاذر. قال الأزهري: كل مَن لقيته من اللغويين يقول: أفرخ روعه ـ بفتح الراء من روعه ـ إلا ما أخبرني به المنذري أنه كان يقال: إنما هو أفرخ روعه ـ بضم الراء.

(٢) ما حداني: ما بعثني وحملني.

والنصحُ والمحبة لأن تتمَّ نعمتُك على أوليائك وخَدَمك؛ أنا أعلمُ أن أميرَ المؤمنين يُحِبُّ أن يَصلُح له الأعداء والبُعَدَاء، فكيف الأولياءُ والأقرباء! ولا سيما مثل عمرو في دُنُوِّه من الخدْمة وموقعِه من العمل، ومكانِه من رأيِ أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه!

سمعتُ أمير المؤمنين أَنْكَر منه شيئًا فخبَّرته به ليُصْلِحَه، ويقوِّمَ من نفسه أَوَدَها لسيِّده ومولاه، ويتلافى ما فرَط منه، ولا يفسده مثله؟ وإنما يكون ما فعلتُ عَيْبًا، لو أَشَعْتُ سرًّا فيه قدحٌ[1] في السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ قد استتبّ، فأمّا مثلُ هذا فما حسبتُه يبلغ أن يكون ذنبًا عليّ.

فنظر إليّ مليًّا، ثم قال: كيف قلتَ؟ فأعدتُ عليه: ثم قال: أعِدْ، فأعدتُ، فقال: أحسنتَ والله يا أحمد، لمَا خبّرتني به أحبُّ إليّ من ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف.

وعقد خِنصَره وبِنصَره والوُسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلنَفْيِك عني سوءَ الظنّ - وأَطْلَ وُسْطَاه - وأما ألف ألف فلِصِدْقك إيّاي عن نَفْسك - وأطلق البنصر - وأما ألف ألف فلِحُسْن جوابك - وأطلق الخِنْصَر - وأَمَرَ لي بمال.

غَرْسُ يَدي وَإِلْفُ أَدَبِي[2]

قال رجل من إخْوة المأمون للمأمون: يا أمير المؤمنين، إنَّ عبدَ الله بن طاهر[3] يميل إلى ولد أبي طالب، وكذا كان أبوه قبله؛ فدفع المأمونُ ذلك وأنكره، ثم عاد بمثل هذا القول.

فدسّ المأمون إلى عبد الله بن طاهر رجلًا. ثم قال له: امْضِ في هيئة القُرَّاء والنّساك إلى مصر، فادْعُ جماعةً من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، واذكُرْ مناقبَه وعلمَه وفضائلَه، ثم صِرْ بعد ذلك إلى بعضِ بطانة عبد الله بنِ طاهر، ثم ائْتِه فادعُه ورَغِّبْه في استجابته له، وابحثْ عن دَفِينِ نِيَّتِه بحثًا شافيًا، وائْتِني بما تسْمَعُ منه.

---

(١) قدح: عيب.
(٢) عصر المأمون: ١ - ٣٣٧.
(٣) عبد الله بن طاهر: من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولّاه المأمون خراسان، كان عالي الهمة شهمًا نبيلًا توفي سنة ٢٣٠ هـ.

ففعل الرجلُ ما قال له وأمره به، حتى إذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام قعد يومًا بباب عبد الله بن طاهر، ودفع رُقْعَة إلى الحاجب ليوصلها إليه، فأَذن له، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينَه وبين الأرض غيره، وقد مدّ رجليه وخُفَّاه فيهما، فقال له: قد فهمتُ ما في رُقْعتك من جملة كلامك، فهاتِ ما عندك.

قال: ولي أمانُك وذمةُ الله معك؟ قال: لك ذلك.

فأظهر له ما أراد، ودعاه إلى القاسم فأخبره بفضائلِهِ وعلْمِهِ وزُهْده، فقال له عبد الله: أَتُنْصِفُني؟ قال: نعم، هل يجب شكر الله على العبادة؟ قال: نعم، قال: فهل يجب شكرُ بعضهِم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضل؟ قال: نعم.

قال؛ فتجيء إليّ وأنا في هذه الحال التي ترى؛ لي خاتم في المشرق وفي المغرب، وفيما بينهما أمري مُطَاع وقولي مقبول، ثم ما التفتُّ يميني ولا شمالي وورائي وقدامي إلا رأيتُ نعمةً لرجل أَنْعَمَهَا عليَّ، ومنّةً طوّق بها رقبتي، ويدًا لائحةً بيضاء ابتدأني بها تفضلًا وكرمًا، فتدعوَني إلى الكُفْرِ بهذه النعمة وهذا الإحسان! وتقول: اغْدِر بمن كان أوّلًا لهذا وآخرًا! واسْعَ في سفك دَمِه! تراك لو دعوتَني إلى الجنة عيانًا من حيث أعلم، أكان الله يُحِبُّ أن أغْدِر به وأَكْفُرَ بإحسانه ومنّته، وأنْكُثَ بَيْعته!

فسكت الرجل، فقال له عبد الملك: أما إنه قد بلغني أمرُك، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذا البلد؛ فإن السلطانَ الأعظم إن بلغه أمرُك - وما آمن ذلك عليك - كنتَ الجانيَ على نفسك ونفسِ غيرك.

فلما يئس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غرسُ يدي وإلفُ أدبي.

غَسّان بن عَبّاد وعَليّ بن عِيسى[(١)]

كان بين غسان بن عباد وعلي بن عيسى عداوةٌ عظيمة، وكان عليّ بن عيسى ضامنًا[(٢)] أعمالَ الخراجِ والضّياع ببلده؛ فبقيت عليه بقيّة مبلغها أربعون ألف دينار،

(١) ثمرات الأوراق: ٢ - ٣٠.

(٢) ضمن الشيء: كفله.

فألحَّ المأمون عليه بطَلبِها، إلى أن قال لعليّ بن صالح الحاجب: أَمْهِلْهُ ثلاثة أيام؛ فإن أحضَر المالَ وإلا فاضْرِبه بالسياط حتى يؤدّيَ المال أو يَتْلف.

فانصرف عليّ بن عيسى من دار المأمون آيسًا من نفسه، وهو لا يدري وجهًا يتّجه إليه، فقال له كاتبه: لو عرّجت على غسان بن عباد وعرَفْتَه خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك، فقال له: عَلَى ما بيني وبينه من العداوة! قال: نعم، فإن الرجلَ أَرْيَحِيٌّ كريم.

فدخل على غَسّان، فقام إليه وتلقاه بالجميل، وأوفاه حقه من الخدمة، ثم قال له: الحالُ الذي بيني وبينك كما علمت، ولكن دخولُك إلى داري له حرمةٌ توجب بلوغ ما رجوته مني، فإن كانت لك حاجةٌ فاذْكُرهَا.

فقصَّ عليه القصّة؛ فقال: أرجو أن يكفيكه الله تعالى، ولم يزد على ذلك شيئًا.

فنهض عليّ بن عيسى، وخرج آيسًا نادِمًا على قَصْدِ غسّان، وقال لكاتبه: ما أَفَدْتَني بالدخول على غَسّان غيرَ تعجيل الشماتةِ والهوان.

فلم يصل عليّ بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتبُ غسان ومعه البغالُ عليها المال، فتقدّم وسلمه.

وبكّر إلى دار أمير المؤمنين، فوجد غسان قد سبقَه إليها، ودخل على المأمون وقال: يا أمير المؤمنين؛ إن لعليّ بن عيسى بحضرتك حرمةً وخدمةً وسالفَ أصل، ولقد لحقه من الخسران في ضمانه ما تعارَفَه الناس؛ وقد توعَّدته بضَرْبِ السياط بما أطار عقله وأذهب لُبّه؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجيزني على حُسْنِ كرمه ببعض ما عليه؛ فهي صنيعة يجددها عليّ تَخْرُسُ ما تَقَدَّمها من إحسانه؛ ولم يزل يتلطّف إلى أن حطَّ عنه النصف، واقتصر على عشرين ألف دينار.

فقال غسان: على أن يجدِّدَ عليه أميرُ المؤمنين الضمان، ويشرّفَهُ بخِلْعَةٍ تقوّي نفسه، وتُرْهِف عزمه، ويعرف بها مكان الرِّضا عنه. فأجابه المأمون إلى ذلك.

قال: فيأذن أميرُ المؤمنين أن أحملَ الدواةَ إلى حضرته ليوقّع بما رآه من هذا الإنعام! قال: افعل، فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين، فوقّع بذلك. وخرج على ابن عيسى بالخِلْعَةِ، والتوقيعُ بيده.

فلما حضر عليّ بن عيسى إلى داره حمل من المال عشرين ألف دينار، وأرسلها إلى غسان، وشكر له جميلَ فعله معه. فقال غسان لكاتبه: والله ما شفعتُ عند أمير المؤمنين إلا لتُوَفَّر عليه وينتفعَ بها؛ فامضِ بها إليه، فلما ردَّها كاتبه إلى عليّ بن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان، فلم يزل يعرفها له إلى آخر العمر.

فِطـنَـــة[1]

كان المعتضد[2] يومًا جالسًا في بيت يُبنَى له، وهو يشاهد الصُّنَّاع، فرأى في جملتهم عبدًا أسودَ مُنْكَر الخَلْق، شديدَ المَرَح، يصعد على السلاليم مِرَقاتين[3] مِرْقاتين، ويحمل ضعف ما يحمل غيره. فأنكر أمرَه، وأحضره، وسأله عن سبب ذلك، فَلَجْلَجَ[4]. فقال لوزيره: قد خمّنْتُ[5] في هذا تخمينًا ما أحسبه باطلًا، إما أنْ يكونَ معه دنانيرُ قد ظَفِر بها من غَيْرِ وجهها، أو يكون لِصًّا يتستَّر بالعمل. ثم قال: عليَّ بالأسود، فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه ليَضربَنَّ عنقه. فقال الأسود: ولي الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، إلا ما كان من حدّ؛ فظنَّ أنه قد أمَّنه.

فقال: كنتُ أعمل في أتون الآجُر منذ سنين، فأنا منذ شهور جالس إذ مرَّ بي رجل في وسطه كيس، فتبعتُه وهو لا يعرف مكاني، فحلّ الهِمْيَان[6]، وأخرج منه دينارًا، فتأملْتُه فإذا كلُّه دنانير، فكتّفْتُه، وسدَدْتُ فاه، وأخذت الهِمْيَان، وحملته على كتفي، وطرحته في التّنور، وطيَّنْتُ عليه. فلمّا كان بعد أيام أخرجتُ عظامه وطرحتها في دجلة، والدنانير معي تقوي قلبي.

فأرسل المعتضد من أحضر الدنانير، وإذا على الكيس: «لفلان ابن فلان» فنادى في المدينة، فحضرت امرأته، وقالت: هذا زوجي، وقد ترك طفلًا صغيرًا، خرج في وقت كذا ومعه كيس فيه ألف دينار، فغاب إلى الآن، فسلّم الدنانير إليها، وضرب عنق الأسود، وأمر أن يوضع في الأتُون.

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ١٥٠.
(٢) بويع المعتضد للخلافة سنة ٢٧٧ وتوفي سنة ٢٨٠ هـ.
(٣) السلاليم: جمع سلم، والمرقاة: الدرجة.
(٤) اللجلجة: التردد.
(٥) التخمين: القول بالحدس والظن.
(٦) الهميان: وعاء للدراهم.

لا يتَّبع الهَوَى[(١)]

قال عبد الرحيم بن القاضي أسماعيل بن إسحٰق: كان في حِجْر أبي يتيم فبلغ، وله أمٌّ، وأختُها في دار الخليفة المعتضد بالله، فقالت أمُّ اليتيم لأختها: كلِّمي أمير المؤمنين حتى يرفعَ إسماعيلُ القاضي الحجْرَ عن وَلدي. فكلَّمته، فدعا المعتضد عبيد اللهبن سليمان بن وهب وزيرَه، وقال له: قُلْ لإسماعيل القاضي يفكُّ الحجرَ عن فلان. فقال القاضي: حتى أسألَ عنه، وقام فسأل عنه، فلم يُخْبَر عنه، برُشْد، فتركه.

ومضت على ذلك أيام، فرجعت والدة الصبيّ إلى أُخْتها، وسألتها أن تعاود أميرَ المؤمنين، وكان المعتضد لا يُعَاوَدُ لخشونته، فعاودته فقال: ألستُ قد أمرت! فقالت: لم يُرْفَع عنه الحجْرُ بعد، فدعا وزيره عبيد الله ثانيًا، وقال: أمرتُك أن تأمر إسماعيل القاضي بأن يَرْفع الحجْر عن فُلان! فقال: قد كنت قلت له ذلك، فقال: حتى أسأل عنه. فقال: قل له يرفع الحجر عنه. فدعاه الوزير ثانيًا، وقال له: أميرُ المؤمنين يأمرُك أن ترفعَ الحجْر عن فلان.

فأطرق القاضي ساعةً، ثم استعدى دَوَاة ورقة، وكتب شيئًا وخَتَمه، فاستعظم الوزيرُ أن يَخْتِمَ عنه كتابًا، ولم يقلْ له شيئًا لمحلّ إسماعيل من الوَرع والعلم ثم دفع ذلك للوزير، وقال له: توصَّل هذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابُه.

فأخذه الوزير ودخل على المعتضد، وقال: زَعَم أنَّ هذا جوابُ أمير المؤمنين! ففتح المعتضد الكتاب، وقرأه وألْقَاه، وقال: لا تعاوِدْه في هذا. فأخذ عبيد الله الوزير الكتاب، وإذا فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلنَاك خَليفَةً فِي الأَرْضِ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحقِّ، وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ».

هِشام بن عَبد الرحمٰن الدَاخِل وأَحَد صنَائعه[(٢)]

كان هشام[(٣)] بن عبد الرحمٰن الداخل قاعدًا لراحته في عُلِّيَّة[(٤)] على النهر في

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٨. (٢) نفح الطيب: ١ ـ ١٥٧.

(٣) ولد هشام سنة ١٣٩ هـ وتوفي سنة ١٨٠ هـ، وكان من أشرف الناس نفسًا، وأكرمهم طبعًا، وأكملهم مروءة، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز.

(٤) العلية: بالضم والكسر: الغرفة.

حياة والده، فنظر إلى رجل كنانيّ من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان[١]، قد أقبل يوضِعُ[٢] السير في الهاجرة؛ فأنكر ذلك، وقدَّر شرًّا وقع به من قِبلِ أخيه سليمان - وكان واليًا على جَيّان - فأمر بإدخاله عليه، فقال: مَهْيَمْ[٣] يا كناني! فلأمرٍ ما قدمت! وما أحسبك إلا مزعَجًا لشيء دَهَمَك.

فقال: نعم يا سيدي، قَتَلَ رجلٌ من قومي رجلًا خطأً، فقصدني أخوك بالاعتداء؛ إذ عرف مكاني منك.

فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قِلَادةً كانت في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كنانيّ، وشراؤه عليّ ثلاث آلاف دينار، فلا تُخْدعَنّ عنه، وبِعْه وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمَكِّنِ الرجل من اهتضامك[٤].

فقال: يا سيّدي؛ لم آتِكَ مُسْتَجدِيًا، ولا لضيق المال عما حُمِّلْتُه، ولكني قُصِدْتُ بظلم صُرَاح أحببت أن يظهر عليّ عِزُّ نصرك؛ وأَثَرُ ذَبِّكَ وامتعاضك فأتَمَاجَدُ[٥] بذلك عند مَن يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجْهُ ذلك؟ فقال: أن تكتبَ إلى أخيك في الإمساك عني والقيام بذمَّتك لي. فقال: أَمْسِك العِقْد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أَنْكره، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مُقْلِق، ائذنوا له.

فلما دخل سلَّم عليه: ومَثَلَ قائمًا بين يديه، فقال له: اجلس يا هشام، فقال: أصلح الله سيدي الأميرَ! وكيف جلوسي بهمٍّ وذُلٍّ مُزْعَج! وحَقٌّ لمن قام مقامي ألّا يجلس إلا مطمئنًا، ولن يُقْعِدَني إلا طيبُ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلا رجعتُ على عَقِبي. فقال له: حَاشَ لك من انقلابك خائبًا، فاقعد مُجابًا مشَفَّعًا؛ فجلس، فقال له أبوه: فما الحدَثُ المُقْلِق؟ فأعلمه؛ فأمر بحَمْلِ الدية عنه، وعن عشيرته من بيت المال؛ فسُرَّ هشام وأطنب في الشكر، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان في ترك التعرّض لهذا الكنانيّ.

---

(١) جيان: بلد بالأندلس. (٢) أوضع: أسرع.
(٣) مهيم: كلمة استفهام: أي ما حالك وما شأنك أو ما وراءك؟
(٤) هضم فلانًا واهتضمه: ظلمه وغصبه. (٥) تماجد: تفاخر، وأظهر المجد.

ولما دخل الكنانيّ لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزتُ بك حد الأمنية، وبلغتُ غايةَ النصر، وقد أغنى الله عن العِقْد المبذول، فتعيده إلى صاحبته؛ فأبى ذلك وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

قَاضٍ لَا يقبَل شهَادَة خَليفَة[(١)]

وكّل سَعِيدُ بن عبد الرحمـٰن الداخل عند ابنِ بشير القاضي وكيلًا يُخَاصِمُ عنه لشيء اضطر إليه، وكانت بيده وثيقةٌ فيها شهادات شهود قد ماتوا، ولم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم وشاهدٌ آخر، فشهد لسعيد ذلك الشاهدُ وضُرِبت على وكيله الآجال في شاهد ثان، وجدّ به الخصام، فدخل سعيد بالكتاب على الحكم، وأراه شهادته في الوثيقة ـ وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه ـ وعرّفه حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفًا من بُطْلان حقه.

وكان الحَكَم يعظِّم سعيدًا عمَّه ويلتزم مبرَّته، فقال له: يا عم؛ إنا لسنا من أهل الشهادات، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تَجْهَلُه، وتخشى أن توقفنا مع القاضي مَوْقِف مَخْزَاةٍ كنّا نَفْديه بملكنا، فصِرْ في خِصامِك حيث صيّرك الحق إليه، وعليه رَدُّ ما انْتَقَصَكَ.

فأبى عليه وقال: سبحان الله! وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك، وأنت وليْتَه، وهو حسنةٌ من حسناتك! وقد لزمَك أن تشهدَ لي بما علمتَه، ولا تكتمنّي ما أخذ الله عليك.

فقال: بلى؛ إن ذلك مِنْ حقك كما تقول، ولكنك تُدْخِل علينا به داخلة، فإن أعفيتَنا منه فهو أحبُّ إلينا، وإن اضطررتنا لم يمكنّا عقوقُك.

فعزم عليه عزمَ مَنْ لم يشك أن قد ظفر بحاجته، فأَرسل الحكم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه، وخطَّ شهادتَه بيده في قِرْطَاس، وختم عليها بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين، وقال لهما: هذه شهادتي بخَطِّي، فأدّياها إلى القاضي.

فأتياه بها إلى مجلسه وقتَ قُعودِه للسماع من الشهود، فأدّيَاها إليه؛ فقال لهما: قد سمعتُ منكما، فقومَا راشدَيْن في حفظ الله!

---

(١) نفح الطيب ١: ٣٩١.

وجاء وكيل سَعِيد، وتقدم إليه مُدِلًّا واثِقًا، وقال له أيّها القاضي: قد شهدَ عندكَ الأميرُ ـ أصلحه الله تعالى ـ فما تقول؟ فأخذ كتابَ الشهادة ونظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادةٌ لا تُقْبَلُ عندي، فجِئْني بشاهد عَدْل.

فدهش الوكيل، ومضى إلى سَعِيد فأعْلمه، فركب من فَوْرِه إلى الحكَم، وقال: ذهب سُلْطَاننا، وأُزيل بهاؤنا؛ أوَ يجترىء هذا القاضي على ردّ شهادتك، والله ـ سبحانه ـ قد استخلفك على عباده، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك! هذا ما يجب أن تَحْمِلَه عليه. وجعل يُغْرِيه بالقاضي ويحرِّضُه على الإيقاع به.

فقال له الحكَم: وهل شككتُ أنا في هذا يا عمّ! القاضي رجل صالح، لا تأخذه في الله لومةُ لائم، فعلَ ما يجبُ عليه ويلزمه؛ وسدّ دونه بابًا كان يصعب عليه الدخول منه، فأحسنَ الله جزاءه.

فغضب سعيد وقال: هذا حسبي منك! فقال له: نعم قد قضيتُ الذي كان لكَ عليّ، ولستُ ـ والله ـ أعارِضُ القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قَبْض يَدِ مِثله.

الباب السادس

قصص الفصحاء والبلغاء

قصص الخطب والخطباء

قصص الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة

قصص الشعر والشعراء وسرقاتهم

قصص الكتابة والكتاب

قصص الفصحاء والبلغاء

في البيان والبلاغة

قال في المستطرف[1]: أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: الآيات ١ - ٤] وقال ﷺ: «إن من البيان لسحرًا». قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [الطلاق: الآية ٢]. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾ [القلم: الآية ٣٩]. أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية. وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندي: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندي: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ فقال: أقلهم لفظًا، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم». وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة. وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة. وقال البحتري: خير الكلام

---

(١) المستطرف: ص ٤٨.

ما قل وجل ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نشأت به ... وكلّنا بقصور عنك نعترفُ
مَهِّد لي العذر نظم بعثت به ... من عنده الدرّ لا يُهدي له الصَّدفُ

وقال الثعالبي: البليغ مَن يحول الكلام على حسب الأمالي، ويخيط الألفاظ على قدر المعاني. والكلام البليغ ما كان لفظه فحلًا، ومعناه بكرًا. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه في حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة. وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحدة في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح.

وقال يحيىٰ بن خالد: ما رأيت رجلًا قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحًا عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني.

وقد اختلف الناس في الفصاحة، فمنهم مَن قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم مَن قال: إنها لا تخص الألفاظ وحدها واحتجّ مَن خصّ الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلًا يقول: هذا معنى فصيح، فدلّ على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني، وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف في كلام الناس، والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه

صحيحًا حسنًا. ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنتَ كنتَ كتمت الحبّ كنت كما كنّا وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضًا:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبرُ

قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلّا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلًا في النطق به. وقيل: مَن عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور.

قال الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ولم يبق إلّا صورة اللحمِ والدمِ

وسمع النبيّ ﷺ من عمه العباس كلامًا فصيحًا فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك. أي فصاحتك.

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيناء[1] يستجيزها أحمد الله كثيرًا. فقالت: حيث أنشأك ضريرًا. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف: كما أن الآنية تمتحن بأطيانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه.

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي بالولاء، أديب فصيح من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جوابًا، كان ذكيًا جدًّا وحسن الشعر ومليح الكتابة والترسل كف بصره وهو في الأربعين، توفي بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ.

وقال المبرد قلت للمجنون أجزني هذا البيت:

أرى اليوم يومًا قد تكاثف غيمهُ وإبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال:

وقد حجبت فيه السحائبُ شمسَه كما حجبت وردَ الخدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدّثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضًا. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلامًا وصوابًا، قال: يا بني، ما رأيت موعوظًا أحق بأن يكون واعظًا منك. وقال الشعبي: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إليَّ منها. وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته، ولا منام إلا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك:

وهذا اللسان بريدُ الفؤاد يدلّ الرجالَ على عقلهِ

ومرّ رجل بأبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه، ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألسنتكم، هلا قلت لا ورحمك الله.

ومنه: ما حُكِيَ أن المأمون سأل يحيىٰ بن أكثم عن شيء، فقال: لا، وأيّد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال: اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم، وقال بعضهم شعرًا:

سحبان يقصر عن بحور بيانه عجزًا ويغرق منه تحت عبابِ

وكذاك قسٌّ ناطقٌ بعكاظه يعيا لديه بحجةٍ وجواب

قيل: إنه حجّ مع ابن المنكدر شابان، فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة وكانت قبيحة، فقال ابن المنكدر: بل صاعقة.

وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حجة، فعرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة[1].

وكتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتتبع لو حشي الكلام طمعًا في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفل.

ويقال: القول على حسب همة القائل يقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع.

وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة.

وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت بابًا فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت بابًا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ذكاء وفصاحة أسير

حُكِيَ أن رجلًا كان أسيرًا في بني بكر بن وائل وعزموه على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاؤوا بعبد أسود، فقال له: أتعقل ما أقوله لك، قال: نعم إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلّا عاقلًا، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كل كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلانًا يعني أسيرًا كان في أيديهم من بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا وشكت النساء، وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمارة ما أكلت معكم حيسًا، واسألوا عن خبري أخي الحرث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملًا أصهب، ثم دعوا بأخيه الحرث فقصّوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا

(١) داحضة: باطلة.

ولبسوا السلاح وأما قوله: شكت النساء أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعروا ناقتي الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب، أي الجبل. وأما قوله: أكلت معكم حيسًا، أي أن أخلاطًا من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

الزم الفرقدين

أسرت طيّيء غلامًا من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشترطوا عليه، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيىء ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف، وقال: لقد أعطيته كلامًا إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له الزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيىء. ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى.

فصاحة علية بنت المهدي

وكانت علية بنت المهدي تهوى غلامًا خادمًا اسمه طل، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يومًا عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة، فإن لم يصبها وابل، فالذي نهى عنه أمير المؤمنين ومن ذلك قولهم: تركت فلانًا يأمر وينهي وهو على شرف الموت، أي يأمر بالوصية وينهى عن النوح، ويقال: ما رأيت فلانًا، أي ما ضربته في رئته، ولا كلمته أي ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعًا، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافرًا ولا فاسقًا، فالكافر السحاب والفاسق الذي تجرّد من ثيابه، وما رأيت فلانًا راكعًا ولا ساجدًا ولا مصليًا، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجًا، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورًا. فالبقرة العيال الكثيرة. يقال: جاء فلان يسوق بقره، أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط.

معاوية والأحنف بن قيس

حُكِيَ أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام

خطيبًا، وكان آخر كلامه أن لعن عليًا رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليًا رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربّه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته، فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعًا أو كرهًا، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني على ذلك، فوالله لا تجري شفتاي به أبدًا، فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفنك في القول، والفعل، قال: وما أنت قائل إن أنصفتني، قال: أصعد المنبر، فأحمد الله وأثني عليه، وأصلي على نبيّه محمّد ﷺ ثم أقول: أيّها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًا، ألا وإن معاوية وعليًا اقتتلا فاختلفا، فادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهمّ العنهم لعنًا كثيرًا أمنوا رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفًا ولو كان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية: إذًا نعفيك يا أبا بحر.

الكلام إلى نية المتكلم

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليًا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ﷺ: أيّها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن عليّ بن أبي طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله، ثم نزل، فقال له معاوية: إنّك لم تبين مَن لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفًا ولا نقصت حرفًا، والكلام إلى نية المتكلم.

فصاحة امرأة

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت، فقال لها: مَن تكونين أيتها المرأة. فقال: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من

أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرًا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تـمَّ أمـرٌ بـدا نـقـصُـهُ ... تـرقّـبْ زوالًا إذا قـيـل، تـمَّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجنّ: الآية ١٥]، فتعجبوا من ذلك.

حُسن التخلص

حُكِيَ أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى، فقال له: أطال الله بقاءك، وأقرّ عينك، وجعل يومي قبل يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة، وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله: أطال الله بقاءك، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية، وأما قوله: وأقرّ عينك، فمعناه سكن الله حركتها أي أعماها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنّة قبل يومك الذي تدخل فيه النار، وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرك، فإن العافية تسرّه كما تسرّ الآخر.

حماد الراوية والقرآن

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن، فكلّفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعًا من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: الآية ٦٨] بالغين المعجمة والسين المهملة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: الآية ١١٤] بالباء الموحدة ليكون لهم عدوًا وحزنًا بالباء الموحدة. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: الآية ٣٢] بالجيم والباء الموحدة. وقوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: الآية ٧٤] بالزاي وترك الهمزة. وقوله: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] بالسين المهملة. وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: الآية ١٣٨] بالنون والعين المهملة. وقوله: ﴿سَلَٰمٌ

عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي﴾ [القَصَص: الآية ٥٥] بإسقاط التاء. وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ [صٓ: الآية ٢] بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

المأمون يمتحن واليًا له

حُكِيَ أن المأمون ولّى عاملًا على بلاد، وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلًا من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتابًا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتابًا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا على فلان، فوجدناه آخذًا بالعزم، عاملًا بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى في أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله: آخذًا بالعزم، أي إذا عزم على ظلم أو جور، فعله في الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته، أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير، وقوله: عمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئًا من الدنيا، ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم. فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته، وولّى عليهم غيره.

كتاب القاضي الفاضل

حُكِيَ أن القاضي الفاضل كان صديق خصيص به، وكان صديقه هذا قريبًا من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر، فغضب عليه، وهمّ بقتله، فتسحب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيرًا عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل: اكتب إليه كتابًا عرفه فيه أنني أرضى عليه، وأستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر، فإذا حضر قتلته، واسترحت منه، فتحيّر الفاضل بين الاثنين، صديقه يعز عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب

إليه كتابًا واستعطفه غاية الاستعطاف، ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبيّ ﷺ وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشدد «إن» ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه، فقرأه في غاية الكمال وما فهم إن، وكان قصد الفاضل أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلًا، فلما أراد أن ينهي الكتاب، ويكتب إن شاء تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفًا وأراد بذلك إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه، ففرح بذلك.

إخلاص زوجة

حُكِيَ أن بعض الملوك طلع يومًا إلى أعلى قصره يتفرّج، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: لمنْ هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فنزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها، فاستدعى بفيروز، وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامضِ به إلى البلد الفلانية، وائتني بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب، وتوجّه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهّز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالبًا لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعًا وتوجه متخفيًا إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعًا خفيفًا، فقالت امرأة فيروز: مَن بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: زائر. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيرًا، فقال لها: ويحك إنني الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني فقالت: بل عرفتك يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ[1] وذاك لكثرة الورّاد فيه
إذا سقط الذباب على طعامٍ رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ

---

(١) ورد: أي من غير أن أتذوقه وأشربه.

وتجنب الأسودُ ورودَ ماءٍ إذا كان الكلاب وَلَغْنَ(١) فيه
ويرتجع الكريم خميصَ بطنٍ(٢) ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قلْ للذي شَفَّهُ الغرامُ بنا وصاحبِ الغدر غير مصحوب
واللهِ لا قال قائلٌ أبدًا قد أكلَ الليثُ فضلةَ الذيبِ

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه، قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنسي نعله في الدار، هذا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجده معه في رأسه، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة وأتى إلى زوجته، فسلّم عليها، وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك، قالت: حبًّا وكرامة، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهر، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها، وقال له يا فيروز: إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها عليّ حقًّا، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسًا إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيّد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستانًا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بئره، فالتفت القاضي إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يومًا من الأيام، فوجدت فيه أثر

---

(١) ولغن: شربن. (٢) خميص بطن: جائعًا.

الأسد، فخفت أن يغتالني، فحرمت دخول البستان إكرامًا للأسد، قال: وكان الملك متكئًا فاستوى جالسًا، وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمنًا مطمئنًا، فوالله أن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرًا، ولا التمس منه ورقًا، ولا ثمرًا ولا شيئًا، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، ووالله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازًا من حيطانه على شجره، قال: فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم.

من مـــاء

رُوِيَ في غزوة بدر أن النبيّ ﷺ كان سائرًا بأصحابه يقصد بدرًا، فلقيهم رجل من العرب فقال: ممّن القوم؟ فقال له النبيّ ﷺ: «من ماء» أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبيّ ﷺ بأصحابه لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله، فإن الله عزّ وجلّ قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: الآيتان ٥، ٦].

لو كان الأمر بالكبر

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبيًا، فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: أحطت بما لم تحط به، ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

غلام يعظ عمر بن عبد العزيز

لما أفضَت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السن، وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم مَن هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد تحمد الله الذي مَنّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر

رضي الله عنه: عظني يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين إن أناسًا غرّهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢١]. فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشدهم عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلَّمْ فليس المرءُ يولد عالمًا ... وليس أخو علمٍ كمنْ هو جاهلُ
فإنَّ كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفّت عليه المحافل[1]

درواس بن حبيب وهشام بن عبد الملك

حُكِيَ أن البادية قحطت في أيام هشام، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلّموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليَّ إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقًا فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرًا وطيًّا، وإنه لا يعرف ما في طيّه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: أنشره لله درّك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم.

المرء بأصغريه

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة، اقتحمته عينه ويتنقصه، فقال:

---

(١) المحافل: جمع محفل وهو الجماعة من الناس.

مهلًا أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يا أيّها الملك المرجوّ نائله ... إنّي لمن معشرٍ شُمِّ الذرى[(١)] زهرِ

فلا تغرنّك الأجسامُ إنّ لنا ... أحلام عادٍ وإن كنّا إلى قصرِ

فكم طويل إذا أبصرت جثته ... تقول هذا غداة الروع[(٢)] ذو ظفر

فإن ألمّ به أمر فأفظعه ... رأيته خاذلًا بالأهل والزّمر[(٣)]

فقال: صدقت، فهل لك علم بالأمور، قال: إني لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للدهر بصاحب مَن لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة وقال له: يا سعد إن أقمت واسيناك، وإن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه، وجعله من أخص ندمائه.

أسئلة هرقل وأجوبة ابن عباس

حُكِيَ أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنّة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر.

فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل.

---

(١) شم الذرى: كرام الأصل، هم من أهل المجد ومن ذروته، والزهر: البياض في الفعال والنسب.

(٢) الروع: الحرب، والروع: الخوف. (٣) الزمر: الجماعات.

فكتب إليه، فأجابه، أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]. وأما لا شيء فإنها الدُّنيا تبيد وتفنى، وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إلـه إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنّة، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له، فآدم عليه السلام، وأما القبر الذي جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر. وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل. وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى منادٍ إن قبلتم التوراة كشفته عنكم ولا ألقيته عليكم، فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧١]. وأما الشجرة التي تنبت من غير ماء، فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي يتنفس بلا روح، فالصبح. قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التّكوير: الآية ١٨]. وأما اليوم، فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل. وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد، فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: الآية ١٢]. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له، فقال: تمم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

أسئلة الحجاج وأجوبة الغضبان بن القبعثري

حُكِيَ أن الحجاج سأل يومًا الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له: مَن أكرم الناس؟ قال: أفقههم في الدين وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين.

قال: فمن ألأم الناس؟ قال: المعطي على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان.

قال: فمَن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة.

قال: فمَن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف.

قال: فمَن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف.

قال: فمَن أثقل الناس؟ قال: المتفنن في الملام، الضنين بالسلام، المهذار في الكلام، المقبقب على الطعام.

قال: فمَن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحسانًا وأقومهم ميزانًا، وأدومهم غفرانًا، وأوسعهم ميدانًا.

قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسيب هو أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلّك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداورته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند مَن لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة.

فقال الحجاج: لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هذرًا، ولا ينظر شزرًا، ولا يضمر غدرًا، ولا يطلب عذرًا، والجاهل هو المهذر في كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال: لله أبوك، فما الحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه، قال: العاجز؟ قال: المعجب بآرائه الملتفت إلى ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى. إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت،

ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن وقرّت عينه، ومَن شاورهن كدرن عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة.

فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وافد، فما أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه، فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجريه في ميداني.

قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينًا عليه أي جاسوسًا، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له: إن الحجاج قد همّ بخلعك وعزلك، فخذ حذرك، وتغدّ به قبل أن يتعشّى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعًا، فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر القيظ وهي رملة شديدة الرمضاء، فضرب قبته فيها، وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابيٍ من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدًا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظمىء ظمأ شديدًا، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟

قال: أصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمى، فيممت قبتك أرجو بركتها، قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتهن تعني؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث. قال: تلك لا يوصل إليها. قال: إن هذه أمنع منها، فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ، فقال: وما تعطي؟ قال: أكره أن يكون لي اسمان. قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض. قال: فأين تريد؟ قال: أمشي في مناكبها، فقال الأعرابي وهو يرفع رجلًا ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، فقال: يا هذا ائذن لي أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقني حر الشمس، قال: ما لي عليها من سلطان، فقال: الرمضاء أحرقت قدمي، قال: بل عليها تبرد، فقال: إني لا أريد طعامك، ولا شرابك، قال: لا تتعرض لما لا تصل إليه، ولو تلفت روحك، فقال الأعرابي: سبحان الله. قال:

نعم من قبل أن تطلع أضراسك، فقال الأعرابي: ما عندك غير هذا؟ قال: بلى. هراوة أضرب بها رأسك.

فاستغاث الأعرابي يا جار بني كعب. قال الغضبان: بئس الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث، فقال الأعرابي: ما رأيت رجلًا أقسى منك أتيتك مستغيثًا فحجبتني وطردتني، خلا أدخلتني قبتك وطارحتني القريض؟ قال: ما لي بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابي: بالله ما اسمك، ومَن أنت؟ فقال: الغضبان بن القبعثري. فقال: اسمان منكران خلقا من غضب. قال: قف متوكئًا على باب قبتي برجلك هذه العوجاء، فقال: قطعها الله إن لم تكن خيرًا من رجلك هذه الشنعاء، قال الغضبان: لو كنت حاكمًا لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة، فقال الأعرابي: إني لأظنك حروريًا. قال: اللهمّ اجعلني ممن يتحرّى الخير ويريده، فقال: إني لأظن عنصرك فاسدًا. قال: ما أقدرني على إصلاحه، فقال الأعرابي: لا أرضاك الله ولا حيّاك ثم ولّى، وهو يقول:

لا باركَ الله في قوم تسودُهم ... إنّي أظنّكَ والرحمٰن شيطانا
أتيتُ قبّتَهُ أرجو ضيافته ... فأظهر الشيخُ ذو القرنين حرمانا

فلما قَدِمَ الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش، بها ضعاف هؤلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلّوا ضاعوا.

فقال له الحجاج: ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنّك قلت لابن الأشعث تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشّى بك، فوالله لأحبسنك عن الوساد، ولأنزلنك عن الجياد، ولأشهرنك في البلاد.

قال: الأمان أيها الأمير، فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، فقال له: ألم أقل لك كأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، اذهبوا به إلى السجن، فذهبوا به، فقيّد وسجن، فمكث ما شاء الله.

ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة، نضرة

بهجة، قليل عيبها كثير خيرها، قال: لِمَ لم تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان، فبعث إلى الغضبان، فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك، ولا تبقى لك، وما أنت لها بباقٍ، فقال الحجاج: قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن، فلما حملوه قال: سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، فقال: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٢٩] فقال: اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية ٥٥] فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: الآية ٤١] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاءً وخبثًا، ثم عفا عنه، وأنعم عليه، وخلّى سبيله.

محمد بن عبد الملك والمأمون

حدّث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أُخذت، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له في الكلام، فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إلـه إلّا الله رب العرش العظيم، وصلّى الله والملائكة على محمد خاتم النبيّين، ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو أثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت حبله، ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين. هذا المقام مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكَلَب الدهر، وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطيّبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامي هذا متوسلًا إليك بآبائك الطيّبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمّد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفًا إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني واحتنكت بها سني، وريّش بها جناحي، متعوّذًا من شماتة الأعداء وحلول البلاء، ومقارفة

الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وعرفه، وقد أثبت الله الحق في نصابه، وأقرّه في داره، وأربابه، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال، وقد يقلب حالاً بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرًا بعد صفو، ومرًّا بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللّاتي غذتنا صغارًا وكبارًا وشبابًا وأشياخًا وأمشاجًا في الأصلاب، ونطفًا في الأرحام، وقدمنا في القرابة حيث قدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنث لطاعتك، فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهّل بك الوعور وجلا بك الديجور وملأ من خوفك القلوب والصدور، بك يرع الفاسق ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان فإن كل راعٍ مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر. وقد قال الله جلّ ثناؤه، وتعالت قدرته: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ [النور: الآية ٢٢] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي ومنعه الكافي ثم أنشد يقول:

أميـر المـؤمـنـيـن أتـاك ركـبٌ ... لـهـم قُربى وليس لـهـم تلاد[1]

هـم الصدر المقدّمُ من قريشٍ ... وأنـت الـرأس تـتـبـعـك الـعـبـاد

لقد طابت بك الدُّنيا ولذّت ... وأرجو أن يطيبَ بك المعاد

فكيف تنالكم لحظات عينٍ ... وكيف يقلّ سؤددك البلاد

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأناده، ودفع إليه من المال ما أغناه.

حروف المعجم في بدن الإنسان

حُكِيَ أن عبد الملك بن مروان جلس يومًا وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير

(١) التلاد: المال والموروث.

المؤمنين. أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة، وجه يد، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين.

فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثًا، فقال: هات ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول: أنف أسنان أذن، بطن بنصر بزة، ترقوة تمرة تينة، ثغر ثنايا ثدي، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ درادير، ذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة، زند زردمة زب، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه، ساق سرة، سبابة، شفة شفر شارب، صدر صدع صلعة، ضلع ضفيرة ضرس، طحال طرة طرف، ظهر ظفر ظلم، عين عنق عاتق، غبب غلصمة غنة، فم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب، نغنوغ ناب نن، هامة هيئة هيف، وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعًا، فقبّل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئًا أعطوه ما يتمناه، ثم أجازه وأنعم عليه، وبالغ في الإحسان إليه.

الحجاج يدخل العراق

حُكِيَ عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمن العباد.

فسكت القوم، ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومَن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف. قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلست هناك.

ثم قال: ما لي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة، فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق، ومطفىء نار النفاق، قال: ومَن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والريبة، قال: إليك عني، وذاك، فلست هناك.

ثم قال: مَن للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار والبسط، والازورار والإدناء، والإبعاد والجفاء، والبر والتأهب، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومَن نازعني قصمته، ومَن خالفني نزعته، ومَن دنا مني أكرمته، ومَن طلب الأمان أعطيته، ومَن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني، فإن كنت للأعناق قطاعًا، وللأموال جماعًا، وللأرواح نزاعًا، ولك في الأشياء نفاعًا، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن مَن يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيىء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته، ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك، فخرج الحجاج قاصدًا نحو العراق.

قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال: هذا الحجاج قدم أميرًا على العراق، فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثمًا بها، ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غصّ المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال: وكان في المسجد يومئذٍ عمير بن صابىء التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: اكفف حتى نسمع ما يقول، فأبى ابن صابىء وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميرًا كما هو ما كان بشيء،

والحجاج ساكت ينظر يمينًا وشمالًا، فلما رأى المسجد قد غصّ بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئًا، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه، ونهض قائمًا فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤوسًا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عودًا، وأصلبها مكسرًا، فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلًا في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقيل وقال وكان ويكون، يا أهل العراق: إنّما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربّها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا، وتابعوا، وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، وجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم، وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلًا يتخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه، يا غلام: اقرأ كتاب أمير المؤمنين.

فقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئًا، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئًا عليه؟ هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما والله لأؤدبنكم أدبًا غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فقرأ حتى بلغ قوله: سلام عليكم فلم يبد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار، أفتقبله بديلًا مني؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولي قال له قائل: أتدري مَن هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا

ابن صابىء الذي يقول:

هممت ولَمْ أفعلْ وكدتُ وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله[١]

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول، فوطىء في بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه، فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحًا للمسلمين. يا سياف اضرب عنقه، فضرب عنقه.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب

من حكايات الحجاج ما حُكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فشقّ عليه، وكتب إليه، أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء، وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالديّة، وفي العمد بالقود، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى، ونحن أمناؤه، فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عني أمران: لين وشدة، فلا يؤمننك إلا الطاعة، ولا يوحشنك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله عزّ وجلّ الظفر، فلا تقتلن جانحًا، ولا أسيرًا، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أمورًا كرهتها ... وتطلب رضائي بالذي أنا طالبُهْ

فإن تَرَ مِنّي غفلةً قرشيةً ... فيا ربما قد غصّ بالماء شاربهْ

وأن ترَ منّي وثبةً أمويةً ... فهذا وهذا كلّ ذا أنا صاحبهْ

فلا تأمننّي والحوادثُ جمةً ... فإنّك تجزي بالذي أنت كاسبُهْ

فلا تعدُ ما يأتيك منّي وإنْ تعد ... يقمن به يومًا عليك نوادبهْ

فلا تمنعنّ الناس حقًا علمته ... ولا تعطين ما ليس للناس واجبهْ

فإنك أنْ تعطي الحقوق فإنّما ... النّوافل شيءٌ لا يثيبك واهبهْ[٢]

---

(١) حلائله: جمع حليلة، وهي الزوجة.

(٢) النوافل: جمع نافلة، وهي ما تفعله مما لا يجب عليك فعله. يثيبك: يجزيك.

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلي العصاة إسرافًا وإعطائي المطيعين تبذيرًا، فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدًا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتّقي ... إذاك فليلي لا توارى كواكبه
وما لامرئ بعد الخليفة جنّة[1] ... تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئةً ... لقامت عليه بالصباح نوادبه
إذا أنا لم أدنِ الشفيق لنصحه ... واقصِ الذي تسري إليَّ عقاربه
وأعط المواسي في البلاء عطيةً ... لردّ الذي ضاقت عليَّ مذاهبه
فمن يتّقي بؤسي ويرجو مودتي ... ويخشى غدًا والدهر جمٌّ نوائبه
وأمري إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقلْ ما يقاربُهْ
ومهما أردت اليوم مني أردته ... وما لم ترده اليوم إنّي مجانبه
وقف بي على حدِّ الرضا لا أجوزه[2] ... مدى الدهر حتى يرجع الدرّ حالبه
وإلّا فدعني والأمورَ فإنّني ... شفيقٌ رفيقٌ أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فمن يلومني على محتبه، يا غلام اكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عينًا بما هناك.

وفي مروج الذهب للمسعودي أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام، ولدته مشوّهًا لا دبر له، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدي وأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور له في صورة الحرث بن كلدة حكيم العرب، فسألهم عن ذلك، فأخبره مخبر من أهله، فقال لهم: اذبحوا له تيسًا وألعقوه من دمه، وأولغوه فيه، ثم أطلوا به وجهه، ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر على سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا

---

(١) جنة: درع.

(٢) أجوزه: أي أتجاوزه، والدر: اللبن.

يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كلدة، فدخل عليها يومًا في السحر، فوجدها تخلل أسنانها فطلقها، فسألته لمَ فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيّك، فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك، فقال: قضي الأمر، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج. وقيل إن الحجاج تقلّد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف، أحصي من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفًا، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد، وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمنًا؟ قال: نعم بالطاغوت، وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم.

عالِمــة بالأنساب

حُكِيَ عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يومًا مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قاعدة النهد، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحلّ وكاؤها[1] فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاهًا قد غلبني فوهًا لا طاقة لي بفيّها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أوَ عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم. قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسبًا، وأعظمها حسبًا، وخيرها

(١) الوكاء: رباط القربة والوعاء والكيس.

أمًا وأبًا، وممن تهابه مضر كلها قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولدًا وأشرفها محتدًا[١] وأطولها في المكرمات يدًا، ممن تهابه كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكرًا وأعظمها فخرًا، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم، قالت: من أي هاشم، قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه، فعند ذلك قبّلت الأرض، وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة ربّ العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طربًا عظيمًا وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاحقته العساكر، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورًا، وهي والدة ولده العباس.

هند بنت النعمان والحجاج

وحُكِيَ أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالًا جزيلًا، وتزوّج بها، وشرط لها عليه بعد الصدق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

وما هندٌ إلّا مهرةٌ عربية ... سليلة أفراسٍ تحلّلها بغلُ
فإن ولدت فحلًا فللّه درّها ... وإن ولدت بغلًا فجاء به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعًا ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين، ولا تزد عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: اعلم يا ابن طاهر: أنا والله كنا فما حمدنا، وبنا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

---

(١) المحتد: الأصل.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتابًا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشيًا حافيًا بحليته التي كان فيها أولًا، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكًا شديدًا، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي لي سجف المحمل، فكشفته، فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكي منّي فيا طولَ ليلةٍ ... تركتك فيها كالقباءِ المفرّجِ

فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت ... بما فقدناه من مالٍ ومن نشب(١)

فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ ... إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم، فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا دينارًا، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوّضنا الله دينارًا، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جوابًا، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان، فتزوج بها.

---

(١) نشب: المال من خيل وإبل وغيره.

فطنة وفصاحة جارية

حُكِيَ أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتّاب، فعبر يومًا تحت جوسق بستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها، فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة عرض إليها بالزيارة في جوسقها، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبرًا، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل، وقالت للعجوز: هذا جواب رقعته، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتحيّر في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباها متحيّرًا في ذلك قالت له: يا أبت أنا علمت معناه قال: وما هو لله درك؟ قالت:

أهدتْ لك العنبرَ في جوفهِ … زرٌ من التبر خفي اللحامِ
فالزر والعنبر معناهما … زُرْ هكذا مختفيًا في الظلام

قال: فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها.

أخــذت بثأرها

حُكِيَ أن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون؟ فقالت: ولمَ لا نكتني وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال: أفعل إن شاء الله، فخجلت من قوله وتغيّر وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها، فقالت له: هل تحسن شيئًا من العروض؟ قال: نعم. قالت: قطع لي:

حوّلوا عنا كنيستكم … يا بني حمالة الحطب

فقطعه، فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت ثأرك.

كُثَيِّر عَزَّة والعجوز

وقيل: بينما كُثَيِّرُ عَزَّة مار بالطريق يومًا إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها: تنحي عن الطريق، فقالت له: ويحك ومَن تكون؟ قال:

أنا كُثَيِّرُ عَزَّة[١]. قالت: قبّحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولـمَ؟ قالت: ألست القائل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى   يمج الندى جثجاثها وعرارها[٢]
بأطيب من أردانِ عَزَّةَ موهنًا   إذا أُوقِدتْ بالمجمر اللدنِّ نارها[٣]

ويحك يا هذا! لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها، لم لا قلت مثل سيدك امرىء القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقًا   وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابًا.

الحجاج والخارجية

قيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيرًا من وزرائك يا حجاج. قال: ومَن هو صاحبي؟ قالت: فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج، فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك، وأنت لا تنظرين إليه، فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى مَن لا ينظر الله إليه.

امرأة أصابت ورجل أخطأ

حكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقه أزواج النبيّ ﷺ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أربعمائة درهم، فأدّى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها، فصعد المنبر وحمد الله

---

(١) كُثَيِّر عَزَّة بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، وكان مفرط القصر دميمًا في نفسه شمم وترفع، أخباره مع عزة بنت جميل الضمرية كثيرة، وكان عفيفًا في حبه لها، توفي بالمدينة وله ديوان شعر مطبوع.

(٢) جثجاثها وعرارها: الجثجاث نبات وكذلك العرار.

(٣) أردان: أصل الكم أو طرفه الواسع.

تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد أُلقيت زيادته في بيت مال المسلمين، فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في يدها طول، فقالت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: الآية ٢٠] فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

شكوى امرأة

وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نِعْمَ الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعبًا، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: عليَّ بزوجها، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك، فأنشدت المرأة تقول:

يا أيّها القاضي الحكيمُ أنشده ... ألهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقدُهُ ... فلستُ في أمر النساء أحمدُه

فأنشأ الزوج يقول:

زهّدني في فرشها وفي الحلل ... أنّي امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطوَل ... وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي:

إنَّ لها عليك حقًّا لم يزل ... في أربع نصيبها لمن عقل
فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة، فقال عمر رضي الله عنه: لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلّمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على

الطريق، فتميّزت ذاك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: الآية ٥٨]، قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٦]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: الآية ١]، فعلمت أنها قد قضت حجها، وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنتِ منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٠]، فقلت: ما أرى معك طعامًا تأكلين؟ قالت: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشُعَرَاء: الآية ٧٩] فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: الآية ٤٣؛ المائدة: الآية ٦]، فقلت لها: إن معي طعامًا، فهل لك في الأكل، قالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان. قالت: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٨]، فقلت: قد أُبيح لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٤]، فقلت: لِمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك؟ قالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: الآية ١٨]، فقلت: فمن أي الناس أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل، قالت: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة، قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧] قال: فأنخت ناقتي، قالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: الآية ٣٠] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩] فعقلت الناقة وقلت لها: اركبي فلما ركبت قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: الآيتان ١٣، ١٤] قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: الآية ١٩] فجعلت أمشي رويدًا رويدًا وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المُزمّل: الآية ٢٠]

فقلت لها: لقد أوتيت خيرًا كثيرًا، قالت: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرة: الآية ٢٦٩] فلما مشيت بها قليلًا قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠١] فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: الآية ٤٦] فعلمت أن لها أولادًا فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النّحل: الآية ١٦] فعلمت أنه أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: الآية ١٢] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيىٰ فإذا أنا بشبّان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقرّ بهم الجلوس قالت: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: الآية ١٩] فمضى أحدهم فاشترى طعامًا فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقّة: الآية ٢٤] فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمٰن، فسبحان القادر على ما يشاء، فقلت: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤] والله أعلم بالصواب وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

عوائد العرب في الخطابة

قال الألوسي في «بلوغ الأرب»:

كان للعرب اعتناء بالخطيب في الجاهلية، أكثر من اعتنائهم بها في إسلامهم، وكانت لهم فيها عوائد غريبة، وشؤون عجيبة. فمن عوائدهم فيها أنهم كانوا يتخيرون لها أجزل المعاني وينتخبون لها أحسن الألفاظ تحصيلًا لغرضهم ونيلًا لمقصدهم فإن الألفاظ الرائقة والمعاني الجزلة أَوْقَعُ في النفوس، وأشدُّ تأثيرًا في القلوب، ولذلك قيل: إن في البيان لسحرًا ومن عوائدهم فيها أن الخطيب منهم إذا خطب في تفاخر وتنافر وتشاجر، رفع يده ووضعها، وأدَّى كثيرًا من مقصاده بحركات يده؛ فذاك أعون له على غرضه وأرهب للسامعين له، وأوجب لتيقظهم، وهو التشذُّر المذكور في قول لبيد:

غُلْبٍ تَشَذَّرُ بالذُّحُولِ كأنها   جنُّ البَدِيّ رواسيًا أقدامُها

التشذُّر رفع اليد ووضعها كما سبق والذُّحول هي الأحقاد يقول: هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود. أي خلقوا خلقة الأسود يهدد بعضهم بعضًا بسبب الأحقاد.

ومن عوائدهم فيها أخذ المِخْصَرَةَ بأيديهم. وهي ما يتوكأ عليها كالعصا ونحوه أو ما يأخذ الملك يشير به إذا خاطب، والخطيب إذا خطب، فلا يخطبون إلا بالمخاصر. وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسي، ويشيرون بالعصا والقنا. ومنهم مَن كان يأخذ المخصرة في خطب السلم، والقسيَّ في الخُطَب عند الخطوب والحروب.

واستشهد الجاحظ في كتاب البيان بكثير من شعرهم.

واستحسن العرب في الخطيب أن يكون جهير الصوت، ولذلك مدحوا سعة الفم، وذمُّوا صغره، حتى قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحبُ الشدق، وبُعدُ الصوت. وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

تشادَقَ حتى مال بالقولِ شِدْقُهُ وكلُّ خطيب لا أبالك أَشْدَقُ

وأنشد أبو عبيدة:

وصُلْعُ الرؤوس عظامُ البُطُونِ رِحابُ الشِّداقِ طِوالُ القَصَرْ[1]

وقال العجير السلولي في شدة الصوت:

لدى كل موثوقٍ به عند مثلها له قدمٌ في الناطقين خطيرُ
جهيرٌ وممتدُّ العنان مُناقِلٌ يصيرُ بعورات الكلام خبيرُ
فظلَّ رداءُ العَصْبِ ملقى كأنَّهُ سَلَى فرسٍ تحت الرجال عقيرُ[2]
ولو أن الصخور الصَّم يسمعن صَلْقَنَا لرُحْنَ وفي أعراضهنَّ فُطورُ[3]

وقال مهلهل:

ولولا الريحُ أُسْمِعُ أهْلَ نجدٍ صليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذكور[4]

وكان شبيب يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد. وقال الشاعر فيه:

أن صاحَ يومًا حسِبْتَ الصخرَ منحدرًا والريحَ عاصفةً والموج يلتطمُ

والشعر كثير في ذلك. والمقصود أن جهارة الصوت مما يُمدحُ بهِ الخطيب وتكون من محاسنه.

ومن عوائدهم في الخطاب أن يكون الخطيب على زي مخصوص في العمامة واللباس تنويهًا بشأنه وأَدْخَلَ في تحصيل الغرض والمقصود. وقد أطنب

(١) القَصَر: الأعناق.
(٢) العصب: بُرْد يصبغ ثم ينسج. والسَّلَى: الجلدة التي يكون فيها الولد من الناس والمواشي.
(٣) الصلق: شدة الصوت، والفطور: الشقوق.
(٤) الذكور: السيوف التي عملت من حديد غير أنيث. وقيل: أول كذب سُمع في الشعر هذا البيت.

الجاحظ القول في البيان والتبيين على خطب العرب، وبيان عوائدهم فيها، وما أورده من الشعر شاهدًا على دعواه مما يُغني عن ذكره في هذا المقام.

قال الألوسي:

وخطباء العرب في الجاهلية كثيرون كثرة شعرائهم. غير أن البعض منهم كان يغلب عليه قول الشعر فيعد من الشعراء. وينتظم في سلكهم، وآخرين يغلب عليهم منثور الكلام وفصيح البيان. فيعد من رجال الخطابة شأن كل مَن غلب عليه معرفة فن من الفنون. فمن نظم الشعر لا يعجزه إنشاء الخطاب، وكذلك خطباء كثيرون يعدّون من مفلّقي الشعراء.

انتهى كلام الألوسي(١).

خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادي

خطب قُسْ بن ساعدة الإيادي بسوق عُكاظ، فقال:

أيها الناس: اسمعوا وعُوا. مَن عاش ماتْ، ومَن ماتَ فاتْ، وكلُّ ما هو آتٍ آتْ. ليلٌ داجْ، ونهارٌ ساجْد وسماءٌ ذاتُ أبراجْ، ونجومٌ تَزْهَرْ، وبحارٌ تَزْخَرْ، وجبالٌ مُرْساةْ، وأرضٌ مُدْحاةْ، وأنهارٌ مُجْراةْ. إن في السماءِ لخبرا، وإن في الأرض لعِبرا. ما بالُ الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قُسٌّ بالله قسمًا لا إثم فيه: إن للهِ دينًا هو أرضَى له، وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكرًا.

ويروى أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

فـي الـذاهـبـيـن الأوّلـيـنَ مـن الـقـرونِ لـنـا بـصـائـرْ
لـمّـا رأيـتُ مـواردًا ... للموت ليس لها مصادِرْ
ورأيتُ قومي نحوها ... يسعى الأكابرُ والأصاغِرْ
لا يرجع الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابِرْ
أيقنتُ أني لا محالةَ ... حيث صار القومُ صائرْ(٢)

---

(١) بلوغ الأرب: ٣/١٥٢ ـ ١٥٥.
(٢) جمهرة خطب العرب: ١/٣٨ ـ ٣٩.

خطبة عبد المطلب بين يدي سيف بن ذي يزن

لما ظفر سيف بالحبشة، وذلك بعد مَولد النبيّ ﷺ بسنتين، أتته وفود العرب وأشرافها تُهنئهُ وتمدحه فأتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد، في ناس من وجوه قريش، فأتوه وهو في قصرٍ يقال له غُمدان، فأخبره الآذن بمكانهم، فأذِن لهم، فدخلوا عليه وهو على شرابه، وعن يمينه ويساره الملوك والمقاول، وبين يديه الشعراء يمدحونه.

فدنا عبد المطلب فاستأذنه بالكلام، فقال له سيف بن ذي يزن: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنًا لك. فقال عبد المطلب:

إنَّ الله قد أحلَّك، أيها الملك محلًا رفيعًا، صعبًا منيعًا، شامخًا باذخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزَّتْ جرثومته، في أكرم موطن، وأطيب معدن. فأنت - أبيت اللعن - ملِكُ العرب، وربيعها الذي به تُخصب. وأنت أيها الملك رأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. فسلفك خير سلف، وأنت خير خلف، فلن يخمل مَن أنت سلفه، ولن يهلك مَن أنت خلفه. نحن أهل حرم، الله وسدنة بيته، أشخَصَنا إليك الذي أنهجك لكشف الكرب الذي فَدَحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

قال سيف: وأيُّهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطَّلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم. فأدناه حتى أجلسه إلى جنبه، ثم أقبل على القوم وعليه وقال: مرحبًا وأهلًا، وناقةً ورحلًا، ومستناخًا سهلًا، وملكًا رِبَحْلًا[1]، يُعطي عطاءً جَزْلًا. قد سمع الملكُ مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأهلُ الشرف والنباهة أنتم، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم.

قال الراوي: ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأُجريت عليهم الأنزال. فأقاموا ببابه شهرًا لا يصلون إليه ولا يأذن لهم في الانصراف. ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم فخلا به وأوفى مجلسه وقال: يا عبد المطلب، إني مفوّض إليك من سرّ علمي أمرًا لو يكون غيرك لم أبح به إليه، ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك عليه. فليكن عندك مطويًا حتى يأذن الله فيه، فإن

(١) رِبَحْلًا: عظيم الشأن.

الله بالغُ أمره. إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا فيه شرفُ الحياة، وفضيلة الوفاة للناس كافة ـ ولرهطك عامة، ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مثلك أيها الملك من برّ وسرَّ وبَشَّر، ما هو؟ فِداكَ أهلُ الوبرِ، زُمَرًا بعد زُمَر.

قال ابن ذي يزن: إذا ولد مولود بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أيها الملك، لقد أُبْتُ بخيرٍ ما آب بمثله وافد، ولولا هيبة الملك وإكرامه، وإعظامه لسألته أن يزيدني في البشارة ما ازداد به سرورًا.

فقال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جدُّهُ وعمه. قد وجدناه مرارًا، والله باعثه جهارًا، وجاهل له منّا أنصارًا، يُعزُّ بهم أولياءه، ويُذلُّ بهم أعداءه، يضرب بهم الناس عن عُرْض[1]، ويستبيح بهم كرائم الأرض ويُخمد النيران، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمٰن. قوله فَصْل، وحكمه عدل؛ يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويُبْطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، عزَّ جَدُّك[2]، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك فهل الملك مخبري بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطُّنُب، والعلاماتِ والنُّصُبب، إنك يا عبد المطلب، لجدُّه من غير كذب.

فخرَّ عبد المطلب ساجدًا، فقال له: ارفع رأسك، أثلج الله صدرك، وعلا أمرك فهل أحسَسْتَ شيئًا مما ذكرته لك؟ قال عبد المطلب: أيها الملك كان لي ابن وكنت به معجبًا ـ وعليه رفيقًا، زوَّجتُه كريمة من كرائم قومي، اسمها آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمَّيْتُهُ محمدًا، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه. قال: الأمر كما قلت، فاحفظ ابنك، واحذر عليه من اليهود، فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلًا. وأطْوِ ما ذكرتُ لك عن الرهط الذين معك، فإني لستُ آمَنُ

---

(١) عن عُرْض: عن قوة.

(٢) الجَدُّ: المكانة والمنزلة عند الناس.

أن تدخلهم النَّفاسة[١] من أن تكون لكم الرياسة، فيبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أني أعلم أن الموت مُجتاحي قبل مبعثه، لسرتُ بخيلي وَرَجْلي حتى أصير بيثرب. فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته وبيت نُصْرته. ولولا أني أتوقَّى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حداثة سنّه أمره، وأوطأت أقدام العرب عَقِبَه. ولكني صارفٌ إليك ذلك عن غير تقصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أرطال فضة، وحلّتين من حُلل اليمن، وكَرِش[٢] مملوءة عنبرًا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئني بما يكون من أمره.

فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاد، ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكره وفخره لعقبي. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين[٣].

ومن خطبة لكعب بن لؤي وهو الجد السابع للنبيّ ﷺ

«اسمعوا وعُوا، وتعلَّموا تعلموا، وتفهَّموا تفهموا. ليل ساج، ونهارٌ ضاح، والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين. كل ذلك إلى بلاء، فصِلوا أرحامكم، وأصلحوا أحوالكم.

فهل رأيتم هالكًا رجع، أو ميتًا نُشِر؟ الدار أمامكم، والظَّنُّ خلاف ما تقولون. زيِّنوا حرمكم وعظِّموه، وتمسكوا به لا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم، ثم قال:

نهارٌ وليلٌ واختلاف حوادثٍ ... سواءٌ علينا حُلْوُها ومريرها

يئوبان بالأحداثِ حتى تأوَّبا ... وبالنِّعَم الضافي علينا ستورُها

صروفٌ وأنباءٌ تقلَّبَ أهلُها ... لها عُقدٌ ما يستحيلُ مريرها

على غفلةٍ يأتي النبيُّ محمدٌ ... فيخبر أخبارًا صدوقًا خبيرها

---

(١) النفاسة: الحَسَد. ونَفَس بهذا الشيء على فلان: حسده عليه ولم يره أهلًا له.

(٢) الكَرِش: وعاء الطيب.

(٣) العقد الفريد: ١/٢٨٩ ـ ٢٩٣.

نعيم بن ثعلبة الكناني

كان يخطب العرب في الموسم، وينقادون لأوامره ويمتثلونها وينتهون عما نهى. وهو أول مَن نسأ الشهور. قال أبو بكر الأنباري:

كانوا إذا صدروا من «مِنى» قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة من بني كنانة فقال: أنا الذي لا أُعاب، ولا يردّ لي قضاء؛ فيقولون: أَنسِئنا شهرًا، أي أَخِّرْ عنّا حرمة المحرم فاجعلها في صفر. وذلك أنّهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفرًا، فإذا كان في السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحلّ صفرًا. فقال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبَة: الآية ٣٧].

قال الشاعر:

وكـنّـا الـنـاسـئـيـن عـلـى مـعـدٍ   شـهـورَهُـمُ الـحـرامَ إلـى الـحَـلـيـل

وقال آخر:

ألـسـنـا الـنـاسـئـيـن عـلـى مـعـدٍّ   شـهـور الـحِـلِّ نـجـعـلـهـا حـرامـا؟

وقال آخر:

نسأوا الشهور بها وكانوا أهلها   من قبلكم والعزُّ لم يتحوَّلِ(١)

خطبة سعد بن عبادة يوم السقيفة

لمّا قُبض النبيّ ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا: نُولِّي هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام. سعد بن عُبادة، وأخرجوا سعدًا إليهم وهو مريض. فلما اجتمعوا قال لابنه أو لبعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي، ولكن تلقَّ من قولي فأَسْمِعْموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قولَه؛ فيرفع صوته فيسمع أصحابه. فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب. إن محمدًا عليه الصلاة والسلام لبثَ بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمٰن ـ وخلع الأندادِ والأوثان، فما آمن به من قومه إلّا رجال قليل

(١) بلوغ الأرب: ٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يعزُّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيمًا عُمُّوا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة، وخصَّكم بالنِّعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدَّ الناس على عدُوِّه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا، وأعطى البعيدُ المقادة صاغرًا داخرًا[١]، حتى أثخن[٢] الله عزّ وجلّ لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفّاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قريرُ عين. استبدُّوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس».

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقتَ الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدوَ ما رأيت نوَلِّيك الأمر. وأتى عمر إلى أبي بكر فقال: «أما علمت أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ـ يريدون أن يولُّوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنُهم مقالةً مَن يقول: منا أمير ومن قريش أمير.

فمضيا مسرعين نحوهم، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فتماشوا إليهم ثلاثتهم. فجاؤوهم مجتمعون، فقال عمر: أتيناهم وقد كنت زَوَيْتُ[٣] كلامًا أردت أن أقوم به فيهم، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدىء المنطق، فقال لي أبو بكر: رويدًا حتى أتكلم، ثم أنطق بعدُ بما أحببت فنطق.

فقال عمر: فما شيء، كنت أردت أن أقوله إلّا وقد أتى به أو زاد عليه[٤].

خطبة النبيّ ﷺ في حجّة الوداع

«الحمد لله بحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومَن يهدِ الله فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلـه إلّا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أُبيِّنْ لكم؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى

(١) داخرًا: ذليلًا.
(٢) أثخنه: أوهنه وأخضعه.
(٣) زويتُ كلامًا: أعددتُ كلامًا.
(٤) جمهرة خطب العرب: ١/١٧٣ ـ ١٧٤.

أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلَّغت؟ اللهم أشهد! فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى مَن ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإنّ أول ربًا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[١]. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السِّدانة والسِّقاية. والعَمْدُ قَوَد[٢]، وشِبْهُ العَمْد ما قُتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقّرون من أعمالكم. أيها الناس: إنما النَّسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلّونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عِدَّةَ ما حرَّم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عِدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض، منها أربعة حُرُم، ثلاثةٌ متواليات، وواحد فمد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جُمادَى وشعبان. ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهنَّ حق. لكم عليهن إلا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذِن لكم أن تعضُلوهنَّ[٣] وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساءُ عندكم عَوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئًا. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله. في النساء، واستوصوا بهنَّ خيرًا، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه إلا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد!

---

(١) كان مسترضَعًا في بني ليث فقتلته بنو هذيل.

(٢) القود: القصاص. أي مَن قتل عمدًا يُقتل. (٣) العضل: الحبس والتضييق.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضلٌ إلّا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد! قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارثٍ وصية، ولا يجوز وصيةٌ في أكثر من الثلث.

والولد للفراش وللعاهر الحَجَر[1]، مَن ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدل[2]. والسلام عليكم ورحمة الله[3].

خطبة الحسن بن علي بن أبي طالب بعد وفاة أبيه

خطب الحسن بن علي (ع) بعد وفاة والده فنعاه فقال:

«لقد قتلتم الليلة رجلًا في ليلة فيها أنزل القرآن، وفيها رفِعَ عيسى ابن مريم عليه السلام، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام. واللهِ ما سبقهُ أحدٌ كان قبلَه. ولا يُدركه أحدٌ يكونُ بعده. واللهِ إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه في السريَّة وجبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. واللهِ ما ترك صفراءَ. ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله» ثم خنقته العبر فبكى وبكى الناس معه. ثم قال:

«أيها الناس: مَن عرفني فقد عرفني. ومَن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلّى الله عليه وآله.

أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرَهم تطهيرًا، والذين اقترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: الآية ٢٣] فاقتراف الحسنة مودتُنا أهل البيت».

---

(١) العاهر: الزاني. أي لا حق له في النسب ولا حظّ له في الولد، وإنما هو لصاحب الفراش أي لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها. وهو كقوله الآخر: له التراب، أي لا شيء له.

(٢) الصرف: التوبة. والعدل: الفدية. وقيل: الصرف القيمة، والعدل المِثْل.

(٣) جمهرة خطب العرب: ١/ ١٥٥ ـ ١٥٨.

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبيد الله بن العباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا: ما أحبَّهُ إلينا وأحقَّه بالخلافة! فبايعوه ثم نزل من المنبر[١].

وخطبته بعد الصلح مع معاوية

روى المدائني، قال: سأل معاوية الحسن بن علي (ع) بعد الصلح أن يخطب الناس فامتنع. فناشده أن يفعل، فوضع له كرسي فجلس عليه ثم قال:

«الحمد لله الذي توحَّدَ في مُلكِه، وتفرَّدَ في ربوبيته، يؤتي الملك مَن يشاء، وينزعُهُ عمَّنْ يشاء، والحمدلله أكرمَ بنا مؤمنكم، وأخرج من الشِّركِ أوَّلَكم، وحقن دماء آخِرِكم، فبلاؤنا عندكُم قَديمًا وحديثًا أحسن البلاء، أن شكرتم أو كفرتم.

أيها الناس: إن ربَّ عليٍّ كان أعلم بعليٍّ حينَ قبضهُ إليه، ولقد اختصَّهُ بفضلٍ لم تعتدّوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقتِه، فهيهات هيهات، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها، جرَّعكم رنقًا[٢]، وسقاكم علقًا، وأذلَّ رقابكم، وأشرقكم بريقكم، فلستم بملُومين على بُغْضِه. وأَيْمُ الله لا ترى أمةُ محمد خَفْضًا ما كانت سادتهم وقادتهم بني أميَّة. ولقد وجّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا، لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم إلى شياطينكم. فعند الله احتسب ما مضى، وما ينتظر من سوء دَعَتكم، وحيفِ حكمِكُم؟ ثم قال:

«يا أهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهمٌ من مرامي الله، صائب على أعداء الله، نكالٌ على فُجّارِ قريش، لم يزل آخذًا بحناجرها، جاثمًا على أنفاسها، ليس بالملومة في أمر الله، ولا بالسَّروقة لمال الله، ولا بالفَروقة[٣] في حرب أعداء الله، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجابه، وقاده فاتبعه، لا تأخذه في الله لومة لائم، فصلوات الله عليه ورحمته».

فقال معاوية: أخطأ عَجيلٌ أو كاد، وأصاب مُتَثَبِّتٌ أو كاد. ماذا أردتُ من خطبة الحسن؟[٤]

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٧ ـ ٨.
(٢) ماء رنق: كدر.
(٣) الفروق والفروقة: الشديد الفزع.
(٤) جمهرة خطب العرب: ٢/ ١٣.

ومن أقوال الحسن عليه السلام:

اعلموا أن الحلم زين، والوقار مودَّة، والصلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسَّفَه ضعف، والقلق ورطة، ومجالسة أهل الدنائة شَيْن، ومخالطة أهل الفسوق ريبة[(١)].

خطبة الحسين بن علي عليه السلام

خطب الإمام الحسين بن علي (ع) وأصحاب الحرِّ الرياحي بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيها الناس، وإن رسول الله ﷺ قال: «مَن رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقًّا على الله أن يدخله مُدْخله».

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرَّموا حلاله، وأنا أحقُّ من غير، وقد أتتني كتبكم، وقدِمت عليَّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم؛ وأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم فيَّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم. والمغرور من اغترَّ بكم. فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومَن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغنني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[(٢)].

ما قاله الإمام الحسين (ع) غداة يوم مقتله

«يا عباد الله، اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر؛ فإن الدنيا لو بقيت على أحد أو بقي عليها لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء، وأولى بالرضا، وأرضى بالقضاء. غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء، فجديدُها بال، ونعيمها مضمحل،

---

(١) صبح الأعشى: ١/ ٢١٥.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٨.

وسرورها مكفهر، والمنزل تَلْعة والدار قُلْعة[١] فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلّكم تفلحون»[٢].

خطبة معاوية بن يزيد بن معاوية

كان صبيًا ضعيفًا، ملك أربعين يومًا، وقيل: ثلاثة أشهر. ثم أمر بالصلاة جامعة، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ فإني قد نظرتُ في أمركم فضعفتُ عنه، فابتغيتُ لكم رجلًا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيتُ لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له مَن أحببتم؛ فما كنتُ لأتزوّدها ميتًا، وما استمتعتُ بها حيًا.

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيّب حتى مات. قيل: دُسَّ إليه فسُقي السمّ، وقال بعضهم: طُعن. وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: إحدى وعشرين سنة[٣].

خطبة محمد ابن الحنفية

خطب عبد الله بن الزبير فقال من الإمام علي (ع) فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية، فأقبل حتى وُضِعَ له كرسي قرب المنبر فعلاه وقال: «يا معشر قريش، شاهت الوجوه، أينتقص عليٌّ وأنتم حضور؟ إنَّ عليًا كان سهمًا صادقًا، أحدَّ مرامي الله على أعدائه، يقتلهم لكفرهم، ويتهوّعهم[٤] مآكلهم، فثقل عليهم، فرموه بصِرْفة الأباطيل[٥].

وإنَّا معشرٌ له على نهج من أمره بنو الحسْبة[٦] من الأنصار. فإن تكن لنا الأيام دولة ننثر عظامهم، ونحسر عن أجسادهم، والأبدان يومئذٍ بالية ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

---

(١) منزل تلعة: مخوف لأنه يكون في مجرى الماء من أعلى إلى أسفل وهو التلعة. ودار قلعة: ليس بمستوطن ولا ندري متى نتحول عنه.

(٢) الجمهرة: ٢/ ٥١.

(٣) الجمهرة: ٢/ ١٩٠؛ والفخري ص ١١٨.

(٤) هوّعه ما أكل: قيّأه إياه.

(٥) صِرْفة الأباطيل: الأباطيل الخالصة الصِرْفة.

(٦) الحسبة: الاحتساب. أي طلب الأجر من الله على الأعمال الصالحات.

فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال:

«عذرت بني الفواطم يتكلمون فما بال بني الحنفية؟».

فقال محمد:

«يا ابن أم رومان[١]، وما لي لا أتكلم؟ أليست فاطمة بنت محمد ﷺ حليلةَ أبي وأمَّ إخوتي؟ أوليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتي وأم أبي؟ أوليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركتُ في بني أسد عظمًا إلّا هشَّمته، وإن نالتني فيه المصائب صبرت»[٢].

وصية عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب لابنه

وصَّى عبد الله بن الحسن ابنه محمدًا النفس الزكية (أو إبراهيم) فقال:

أي بُنيّ، إني مؤدٍّ حق الله في تأديبك، فأدِّ إليّ حقَّ الله في الاستماع مني.

«أيْ بني، كُفَّ عن الأذى، وأرفض البذاء، واستعِنْ على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تَدعوك فيها نفسك، فإن للقول ساعات يضرُّ فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب. واحذر مشورة الجاهل، وإنْ كان ناصحًا، كما تحذر مشورة العاقل. إذا كان غاشًا، لأنه يورطك بمشورتهما ـ فيسبق إليك مكر العاقل ـ وغرارة الجاهل».

يرديك بمشورته. واعلم يا بنيّ أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائمًا، ووجدت هواك يقظان. فإياك أن تستبدّ برأيك، فإنه حينئذٍ هواك، ولا تفعل فعلًا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا تُرديك وأن نتيجته لا تجني عليك»[٣].

من أخبار أهل الخطابة والبلاغة

إياس بن معاوية

دخل إياس بن معاوية المزني الشام وهو غلام، فتقدم خصمًا له ـ وكان الخصم شيخًا كبيرًا ـ إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان. فقال القاضي: أتتقدم شيخًا كبيرًا؟ قال: الحق أكبر منه. قال: اسكتْ. قال: فمن ينطق بحجتي؟

---

(١) أم رومان بنت عامر، هي زوج أبي بكر رضي الله عنه وأم السيدة عائشة.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٩٠. (٣) جمهرة خطب العرب: ٣/ ٣٩.

قال: لا أظنك تقول حقًا حتى نقوم. قال: لا إلـه إلا الله، أحقًا هذا أم باطلًا؟ فقام القاضي فدخل على عبد الملك وأخبره الخبر. فقال له: اقضِ حاجتَه وأخرجه من الشام، لا يفسد علينا الناس. وكان هذا الغلام أياس بن معاوية، فكيف وقد كبر!

قال الجاحظ: أبو وائلة أياس بن معاوية المزني، وصاحب الزكن: أي المعروف بقوة الفراسة. ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شبرمة: أنا وأنت لا نتفق. أنت لا تشتهي أن تسكت. وأنا لا أشتهي أن أسمع.

وأتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس. ورأوه أحمر دميمًا. باذَّ الهيئة فاستهانوا به. فلما عرفوه اعتذروا له وقالوا: الذنب مقسوم بيننا؛ أتيتنا في زيٍّ مسكين تُكلمنا كلام الملوك.

وقيل له: ما فيك من عيب غير أنك معجبٌ بقولك. قال: فما أعجبكم قولي؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحقُّ بأن أعجَبَ بما أقول. وبما يكون مني منكم.

عون بن عبد الله

كان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، من الخطباء. ، وكان مع ذلك راوية ناسبًا شاعرًا. ولما رجع عن قول المرجئة إلى الشيعة قال:

وأول ما تفارق غير شكٍّ ... نفارق ما يقول المرجؤنا
وقالوا: مؤمنٌ من آل جورٍ ... وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا: مؤمنٌ دمه حلالٌ ... وقد حَرُمَتْ دماءُ المؤمنينا

لزم عون عمر بن عبد العزيز. وكان ذا منزلة منه وفيه يقول جرير:

يا أيها الرجل المرخي عمامتَهُ ... هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتَنا إنْ كنت لاقيَهُ ... إني لدى الباب كالمشدود في قرنِ
وقد رآك وفود الخافقين معًا ... ومذ وليت أمورَ الناس لم ترني[1]

(١) البيان والتبيين: ١٧٤.

من خطبة البرزخ للإمام علي بن أبي طالب

قال ابن أبي الحديد في تقديم هذه الخطبة:

أقسم بمن تُقسم به الأمم كلها: لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين وإلى الآن أكثر من ألف مرة وما قرأتها إلَّا أحدثث عندي روعًا وخوفًا وعظةً ـ فمن تأمل فصولها علم صدق معاوية في قوله فيه: «والله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره» وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس، وتليت عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع:

«قـلمٌ أصـاب مـن الـدُّواة مـدادهـا»

فلما قيل لهم: لما سجدتُم؟ قالوا: إنا نعرف مواضع السُّجود للشعر، كما تعرفون مواضع السجود في القرآن. وهذه مقتطفات منها:

سلكوا في بطون البرزخ سبيلًا سُلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربتْ من دمائهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادًا لا ينتمون، وضِمارًا[1] لا يوجدون. جيران لا يتأنَّسون، وأحبَّار لا يتزاورون، بُليت بينهم عُرى التعارف، وانقطعت منهم أسبابُ الإخاء، فكُلُّهُم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلَّاء، لا يتعارفون للَّيْل صباحًا، ولا للنهار مساءً، أيُّ الجديدين ظعنوا[2] فيه كان عليهم سرمدًا. شاهدوا من أخطار دارهم أفظع ممَّا خافوا، ورأوا من آياتها أعظم مما قدَّروا فكلتا الغايتين مُدَّت لهم إلى مباءةٍ فأتت مبالغ الخوف والرجاء.

فلو مثلتهم بعقلك، أو كُشِفَ عنهم محجوب الغطاء لك، وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكَّتْ، واكتحلَتْ أبصارهم بالتراب فخسفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وهمدت صدورهم بعد يقظتها».

البرزخ: الحاجز بين شيئين ـ والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث. فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع هو القبر ـ لأنه حاجز بين الميت وأهل الدنيا كالحائط المبني بين اثنين ـ فإنه برزخ بينهما ـ ويجوز أن يراد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور[3].

---

(١) الضمار: الغائب.

(٢) ظعن في المكان: أقام فيه. والجديدان: الليل والنهار.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/١٣٦.

ومن خطبة له عليه السلام تسمَّى «البرزخ» وهي من الخطب العجيبة

الحمد لله الذي علا بحَوْله، ودنا بطَوْله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأَزْل[١]. أحمده على عواطف كرمه، وسوابغ نعمه، وأومن به أوَّلًا باديًا، وأستهديه قريبًا هاديًا، وأستعينه قاهرًا قادرًا، وأتوكل عليه كافيًا ناصرًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله لإنفاذِ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره».

وقد نظر البحتري إلى معنى قوله عليه السلام: «علا بحوله، ودنا بطَوْله». فقال:

دنوتَ تواضعًا وعلوتَ قدرًا … فشأناك انخفاضٌ وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تُسامى … ويدنو النور منها والشعاع

ويقول عليه السلام:

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضَربَ الأمثال، ووقَّت لكم الآجال، وألبسكم الرياش، وأرفغ[٢] لكم المعاش، وأحاط بكم الأخصّاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم والسوابغ، والرفد الروافغ، وأنذركم بالحجج البوالغ، فأحصاكم عددًا - ووظف لكم مددًا[٣].

ومن الخطباء البلغاء عبد الله بن عباس

قالوا: خطبنا بمكة، وعثمان محاصر، خطبةً لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا. وذَكرَه حسان بن ثابت. فقال فيه:

إذا قال لم يترك مقالًا لقائل … بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع … لذي إربة في القول جدًا ولا هزلا
سموتَ إلى العليا بغير مشقةٍ … فنلت ذراها لا دنيًّا ولا غلّا

وكان عبد الله بن عباس، أول مَن عُرفَ بالبصرة، يصعد المنبر فيقرأ سورة البقرة وآل عمران ويفسّرهما حرفًا حرفًا. وكان يسمى «البحر» و«حبر قريش».

(١) الأَزْل: شدة الزمان، وضيق العيش.
(٢) أرفغه: جعله رفيغًا، أي واسعًا مخصبًا.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/٢٤٧.

وقال النبيّ ﷺ: «اللهمَّ فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل» وقال عمر: غائصٌ غوَّاص[١].

فتنة المدينة ووقعة الحرَّة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري وقد علم بقدوم جيش الشام إلى المدينة.
(قتل سنة ٦٣ هـ) لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعه، ووثبوا على مَن كان في المدينة من بني أمية وحصروهم وأخافوهم، وأخرجوهم ومنهم مروان بن الحكم وكبراء بني أمية وحلفوهم عند منبر الرسول ﷺ لئن لقوا جيش يزيد ليردونهم عنهم إن استطاعوا فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ـ فحلفوا على ذلك.

فوجه يزيد جيشًا من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرّي ـ ونمى إليهم خبر مقدمه عليهم فجمعهم عبد الله بن حنظلة فقال: «تبايعونني على الموت، وإلا فلا حاجة في بيعتكم» فبايعوه على الموت ـ ثم صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله:

«أيها الناس: إنما خرجتم غضبًا لدينكم، فأبلوا إلى الله بلاءً حسنًا، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته، ويحل بكم رضوانه، واستعدُّوا بأحسن عُدتكم، وتأهَّبوا بأكمل أهبتكم، فقد أُخبرت بأن القوم نزلوا بذي خُشُب ومعهم مروان بن الحكم، والله إن شاء الله مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله ﷺ».

فتصايح الناس، وجعلوا ينالون منه ويسبّونه ـ فقال لهم: «إن الشتم ليس بشيء ونصدقهم اللقاء، والله ما صدق قطُّ قوم إلا نُصروا»[٢].

فتنة البصرة

لما قتل محمد بن أبي بكر في مصر وظهر معاوية عليها سنة ٣٨ هـ دعا عبد الله بن عامر الحضرمي فقال له: «سرْ إلى البصرة فإن جُلَّ أهلها يرون رأينا في عثمان، ويُعظِّمون قتله، وقد قُتلوا في الطلب بدمه. فهم موتورون حنقون لما أصابهم، ودُّوا لو يجدون مَن يدعوهم ويجمعهم، وينهض بهم في الطلب بدم

(١) البيان والتبيين: ١٧٥، ومروج الذهب ٢/ ٢٦.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٤٥ وجمهرة خطب العرب: ٢/ ٣٢٧.

عثمان. ودفع إليه كتابًا وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس. فمضى حتى نزل البصرة في بني تميم فسمع بقدومه أهل البصرة، فجاءه كل مَن يرى رأي عثمان فاجتمع إليه رؤوس أهلها.

خطبة عبد الله بن عامر

فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«أما بعد أيها الناس، فإن إمامكم، إمام الهدى عثمان بن عفان، قتله علي بن أبي طالب ظلمًا، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَن قتله، فجزاكم الله من أهل مصر خيرًا وقد أصيب منكم الملأ الأخيار، وقد جاءكم الله بأخوان لكم، فساعدوهم وتذكروا ثأركم، لتشفوا صدوركم من عدوكم».

خطبة الضحاك بن عبد الله الهلالي

فقام إليه الضحاك بن عبد الله الهلالي فقال:

«قبّح الله ما جئتنا به، وما دعوتنا إليه ـ جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحباك طلحة والزبير. أتيانا وقد بايعنا عليًا واجتمعنا له، فكلمتُنا واحدة، ونحن على سبيل مستقيم، فدَعوانا على الفرقة، وقاما فينا بزخرف القول، حتى ضربنا بعضنا البعض عدوانًا وظلمًا فاقتتلنا على ذلك. وأيم الله ما سلِمنا من عظيم وبال ذلك، ونحن الآن مجتمعون علي، بيعة هذا العبد الصالح، الذي أقال العثرة، وعفا عن المسيء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا، أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أغمادها، ثم يضرب بعضنا بعضًا، ليكون معاوية أميرًا، وتكون أنت وزيرًا. ونعدل بهذا الأمر عن علي؟ والله ليومٌ من أيام علي مع رسول الله ﷺ خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية.

خطبة زياد بن أبيه

ثم إن الناس أقبلوا إلى ابن الحضرمي وكثر أتباعه ـ وكان بالبصرة يومئذٍ زياد ابن أبيه، استخلفه عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على عليّ عليه السلام يعزّيه عن محمد بن أبي بكر ـ فأفزع ذلك زيادًا وهاله، وخلّى قصر الإمارة واستجار بالأزد فأجاروه وأعدوا له منبرًا وسريرًا وشرْطًا. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا معشر الأزد: إنكم كنتم أعدائي، فأصبحتم أوليائي وأولى الناس بي، وإني لو كنت في بني تميم، وابن الحضرمي فيكم، لم أطمع فيه أبدًا، وأنتم دونه، فلا يطمع ابن الحضرمي فيَّ وأنتم دوني، وليس ابن آكلة الأكباد ـ في بقيَّة الأحزاب وأولياء الشيطان ـ بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وقد أصبحتُ فيكم مضمونًا، وأمانة مؤدَّاة، وقد رأينا وقعتكم يوم الجمل، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل، فإنكم لا تُحمدون إلَّا على النجدة ولا تعذرون على الجبن». وكان معاوية لم يلحق زياد بنسبه بعد.

فقام شيّمان الأزدي، ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائبًا ـ فقال:

«يا معشر الأزد: ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلَّا سوء الذكر، وقد كنتم أمس على عليّ عليه السلام، فكونوا اليوم له ـ واعلموا أن إسلامكم[1] له ذل، وخذلانكم إياه عار، وأنتم حيٌّ مضماركم الصبر، وعاقبتكم الوفاء. فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم، وإن استمدّوا معاوية فاستمدّوا عليًا عليه السلام، وإن وادعوكم فوادعوهم».

ثم قال أبو صبره شيمان الأزدي فقال:

«يا زياد، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل رجوت إلَّا يقاتلوا عليًا، وقد مضى الأمر بما فيه، وهو يوم بيوم، وأمرٌ بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيء، والتوبة مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء واستئناف الأمور، ولكنها جماعة دماؤها حرام وجروحها قصاص، ونحن معك تحبُّ ما أحببت»[2].

من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي[3]

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير صعد المنبر متلثّمًا، فحطّ عنه اللثام وقال:

«موجُ ليل التطم، وانجلى بضوء صبحه. يا أهل الحجاز كيف رأيتموني! ألم أكشف الجور، وطخية الباطل بنور الحق؟

(١) إسلامكم له: خذلانكم له. (٢) جمهرة خطب العرب: ١/٤٣٣ ـ ٤٤٠.

(٣) جمهرة خطب العرب: ٢/٢٨٧ ـ ٢٩٢.

والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق، وعَطْفة رحم، وَوَصْلَ قرابة، فإياكم أن تزلّوا عن سنن أقمناكم عليه؛ فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار، وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار». ثم نزل وهو يقول:

أخو الحرب إن عضّتِ الحرب عضها وإن شمّرت عن ساقها الحرب

وقال وقد ارتجّت مكة بالبكاء:

ألا إن ابن الزبير كان من أخبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله. ولو كان شيء مانعًا للعصاة، لمنع آدمَ حرمةُ الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده. فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدمُ على الله أكرمُ من ابن الزبير، والجنةُ أعظمُ حُرمةً من الكعبة».

وخطب الحجاج لما قدم البصرة يتهدّد أهل العراق ويتوعدهم فقال:

«أيها الناس: مَن أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومَن استطال أجله - فعليَّ أن أعجله ومَن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومَن استطال ماضي عمره قصّرتُ عليه باقيه. إن للشيطان طيفًا، وللسلطان سيفًا؛ فمن سُقمتْ سريرته صحّتْ عقوبته، ومَن وضعه ذنبه رفعه صَلْبُه، إني أحذّر ثم لا أعذِر - وأتوَعّد ثم لا أعفو. إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي، فقائمه في يديه، ونجاده في عنقي، وذُبابه قلادة لمن عصاني.

والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد. فيخرج من الباب الذي يليه إلّا ضربتُ عنقه».

وأشهر خطب الحجّاج خطبته حين ولي العراق سنة ٧٥ هـ.

حدّث عبد الملك بن عمير الليثي قال:

بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهلُ الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آتٍ، فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرًا على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتمًّا بعمامة قد غطّى بها أكثر وجهه، متقلدًا سيفًا، متنكبًا قوسًا، يؤمُّ المنبر. فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبّح اللهُ بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق؟ حتى قال عمير بن ضابىء البرجمي: ألا

أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهلْ حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه أحسر اللثام عن فيّه، ونهض، فقال:

أنا ابن جَلَا وطلَّاعُ الثنايا   متى أضع العمامةَ تعرفوني[(١)]

يا أهلَ الكوفة! أما واللهِ إني لأحملُ الشرَّ بحمله، وأحذو بنعله، وأجزيه بمثله. وإني لأرى أبصارًا طامحة، وأعناقًا متطاولة، ورؤوسًا قد أينعت وحانَ قطافُها، وإني لصاحبُها. وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرقُ - ثم أنشد:

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدّي زِيَمْ   قد لفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَمْ
ليس براعي إبلٍ ولا غَنَمْ   ولا بجزَّارٍ على ظهر وَضَمْ[(٢)]
قد لفَّها الليلُ بعَصْلَبيّ   أَرْوَعَ خرَّاج من الدَّوِّيّ
مهاجرٍ ليس بأعرابيّ[(٣)]
قد شمَّرت عن ساقها فشُدُّوا   وجدَّت الحرب بكم فجدُّوا
والقوسُ فيها وَتَرٌ عُرُدُّ   مثلُ دراع البَكْر أَو أشدُّ
لا بُدَّ مما ليس منه بُدُّ[(٤)]

إني والله يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، ما يُقَعْقَع لي بالشُّنان[(٥)]، ولا يُغمز جانبي كتُغْماز التين، ولقد فُرِزتُ[(٦)] عن ذكاء، وفُتِّشتُ عن تجربة، وجَرَيْتُ إلى الغاية القصوى. وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كِنانته بين يديه، فعجم عيدانها[(٧)]، فوجدني أمرَّها عودًا وأصلبها

---

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي. وهو مثل يُضرب للرجل الشهير المتعالم.

(٢) الشعر لرويشد بن رميض العنبري. والشدّ: العدو. وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب. والحطم: الراعي الظلوم للماشية. والوضم: خشبة يقطع عليها اللحم.

(٣) العصلبيّ: الشديد القوي. والأروع: الذكي والشجاع. الدوّيّ: الفلاة الواسعة التي تسمع لها دويًا في الليل. والمهاجر: الذي خرج من البدو إلى المدن.

(٤) عُرُدُّ: شديد. والبَكْر: الفتى من الإبل. ولا بد من كذا: لا محيد عنه.

(٥) الشُّنان: جمع شَنّ، وهو القِربة البالية يحرّكونها إذا أرادوا حثّ الإبل على السير لتفزع فتسرع. وهو مثل يُضرب لمن لا يخيفه ما لا حقيقة له.

(٦) فَرّ الدابة: فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنّها. وفرّ عن الأمر: بحث عنه.

(٧) الكنانة: جعبة السهام. وعجم العود: عضّه ليعرف صلابته.

مكسرًا، فرماكم بي، لأنكم طالما أَوْضَعْتُم[١] في الفِتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغيّ. أما والله لأَلْحُونَّكم[٢] لَحْوَ العصا، ولأقرعنَّكم قَرْعَ المَرْوَة[٣]، ولأعصبنَّكم عَصْبَ السَّلَمة[٤]، ولأضربنَّكم ضَرْبَ غرائبِ الإبل[٥]. فإنكم لكأهلِ قريةٍ كانت آمنةً مطمئنة، أتيها رزقُها رغدًا من كل مكان، فكفرتْ بأنعُم الله، فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله لا أَعِدُ إلا وَفَيْت، ولا أهمّ إلا أمضيت، ولا أَخْلَق إلا فَرَيْت[٦]. فإيايَ وهذه الشُّفَعَاء، والزَّرافات والجماعات، وقالًا وقيلًا[٧]، وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟ أما واللهِ لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شُغْلًا في جسده! وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجّهكم لمحاربة عدوكم مع المهلَّب بن أبي صُفْرة[٨]. وإني أُقسم بالله لا أجد رجلًا تخلَّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكتُ دمه وأنهَبْتُ[٩] ماله وهدمتُ منزله».

من عَمَر دنياه وأَخْرَب آخرته

لما ولي سليمان بن عبد الملك، بعد وفاة أخيه الوليد، دخل المسجد وصعد المنبر فحمد الله وأثنى وقال:

«الحمد لله الذي ما شاء منع، وما شاء رفع، وما شاء وضع. أيها الناس إن الدنيا دار غرور ومنزل باطل، تضحك باكيًا، وتبكي ضاحكًا، وتخيف آمنًا، وتؤمّن خائفًا، وتثري فقيرًا وتفقر مثريًا، ميالة غرارة. عباد الله اتخذوا كتاب الله إمامًا وارضوا به حكمًا، واجعلوه لكم هاديًا ودليلًا، فإنه ناسخ ما قبله ولا ينسخه ما

(١) أوضع في سيره: أسرع. (٢) لحا العصا: قشرها.
(٣) المرو: حجارة بيض برّاقة تُوري النار.
(٤) السلمة: شجر كثير الشوك. تُعصب أغصانها ثم تُخبط بالعصيّ لسقوط الورق وهشيم العيدان.
(٥) قال الجاحظ في البيان والتبيين: وهي إبل تُضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الماء أشدَّ الضرب.
(٦) أخلق: أقدر. وفريت: قطعت.
(٧) الزرافات: الجماعات من الناس. القال والقيل والقالة: هي الكلام في الشر. والقول: هو الكلام في الخير.
(٨) هو قائد الجيوش الذي حارب الخوارج والأزارقة وكسر شوكتهم.
(٩) أنهب ماله: جعله نهبًا يُغار عليه.

بعده. واعلموا عباد الله أنه يجلو عنكم كيد الشيطان ومطامعه كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس وظلام الليل إذا عسعس».

ثم نزل. وكان سليمان فصيحًا بليغًا يرغب في مجالسة الحكماء والعلماء، فدخل عليه أبو حازم الأعرج فقال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأحزبتم آخرتكم. فأنتم تكرهون الانتقال من العمران إلى الخراب[1].

خطابة مَن والاه ومالأه على ذلك

قال خالد بن عبد الله القسري في مكة مقارنًا بين الرسولَ والخليفة ـ وقد غالى في ذلك:

«أيها الناس، أيُّهما أعظم؟ أخليفَة الرجل على أهله، أم رسوله إليهم؟ الله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلَّا أن إبراهيم خليل الرحمٰن استسقى ربه فسقاه ملحًا أجاجًا ـ واستسقاه الخليفة فسقاه عذبًا فراتًا».

ويعني بهذا بئرًا حفرها الوليد بن عبد الملك بالثنيتين: ثنية طُوى، وثنية الحجون مكان يُنقل ماؤها، فيوضع في حوض من أدم إلى جانب زمزم ليُعرف فضله على زمزم، وأن ماءها أفضل من ماء زمزم.

صعد خالد المنبر في يوم جمعة ـ وكان واليًا على مكة ـ فذكر الحجاج، فحمد طاعته وأثنى عليه.

فلما كان في الجمعة الثانية ورد كتاب سليمان بن عبد الملك، يأمره فيه شتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إن إبليس كان ملكًا من الملائكة، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى به له فضلًا، وكان الله قد علم مدى غِشِّه وخُبثه، ما خفي على ملائكته. فلما أراد فضيحته أمره بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه».

---

(١) تاريخ دول الإسلام: ١/ ٦١.

وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلًا، وكان الله قد أطلع الأمير من غشه وخُبثه على ما خفي علينا، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فالعنوه![1].

خطبة الكميت عند هشام بن عبد الملك

كان الكميت بن زيد الأسدي يمدح بني هاشم ويعرّض ببني أمية، فطلبه هشام بن عبد الملك، فهرب منه عشرين سنة، لا يستقرُّ به القرار من خوف هشام. وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام حاجةٌ في كل يوم يقضيها له ولا يردُّه فيها. فلما خرج مسلمة يومًا إلى بعض صيده، أقبل اناس يسلمون عليه، وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

قِفْ بالديار وقوفَ زائرْ ... وتأنَّ، إنك غير صاغرْ

حتى انتهى إلى قوله:

يا مسلم بن أبي الوليد لميِّتٍ ... إن شئت ناشِرْ
عَلِقتْ حبالي من حبالك ... ذمَّةَ الجار المجاوزْ
فالآن صرتُ إلى أميَّة ... والأمور إلى المصايرْ
والآن كنت به المصيبَ ... كمهتدٍ بالأمس حائرْ

فقال مسلمة: سبحان الله من هذا الهندكي الجِلْحاب الذي أقبل مني أخريات الناس، فبدأ بالسلام ثم أما بعد. ثم بالشعر؟

وقيل له: هذا الكميت. فأعجب به لفصاحته وبلاغته. فسأله مسلمة عن خبره وما كان فيه طول غيبته، فذكر له سخط أمير المؤمنين عليه، فضمن له مسلمة أمانهُ.

ولما توجه مسلمة إلى الشام أخذ الكميت معه وأدخله على هشام ـ وهشام لا يعرفه ـ فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ـ الحمد لله. قال هشام: نعم، الحمد لله، يا هذا!

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٣٢٣.

قال الكميت: مبتدئي الحمد ومبتدعه، الذي خصَّ بالحمد نفسه، وأمر به ملائكته وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكره، وكلام أهل جنّته، أحمُدُهُ حمدَ مَن عَلِمَ يقينًا، وأبصر مستبينًا، وأشهدُ أن محمدًا عبده العربي، ورسول الأميّ، أرسله والناس في هَبَوات[١] حيرة، ومُدْلهماتِ ظلمة، عند استمرار أبهة الظلال، فبَلّغ عن الله ما أُمر به، ونصح لأمته، وجاهد في سبيله، وعبد ربه ـ حتى أتاه اليقين ﷺ».

ثم إني يا أمير المؤمنين، تهتُ في حَيْرة، وحِزتُ في سكْرَة، ادلأمَّ[٢] بي خطرها وأهاب بي داعيها، وأجابني غاويها، فاقطوطَيتُ[٣] إلى الضلالة، وتسكَّعْتُ[٤] في الظلمة والجهالة، جائرًا عن الحق، قائلًا بغير صدق، فهذا مقامُ العائذ[٥]، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمر. يا أمير المؤمنين. كم من عاثرٍ. أقلتم عثرته ومجترم عفوتم عن جرمه.

فقال له هشام ـ وأيقن أنه الكميت: ويحك! مَن سنَّ لك الغواية وأهاب بك في العماية[٦]؟ قال: الذي أخرج أبي آدم من الجنة. فَنَسيَ ولم يجدْ له عزمًا. وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارتْ سحابًا متفرقًا، فلفقتْ بعضه إلى بعض، حتى التحم فاستحكم هَدْرُ رعدهِ، وتلألؤ برقه، فنزل الأرض فرَوِيَتْ، وأخضلت[٧]، واخضرَّت. وأُسقيت، فروي ظمآنها، وامتلأ عطشانها فكذلك نُعدُّك يا أمير المؤمنين».

ولما أتمَّ الخطبة رضيَ عنه هشام وأمر له بجائزة.

كان سبب غضب هشام على الكميت: أن حكيم بن عباس الكلبي كان ولعًا بهجاء مضر والكميت مضري، فكانت شعراء مضر تهجوه ويجيبهم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم. قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالد بن عبد الله القسري ـ والي العراق وهو يمني ـ محسنٌ إليّ، فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك عن الهجا ـ وأنشدوه ذلك فحمي الكميت لعشيرته، فقال: «قصيدته المذهبة». وبلغ ذلك خالدًا فقال: والله

(١) الهبوات: الغبرات، وإذا سطعت في الجو وانتشرت عميت بها المسالك.
(٢) ادلأمّ الليل: ادلهمّ، اسودّ وأظلم. (٣) اقطوطى: قارب في مشيه إسراعًا.
(٤) تسكع: مشى مشيًا متعسفًا لا يدري إلى أين. (٥) العائذ: اللاجىء المستجير.
(٦) العماية: الغواية. (٧) اخضلّت: ابتلّت.

لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيّرهن نهاية في الحسن والكمال والأدب، فروّاهُنَّ الهاشميات ـ وهي مدائح وقصائد قالها الكميت في مدح بني هاشم، وكان معروفًا بالتشيع لهم مشهورًا بذلك، وتعدُّ هذه القصائد من جيِّد شعره ومختاره وهي مطبوعة مشهورة.

فدسّ خالد الجواري مع نخّاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعًا، فلما أنس بهن استنطقهن ـ فرأى فصاحة وأدبًا، فاستقرأهن القرآن فقرأن، واستنشدهن الشعر، فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكُنْ! من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي، قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق ثم في الكوفة، فكتب إلى خالد عامله بالعراق: ابعث إليَّ برأس الكميت، فبعث إليه خالد في الليل، فأخذه وأودعه السجن، وعزم لينفِّذَنَّ أمر الخليفة فيه، وأعمل الكميت الحيلة في الفرار.

فبعث إلى زوجته حُبِّي، فلما دخلت عليه هي وخادمتها، لبس ثيابها، وتنقَّبَ نقابها وأقامها مكانه، وخرج متنكرًا، وظل متواريًا مدة حتى حدث واستجار بهشام. كما مرَّ(١).

أسلوب أكثم بن صَيفيّ
في إرسال الحكمة والوصية والخطابة

كان أكثم بن صيفي من حكماء العرب في الجاهلية وأحد المعمرين. أدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق وأسلم مَن بلغ المدينة من أصحابه. وهو المعني بالآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٠٠].

وكان يزيد بن المهلب يسلك طريقة الأكثم بن صيفي في خطبه فمن ذلك ما أوصى به ابنه مخلدًا حين استخلفه على جرجان وهو قوله:

يا بُني قد استخلفتك على هذه البلاد، فانظر هذ الحي من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

إذا كنت مرتادَ الرجال لنفعهم ... فَرِشْ واصطنعْ عند الذين بهم ترمي(٢)

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/٤٢٨ ـ ٤٣٠.

(٢) رأس الصديق: أطعمه وسقاه وكساه. والاصطناع: المبالغة في إصلاح الشيء.

وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك، فاقضِ حقوقهم.

وانظر هذا الحي من تميم فأمطرهم ولا تزْهُ لهم، ولا تُدنهم فيطمعوا، ولا تقصهم فيقطعوا. وانظر هذا الحي من قيس فإنهم أكفاء قومك في الجاهلية، ومُناصفوهم لمنابر في الإسلام، ورضاهم منك البشر.

يا بني إن لأبيك صنائع فلا تفسدها، فإنه كفى بالمرء نقصًا أن يهدم ما بنى أبوه. وإياك والدماء فلا بُقْية معها.

وإياك وشتم الأعراض فإن الحُرَّ لا يرضيه عن عِرْضه عِوَض. وإياك وضرب الأبشار فإنه عار باق ووتر مطلوب...

وأستودعك الله فلا بد للمودّع أن يسكت، وللمشيع أن يرجع، وما عفّ من المنطق وقلَّ من الخطيئة. أحبُّ إلى أبيك[١].

بنو الكـوّاء

ومن أصحاب الخطب والأخبار والنسب، والحكم عند أصحاب النفورات: بنو الكواء وإياهم يعني مسكين الدارمي حين ذكر أهل هذه الطبقة فقال:

كلانا شاعرٌ في حيٍّ صدقٍ ... ولكنَّ الرَّحى فوق الثقالِ
وحكِّم دغفلًا وأرحل إليه ... ولا تُرحِ المطيَّ من الكلالِ
تعال إلى بني الكواء يقضوا ... بعلمهم بأنساب الرجالِ
تعال إلى ابن مذعورٍ شهاب ... يُنَبِّي بالسوافل والعوالي
وعند الكيِّس النمري علمٌ ... ولو أضحى بمنحرف الشمالِ[٢]

خطبة داود بن علي، وقد أُرْتِج[٣] على السفّاح

رُوِيَ أنه لما قام أبو العباس السفاح في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقةِ المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فنهض داود بن عليٍّ حتى صعد المنبر.

(١) بلوغ الأرب: ٢/١٧٢.
(٢) البيان والتبيين: ١/١٨٦.
(٣) أُرْتِجَ عليه: استغلق عليه الكلام. ومثله حَصِير القارىء والخطيب: لم يقدر على الكلام.

فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيتُ سيفي، وغطّيته بثوبي وقلت: إن فعل ناجزتَه. فلما رقي عَتَبا استقبل الناس بوجهه دون أبي العباس ثم قال:

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قولُه فعلَه، ولأثَرُ الفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال، وحسبُكم بكتاب الله ممتثلًا فيكم ـ وابن عمر رسول الله ﷺ خليفةً عليكم، والله ـ قسمًا برًا لا أريد به إلَّا الله ـ ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله ﷺ أحقُّ به من عليّ بن أبي طالب (ع) وأمير المؤمنين هذا فيلظُنَّ ظانُّكم، ولَيَهْمسَن هامِسُكم».

قال أبو جعفر: ثم نزل وغَمدتُ سيفي.

وروى السيد المرتضى في أماليه قال:

أراد أبو العباس السفاح يومًا أن يتكلم بأمر من الأمور بعدما أفضت الخلافة إليه وكان فيه حياءٌ مفرط ـ فارتُجَّ عليه. فقال داود بن عليّ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس، إنَّ أمير المؤمنين الذي قلَّده الله سياسة رعيَّته ـ عُقل مَن لسانه، عندما يعهَد من بيانه ـ ولكل مُرتقٍ بُهْرٌ ـ حتى تنفُسه العادات، فأبشروا بنعمةِ الله في صلاح دينكم ـ ورغد عيشكم».

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملَكه بنو العباس فقال:

شكرًا شكرًا، إنَّا والله ما خرجنا لنحْفِر فيكم نهرًا، ولا لنبني فيكم قصرًا. أظنَّ عدوُّ الله أن لن نقدر عليه، أن رُوخي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوسَ باريها، وعادت النَّبْلُ إلى النزعة، ورجع الملك في نصابه من أهل بيت النبوَّة والرحمة ـ والله لقد كنا نتوجَّع لكم ونحن في فُرُشنا ـ أمن الأسود الأحمر، لكم ذمةُ الله، لكم ذمة رسول الله ﷺ لكم ذمة العباس. لا وربِّ هذه البِنيَّة ـ وأومأ بيده إلى الكعبة ـ لا نهيج منكم أحدًا»[1].

رَوْح بن زنباع ومعاوية

ولَّى معاوية روح بن زنباع، فعتب عليه بجناية، فكتب إليه بالقدوم، فلما قدم أمر بضربه بالسياط، فلما أقيم ليُضرب قال:

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٣/١١ ـ ١٤.

«نشدتك الله يا أمير المؤمنين، أن تهدمَ منّي ركنًا أنت بنيته، أو تضع مني خَسيسة أنت رفعتها، أو تُشمت بي عدوًّا أنت وقمته. وأسألك بالله إلّا أتى عفوك وحلمك دون إفساد صنائعك».

فقال معاوية: «إذا الله سَنَّى عقد أمرِ تيسرًا خلّوا سبيله»[1].

يكره يوم الجمعة!

قيل أن عبد ربه اليشكري كان عاملًا لعلي بن موسى على المدائن فصعد المنبر يومًا فحمد الله وأثنى عليه ـ ثم أُرْتج عليه فسكت ثم قال:

والله أني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألف كلمة، فإذا قمت على أعواد منابركم هذه جاءني الشيطان فمحاها كلها من صدري. ولقد كنت وما في الأيام يوم أحبُّ إليَّ من يوم الجمعة، فصرت وما في الأيام يوم أبغض عليّ من يوم الجمعة، وما ذاك إلا لخطبتكم هذه[2].

حسن التخلُّص

كان عامر الشعبي ممن خرج مع ابن الأشعث، فلما أتى الحجاج بأسرى الجماجم أتى فيهم بالشعبي موثقًا ـ وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أسرى دير الجماجم أن يعرضهم على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلّى سبيله، ومَن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه.

قال الشعبي: فلما جئت باب القصر لقيني زيد بن أبي مسلم كاتبه، فقال: إنّا لله يا شعبي، لما بين دفتيك من العلم، وليس اليوم بيوم شفاعة!

قلت له: فما المخرج؟ قال: بؤ للأمير بالشرك والنفاق على نفسك وبالحريّ أن تنجو. ثم لقيني محمد بن الحجاج، فقال لي مثل مقالة زيد، فلما دخلت على الحجاج قال لي:

وأنت يا شعبي ممن ألّب علينا ابن الأشعث؟ أشهد على نفسك بالكفر!

قلت: أصلح الله الأمير نبا بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب، واستحلّنا الخوف، واكتحلنا السهر، وضاق المسلك، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء

---

(١) جمهرة الخطيب: ٢/ ٣٩٤.

(٢) العقد الفريد: ١/ ١٥١ و٣/ ١٢.

ولا فجرة أقوياء. قال: صدقت، والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم، خلوّا سبيل الشيخ(١).

خطبة السفاح بأهل الشام لما قتل مروان بن محمد

لما قتل مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بني أمية ـ خطب السفاح ـ فقال:

«ألم ترَ إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا، وأحلُّوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس المصير».

نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحِضَ(٢) الزَّلق، يطئون بكم حَرَم الله(٣)، وحَرم رسوله(٤). ماذا يقول زعماؤكم غدًا يقولون: «ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابًا ضِعْفًا من النار».

إذن يقول الله عزّ وجلّ:

«لكلٌّ ضِعفٌ ولكن لا تعلمون» أما أمير المؤمنين فقد ائتنف(٥) بكم التوبة، واغتفر الزلّة، وبسط لكم الإقالة(٦)، وعاد بفضله على نقصكم، وبحلمه على جهلكم، فليَفْرِخْ رُوعكم(٧)، ولتطمئن قلوبكم، وليُقْطَع مصارعُ أوائلكم، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا»(٨).

خطبة داود بن علي، وقد أُرْتج عليه

خطب داود بن علي بن عبد الله بن العباس عم السفاح، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمد وآل محمد ـ فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال:

«أما بعد، فقد يجد المُعسِر، ويُعسر الموسِر، ويُفلُّ الحديد، ويَقْطع الكليل، وإنما الكلام بعد الإفحام، كالإشراف بعد الإظلام، وقد يعزُبُ البيان، ويُعقَمُ

(١) العقد الفريد: ١/ ١٥١ و٣/ ١٢. (٢) مداحض: جمع مدحضة، وهي المنزلة.
(٣) يشير إلى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير، ورميه الكعبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان.
(٤) يشير إلى وقعة الحرّة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية.
(٥) ائتنف: استأنف وابتدأ. (٦) أقال عثرته: رفعه من سقوطه.
(٧) أي ليخرج الفزع من قلبكم. والرُوع (بالضم) هو القلب.
(٨) جمهرة الخطب: ٣/ ١٢ ـ ١٣.

الصواب، وإنما اللسان مضغة من الإنسان، يفتر بفتوره إذا نَكَل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل. ألا وإننا لا ننطق بَطَرًا، ولا نسكت حَصَرًا، بل نسكت معتبرين، وننطق مرشدين، ونحن بعد أمراءُ القول، فينا وشجت أعراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدَّلت ثمرته، فنتخيّر منه ما احلولى وعذب، ونطِّرح منه ما املولح وخبُث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يُعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب والله المستعان» ثم نزل[1].

خالد بن صفوان وأخوال السفّاح

وروى الجاحظ قال:

كان خالد بن صفوان الأهتمي من سُمَّار أبي العباس السفاح، وأهل المنزلة عنده، ففخر عليه ناس من بني الحارث (بلحارث) وأكثروا القول، فقال أبو العباس: لم لا تتكلم يا خالد؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين وعَصَبته. قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين «عصبته» قال خالد: وما عسى أن أقول لقوم، كانوا بين ناسج بُرد، ودابغ جلد، وسائس قِرْد، وراكب عُرْد[2]، دلَّ عليهم هدهد، وغرَّقتهم فأرة[3]، وملكتهم امرأة[4].

يشير بذلك إلى حديث الهدهد مع سليمان (ع) - في قوله تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: الآيات ٢٠ - ٢٤] الآيات. وأما قوله: «أخوال أمير المؤمنين»...

فقد كانت أم السفاح من بني الحارث بن كعب، واسمها ريطة بنت عبيد الله ابن عبد الله بن عبد الملك بن الديان الحارثي، ولذا كان يقال للسفاح: ابن الحارثية[5].

---

(١) جمهرة الخطب: ٣/ ١٢ - ١٣.

(٢) العَرْد: الحمار.

(٣) يشير إلى ما يزعمه المؤرخون من أن سيل العرم الذي ضرب اليمن كان سببه قرض الجرذ لسد مأرب.

(٤) هي بلقيس ملكة سبأ.

(٥) الجمهرة: ٣/ ٢٢ - ٢٣.

خطبة للمأمون

خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله وأنتم في مهل، بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأني بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولّت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي، فهو في التراب عفير، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحدًا يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطىء ما خلا زيادًا فإنه لا يزداد إكثارًا إلا ازداد إحسانًا.

خطبة لعلي رضي الله عنه

خطب علي رضي الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجا النجا والوحا الوحا، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه يومًا يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: الآية ٢]. ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة، قال: فبكى المسلمون بكاءً شديدًا، ثم قال: إلا وإن وراء ذلك اليوم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

خطبة للحجاج

خطب الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث أحلام. قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرًا ثم قال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك، فهذا وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: الآية ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: الآية ٧١]. ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾[آل عمران: الآية ١١٤]. والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمّة منشورة.

وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمة الله تعالى عليه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠٥]. إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أُرمتم به لا يضركم ضلالة من ضل.

---

(١) المستطرف: ص ٨٨ ـ ٩١.

ومن جملة ما أُمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المَائدة: الآية ٩٩].

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر.

ومن كلام عليّ رضي الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب.

وأنشد الجاحظ:

وليس يزجركم ما توعظون به والبُهم يزجرها الراعي فتنزجر

وصية صديق

كتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستحِ من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك والسلام. وقيل: مَن كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، وقال لقمان: الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أتيتني بعبد آبق[١] كتبتك عندي حميدًا، ومن كتبته عندي حميدًا لم أعذبه بعدها أبدًا، وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عظني وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك، قال: لا. قال: إن أردت أن لا تسيء إلى مَن تحب فافعل، وقال النبيّ ﷺ في بعض خطبه: «أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفنى، والأبدان في الثرى تبلى، وأن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد[٢]، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات.

عظة الحسن البصري

لما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظني، فقرأ الحسن البصري: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٣]، ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

(١) آبق: هارب. (٢) البريد: الدواب.

يَمُتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٠٥ - ٢٠٧]. فقال عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة.

وصية علي بن أبي طالب

لما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليًا رضي الله عنه، دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال: أوصيكم بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلا الخير وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم عونًا، ثم دعا محمّدًا ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمرًا دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيرًا، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأحباه.

ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدوّ، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ما شرّ بعده الجنّة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنّة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني مَن أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومَن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته، ومَن سلّ سيف البغي قتل به، ومَن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومَن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه، ومَن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومَن أُعجب برأيه ضلّ، ومَن استغنى بعقله زلّ، ومَن تكبّر على الناس ذل، ومَن خالط الأنذال احتقر، ومَن دخل مداخل السوء اتهم، ومَن جالس العلماء وقر، ومَن مزح استخفّ به، ومَن أكثر من شيء عرف به، ومَن كثر كلامه كثر خطؤه وقلّ حياؤه، ومَن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومَن قلّ ورعه مات قلبه، ومَن مات قلبه دخل النار. يا بني الأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، يا بني العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، يا بني زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب(١).

---

(١) النصب: الشقاء والتعب.

وصية هشام بن عبد الملك

لما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

عظة الأوزاعي للمنصور

قال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك[١] بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام. فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبًا، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم، يا أمير المؤمنين: إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيًا من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنوبًا من النار صب، ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوبًا من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

عظة زيد بن أسلم لجعفر بن أبي طالب

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان والي المدينة: احذر أن يأتي رجل غدًا ليس له في الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح، وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه.

عظة ابن طاوس للمنصور

روى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن

(١) يستاك: من السواك، وهو العود الذي تنظف به الأسنان من بقايا الأطعمة.

اجلسا فجلسنا، فأطرق زمانًا طويلًا ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك. قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور في حكمه». فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال: ما لك؟ فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قومًا عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال: ما لك، فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

عظة كعب الأحبار لعمر بنْ الخطاب

رُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا. قال: أوَليس فيكم كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيًا، لازدريت عملهم مما ترى، فنكس عمر رضي الله عنه رأسه، وأطرق مليًا، ثم رفع رأسه، وقال: يا كعب خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنّم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرّها، فنكس عمل عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب زدنا، فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة، فلا يبقى ملك مقربٌ ولا نبيّ مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

عظة أبي بكر الطرطوشي للأفضل ابن أمير الجيوش

قال الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت ردًا جميلًا، وأكرمني إكرامًا جزيلًا، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلّك محلًا عليًا شامخًا، وأنزلك منزلًا شريفًا باذخًا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان. قال

الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبإ: الآية ١٣]د واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَن كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير. قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧]، واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام، فسخّر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخّر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: الآية ٣٩]، فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من الله تعالى، ومكرًا به. فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: الآية ٤٠]. فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملهوف وأمانًا للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت(١) البلاد شرقًا وغربًا، فما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذّت(٢) لي الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والناس أكيسُ(٣) من أن يحمدوا رجلًا ... حتى يروا عنده آثار إحسان

عظة الفضيل بن عياض للرشيد

قال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: مَن هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم، فانظر لي رجلًا أسأله عنه، فقلت: هٰهنا سفيان بن عيينة، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: جد لما جئنا له، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك

---

(١) جبت: زرت ورحلت.
(٢) لذت: طابت وحليت.
(٣) الكيس: الظرافة والعقل.

دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقضِ دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت: هـٰهنا عبد الرزاق بن همام، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: مَن هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: جد لما جئنا به، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقضِ دينه، ثم انصرفنا.

فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت: هـٰهنا الفضيل بن عياض، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تجب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال: أواه من كف ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله تعالى؟ فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال: جد لما جئنا له رحمك الله تعالى، فقال: وفيمَ جئت حملت على نفسك، وجميع مَن جميع حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصًا[1] من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبًا لك أشدهم هربًا منك. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ. فعدّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فبرّ أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم مَن يأمرك بمثل هذا.

---

(١) الشقص: النصيب، والقطعة من الشيء.

فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق يا أمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا إليه سهرًا، فكتب له عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائمًا ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبدًا حتى ألقى الله عزّ وجلّ، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال: زدني.

قال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبيّ ﷺ جاء إليه، فقال: يا رسول الله أمرني إمارة، فقال له النبيّ ﷺ: «يا عباس، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبيّ ﷺ قال: «مَن أصبح لهم غاشًا لم يرح رائحة الجنّة»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل إن سألني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي، قال هارون: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أو إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذّاريَات: الآيات ٥٦ – ٥٨]. فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادة ربّك، فقال: سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

في ذكر الشعر والشعراء وسـرقاتهم

قال في المستطرف[1]: قيل: ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي، وقيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يومًا فلم ينطق بالشعر، ثم إن بني جعدة غزوا، فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام الشعر، فذلّ له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رُويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وقال: الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرّفون فيه كيف شاؤوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده، وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرضت القريض؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال: لا. فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك في ابنك فأروه الشعر، فقد وجدته كاملًا، وإني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقي مساويها، وتعلموا الأنساب فرب رحم مجهولة قد وصفت بعريان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين، فما ثبتني إلا قول القائل:

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... مكانك تُحمدي أو تستريحي[2]

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن فحولهم، ثم تنسك، فكان

---

(١) المستطرف: ص ٦٨ ـ ٧٣.

(٢) جشأت وجاشت: أي اضطربت نفسه من حزن أو خوف.

يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالًا جزيلًا على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، فقيل له: في ذلك، فقال: خير مالك ما وقيت به في عرضك، وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله؟ فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيًا» ولم ينطق به موزونًا، فقال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه: أشهد أنّك رسول الله حقًّا وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى﴾ [يٓس: الآية ٦٩].

نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم

بين قيس بن الخطيم وطرفة

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها[١]:

وما المال والأخلاق إلّا معارةٌ ... فما استطعت من معروفها فتزوّد

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

لعمرك ما الأيام إلّا معارةٌ ... فما استطعت من معروفها فتزودِ

بين عبدة بن الطيب وامرىء القيس

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:

فما كان قيسٌ هلكُهُ هلكُ واحدٍ ... ولكنهُ بنيانُ قومٍ تهدّما

أخذه من قول امرىء القيس:

فلو أنها نفسي تموت شريتها ... ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

(١) هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي أبو يزيد شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية، أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، أدرك الإسلام فقتل قبل أن يدخل فيه، شعره جيد، له ديوان شعر مطبوع.

بين كُثَيِّر والحطيئة

ويقال مَن سرق شيئًا واسترقه، فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه   حَصَانٌ عليها عقد در يزينها

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الغزو لم يثنِ همه   حصانٌ عليها لؤلؤ وشنوفُ(١)

بين جرير وزهر

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قومٍ   على قومٍ لكان لنا الخلودُ

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:

فلو كان حمدٌ يخلد المرء لم يمتْ   ولكنَّ حمد المرء غير مخلد

بين الشماخ وآخر

وقد قال الشمّاخ:

وأمرٍ ترجّي النفس ليس بنافعٍ   وآخر تخشى ضيرَهُ لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجّي النفوسُ الشيءَ لا تستطيعه   وتخشى من الأشياء ما لا يضيرُها

بين أبي تمام والأخطل

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نور تُفتِّحه الصبا   بياض العطايا في سواد المطالبِ

أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضًا في سوادٍ كأنه   بياض العطايا في سواد المطالبِ

(١) الحصان: المرأة العفيفة. والشنوف: الحلي التي تعلق بالأذان.

من سقطات الشعراء

أبو العتاهية

ما قيل: إن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط، رُوِيَ أنه لقي محمد بن مبادر بمكّة، فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية، فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعة   أموت الساعة الساعة

لقلت كثيرًا ولكني أقول:

ابن عبد الحميد يوم توفى   هدّ ركننا ما كان بالمهدودِ
ما درى نعشه ولا حاملوه   ما على النعش من عفافٍ وجودِ

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غمًّا وأسفًا.

بشار بن برد

وكان بشّار بن برد يسمّونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظم سليمى حبتي   قصبُ السكر لا عظم الحملْ
وإذا أدنيت منها بصلًا   غلب المسك على ريح البصلْ

هذا مع قوله:

إذا قامت لمشيتها تثنّت[1]   كأن عظامها من خيزران

ومع قوله في الفخر:

كأنّ مثار النّقع[2] فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضًا:

---

(١) تثنت: تمايلت.   (٢) مثار النقع: أي الغبار.

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

أبو الطيب المتنبي

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعاني وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيءٍ ظنّه رجلًا

وغير شيء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجّه الأسماع قوله:

تقلقلت بالهمّ الذي قلقل الحشا قلاقل عشٍ كلّهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

إن كان مثلك كان أو هو كائنٌ فبرئت حينئذٍ من الإسلامِ

ومن معانيه المسروقة قوله:

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

سكينة بنت الحسين والشعراء

قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع راوية جرير، وراوية كثير، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراوية نصيب، فافتخر كل منهم وقال: صاحبي أشعر، فحكّموا السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله تعالى عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدةُ القلوبِ وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق! قبّح الله صاحبك وقبّح شعره فهلا قال: فادخلي بسلام. ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول:

يقرّ بعيني ما يقرّ بعينها وأحسن شيء ما به العين قرّت

وليس شيء أقرّ بعينها من النكاح، أيحب صاحبك أن ينكح! قبّح الله صاحبك وقبّح شعره. ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله. قبّح الله صاحبك وقبّح شعره. ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت ... فواحزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا مَن يتعشقها بعده. قبحه الله وقبّح شعره هلا قال:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت ... فلا صلحت دعد لذي خِلّة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ... ليلًا إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذها ... حتى إذا وضح الصباح تفرّقا

قبّحه الله وقبّح شعره. هلا قال: تعانقا. فلم تثن على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها رضي الله عنها.

عمر بن عبد العزيز والشعراء

روى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدي بن أرطاة[١] عليه وكان منه بمكانة فتعرّض له جرير وقال:

ياأيّها الرجل المزجي مطيّته[٢] ... هذا زمانك إنّي قد خلا زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أنّي لدى الباب كالمشدود في قرن[٣]
لا تنسى حاجتنا لاقيت مغفرة ... قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

---

(١) هو عدي بن أرطأ الغزاري أبو واثلة، أمير من أهل دمشق، كان من العقلاء الشجعان، ولّاه عمر بن عبد العزيز البصرة سنة ٩٩ هـ. فاستمرّ إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط في فتنة أبيه «يزيد» بالعراق سنة ١٠٢ هـ.

(٢) المزجي مطيته: أي السائق والمستحث لها. (٣) القرن: الحبل وما يربط به.

فقال: نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وألسنتهم مسمومة، وسهامهم صائبة، فقال عمر رضي الله عنه: ما لي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: صدقت، فمَن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي　　شممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كلهُ　　وليت حنوطي من مشاشك والدم(١)
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي　　هنالك أو في جنَّةٍ أو جهنَّمِ

فليته عدوّ الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملًا صالحًا، والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمَن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال جميل بن معمر العذري قال: أليس هو القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعًا فإن نمتْ　　يوافى لدى الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغبٍ　　إذا قيل قد سوّي عليها صفيحها(٢)
أظلّ نهاري لا أراها وتلتقي　　مع الليل روحي في المنام وروحها

والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم　　يبكون من حذر الفراق قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها　　خرّوا لعزّة رُكّعًا وسجودا

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمَن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصاري قال: أبعده الله، والله لا يدخل عليَّ أبدًا، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيِّدها　　يفرّ منّي بها وأتبعه

---

(١) المشاش العظم اللين.　　(٢) الصفيح: القبر.

فمَن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله:

هما دلّياني من ثمانين قامة ... كما انقضّ بازٌ ليِّنُ الريش كاسرُه
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا ... أحيٌّ فيرجى أم قتيلٌ نحاذره
فقلت ارفعوا الأجراس لا يفطنوا بنا ... وولّيت في أعقاب ليلٍ أبادره

والله لا دخل عليَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القائل:

ولست بصائمٍ رمضان عمري ... ولست بآكلٍ لحم الأضاحي
ولست بزاجرٍ عيسًا بكورًا ... إلى أطلال مكّةَ بالنجاحِ
ولست بقائم كالعبد يدعو ... قبيل الصبح حيّ على الفلاح
ولكنّي سأشربها شمولًا ... وأسجد عند منبلج الصباح(١)

أبعده الله عني، فوالله لا دخل عليَّ أبدًا، ولا وطىء لي بساطًا، وهو كافر، فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولا بد، فهذا، فأذن له قال عدي بن أرطأة: فخرجت فقلت: ادخل يا جرير، فدخل وهو يقول:

إنّ الذي بعث النبيّ محمّدًا ... جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاره ... حتى ارعووا وأقام ميل المائل(٢)
إني لأرجو منه نفعًا عاجلًا ... والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير اتقِ الله ولا تقل إلا حقًّا، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممّن بعدلك يُكْفيَ فقد والده ... كالفرخ في العشّ لم يدرج ولم يطر

---

(١) منبلج الصباح: أي ظهوره وطلوعه.

(٢) ارعووا: انصرفوا وامتنعوا عن الضلالة. وأقام: سوى وعدل وجلس.

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني ما بلّغت من خبري
إنّا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
إن الخلافة جاءته على قدرٍ ... كما أتى ربّه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دلّت حيًّا لا يفارقنا ... بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحل مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإنّني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الجنّ لا تستفزه ... وقد كان شيطاني من الجن واقيا

سقطة الأحنف بن قيس

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد: قال الأحنف الشريف: من عدت سقطاته، وقلّت عثراته، وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو، وكان الأحنف بن قيس حليمًا سيّدًا يضرب به المثل، وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الأهتم دسّ إليه رجلًا يسفهه فقال: يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيّدهم، ولم يتخلّف عنهم، فرجع إليه ثانيًا، ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهتم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوّة ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجًا.

في الكتابة والكتّاب

قيل في هذا المجال:

أهدى بعض الكتَّاب إلى صديقٍ له دفترًا وكتب معه: هديَّتي هذه، أعزَّك الله، تزكو على الإنفاق، وتربو على الكدّ. لا تفسدها العواري، ولا تخلقها كثرة التقليب. وهي أنسٌ في الليل والنهار، والسفر والحضر. تصلح للدنيا والآخرة، وتؤنس في الخلوة، وتمنع من الوحدة. محدِّثٌ مطاوع، ونديمٌ صادق.

قال بعض الحكماء:

الكتب بساتين العلماء. وقال آخر: ذهبت مكارم الأخلاق إلا في الكتب.

قال المنصور العباسي بن المهدي للمأمون: أيحسن بنا طلب العلم والأدب؟ قال: والله لأن أموت طالبًا للأدب خيرٌ لي من أن أعيش قانعًا بالجهل. قال: فإلى متى يحسن ذلك؟ قال: ما حسُنت الحياة لك.

قال علي بن أبي طالب (ع) لكميل بن زياد في العلم والمال:

يا كميل؛ العلم أفضلُ من المال بسبعة: إن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة. والعلم لا ينقص بالنفقة، والمال ينقص بها. المال يحتاج إلى الحافظ والعلم يحفظه. العلم يدخل الكفن، والمال لا يدخل. المال يحصل للمؤمن والكافر، والعلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة. جميع الناس يحتاجون إلى العلم في أمر دينهم، ولا يحتاجون إلى المال. العلم يقوّي الرجل على المرور على الصراط، والمال يمنعه.

وقال الجاحظ:

الكتاب وعاء مُلىء علمًا، وظرفٌ حُشي طرفًا، وإناءٌ شُحن مزاحًا. إن شئت كان أعيا من باقل[١]، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل[٢]، وإن شئت سرَّتك نوادره وشجتك مواعظه.

مَن لك بواعظ مثله، وبناسك فاتك، وناطق أخرس. ومَن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغثّ والسمين؟

وبعد، فما رأيت بستانًا يُحمل في رُدْن، وروضةً تُنقلُ في حجر. ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحلام. ومَن لك بمونسٍ لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى. آمنُ من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السرّ، واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة.

قيل لبعض الحكماء: ما مبلغ سرورك بكتبك؟

فقال: هي إن خلوت لذاتي، وإن اغتممت سلوتي. فإن قلت إن زهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ويمتعان بحسنهما الألحاظ، فإن بستان الكتب يجلو العقل ويشحذ الذهن، ويحيي القلب، ويقوي القريحة، ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويؤنس الوحشة بنوادره، ويسرّ بغرائبه، ويفيد ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ.

ومما قاله بعض الأدباء عن الكتاب:

إن وعظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمع. يفيدك ولا يستفيد منك، ويزيدك ولايستزيد. قبر الأسرار، ومخزن الودائع.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العَلق: الآيات ٣ - ٥]. وصف نفسه تبارك وتعالى بأن علّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم. واعتدَّ ذلك من نِعَمِهِ العظام، ومن أياديه الجسام.

---

(١) مثل يُضرب في العيّ، وهو عجز في المنطق والكلام. وباقل رجل من إياد اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا، فسُئل عن الثمن فأشار بأصابعه ودلع لسانه فشرد الظبي.

(٢) مثل يضرب في البلاغة. وقد خطب سحبان وائل في صلح بين حيّين من العرب لساعات طوال فما أعاد كلمة.

قال أحمد شوقي:

أنا من بدَّل بالكُتْبِ الصحابا ... لم أجد لي وافيًا إلا الكتابا
صاحبٌ إن عِبْتَهُ أو لم تعِبْ ... ليس بالواجد للصاحبِ عابا[١]
صحبةٌ لم أشكُ منها ريبَةً ... ووِدادٌ لم يكلِّفني عتابا

قال مصعب بن الزبير[٢]: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون. فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال فإنك لا ترى ولا تسمع إلَّا مختارًا لؤلؤًا.

وقال لقمان لابنه: يا بني، نافس في طلب العلم؛ فإنه ميراثٌ غير مسلوب، وقرين غير مغلوب، ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب.

أول مَن وضع الكتابة

أول مَن وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب، آدم عليه السلام، قبل موته بثلاثمائة سنة: كتبه في الطين ثم طبخه؛ فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من الغرق وجد كل قوم كتابهم فكتبوا به، فكان إسماعيل عليه السلام وجد كتاب العرب.

وروى أبو ذر أن النبيّ ﷺ قال: إن إدريس عليه السلام هو أوّل مَن خط بالقلم بعد آدم ﷺ.

وعن ابن عباس أن أوّل مَن وضع الكتابة العربية: إسماعيل بن إبراهيم (ع) وكان أوّل مَن نطق بها، فوضعتْ على لفظه ومنطقه.

وعن عمرو بن شبة بأسانيده، أن أول مَن وضع الخط العربي، أبجدُ وهوّز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت. وهم قوم من الجبلّة[٣] الآخرة ـ وكانوا نزولًا مع عدنان بن أدد، وهم من طسم وجديس.

---

(١) العاب: العيب.
(٢) والي البصرة من قبل أخيه عبد الله بن الزبير. قتله المختار الثقفي سنة ٧١ هـ.
(٣) الجبلّة: الأمة.

وحُكِيَ أنهم وضعوا الكتب على أسمائهم. فلما وجدوا حروفًا في الألفاظ ليست في أسمائهم ألحقوها بهم وسمّوها الروادف؛ وهي: الثاء، والخاء، والذال، والضاد، والظاء، والغين، على حسب ما يلحن في حروف الجمل.

وعنه أن أول مَن وضع الخط: نفيس، ونصر، وأتِمَا، وبنو إسماعيل بن إبراهيم. وضعوه متصل الحروف بعضها ببعض حتى فرقه. نَبَت وهميسع وقيذر.

وقيل: إن «أبجد هوّز...» هي أسماء ملوك؛ وهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم. وقد كانوا عدة ملوك تفرّقوا في ممالك منفصلة. فمنهم المسمّى بأبي جاد «أبجد»، وكان ملك مكة وما يليها من الحجاز. وكان هوّز وحطي ملكين ببلاد «وجّ» وهي أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد. وكان كلمن وسعفص وقرشت ملوكًا بمدين ـ وقيل: ببلاد مصر. وكان كلمن على ملك مدين. ومن الناس مَن رأى أنه كان ملكًا على جميع من سمينا مشاعًا متصلًا، وأن عذاب «يوم الظلّة»(١) كان في ملك كلمن.

وحكوا أن ثلاثة نفر من طيىء اجتمعوا ببقعة، وهم: مرامر بن مرة، وأسلم ابن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار.

وقال المسعودي:

قيل: سار عبد ضخم بن أرم بن نوح بولده ومَن تبعه فنزلوا الطائف، فهلك هؤلاء من غوائل الدهر، وذكرتهم الشعراء وفيهم يقول الأزدي:

وعبد ضخم إذا نسبتهم ... أبيضُّ أهل الحي بالنَّسب
ابتدعوا منطقًا يجمعهم ... فبيَّن الخط قمة العرب

وذكروا أن هؤلاء أول مَن كتب بالعربية ـ ووضع حروف المعجم وهي: أ، ب، ت التسعة والعشرون ـ وقد قيل غير ذلك.

(١) في التنزيل العزيز: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٩]. قيل: هي سحابة أظلّتهم فلجأوا إلى ظلها من شدّة الحر فأطبقت عليهم وأهلكتهم.

وسار بعد عبد ضخم بن إرم، جرهم بن قحطان بولده ومَن تبعه وطافوا البلاد حتى أتوا مكة فنزلوها. وفي ذلك يقول: مضاض بن عمرو الجرهمي:

هـذا سبـيـلٌ كـسبـيـل يـعـرب البادىء القول المبين المعرب
يا قوم سيروا عن فعال الأجنب جُـرْهُـمٌ جـدي وقـحـطـان أبـي

الكتابة في الإسلام

عندما جاء الإسلام لم يكن أحد يكتب بالعربية، غير سبعة عشر، هم: عليّ بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد/ أخوه، وأبو حذيفة بن عتبة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن أبي سرح، وحويطب بن عبد العُزّي، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية ولده، وجهيم بن الصلب بن مخرمة.

استفتاح الكتب

لم تزل تستفتح الكتب: باسمك اللهم، حتى أنزلت سورة «هود» وفيها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: الآية ٤١] فكتبَ بسم الله.

ثم نزلت سورة الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: الآية ١١٠] فكُتِبَ بسم الله الرحمٰن. ونزلت بسورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النّمل: الآية ٣٠] فاستفتح النبيّ بها وصارت سُنَّة.

وكان النبيّ ﷺ يكتب إلى أصحابه وأمراء جنوده: من محمد رسول الله إلى فلان.

وكذلك كانوا يكتبون إليه، يبدؤون بأنفسهم فمن كتب إليه وبدأ بنفسه: أبو بكر، والعلاء بن الحضرمي وغيرهما. وكذلك كتب الصحابة والتابعين. ثم لم تزل حتى ولي الوليد بن عبد الملك، فعظَّم الكتاب وأمر أن لا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضًا، فجرت به سُنَّة الوليد إلى يومنا هذا، إلا ما كان من

عمر بن عبد العزيز، ويزيد الكامل، فإنهما عملا بسنّة الرسول ﷺ ثم رجع الأمر إلى الوليد والقوم عليه إلى اليوم[١].

كُتّاب النبيّ ﷺ

كان حنظلة بن الربيع بن المرقع بن صيفي - ابن أخ أكثم بن صيفي الأسدي - خليفة كل كاتب من كتّاب النبيّ إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب. وكان يضع عنده خاتمة فقال له الزمني وأذكرني بكل شيء أنا فيه.

وكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة أيام إلّا أذكره، فلا يبيت ﷺ وعنده منه شيء.

ومرَّ رسول الله يومًا بامرأة مقتولة يوم الفتح - فتح مكة - فقال لحنظلة: إلحق خالدًا وقل له: لا تقتلنَّ ذرّية ولا عسيفًا[٢]. ومات حنظلة بمدينة الرُّها، فقالت: فيه امرأة؛ وحُكِيَ أنه من قول الجن وهذا محال:

يا عجيب الدهر لمحزونة ... تبكي على ذي شَيْبَةٍ شاحب
إن تسأليني اليوم ما شفَّني ... أخبرك قيلًا ليس بالكاذب
إن سواد العين أودى به ... وجْدي على حنظلة الكاتب

وكان الحصين بن نمير من بني عبد مناة شهد بيعة الرضوان، ودعاه النبيّ ليكتب صلح الحديبة فأبى سهيل بن عمرو ذلك وقال: لا يكتب إلّا رجل منا. فكتب عليّ بن أبي طالب.

وكان عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان يكتبان الوحي، فإن غابا كتب أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت. فإن لم يشهد واحد منهما، كتب غيرهما.

وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه.

وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس، وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا.

---

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٩ - ٢٤٤.

(٢) العسيف: الأجير.

وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء. وربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك عن النبيّ ﷺ.

وكان زيد بن ثابت يكتب في عهد الرسول ﷺ إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي. وقيل إنه تعلّم بالفارسية من رسول كسرى، وبالرومية من حاجب النبيّ ﷺ، وبالحبشية من خادم النبيّ ﷺ وبالقبطية من خادمه.

وروى زيد بن ثابت قال: كنت أكتب بين يدي الرسول ﷺ يومًا فقام لحاجة، فقال لي: ضع القلم على أذنك فإنه أذْكَرُ للمُمْلي وأقضى للحاجة.

أيام أبي بكر رضي الله عنه

كان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت. ورُوِيَ أن عبد الله بن الأرقم كتب له، وأن حنظلة بن الربيع كتب له أيضًا. ولما تقلّد الخلافة دعا زيد بن ثابت، وقال له: أنت شاب عاقل لا نتّهمك على رسول الله ﷺ كنت تكتب الوحي. فتتبّع القرآن فاجمعه. وفيه يقول حسان بن ثاتب:

فمن للقوافي بعد حسّان وابنه ... ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب لعمر بن الخطاب: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن خلف الخزاعي. وكتب له على ديوان الكوفة أبو جبيرة بن الضحاك ثم حبيب بن سعد القيسي.

أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه

كان يكتب لعثمان مروان بن الحكم. وكتب له عبد الملك بن مروان على ديوان المدينة، وأبو حبترة على ديوان الكوفة، وعبد الله بن الأرقم على بيت المال. وكتب له أيضًا أبو غطفان بن عوف، ومولياه أهيب وحُمران.

أيام عليّ بن أبي طالب عليه السلام

كان يكتب له سعيد بن نمران الهمذاني. وكتب له عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن أبي رافع، وسماك بن حرب. ورُوِيَ أن عبد الله بن حسن كتب له(١).

---

(١) العقد الفريد ٤/٢٤٦.

الكتابة قبل التاريخ

أقدم الرموز التصويرية المعروفة هي تلك التي وجدت في «فلندرز يثرى» على قطع من فخار وآنية على قطع الحجر، مما كُشف عنه في مقابر ما قبل التاريخ في مصر وإسبانيا والشرق الأدنى. وهذه الرموز التي وجدت في حوض البحر المتوسط ـ تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ومعظمها متشابه في جميع الأرجاء جمع عهدها إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولم تكن هذه الرموز صورًا بل كانت في معظمها علامات تجارية. ولم تكن العلامة حروفًا ـ لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها.

الكتابة الهيروغليفية

ما جاءت سنة ٣٦٠٠ ق.م ـ وقد يكون قبل ذلك التاريخ ـ حتى كانت عيلام وسومرر ومصر قد طوَّرت مجموعة من الصور التي يُعبِّرون بها عن أفكارهم، وأطلقوا عليها اسم «الكتابة الهيروغليفية» لأن معظم مَن قام بها كان من الكهنة. وظهرت مجموعة أخرى من هذه الصور شبيهة بتلك في كريت سنة ٢٥٠٠ ق.م.

وقد استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التي تمثل كلَّ صورة منها فكرة ـ استحالت بخطأ الاستعمال بما تناولها من تنسيف وتنظيم عرفي إلى مقاطع، أو مجموعة من الرموز، يدل كل منها على مقطع. ثم إنها استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله، بل على أول ما فيه من أصوات وبهذا أصبحت حروفًا. وربما كان تاريخ الكتابة الهيروغليفية يرتد إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مصر.

أحرف الهجاء قبل الميلاد

ظهرت في كريت حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م أن الفينيقيين لم يخلقوا أحرف الهجاء ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء. فقد أخذوها فيما نظن من مصر وكريت، وأدخلوها جزءًا جزءًا في صور وصيدا وبيبلوس، ثم أصدروها إلى كل مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط. ثم في عصر هومر، أخذ اليونان هذه الأحرف ـ ويطلقون عليها الاسمين الساميَّين للحرفين الأولين وهما: ألفا بيتا.

أصول اللغة البشرية

إن اللغات البدائية كانت تنحصر في حدود الحس والجزء. وهي بصفة عامة فقرة من الأسماء الكلية المجردة. وفي أكثر القبائل لا تجد ألفاظًا تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملونة، ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل: نغمة، جنس، نوع، غريزة، عقل، كمية، أمل، خوف، مادة الخ... فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتتزايد فيما يظهر مع تقدم الفكر، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب. وهي بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير، ورموزًا تدل على الحضارة[1].

الكتابة البابلية

كان البابليون يكتبون بالخط المسماري على ألواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي أو الأسفين. فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو أحرقوه، فكان بذلك مخطوطًا غريبًا طويل البقاء. وإذا كان المكتوب رسالة نثر على التراب الناعم. ووضعت في مظروف من الطين - وبصمت بخاتم مرسلها الأسطواني. وكانت الألواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملأ عددًا كبيرًا من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها. وقد ضاعت هذه المكتبات؛ ولكن واحدة من أعظمها، وهي مكتبة بورسبا، قد نسخت وحفظت في مكتبة أشور بانيبال، وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠,٠٠٠ لوح أهم مصدر استقينا منه معلومات عن الحياة البابلية.

الحروف البابلية

لقد حيّرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها. لكن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية في جامعة جوتنجن أبلغ المجمع العلمي في تلك المدينة عام ١٨٠٢م أنه ظل عدة سنين يواصل البحث في بعض المخطوطات المسمارية التي فصلت إليه من بلاد فارس القديمة، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرّف على ثمانية من الاثنين والأربعين حرفًا المستعملة في هذه النقوش وأنه ميّز ثلاثة من أسماء الملوك المدوّنة فيها.

---

(١) سيد قطب؛ النقد الأدبي ص ٨٣ - ٨٤.

وفي عام ١٨٣٥م استطاع ـ هنري رولنس ـ أحد موظفي السلك السياسي البريطاني في إيران ـ على غير علم منه بما توصّل إليه جروتفند ـ أن يقرأ ثلاثة أسماء هي (هشبس ـ ودارا ـ وحشيارشاي) في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها في آخر الأمر.

حجر رشيد بابلي

لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هي البابلية نفسها. وقد بقي على رولنس أن يعثر على حجر رشيد بابلي كما عثر شمبليون على حجر رشيد مصر، أي على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية. وهذا ما عثر عليه في مكان يعلو عن سطح الأرض نحو ثلاثمائة قدم. وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون في جبال ميديا، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات: الفارسية القديمة، والأشورية والبابلية. وظل رولنس يومًا بعد يوم يرقى هذه الصخرة مُعرِّضًا بذلك حياته لأشد الأخطار ـ وكثيرًا ما كان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة حتى لقد كان أحيانًا يطبع النقش كله على عجينة لينة.

وبعد جهد دام اثنتي عشرة سنة كاملة، نجح في ترجمة النصين البابلي والآشوري (١٨٤٧).

اللغة البابلية

اللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكد. وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مرّ الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) وربع الألواح التي عثر عليها المنقبون في المكتبة الملكية بنينوى هي معاجم في اللغات السومرية والبابلية والأشورية وكتب في نحوها وصرفها. وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل في القدم هو عهد سرجون ملك أكد. وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حكم أخلاقية تحث على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفي عام.

كان البابليون، كالفينيقيين، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية. ولذلك لم يضيعوا كثيرًا من طينهم في كتابة الأدب. ونجد في ألواحهم قصصًا منظومة على لسان الحيوان. وهي نوع من أنواع لا حصر لها من القصص الخرافية، ونجد عندهم كثيرًا من كتب التاريخ. ذلك أن المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تواريخ الملوك ـ وما يصيب كل هيكل من عوادي الدهر. ويقصّ علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان في عهده الأول. ويقول إن الله اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولّى حكمها، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام. كما يقدر في دقة الزمن الذي مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان الأعظم بستمائة وواحد وتسعين ألفًا ومائتين من السنين(١).

أوغـاريـت

ـ مهد الكتابة الهجائية ـ وصانعة حروف الهجاء

أوغاريت حضارة ومدنية قديمة... ولكن آثارها بقيت طي المجهول حتى سنة ١٩٢٩ فلا المؤرخون ولا علماء الآثار عرفوا أي شيء عن أوغاريت التي ظهرت حضارتها في الألف السابعة وازدهرت في الألف الثانية قبل الميلاد. فحتى سنة ١٩٢٩ ظلت الكتابة الهجائية لغزًا من الألغاز المستعصية.... فهي اختراع أوغاريتي كنعاني ولا ريب.... نشره الفينيقيون وأخذه عنهم أهل الغرب والشرق.

ولكن الفضل لابتكار الأبجدية إنما يعود إلى الكنعانيين الساميين، الذين استوطنوا أوغاريت واستقرّوا فيها قرونًا عديدة قبل أن يرتحلوا عنها إلى شواطىء لبنان حيث تقوم الآن صيدا وصور وجبيل وغيرها.

والأوغاريتيون هم من الكنعانيين والساميين، وهم سكان المنطقة الأصليين، سكان سوريا ولبنان وفلسطين وما إليها. انتشرت جموعهم في أرجائها، وسادت حضارتهم وذلك في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ـ وكانت أوغاريت بالتحديد إحدى المدن الكنعانية.

---

(١) قصة الحضارة: ٢/٢٣٨.

أقدم أثر للكتابة من أيام السومريين

أول صورة ظهرت فيها الكتابة لم تزد على نقوش ساذجة؛ يصورها كاتب أو ينحتها ناحت على صخر، ثم أصبحت نقشًا بمسمار على أقراص من الطُغال (الطين اليابس) وقد وجدت في كلوديا، ووجد على أحدهما قصة الطوفان ـ ولعلها أقدم أثر مكتوب.

أقدم كتاب

أقدم كتاب انتهى إلينا علمه «كتاب الموتى» الذي دُوِّنَ في عصر بناء الهرم الأكبر، ولا تزال نسخة منه محفوظة في المتحف البريطاني. وفيه دعوات للآلهة وأناشيد وصلوات، ثم وصْف لما تلاقيه أرواح الموتى في العالم الآخر من حساب، وما يلحقها من عقاب وثواب. وهناك الدعوات وهي ما يدافع به الميت عن نفسه.

أوراق البردي

البردي نبات مائي ينمو في مصر. تؤخذ سوقُهُ وتضغط وتجفَّفُ ثم تضع منها الأوراق. وكانت مصر تبعث بهذه الأوراق البردية إلى اليونان وروما وغيرهما من البلدان.

وعلى هذه الأوراق كتبت روائع الأدب اليوناني واللاتيني ـ حتى أن كتب فرجيل وهومير ـ كُتبت على ورق البردى. ومن قبل كانت الكتابة على جلود الجواميس والبقر والغنم.

وكانت العرب تكتب في أكتاف الإبل وفي العسب ـ وهي جريدة النخل ـ كما كانوا يكتبون في الجلد. وفي هذا كله كتب القرآن الكريم، أول ما نزل على النبيّ ﷺ، فكانوا يكتبون الآيات في العسب واللخاف وعظام الأكتاف والأضلاع والأدم والجلد.

وقد أرسل النبيّ محمد ﷺ رسالة إلى المقوقس يدعوه للإسلام على جلد حيوان ولا تزال في المتحف الإسلامي في إسبتنبول.

الــــورق

استخدم المصريُون الورق من سيقان البـردى ٤٣٠ ق.م ـ واستمرّت هذه الصناعة حتى سنة ١٢ ق.م حيث قام الصينيون بتجربة جديدة لصناعة الورق باليد، من أشجار التُوب والخرق مع بعض الأدوات.

وحتى عام ٧٥١ م كانت صناعة الورق لا تزال وقفًا على الصينيين حتى أقيم أول مصنع للورق في بغداد عام ٩٧٣ ـ في عهد هارون الرشيد، ثم امتدت صناعته إلى فارس ومصر وبلاد المغرب ومنها إلى اسبانيا ثم امتدت إلى فرنسا ـ كما وصلت بعد ذلك إلى صقلية خلال الفتح العربي ـ ومنها إلى النمسا وإيطاليا وجنوب إلمانيا في القرن الثالث عشر ـ وإلى أميركا عام ١٦٦٠ م.

وسنة ١٧٩٧ توصّل العالم الفرنسي ـ لويس روبرت ـ إلى اختراع آلة لصناعة الورق.

وأول مصنع للورق أُنشىء في البلاد العربية كان سنة ١٩٠٢ في القاهرة[١].

أول ما استخدم المسلمون الورق

كان المسلمون حتى أوائل القرن الثالث للهجرة يكتبون على الرقوق أو البردى. وقد رُوِيَ أن بعض الطروس التي انتُهبتْ في أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون محيَتْ الكتابة عنها ـ وبيعت ثانية لتُستعمل من جديد.

بعد القرن الثالث أخذ الورق الصيني يرد إلى العراق، إلَّا أن صناعة الورق ما لبثتْ أن أتقنها أهل البلاد أنفسهم من طريق الأسرى الصينيين الذين أدخلوا إلى البلاد الإسلامية سنة ٧٥١ م.

استعمل العباسيون الأسرى الصينيين، وكان بينهم أحد العلماء، في صنع الورق من القنّب والكتّان وألياف الحشيش. ولعل اسم الورق العربي القديم ـ كاغد ـ هو لفظ صيني الأصل جاء عن طريق الفارسية. ومن سمرقند تطرّقت هذه الصناعة إلى العراق. وكان أول مَن أدخلها إلى بغداد الفضل بن يحيىٰ البرمكي الذي كان عامل خراسان سنة ٧٩٤م.

ثم قام أخوه فاستعمل الورق بدل الرقوق في دواوين الحكومة. وسلكت مدن أخرى سبيل بغداد، فانشأت مصانع الورق على الأصول المنيعة في سمرقند.

ونشأ معمل في تهامة لصنع الورق من ألياف الحشيش. وكان ورق سمرقند في زمن المقدسي لا يزال أفخر ما يُصنع.

(١) انظر تاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ.

وفي القرن الحادي عشر للميلاد ـ ظهرت أنواع من الورق الفاخر كانت تُصنع في سوريا، كطرابلس مثلًا. وقد سرت هذه الصناعة في أواخر القرن التاسع من غربي آسية إلى الدلتا حيث كان يُستعمل الكتابة بالقراطيس.

وما أتى القرن العاشر حتى حلّ الورق محل البردى والرقوق في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي.

المعتصم وبناء المعامل

يقال أن المعتصم بالله الخليفة العباسي ـ ينسب إليه الفضل في إنشاء معامل الصابون والزجاج في بغداد وسامراء وسواهما ـ وقد نشط الورق أيضًا وصناعته.

وإن أقدم ما تحدّر إلينا من المخطوطات العربية المكتوبة على الورق ـ مخطوطة «غريب الحديث» لأبي القاسم ابن سلام ـ المتوفى ٨٧٧ م ـ وقد كتبت في ذي القعدة سنة ٢٥٢ هـ وهي محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني لبحث اللاهوت تأليف ـ أبي قرة ـ وهي أول مخطوطة محفوظة لمؤلف نصراني ـ ونرى أن صناعة الورق دخلت أخيرًا أوروبا المسيحية عن طريق الأندلس وإيطاليا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ـ وفي أوروبا حيث تمّ اختراع الطباعة المتحركة ١٤٥٠ م تمكن الاثنان الورق والطباعة من نشر العلوم والمعارف التي تتمتع بها أوروبا وكذلك أميركا[١].

الكتابة العربية

الكتابة: خطية وإنشائية

الكتابة الخطية: كان الخط في مبدأ الإسلام هو الخط الأنباري الحميري المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازي، وهو أصل النسخ. وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة، فلما انتصر النبيّ ﷺ على قريش يوم بدر، وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب، فقبل الفداء من أميهم، وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة، فانتشرت الكتابة بين المسلمين، وحضّ النبيّ ﷺ على تعلّمها. ومن أشهر كتاب الصحابة: زيد بن

(١) تاريخ العلوم عند العرب؛ عمر فروخ.

ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام.

ولما فتح المسلمون الممالك، ونزلت جمهرة الكتاب منهم الكوفة، عنوا بتجديد الخط العربي وهندسة أشكاله حتى صار خط أهل الكوفة ممتازًا بشكله على الخط الحجازي، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفي)، وبه كانت تكتب المصاحف وحلى القصور والمساجد وسك النقود.

وكان الصحابة وتابعوهم يكتبون بلا إعجام ولا شكل إلّا قليلًا اعتمادًا منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة واكتفائهم بالرمز القليل في قراءة اللفظ، فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم وظهر اللحن والتحريف (اتفق المسلمون على تحريف كلم الكتاب الكريم). فوضع أبو الأسود الدؤلي علامات في المصاحف بصبغ مخالف. فجعل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة أسفله، والضمة نقطة من الجهة اليسرى، وجعل التنوين نقطتين.

ووضع نصر بن عاصم ويحيىٰ بن يعمر بأمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المراد الذي يكتب به الكلام، حتى لا يختلط بنقط أبي الأسود. وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، ثم شاع في الناس بعد.

أما الكتابة الإنشائية: فهي كتابة رسائل ودواوين، وكتابة تدوين وتصنيف.

التدوين والتصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدوَّن فيه كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصحف ـ وكان مرجع الناس في أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنّة رسوله. فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة.

ثم لما انتشر الإسلام في زمن بني أمية واختلطت العرب والعجم، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربي، وفشا اللحن، وأشفقوا على القرآن من التحريف، دوَّنوا النحو. وكان أول مَن كتب فيه أبو الأسود الدؤلي. وقد تلقى مبادئه عن الإمام عليّ، وأخذ عنه فتيان البصرة، وخصوصًا الموالي إذ كانوا أحوج الناس إلى النحو. واشتغل به أهل الكوفة بعد أن فشا في البصرة.

ولم ينقض هذا العصر حتى اشتغل به طبقتان من البصريين وطبقة من الكوفيين. ثم لما حدثت الفتن وتعددت المذاهب والنحل وكثرت الفتاوى والرجوع

فيها إلى الرؤساء ومات أكثر الصحابة، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم، ويتركوا سنة الرسول، فأذن عمر بن عبد العزيز، لأبي بكر محمد بن عمرو بن حزم في تدوين الحديث. وانقضى هذا العهد ولم يدوّن فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث - وبعض التفسير. أما العلوم الأخرى فيروى أن خالد بن يزيد بن معاوية تُرجم له بعض كتب اليونان ووضع كتبًا في الطب وأن معاوية استقدم عبيد بن شبرمة من صنعاء فكتب له كتاب «الملوك وأخبار الماضي - وأن وهب بن منبه الزهري وموسى بن عقبة كتبا في ذلك أيضًا، وأن زياد ابن أبيه وضع لابنه كتابًا في مثالب قبائل العرب، وأن ماسَرْجويه متطبّب البصرة تولّى في الدولة المروانية ترجمة كتاب أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية وأن يونس الكاتب ابن سليمان ألّف كتابًا في الأغاني ونسبتها إلى مَن غنى بها، ولم يبلغ التصنيف شأوًا يذكر.

الكتابة الخطية في العهد العباسي

تنوّع في هذا العصر الخط الكوفي إلى أنواع أربت على خمسين نوعًا ومن أشهرها: المحرَّر، والمشجَّر، والمربع، والمدور، والمتداخل - وبقي مستعملًا في المباني والسكة إلى حدود الألف، ثم نسي جملة.

وقد جددت منه أنواع في عصرنا. أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث في آخر الدولة الأموية أن استنبط (قطبةُ) المحرر من الخط الكوفي والحجازي خطًا هو أساس الخط الذي يُكتب الآن به، واخترع القلم الجليل الذي يكتب به على المباني ونحوها وقلم الطومار (الورقة الكبيرة). وهو أصغر أنواع الجليل، وحسن عمله غيره من كتاب صدر الدولة العباسية حتى ظهر إبراهيم الشحري وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثاني. فولّد إبراهيم من الجليل قلم الثلثين، وولد يوسف من الجليل القلم الرياسي - وهو قلم التوقيع - وعن إبراهيم أخذ الأحول المحرر واخترع قلم النصف.

هذه هي أشهر الخطوط. وقد تولد منها نحو ٢٠ خطًا يختصّ كل منها بغرض خاص، واتفقوا على أن طول الألف يعتبر معيارًا لارتفاع بقية الحروف، وأن يكون طول الألف مربعًا مقدار قطة القلم.

وعن الأحول أخذ مُهندس الخط الأعظم، الوزير «أبو علي محمد بن مقلة، وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ. وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التي نعرفها الآن، وأتما العمل الذي بدأه قطبة فهندسا الحروف وقدّرا مقاييسها وأبعادها وضبطها ضبطًا محكمًا واخترعا له القواعد. وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبد الله بن أسد القارىء المتوفي سنة ٤١٠ هـ، وعنه أخذ أبو الحسن علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ وهو الذي أكمل قواعد الخط واخترع عدة أقلام - وإليه انتهت الغاية.

وكل مَن جاء من بعده فهو تابع لطريقته، كأمين الدين ياقوت المكي المتوفى سنة ٦١٨ هـ كاتب السلطان ملِكشاه السلجوقي. أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبأوا بهذا الاصطلاح وبقوا يكتبون على طريقة الخط الحجازي إلى الآن بنوع من التعديل. واخترع الجليل الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واوًا تكتب فوق الحروف، والفتحة ألفًا، والكسر باء، والشدة رأس شين، والسكون رأس خاء، وهمزة القطع رأس عين، ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن(١).

أشهر كُتَّاب الدولة العباسية

هم: أبو سَلمة الخلال، ويحيىٰ بن خالد البرمكي، وابناه جعفر والفضل، ثم محمد بن الزيات في زمن المعتصم والواثق، وابن المقفع، وإسماعيل بن صبيح، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، والحسن بن وهب، وعليّ بن الفرات، وابن مقلة، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو بكر الخوارزمي، والبديع، والصابي، والعماد الكاتب، والقاضي الفاضل.

ومن أشهر كتاب الأندلس: ابن شهيد، وأبو المطرف بن عميرة، وابن زيدون، ولسان الدين بن الخطيب.

ابن مقلـــة

هو الوزير أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة إمام الخطاطين، وأحد كبار الكتّاب البارعين. أخذ الخط عن الأحول المحرَّر صنيعة البرامكة، وتم على

(١) جواهر الآداب ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢.

يديه ويدي أخيه الحسن نقل الخط من الكوفي إلى الشكل المعروف في زماننا. وكان ابن مقلة يتولّى في أول أمره بعض أعمال فارس، يجبي خراجها. وتنقلت به الأحوال إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله العباسي ٢١٦ هـ ـ ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٢١٨ هـ ونفاه إلى فارس.

ثم وزر للراضي فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعزل. ثم أطمعه نحسه أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة، فقبض عليه ابن رائق وقطع يمينه ثم عاد فقطع لسانه أيضًا ـ فمات سنة ٢٢٨ هـ ومن قوله في تلك الحوادث:

إذا ما مات بعضك فابكِ بعضًا ... فإن البعض من بعضٍ قريب

وقوله:

ما سئِمتُ الحياة لكن ... توثَّقتُ بأيمانهم فبانت يميني
بعتُ ديني لهم بدنياي حتى ... حرموني دنياهمو بعد ديني
ولقد حُطْتُ ما استطعت بجهدي ... حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيشٍ ... يا حياتي بانت يميني فبيني[1]

كتابة الرسائل في العصر العباسي الثاني

يمتاز القرن الرابع الهجري بنهضة أدبية مباركة. فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان من بينهم طائفة من الوزراء، وذاع استعمال السجع في الرسائل. وقد وصف ـ متز ـ هذه الرسائل في هذه العبارة فقال: «إن رسائل القرن الرابع الهجري هي آية الفن الإسلامي، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون وهي اللغة. ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن، لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق، وامتلاكهم ناصية البيان في أصعب صورة، وتلاعبهم بذلك لعبًا. وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وإعلامه. لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة بأن تُنشر كتبًا للناس.

(١) جواهر الأدب: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

وكان من أولئك الوزراء: الخصيبي، وابن مقلة، والمهلبي، وابن العميد، والصاحب بن عياد، والإسكافي وزير السامانيين، وإبراهيم بن هلال الصابي الذي تقلّد ديوان الإنشاء في بغداد سنة ٣٤٩ هـ.

أبو إسحٰق إبراهيم بن هلال الصابي (٣٢٠ ـ ٣٨٤ هـ)

يعتبر أبو إسحٰق إبراهيم بن هلال الصابي الحراني من أشهر رجال الأدب في هذا العصر، وقد ولد ببغداد، ووصفه الثعالبي في هذه العبارة فقال: «أوحد العراق في البلاغة، ومَن به تثنى الخناجر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة».

وقد تقلّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ، في عهد معز الدولة بن بويه ثم في عهد ابنه عز الدولة بختيار. وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار فحقد عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ ثم أطلقه في سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه وأمره أن يضع كتابًا في أخبار بني بويه سماه «التاجي». وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابي عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه ـ على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب، وأخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه. ورفع إلى عضد الدولة أن صديقًا للصابي دخل عليه يومًا فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض، فسأله عما يعمله من ذلك فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب أُلفِّقها، فأمر عضد الدولة أن يلقى تحت أرجل الفيلة. فأكب نصر بن هارون ومطهر بن عبد الله، وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستنفعون إليه في أمره ويتلطفون في استيهاب دمه إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه وعلى أمواله.

وكان هلال بن الصابي متمسكًا بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام، حتى أن بختيار عرض عليه الوزارة إذا أسلم، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويساعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظًا يدور على طرق لسانه وسن قلبه[١].

---

(١) عن تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن.

بديع الزمان الهمذاني

كان زعيم هذا النوع من الكتابة ـ أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف ببديع الزمان توفي سنة ٣٩٨ وكما وصفه الثعالبي: «معجزة همذان ونادرة الفلك، وبكر عطارد[١]، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومَن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس. ومَن لم يدرك في ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكهته، ولم يُر ولم يروَ أن أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب. فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي يسمعها، وهي أكثر من خمسين بيتًا، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفًا ولا يخلُّ بمعنى. وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدة خفيفة، ثم يهذّها[٢] عن ظهر قلبه ويسردها سردًا».

كان يُقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة.

«اتصل بديع الزمان بالصاحب بن عباد. وأخذ عنه، كما اتصل بأبي بكر الخوارزمي. ومن رقعة له: «يعزّ عليّ ـ أيّد الله الشيخ ـ أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي قبلَ وصولي، ويرد مشرع الأنس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة؟:

وعـليَّ أن أسـعـى ولـيـــ ـــس عـليَّ إدراكُ الـنـجـاحِ

وقد حضرتُ داره وقبّلتُ جداره، وما بي حبُّ الحيطان ولكن شغفٌ بالقطان، ولا عشقٌ للجدران ولكن شوقٌ إلى السكان».

وكان بديع الزمان بخلاف الخوارزمي، سنيًا مغاليًا في عقائد هذا المذهب، وكان على أثر ذلك أن دبَّ الخلاف بينهما، فتقارعا وتساجلا، وكانت الغلبة لبديع الزمان الذي ذاع صيته خاصة بعد موت الخوارزمي.

---

(١) قال الأزهري: عطارد كوكب الكتّاب. ومعناه أن الذين يولدون في طلوع عطارد يكونون ذوي حظ في الأدب والكتابة والشعر.

(٢) الهذّ: السرعة في القراءة.

ومن قول بديع الزمان في تعزية: «الموت خطبٌ قد عظُم حتى هان، وأمرٌ قد خشُن حتى لان، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنَتْ حتى صار الحِمام أصغر ذنوبها. فلتنتظر يمنة هل ترى إلا محنة؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة؟»(١).

أبو الفتح البُسْتي

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين، هو أبو الفتح عليّ بن محمد البستي الذي اشتهر بخدمته في الشعر والنثر. وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوي بإحضاره حين فتح مدينة ـ بست ـ فدخل في خدمة سبكتكين وأصبح كاتب الرسائل في ديوانه وشاعر بلاطه، ثم خدم ابنه محمودًا بعد وفاته، ومات في منفاه ببخارى سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م. وقد حذق الصناعة البديعة التي اشتهرت في زمانه على يد ابن العميد والصاحب وغيرهما. وكانت له طريقة جميلة في التجنيس خاصة.

فمن ألفاظه البديعة قوله: «مَن صلح فاسده أرغم حاسده، ومَن أطاع غضبه أضاع أدبه. عادات السادات سادات العادات. من سعادة جدك وقوفك عند حدِّك. الرشوة رشاء الحاجات. أجهل الناس مَن كان للإخوان مُذِلّا وعلى السلطان مُدِلّا. الفهم شعاع العقل. المنية تضحك من الأمنية. حد العفاء الرضا بالكفاف. ما لخرق الرقيق ترقيع».

وقد ذاعت أشعار البستي في زمانه وحفظها الناس وتناقلوها. وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة في مجالس القاهرة ومقاهيها، من ذلك القصيدة التي مطلعها:

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسرانُ

ومنها:

أحسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبهمُ ... فطالما أستعبد الإنسان إحسانُ

(١) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن.

اللغة العربية في مالطة

كتب أحمد فارس الشدياق في القرن الماضي بعد أن عاش في مالطة أربع عشرة سنة كتابًا أسماه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» يحتوي دراسة شيّقة حول لماذا اندثرت اللغة العربية من صقلية وسردينيا والأندلس وجنوب فرنسا وبقيت في مالطة... ويسلّم بأن اللغة المالطية لغة عربية فاسدة. ويجيب بعد ذلك أن أصل لغة تلك البلاد اللاتينية، أما لغة مالطة فكانت الفينيقية.

وعندما دخلها اليونانيون لم يخرجوا منها الفينيقية، وأنها لم تتغير زمن القرطاجيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضًا فينيقية. ويضيف: ... والفينيقية كانت أخت العربية. وعندما جاءتهم العربية كانت كأنها نزلت في وطنها، وثبتت فيها ثباتًا لم يزلزله خروج المسلمين.

يضاف إلى ذلك أنه حتى في عصر الفرسان شكّل الفرسان طبقة معزولة مميّزة عن الشعب المالطي الذي استمرّ يتحدث لغته.

قصص متفرقة

بَنُو أسَد وَامرؤ القَيْس[1]

قَدِمَ على امرىء القيس بن حُجْر الكِنْدِيّ بعد مَقْتَلِ أبيه رجالاتٌ من بني أسَد، فيهم المُهَاجر بن خِدَاش، وعَبيد بن الأبرص، وقَبيصة بن نُعَيْم؛ وكان رجلًا مقيمًا في بني أسد، ذا بصيرة بمواقع الأمور وِرْدًا وإصدارًا، يَعْرِف ذلك له مَن كان محيطًا بأكناف بلده من العرب.

فلمّا علم امرؤ القيس بمكانهم أمر بإنزالهم، وتَقَدَّمَ في إكرامهم والإفضال عليهم، واحتجَب عنهم ثلاثًا.

فقالوا لمَنْ ببابه من رجال كِنْدَة: ما بالُ الرجل لا يخرجُ إلينا؟ فقيل لهم: هو في شُغْل بإخْرَاج ما في خزائن حُجْر من العُدَّة والسلاح. فقالوا: اللهم غَفْرًا! إنّما قدمنا في آمرٍ نتناسى به ذكرَ ما سلف، ونستدرك به ما فرَط؛ فلْيُبَلِّغ ذلك عنّا.

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ١٠٣ (طبعة دار الكتب)، صبح الأعشى: ٣ ـ ١٢٦.

فخرج إليهم بعد ثلاثٍ في قَبَاء وخُفٍّ وعِمامة سوداء ـ وكانت العرب لا تعتمُّ بالسَّواد إلّا في التِّرات[١] ـ فلما رأَوْهُ نهضوا له، وبَدَر إليه قَبيصة فقال:

إنك في المحَلِّ والقدْر والمعرفة بتصرُّف الدهر، وما تحدِثه أيامه، وتتنقَّلُ به أحواله بحيث لا تحتاجُ إلى تبصيرِ واعظٍ، ولا تذكِرة مُجَرِّب، ولك من سؤددِ مَنْصبك، وشرف أَعْرَاقك[٢]، وكرم أصلك في العرب مُحْتَمَلٌ يَحتمِلُ ما حُمِّل عليه من إقالة العَثْرَة، والرجوعِ عن الهفْوَةِ؛ ولا تَتَجاوزُ الهِمَمُ إلى غايةٍ إلّا رَجعتْ إليك؛ فوجدتْ عندك من فضيلة الرأي، وبَصِيرةِ الفَهْم، وكَرَمِ الصّفح ما يُطوِّل رَغَباتها، ويستغرق طَلِباتها.

وقد كان الذي كان من الخَطْبِ الجليل، الّذِي عمَّت رزيَّتُه نِزَارًا واليَمَن، ولم تَخْصَصْ به كِنْدَةُ دونَنا؛ للشَّرفِ البارع الذي كان لحُجْر. ولو كان يُفْدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلَتْ كرائمُنا[٣] على مثله ببذْلِ ذلك، ولفديناه منه، ولكنْ مَضَى به سبيلٌ لا ترجع أُولاه على أُخْراه، ولا يَلْحَقُ أقصاهُ أدْنَاه.

فأَحْمَدُ الحالات في ذلك أن تعرفَ الواجبَ عليك في إحدى خلال ثلاث: إمّا أن اخترتَ من بني أسدٍ أشرفَها بيتًا، وأعلاها في بناء المكرُمات صوْتًا، فَقُدْناه إليك بِنِسعَة[٤] تذهب مع شَفَرات حُسَامك بباقي قَصَدَتِه[٥]، فيقال: رجل امتُحِن بِهُلْك عزيز عليه؛ فلم تُسْتَلَّ سخيمتُه إلّا بتَمْكِينه من الانتقام؛ أو فداء بما يرُوح[٦] على بني أسدٍ من نَعَمها، فهي أُلوف تجاوِزُ الحِسْبَة، وكان ذلك فداءً ترجع به القُضُب[٧] إلى أجفانها، لم يَرْدُدْه تسليط الإحَن على البراء؛ وإمّا أن توادعنا حتى تضَع الحواملُ فتُسْدَلَ الأُزُرُ، وتُعْقَدَ الخُمُر فوق الرايات.

فبكى امرؤُ القيس ساعة، ثم رفع طرْفَه إليهم فقال: قد علمتِ العربُ أن لا كُفْءَ لحُجْرٍ في دم، وأنّي لن أعتاض به ناقةً أو جملًا فأَكْتَسِب بذلك سُبَّة الأبد،

(١) الترات: جمع ترة؛ وهي في الأَلَ مصدر وتر؛ أي نقص، واستعمل في الثأر.
(٢) الأعراق: جمع عرق، وهو أصل كل شيء.
(٣) الكرائم: خيار الأموال وقد يراد بها النفوس أو النساء.
(٤) النسعة: السير من الجلد يجعل زمامًا للبعير فيقاد به.
(٥) القصدة: العنق.
(٦) يروح: يرجع.
(٧) القضب: السيوف.

وفَتَّ العَضُد؛ وأمّا النَّظرة فقد أوجبَتْها الأجنّةُ في بطون أمهاتها، وإني لن أكون لعَطبها سببًا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حنَقًا، وفوق الأسنَّة عَلَقًا[١].

إذا جالتِ الخيلُ في مأزِقٍ[٢] تُصافِحُ فيه المنايا النّفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيار؛ لِحرب وبليّة، ومكروه وأذيّة! ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثّلًا:

لعلك أن تَسْتَوخِمَ الموتَ إن غدت كتائِبُنا في مأزق الموت تُمْطِر

فقال امرؤ القيس: لا والله، لا أستوخمه ولكن أستعذِبُه؛ فرويدًا ينكشف لك دُجَاهَا عن فُرسان كندة وكتائبِ حِمْير، ولقد كان ذكرُ غير هذا أولَى بي، إذ كنتَ نازلًا برَبْعى، ومتحرّمًا بذِمامي، ولكنك قلتَ فأَجَبْتُ.

قال قَبيصة: إنّ ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب[٣]، قال امرؤ القيس: هو ذاك!

نِهَايَة الأعْشى[٤]

وفد الأعشى إلى النبيّ عليه السلام، وقد مدحه بقصيدته التي أولها:

ألم تغتمضْ عيناك ليلةَ أرمدَا وعادك ما عاد السليمَ المُسَهَّدَا
وما ذاك من عِشْقِ النّساء وإنما تناسيتَ قبل اليوم خُلّةَ مَهْدَدَا

وفيها يقول لناقته:

فآليتُ لا أرْثِي لها من كَلالةٍ ولا من حفًا حتى تَزُورَ محمدَا
نبيٌّ يَرى ما لا تَرَوْنَ وذكرُه أغار لعمري في البلاد وأنجدَا
متى ما تُنَاخِي عند باب ابن هاشمٍ تُرَاحِي وتَلْقَى من فواضله يَدَا

فبلغ خبرُه قريشًا؛ فرصدوه على طريقه وقالوا: هذا صَنَّاجَةُ العرب، ما مدح أحدًا قط إلا رفع في قدره.

---

(١) العلق: الدم. (٢) المأزق: المضيق.
(٣) الإعتاب والعتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب.
(٤) الأغاني: ٩ ـ ١٢٥ (طبعة دار الكتب)، سيرة ابن هشام: ١ ـ ٢٣١.

فلما ورد عليهم قالوا له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردتُ صاحبكم هذا لأُسْلِم. قالوا: إنه نهاكَ عن خلال ويحرّمها عليك، قال: وما هي؟ فقال أبو سفيان بن حرب: الزّنا. قال: لقد تركني الزّنا وتركتُه، ثم ماذا؟ قالوا: القِمار، قال لَعَلّي إن لقيتُه أن أصيب منه عوضًا من القمار، ثم ماذا؟ قالوا: الرِّبا. قال: ما دِنْتُ ولا ادَّنْتُ؛ ثم ماذا؟ قالوا: الخمر. قال: أوّهْ! أَرْجِعُ إلى صُبَابةٍ قد بقيت في المِهْراس[1] فأشربُها.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خيرٍ مما همتَ به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن وهو الآن في هُدْنة، فتأخذ مائة من الإبل، وترجع إلى بلدك سنَتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا. فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلَفًا، وإن ظهر علينا أتيتَه. فقال: ما أكرهُ ذلك. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى! والله لئن أتى محمدًا واتبعه ليُضرمَنّ عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا، فأخذها وانطلق إلى بلده. فلما كان بقاع مَنْفُوحَة[2] رَمَى به بعيرُ فقتله.

رثاء فَوقَ قَبْر[3]

كان عامر بن الطُّفيل أفرسَ أهلِ زمانِه وأسودَهم، فلما مات ودُفِن مَرَّ على قبره حيَّان بنُ سلمى ـ وقد غاب عند موته ـ فقال: ما هذه الأنْصَاب؟ فقالوا: نَصَبناها على قبر عامر، فقال: ضيَّقْتم على أبي عليّ، وأفضَلْتم منه فضلًا كثيرًا.

ثم وقف على قَبْره وقال: أنْعم ظلامًا أبا عليّ! فوالله لقد كنت تَشُنُّ الغارة، وتحمي الجارَة، سريعًا إلى المولَى بوعْدِك، بطيئًا عنه بوعيدك؛ وكنت لا تضلّ حتى يضلّ النجم، ولا تَهَابُ حتى يهابَ السيل، ولا تعطش حتى يعطشَ البعير؛ وكنتَ والله خيرَ ما تكون حين لا تظنّ نفسٌ بنفس خيرًا.

ثم التفتَ إليهم، فقال: هلّا جعلتم قَبر أبي عليّ ميلًا في ميل!

---

(١) المهراس: حجر منقور يسع كثيرًا من الماء. (٢) منفوحة: قرية مشهورة من نواحي اليمامة.
(٣) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٣.

بمِثل هَذا فَلْيُثْنَ عَلى المُلُوك[١]

قال حسان بن ثابت: قدِمت على عَمْرو بن الحارث، فاعتاص عليّ الوصولُ إليه، فقلت للحاجب بعد مدَّة: إن أذنتَ لي عليه وإلّا هجوتُ اليمنَ كلّها ثم انقلبتُ عنكم. فأذِن لي، فدخلتُ عليه فوجدتُ عنده النابغَة وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا ابن الفُرَيْعة؛ قد عرفت عيصَك[٢] ونسبك في غَسَّان، فارجع فإنّي باعث إليك بصِلَةٍ سنيَّة، ولا أحتاج إلى الشعر، فإنّي أخافُ عليك هذين السَّبُعين ـ النابغة وعلقمة ـ أن يفضحاك؛ وفضيحتُك فضيحتي، وأنت والله لا تُحْسِنُ أن تقول:

رِقَاق النعالِ طيِّب حُجُزاتُهمْ ... يُحَيَّوْنَ بالرَّيحان يومَ السَّبَاسِبِ[٣]

فأبيتُ وقلت: لا بدّ منه، فقال: ذاك، فقال: إلى عمَّيك، فقلت لهما: بحقِّ الملك إلّا قدّمتماني عليكما! فقالا: قد فعلنا، فقال عمرو بن الحارث: هات يا ابن الفُرَيعة، فأنشأت:

لله دَرّ عصابة نادَمْتُهُم ... يومًا بجلّق[٤] في الزّمان الأوّل

أولادُ جفنة عند قبر أبيهمُ ... قبرِ ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البريص عليهم ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ

يُغْشَوْنَ حتى ما تهرُّ كلابُهمْ ... لا يَسألون عن السواد المقبِلِ

بيضُ الوجوهِ كريمة أحسابُهم ... شمُّ الأنوف من الطّراز الأوّلِ

فلبثتُ أزمانًا طوالًا فيهمُ ... ثم ادَّركْتُ كأنني لم أفْعَلِ

قال: فلم يزل عمرو بن الحارث يَزْحل عن موضعه سُرُورًا، وهو يقول: هذا وأبيك الشعر؛ لا ما يُعَلّلاني به منذ اليوم! هذه والله البتَّارة التي قد بترت المدائح!

---

(١) الأغاني: ١٤ ـ ٢٢.

(٢) العيص: الأصل، والفريعة: أمه.

(٣) رقاق النعال: أي أن نعالهم رقيقة لا يخصفونها طباقًا، وذلك كناية عن قلة مشيهم، لأنهم ملوك. بل يركبون الخيل غالبًا، وحجزة الأزار والسراويل مجمع شدها على الوسط من الجسم، كناية عن عفتهم، والسباسب: يوم الشعانين، وهو يوم عيد عند النصارى، وكان الممدوح نصرانيًا.

(٤) جلق: دمشق.

أحسنت يا ابن الفُرَيْعة! هات له يا غلام ألفَ دينار مَرْجُوحَة، فأُعطِيتُ ذلك، ثم قال: لك عليّ في كل سنة مثلُها.

ثم أقبل على النابغة فقال: ثم يا زياد، فهاتِ الثناء المسجوع، فقام النابغة فقال: ألا أنعم صباحًا أيّها الملك المبارك! السماء غطاؤك، والأرض وطاؤُك، ووالدي فداؤك، والعرب وفاؤك، والعجم حماؤك، والحكماء جلساؤك، والمَدارِهُ[١] سمّارك، والمقَاوِل إخوانك والعقْل شِعارك، والحلم دَثارك، والسكينة مِهادك، والوقار غشاؤك! والبِرُّ وِسادك، والصدق رداؤك، واليُمن حذاؤك، والسخاء ظهارتك، والحميَّة بطانتك، والعَلَاءُ غايتك وأكرمُ الأحياء أحياؤك، وأشرفُ الأجداد أجدادُك، وخيرُ الآباء آباؤك، وأفضلُ الأعمام أعمامُك، وأسرى الأخوال أخوالك، وأعفُّ النساء حلائلك، وأفخرُ الشباك أبناؤك، وأطهر الأمهاتِ أُمهاتك، وأعلى البنيان بنيانك، وأعذب المياه أمواهُك، وأفيحُ الدارات[٢] دارتُك، وأنزهُ الحدائق حدائقك، وأرفع اللباس لباسك، قد حالفَ الإضرِيجُ[٣] عاتقك، ولاءم المِسْكُ مَسْكَك[٤]، وحاور العنبرُ ترائِبَك[٥]، وصاحبَ النعيمُ جَسَدَك.

العسجد آنيتُك، واللُّجَين صِحَافك، والعَصْب[٦] مناديلك، والحُوَّارَى[٧] طعامك، والشهد إدامك، والخُرطُوم[٨] شَرَابك، والأشراف مناصِفك[٩]، والخير بفنائك، والشر بساحة أعدائك، والنصر منوطٌ بلوائك، والخِذلان مع ألوية حُسَّادك، والبِر فعلك. قد طَحْطَحَ[١٠] عدوّك غضبُك، وهزم مَقَانبهم[١١] مشهدُك، وسار في الناس عدلك، وسكن قوارعَ الأعداء ظَفْرك.

الذهب عطاؤك، والدواة رمزُك، والأوراق لَحظُك، والغنى إطراقك، وألف دينار مرجوحة إيماؤك.

---

(١) المداره: جمع مدره، وهو السيد الشريف، والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة.
(٢) الدارة: المحل يجمع البناء. (٣) الإضريج: الخز.
(٤) المسك: الجلد. (٥) الترائب: عظام الصدر.
(٦) العصب: نوع من البرود. (٧) الحواري: لباب الدقيق.
(٨) الخرطوم: أول ما يجري من العنب قبل أن يداس.
(٩) جمع منصف وهو الخادم. (١٠) طحطح: كسر وفرق وبدد إهلاكًا.
(١١) المقنب من الخيل: ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

أيفاخرك المنذر اللخميّ! فوالله لقَفَاك خيرٌ من وجهه، ولَشمالك خير من يمينه ولأخمَصك خيرٌ من رأسه، ولخطؤك خيرٌ من صوابه، ولصمتُك خيرٌ من كلامه، ولأمك خير من أبيه، ولخدمُك خير من قومه. فهب لي أُسَارى قومي، واستَرْهِنْ بذلك شكري، فإنك من أشراف قَحْطان، وأنا من سَرَوات عَدنان.

فرفع عمرو رأسه إلى جارية كانت قائمة على رأسه، وقال: بمثل هذا فليُثْنَ على الملوك، ومثل ابن الفَريعة فليمدحهم. وأطلق له أسرى قومه.

عُتبة وأعرَابيّ(١)

حجّ عتبة سنة إحدى وأربعين، والناسُ قريبٌ عهدُهم بفتنة، فصلّى بمكة الجمعة، ثم قال: أيها الناس؛ إنا قد وَلِينَا هذا المقام الذي يُضَاعف فيه للمُحْسن الأجرُ، وعلى المسيء فيه الوِزْر، ونحن على طريق ما قَصَدنا؛ فلا تَمُدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا؛ فإنها تنقطع دوننا، وربّ مُتَمَنٍّ حَتْفُه في أُمنيَّته؛ فأقبلوا العافية ما قَبِلْنَاها فيكم وقبلْنَاها منكم؛ وإياكم ولَوًّا فإنها أتْعَبَتْ مَنْ كان قبلكم، ولن تُريحَ مَنْ بَعْدَكم؛ وأنا أسألُ الله أن يعين كُلّا على كُلّ.

فصاحَ به أعرابيّ: أيها الخليفة! فقال: لستُ به ولم تُبْعِدْ. فقال: يا أخاه. قال: سمعتُ فقل. قال: تالله إن تحسنوا ـ وقد أسأنا ـ خير من أن تسيئوا وقد أحْسَنَّا؛ فإن كان الإحسانُ بكم دوننا فما أحقكم باسْتتمامه، وإن كان منا فما أوْلاكم بمكافأتنا! رجل من بني عامر بن صَعْصعة يلقاكم بالعُمُومَةِ، ويقرُب إليكم بالخؤولة، قد كَثَرَهُ العيال، ووَطئه الزمان، وبه فقر، وفيه أجر، وعنده شكر.

فقال عتبة: أستغفرُ الله منكم، وأستعينه عليكم، قد أمَرْنا لك بغِنَاك، فليت إسْرَاعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك!

إن مِن البَيَان لَسِحرا(٢)

وفد إلى رسول الله ﷺ الزِّبْرِقان بن بدر وعمرو بن الأهتم؛ فقال الزبرقانُ: يا رسولَ الله، أنا سيدُ تميم، والمطاعُ فيهم، والمجابُ منهم، آخذ لهم بحقهم،

---

(١) الأمالي: ١ ـ ٢٣٦.
(٢) زهر الآداب: ١ ـ ٥. مجمع الأمثال: ١ ـ ٧.

وأمنعهُم من الظلم؛ وهذا يعلمُ ذلك ـ يعني عمرًا. فقال عمرو: أجل يا رسولَ الله! إنه مانع لِحَوْزَتِه، مطاعٌ في عشيرته، شديدُ العارضة فيهم.

فقال الزِّبرقان: أما إنه والله قد علم أكثرَ مما قال، ولكنه حسدني شرفي! فقال عمرو: أما والله لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيِّق العطن زَمِر المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى!

فرأى الكراهة في وجه رسولِ الله ﷺ لما اختلف قوله، فقال يا رسول الله: رضيتُ فقلت أحسنَ ما علمتُ، وغضبتُ فقلتُ أقبحَ ما علمتُ، وما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية!

فقال رسول الله ﷺ: «إن منَ البيان لَسِحْرًا».

عَبد الله بن عَبَّاس وَالحطِيئة(١)

بينا ابنُ عباس جالسٌ في مجلسِ رسول الله ﷺ بعد ما كُفَّ بَصرُه، وحوله ناسٌ من قريش، إذ أقبل أعرابي يَخْطِرُ، وعليه مُطْرَفٌ وجُبَّة وعمامة خزّ، حتى سلّم على القوم، فردّوا عليه السلام، فقال: يا ابنَ عمِّ رسول الله؛ أَفْتِني، قال: فِيمَ؟ قال: أتخاف عليّ جُنَاحًا إن ظلمنِي رجل فظلمته، وشتمني فشتمتُه، وقصَّر بي فقصرتُ به؟ فقال: العفوُ خيرٌ، ومَن انتصر فلا جُنَاح عليه.

فقال: يا ابن عمّ رسول الله؛ أرأيت امرأً أتاني فوعدني وغرّني ومنّاني، ثم أخلَفَني واستخفّ بحُرمتي، أيسعني أن أهجُوه؟ قال: لا يصلحُ الهجاء؛ لأنه لا بدَّ لك من أن تهجُوَ غيره من عَشِيرته، فتظلمَ مَن لم يظلمْك، وتشتُمَ مَن لم يشتِمك، وتبغي على مَن لم يبْغِ عليك، والبغيُ مرتعُه وخيم، وفي العفو ما قدم علمتَ من الفَضْل؛ قال: صدقتَ وبَرِرتَ.

فلم يَنْشَبْ أن أقبل عبد الرحمٰن بنُ سَيْحان المُحَاربيّ حليفُ قريش، فلمَّا رأى الأعرابيَّ أجلّه وأعظَمه وألطف في مَسألته، وقال: قرَّب الله دارَك يا أبا مُليكة، فقال ابن العباس: أجَرْوَل؟ قال: جرول! فإذا هو الحطيئة، فقال ابن عباس: لله أنت! أي مِرْدَى(٢) قِذاف، وذائدٍ عن عشيرة، ومُثْنٍ بعارفةٍ تُؤْتاها أنت يا

(١) الأغاني: ٢ ـ ١٩٢.
(٢) المردى: في الأصل حجر يُرمَى، ويطلق على الرجل الشجاع فيقال: مردى حروب.

أبا مليكةَ! والله لو كنتَ عركتَ[١] بجَنْبك بعض ما كرهتَ من أمر الزِّبْرِقان كان خيرًا لك، ولقد ظلمتَ من قومه مَن لم يظلمْك، وشتمت مَن لم يشتِمْك، قال: إنّي والله بهم يا أبا العباس[٢] لعالم؛ قال: ما أنتَ بأعلمَ بهم من غيرك، قال: بلى والله! يرحمك الله! ثم أنشأ يقول:

أنا ابنُ بجْدَتهم[٣] عِلْمًا وتجربةً فسَلْ بسعدٍ تجدني أعلمَ الناس

سعدُ بن زيدٍ كثيرٌ إن عددتَهمُ ورأسُ سعد بن زيد آلُ شمَّاس

والزبرقان ذُنَاباهم[٤] وشرُّهم ليس الذّنابي أبا العباس كالرَّاسِ

فقال ابن عباس: أقسمت عليك ألَّا تقولَ إلا خيرًا، قال: أفعل.

ثم قال ابن عباس: يا أبا مُلَيكة؛ مَن أشعرُ الناس؟ قال: أمن الماضين أم من الباقين؟ قال: من الماضين، قال: الذي يقول:

ومَن يجعلِ المعروف من دونِ عِرْضِه يَفِرْهُ، ومَن لا يَتَّقِ الشر يُشْتمِ

وما بدونه الذي يقول:

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلمُّه على شَعَثٍ، أيُّ الرجال المهذَّبُ!

ولكنَّ الضراعة أفسدَتْه كما أفسدتْ جَرْولًا - يعني نفسه - والله يا ابنَ عمّ رسول الله لولا الطمعُ والجشعُ لكنتُ أشعرَ الماضين، فأما الباقون فلا تشكَّ أني أشعرهم وأصْرَدُهم[٥] سهمًا إذا رَميت!

طَـرِيدُ لِسَانه[٦]

لما وُلّي سعيدُ بن عثمان بن عفّان خُراسان أراد أَنْ يستَصْحِبَ يزيد بن ربيعة بن مفرّغ، فأبى عليه، وصَحب عبّادَ بن زياد، فقال له سعيد: أمَّا إذْ أبيت أن تصحبَنِي وآثرت عبَّادًا فاحفَظْ ما أُوصيكَ به: إنّ عبادًا رجلٌ لئيمٌ، فإياك والدَّالةَ عليه، وإن دعاك إليها من نفسه، فإنها خُدْعة منه لك عن نفسك، وأقلِلْ زيارتَه،

(١) عرك جنبه ما كان من صاحبه: احتمله. (٢) كنية عبد الله بن العباس.
(٣) البجدة: دخلة الأمر وباطنه، والمراد: أنا العالم بالشيء.
(٤) ذناباهم: ذنبهم. (٥) أنفذهم.
(٦) تاريخ الطبري: ٦ - ١٧٧، الأغاني: ١٧ - ٥٥ (طبعة الساسي).

فإنه طرِفٌ[١] مَلُولٌ، ولا تُفَاخره، وإنْ فاخرك، فإنه لا يحتمل لكَ ما كنت أحتمِله.

ثم دعا سعيد بمال فدفعه إلى ابن مفرّغ وقال: اسْتَعِن به على سفرك؛ فإن صَحَّ لَك مكانُك من عبّاد، وإلا فمكانُك عندي مُمَهَّد فأتني.

ثم سار سعيد إلى خُراسان وتخلّف ابن مفرّغ عنه، وخرج مع عبّاد بن زياد.

قال الراوي: فلما بلغ عبيدَ الله بن زياد صحبةُ ابن مفرّغ أخاه عبّادًا شقّ عليه، ولما عزم عبّادٌ على السير إلى سِجِستان، جاء عبدُ الله يودعه، فَدَعا ابن مفرّغ وقال له: إنّكَ سألت عبّادًا أن تصحبه وأجابك إلى ذلك وقد شقّ عليّ.

فقال له ابن مفرّغ: ولم أصلحك الله؟ فقال: لأنَّ الشاعر لا يُقْنِعه من الناس ما يُقْنِعُ بعضهم من بعض؛ لأنه يظنُّ فيجعل الظنّ يقينًا، ولا يعذر في مَوْضع؛ وإن عبّادًا يقدم على أرض حرب فيشتغلُ بحروبه وخَراجِه عنك، فلا تعذِره أنت وتكسبنا شرًّا وعارًا.

فقال له: لستُ كما ظنّ الأمير، وإن لمعروفه عندي لشكرًا كثيرًا، وإنّ له عندي - إنْ أغفلَ أَمْري - عذرًا مُمَهَّدًا.

قال عبيد الله: لا، ولكنْ تضمن لي إن أبطأ عنك ما تحبّه ألّا تعجَل عليه حتى تكتب إليّ! قال: نعم، قال: امضِ على الطائر المَيْمُون.

قال الراوي: فلمّا قدم عبّاد سِجِسْتَان، واشتغل بحربه مع التّرْكِ وخراجه استبطأه ابن مفرّغ، ولم يكتب إلى عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضمن له، ولكن بَسَط لسانه، فذمّه وهجاه؛ وكان عبّاد عظيم اللحية كأنها جُوالَق[٢]، فدخلت الريح فنفشتها، فضحك ابن مفرّغ وقال لرجل كان إلى جنبه:

ألا ليت اللّحَى كانَتْ حشيشًا   فنعلفَهَا خُيولَ المُسْلمينا![٣]

فسعى به الرجل إلى عبّاد، فغضب من ذلك غضبًا شديدًا وقال: لا يجملُ بي عقوبتُه في هذه السرعة مع الصحبة لي، وما أُؤَخِّرُها إلّا لأشْفِيَ نفسي منه.

---

(١) الطرف: مَن لا يثبت على صاحب.   (٢) الجوالق: الوعاء.
(٣) كان قد أصاب الجند مع عباد ضيق في أعلاف دوابهم.

وبلغ الخبرُ ابنَ مفرّغ فقال: إني لأجِدُ ريحَ الموت من عبّاد؛ ثم دخل عليه فقال: أيها الأمير؛ إني كنت مع سعيد بن عثمان، وقد بلغك رأيه فيّ، وجميلُ أثره عليّ، وإني اخترتُكَ عليه فلم أظفر منك بطائل؛ وأريد أن تأذَنَ لي في الرجوع؛ فلا حاجةَ لي في صحبتك.

فقال له: أمّا اختيارُك إيّاي فإني اخترتُك كما اخترتني، واستصحبتُك حين سألتني، وقد أعْجلتني عن بلوغِ مَحبّتي فيك؛ وطلبتَ الآن أن ترجع إلى قومك فتفضحَني فيهم، وأنت على الإذن قادرٌ بعد أن أقضي حقّك. فسكت ابنُ مفرّغ.

ثم أجرى عبّاد الخيلَ يومًا، فجاء سابقًا، فقال ابن مفرّغ يهزأ به: سبق عبّاد وصلّتْ[1] لحيته. فبلغ ذلك عبّادًا، وبلغه أنه لا يزال يسبّه ويذكره، فطلَبَ عليه العِلل، ودسّ إلى قوم كان لهم عليه دين، فأمَرهم أن يقدّموه إليه، ففعلوا فحبسه وأضرَّ بِهِ.

ثم بَعث إليه: أن بِعْني الأراكة[2] وبُرْدًا، فبعث إليه ابن مفرّغ مع الرسول: أيبيعُ المرءُ نفسه أو ولده! ثم ضَرَّ بِهِ عبّاد حتى باعَهما لرجل من أهل خُراسان، فقال ابن مفرّغ:

شريتَ بردًا ولو ملكت صفْقَتَهُ ... لما تطلبتُ في بيعٍ له رَشَدَا
لولا الدّعيُّ ولولا ما تعرَّضَ لي ... من الحوادث ما فارقته أبدَا
أمّا الأرَاكُ فكانتْ من مَحَارِمِنا ... عيشًا لذيذًا وكانت جنَّة رغدَا
كانت لنا جَنّةٌ كنا نعيشُ بها ... نَغْني بها إن خشينَا الأزْل والنَّكَدَا[3]
يا ليتني قبلَ ما ناب الزمانُ به ... أهلي لقيتُ على عُدْوانه الأسدَا
قد خَانَنا عيشُ مَن لم نخْشَ عَثْرَتَه ... مَنْ يأمن اليوم أمّن ذا يعيش غدَا!
لامتنيَ النفس في بُردٍ فقلت لها: ... لا تهلكي إثر بُرْد هكذا كمَدا
كم من نعيم أصَبْنَا من لذاذته ... قلنا له إذ تولّى: ليته خَلَدَا!

(١) المصلّى في الخيل: هو الذي يتلو السابق.
(٢) كانت الأراكة قينة لابن مفرغ، وبرد غلامه، رباهما، وكان شديد الضن بهما.
(٣) الأزل: الضيق والشدة.

ثم قال عبّاد لحاجبه: ما أرى هذا يبالي بالمقام في الحبس، فبعْ فرسه وسلاحه وأثاثه، واقسم ثمنها بين غُرَمائه. ففعل ذلك وقسم الثمن بينهم، وبقيتْ عليه بقيَّةٌ حبسه بها.

وعلم ابنُ مفرّغ أنه إن أقام على ذمّ عباد وهجائه، وهو في محبسه، زاد نفسه شرًّا، فكان يقول للناس - إذا سألوه عن حبسه ما سبَبُه - رجلٌ أدَّبه أميره ليُقوِّم من أَوَدِه، أو يكفَّ من غَرْبه، وهذا لَعَمْرِي خيرٌ من جرِّ الأمير ذيلَه على مُداهنةِ صاحبه.

فلمّا بلغ ذلك عبّادًا من قوله رقّ له، وأَخْرَجه من السجن، فهربَ حتى أتى البَصْرَة، ثم خرج منها إلى الشام، وجعل ينتقل في مُدُنها هاربًا، ويهجو زيادًا وولده، وأشعارهُ فيهم ترد البصرة وتنتشر وتبلغهم، ثم تعدَّى ذلك إلى أبي سُفيان فقذفه وسبّ وَلدَه.

ولما تمادى في ذلك جاء عبّاد إلى أخيه عبيد الله بالبصرة، فوجده وافدًا على معاوية، فكتب إليه ببعض ما هجا به آل زياد وأبا سفيان.

فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية، ثم استأذنه في قتل ابن مفرّغ، فأبَى عليه أن يقتله وقال: أدِّبه ولا تبلغ به القتل.

ثم جعل ابن مفرّغ ينتقل من بلد إلى بلدٍ، فإذا شاعَ خبره انتقل حتى لفَظَتْه الشام؛ فأتى البصرة، ونزل على الأحنف بن قيس فالْتَجأَ واسْتَجَارَ به، فقال له الأحنف: إني لا أجير على ابن سُمَيَّة[1]، إنما يجير الرجل على عشيرته، فأما علَى سلطانه فلا.

ثم أتى خالدَ بن عبد الله فاستجار به، فأبى أن يجيره، فأتى عمر بن عبد الله فوعده، وأتى طلحة الطلحات فوعده، ثم أتى المنذر العبْديّ فأجاره، وكان عبيد الله بن زياد زوجًا لبنته، وكان من أكرم الناس عليه، فاغترّ بذلك، وأدَلّ بموضعه منه وطلبه عبيدُ الله فقيل له: قد أَجَارَه المُنذر.

فبعث عبيدُ الله إلى المنذر فأتاه، فلمّا دَخل عليه بعث بالشُّرَط، فكبسوا دارَ المنذر وأتوه بابن مفرّغ، فلم يشعر المنذر إلا بابن مفرّغ قد أقيم على رأسه. فقام

(١) سمية: أم زياد.

إلى عبيد الله فكلّمه فيه وقال: أذكُرُك الله أيها الأمير، لا تَخْفِرْ جواري فإني قد أجرْته.

فقال عبيد الله: يا منذر، ليمدحَنَّ أباك ولَيَمْدَحَنَّك، ولقد هجاني وهجا أبي ثم تجيره عليّ! والله لا يكون ذلك أبدًا، ولا أغفرُها له. فغضب المُنذر، فقال له عبيد الله: لعلك تدلّ بكريمتك عندي، إن شئت والله لأبينَّها بتطليق البَتَّة.

فخرج المُنذر من عنده، وأقبل عبيدُ الله على ابن مفرّغ، وقال له: بئسما صحبتَ به عبَّادًا! فقال: بئسما صحبني به عبَّاد! اخترته على سعيد بن عثمان، وأنفقتُ على صحبته كلَّ ما أفدتُه وكلّ ما أملكه، ثم عاملني بكلّ قبيح، وتناولني بكلّ مكروه، من حبْس وغُرْم، وشَتْم وضرْب، فكنتب كمن شَامَ برقًا خلَّبًا في سحاب جَهام، فأراق ماءه طمعًا فيه فمات عطشًا، وما هرَبت من أخيك إلّا لما خفت أن يُجرِي فيّ ما يَنْدم عليه، وقد صرتُ الآن في يدك، فشأنك فاصنع بي ما أحببتَ.

فأخذ عبيدُ الله في تعذيبه، وأمر أن يُطاف به، بحالة سيئة، وقُرن بهرّة وخنزيرة، والصبيان حوله يصيحون به ويلحّون عليه، ثم رُدَّ إلى السجن، وسُقِي فيه من ألوان العذاب والنّكال. فقال: يذكر ما فُعل به وإهمال قريش إيّاه:

دَارَ سَلْمَى بالخبْت ذِي الأطلال ... كيف نومُ الأسيرِ في الأغلال!
أيْنَ منّي السَّلَامُ من بعد نأيٍ ... فارجعي لي تحيَّتي وسُؤالي!
أيـنَ منّـي نَـجائِبـي وجِـيـادي ... وغَـزَالـي، سقـى الإلـٰه غزالـي!
أيـن، لا أيـن جُنَّـتِـي وسِلَاحِـي ... ومَـطـايـا سيَّـرتُـهـا لارْتِـحَـالـي!
هَـدم الـدَّهـرُ عرشَـنَـا فتـداعَـى ... فـبَـلِـيـنَـا إذْ كـلُّ عـيـشٍ بـال
إذْ دَعَـانـا زوالـهُ فـأجَـبْـنَـا ... كـلُّ دنـيـا ونـعـمـةٍ لـزوال
أم قـضـينَـا حـاجـاتِـنـا فإلى الـمو ... تِ مـصـيـرُ الـمـلوك والأقْـيَـال
لا وصَـوْمِـي لـرَّبـنـا وزكـاتـي ... وصـلاتـي أدعـو بـهـا وابْـتـهـالـي
مـا أتـيـتُ الـغـداة أمـرًا دَنِـيًّـا ... ولَدى اللهِ كـابـرُ الأعـمـال
أيُّـهـا الـمـالك الـمـرَهَّـب بـالـقَـتْـ ... ـلِ بـلغـتَ الـنكـالَ كـلَّ الـنّـكـالِ
فاخْشَ نارًا تقذف الوجوه ويَوْمًا ... يقذف الناس بالدَّواهي الثُّقال

قد تعدّيتَ في القصاص وأدركـ ـتَ ذُحُـولا[١] لـمـعـشـر أقْـتَـالِ
وكسرت السنَّ الصحيحة مِنِّي لا تُـذِلْنـي فَـمُـنْـكـرٌ إذْلَالِي
وقَـرَنْـتُـمْ مع الـخـنـازيـر هـرًّا ويَـمـيـنـي مـغـلولـةٌ وشـمـالـي
وأطلتم مع العقوبةِ سِجْنًا فكم السجن؟ أو مَتَى إرسالي!
يغسلُ الماءُ ما صنعتَ، وقولي راسخ منك في العظام البوالِي
لو قبلتَ الفِدَاء أو رُمتَ مالي قلت: خذه، فداء نَفسيَ مالي
لو بغيْري من معشرٍ لَعِبَ الدهـ ـر لما ذمَّ نصرتي واحتيالي
كم بكاني من صاحب وخليلٍ حافظ الغيبِ حامدٍ للخصال!
ليت أني كنت الحليف للَخمٍ وجُـذَامٍ أو طـيِّـئِ الأجْـبـالِ
بدلًا من عصابةٍ من قريشٍ أسلموني للخصم عند النِّضالِ
خَذَلوني وهم لذاك دعَوْني ليس حامي الذِّمار بالخذَّالِ
لا تدَعْني، فِدَاك أهلي ومالي إنَّ حَبْليك من متين الحبال
حسرتا إذ أطعتُ أمر غُواتي وعصيت النَّصيح، ضَلَّ ضَلَالِي!

ولكن عبيد الله أرسله إلى أخيه عبَّاد بسِجِسْتان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية؛ فأرسل رسولًا إلى عبّاد أن يحمل إليه ابنَ مفرّغ، فحُمل من عنده، وقال في طريقه:

عَدَسْ ما لعبَّادٍ عليك إمارةٌ نجوتِ، وَهَذَا تحمِلين طليق[٢]
لعمري لقد نجَّاك من هُوَّةِ الرَّدَى إمـامٌ وحـبْـلٌ لـلأنـام وثـيـق
سأشكر ما أوليتَ من حسن نعمةٍ ومِثْلِي بشكر المنعمين حقيقُ

فلما دخل على معاوية بكى وقال: ركِب مني ما لم يركبْ من مسلم، على غير حَدَث ولا جريرة! قال أولست القائل:

أَلَا أبْلغ معاوية بن حربٍ . . . .
أفلم تقل:
فأشهدُ. . . . .

(١) الذحل: الثأر.
(٢) عدس: اسم زجر البغال.

في أشعار كثيرة هجوت بها زيادًا! اذهب فقد عفونا عن جُرْمك، أما لو إيّانا تعامل لم يكن مما كان شيء؛ انطلق، وفي أي أرض شئتَ فانزل. فنزل المَوْصِل.

عَبد الله بن الزبَير ومَقتل أخيه مَصعَب(١)

قال شيخ من أهل مكة: لما أتى عبدَ الله بن الزبير قتلُ مُصعبٍ أخيه أضرب عن ذِكْره أيامًا حتى تحدَّثَتْ به إماءُ مكةَ في الطرق، ثم صعِد المنْبَر، فجلس عليه مليًّا لا يتكلم، فنظرتُ إليه والكآبةُ على وجهه، وجبينُه يَرْشَحُ عرقًا، فقلت لآخر إلى جنبي: ما له لا يتكلم؟ أتراه يَهاب المنطق! فوالله إنه لخطيب، فما تراه يَهاب! قال: أراه يذكر قتل مصعب سيِّدِ العرب، وهو بفَظِيع تذكّرِه غيرُ ملوم. فقال: «الحمد لله الذي له الخلقُ والأمر وملْكُ الدنيا والآخرة، يُعِزُّ مَنْ يشاء ويذِلُّ مَن يشاء؛ ألا إنه لم يذِلّ ـ والله ـ مَنْ كان الحقُّ معه وإن كان مُفردًا ضعيفًا، ولم يعزّ مَن كان الباطل معه، وإن كان في العُدَّة والعَددِ والكثرة».

ثم قال: «إنه قد أتانا خبرٌ من العِراق، بلدِ الغَدْرِ والشقاق، فساءنا وسرَّنا؛ أتانا أنّ مُصعبًا قُتِل ـ رحمة الله عليه ومغفرته! فأما الذي أحزننا من ذلك فإنَّ لِفِراقِ الحميم لذعةً يجدُها حميمُه عند المصيبة، ثم يَرْعَوِي من بعدُ ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر، وأما الذي سرَّنا منه، فإنا قد علمنا أن قتْلَهُ شهادةٌ له، وأنه عزّ وجلّ جاعل ذلك لنا خيرةً إن شاء الله تعالى.

إنّ أهل العراق أسلموه وباعوه بأقل ثمن، لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه وكانوا خيارَ الصالحين؛ إنَّا واللهِ ما نموتُ حتف أنوفنا؛ ما نموت إلا قتلًا قَعْصًا(٢) بالرماح، وتحتَ ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مَرْوَان؛ والله ما قُتِل منهم رجلٌ في جاهليّة ولا إسلام قط؛ وإنّما الدنيا عارية من المَلِك القهّار، الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا عليّ لا آخذها أخذ الأشِر البَطِر، وإن تُدْبر عني لا أبكي بكاء المُهتَر(٣)». ثم نزل!

---

(١) الأغاني: ١٧ ـ ١٦٦.
(٢) قعصه: قتله مكانه.
(٣) المهتر: الذي فقد عقله من الكبر أو المرض أو الحزن.

عمَر بن أبي رَبيعَة وجَميل[(١)]

اجتمع عمرُ بن أبي ربيعة، وجميل بن عبد الله العُذْرِيّ، فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها:

لـقـدْ فـرِحَ الـواشـون أن صَـرَمـتْ حـبـلـى
بُـثَـيْـنَـةُ أو أبـدتْ لـنـا جـانـب الـبُـخْـلِ
يـقـولـون: مـهـلًا يـا جـمـيـل، وإنّـنـي
لأقـسِـمُ مَـالِي عـن بـثـيـنـةَ مـن مَـهْـلِ
خـلـيـليَّ فـيـمـا عـشـتُـمـا هـل رأيـتُـمَـا
قـتـيـلًا بـكـى مـن حـبِّ قـاتـلـه قـبـلِي!
أبـيـتُ مـع الـهُـلّاكِ[(٢)] ضـيـفًـا لأهـلـهـا
وأهـلي قـريـب مُـوسِـعُـون ذوو فـضـلِ
أفِـقْ أيّـهـا الـقـلـب الـلَّجُـوجُ عـن الـجـهـلِ
ودع عـنـك «جُـمْـلًا»[(٣)] لا سـبـيـلَ إلـى جُـمْـلِ
فـلـو تـركـتْ عـقـلي مـعـي مـا طـلـبـتُـهـا
ولـكـن طِـلَابِـيـهَـا لِـمـا فـات مـن عـقـلي

حتى أتى على آخرها. ثم قال لعمر: يا أبا الخطّاب، هل قلتَ في هذا الرويّ شيئًا؟ قال: نعم، قال: فأنشدْنيه، فأنشده:

جـرى نـاصـحٌ بـالـودِّ بـيـنـي وبـيـنـهـا
فـقـرَّبـنـي يـوم الـحِـصَـاب إلـى قَـتْـلِي
فـلـمَّـا تـواقـفـنَـا عـرفـت الـذي بـهـا
فـقـرَّبـنـي يـوم الـحـصَـاب إلـى قَـتْـلِي
فـقـلْنَ لـهـا: هـذا عِـشَـاءُ وأهـلُـنـا
قـريـبٌ ألـمَّـا تَـسْـأمِـي مـركـبَ الـبَـغْـلِ!

---

(١) الأغاني: ١ ـ ١١٥ (طبعة دار الكتب)، زهر الآداب: ٢ ـ ٢٤٠.
(٢) الهلاك: الصعاليك الذين ينتابون الناس ابتغاء معروفهم.
(٣) جمل: علم على امرأة، وهو يقصد بها بثينة.

فقالت: فما شِئْتُنَّ قلْنَ لها: انزلي
فللأرضُ خير من وقوفٍ على رَحْلِ
نُجُومٌ دراريٌّ تكنَّفْنَ صورة
من البدر، وافتْ غيرَ هُوجٍ[1] ولا عُجْلِ
فسلّمتُ واستأنستُ خيفةَ أن يَرَى
عدوٌّ مقامِي أو يرى كاشحٌ فِعْلي
فقالت - وأرخت جانب السِّتْر: إنما
معي - فتكلم غير ذي رقْبَةٍ - أهلي
فقلت لها: ما بي لهم من تَرَقُّبٍ
ولكنّ سرِّي ليس يحملُه مثلِي
فلمّا اقتصرنا دونهنَّ حديثنا
وهنّ طبيبات بحاجة ذي الشَّكْلِ[2]
عرفْن الذي تهْوي فقلن ائذني لَنا
نَطُفْ ساعة في بَرْد ليلٍ وفي سَهْلِ
فقالت: فَلَا تَلْبثْن قلن: تحدّثي
أَتَيْنَاك، وانسبْن انسياب مَها الرمل
فقمنَ وقد أفهمن ذا اللّب أنّما
أتينَ الذي يأتين من ذاك من أجلي

فقال جميل: هيهات يا أبا الخطّاب! لا أقول والله مثل هذا سَجِيسَ الليالي[3]، والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد، وقام مشمِّرًا.

لِشعر عُمر بن أَبِي رَبِيعَة نَوْطه بالقَلب[4]

ذُكر شِعرُ الحارث بن خالد وشعرُ عمرَ بن أبي ربيعة عند أبي عتيق في

(١) هوج: جمع هوجاء، وهي المتعجلة في السير كأن بها هوجًا وحمقًا.
(٢) الشكل: دل المرأة وغزلها.
(٣) أي لا أقول مثل هذا أبدًا، وهي كلمة تستعمل للتأبيد.
(٤) الأغاني: ١ - ١٠٨ (طبعة دار الكتب)، الأمالي: ٢ - ١٧.

مجْلس رجلٍ من ولد خالد بن العاص بن هشام، فقال: صاحبُنا - يعني الحارثَ بن خالد - أشعرُهما.

فقال له ابن أبي عتيق: بَعْضَ قولك يا ابنَ أخي! لِشعر عمرَ بن أبي ربيعة نَوْطَةٌ في القلب، وعُلُوقٌ بالنفس، ودَرَكٌ للحاجة ليست لشعر الحارث، وما عُصِيَ اللهُ عزّ وجلّ بشعرٍ كثَر مما عُصِي بشعر عمر بن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك: أشعرُ قريش مَنْ دَقَّ معناه، ولَطُفَ مَدْخَلُه، وسَهُل مَخْرجه، ومَتُن حَشْوُه، وتعطّفتْ حواشيه، وأنارتْ معانيه، وأعرب عن حاجته!

فقال المفضّل للحارث: أليس صاحبُنا الذي يقول:

إنّي وما نَحَروا غَدَاة مِنًى ... عند الجمار يَئُودها العَقْل
لو بُدِّلَتْ أعلى مساكِنها ... سُفْلًا، وأصبح سُفْلها يَعْلُو
فيكاد يعرفها الخبيرُ بها ... فيردُّه الإقْوَاء والمَحْلُ[1]
لعرفتُ مغْنَاهَا بما احتملتْ ... مني الضُّلُوعُ لأهلها قَبْلُ

فقال له ابنُ أبي عتيق: يا ابنَ أخي: استُرْ على نفسك، واكتمْ على صاحبك، ولا تشاهدِ المحافل بمثل هذا؛ أما تَطيَّر الحارثُ عليها حين قلبَ ربعَها، فجعل عاليَه سافلَه، ما بقي إلّا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارةً من سجّيل[2]؛ ابن أبي ربيعة كان أحسنَ صُحْبةً للرَّبْع من صاحبك، وأجملَ مخاطبة حيث يقول:

سائلَا الرّبع بالْبُلَيّ[3] وقُولَا ... هجتَ شوقًا لِيَ الغداة طويلا
أين حيٌّ حَلُّوك إذ أنت محفو ... ف بهم آهلٌ أراكَ جميلا!
قال: سارُوا فأمعنوا واسْتقلُّوا[4] ... وبرغْمِي لو استطعتُ سبيلا
سَئِمُونا وما سئمْنا مُقامًا ... وأحبُّوا دَماثةً وسُهُولا

فانصرف الرجل خَجِلًا مُذْعِنًا.

---

(١) أقوت الدار: أقفرت وخلت من أهلها، والمحل: الجدب.
(٢) السجيل: الطين المتحجر. (٣) البلى: تل قصير.
(٤) استقلوا: واصلوا السير وجدّوا في الارتحال.

ابن المسيِّب يَفخر بصَاحبِهِ(١)

قال بعض الرواة:

دخلتُ مسجدَ رسولِ الله ﷺ مع نَوْفل بن مُساحِق؛ وإنّه لمعتَمد على يديَّ إذ مرَرْنا بسَعيد بن المسيّب في مجلسه، فسلّمنا عليه، فردَّ سلامنا ثم قال لنوفل: يا أبا سعيد؛ مَن أشعر؟ أصاحبنا أم صاحبُكم؟ يعني عبيد الله بنَ قيس الرقيَّات أو عمر بن أبي ربيعة ـ فقال نوفل: حين يقولان ماذا؟ فقال: حين يقول صاحبنا:

خليليَّ ما بالُ المطيِّ كأنّما ... نراها على الأدبار بالقوم تنكُصُ
وقد أبْعَدَ الحادي سُرَاهُنَّ وانتحى ... بهِنَّ فما يَألُو عَجُول مقلِّصُ
وقد قُطِعَتْ أعناقُهن صَبابةً ... فأنفُسُنا مما تكلّفُ شُخَّصُ
يزِدْنَ بنا قُرْبًا فيزدادُ شَوْقنا ... إذ زاد طولُ العهدِ، والبعدُ يَنقُصُ

ويقول صاحبكم ما شئت! فقال له نوفل: صاحبكم أشهرُ بالقول في الغزل ـ أمتع الله بك ـ وصاحبُنا أكثر أفانين شعر.

قال: صدقت؛ فلما انقضى ما بينهما من ذِكرِ الشعر، جعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده، ويُعده بالخمس كلِّها، حتى وفّى مائة.

قال الراوي: فلما فارَقْنَاه قلت لنوفل: أتراه استغفر الله من إنشاده الشعر في مسجد رسول الله ﷺ! قال: كلا! هو كثير الإنشاد والاستشهاد للشعر، ولكني أحسبهُ للفخر بصاحبه!

أعشى همَدان يهجو ويَمدح(٢)

كان أعشى هَمْدانَ شاعرَ أهل اليمن بالكوفة وفارسَهم، وكان مع خالد بن عتّاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ بالرَّيّ، فلما قدم خالدٌ من مَغزاه خرج جواريه يتلقَّينه، وفيهنّ أمُّ ولدٍ له كانت رفيعةَ القَدْر عنده؛ فجعل الناس يمرُّون عليها إلى أن جَازَ بها الأعشى، وهو على فرسه يميل يمينًا ويسارًا من النُّعاس، فقالت أم ولد خالد لجواريها: إن امرأة خالد لَتفَاخرني بأبيها وعمِّها وأخيها، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المُرْتَعِش!

(١) الأغاني: ٥ ـ ٩٢ (طبعة دار الكتب). (٢) الأغاني: ٦ ـ ٤٢.

وسمعها الأعشى فقال: مَنْ هذه؟ فقال له بعضُ الناس: هذه جاريةُ خالد، فضحك وقال لها: إليك عني يا لكْعَاء؛ ثم أنشأ يقول:

وما يُـذْريـك مـا فـرسٌ جَـرُورٌ ... وما يُذْريك ما حَمْلُ السلاحِ!

وما يـدريـك مـا شـيـخٌ كـبـيـر ... عَـدَاه الـدهـرُ عـن سَـنَـنِ الـمِـراح

فـأقـسـمُ لـو ركـبـتِ الـوزْدَ يـومًـا ... ولـيـلـتَـه إلـى وَضَـحِ الـصـبـاحِ

إذن لـنـظـرت. . . . .

فأصبحت الجاريةُ، فدخلت إلى خالد فشكتْ إليه الأعشى، وقالت: والله ما تُكْرَم، ولقد اجتُرِىء عليكَ! فقال لها: وما ذاك؟ فأَخبرَته أنها مرّت برجل في وجه الصبح، ووصفْته له وأنه سَبَّها، فقال: ذلك أعشى هَمْدان، فأيّ شيء قال لك؟ فأنشدته الأبياتَ، فبعث إلى الأعشى، فلما دخل عليه قال له: ما تقول هذه؟ زعمت أنَّك هَجَوْتَها، فقال: أساءت سمعًا؛ إنما قلت:

مـررت بـنـسـوةٍ مُـتـعَـطِّـراتٍ ... كضَوْء الصُّبْح أو بَيْضِ الأدَاحي[1]

عَلَى شُقي البغال فَصِذْنَ قلبي ... بـحـسـن الـدَّلّ والـحـدَق الـمِـلاح

فقلتُ: مَنِ الظباءُ؟ فقُلْنَ: سِرْبٌ ... بـدا لَكَ مِـن ظـبـاءِ بـنـي رِيـاح

فقالت: لا، والله، ما هكذا قال... وأعادت الأبيات.

فقال له خالد: أما لولا أنها قَدْ وَلَدَتْ مني لوهبتُها لك، ولكني أفْتَدِي جنايتَها بمثل ثمنها، فدفعه إليه وقال له: أقسمتُ عليك يا أبا المصبّح أن لا تعيد في هذا المعنى شيئًا بعد ما فَرَط منك.

أشجَع النّاس شِعرًا[2]

سأل يومًا عبدُ الملك بن مروان: مَن أشجعُ الناس شعرًا؟ فقيل: عمرو بن معدِ يكرب. فقال: كيف وهو الذي يقول:

فـجـاشَـتْ إلـيَّ الـنَّـفْـسُ أوّلَ مـرةٍ ... فَرُدَّت على مكْرُوهِها فاسْتَقَّرَتِ

(١) الأداحي: جمع أدحية وهي مبيض النعام في الرمل.

(٢) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٢.

قالوا: فعمرو بن الإطْنابة. فقال: كيف وهو الذي يقول:

وقوْلي كلما جَشأَتْ وجاشت مكانَكِ تُحْمَدِي أو تستريحي

قالوا: فعامر بن الطُفيل. قال: كيف وهو الذي يقول:

أقولُ لِنَفْسٍ لا يُجَادُ بمثلها: أقلِّي مِراحًا إنني غيرُ مدبرِ

قالوا: فمن أشْجَعُهم عند أمير المؤمنين؟ قال: أربعة، عباس بن مرداس السُّلَمِيّ، وقيس بن الخطيم الأوسيّ، وعنترة بن شدّاد العبسيّ، ورجل من بني مُزَينة.

أما عباس فلقوله:

أشدُّ على الكتيبة لا أُبالي أفيها كان حَتْفِي أم سواها

وأما قيس بن الخطيم فلقوله:

وإني لَدَى الحرب العَوَان موكّل بتقديم نفسٍ لا أريد بَقَاءها

وأما عنترة بن شداد فلقوله:

إذ تتقُون بي الأسِنَّةَ لم أَخِمْ[1] عنها ولكن قد تضَايق مقْدَمي[2]

وأما المزني فلقوله:

دعوتُ بني قُحافة فاسْتَجَابوا فقلت: رِدُوا فقد طابَ الوُرود

الحجّاج عَلى قَبرِ ابنه[3]

لما هلك أَبَانُ بنُ الحجاج، وأمه أم أبان بنت النعمان بن بشير، ودفنه الحجاج قام على قبره؛ فتمثّل بقول زياد الأعجم:

الآن لمّا كُنْتَ أكملَ مَن مَشَى وافترَّ نابُك عن شَبَاةِ القَارِحِ

وتكاملَتْ فيك المروءةُ كلُّها وأعنْتَ ذلك بالفعَالِ الصالحِ!

---

(١) أخم: أجبن.

(٢) تضايق مقدمي: تضايق الموضع الذي هو قدامي من أن يدنوه أحد.

(٣) ذيل الأمالي: ٧.

فلما انصرف إلى منزله قال: أرسِلوا خلف ثابت بن قيس الأنصاري؛ فأتاه فقال: أنشدني مرثيتَك في ابنك الحسن، فأنشده:

قد أكْذَب اللهُ من نَعَى حَسَنًا ليس لتكذيبِ موتِه ثَمَنُ
أَجُولُ في الدار لا أراك وفي الـ ـدار أُناس جِوَارهم غَبَنُ
بُدّلتُهم منك ليتَ أنهم أضحَوْا وبيني وبينهم عَدَنُ!

فقال له الحجاج: ارْثِ ابني أبان. فقال له: لا أجد به ما كنتُ أَجدُ بحسن، قال: وما كنت تَجدُه؟ قال: ما رأيتُه قطُّ فشَبِعت من رؤيته، ولا غاب عني قطُّ إلا اشتقتُ إليه.

فقال الحجاج: كذلك كنت أجدُ أبان!

إن صَدّقنَاك أغضبنَاك[1]

شَكا الحجّاج يومًا سوءَ طاعة أهل العراق وسَقَم مذهبهم، وسَخَط طريقتهم فقال له جامع المحاربيّ - وكان شيخًا صالحًا خطيبًا لَسِنًا: أمَا إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك[2] لنسبك، ولا لبلدك، ولا لِذَاتِ نفسك، ولكنهم نَقَموا أفعالك؛ فدعْ ما يُبْعدهم عنك إلى ما يُدْنيهم منك، والتمس العافية ممّنْ دونك تُعطَها ممَّن فوقك، وليكن إيقاعُك، بعد وعيدك، ووعيدُك[3] بعد وعدك.

فقال له الحجّاج: والله ما أرى أن أردّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف!

فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار!

فقال الحجاج: الخيارُ يومئذ لله! قال جامع: أجل، ولكن لا تدري لمن يجعله الله!

فغضب الحجاج وقال: يا هناه[4]، إنك من محارب!

(١) زهر الآداب: ٤ ـ ٤٨، البيان والتبيين: ٢ ـ ٦٨، العقد الفريد: ٢ ـ ١٥١، عيون الأخيار: ٢ ـ ٢١٢.
(٢) شنئوك: أبغضوك.
(٣) الوعيد في الشعر، والوعد في الخير.
(٤) يا هناه: يا فلان.

فقال جامع:

وللحربِ سُمِّينا وكان محاربًا　　إذا ما الْقَنَا أمسى من الطَّعْن أحمرَا

فقال له الحجاج: والله لقد هممتُ أن أخْلَعَ لسانك، وأضربَ به وجهك.

فقال جامع: إن صَدَقْنَاك أغضبناك، وإن كَذَبناك أغضبْنَا الله، وغَضَبُ الأمير أهونُ علينا من غَضب الله.

فقال الحجاج: أجل! وسَكَن واشتغل ببعض الأمر، فخرج جامع، وانسلَّ من صفوف الناس.

جَميل أشعَر النّاس[1]

حدّث أحد الرواة فقال:

دخلَ علينا كُثيِّر يومًا وقد أخذ بطرف رَيْطَتِهِ، وألقى طرَفها الآخر وهو يقول: هو واللهِ أشعرُ الناس حيث يقول:

وخـبّـرْتُـمَـانـي أنَّ تَـيْـمَـاء مـنـزلٌ　　لليلى إذا ما الصَّيفُ ألقى المَراسِيَا

فهذي شهور الصيفِ عني قد انقضتْ　　فما لِلنّوى تَرْمِي بليلى المراميَا!

ويجرُّ رَيْطته حتى يبلغ إلينا، ثم يولّي عنا ويَجرُّها ويقول: هو والله أشعرُ الناس حيث يقول:

وأنتِ التي إن شئتِ كدّرتِ عِيشتي　　وإن شئت بعد الله أنعمت باليَا

وأنت التي ما مِنْ صديقٍ ولا عِدًا　　يرى نِضْوَ ما أبقيتِ ألّا رَثَى لِيَا

ثم يرجع إلينا ويقول: هو والله أشعر الناس؛ فقلنا: مَنْ تعني يا أبا صخر؟ فقال: ومَنْ أعني سِوَى جميل! هو والله أشعر حيث يقول هذا.

مَن أشعَر النّاس؟[2]

قال عبد الملك بن مسلم: كتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج: إنه لم

(١) الأغاني: ٨ ـ ١٢٥ (طبعة دار الكتب).
(٢) أمالي المرتضى: ٣ ـ ١٠١، خزانة الأدب: ٢ ـ ١١٨ (المطبعة السلفية)، الأغاني: ٩:١٦٢ (طبعة الساسي).

يبق شيء من لَذَّة الدنيا إلا وقد أصبتُ منه، ولم يَبْقَ لي إلا مُناقَلَةُ[1] الإخوان الأحاديث؛ وقِبَلك عَامرٌ الشّعبيّ، فابعث به إليّ يحدِّثني.

فدعا الحجاج بالشعبيّ وجهَّزَه، وبعث به إليه، وأطْرَاهُ في كتابه.

فخرج الشّعبيُ، حتى إذا كان ببابِ عبد الملك قال للحاجب: استأذِنْ لي، فقال: ومَنْ أنت؟ قال: عَامر الشعبيّ، قال: حَيَّاكَ الله! ثم نهض، وأجلسه على كرسيّه، فلم يلبث أن خرج إليه فقال: ادخل.

قال الشعبيّ: فدخلت فإذا عبد الملك جالس على كرسيّ، وبين يديه رجل أبيضُ الرَّأس واللحية على كرسيّ، فسلّمتُ فردَّ السلام، ثم أَوْمَأَ إليَّ، فقعدتُ عن يساره، ثم أقبل على الذي بين يديه فقال: ويحك! مَن أشعر الناس؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين! فأظْلم عليّ ما بيني وبين عبد الملك، ولم أصْبِر أن قلت: ومَنْ هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس؟ فَعجب عبدُ الملك من عَجَلتي قبل أن يسألني عن حَالي، ثم قال: هذا الأخطل! فقلت: يا أخطل، أشْعَرُ منك الذي يقول:

هذا غلامٌ حسنٌ وجهه ... مقتبل الخير سريع التمامْ
للحارث الأكبر والحارث الأصـ ... ـغرِ والأعرج خير الأنامْ
ثم لهندٍ ولهند، فقدْ ... يَنْجَعُ في الرّوضاتِ ماءُ الغمامْ
خمسة آباء هُمُ ما هُمُ ... هُمْ خَيْرُ مَنْ يشربُ صَوْبَ المدامْ

فقال عبد الملك: ردِّدها عليّ، فرددتُها حتى حفظها؛ فقال الأخْطَل: مَنْ هذا يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: هذا الشَّعْبِيّ، قال: صدق والله، النابغة أشعر مني!

قال الشعبيّ: ثم أقبلَ عليّ عبد الملك فقال: كيف أنت يا شعبيّ؟ قلت: بخير ـ قال: لا زلتَ به ـ ثم ذهبتُ لأصنعَ معاذيري لما كان من خِلافِي على الحجاج مع عبد الرحمٰن بن محمد الأشعث.

فقال: مَهْ! فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق، ولا تراه منا في قولٍ ولا فعل حتى تُفارِقَنا، ثم أقبل عليّ فقال: ما تقول في النابغة؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، قد

(١) المناقلة في المنطق: أن تحدثه ويحدثك.

فَضّله عمرُ بن الخطاب في غير موطن على جميع الشعراء، وذاك أنَّهُ خَرَج يومًا وببابه وَفْد غَطفان، فقال: يا مَعشر غطفان، أيّ شعرائكم الذي يقول:

حَلَفْتُ فلم أَترُكْ لنفسكَ ريبةً ... وليس وَراء الله للمرء مَذْهَبُ
أَلَمْ تَرَ أن الله أعطاك سَوْرةً ... ترى كلّ مَلك دونها يتذبذبُ
كأنك شمس والملوك كَواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ
لئن كنت قَد بُلِّغتَ عني خيانة ... لمبلِغك الواشِي أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمُّه ... على شعثٍ؛ أي الرجال المهذب!

قالوا: النابغة؛ قال: فأيّكم الذي يقول:

فإنّكَ كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ
خطاطيف[1] حُجْنٌ في حبال متينة ... تُمَدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ

قالوا: النابغة؛ قال أيّكم الذي يقول:

إلى ابن مُحَرِّقٍ أَعْمَلتُ نفسي ... وراحلتي وقد هدتِ العُيُون
أتيتُكَ عاريًا خَلَقًا ثيابي ... على خوفٍ تُظَنُّ بيَ الظُّنُونُ
فألفيت الأمانةَ لم تَخُنْها ... كذلك كان نوحٌ لا يَخُونُ

قالوا: النابغة، قال: هذا أشعر شعرائكم. ثم أقبل عبدُ الملك على الأخطل فقال: أتحبّ أنَّ لك قياضًا[2] بشعرك شعر أحد من العرب، أو تحبّ أنك قلته، فقال: لا والله، إلا أني وددت أني كنت قلت أبياتًا قالها رجل منّا؛ كان والله مُغْدِف[3] القناع، قليل السماع، قصير الذراع، قال: وما قال؟ فأنشده:

إنّا محيُّوك فاسلَمْ أيُّها الطلَلُ ... وإن بليتَ وإن طَالَت[4] بك الطِّوَلُ
ليس الجديدُ بهِ تَبْقَى بَشاشَتُه ... إلّا قليلًا ولا ذو خَلّةٍ يصلُ
والعيشُ لا عيشَ إلا ما تَقَرُّ به ... عينٌ، ولا حالَ إلا سوفَ تنتقلُ
والناسُ مَنْ يَلقَ خيرًا قائلون له ... ما يشتهي؛ ولأمّ المخطىء الهَبَلُ
قد يدرِك المتأنّي بعض حاجتِهِ ... وقد يكون مع المُسْتَعْجِل الزَّلَلُ

---

(١) الخطاف: حديدة حجناء تعقل بها البكرة، والحجن: الاعوجاج.
(٢) المقايضة: المبادلة والمعاوضة.
(٣) أغدف قناعه: أرسله على وجهه.
(٤) يقال: طال طولك أي عمرك.

قال الشعبيّ: فقلت: قد قال القَطَاميُّ أفضلَ من هذا، قال: وما قال؟ قلت: قال:

طرقَتْ جنوبُ رحالنَا منْ مَطْرِقِ ما كنتُ أحسبُه قريب المَعْنقِ

حتى أتيتُ على آخرها، فقال عبد الملك: ثكلَتِ القطاميَّ أُمُّه! هذا والله الشعر، ثم قال: يا شعبيّ، أيّ شعراء الجاهليّة كان أشعر من النساء؟ قلت: الخَنْساء. قال: ولِمَ فَضَّلْتَها على غيرها؟ قلت: لقَوْلِها:

وقائلةٍ والنّعشُ قد فاتَ خَطْوَهَا لندركَه: يا لهْفَ نفسي على صَخْر!
ألا ثكِلتْ أمُّ الذين غَدَوْا به إلى القبر، ماذا يحملون إلى القَبْرِ!

فقال عبد الملك: أشعر والله منها ليلى الأخيليّة حيث تقول:

مُهَفْهَفُ الكشح والسِّرْبال مُنْخَرِقٌ عنه القميصُ لسيْرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرُ
لا يأمَنُ الناسُ مُمْسَاه ومُصْبَحَهُ في كلِّ حَيٍّ، وإنْ يَغْزُوه يُنْتَظَرُ

ثم قال: يا شَعْبيّ، لعلّه شقّ عليك ما سمعتَه! فقلت: إي والله يا أمير المؤمنين أشدّ المَشقّة، إني قد حدّثتُك فلم أُفِدْك إلا أبيات النّابغة في الغلام.

ثم قال عبد الملك: يا شَعْبيّ، إنما أعلمناك هذا، لأنه بلغني أن أهلَ العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون: إن كانوا غلبونَا على الدّولة، فلَنْ يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق. ثم رَدَّدَ عليَّ أبياتَ ليلى حتى حفظتُها، وأذن لي فانصرفت، فكنت أوّلَ داخل وآخر خارج.

الشعبيّ عِنْدَ عَبد الملك بن مروَان[(١)]

قال الشعبيُّ: دخلت على عبدِ الملك بن مروان في عِلَّتِه التي مات فيها، فقلتُ: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا شعبيّ؛ أصبحت كما قال عَمْرو بن قميئة:

كأني وقد جاوزتُ تِسعين حِجَّةً خلعتُ بها عنّي عِنَانَ لجامي
رمَتْني بناتُ الدهر من حيثُ لا أرى فكيف بمن يُرْمى وليس بِرَام!
فلو أنني أرمَى بنبْلٍ رميتُها ولكنني أُرْمَى بغيرِ سِهَامِ

(١) الأغاني: ١٦ ـ ١٥٩ (طبعة الساسي)، مهدي الأغاني: ٢ ـ ٦٢.

وأهـلكـنـي تـأصـلُ يـومٍ ولـيـلةٍ وتـأمـيـلُ عـامٍ بـعـد ذاك وعـامِ
على الرّاحتين تارة وعلى العصا أَنُـوءُ ثـلاثًـا بَـعْـدَهـنَّ قـيـامـي

فقلت: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لَبيد، وقد بلغ سبعين حجة:

كأني وقد جاوزتُ سبعين حجةً خلعتُ بها عن منكِبيَّ رِدَائِيَا

فلما بلغ سبعًا وسبعين سنةً قال:

باتت تَشَكّى إليَّ النفسُ مُجْهِشَةً وقد حملتك سبعًا بعد سبعينا
فإن تُزَادى ثلاثًا تَبْلُغي أملًا وفي الثلاثِ وفاءٌ للثمانِينا

فلما بلغ مائةَ سنة قال:

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطولها وسؤالِ هذا الخَلْق كيف لبيد!

فلما بلغ مائةَ سنة وعشرًا قال:

أليس ورائي إن تراخت مَنِيَّتي لزوم العصا تُحْنَى عليها الأصابع
أخبّر أخبار القرون التي خَلَتْ أَدِبّ كأني كلّما قمت راكع

فلما بلغ ثلاثين ومائة سنة، وقد حضَرتْهُ الوفاة قال:

تمنّى ابْنَتَايَ أن يعيشَ أبوهما وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ!
فإن حان يومًا أن يموت أبوكما فلا تَخْمِشا وَجْهًا ولا تحلقا الشَّعَرْ
وقولا: هو المرءُ الذي لا صَدِيقَه أضاع، ولا خَانَ الخليلَ ولا غَدَرْ
إلى الحوْل ثم اسمُ السّلامِ عليكما ومن يَبْكِ حولًا كامِلًا فقد اعْتَذَر(١)

قال الشعبيّ: فتبسّم عبد الملك وقال: لقد قويت من نفسي بقولك يا عامر، وإنّي لأجد خِفًّا وما بي من بأس، وأمر لي بصِلة. وقال لي: اجلس يا شعبيّ؛ فحدّثني ما بينك وبين الليل. فجلست فحدّثته حتى أُمسيتُ وخرجت من عنده، فما أصبحت حتى سمعت الواعية في داره(٢).

---

(١) اعتذر: أتى بعذر.
(٢) الواعية: الصراخ والصوت.

تلطُّف عَبد الله بن الحجّاج[١]

كان عبد الله بن الحجاج شجاعًا فاتكًا صُعلوكًا من صعاليك العرب، وكان متسرّعًا إلى الفِتَن، فكان ممّن خرج مع عمرو بن سعد على عبد الملك بن مروان.

فلمّا ظفر به عبد الملك هرب إلى ابن الزّبير، فكان معه حتى قُتِل، ثم جاء إلى عبد الملك متنكّرًا، واحْتال حتى دخل عليه، وهو يطعم الناس، وجلس حَجْرَةً[٢]، فقال له: ما لك يا هذا لا تأكل! قال: لا أستحلُّ أنْ آكل حتى تأذنَ لي. قال: إني قد أذنت للناس جميعًا، قال: لم أعلم، أفآكل بأمرك؟ قال: كلْ. فأكل وعبد الملك ينظر إليه ويَعْجب من فعله.

فلما أكل الناس جلس عبد الملك في مجلسه، وجلس خواصُّه بين يديه، وتفرّق الناس، فجاء عبد الله ووقف بين يديه، واستأذنه في الإنشاد فأذن له، فأنشد:

أبلغ أميرَ المؤمنين فإنني — مما لقيت من الحوادث مُوجَع
مُنِعُ القرار فجئت نحوك هاربًا — جيش يُجَرُّ، ومَقْنَبٌ يتلمع[٣]

فقال عبد الملك: وما خوفُك لا أمّ لك! فقال عبد الله:

إن البلادَ عليّ وهي عريضةٌ — وَعِرتْ مذاهبُها، وسُدَّ المطلع

فقال عبد الملك: ذلك بما كسبت يداك، وما اللهُ بظلّام للعبيد، فقال عبد الله:

إنّ الذي يَعصيك منّا بعدها — من دينه وحياته متودع
آتى رضاك ولا أعود لمثلها — وأطيع أمرك ما أمرتَ وأسمع

فقال له عبد الملك: هذا لا نقبله منك إلّا بعد المعرفة بك وبذنبك، فإذا عرفت الحَوْبة[٤] قبلت التوبة؛ فقال عبد الله:

ولقَد وطئتَ بني سعيدٍ وطأَةً — وابنَ الزبير فعرشُه متضعضعُ

---

(١) الأغاني: ١٢ ـ ٢٥ (طبعة الساسي). (٢) حجرة: منفردًا في ناحية.
(٣) المقنب: جماعة الخيل تجتمع للغارة، ويتلمع: يضيء.
(٤) الحوبة: الإثم.

فقال عبد الملك: لله الحمد والمنّة على ذلك، فقال عبد الله:

ما زلت تضرب منكبًا على منكبٍ تعلو ويَسْفُل غيركم وما يُرفع
لا يستوي خاوي نجومٍ آفِلٌ والفجر منبلجًا إذا ما يطلعُ
وُضِعَتْ أمية واسطين لقومهم وَوُضِعْتَ وسْطَهمُ فنعم الموضع
بيتٌ أبو العاصي بناه بربْوةٍ عالي المشارف عزه ما يُدفَعُ

فقال له عبد الملك: إن توريتك عن نفسك لَتريبني، فأيُّ الفسقة أنت! وماذا تريد؟ فقال:

حَرَبَتْ[1] أُصَيْبِيَتي يدٌ أرسلتَها وإليك بعد مَعادها ما ترجع
وأرى الذي يرجُو تُراثَ محمد أَفَلَتْ نجومهمُ ونجمُك يَسْطَعُ

فقال عبد الملك: ذلك جزاء أعداء الله، فقال عبد الله:

فارحم أصيبيتي الذين كأنهم حَجْلَى تَدرَّج بالشربَّةِ وُقَّعُ[2]

فقال عبد الملك: لا أنعشهم الله، وأجاع أكبادهم، ولا أبقى وليدًا من نسلهم، فإنهم نسل كافر فاجر لا يبالي ما صنع، فقال عبد الله:

مال لهم ممّا يُضَنّ جمعته يوم القَلِيبِ فحيزَ عنهمْ أَجْمَعُ

فقال له عبد الملك: لعلك أخذته من غير حلّه وأنفقته في غير حقّه، وأرصدت به لمشاقّة أولياء الله، وأعددته لمعاونة أعدائه، فنزعه منك إذا استظهرتَ به على معصية الله، فقال عبد الله:

أَدْنُو لترحَمني وتَجبُر فاقتي فأراكَ تَدفَعُني، فأينَ المَدْفَع!

فتبسم عبد الملك وقال له: إلى النار! فمَن أنت؟ قال: أنا عبد الله بن الحجاج؛ وقد وطئت داركَ، وأكلت طعامَك، وأنشدتُك، فإن قتلتني بعد ذلك فأنت وما تراه، وأنت بما عليك في هذا عارف! ثم عاد إلى إنشاده فقال:

ضاقت ثياب الملبِسين وفضلهم عنّي، فألبسني فثوبك أَوْسَعُ

فنبذ عبد الملك إليه رداءً كان على كتفه، وقال: البسه لا لبست! فالتحف به، ثم قال له عبد الملك: أولى لك! والله لقد طاولتك طمعًا في أن يقوم بعض

---

(١) حربه: سلب ماله، وأصيبية: تصغير صبية. (٢) الحجلى: حيوان، والشربة: موضع بنجد.

هؤلاء فيقتلك. فأبى الله ذلك، فلا تجاورني في بلد، وانصرف آمنًا، وأقم حيث شئت!

نُصيب عِندَ عَبد العَزيز بن مَروَان[(١)]

قال نُصَيْب: قلت الشعر وأنا شابّ فأعجبني قولي؛ فجعلت آتي مَشْيخة من بني ضَمْرة، ومَشْيخةَ من خُزاعة، فأنشِدهم القصيدةَ من شعري، أَنْسُبُهَا إلى بعضِ شعرائهم الماضين فيقولون: أحسن والله! هكذا يكونُ الكلام! وهكذا يكون الشعر.

فلما سمعتُ ذلك منهم علمت أني مُحسِن؛ فأزمعوا وأزمعت الخروجَ إلى عبد العزيز بنِ مروان، وهو يومئذٍ بمصر؛ فقلت لأختى أُمَامة ـ وكانت عاقلةً جَلْدة: أي أُخَيَّة؛ إنّي قد قلتُ شعرًا، وأنا أريد عبد العزيز بنَ مروان، وأرجو أن يُعْتِقَك الله به وأُمَّكِ ومَن كان مَرْقُوقًا من أهل قَرَابَتي.

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! يا ابن أُمّ، أتجتمع عليك الخَصْلتان: السوادُ، وأن تكون ضُحْكةً للناس! قلت: فاسمعي. فأنشدتها فسمعت، فقالت: بأبي أنت! أحسنت والله! في هذا رجاءٌ عظيم، فاخرُجْ على بركة الله.

فخرجت على قَعُودٍ لي حتى قدِمتُ المدينة فوجدت بها الفرزدق في مسجد رسول الله ﷺ، فعرَّجت إليه فقلت: أُنْشِدُهُ وأَسْتَنْشِدُهُ، وأعرِض عليه شعري. فأنشدته، فقال لي: ويلك! أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك! قلت: نعم. قال: فلستَ في شيء. إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل! فانْفَضَخْتُ[(٢)] عرقًا!

فصحبني رجل من قريش كان قريبًا من الفرزدق، وقد سمع إنشادي، وسمع ما قالَ لي الفرزدق؛ فأومأ إليّ؛ فقمت إليه، فقال: ويحك! أهذا شعرُك الذي أنشدتَه الفرزدق؟ قلت: نعم. فقال: قد والله أصبتَ، ولئن كان هذا الفرزدق شاعرًا لقد حَسَدَكَ، فإنّا لنعرف محاسنَ الشعر؛ فامضِ لوجهك، ولا يكسرنّك.

فسرَّني قوله، وعلمت أنه قد صَدَقني فيما قال، فاعتزمتُ على المضيّ، فمضيت!

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٣٢٥ (طبعة دار الكتب). (٢) انفضخت عرقًا: تدفقت عرقًا.

فقدمت مصرَ وبها عبدُ العزيز بنُ مرْوان، فحضرتُ بابه مع الناس، فَنُحِّيتُ عن مجلس الوجوه، فكنتُ وراءهم، ورأيتُ رجلًا جاء على بغْلة، حسنَ الشّارة، سهل المدخل، يُؤْذَن له إذا جاء. فلما انصرف إلى منزله انصرفت معه أماشي بَغْلَتَه، فلما رآني قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم! أنا رجلٌ من أهل الحجاز، شاعر، وقد مدحتُ الأمير، وخرجتُ إليه راجيًا معروفَه، وقد ازدُرِيت فطردت من الباب، ونُحِّيتُ عن الوجوه. قال: فأنشِدني، فأنشدته، فأعجَبَه شعري، فقال: ويحك! أهذا شعرك؟ فإياك أن تَنْتَحِل! فإن الأمير روايةٌ عالم بالشعر، وعنده رُواةٌ، فلا تَفْضَحْني ونفسَك، فقلت: والله ما هو إلا شعري. فقال: ويحك! فقل أبياتًا تذكر فيها حَوف[١] مصر وفضلَها على غيرها، والْقَني بها غدًا.

فغدوت عليه من غد فأنشدته قولي:

سَرَى الهمُّ تَثْنيني إليك طلائِعُه ... بمصر وبالحَوْف اعتَرتْني روائعهْ
وبات وسادي ساعدٌ قلَّ لحمه ... عن العظم حتى كاد تَبْدُو أشَاجِعُه[٢]

قال: وذكرتُ فيها الغيث فقلت:

وكم دون ذاك العارض البارق الذي ... له اشْتَقْتُ من وجهٍ أُسيلَ مَدَامعهْ
تمشّى به أفناءُ[٣] بكر ومذحجٍ ... وأفناء عمرو، وهو خِصْبٌ مرابعهْ
فكلُّ مسيلٍ من تهامةَ طيبٌ ... دميثُ الرُّبا تَسْقِي البحارَ دَوَافِعُه[٤]
أَعِنّي على برق أُريك وميضَه ... تضيء دُجُنّاك الظلام لوامِعُه
إذا اكتحلتْ عينًا محبٌّ بضوئه ... تجافت به حتى الصباح مضاجعُه

فقال: أنت والله شاعر! احْضُرْ بالباب حتى أذْكُرَكَ للأمير.

قال: فجلستُ على الباب ودخل، فما ظننتُ أنه أمكنه أن يذكرني حتى دعا بي، فدخلت على عبد العزيز، فسلّمت، فصعّد فيّ بصره وصوَّبَ، ثم قال: أنت شاعر، ويلك! قلت: نعم أيها الأمير! قال: فأنشدني فأنشدته فأعجَبه شعري.

---

(١) الحوف: بمصر حوفان؛ الشرقي والغربي وهما متصلان.
(٢) الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.
(٣) أفناء بكر ومذحج: أخلاط الناس.
(٤) الدوافع: مسايل الماء.

وجاء الحاجب فقال: أيها الأمير، هذا أيمن بن خُرَيم الأسدي بالباب. قال: ائذنْ له، فدخل فاطمأنّ، فقال له الأمير: يا أيمن، كم ترى ثمن هذا العبد؟ فنظر إليّ فقال: والله لنعم الغادي في أثَرِ المخاض[١]، هذا أيها الأمير؟ أرى ثمنه مائة دينار. فقال: فإن له شعرًا وفصاحة! فقال لي أيمن: أتقول الشعر؟ قلت: نعم. قال: قيمته ثلاثون دينارًا. قال: يا أيمن، أرْفَعُه وتخفضه أنت؟ قال: لكونه أحمق أيها الأمير، ما لهذا وللشعر؟ مثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعرًا؟ فقال: أنشده يا نصيب، فأنشدته.

فقال له عبد العزيز: كيف تسمع يا أيمن؟ قال: هو أشعر أهل جِلْدته. قال: هو والله أشعرُ منك. قال: أَمِنّي أيها الأمير! قال: إي والله منك. قال: والله أيّها الأمير إنك لَمَلُولٌ طَرِفٌ[٢]. قال: كذبت، والله ما أنا كذلك، ولو كنت كذلك ما صبرت عليك، تنازعني التحية، وتواكِلني الطعام، وتتّكيء على وسائدي وفرُشي، وبك ما بك! وكان بأيمن بياض.

قال: ائذن لي أن أخرج إلى بِشْر بالعراق[٣]، واحملني على البريد. قال: قد أذنت لك، وأمر به فحمل على البريد إلى بشر. فقال فيه يمدحه ويعرض بأخِيه عبد العزيز:

ركبتُ من المقطّم في جُمَادى ... إلى بشر بن مَرْوان البريدَا
ولو أعطاك بشرٌ ألف ألفٍ ... رأى حقًّا عليه أن يزيدَا
أميرَ المؤمنين أقم ببِشْرٍ ... عمودَ الحقّ إنّ له عمودَا
ودَعْ بشرًا يقوِّمُهمْ ويحدثْ ... لأهل الزيغ إسلامًا جديدَا
كأن التاجَ تاج بني هِرَقلٍ ... جَلَوْهُ لأعظم الأيام عيدَا
على ديباجِ خدّيْ وجه بشرٍ ... إذا الألوان خالفتِ الخدودا[٤]

قال: فأعطاه بشر مائة ألف درهم.

---

(١) المخاض: الحوامل من النوق، وهو يريد: لنعم هذا العبد يرعى الإبل.
(٢) يقال رجل طرف: إذا كان لا يثبت على عهد.
(٣) بشر بن مروان: أخو عبد العزيز بن مروان.
(٤) في قوله هذا يعرض بكلف كان بوجه عبد العزيز بن مروان.

سُليمَان بن عَبد الملك وسُميَّة(١)

أَقْبَلَ على سليمان بنِ عبد الملك فتى من بني عبس، وَسِيمٌ: فأعجبه، فقال: ما اسمك؟ قال: سليمان، قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابنُ عبد الملك! فأعرض عنه؛ وجعل يُفْرِضُ لِمَنْ دونه، فعلم الفتى أنه كره موافَقة اسمه واسم أبيه.

فقال: يا أمير المؤمنين، لا عدمتَ اسْمَك، ولا شقى اسمٌ يوافق اسمَك، فارْضَ؛ فإنما أنا سيفٌ بيدك، إن ضربْتَ به قطعتَ، وإن أمرْتَني أَطَعْتُ؛ وسهمٌ في كنانتك أشتدُّ إن أُرسلتُ، وأنفُذُ حيث وجُهت.

فقال له سليمان وهو يختبره: ما قولك يا فتى لو لقيتَ عدوًا؟ قال: أقول: حسبي الله ونعم الوكيل! قال سليمان: أكنتَ مكتفيًا بهذا لو لقيت عدوَّك دون ضربٍ شديد؟

قال الفتى: إنما سألتَني يا أمير المؤمنين: ما أنت قائل؟ فأخبرتُك، ولو سألتني: ما أنت فاعل؛ لأنبأْتُك، إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيفِ حتى يتعقّف، ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصَّف!

فأعْجب به سليمان وألْحقَه في العطاء بالأشراف، وتمثل:

إذا ما اتَّقَى اللهَ الفتى ثم لم يكن   على قومه كَلًّا فقد كمل الفتى

عَقيد النَّـدى(٢)

قال الحارث بن سليمان: شهدت مجلس أمير المؤمنين سليمانَ بنِ عبد الملك، وأتاه سعيدُ بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أتيتُك مُسْتَعْدِيًا. قال: ومَنْ بكَ؟ قال: موسى شَهَوَات. قال: وماله؟ قال: سَمَّعَ بي، واستطال في عِرْضي.

فقال: يا غلام؛ عليَّ بموسى، فأْتِني به، فأُتِيَ به، فقال: ويلك! أَسمَّعْتَ به واستَطَلْتَ في عِرْضِهِ؟ قال: ما فعلتُ يا أمير المؤمنين، ولكنّي مدحتُ ابنَ عمه فغضب هو.

---

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ٣٢٢.

(٢) الأغاني ٣:٣٥٣ (طبعة دار الكتب).

قال: وكيف ذلك؟ قال: أردتُ شراءَ جاريةٍ لم يبلغ ثمنها جِدَتِي، فأتيتُه وهو صديق، فشكوتُ إليه ذلك، فلم أصب عنده شيئًا، فأتيتُ ابنَ عمه سعيدَ بن خالد، فشكوت إليه ما شكوتُه إلى هذا. فقال: تَعُودُ إليَّ؛ فتركته ثلاثًا ثم أتيتُه، فَسَهَّلَ مِنْ إذْني، فلما استقرّ بي المجلس قال: يا غلام؛ قل لقَيِّمي: هاتِ ودِيعَتي.

فَفتَحَ بابًا بَيْنَ بَيْتَيْنِ، وإذا بجارية، فقال لي: أهذِه بُغْيَتُك؟ قلت: نعم، فِدَاكَ أبي وأمي! قال: اجلس. ثم قال: يا غلام؟ قل لقيِّمتي: هاتي ظَبْيَة[1] نَفَقتي، فأُتِيَ بظَبْيَة، فنُثِرَتْ بين يديه، فإذا مائةُ دينار، فَرُدَّتْ في الظَّبْيَةِ. ثم قال: عتيدَةَ طيبي[2]، فأُتيَ بها؛ ثم قال: مِلْحَفَةَ[3] فراشي، فأُتيَ بها؛ فصيَّرَ ما في الظبية وما في العتيدة في حواشي المِلحَفة، ثم قال: شأنك بالجارية واستعن بهذا.

فقال له سليمان بن عبد الملك: فذلك حين تقولُ ماذا؟ قال: قلت:

أبـا خـالـدٍ ـ أَغـنِـي سـعـيـد بـن خـالـد
أخـا الـعُـرف، لا أعـنـي ابـنَ بـنـت سـعـيـدِ
ولـكـنـنـي أَغـنِـي ابـنَ عـائـشـةَ الـذي
أَبُـو أبـويـه خـالـدُ بـن أَسِـيـدِ
عـقـيـدُ[4] الـندى مـا عـاش يـرضَـى بـه الـنـدى
فـإن مـات لـم يـرضَ الـنـدى بـعَـقِـيـد
دَعُـوهُ دعـوه إنـكـم قـد رقـدْتُـمُ
ومـا هـو عـن أحـسـابـكـم بـرَقُـودِ
قَـتَـلْتَ أنـاسًـا هـكـذا فـي جـلودهـم
مـن الـغـيـظ لـم تـقـتـلهـمُ بـحـديـدِ

فقال سليمان: عليَّ يا غلام بسعيد بن خالد، فأُتيَ به، فقال: أَحَقٌّ ما وصفك به موسى؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فأعاد عليه. فقال: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فما طوَّقَتْكَ هذه الأفعال؟ قال: دَيْن ثلاثين ألف

(١) الظبية هنا: جراب صغير من جلد ظبي.
(٢) العتيدة: الحقة يكون فيها طيب الرجل أو العروس.
(٣) الملحفة: الملاءة. (٤) عقيد الندى: حليف الكرم.

دينار. فقال له: قد أمرت لك بمثلها وبمثلها وبثلث مثلها، فحملت إليه مائة ألف دينار.

قال الحارث: فلقيت سعيدَ بن خالد بعد ذلك فقلت له: ما فعل المال الذي وصلك به سليمان؟ قال: ما أصبحتُ والله أَملِكُ منه إلا خمسين دينارًا. قلتُ: ما اغتاله! قال: خَلَّةٌ[(١)] من صديق، أو فَاقةٌ من ذي رَحِم.

إيجاز فِي المقَال وَبلَاغَة فِي البَيَان[(٢)]

قال سُفْيان القرشي: كنا عند هشام بن عبد الملك، وقد وفد عليه وفدُ أهل الحجاز ـ وكان شباب الكتَّاب إذا قدم الوفد حضروا لاسْتماع بلاغةِ خطبائهم ـ فحضرتُ كلامَهم.

وكان محمد بن أبي الجَهْم أعظمَ القوم قدرًا، وأكبرَهم سنًا، وأفضلَهم رأيًا وحلمًا؛ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! إنّ خطباءَ قريش قد قالت فيك ما قالت، وأكثرتْ وأطنبتْ، والله ما بلغ قائلُهم قدرَك، ولا أحصَى خطيبُهم فضلَك، وإن أذنتَ في القول قلت. قال: تكلّم، قال: أفأُوجز أم أطنب؟ قال: بل أَوْجِزْ.

قال: تولّاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزيَّنك بالتَّقْوى، وجَمَع لك خيرَ الآخرة والأولى، إنّ لي حوائجَ أفأذكرها؟ قال: هاتِها، قال: كَبِرَتْ سنّي، ونالَ الدهرُ منّي، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يَجْبُر كَسْرِي، وينفي فَقْري فعل!

قال: وما الذي ينفِي فقرَك، ويجبُر كسرَك! قال: ألفُ دينار، وألفُ دينار، وألفُ دينار!

فأطرق هشام طويلًا، ثم قال: هيهات يا ابنَ أبي الجَهْم! بيت المال لا يحتملُ ما ذكرت، فقال: إن الله آترك لمجلسك، فإن تعطِنا فَحقًّا أدّيت، وإن تمنعْنا فنسأل الذي بيده ما حويت يا أمير المؤمنين. إنّ الله جعل العطاء محبّة، والمنع مَبْغَضَة؛ والله لأنْ أُحِبَّك أحبُّ إليّ من أن أُبغِضَك!

قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أقضي بها دينًا فَدَحَني[(٣)] قضاؤُه، وقد عنَّانِي حَمْلُه، وأضرَّ بي أهلُه. قال: فلا بأس؛ تُنَفِّس كُرْبة، وتؤدي أمانة. وألفُ دينار

---

(١) الخلة: الحاجة والفقر.

(٢) العقد الفريد: ٣ ـ ١٨٦، الأمالي: ١ ـ ١٤٧، صبح الأعشى: ١ ـ ٢٦٤.

(٣) فدحني: أثقلني.

لماذا؟ قال: أزوِّج بها مَن أدرَك من ولدي. قال: نِعْمَ المسلكُ سلكتَ، أغْضضْت بصرًا، وأعففت وَلدًا، ورفعت نسلًا. وألف دينار لماذا؟ قال: اشترى بها أرضًا يعيش بها ولَدي، وأستعين بفضلها على نوائب دهري، وتكون ذُخْرًا لمن بقي بعدي.

قال: فإنّا قد أمرنا لك بما سألت. قال: فالمحمود الله على ذلك، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحم خيرًا! ثم خرج.

فأتبعه هشام بصره، وقال: تالله ما رأيت رجلًا ألطفَ في سؤال، ولا أرفق في مقال من هذا، هكذا فليكن القرشيّ. أما والله إنّا لنعرف الحقّ إذا نَزَل، ونكرهُ الإسراف والبَخَل، وما نعطِي تبذيرًا، ولا نمنع تقتيرًا، وما نحن إلا خُزّانُ الله في بلاده، وأُمناؤه على عباده، فإذا أَذِن أعطينا، وإذا منع أبَيْنَا، ولو كان كل قائل يَصْدُق، وكلّ سائل يستحق، ما جَبَهنا(١) قائلًا، ولا رَدَدْنا سائلًا، ونسأل الذي بيده ما استحفظَنا أن يُجريه على أيدينا، فإنّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقدِر(٢)؛ إنه كانَ بعباده خبيرًا بصيرًا! فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ لقد تكلّمت فأبلغت، وما بلغ في كلامه ما قَصَصْت؛ قال: إنه مبتلًى، وليس المبتلَى كالمُعتَلِي!

هَذا الذي تعرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأتَه(٣)

حجّ هِشامُ بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه، ومعه رؤساءُ أهلِ الشام، فجهِد أن يستلِم الحجر، فلم يقدر من ازدحام الناس، فنُصب له منبر فجلسَ عليه ينظر إلى الناس، وأقبل عليُّ بن الحسين ـ وهو أحسنُ الناسِ وجهًا، وأنظفُهم ثوبًا، وأطيبهم رائحة ـ فطاف بالبيت، فلما بلغ الحجر الأسود تنحّى الناسُ كلُّهم، وأخلَوْا له الحجر ليستلمه هيبَةً وإجلالًا.

فغاظ ذلك هشامًا، وبلغ منه، فقال رجل لهشام: مَنْ هذا أصلح الله الأمير! قال: لا أعرفه ـ وكان به عارفًا ـ ولكنه خاف أن يَرْغَبَ فيه أهل الشام، ويسمعوا منه، فقال الفرزدق ـ وكان لذلك كله حاضرًا: أنا أعرفه، فسلني يا شاميّ. قال:

---

(١) جبهه: لقيه بما يكره. (٢) يقدر: يقسم.

(٣) الأغاني: ١٤ ـ ٧٥ (طبع الساسي)، المحاسن والمساوىء: ٣٢١ (طبع ليبزج).

ومَن هو؟ قال:

هذا الّذي تعرف البَطْحَاءُ[١] وَطْأَتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِمُ ... هذا التقيُّ النقيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلها: ... إلى مكارِمِ هذا ينتهي الكرمُ
يكادُ يُمْسكُه عِرْفَانَ[٢] راحته ... رُكْنُ الحَطيم[٣] إذا ما جاءَ يستَلِمُ
فليس قولك: مَن هذا بضائره ... العُرْب تعرفُ مَن أنكرتَ والعجَمُ

فحبسه هشام فقال في حبسه:

أتحبسني بين المدينة والّتي ... إليها قلوب الناس يهوى منيبُها!
يقلّبُ رأسًا لم يكُنْ رأس سيِّدٍ ... وعينًا له حولاء بادٍ عيوبُها

فبعث إليه هشام فأخرجه، ووجّه إليه عليُّ بن الحسين عشرة آلاف درهم، وقال: اعذِر يا أبا فراس، فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثرُ من هذا لوصلناك به، فردّها، وقال: ما قلتُ ما كان إلا لله، وما كنتُ لأرْزَأ[٤] عليه شيئًا، فقال له عليّ: نحن أهل بيت إذا أنفذنا شيئًا ما نرجع فيه.

وَاعِظُ المُلُوك[٥]

قال خالد بن صفوان بن الأهتم: أوفدني يوسفُ بن عمرَ الثقفي إلى هشام بن عبد الملك في وفد أهل العراق فقدِمتُ عليه، وقد خرج بقَرابته وحَشمه وغاشِيته[٦] وجلسائه، فنزل في أرض قاع صَحْصَح[٧]، تنائف أفْيَح[٨]، في عام قد بكر وسْمِيُّه، وتتابع وَلِيُّه[٩]، وأخذَت الأرض فيه زينتها على اختلاف ألوان نَبتِها؛ من

(١) البطحاء: مسيل واسع فيه دقاق الحصى. (٢) عرفان: منصوب على أنه مفعول له.
(٣) الحطيم: حجر الكعبة أو جدارها، أو ما بين الركن وزمزم والمقام.
(٤) رزأه ماله: أصاب من ماله شيئًا.
(٥) الأغاني: ٢ ـ ١٥٣ (طبعة دار الكتب). معجم الأدباء: ١١ ـ ٢٧.
(٦) غاشية الرجل: مَن ينتابه من زواره وأصدقائه.
(٧) القاع الصحصح: الأرض الجرداء المستوية، والتنائف: جمع تنوفة، وهي أرض لا أنيس بها ولا ماء.
(٨) الأفيح: الواسع.
(٩) الوسمي: مطر الربيع الأول، والولي: المطر الذي يلي الوسمي.

نَوْرِ رَبيعٍ مُونق[١]، فهو في أحسن منظر ومَخْبَر، وأحسن مُسْتَمطَر، بصَعِيد[٢] كأن ترابه قطَعُ الكافور. وقد ضُرب له سُرادِق من حِبَرٍ[٣]، كانَ يوسفُ بن عمَرَ صنعه له باليمن، فيه فُسْطَاطٌ فيه أربعة أفرشةٍ من خَزٍّ أحمر، مِثلُها مَرافِقُها، وعليه دُرَّاعة[٤] من خزّ أحمرَ مِثلُها عمامَتُها، وقد أخذ الناس مجالسهم.

فأخرجت رأسي من ناحية السّماط[٥]، فنظر إليّ شِبْهَ المُستَنطق لي! فقلت: أتمّ الله عليك يا أمير المؤمنين نِعمه، وجعل ما قلّدك من هذا الأمر رُشْدًا، وعاقبةَ ما يَؤُول إليهِ حَمْدًا؛ وأخْلَصَه لك بالتُّقى؛ وكثَّره لك بالنماء، ولا كدَّرَ عليك منه ما صَفَا، ولا خالَط سرورَه بالرَّدى، فقد أصبحتَ للمسلمين ثِقَة، إليك يَقصدون في أمورهم، ويفزَعُون في مظالمهم، وما أجدُ شيئًا ـ يا أمير المؤمنين ـ هو أبلغُ في قضاء حقِّك وتوقِير مجلسك، وما منَّ الله عليّ به من مُجَالستِك، من أن أُذَكِّرَك نِعَمَ اللهِ عليك، وأنبّهكَ لشُكْرِها؛ وما أجد في ذلك شيئًا هو أبلغُ من حديث من سَلَف قبلَك من الملوك؛ فإن أذِن أمير المؤمنين أخبرته به.

فاستَوى هشامٌ جالسًا ـ وكان مُتَّكئًا ـ ثم قال: هات يا ابن الأهتم! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن مَلِكًا من الملوك قبلَك خرج في عامٍ مثل عامك هذا إلى الخوَرْنَق والسَّدِير[٦] في عام قد بَكَر وَسْمِيُّه، وتتابَع وَلِيُّه، فهو في أحسنِ مَنْظر، وأحسن مُستمطر، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور، وكان قد أُعطِيَ فتَاء[٧] السنّ، مع الكثْرة والغلبة والقَهْر، فنَظَرَ فأبْعَدَ النظر؛ ثم قال لجلسائه: لمَن هذا؟ هل رأيتم مثلَ ما أنا فيه؟ وهل أحدٌ أُعْطِي مثلَ ما أعطيت؟

وكان عنده رجل من بقايا حَمَلة الحُجّة[٨]، والمضيّ على أدبِ الحقّ ومناهجه ـ ولم تخلُ الأرض من قائم لله بالحجة في عباده ـ فقال: أيّها الملك؛ إنّك سألت عن أمرٍ، أفتأذنُ لي في الجواب عنه؟ قال: نعم، قال: أرأيت[٩] هذا الذي أنتَ فيه أشيءٌ لم تَزَلْ فيه، أم شيءٌ صار إليك ميراثًا وهو زائلٌ عنك وصائرٌ

(١) مونق: معجب. (٢) الصعيد: التراب أو وجه الأرض.
(٣) الحبر: جمع الحبرة، وهي نوع منسوج من اليمن فيه نقط.
(٤) الدراعة: الثوب المشقوق من الأمام.
(٥) السماط: جمع سمط، وهو الصف من الناس وغيرهم.
(٦) الخورنق والسدير: قصران بالحيرة. (٧) الفتاء: الشباب.
(٨) الحجة: البرهان. (٩) أرأيت: أخبرني.

إلى غيرك، كما صار إليك من لَدُنْ غيرك؟ قال: كذلك هو! قال: فما أراك إلا أُعجبتَ بشيءٍ يسيرٍ تكونُ فيه قليلًا، ويغيبُ عنك طويلًا، وتكون غدًا بحسابه مُرتهَنًا. قال: ويحك! فأين المَهرَبُ؟ وأيْنَ المطلَبُ؟ فقال: إمّا أن تقيم في مُلْكِك فتعملَ بطاعة الله ربّك على ما ساءك وسرَّك، وأمضّك[١] وأرْمَضك[٢]، وإمّا أن تضعَ تاجَك، وتخلع أطْمارَك[٣]، وتلبَس أمسَاحك[٤]، وتعبد ربّك، حتى يأتيَك أجلُك!

قال الملك: فإذا كان السَّحَر فاقرَع عليَّ بابي؛ فإني مُختَارٌ أحَدَ الرأيين، فإن اخترتُ ما أنا فيه كنتَ وزيرًا لا يُعْصَى، وإن اخترتُ فَلَوَاتِ الأرض وقَفْرَ البلاد كنتَ رفيقًا لا يخالف.

فلما كان السحر قرع عليه بَابَه، فإذا هو قد وضع تاجَه، وخلع أَطْمَارَه، ولبس أمْساحه، وتهيأ للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما، فذلك حيث يقول عدي بن زيد، أخو بني تميم:

أيُّها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ـرِ أأنتَ المُبرَّأُ الموفُور!
أم لديكَ العهد الوثيق من الأيّـ ـامِ بل أنتَ جاهل مغرور!
مَن رأيتَ المنونَ خلدْنَ أمْ مَنْ ذا عليه من أن يُضَام خفير!
أين كسرى، كسرى الملوك أنو شِرْ وَان، أم أين قبله سابُورُ!
وبنو الأصفَر الكرامُ ملوك الرّ وم، ولم يبقَ منهمُ مَذكُورُ
وأخو الحضرِ[٥] إذا بناهُ وإذ دجـ ـلةُ تُجْبَى إليه والخابورُ[٦]
شاده مرمرًا وجلّله كِلْـ ـسًا[٧] فللطيْرِ في ذرَاه وكُورُ
لم يهبهُ رَيْبُ المنون فباد الْـ ـمُلك عنه، فبابُهُ مهجورُ
وتذكّرْ ربّ الخورنَقِ إذْ أشْـ ـرف يومًا وللهُدَى[٨] تفكيرُ

---

(١) يقال أمضني: أحرقني وشق عليّ. (٢) أرمضك: أوجعك.
(٣) الطمر: الثوب الخلق.
(٤) المسح: الكساء من الشعر الغليظ ويجمع على أمساح على قلة.
(٥) الحضر: قصر بجبال تكريت بين دجلة والفرات بناه الضيزن بن معاوية، ملك الجزيرة.
(٦) الخابور: نهر بالجزيرة. (٧) الكلس: ما يدهن به النزل وغيرها.
(٨) يريد بهذه الجملة: أن التفكير طريق الهدى.

سـرَّهُ مـالُه وكـثـرةُ مـا يـمـ ـلكُ والبحرُ مُعْرِضًا[١] والسديرُ
فـازعـوَى قـلبُه فقال: وما غِبْـ ـطَةُ حيٍّ إلى المماتِ يصيرُ!
ثـم بعد الفلاحِ والملك والإمّـ ـةِ[٢] وَرَاتْـهُـمُ هُناك القبورُ
ثـم صاروا كـأنـهـم ورقٌ جَـفَّ فـألوَتْ[٣] به الصبَّا والدَّبُورُ

فبكى هشام حتى اخضلَّتْ[٤] لحيته، وبُلَّتْ عمامته، وأمر بنَزْع أبنيته، ونقل قَرَابته وحَشَمِه وغاشيته وجلسائه، ولزِمَ قصره.

فأقبلت الموالي والحشم عليّ فقالوا: ما أردتَ بأمير المؤمنين! أفسدتَ عليه لذَّته، ونَغَّصْتَ عليه مَأْدُبته. فقلت: إليكم عني، فإني عاهدت الله عزّ وجلّ ألا أخلُوَ بملك إلا ذكّرته الله عزّ وجلّ!

إنَّ خَالِدًا أدلّ فأملّ[٥]

قال خالد بن صفوان: دخلتُ على هشام بن عبد الملك، وذلك بعد عزْله خالدَ بن عبدِ الله القسْريّ، فألفيتُه جالسًا على كرسيّ في بِرْكةٍ، ماؤها إلى الكعبين، فدعا لي بكُرْسيٍّ فجلستُ عليه، فقال: يا خالد؛ ربَّ خالدٍ جلسَ مجلسك، كان ألْوَط بقلبي، وأحبَّ إليّ!

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن حِلْمك لا يضيقُ عنه، فلو صفحتَ عن جُرْمه! فقال: إن خالدًا أدلّ فأملّ، وأوْجفَ فأجْحف، ولم يَدَع لراجع مَرْجعًا، ولا لعودةٍ موضعًا، ثم قال: ألا أخبرُك عنه يا ابنَ صفْوان؟ قلت: نعم، قال: إنه ما بَدَأني بسؤال حاجةٍ قطُّ مذ قَدِمَ العراق حتى أكونَ أنا الذي أبدؤه بها فقلت: فذاك أحْرَى أن تَرْجعَ إليه، فقال متمثّلًا:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تكَدْ إليـهِ بـوجـهٍ آخـرَ الـدّهْـرِ تـقْـبـلُ

قال خالد: ثم قال لي هشام: حاجتَك، فقلت: تزيدُني في عطائي عشرة دنانير. فأطرَق ثم قال: ولم؟ وفيم؟ ألعبادةٍ أحدثتَها فنعينَك عليها، أم لبلاء حسن أبليتَه عند أمير المؤمنين، أم لماذا يا ابن صفوان! إذن يكثُر السؤال ولا يحتملُ

---

(١) معرضًا: متسعًا.
(٢) الإمة: العمة.
(٣) ألوت: ذهبت.
(٤) أخضلت: ابتلت.
(٥) أمالي المرتضى: ٤ ـ ١٧٢.

ذلك بيتُ المال! فقلت: يا أمير المؤمنين، وفّقك اللهُ وسدّدك، أنت والله كما قال أخو خُزاعة:

إذا المال لم يوجبْ عليك عطاءَهُ ... قرابةُ قُربَى أو صديقٌ توافِقُه
مَنعتَ وبعضُ المنع حَزمٌ وقوّةٌ ... ولم يفتلتك[1] المالَ إلا حقائقُه

فلما قَدِمَ خالد البصرة، قيل له: ما الذي حملك على تزيين الإمساك له؟ فقال: أحببتُ أن يمنَع غيري فيكثرَ مَنْ يلومُه!

أبو النجم عِندَ هِشَام بنَ عَبد المَلك[2]

ورد أبو النّجم[3] على هشام بن عبد الملك في الشعراء، فقال لهم هشام: صفوا لي إبلًا فَقَطِّروها[4] وأوْرِدوها وأصْدِروها؛ حتى كأني أنظر إليها؛ فأنشدوه، وأنشده أبو النجم:

الحمدُ لله الوَهُوبِ المُجْزِلِ

حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال: «وهي على الأفْق كعين. . .» وأراد أن يقول: «الأحول»، ثم ذكر حَوْلَةَ هشام؛ فلم يتمَ البيت وأرْتج عليه.

فقال هشام: أَجِزِ البيت؛ فقال: «كعين الأحول» وأتمّ القصيدة، فأمر هشام فَوُجِىء[5] عنقه، وأُخرِج من الرُّصافة؛ وقال لصاحب شرطته: يا ربيع؛ إيّاك وأن أرى هذا! فكلّم وجوهُ الناس صاحب الشرطة أن يقرّه ففعل.

قال أبو النجم: ولم يكن أحدٌ بالرُّصافة يُضِيف إلا سُلَيم بن كَيْسان الكلبيّ وعَمْرو بن بِسْطام التّغلبيّ، فكنتُ إتي سُلَيمًا فأتغدّى عنده، وآتي عمرًا فأتعشّى عنده، وآتي المسجد فأبيت فيه.

قال: فاهتمّ هشام ليلةً، وأمسى لَقِسَ النفس، وأراد محدّثًا يحدّثه؛ فقال لخادم له: ابغِني محدّثًا أعرابيًا شاعرًا يروي الشعر.

---

(١) افتلت الشيء: أخذته في سرعة، ويتعدى إلى مفعولين.
(٢) الأغاني: ١٠ ـ ١٥٥ (طبعة دار الكتب)، رغبة الآمل: ٦ ـ ٢٣٩.
(٣) اسمه الفضل بن قدامة أحد رجال الإسلام الفحول المقدمين، وفي الطبقة الأولى منهم.
(٤) قطر الإبل: قرب بعضها من بعض على نسق.
(٥) وجيء: وجأه باليد وبالسكين إذا ضربه.

فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبي النَّجم، فضربه برجله، وقال له: قم أجب أمير المؤمنين. قال: إني رجل أعرابي غريب. قال: إيّاك أبغي، فهل تروي الشعر؟ قال: نعم، وأقوله.

فأقبل به حتى أدخله القصر، وأغلق الباب، فأيقن بالشر، ثم مضى به، فأدخله على هشام في بيت صغير، والشّمع بين يديه يَزْهَر(١).

فلما دخل قال له هشام: أبو النجم؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين طريدك! قال: اجلسْ، فسأله وقال له: أين كنت تأْوي؟ ومَن كان يُنزلك؟ فأخبره الخبر. قال: وكيف اجتمعا لك؟ قال: كنت أتغدّى عند هذا، وأتعشّى عند هذا. قال: وأين كنت تبيت؟ قال: في المسجد حيث وجدني رسولك. قال: وما لك من الولد والمال؟ قال: أمّا المال فلا مال لي، وأما الولد فلي ثلاث بنات وبُنَيّ يقال له: شَيْبان.

فقال: هل زوّجْت من بناتك أحدًا؟ قال: نعم؛ زوّجت اثنتين، وبقيت واحدة تَجْمِزُ(٢) في أبياتنا كأنها نعامة.

قال: وما وصيت به الأولى؟ فقال:

أوْصَيْتُ من بَرَّةَ(٣) قلبًا حُرَّا ... بالكَلْبِ خيرًا والحمَاةِ شَرَّا
لا تَسْأَمِي ضَرْبًا لها وَجَرَّا ... حتى ترى حُلْوَ الحياةِ مُرّا
وإن كَسَتْكِ ذَهَبًا ودُرَّا ... والحيّ عُمّيهم بشرّ طُرّا

فضحك هشام، وقال: فما قلت للأخرى؟ قال: قلت:

سُبّي الحماةَ وابهتِي(٤) عليها ... وإن دَنَتْ فازْدَلِفِي إليها
وأوجعي بالفِهْرِ(٥) ركبتيها ... ومِرْفقيْها واضرِبي جَنْبَيْها
وظاهري النُّذْرَ لها عليها ... لا تخبري الدّهرَ به ابنَتَيْها

قال: فضحك هشام حتى بدت نواجِذُه، وسقط على قَفَاه. فقال: ويحك! ما هذه وصية يعقوب ولدَه! فقال: وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين. قال: فما

(١) يزهر: يتلألأ.
(٢) تجمز: تعدو وتسرع.
(٣) كان اسمها برة.
(٤) بهته: قذفه بالباطل، وقال عليه ما لم يفعل.
(٥) الفهر: الحجر يملأ الكف.

قلت للثالثة؟ قال: قلت:

أوصيكِ يا بنتي فإني ذاهبُ أوصيكِ أن تَحْمَدَكِ القرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريمُ الساغِبُ لا يرجعُ المسكينُ وهو خائبُ
ولا تني أظفارُكِ السَّلَاهِبُ[1] منهنّ في وجه الحماة كاتبُ
والزّوجَ إن الزّوج بئس الصاحبُ

قال: فكيف قلت لها هذا ولم تتزوج؟ وأي شيء قلت في تأخير تزويجها!
قال: قلت فيها:

كأن ظَلّامَةَ أُخْتَ شَيْبَانْ يتيمةٌ ووالداها حَيَّانْ
الرأسُ قملٌ كلُّه وصِئْبَانْ[2] وليس في الرجلين إلا خَيطَانْ
فهي التي يُذْعَرُ منها الشّيطانْ

فقال هشام لحاجبه: ما فعلتِ الدنانيرُ المختومةُ التي أمرتُك بقبضها! قال: هي عندي، ووزنها خَمْسمائة! قال: فادفعها إلى أبي النجم؛ ليجعلها في رِجْلَيْ ظَلّامةَ مكان الخيطين!

لَا يعرَف الكلَام إلّا بنَشرِهِ[3]

قحطت البادية في أيام هشامِ بن عبد الملك، فقدمت العرب من أحياء القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم فدخلوا عليه، وفيهم دِرْوَاس بن حبيب وله أربع عشرة سنة، عليه شَمْلتان وله ذؤابه. فأحْجَم القومُ وهابوا هشامًا، ووقعت عينُ هشام على دِرْوَاس فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاء أحدٌ أنْ يَصِل إليَّ إلا وصل حتى الصبيان!

فعلم درواس أنه يريده، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن دخولي لم يُخِل بك شيئًا، ولقد شرَّفني، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه، وإن الكلامَ نَشْر، والسكوت طيّ، ولا يعرف الكلام إلا بنشره. فقال هشام: فانْشر لا أن لك!! وأعجبه كلامه.

(١) السلاهب: الطويلة.
(٢) الصئبان: جمع الصؤابة وهي: بسنة القمل؛ جمعه صئبان.
(٣) لباب الآداب: ٣٥٣.

فقال: أصابتنا ثلاث سنين، فَسَنَةٌ أذابت الشَّحم. وسنة أكلت اللحم، وسنة نَقَت[١] العظم، وفي أيديكم فضول أموال؛ إن كانت لله ففرّقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانتْ لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يُضيع أجرَ المحسنين. واعلم يا أمير المؤمنين أن الواليَ من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذرًا. وأمر أن يقسَّم في باديته مائة ألف درهم، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم. فقال: يا أمير المؤمنين؛ ارددها إلى أعطية أهل باديتي فإني أكره أن يعجِز ما أمر لهم به أميرُ المؤمنين عن كفايتهم. قال: فما لك من حاجة تذكرها لنفسك؟ قال: ما لي من حاجة دون عامة المسلمين!!

ولما عاد درواس إلى منزله بعثَ إليه هشام بمائةِ ألف درهم، ففرقها في تسعة أبطن من العرب، لكل بطن عشرة آلاف، وأخذ هو عشرة آلاف، فقال هشام: إن الصنيعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع[٢].

أنجحت وَفادتك وَوجبَتْ ضِيَافتك[٣]

وفد سعدُ بن مرة بن جُبَير ـ وكان شاعرًا ـ على الوليد بن يزيد، فعرض له في يوم من أيامِ الربيع، وقد خرج إلى متنزَّهٍ له، فصاح به: يا أمير المؤمنين؛ وَافِدُكَ وزائرك ومؤمِّلُك! فَتَبَادَرَ إليه الحرس ليصدّوه عنه، فقال: دعوه، ادْنُ إليّ. فدنا إليه، فقال: مَن أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أهل الحجازِ، شاعر، قال: تريد ماذا؟ قال: تسمع مني أربع أبيات، قال: هاتِ؛ فقال:

شِـمْـنَ[٤] الـمَـخَـايِـلَ نـحـوَ أرْضِـك بـالـحـيَـا[٥]
ولَقَـيـنَ ركـبـانًـا بـعُـرْفِـكَ قُـفَّـلَا

(١) النقي: مخ العظام وشحمها، ونقى العظم: استخرج نقيه.
(٢) جمع صنيعة، وهي المعروف والإحسان. (٣) الأغاني: ٧ ـ ٢٤ (طبعة دار الكتب).
(٤) شمت مخايل الشيء: إذا تطلعت نحوه ببصرك منتظرًا له.
(٥) الحيا: الخصب والمطر.

قال: ثم مَهْ؟ قال:

فعمَدْن نحوكَ لم يُنَخْنَ لِحَاجةٍ إلا وقوعَ الطير حتى ترْحلا

قال: إن هذا السيرَ حثيث، ثم ماذا؟ قال:

يعمِدْن نحو موطِّيءِ حجراتِه كرمًا، ولم تعدِل بذلك مَعْدِلَا

قال: قد وصلت إليه فمه؟ قال:

لاحت لها نيرانُ حَيّيْ قَسْطَلٍ فاختَرْنَ نَارك في المنازل منزلا

قال: فهل غيرُ هذا؟ قال: لا، قال: أنجحتْ وفادتُك، ووجَبَتْ ضيافتك، أعطوه أربعة آلاف دينار، فقبضها وَرَحَل!

شَاعر بَنِي هَاشِم(١)

لمّا قال الكُميت بن زيد الأسديّ الهاشميات قدم البصرة، فأتى الفرزدق، فقال: يا أبا فِراس؛ إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك! قال: ومَن أنتَ؟ فانتَسب له. فقال: صدقتَ، فما حاجتك؟ قال: نُفِثَ عَلَى لساني، فقلتُ شعرًا، وأحببتُ أن أعرضَ عليك ما قلتَ، فإن كان حسنًا أمرْتَنِي بإذاعته، وإن كان غيرَ ذلك أمرتني بسَتْره، وسترتَه عليّ. فقال: يا ابن أخي؛ أحسب شعرك على قَدْر عقلك، فهاتِ ما قلتَ راشدًا، فأنشده:

طربتُ ـ وما شوقًا إلى البيض أطرَبُ وما لعبًا منّي، وذو الشيب يَلْعَبُ!

قال: بلى؛ فإنك في أوان اللعب فالْعَبْ. فقال:

ولم يُلْهِنِي دار ولا رسمُ مَنْزِلٍ ولم يَتَطَرَّبْني بنانٌ مُخَضَّبُ

قال: فما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

وما أنا ممن يزجرُ الطَّيرَ هَمُّه أصاحَ غرابٌ أم تعرَّض ثعلبُ

قال: فما أنت؟ ويحك! وإلى مَن تَسْمُو؟ فقال:

ولا السانحاتُ(٢) البارحات عشيّةً أمرّ سليمُ القرنِ أو مَرَّ أعضَبُ

---

(١) خزانة الأدب: ٤ ـ ٢٣٧ (الطبعة الأميرية)، المسعودي: ٢ ـ ١٩٠.

(٢) السانح: ما ولاك ميامه، والبارح: ما ولاك مياسره، وكان أهل نجد يتيمنون بالأول ويتشاءمون بالثاني، وأهل العالية على العكس. والأعضب: الثور المكسور القرن، وكانوا يتشاءمون به.

قال: أمّا هذا فقد أحسنتَ فيه، فقال:

ولكن إلى أهلِ الفضائل والنُّهَى وخيرِ بني حوَّاء والخيرُ يُطْلب

قال: مَن هم! ويْحَك! قال:

إلى النَّفَرِ البيض[١] الذين بحبِّهم إلـى اللهِ فـيـمـا نـابـنـي أتـقـرّبُ

قال: أرخِني؛ ويحك! مَنْ هؤلاء؟ قال:

بني هاشمٍ رَهْطِ[٢] النبيّ فإنني بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضب

قال: لله درُّ بني أبيك! أصَبْتَ وأحسنت؛ إذْ عدلت عن الزعانف والأوباش؛ إذَن لا يَصْرَد[٣] سهمُك، ولا يكذب قولك.

ثم مرَّ فيها، فقال له: أظهر ثم أظهر؛ فأنت واللهِ أشعر مَنْ مضى، وأشعرُ مَن بقي.

فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين، فأذِنَ له لَيْلًا، وأنشده، فلمّا بلغ من الميمية قوله:

وقـتـيـلٌ بـالّطف[٤] غُـودِرَ منـهـم بـيــن غــوغــاءِ أمــةٍ وطَــغَــام

بكى أبو جعفر، ثم قال: يا كُميت! لو كان عندنا مالٌ لأعطيناك، ولكن لك ما قال رسول الله لحسَّان بن ثابت: لا زلت مُؤَيدًا بروح القدس ما ذَبَبْتَ عنا أهلَ البيت!

فخرج من عنده فأتَى عبدَ الله بن الحسن بن علي فأنشده فقال له: إن لي ضيعةً أُعطيتُ فيها أربعة آلاف دينار، وهذا كتابُها، وقد أشهدتُ لك بذلك شُهودًا، وناولَه إياه!

فقال: بأبي أنت وأمي! إنّي كنتُ أقولُ الشعر في غيركم أريد بذلك الدنيا والمال، ولكني ـ والله ـ ما قلتُه فيكم إلا للهِ، وما كنت لآخذَ على شيء جعلتُه لله مالًا ولا ثمنًا؛ فألحّ عبدُ الله عليه، وأبى من إعفائه.

---

(١) البيض هنا: المشهورين من الأشراف. (٢) الرهط: القوم والقبيلة.
(٣) صرد السهم: أخطأ.
(٤) الطف: موضع قرب الكوفة، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام.

فأخذ الكميت الكتاب ومضى، فمكث أيامًا، ثم جاء إلى عبد الله فقال: بأبي أنت وأُمّي؛ يا ابنَ رسول الله! إنّ لي حاجة؟ قال: وما هي، وكلّ حاجة لك مقضية؟ قال: كائنة ما كانت؟ قال: نعم! قال: هذا الكتاب تقبلُه، وترتجعُ الضَّيعة. ووضَع الكتابَ بين يديه، فقبله عبد الله.

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، فأخذ ثوْبًا، فدفعه إلى أربعة من غلمانه، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ويقول: يا بني هاشم، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صَمَت الناسُ عن فَضْلكم، وعرض دمه لبني أمية، فأثيبُوه بما قدرتم! فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دراهم ودنانير؛ وأُعْلِم النساءُ بذلك؛ فكانت المرأةُ تبعث ما أَمْكَنها، حتى إنها لتخلع الحُليّ عن جسدها. فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمتُه مائةَ ألف درهم.

فجاء بها إلى الكميت فقال له: أتيناك بجهد المُقِلّ، ونحن في دولة عدوِّنا، وقد جمعنَا هذا المال، وفيه حلي النساء كما ترى، فاسْتَعِنْ به على دهرك. فقال: بأبي أنت وأُمي! قد أكثرتُم وأطيبتم، وما أردت بمدحي إياكم إلا الله ورسولَه، ولم أكُ لآخذ لذلك ثمنًا من الدنيا، فارْدُده إلى أهله، فجهد به عبد الله أن يقبَله بكلّ حيلة فأبى، فقال: إن أبيتَ أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئًا يغضب منه بعض الناس؛ لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعضُ ما يجب.

فابتدأ الكميت، وقال قصيدته التي يذكُر فيها قومه مناقب من مضر، وربيعة وإياد وأنمار، ويكثر فيها من تفضيلهم، ويطنب في وصفهم، وأنهم أفضل من قحطان.

فثارت العصبية في البدو والحضر، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم.

إن يُمْنِي يَغلِب شؤمَك(١)

لما تُوفِّي السفاح دخل أبو دُلَامة على المنصور، والناسُ عنده يعزُّونه فقال:

أَمسيتَ بالأنبَارِ يا ابنَ محمّدٍ ... لم تستطع عن عُقْرِها تحويلا
ويلي عليك وويل أهلي كلِّهم ... وَيْلًا وعَوْلًا في الحياة طويلا

(١) الأغاني ١٠ ـ ٢٤٠ (طبعة دار الكتب)، معاهد التنصيص: ٢ ـ ٢١٠.

فَلتَبكِينَّ لك السماءُ بِعَبْرةٍ وَليَبْكِينَّ لك الرِّجَالُ عويلا
مات النَّدى إذ مِتَّ يا ابنَ محمدٍ فجعلتَه لك في التراب عديلا
إني سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم فوجدتُ أسمحَ مَن سألت بخيلا
ألشقْوَتي أُخِّرْتُ بعدَك لِلَّتي تَدَع العزيز من الرجال ذليلا؟
فلأحلفنّ يمينَ حقٍ برَّةً تالله ما أُعطِيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناسَ قولُهُ؛ فغضب المنصور غضبًا شديدًا، وقال: لئن سمعتُك تنشد هذه القصيدة، لأقطعنَّ لسانك، قال: يا أمير المؤمنين؛ إن أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لي مُكرِمًا وهو الذي جاء بي من البَدْو، كما جاء الله بإخوة يوسف إليه، فقل كما قال يوسف لأخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢].

فسُرِّي عن المنصور، وقال: قد أقلْناك يا أبا دُلامة، فسَلْ حاجتك! قال: يا أمير المؤمنين؛ قد كان أبو العباس أمرَ لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبًا، وهو مريض، ولم أقبضْها؛ فقال المنصور: ومَنْ يَعْلمُ ذلك؟ قال: هؤلاء ـ وأشار إلى جماعة ممَّن حضر.

فوثب سليمان بن مُجالد، وأبو الجَهْم؛ فقالا: صدق أبو دُلامة، نحن نعلم ذلك. قال المنصور لأبي أيوب الخازن ـ وهو مَغِيظ: يا سليمان، ادفعْها إليه، وسيِّره إلى هذا الطاغية ـ يعني: عبد الله بن علي، وكان قد خرج بالشام، وأظهرَ الخلاف ـ فوثب أبو دُلامة، وقال: يا أميرَ المؤمنين، أُعيذك بالله أن أخرجَ معهم، والله إني مشؤوم!

قال المنصور: امضِ، فإن يُمْني يغلبُ شؤمك. فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما أُحِبُّ أن يُجرّب ذلك مني على مثل هذا العسكر؛ فإني لا أدري أيُّهما يغلب: يُمْنُك أم شؤمي؟ إلا أني بنفسي أوثَق وأعرف وأطولُ تجربة.

فقال: دَعني وهذا؛ فما لك من الخروج بُدّ. قال: فإني أَصْدُقك الآن، شهدتُ والله تسعةَ عشر عسكرًا، كلُّها هُزِمَت، وكنتُ سببها، فإن شئتَ الآن ـ على بصيرة ـ أن يكونَ عسكرك تمام العشرين فافعَل.

فضحك المنصور، وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة.

قَتَلَهم الشِّــعْر(١)

كان أبو العباس جالسًا في مجلِسِه على سريره، وبنو هاشم دونه على الكراسي، وبنو أميّة على الوسائد، قد ثُنِيَتْ لهم - وكانوا في أيام دَوْلتهم يجلسون هم والخلفاءُ منهم على السرير، ويجلس بنو هاشم على الكراسيّ - فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين؛ بالباب رجلٌ حجازيٌّ أسود راكبٌ على نجيب، مُتلثّمٌ(٢)، يستأذن ولا يُخبِر باسمه، ويحلف ألّا يَحْسر اللثام عن وجهه حتى يرَاك؛ قال: هذا مولاي سُدَيف، يدخل؛ فدخل، فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أميّة حوله، حَدَر(٣) اللّثام عن وجهه ثم سلم، ودنا وقبّل يده، ثم انصرف إلى خلفه، فقام مقام مثله، وأنشأ يقول:

أصبح المُلكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبَهَالِيل(٤) من بني العبّاسِ
بالصُّدور المُقدّمِين قديمًا ... والرُّؤوس القماقِم(٥) الرُّوّاسِ(٦)
يا أمير المطَهّرين من الذّ ... مّ ويا رأس مُنْتَهَى كلّ راسِ
أنت مهديُّ هاشم وهُدَاها ... كم أناسٍ رَجوْك بعد إياسِ
لا تُقِيلَنّ عبدَ شمس عِثارًا ... واقْطَعَنْ كلّ رَقْلَةٍ(٧) وغِراس
أنزِلُوها بحيث أنزَلها الله ... بدار الهوان والإنعاسِ
خوفُهمْ أظهر التودُّدَ منهم ... وبهم منكمُ كحزِّ المواسي
أقْصِهِمْ أيها الخليفةُ واحسِمْ ... عنك بالسيف شأفَةَ(٨) الأرْجاس
واذكرنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ(٩) ... وقتيلٍ(١٠) بجانب المهْرَاسِ

(١) الأغاني: ٤ - ٣٤٥ (طبعة دار الكتب)، المحاسن والمساوىء: ٤١٠، (ليبزج).
(٢) تلثم الرجل: وضع اللثام؛ وهو رد العمامة على الوجه.
(٣) حدر اللثام: حطه من علو إلى سفل.
(٤) البهاليل: جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير.
(٥) القمقام: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل.
(٦) الرؤاس: الولاة والحكام.
(٧) الرقلة: النخلة الطويلة التي تفوت اليد. (٨) الأرجاس: جمع رجس؛ وهو القذر.
(٩) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قتل في أيام هشام بن عبد الملك.
(١٠) المهراس: ماء بأحد، ويعني بالقتيل حمزة بن عبد المطلب، قتله يوم أحد غلام لجبير بن مطعم؛ اسمه وحشي.

والإمام[١] الذي بحَرّام أمسى   رَهْنَ قبرٍ في غُربةٍ وتناسي
فلقد ساءني وسَاء سَوائي   قربُهم من نَمَارقٍ وكراسي

فتغيّر لون أبي العباس، وأخذه زَمَع[٢] ورِعدة؛ فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجلٍ منهم، وكان إلى جَنْبه، فقال: قتلنا والله العبد، ثم أقبل أبو العباس عليهم، فقال: أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذّذون في الدنيا، خذوهم؛ فأخذتهم الخُراسانية وضربوهم فأُهمِدوا؛ إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بداود بن علي، وقال له: إن أبي لم يكن كآبائهم، وقد علمتَ صَنيعَتَه إليكم؛ فأجاره واستوْهَبَهُ من السفاح، وقال له: قد علمتَ يا أميرَ المؤمنين صنيعَ إبيه إلينا. فوهبه له، وقال له: لا تريني وجهه، وليكن بحيث تأمَنُه، وكتب إلى عماله في النواحي بقَتْل بني أميه.

المنصور أحق بشِعْر طَريف[٣]

قال أبو بكر الهذليّ: سرتُ مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكةَ وسايرتُه يومًا، فعرضَ لنا رجل على ناقةٍ حمراء تذهبُ في الأرض، وعليه جُبّةُ خَزّ وعمامةٌ عَدَنية، وفي يده سوط يكادُ يمسُّ الأرض، سريّ الهيئة.

فلما رآه أمرني أن أدعوَهُ، فدعوتُه فجاء، فسأله عن نسبه وبلاده وباديةِ قومه وعن ولَاة الصدقة، فأحسنَ الجواب؛ فأعجبه ما رأى منه، فقال: أنشدني. فأنشده شعرًا لأوس بن حَجَر وغيره من الشعراء، وحدَّثه حتى أتى على شعر لطريف بن تميم العَنْبَريّ؛ وهو قوله:

إن قناتي لنَبْعٌ[٤] لا يؤيّسُهَا[٥]   غَمْزُ الثِّقاف[٦] ولا دُهْنٌ ولا نارُ
متى أُجِرْ خائفًا تأمَنْ مسارحُه[٧]   وإن أُخِفْ آمنًا تَقْلقْ به الدَّارُ
إنّ الأمورَ إذا أوردتَها صَدَرَتْ   إنّ الأمور لها وِرْدٌ وإصدار

---

(١) الإمام الذي بحران: هو إبراهيم الإمام، رأس الدولة العباسية؛ قتله مروان بن محمد صبرًا وحبسًا.
(٢) الزمع: شبه الرعدة تأخذ الإنسان.   (٣) الطبري: ٩ ـ ٢٩٨.
(٤) النبع: شجر من أشجار الجبال؛ تتخذ منه القسي.
(٥) التأييس: التذليل والتأثير؛ أي لا يؤثر فيها شيء.
(٦) الثقاف: ما تقوم به الرماح.
(٧) المسارح جمع مسرح: وهو الموضع الذي تسرح إليه الماشية بالغداة للرعي.

فقال: ويحك! ما كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر؟ قال: كان أثقلَ العرب على عدوِّه وطأةً، وأدركَهم بثأر، وأيمنَهم نقيبةً[١]، وأصلبَهم قناةً لمنْ رام هَضْمه، وأقراهم لضيفه وأحوطَهم من وراء جاره؛ اجتمعت العربُ بعكاظ فكلُّهم أقرّ له بهذه الخِلال، غير أنَّ امرأ أراد أن يقصِّر به فقال: والله ما أنت ببعيد النُّجْعة[٢] ولا قاصد الرَّمية[٣]؛ فدعاه ذلك إلى أن جعل على نفسه ألّا يأكل إلا لحم قَنَص يقْتَنصه، ولا ينزع كلَّ عام عن غزوة يبعد فيها أثره.

قال: يا أخا تميم، لقد أحْسَنْتَ إذ وصفت صاحبك، ولكني أحقُّ ببيتيه منه، أنا الذي وَصف، لا هو!

المحبَّة مُفتَاح كلّ خَير[٤]

دعا المنصور بالربيع[٥] فقال: سَلْنِي ما تريد! فقد سكتّ حتى نطقت، وخففت حتى ثَقُلْت، وأقللتَ حتى أكْثَرت!

فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما أرهبُ بُخلَك، ولا أسْتَصْغِرُ فضلَك، ولا أغتنم مالك، وإنّ يومي بفضلك عليّ أحسنُ من أمْسي، وغدَك في تأميلي أحسنُ من يومي! ولو جاز أن يَشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني لذلك أحد.

قال: صدقت علمي بهذا منك أحلَّك هذا المحل، فَسَلْني ما شئت!

قال: أسألك أن تقرِّبَ عبدك الفضل[٦]، وتؤثِره وتُحبَّه! قال: يا ربيع؛ إنّ الحبَّ ليس بمال يوهَب، ولا رُتْبةٍ تُبْذَل، وإنما تُؤكِّدُه الأسباب! قال: فاجْعَلْ له طريقًا إليه بالتفضُّل عليه!

قال: صدقتَ، وقد وصلتُه بألف درهم! ولم أَصِلْ بها أحدًا غير عُمومتي؛ لتعلمَ ماله عندي؛ فيكونَ منه ما يستدعي به محبتي.

---

(١) النقيبة: النفس؛ وميمون النقيبة: مبارك النفس.
(٢) النجعة: المذهب في طلب الكلأ. (٣) قصد الرمية: أصابها.
(٤) زهر الآداب: ٢ ـ ٢٩٩.
(٥) هو الربيع بن يونس، خدم المنصور، ثم تدرج في المناصب عنده إلى أن استوزره، وكان جليلًا نبيلًا عارفًا بخدمة الخلفاء، مات سنة ١٧٠ هـ.
(٦) هو ابنه الفضل بن الربيع، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة؛ ولابنه الأمين.

ثم قال: فكيف سألتَ له المحبة يا ربيع؟ قال: لأنها مِفتَاحُ كلِّ خير، ومِغْلَاقُ كل شر؛ تُسْتَرُ بها عندك عيوبُه، وتصير حسناتٍ ذنوبُه!

قال: صدقت.

المنصُور وَالشعَرَاء[(١)]

قال الربيع بن يونس يومًا لأبي جعفر المنصور: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ الشعراءَ ببابك، وهم كثير، وقد طالت أيّامُهم، ونفدَت نفقاتهم، فقال: اخرُجْ إليهم، وسلّم عليهم، وقل لهم: مَنْ مَدَحنا منكم؛ فلا يصف الأسد؛ فإنما هو كلْبٌ من الكلاب، ولا الحيّة؛ فإنما هي دُوَيْبَةٌ مُنْتِنَةٌ تأكل التّراب؛ ولا الجبل؛ فإنه حجر أصمّ، ولا البحرَ؛ فإنه عَطِنٌ لَجِبٌ[(٢)]؛ فمن ليس في شعره شيءٌ من هذا فليدخل، ومَنْ كان في شعره شيء منه فلْينصرف، فأبلغهم؛ فانصرفوا كلّهم إلا إبراهيم[(٣)] بن هَرْمَة، فقال: أنا له يا ربيع، فأدْخلني عليه.

فأدخله، فلما مَثَلَ بين يديه، قال له: يا ربيع؛ قد علمتُ أنه لا يجيبُك غيرُه، فأنشدَه قصيدته التي منها:

له لَحَظاتٌ عن حِفَافَيْ[(٤)] سَرِيرِه ... إذَا كرها[(٥)] فيها عُقَابٌ ونائلُ
فأمُّ الذي أمّنْتَ آمنةُ الرَّدى ... وأم الذي خوّفْتَ بالثُّكْل ثاكلُ

فقال له المنصور: أما لقد رأيتك في هذه الدار قائمًا بين يدي عبد الواحد بن سليمان تُنشده قولك فيه:

وجدنا غالبًا كانت جنَاحًا ... وكان أبوك قادمةَ الجنَاحِ

فقُطِع بابن هَرْمة حتى ما قدر على الاعتذار، فقال له المنصور: أنت رجل شاعر طالب خير، وكلّ ذلك يقول الشاعر، وقد أمر لك أمير المؤمنين بثلاثمائة دينار.

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٠٦، العقد الفريد: ١ ـ ١٦٥، ذيل زهر الآداب: ٨٤، الغرر: ١٨٥، الأغاني: ٦ ـ ١٠٩ (طبعة دار الكتب).

(٢) لجب: ذو لجب، وبحر ذو لجب: إذا سمع اضطراب أمواجه.

(٣) هو إبراهيم بن عليّ بن هرمة المنتسب إلى قريش؛ نشأ بالمدينة، وأخذ عن الرواة والمتقدمين والمتأدبين كثيرًا، وقال الشعر وأجاده. وتوفي سنة ١٥٠ هـ.

(٤) الحفافان: الجانبان. (٥) كرّها: أرجعها، والنائل: العطاء.

فقام إليه الحسن بن زيد فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ ابن هَرْمة رجلٌ منفَاق مِتْلاف لا يبقي شيئًا؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمر له بها، يُجرَى عليه منها ما يكفيه، ويكفي عياله، ويكتب بذلك فَعل.

فقال: افعلوا ذلك به.

المؤمّل يَمدح المهْدِي(١)

وفد المؤمَّل بن أَمِيل على المَهديّ بالرَّي فامتدحه، فأمر له بعشرين ألف درهم، فاتَّصل الخبر بالمنصور، فكتب إليه أن يعذُله ويقول: إنما كان سبيلُك أن تأمرَ للشاعر بعد أن يقوم ببابك سنة بأربعة آلاف درهم! وكتب إلى كاتب المهدي بإنفاذ الشاعر إليه. فسأل عنه. فقيل له: قد شَخَص إلى مدينة السلام.

فكتب إلى المنصور بِخبَره، فأنفذ المنصور قائدًا من قوّاده إلى النَّهْرَوَان يتصفَّح وجوه الناس رجلًا رجلًا ممّن يمرَ به حتى يظفر بالمؤمَّل.

وسار القائد حتى انتهى إلى القافلة التي فيها المؤمَّل، فسألَه مَن أنتَ؟ قال: أنا المؤمَّل بن أمِيل المحاربيّ الشاعر، أحدُ زوَّار الأمير المهدي، فقال: إيّاك طلبتُ.

قال المؤمَّل: فكاد قلبي يَنصدع خوفًا من أبي جعفر، وقبض عليّ؛ ثم أتى بي وأسْلَمني إلى الربيع، فأدخلني إلى أبي جعفر، فسلَّمتُ تَسْليمَ مُروَّع، فردَّ السلام، وقال: أتيتَ غلامًا غِرًّا كريمًا فخدعتَه، قال: يا أمير المؤمنين، إنما أتيتُ ملكًا جوادًا كريمًا فمدحته فحملتهُ أريحيَّتُه على أن وصلني وبرَّني؛ فكأنَّ ذلك أعجبه، فقال له: أنشدني ما قلتَ فيه، فأنشده:

هو المهديّ إلا أنَّ فيه ... مَشَابِهَ(٢) صورةِ القمرِ المنيرِ
تشابهَ ذا وذا فَهُمَا إذَا مَا ... أنارَا يُشْكِلَان على البَصِير
فهذا في الضّياء سراجُ عَدْلٍ ... وهذا في الظلام سراجُ نُورِ
ولكنْ فضَّل الرحمنُ هذا ... على ذا بالمنابرِ والسرير

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٠٧، مهذب الأغاني: ٤ ـ ١٣٥، أمالي الزجاجي: ٢٦، ذيل زهر الآداب: ٨٤، الغرر: ١٨٥، المحاسن والمساوىء: ٢٧٠، معجم الأدباء: ٩ ـ ٢٠٣.

(٢) مشابه: جمع شبه على غير قياس.

وبـالـمُـلْكِ الـعـزيـزِ فـذا أمـيـرٌ ... ومـاذا بـالأمـيـرِ ولا الـوَزيـرِ
ونَقْصُ الشهرِ يُخْمِدُ ذا، وهذا ... مُنِيرٌ عند نُقْصَان الشهور
فيا ابْنَ خليفة الله المُصَفّى ... به تَعْلُو مُفَاخَرَةُ الفَخُورِ
لئن فُتَّ الملوكَ وقد تَوَافَوْا ... إليك من السُّهولةِ والوعُور
لقد سبق الملوكَ أبوك حتّى ... تَرَاهُم بينَ كَابٍ أو حَسِيرِ
وجئتَ وراءه تجري حَثِيثًا ... وما بك حين تَجْرِي من فتُورِ
فقال الناس: ما هذان إلّا ... بمنزلة الْخَلِيقِ من الجَدير
فإن سبق الكبيرُ فأهلُ سَبْقٍ ... له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ ... فقد خُلِقَ الصغيرُ مع الكبيرِ

فقال: أحسنت! ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم، ثم قال له: أين المال؟ قال: هاهو ذا! قال: يا ربيعُ؛ أَعْطِهِ منه أربعة آلاف درهم، وخذ الباقي.

قال المؤمل: فأخذ مني ستة عشر ألفًا، فآليت على نفسي ألا أدخل العراق وللمنصور بها ولاية.

فلما صارت الخلافةُ إلى المهدي رفعتُ إليه رقعة ذكرت فيها قصَّتِي، فلمّا قرأها ضحك حتى استلقى، وقال: هذه مظلمة أنا بها عارف؛ ردُّوا عليه ماله، وزيدوا له عشرين ألفًا، فأخذتها وانصرفت.

مَدَائِح وَعَطَايا(١)

أَهْدِيَتْ جارية يمانية إلى أبي جعفر المنصور، فأنشدته شعرًا لمرْوان بن أبي حَفْصة يمدح به السريّ بن عبد الله، ويذكر فيه وراثة العباس، فسألها: لِمَن هذا الشعر؟ فأخبرته، فأمر بإحضار مروان، فوافاه بالرَّبَذَة حاجًا، فلقي الربيع بن يونس والمنصورُ عليل؛ العلّة التي مات فيها. فقال: كُنْ قريبًا حتى ندعوَ بك، فلم تزل العلّة تشتد به حتى مات قبل أن يصل إليه مروان، فقال له الربيع: إلحقْ بالمهدي ولا تتخلف عنه؛ وانصرفَ مَرْوَانُ إلى اليمامة، فجعلها طريقًا، وعليها بِشْرُ بن المنذر واليًا، فأوفده بشر فيمن أوفده، وأعطى كلَّ رجل ألفَ درهم، فقدم مروان

(١) المحاسن والمساوىء: ٢٤٠ (طبع ليزج)، الفرج بعد الشدة: ١ ـ ٧٣.

على المهدي؛ وقد مدحه بأربع قصائد. فأعطاه المهديّ ثلاثين ألف درهم، فانصرف إلى اليَمامَة.

ثم عاد بعد ذلك، فطلب الوصول بيعقوب بن دَاود، فأقام نحوًا من سنة، وغضب المهديّ على يعقوب بن داود.

قال مروان: بينا أنا واقف على باب المهدي إذ خرج خالد بن يزيد بن منصور فقال: يا ابن أبي حفصة؛ ذَكرك أمير المؤمنين آنِفًا؛ وهو يراك أشعرَ الناس، غير أَنه يقول: لا حاجةَ لنا فيما قِبَلك؛ فانصرف عن بابنا.

فانصرفتُ مغمومًا؛ ثم تذكّرتُ رجلًا أتحدّث عنده، وآنسُ لديه؛ فأتيت يزيدَ بن مَزْيَد، فشكوت إليه ما قال لي خالد بن يزيد. فقال: أدلُّك على رجل صدوقٍ، له رِقَّةٌ، لعله ينفعُك! قلت: ومَن هو؟ قال: الحسن الحاجب، فغدوت إلى الحسن، فشكوت إليه ما حكاه خالد مِنْ رأي أمير المؤمنين؛ فقال: بل ذلك من يعقوب بن داود. فقلت: بأَبي أنت وأُمي! أنت ترجو أن يكون ذلك مفتاحًا لما أنا فيه! قال: ذاك كما أقول لك، فانصرفتُ؛ وقلت:

أَتاني من المهديِّ قولٌ كأنما
به احتزَّ أنفي مُذمِنُ الضِّغْنِ جادعُ
وقلتُ - وقد خِفْتُ الّتي لا شَوَى لها[1]
بِلَا حَدَثٍ: إنّي إلى الله راجعُ
ومَا لِي إلى المهديِّ لو كنتُ مُذْنبًا
سوى حِلْمِهِ الصَّافِي من الناسِ شافعُ
ولا هو - عند السُّخْط منه ولا الرِّضا -
بغَيْر الذي يَرْضى بهِ الله صانعُ
عليه من التقوى رداءٌ يكنُّهُ
وللحقِّ نورٌ بينَ عينَيْهِ ساطعُ
يُغَضُّ لهُ طَرْفُ العيون وطَرْفُهُ
على غيرِهِ مِنْ خَشْيَةِ الله خاشعُ

(١) لا شوى لها: لا برء لها.

هـل الـبـابُ مُـفْـضٍ بـي إلـيـك ابـنَ هـاشـمٍ
فَـعُـذْرِيَ إن أفـضَـى بـيَ الـبـابُ نـاصـعُ
أتـيـتُ امْـرَأً أطْـلَـقْـتَـهُ مِـنْ وَثَـاقِـهِ
وقـد أُنْـشِـبَـتْ فـي أخْـدَعَـيْـهِ الـجـوامـعُ[1]
وَجَـلَّـى ضَـبَـابَ الْـعُـدمِ عـنـه وراشَـهُ
وأنْـهَـضَـهُ مَـعْـرُوفُـكَ الـمـتـتـابـعُ
فـقـلـت: وزيـرٌ نـاصـحٌ قـد تـتـابَـعَـتْ
عـلـيـه بـإنـعَـامِ الإمـامِ الـصـنـائـعُ
ومـا كـان لـي إلا إلـيـك ذريـعـةً
ومـا مَـلِـكٌ إلا إلـيـه الـذرائـعُ
وإن كـانَ مـطـويًّـا عـلى الـغَـدْرِ كَـشْـحُـهُ
فـلـم أدرِ مـنـه مـا تُـجِـنُّ الأضـالـعُ

وقلت في قصيدة أخرى:

سَيُحْشَرُ يعقوب بن داوُدَ خائبًا ... يَلُوحُ كتابٌ بينَ عَيْنَيْهِ كافِرُ
بَدا منكَ للمهديِّ كالصُّبْحِ ساطعًا ... من الغِشِّ ما كانتْ تُجِنُّ الضمائرُ
وهل لبياضِ الصُّبْحِ إنْ لَاحَ ضَوْءُهُ ... فَجاب الدُّجا من ظُلْمَةِ الليل ساترُ!
أَمَنزلةٌ فوق التي كنتَ نِلْتَهَا ... تعاطَيْتَ! لا أفلحت ممّا تُحَاذِرُ

ثم أتيت الحسنَ بعد يومين، فقال: ما صنعتَ؟ فأنشدتهما إيّاه، فقال: اكتبهما لي. فقلت: قد فعلت. فقال: هاتهما، فتناولهما، وقال: لست واضعهما من يدي حتى أضَعَهما في يد المهدي، ثم مضى.

وأتيتُه من الغدِ، فقال: ما وضعتُهما من يدي حتى وضعتُهما في يد المهدي! فقرأهما فرقَّ لك وأمر بإدخالك عليه؛ فاحضر يوم الاثنين.

فحضرت، فخرج عليّ؛ فقال: قد علم أميرُ المؤمنين بمكانك، وقد أحبَّ أن يجعلَ لك يومًا يشرّفُك فيه ويبلغ بك، قلت: فمتى؟ بأبي أنت وأمي! قال: يوم الخميس.

(١) الجوامع: جمع الجامعة: الغل.

فعدتُ إليه يوم الخميس، فإذا وجوهُ بني العباس يدخلون على المهديّ، فلما تَتَامَّ المجلس دعاني فدخلتُ فسلّمتُ فردَّ السلام، وقال: إنما حبَسك عن الدخول انقطاعك إلى يعقوب بن داود، فافتتحت النشيد بما قلت في يعقوب، فأنشدته، ثم أنشدته:

طرقَتْكَ[1] زائرةً فحيِّ خيالَها ... بيضاء تخلِطُ بالجمال دَلَالها
قادَتْ فؤادَكَ فاستقاد ومثلُها ... قاد القلوبَ إلى الصِّبا[2] فأمالَها

فأنصت الناس حتى بلغت إلى قولي:

هل تَطْمِسُون من السماءِ نُجُومَها ... بأكفّكم أو تستُرون هِلَالها!
أو تَجْحَدُون مَقَالةً عن ربِّكم ... جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالها
شَهِدَتْ من الأنفال آخر آية ... بتُراثِهم[3] فأردتُمُ إبطالها

فأعجِبَ بذلك، وقال: جزاك الله خيرًا! فقلت: اشهدوا، هذا والله الشرف، أمير المؤمنين يجزيني خيرًا، ثم أنشدته:

أعادَكَ من ذِكْرِ الأحِبَّةِ عائدُ

حتى صرت إلى قولي:

أيادي بني العباسِ بيضٌ سوابغ ... على كلِّ قوم باديات عوائِدُ
فهم يعدِلون السَّمْك من قُبَّةِ الهدَى ... كما يَعْدِلُ البيتَ الحرامَ القواعدُ
سَوَاعِدُ عِزِّ المسلمينَ، وإنما ... يَنُوءُ بِصَوْلاتِ الأكفِّ السواعِدُ
يَزِينُ بني ساقي الحجيج[4] خليفةٌ ... على وَجْهِه نورٌ من الحقِّ شاهِدُ
يكون غِرَارًا نومُه من حِذَارِهِ ... على قُبَّةِ الإسلامِ والخَلْقُ راقِدُ
كأنّ أميرَ المؤمنين محمدًا ... لرأفتِهِ بالنّاسِ لِلنّاسِ والِدُ
على أنّه مَنْ خالفَ الحقَّ منهمُ ... سَقَتْهُ يدُ الموتِ الحتوفَ الرَّواصِدُ

---

(١) طرق القوم: أتاهم ليلًا.
(٢) استفاد: انقاد، والصبا: الشوق.
(٣) التراث: ما يتركه الميت لورثته، ويعني بآخر آية من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].
(٤) يشير إلى سقاية الحاج، وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب، جد الخلفاء العباسيين.

فأشار إليّ، فأمسكتُ. فقال: يا بني العباس، هذا شاعركم المنقطعُ إليكم، المعادَى فيكم، فأعطوه ما يسرُّه. فقلت: ينبغي إذ سمعوا كلام أمير المؤمنين، وعرفوا رأيه أن يصلوني من أموالهم، فقال: أنا فارضٌ عليهم لك مالًا، ففرضَ على موسى ابنه خمسة آلاف درهم، وعلى هارون خمسة آلاف، ثم فرض على القوم على قدْرِ حالاتهم، حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم، والربيعُ يكتبُ كلّ ما فرُض على كل رجل منهم.

فقال واحد ممن حضر: يا أمير المؤمنين؛ إنما نحن من أهلك، فأدْخِلْنا فيما أدخَلْتَهُم فيه؛ فجعل عليه ألفًا، وعلى الربيع ألفين؛ فتمّت أربعين ألفًا.

فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ مَنْ لي بهذا المال؟ قال: هذا ـ وأشار إلى الربيع.

ثم قال: إن أمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله. فأمر لي بثلاثين ألف درهم في ثلاث بِدَر[1] فجيء بهنّ؛ فَطُرِحْن قريبًا، فدعوتُ وشكرتُ، فقال: يا ابن أبي حفصة؛ ستجيئك صِلاتي وبرّي، ويأتيك منّي ما يؤدّيك إلى الغنى.

قلت: يا أمير المؤمنين؛ قد رأيتُ من قبُولك وبشْرِك وسرورك مما سمعتَ مني ما سأزدادُ به شعرًا، وستسمعُ ويبلغك، وقلت: يا أمير المؤمنين؛ لا يبلغ ما أعطيتني لشاعرٍ بعدي، قال: أجل! قلت: وآذِنّي في زيارتك؛ قال: نعم.

قلت: يا أمير المؤمنين، لي عدوٌّ فيك، وفي أهل بيتك، فإن رأى أمير المؤمنين ألا يَجْعَلَ لأحدٍ عليّ سلطان دونه! قال: لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين، فقلت: اكتبْ إليّ بذلك كتابًا، فأَمر بالكتاب بذلك! فانصرفت.

فلما صرتُ خَلْفَ السِّتْرِ خرج إليّ خادم بمنديل فيه أربعة أثواب وشْي وثوب خَزّ[2] وجُبّة وقميص. فقال: ألبسوه وأعيدوه إليّ؛ فلبست الخزَّ والوَشْيَ على الثياب التي كانت عليّ، وألقيتُ القميصَ على أحدِ مَنْكِبيّ والجبّة على المَنْكِب الآخر. فقال لي: يا ابنَ أبي حَفْصة؛ أتدخلُ على أمير المؤمنين هكذا، وقد مَثَّلْتَ بنفسك! فقلت: والله لو كانت كرامةُ أمير المؤمنين أُحُدًا ما خلعت منها شيئًا أطيق حمْلَه.

---

(١) البدرة: كيس فيه عشرة آلاف. (٢) الخز: الحرير.

ثم دخلت فلما رآني تبسّم، ثم قال: مُطْرَف[1]، فأَبطؤوا به، فقال: المُطْرَف ـ وأنا قائم ـ، ثم قال الثالثة: المطْرَف. فلما أبطؤوا انصرفت، وقعدت خلف السّتر، فلم ألبث أن رُفع السّتْرُ، وخرج أميرُ المؤمنين على دابّةٍ فقمتُ إليه فلمّا رآني قال: المُطرَف، فما برح حتى أُتِيَ به؛ فَنُشِرَ عليّ بين يديه، وأمر لي بعشرة من خدم الروم، وجائزة سنية، وبِرْذَوْن[2] بسرْجه ولجامه.

فَصَاحَةُ نُصَيب[3]

وجّه المهدي نُصيبًا الشاعرَ مولاه إلى اليمن في شراء إبل مَهْرِيّة، ووجّه معه رجلان من الشّيعة، وكتب معه إلى عامل اليمن بعشرين ألف دينار، فمدَّ يده في الدنانيرِ ينفقها في الأكل والشرب، وشراء الجواري والتزويج، فكتب الشّيعيّ بخبره إلى المهدي، فكتب في حَمْله موثقًا في الحديد، فلما دخل على المهدي أنشده شعرًا، قال:

تــأوّبــنــي ثِــقْــلٌ مــن الــهــمِّ مُــوجِــع
فــأَرّق عــيــنــي؛ والــخَــلِــيُّــون هُــجّــعُ

هــمــوم تــوالــت لــو أطــاف يــســيــرُهــا
بــسَــلْمَــى لــظــلّت صُــمُّــهُ تَــتَــصَــدَّعُ

وعــادتْ بــلادُ الله ظــلــمــاءَ حِــنْــدِسًــا
فــخِــلْتُ دُجَــا ظــلــمــائــهــا لا تَــقَــشَّــعُ

إلــيــك أمــيــر الــمــؤمــنــيــن ولــم أجِــد
ســواك مُــجِــيــرًا مــنــك يُــدْنــي ويَــمْــنَــعُ

تــلمَّــســت: هــل مــن شــافــع لــي؟ فــلم أَجــد
ســوى رحــمــةٍ أعــطــاكــهــا الله تَــشْــفــعُ

لــئــن جــلّت الأجْــرام مــنــي وأفْــظَــعَــتْ
لــعَــفْــوُكَ عــن جــرمــي أجــلُّ وأوســعُ

(١) المطرف: ثوب في طرفيه علمان. (٢) البرذون: الدابة.
(٣) الأغاني: ٢٠ ـ ٢٦ (طبعة الساسي).

لـئـن لـم تَـسَـعْـنِـي يـا ابـنَ عـمّ مـحـمـدٍ
فـمـا عـجـزتْ عـنّـي وسـائـل أربَـعُ
طُـبـعْـتَ عـلـيـهـا صِـبْـغَـةً ثـم لـم تَـزَل
عـلى صـالـح الأخـلاق والـديـن تُـطْـبَـعُ
تَـغَـابِـيـك عـن ذي الـذنْـبِ تـرجـو صـلاحَـه
وأنـت تـرى مـا كـان يـأتـي ويَـصْـنَـعُ
وعـفْـوُك عـمـن لـو تـكـون جـزيـتَـه
لـطـارتْ بـه فـي الـجـوّ نـكـبـاءُ زَعـزَعُ
وأنـك لا تـنـفـكّ تَـنْـعَـشُ عـاثـرًا
ولـم تـعـتـرضـه حـيـن يـكـبـو ويَـخْـمَـعُ(١)
وحلمك عن ذي الجهل من بعد ما جرى
بـه عَـنَـقٌ(٢) مـن طـائـش الـجـهـل أشـنـعُ
وإنـيَ لَولاك الـذي إن جـفـوتَـهُ
أتـى مـسـتـكـيـنًـا راهـبًـا يـتـضـرّع
وإنـي لَمَـوْلاك الـضـعـيـف فـأغْـفِـنـي
فـإنـي لـعـفـوٍ مـنـك أهـلٌ ومـوضـعُ

ثم تشفّع له الهادي وأعْتَقَهُ، وأمضى المهديُّ ذلك له، وأمر بحديده ففُكّ عنه، وخلع عليه عدّةً من الخِلَع، ووصله بألفي دينار، وأمر له بجارية يقال لها جعفرة، جميلة فائقة، فقال له سالمٌ قَيِّم الرقيق: لا أدفعها إليك أو تعطيني ألف درهم، فعاد إلى المهدي وأنشده:

ما زلتَ تبذلُ لي الأموالَ مجتهدًا ... حتى لأصبحتُ ذَا أهل وذا مالِ
زَوّجْتَنِي يا ابنَ خير النّاس جاريةً ... ما كان أمثالها يُهْدَى لأمثالي
زَوْجتني بضّةً بيضاء ناعمةً ... كأنها دُرّةٌ في كفّ لآل(٣)
حتى توهمتُ أن الله عجّلها ... يا ابنَ الخلائِفِ ـ لي من خير أعمالي

(١) الخمع: الظلع.
(٢) العنق في الأصل: نوع من السير.
(٣) اللآل: بائع اللؤلؤ.

فَسَألني[١] سالم ألفًا فقلت له: أنى لِيَ الألفُ؛ يا قُبْحتَ من سَال!
هيهات ألفك إلّا أنْ أجيء بها من فضلِ مولًى لطيف المنِّ مِفْضال

فأمر له المهدي بألف دينار، ولسالم بألف درهم.

أتته الخِلَافَة[٢]

جلس المهديُّ للشعراء يومًا فأذِن لهم، وفيهم بشار وأشجعُ؛ وكان أشجعُ يأخذُ عن بشَّار ويُعظِّمه، وكان في القوم غيرَ هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشارٌ كلامَ أبي العتاهية قال: يا أخا سُليم؛ أهذا ذلك الكوفيّ الملقّب؟ قلت: نعم! قال: لا جزى الله خيرًا مَنْ جَمَعنا معه. ثم قال له المهديّ: أنشد، فقال: ويحك! أوَيُسْتَنشد أيضًا قَبْلنا! فقلتُ: قد ترى، فأنشد:

ألَا ما لسيِّدتي مالَها أدلّا فأحمِلَ إدلالَها!
وإلا ففيم تجنَّتْ وما جنيتُ سقَى الله أطْلالَها
ألا إن جاريةً للإمَا م قد أُسْكنَ الحسنُ سِربَالها
مشتْ بين حورٍ قصار الخطا تُجاذِبُ في المشي أكْفَالَها
وقد أتْعَبَ الله نفسي بها وأتْعبَ باللّوم عذّالها

قال أشجع: فقال لي بشار: ويحك يا أخا سُليم! ما أدري مِنْ أي أمْرَيْه أعجب: أمن ضعف شِعْره، أم من تشبيبه بجارية الخليفة، وهو يسمع ذلك بأذنه! حتى أتى على قوله:

أتتهُ الخلافةُ منقادةً إليه تجرِّرُ أذيالَها
فلم تكُ تصلحُ إلّا لَهُ ولم يكُ يصلحُ إلّا لها
ولو رَامَها أحد غيرُه لزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها
ولو لم تُطِعْه بنات[٣] القلوب لَمَا قَبِلَ الله أعمالَها
وإنَّ الخليفة من بُغْض «لا» إليه لَيُبْغِضُ مَنْ قالها

قال أشجع: فقال لي بشار، وقد اهتزّ طربًا: ويحك يا أخا سُلَيم! أترى الخليفة لم يطِر عن فراشِه طربًا لما يأتي به هذا الكُوفيّ.

---

(١) سالني: سألني.
(٢) الأغاني: ٤ ـ ٣٣ (طبعة دار الكتب).
(٣) يريد النبات.

صَرِيعُ الغَوَانِي(١)

خرج مُسْلِمُ بن الوليد ذات يوم، فلقي يزيد بن منصور الحِمْيريّ بباب الرّشيد، فسلم فردّ عليه السلام، ورحّب به، وسأله عن شأنه فخبّره، وسأله أن يقرّبَه من الخليفة، وأن يحتال حتى يُعَدَّ في مُمَازِحيه، ومَنْ يجري عليه أرْزاقَه! فقال له الحميريّ: سأتأتّى لوصولك إلى أمير المؤمنين.

فدخل الحميريّ، فأصاب أميرَ المؤمنين لقِسَ النفس(٢)، قد اشتمل عليه الفكرُ في سرعة تقضّي أمور الدنيا، وأنه لا يُتَشَبّثُ منها بشيء إلا كان كالظلّ الزائل، والسراب الخادع! فقال له جعفر بن يحيىٰ: يا أميرَ المؤمنين؛ أفتظنُّ أنّ هذا الفكر يحبسُ عليك الأيام، ويمنعك مما لا يستمتع به؛ إنما هذا الذي أنتَ فيه عارض عرض لك، وقد كان ملِك من الملوك حكيمًا يقول: الهمُّ مفْسَدة للنفس، ومَضلّةٌ للفهم، ومَشْدَهَة للقلب، ومن أعظمِ الخطأ التشاغلُ بما لا يمكن دفعُه.

وقال له سليمان بن أبي جعفر: يا أميرَ المؤمنين؛ قد قال لقمان الحكيم: مَن يملك يستأثر، ومَن لا يَسْتَشِرْ يندمْ، والهمُّ نصف الهرمِ، والفقرُ الموتُ الأكبر.

فكأن الرشيد نَشِط، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم إليه الحميريّ، وقال: يا أمير المؤمنين؛ خلّفتُ بالباب آنفًا رجلًا من أخوالك الأنصار، متقدمًا في شعره وأدبه وظَرْفه؛ أنشدني قصيدة يذكر فيها أُنسه ولَهْوه ولعبه ومحادثته إخوانَه، ويذكر مجالسَ اتصلت له بأبلغ قولٍ وأحسن وصف وأقرب رَصْف، يبعثُ والله على الصَّبَابة والفرح، ويباعد عن الهمّ والتَّرَح، وكأنه قد وفّق ـ بيُمن أمير المؤمنين، وسعادة جدّه ـ لأن يكون مُبْرِئًا من هذه الشكوى، زائدًا في سرور أمير المؤمنين، مستدعيًا له صِلةَ رَحِمه، والتشرُّف بخدمته.

فاستفزّه السرورُ والقلق إلى دخوله، واستماعِ قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم في أثر بعض، حتى دخل، وكان حُلوَ الشمائل، فوصل إليه في وقتٍ قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرَّته، ولم يكن في عداد مَن اضطرب سنًّا،

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٢٥٣ (طبع ليبزج). (٢) يقال: لقست نفسه من الشيء: انصرفت.

وكان ـ ناهيك من رجل! معه فهمٌ وتجربة وتمييز ومعرفة، فأُمْهِل حتى سكن، ثم أُذِن له في الجلوس، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التي يقول فيها:

أدِيرَا عَلَيَّ الكأسَ لا تَشْرَبا قَبْلي ... ولا تطلُبَا من عند قاتلتي ذَحْلي[1]
فما جَزَعِي أنّي أموتُ صبَابةً ... ولكنْ على مَنْ لا يَحِلُّ لها قَتْلِي
أُحِبُّ التي صَدَّتْ وقالت لِترْبِهَا: ... دَعِيهِ؛ الثُّرَيَّا منه أقربُ من وَصْلِي!
بلى رُبما وكَّلتُ عيني بنظرةٍ ... إليها تزيدُ القلبَ خَبْلًا على خَبْلِ
كتمتُ تباريحَ الصبابةِ عاذِلي ... فلم يدرِ ما بي، واسترحتُ من العَذْلِ
إذا ما عَلَتْ منا ذُؤَابةُ واحدٍ ... تمشّتْ به مَشْيَ المقيَّدِ في الوَحْلِ
فلا نحنُ مِتْنَا موتةَ الدهر بغتةً ... ولا هِيَ عادتْ بعدَ عَلّ ولا نهل
سأنقاد لِلّذاتِ متّبعَ الهوَى ... لأُمْضِيَ همًّا أو أُصِيبَ فتى مِثْلِي
هل العيشُ إلّا أن تَرُوحَ مع الصِّبَا ... وتَغْدُو صَريعَ الكأس والأعْيُنِ النُّجْلِ!

فجعل الرشيدُ يتطاول لها، ويستحسن ما حكاه من وصف شرابٍ ولهو وغَزَلٍ وسهولة ألفاظ؛ فأمر له بمال، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحوّل إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسمّاه يومئذ ـ بآخِر بيت من شعره: صريع الغواني!

الرّشيد وَابن منَاذر[2]

قال ابنُ مناذر: حج الرشيدُ بعد إيقاعه بالبرامكة، وحجّ معه الفضلُ بن الربيع، فهيّأتُ فيه قولًا أجذتُ تنميقَه، وتَتَوَّقْتُ فيه، فدخلتُ إليه في يوم التزوية، وإذا هو يسألُ عني ويطلبني؛ فبدَرني الفضلُ بن الربيع قبل أن أتكلم فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا شاعر البرامكة ومادحُهم ـ وكان البِشْر ظهر لي في وجهه لما دخلتُ ـ فتنكّرَ وعبس في وجهي، فقال الفضل: مُره يا أمير المؤمنين أن يُنشدك قولَه فيهم:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فقال: أنشدني، فأبيت، فتوعَّدني وأكرهني فأنشدته:

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ ... فياطيبَ أخبارٍ ويا حسنَ منظرِ!

---

(١) الذحل: الثأر.

(٢) الأغاني: ١٧ ـ ٢٥ (طبعة الساسي).

إذا وردوا بطْحَاءَ مكة أشرَقَتْ بيحيىٰ وبالفضل بن يحيىٰ وجعفر
فتُظلم بغداد ويجلو لنا الدُّجى بمكة - ما حجُّوا - ثلاثة أقْمُرِ
فما صلَحت إلا لجود أكفهم وأرجُلهم إلا لأعوَادِ منبرِ
إذا راض يحيىٰ الأمر ذلّتْ صعَابُه وحسبُك من راعٍ له ومدبّرِ
ترى الناس إجلالًا له وكأنهمْ غَرانيقُ[1] ماءٍ تحت بازٍ مصرصِرِ[2]

ثم أتبعتُ ذلك بأن قلت: كانوا أولياءَك يا أمير المؤمنين أيّام مدحتهم، وكانوا في طاعتك، لم يلحقهم سَخَطُك، ولم تحْلُلْ بهم نِقْمتك، ولم أكن في ذلك مبتدِعًا، ولا خَلا أحدٌ من نظرائي من مَدْحِهم، وكانوا قومًا قد أظلّني فضلهم، وأغناني رِفدُهم، فأثنيت بما أَوْلَوْا.

فقال: يا غلام؛ الطمْ وَجْهَهُ، فلُطِمت والله حتى سَدِرْتُ[3] وأظلم ما كان بيني وبين أهل المجلس. ثم قال: اسحبوه على وجهه، والله لأحرمنّك، ولا تركتُ أحدًا يعطيك شيئًا في هذا العام! فسُحِبتُ حتى أُخرجت.

وانصرفت وأنا أسوأُ الناس حالًا في نفسي وحالي، وما جرى عليّ؛ لا والله ما عندي ما يكفي عِيَالي لعيدهم، فإذا بشاب قد وقف عليّ؛ ثم قال: أعززْ عليَّ والله يا كبيرَنا بما جرى عليك، ودفع إليّ صُرَّة، وقال: تَبلَّغْ بما في هذه! فظننتها دراهم، فإذا هي ثلاثمائة دينار؛ فقلت: مَن أنت؟ جعلني الله فداك! قال: أنا أخوك أبو نواس، فاستعنْ بهذه الدنانير واعْذِرني، فقبلتها وقلت: وَصَلك الله يا أخي، وأحسن جزاءَك!

رَبِيعَة الرَّقي يَمدَح فَلا يُثَاب[4]

امتدح رَبيعةُ الرَّقي العباس بنَ محمد بن علي؛ بقصيدة لم يُسْبَق إليها، يقول فيها:

لو قيل للعباسِ: يا ابنَ محمدٍ؛ قل: «لا» وأنتَ مُخلَّدٌ ما قالها
ما إن أَعُدُّ من المكارم خَصْلَةً إلا وجدتُك عَمَّها أو خَالها

---

(١) الغرانيق: جمع غرنوق؛ وهو طائر أبيض من سبور الماء.
(٢) المصرصر: مَن يرجع الصوت. (٣) سدر بصره: أظلم ولم يبصر.
(٤) الأغاني: ١٥ - ٣٨ (طبعة الساسي)، نهاية الأرب: ٣ - ٢١٥، معجم الأدباء: ١١ - ١٣٤.

وإذا الـملوكُ تسايرتْ في بَلْدَةٍ كـانـوا كـواكبَـهـا وكـنـتَ هِـلالَـهَـا
إنّ الـمـكـارم لـم تَـزَلْ مَـعْـقـولـةً حـتى حَـلَلْتَ بـراحـتَيْـكَ عِـقـالَـهـا

فبعث إليه العباس بدينارين، وكان يقدّر فيه ألفين، فلما نظر إلى الدينارين كاد أن يُجَنَّ غضبًا، وقال للرسول: خذ الدينارين فَهُمَا لكَ على أن تردّ إليّ الرقعةَ من حيث لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر مَنْ كتب في ظهرها.

مدحتُكَ مِدْحَةَ السَّيْفِ المُحَلَّى لتجريَ في الكرام كما جَرَيتُ
فـهَـبْـهَـا مِـدْحَـةً ذَهَـبتْ ضَـيـاعًـا كـذبـتُ عـلـيـك فـيـهـا وافـتـريـتُ

ثـم دفعها إلى الرسول، وقال: ضَعْها في الموضع الذي أخذتَها منه، ففعل.

فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبياتَ، غَضِب، وقام من فَوْرِه، فركب إلى الرشيد - وكان أثيرًا[1] عنده يبجّله ويقدمه، وكان قد همّ أن يخطبَ إليه ابنته - فرأى الرشيد الكراهةَ في وجهه، فقال: ما شأنك؟ قال: هجاني ربيعةُ الرَّقي.

فأحضره الرشيد، وقال له: أتهجو عمي وآثرَ خلقِ الله عندي! لقد هممتُ أن أضربَ عنقك! فقال: يا أمير المؤمنين؛ والله لقد امتدحته بقصيدةٍ ما قال أحدٌ مثلَها من الشعراء في أحدٍ من الخلفاء، ولقد بالغتُ في الثناء، وأكثرتُ من الوصف؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ بإحضارها فعل.

فلا سمع الرشيد ذلك سَكَن غضبُه، وأحبَّ أن ينظر في القصيدة، فأمر العباس بإحضارها، فتلكّأ عليه، فقال له الرشيد: سألتُك بحق أمير المؤمنين إلا أمرتَ بإحضارها. فأُحضرت، فإذا فيها القصيدةُ بعينها؛ فاستحسنها واستجادها، وأُعجِب بها، وقال: والله ما قال أحدٌ من الشعراء في أحدٍ من الخلفاء مثلَها، ولقد صدق ربيعةُ فبرّ.

ثم قال للعباس: كم أثَبْتَهُ عليها؟ فسكتَ العباس، وتغيّر لونُه، وغُصَّ بريقه، فقال ربيعةُ: أثابني عليها بدينارين يا أمير المؤمنين! فتوهَّم الرشيد أنه قال ذلك من

(١) أثيرًا: مكرمًا.

المَوْجِدَة[١] عليه، فقال: بحياتي يا رَقى كم أثابك؟ فقال: وحياتِك يا أمير المؤمنين ما أثابني إلا بدينارين.

فغضب الرشيد غضبًا شديدًا، ونظر في وَجْه العباس، وقال: سوءة لك! أيّة حال قعدت بك عن إثابته؟ أقلة مال؟ فوالله لقد مَوّلتُك جهدي[٢]، أم انقطاع المادة عنك؟ فوالله ما انقطعت، أم أصلك؟ فهو الأصل الذي لا يُدانيه شيء، أم نفسُك؛ لا ذنبَ لي! بل نفسُك واللهِ فعلتْ بك ذلك حتى فضحْتَ أجدادك وفضحتَني وفضحْتَ نفسك، فنكسَ العباس رأسه، ولم ينطق.

فقال الرشيد: يا غلامُ؛ أعْطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم وخِلْعةً، واحمله على بغلة.

ثم قال له: بحياتي لا تذكره في شيء من شِعرك تَعْريضًا ولا تصريحًا، وفَتَر الرشيد عما كان قد عمّ به من أن يتزوج إليه، وأظهر له بعد ذلك جَفاءً واطّراحًا.

شَاعِرٌ بَيْن يَدَيّ الرشيد[٣]

قال أحمد بن سَعِيد الباهلي: كنْتُ عند الرشيد، فدخل عليه أَشْجَع السلمي وَمَنصور النمريّ، فأنشده أشجع:

قَـصْـرٌ عـلـيـه تـحـيّـة وسـلام ... ألـقَـتْ عـلـيـه جـمـالَهـا الأيـام
قصر سُقُوف المُزْنِ دون سقوفِه ... فـيـه لأعْـلَام الـهُـدَى أعـلامُ
فيه اجتلى الدنيا الخليفةُ والتقتْ ... لـلمـلك فـيـه سَـلَامَـةٌ وسـلامُ
نَشَرَتْ عليه الأرض كُسْوَتها التي ... نسج الرّبيع وزَخْرَفَ الإرْهَام[٤]
أذبـتـك مـن ظـل الـنـبـيّ وصـيّـةٌ ... وقَرَابَةٌ وشَجَتْ[٥] بـهـا الأرحام
برقتْ سماؤك في العدو وأمطرتْ ... هـامًـا لـهـا ظـل الـسـيـوف غـمـامُ
وإذا سيوفك صافَحَتْ هامَ العدَا ... طـارت لَهُنّ عـن الـرؤوس الـهـامُ
تـثـنـى عـلـى أيّـامـك الأيـام ... والـشـاهـدان: الـحـلُّ والإحـرامُ

(١) الموجدة: الغضب. (٢) موّله: أعطاه مالاً كثيرًا، والجهد: الطاقة.
(٣) أمالي المرتضى: ٤ ـ ١٧٨، الأغاني: ١٢ ـ ١٩، ١٧ ـ ٣٢ (طبعة الساسي).
(٤) الرهمة: المطر الضعيف الدائم، والجمع رهم (كعنب)، وأرهمت السماء: أتت بالرهم.
(٥) وشجت: علقت.

ولما بلغ قوله:

وعلى عدوِّك يا ابن عم محمدٍ رَصَدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ والإظلامُ
فـإذا تـنـبّـه رُعْـتَـه وإذا غَـفَـا سلَّتْ عليه سيوفَك الأحلامُ

فاستحسن ذلك الرشيد؛ وأومأتُ إلى أشْجَع أن يَقْطَعَ الشِّعر؛ إذْ علمتُ أنه لا يأتي بمثلها فلم يَفْعل. ولمّا أنشده ما بعْدَهما فتَر الرشيد وضرب بمِخْصَرَة[1] كانت بيده الأرض، واستنشد منصورًا النمريّ، فمَرّ واللهِ في قصيدةٍ قلّمَا تقولُ العربُ مثلَها، ومطْلعُها:

ما تنقضي حَسْرَةٌ مني ولا جَزَعُ إذا ذكرْتُ شبابًا ليس يُرْتَجَعُ
بَـانَ الـشـبـابُ وفـاتـتـني بـلذّتـه صـروفُ دهـرٍ وأيـام لـهـا خُـدَعُ

ولما بلغ إلى قوله:

ما كنتُ أُوفي شبابي كُنْهَ غِرّته حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ

قال الرشيد: أحسن والله! لا يتهنّى أحدٌ يعيش حتى يخطر في رداء الشباب.

ولما بلغ إلى قوله:

أيُّ امرىء بات من هارون في سخط فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ
إن الـمـكـارم والـمـعـروف أوديـةٌ أحـلّكَ الله مـنـهـا حـيـث تُـنْـتَـجَـعُ
إذا رفـعْـتَ امـرأ فـالله رافِـعُـهُ ومَـنْ وَضَـعْـتَ مِـنَ الأقْـوام مُـتَّـضـعُ
نـفـسي فـدَاؤك والأبـطـالُ مُـعْـلِـمَـةٌ يـوم الـوغـى والـمـنـايا بـيـنَـهُـمْ قُـرَعُ

رمى الرشيد بالْخِوان بين يديه، وصاح وقال: هذا والله أطيبُ من كل طعام؛ وأعطاه سبعة آلاف دينار.

قال أحمد بن سعيد: فلمّا خرجنا قلت لأسجع: غمزتُك أن تقطع فلم تفعل، ويلك! ولم تأت بشيء، فهلّا متّ بعد البيتين أو خرست، فكنت تكون أشعر الناس!

---

(١) المخصرة: ما يتوكأ عليه: كالعصا ونحوها، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب والخطيب إذا خطب.

بِبابك أنزلتُ حَاجتِي[(١)]

قصد أعرابيٌّ مالكَ بن طَوْق التغلبي صاحب الرَّحْبَة، وكان رثّ الهيئة، زَرِيَّ الحال، فَمنع من الدخول عليه مدة، إلى أنْ خرج مالك ذات يوم يريد النّزهة حول مدينته؛ فاعترض له الأعرابيّ، فردّه رجالُه ازدراءً به، فلم يَنثنِ؛ بل اقترب منه حتى أخذ بعِنان فرسه، ثم قال: أيها الأمير؛ أنا عائذ بك من شر حَرَسك! فنَهْنَهُم[(٢)] عنه، وقال له: ما حاجتُك؟ قال: أن تُصْغِيَ إلى كلامي بسمعك، وتنظر إليَّ بطَرْفك، وتُقْبِلَ عليّ بوجهك، ثم أنشد:

ببابك دون الناس أنْزَلْتُ حاجتي وأقبلتُ أَسْعَى نحوه وأطُوف
ويمنعني الحجَّابُ والليلُ مُسْبِل وأنت بعيدٌ والرجال صفُوف
يطوفون حولي عابسين كأنهم ذئابٌ جياعٌ بينهنّ خروف
فكيف وقد أبصرتُ وجهك مقبلًا ترُدّ امرأ وافاك وهو لهيف
وما لِيَ في الدنيا سواك وما لمن تركتُ ورائي مَربَع[(٣)] ومصيف
فجئتُك أبغَى الخيرَ منك فراعني ببابك من ضَرْبِ العبيد صنُوفُ
فلا تَجْعَلَنْ لي نحو بابك عودةً فقلبيَ من صُنْعَ القسَاة مخوف

فضحك مالك، ثم قال لحراسه: مَنْ يعطيه درهمًا بدرهمين؟ فما أتمّ كلمته حتى نُثرَت الدراهم على الأعرابي من كل جانب حتى تحيّر، واختلط لديه الحابلُ بالنابلِ؛ لكثرَةِ ما أُعطِي.

فعند ذلك التفت إليه مالك، وقال له: هل بقيتْ لك حاجة يا أخا العرب؟ قال: أمّا إليك فلا. فقال: وإلى مَن؟ قال: إلى الله أن يبقيَك للعرب؛ فإنهم لن يزالوا بخير ما بقيتَ لهم!

النكث في البَيع خَير مِن خِيَانةِ الشَريك[(٤)]

جلس مالك بن طوْق في قصره، في شُبَّاك مطل على رَحَبَتِه، ومعه جلساؤه؛ فأقبل أعْرابي تَخُبُّ[(٥)] به ناقته. فقال: إيايَ أراد، ونحوي قصد، ولعل منه أدبًا يُنتفع به. ثم أمر بإدْخَاله.

---

(١) غرر الخصائص: ١٦٨.
(٢) نهنههم: زجرهم وكفهم.
(٣) المربع: منزل القوم في الربيع خاصة.
(٤) ذيل زهر الآداب: ٢٨٢.
(٥) الخبب: نوع من السير.

فلما مَثَلَ بين يديه قال: ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: سَيْبُ[١] الأمير، ورجاءُ نائله؛ قال: هل قدّمتَ أمام رَغْبتك وسيلة؟ قال: نعم! أربعة أبيات قلتُها بظَهْر البرية، فلما رأيت ما بباب الأمير من الهَيْبَة والجلال استحقرتُها واستَصْغَرْتُها. قال: فهل ذلك أن تُنْشِدَنا أبياتَكَ على أن تجيزك عليها ألفَ درهم؛ فإن كنت ممن أحسَن رَبحنا، وإلا فقد نِلْتَ مُرادك، وربحتَ! قال: رضيتُ، وأنشده:

وما زلت أَخْشَى الدهرَ حتى تَعلَّقَتْ ... يداي بمن لا يَتَّقِي الدَّهر صاحبُهْ
فلما رآني الدهرُ تحت جناحه ... رأى مرتقى صعبًا مَنيعًا مطالبُهْ
رآني بحيث النجم في رأس باذخ[٢] ... تُظِلُّ الورى أكنافُه وجوانبُهْ
فتى كسماءِ الغيث والناسُ حولَه ... إذا قُحِطُوا[٣] جادت عليهم سحائبُهْ

فقال: والله ظَفِرْنا يا أعرابي، ورُزِقْنا الفَلج[٤] عليك، والله ما قيمتُها إلا عشرةُ آلاف درهم. قال: فإن لي صاحبًا شاركتُه فيها، وما أراه يرضى بَيْعي. قال: أتراك حدَّثَتْك نفسك بالنَّكْثِ[٥]؟ قال: نعم! وجدت النَّكث في البيع خيرًا من خيانة الشريك، فأمر له بعشرة آلاف دينار.

بَاتَت تعيِّرني الإقتَارَ والعَدمَا[٦]

قال الأصْمعي: لقيت أعرابيًا بالبادية فاسترشدتُه إلى مكان، فأرْشدني وأنْشدني:

لَيس العَمى طُولَ السؤال وإنّما
تَمام العمى طولُ السكوت على الجهل
فكُنْ سائلًا عمَّا عَناك فإنّما
خلقتَ أخا عَقْلٍ لتسأل بالعقل

ثم رجعتُ إلى البَصرة فمكثت بها حينًا؛ ثم قدمتُ البادية، فإذا بالأعرابي جالس بين ظَهْرَاني قوم، وهو يقضي بينهم، فما رأيتُ قضيّةً أخطأت قضيّةَ الصالِحين من أقضيته، ثم جلستُ إليه وقلت: يرحمك الله، أمَا من رِشْوة! أما من

(١) السيب: العطاء والمعروف.
(٢) باذخ: عال.
(٣) قحطوا: أصابهم القحط، وهو الجدب.
(٤) الفلج: الفوز والظفر.
(٥) ينقض العهد.
(٦) أمالي المرتضى: ٢ ـ ١٤٠.

هدية! أما من صِلَة! فقال: إذا جاء هذا ذهب التوفيق. فشكوتُ إليه ما ألقى من عَذْل حليلةٍ لي إياي في طلب المعيشة، فقال: لستَ فيها بأَوْحد، وإني لَشريكُك، ولقد قلت في ذلك شِعْرًا، قلت: أنشِدْنيه، فأنشدني:

باتتْ تُعيّرني الإقتار والعَدَمَا لمّا رأتْ لأخيها المال والخَدَمَا
عُنْفٌ لرأيكَ ما الأرزاق من جَلَدٍ ولا من العجزِ بل مَقْسومة قسمَا
يا أَمَةَ الله إني لم أدَعْ طلبًا للرزق - قد تعلمين - الشَّرْق والشأمَا
لو كان من جَلدٍ ذا المالُ أو أَدَبٍ لكنتُ أكثرَ من نَمْل القُرَى نَعَما
أرضَى من العيش ما لم تحوجي مَعَهُ أن تَفْتحي لسؤال الأغنياء فَمَا
واستشعري الصبْر علّ الله خالقَنا يومًا سيكشِفُ عَنَّا الضُّر والعَدمَا
لا تُحوجيني إلى ما لو بذلتُ له نَفْسِي لأعْقَبك التهمامَ والندما
بالله سَرَّك أن الله خَوَّلني مَا كَان خَوَّله الأعراب والعجما
ما سرَّني أنّني خُوِّلتُ ذاك وَلَا ألّا أقولَ لِبَاغِي حاجةٍ نَعَما
وأنّني لم أُفِدْ عَقْلًا ولا أدبًا ولا إرثْ والدي مَجْدًا ولا كَرَمَا
فَعُسْرة المرء أَحْرى في معاشِك مِنْ أمرٍ يجرُّ عليكِ الهمَّ والألَمَا

قال: فوالله ما أنشدْتُها زوجي حتى حَلَفتْ ألا تَعْذُلني أبدًا.

سَكَنت عَنِيَ والله الحُمَّى(١)

قال الأصمعي: نزلت ليلةً في وادي بني العَنْبَر؛ وهو إذْ ذاك غانٍ(٢) بأهله، فإذا فتيةٌ يريدون البصرة، فأحببت صُحبتَهم، وأقمتُ ليلتي تلك، وإني لَوَصِبٌ(٣) محمومٌ، أخاف ألّا أستَمْسك على راحِلتي، فلما أقاموا ليرحَلُوا أيقظوني، فلمّا رأوا حالي حملوني، وركبَ أحدهم ورائي يُمْسكني، فلما أمعنوا السير تَنَادَوْا: ألا فتى يَحْدُو بنا أو ينشدنا؟ فإذا منشدٌ في سواد اللّيل يُنشد بِصوْتٍ ندٍ حزين:

لعَمْرك إني يومَ بانوا فلم أَمُتْ خُفاتًا(٤) على آثارهِمْ لَصَبُور
غداة المُنقَّى(٥) إذ رميتُ بنظرةٍ ونحنُ على مَتْنِ الطريق نسيرُ

(١) أمالي المرتضى: ٢ - ١٤٢.
(٢) غان: آهل.
(٣) الوصب: المرض.
(٤) يقال: مات خفاتًا؛ أي فجأة.
(٥) المنقى: طريق للعرب إلى الشام؛ كان في الجاهلية يسكنه أهل تهامة.

فقلت لقلبي حينَ خفّ به الهوى ... وكاد من الوجد المُبرِّ[١] يطير:
فهذا ولمّا تمض للبين ليلةٌ ... فكيف إذا مَرّتْ عليك شُهُورُا!
وأصبحَ أعلامُ الأحبة دُونها ... من الأرضِ غَول[٢] نازحٌ ومسير
وأصبحت نجديّ الهوى مُتْهِمَ النَّوى ... أزيد اشتياقًا أنْ يَحِنَّ بعيرُ
عسى الله بعد النأي أن يُسعف النّوى ... ويُجْمَعَ شملٌ بعدها وسرُورُ

قال: فسكنت والله عنّي الحمّى ما أحِسّ بها؛ وقلت لرفيقي: انزل يرحمك الله إلى راحلَتِك فإني مُتمَاسك، وجزاك الله عن الصحبة خَيْرًا!

عَجُوز تُنشد الأصمَعيّ شعرًا[٣]

قال الأصمعي: إني لفي سوق، وقد نزلتُ على رجلٍ من بني كِلَاب، كان متزوّجًا بالبصرة؛ إذ أقبلت عجوز على ناقةٍ لها، حسنةُ البِزَّة، فيها باقي جمال، فأناخَتْ وعَقَلَتْ ناقتها، وأقبلتْ تتوكّأُ على مِحْجَن[٤] لَهَا، فجلست قريبًا منّا، وقالت: هل من مُنْشد؟ فقلت للكلابي: أيحضرك شيء؟ قال: لا، فأنشدتُها شعرًا لبشر بن عبد الرحمٰن الأنصاري:

وقصيرَةِ الأيام[٥] وَدَّ جَليسُها ... لو باع[٦] مجلسَها بفَقْدِ حَميم
من مُخْذِيات[٧] أخي الهوى غُصَص الجوى ... بدَلَال غانية ومُقْلة رِيم
صفراءُ من بَقَر الجوَاء[٨] كأنما ... خَفَرُ الحياء بها رُدَاعُ سقيم[٩]

---

(١) المبر: الشديد.
(٢) الغول: بعد الشقة.
(٣) أمالي المرتضى: ٢:١٣٨.
(٤) المحجن: العصا المعوجّة.
(٥) يريد: أن أيام جليسها تقصر، إذ أن أيام السرور موصوفة بالقصر.
(٦) باع: اشترى، وهو من الأضداد.
(٧) يقال: أحذيت الرجل؛ أعطيته.
(٨) الجواء: موضع.
(٩) الرداع: الوجع في الجسد، وكأنه أراد أنها منقبضة منكسرة من الحياء كما يتغير لون السقيم.

قال: فجثَتْ على ركبتيها، وأقبلتْ تَحرش[١] الأرضَ بمخجنها وأنشأتْ تقول:

قفي يا أميمَ القلبِ نقرأ تحيّةً ... ونَشْكُ الهوى ثم افعلي ما بدا لَكِ
فلو قلتِ: طَأْ في النار أعْلَمُ أنّهُ ... هَوًى لك أو مُدْنٍ لنا من نوالِكِ
لقدّمتُ رحلي نحوها فوطئتُها ... هُدًى مِنْكِ لي أو ضَلّةً من ضَلَالِك
سلي البانة العَلْيَاء بالأجرع الذي ... به البانُ هل حيَّيْتُ أطْلَالَ دارِك؟
وهل قمتُ في أطلالِهن عشيّةً ... مقام أخي البأسَاءِ واخترتُ ذَلكِ؟
ليهنتك إمساكي بكَفي على الحَشَى ... ورقراق عيني خشيةً من زِيالك[٢]

قال الأصمعي: فأظلمت عليّ والله الدنيا بحلاوة منطقها، وفصاحة لهجتها، فدنوتُ منها وقلت: أنشدتك الله لَما زدتني من هذا! فرأيت الضحك في عينها وأنشدت:

ومستخفياتٍ ليس يُخفين زُرْنَنا ... يسحَبْن أذيَال الصّبابة والشُّكْل[٣]
جَمَعْن الهوى حتى إذا مَا مَلَكْنهُ ... نزعْن وقد أكْثرنَ فينَا من القَتْل
مريضات رجع الطَّرف خُرْس عن الخنا ... بخَتْلِ ذوي الألباب بالجدّ والهَزْلِ
يعنِّفُني العُذّال فيهن، والهَوَى ... يحذرُني من أن أطيعَ ذوي العَذْلِ

الأصمَعيّ وَبَعض الأعرَاب[٤]

قال بعض الرواة: كنا مع أبي نصر راوية الأصمعي، في رياض من المذاكرة، نَجتَنِي ثمارها، ونَجْتَلِي أنوارها، إلى أن أفضنا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، فقال: رحم الله الأصمعي! إنه لمعدنُ حِكَم، وبحرُ علم، غيرَ أنه لم نرَ قط مثل أعرابي وقف بنا فسلّم، فقال: أيكم الأصمعي؟

(١) تحرش الأرض: تخدشها. (٢) الزيال: المفارقة.
(٣) الشكل (بالفتح والكسر): دل المرأة وغزلها. (٤) زهر الآداب: ٢ ـ ١٠٠.

فقال: أنا ذاك! فقال: أتأذنون بالجلوس؟ فأذنا له، وعجبنا من حُسن أدَبه، مع جفاء أدب الأعراب!

قال: يا أصْمعي؛ أنت الذي يزعمُ هؤلاء النفر أنك أثقبُهم معرفة بالشعر والعربية، وحكايات الأعراب! قال الأصمعي: منهم مَنْ هو أعلم مني، ومَنْ هو دوني!

قال: أفلا تنشدني من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسه على شعر أصحابنا! فأنشده شعرًا لرجل امتدح به مسلمةَ بن عبد الملك:

أمسلمَ أنت البحر إن جاء واردٌ ... وليثٌ إذا ما الحرب طار عُقابها[(١)]
وأنت كسيف الهندوانيّ[(٢)] إن غَدَتْ ... حوادثُ من حرب يعبُّ عُبابها
وما خُلقت أُكْرومة[(٣)] من امرىء له ... ولا غاية إلّا إليك مآبُها
كأنك ديّانٌ عليها مُوكَّلٌ ... بها، وعلى كفّيك يجري حِسَابُها
إليك رحلنا العِيسَ[(٤)] إذ لم نجد لها ... أخا ثقة يُرْجى لديه ثوابُها

فتبسَّم الأعرابي، وهزّ رأسه؛ فظننَّا أن ذلك لاستحسانه الشعر، ثم قال: يا أصمعي! هذا شعرٌ مُهَلْهلٌ، خَلَق النسج، خطؤه أكثرُ من صوابه، يغطي عيوبه حسنُ الرَّوِي ورواية المنشد! يشبهون الملك إذا امْتُدِح بالأسد، والأسد أمْخر شتيم[(٥)] المنظر، وربما طرده شِرْذِمَة من إمَائِنا، وتَلَاعَب به صِبْيَاننا! ويشبهونه بالبحر، والبحرُ صعبٌ على مَنْ رَكبه، مُرٌّ على مَنْ شربه! وبالسيف، وربما خان في الحقيقة، ونبا عن الضريبة! ألا أنْشَدْتني كما قال صبيٌّ من حيّنا!

قال الأصمعي: وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده:

الموت يكره أن يلقى منيّته ... في كرّه عند لفّ الخيلِ بالخيلِ
وراحم الشمسَ أبْقى الشمس كاسفة ... أو راحم الصمَّ ألجَاها إلى الميْلِ
أمْضَى من النجم إنْ نَابَتْهُ نائبةٌ ... وعند أعدائه أجْرَى من السيلِ

---

(١) طار عقابها: كناية عن اشتداد الحرب.
(٢) الهندواني: منسوب إلى رجال الهند.
(٣) الأكرومة: فعل الكرم.
(٤) العيس: الإبل يخالط بياضها شقرة.
(٥) شتيم: كريه.

لا يستريح إلى الدنيا وزينتها ... ولا تراه إليها صاحبَ الذيلِ
بقصر المجدُ عنه في مكارِمِه ... كما يقصّر عن أفعاله قولي!

قال أبو نصر: فأبهَتَنا والله ما سَمِعْنا من قوله.

ثم قال الأعرابي: ألا تنشدني شعرًا ترتاح إليه النفس، ويسكن إليه القلب؟ فنشده لابن الرِّقاع العاملي:

وناعمةٍ تجلو بعودِ أراكةٍ ... مؤشَّرَة(١) يَسْبي المُعانقَ طيبُها
أراكَ إلى نجدٍ تَحِنُّ وإنما ... مُنَى كلِّ نفسٍ حيثُ كان حبيبُها

فتبسم الأعرابي، وقال: يا أصمعي؛ ما هذا بدون الأول، ولا فوقه؛ ألا أنشدتني كما قلتُ؟ قال الأصمعي: وما قلتَ جُعِلْتُ فداك! فأنشده:

تعلّقتها بِكْرًا وعُلّقتُ حبها ... فقلبي عن كل الورى فارغٌ بكرُ
إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها ... وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِب البدر
وما الصبر عنها ـ إن صبرتَ ـ وجدته ... جميلًا، وهل في مثلها يَحْسُن الصبرُ!
ولو أن جلد الذر(٢) لامسَ جلدها ... لكان لِمَسِّ الذرّ في جلدها أثْرُ

فقال لنا الأصمعي: اكتبوا ما سمعتم، ولو بأطراف المُدى في رقاق الأكباد. وأقام عندنا شهرًا؛ فجمع له الأصمعي خمسمائة دينار! وكان يتعاهدُنا في الحين بعد الحين، حتى مات الأصمعي وتفرّق أصحابنا!

شِعْرٌ مُرتَجَل(٣)

جلس جعفر بن يحيىٰ بالصَّالِحِيَّة، يشرب على مُسْتَشْرَف له فجاءه أعرابي من بني هلال، فاشتكى واسْتَماح(٤) بكلام فصيح، ولفظٍ مثلُه يعطف المسؤول.

فقال له جعفر: أتقول الشعر يا هلاليّ؟ فقال: كنت أقوله وأنا حَدَثٌ أتملّحُ به، ثم تركته لمَّا صرتُ شيخًا، قال: فأنشِدْنا لشاعركُم حُميد بن ثور، فأنشده قوله:

لِمَن الديار بجانب الْخَمْسِ ... كمحطّ ذي الحاجاتِ والنّفس

---

(١) تأشير الأسنان: تحزيزها.
(٢) الذر: صغار النمل.
(٣) الأغاني ١٧ ـ ٢ (طبعة الساسي).
(٤) استماح: طلب العطاء.

حتى أتى على آخرها ـ وكان أشْجَع السُّلَميّ حاضرًا المجلس ـ فاندفع يُنشد مديحًا في جعفر، قاله لوقته على الوزن والقافية:

ذَهَبتْ مكارم جعفرٍ وفعَالُه ... في الناس مثلَ مذاهب الشمس
ملك تسوسُ له المعالي نفسه ... والعقل خير سياسة النَّفْسِ
فإذا تراءته الملوك تَرَاجَعُوا ... جهر الكلام بمنطق هَمْس
سَادَ البرامك جعفرٌ وهمُ الأُلى ... بعد الخلائف سادةُ الأنسِ

فقال له جعفر: صِفْ موضعنا، فقال:

قُصُور الصالحية كالعذارَى ... لبِسْنَ ثيابَهُنَّ ليوم عُرْسِ
مُطِلَّاتٌ على بَطْنٍ كستْهُ ... أيادي الماء وشْيًا نسج غَرْسِ
إذا مَا الطَّل أثَّرَ في ثراهُ ... تنفَّسَ نَوْرُه من غير نَفْسِ
فتغْبقُه[1] السماء بِصبْغِ وَرْسٍ ... وتَصْبَحُهُ بأكْؤُس عين شمس

فقال جعفر للأعرابيّ: كيف ترى صاحبنا يا هلالي؟ فقال: أرى خاطرَه طوع لسانه، وبيان الناس تحت بيانه، وقد جعلتُ له ما تَصِلُني به؛ فقال: بل نصلك يا أعرابيّ ونرضيه، وأمر للأعرابي بمائة دينار؛ ولأشجع بمائتين.

هوّنت عَلى العَزْل[2]

ولّى الرشيد جعفر بن يحيىٰ خُراسان، فدخل عليه الناسُ يُهنئونه، ثم دخل عليه الشعراءُ، فقام أشجع السلمى آخرهم، واسْتَأذن في الإنشاد، فأُذنَ له فأنشد:

أتصبرُ للبيْن أم تجزَعُ ... فإنّ الديارَ غدًا بلْقَعُ
غدًا يتفرّق أهلُ الهوى ... ويكثُر باكٍ ومُسْترجِعُ
وتَفنى الطلُول ويبْقَى الهوى ... ويَصْنَعُ ذو الشوق ما يَصْنَعُ

حتى انتهى إلى قوله:

ودَوِّيَةٍ[3] بين أقطارها ... مقاطيعُ أرضينَ لا تُقطعُ

(١) الغبوق: شراب العشي، والصبوح: شراب الصباح.
(٢) الأغاني: ١٧ ـ ٧ (طبعة الساسي). (٣) الدوية: الفلاة.

تجاوزتُها فوق رَيعَانَةٍ[(١)] من الريح في سيرِها أسرَعُ
إلى جعفرٍ نزعت رغبةٌ وأي فتى نحوَه تنزعُ!
فما دونه لامرِىءِ مطمَعٌ ولا لامرىء غيرِه مَقْنَعُ
ولا يرفعُ الناسُ مَنْ حطّه ولا يضعون الذي يرفَعُ
يريد الملوكُ مَدَى جعفرٍ ولا يصنَعُون كما يَصْنَعُ
تلوذُ الملُوك بأبوابِهِ إذا نالها الحَدَثُ الأفظَعُ
بديهتُه مثلُ تَدبيره متى رُمْتَه فهو مستجمعُ
وكم قائلٍ إذْ رأى ثروتي، وما في فضول الغِنَى أصْنَعُ
غَدا في ظِلَال نَدَى جعفرٍ يجرُّ ثيابَ الغِنى أشْجعُ
فقل لخراسانَ: تَحيَا فَقَدْ أتاها ابنُ يحيىٰ الفتى الأرْوَعُ[(٢)]

فأقبل عليه جعفَرٌ ضاحكًا، واستحسن شعرَه، وجعل يخاطِبُه مُخَاطبة الأخ أخاه، ثم أمَرَ له بألف دينار.

قال الراوي: ثم بدا للرَّشيد في ذلك التدبير، فعزل جعفرًا عن خُراسَان بعد أن أعطاه العهد والكتاب. وعقد له العقْد، وأَمَر ونَهى، فوجم لذلك جعفر، فدخل عليه أشجع وقال:

أمْسَتْ خُراسانُ تُعَزَّى بما أخطأها من جعفر المرتجى
كان الرشيدُ المعتلى أَمْرُه ولي عليه المُشرِقَ الأبلجا
ثم أراه رأيُه أنه أمْسَى إليه منهمُ أحوجا
فكَمْ بهِ الرحمَٰن من كُرْبةٍ في مدة تَقْصر قد فرجا

فضحك جعفر وقال: لقد هوَّنت على العَزل، وقمتَ لأمير المؤمنين بالعذْر؛ فسلْني ما شئت، فقال: قد كفاني جودُك ذِلة السؤال، فأمر له بألف دينار أخرى.

---

(١) الريعانة: الناقة الكثيرة اللبن.

(٢) الأروع: مَن يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته.

أَرَى الأيّام لَا تُدنِي الذي ارتَجى(١)

قال محمد بن أمية: كنت جالسًا بين يدي إبراهيم بن المهدي، فدخل إليه أبو العتاهية، وقد تَنَسّك ولَبِس الصوف، وترك قولَ الشعر إلا في الزهد. فرفعه إبراهيم، وسُرَّ به، وأقبل عليه بوجهه.

فقال له أبو العتاهية: أيها الأمير؛ بلغني خبرُ فَتًى في ناحِيتك ومن مواليك يُعرف بابْن أمية، يقول الشعر، وأنشدتُ له شعرًا فأعجبني، فما فعل! فضحك إبراهيم، ثم قال: لعلّهُ أقربُ الحاضرين مجلسًا منك.

فالتفت إليَّ فقال: أنت هو فَدَيْتُكَ؟ فقلت له: أنا محمد بن أمية جُعِلْتُ فداءك! وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبَثُ بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبَثُ الشاب. فقال لي: فَديتك؛ ذاك واللهِ زمانُ الشعر وإبّانُه، وما قيل فيه فهو غُرَرُه وعيونُه، وما زَال يُنشطني ويؤنِسُني حتى رأى أني قد أنِسْتُ به.

ثم قال لإبراهيم بن المهدي: إنْ رَأَى الأمير ـ أكرمَهُ الله ـ أن يأمرَه بإنْشَادي ما حضر من الشعر! فقال لي إبراهيم: بحياتي يا محمد أنشده، فأنشدته:

رُبَّ وعْـدٍ مـنـك لا أنـسـاه لِي ... أوجـبَ الـشـكـرَ وإن لـم تَـفْـعـلِ
أقـطـعُ الـدهـرَ بـظـنٍّ حـسـن ... وأُجَـلِّي غـمـرةً مـا تَـنْـجَـلِي
كـلـمـا أمَّـلتُ يـومًـا صـالـحًـا ... عَـرَضَ الـمـكـروهُ لـي فـي أمَـلِي
وأرى الأيّـامَ لا تُـدْنِـي الـذي ... أرْتَـجِـي مـنـك وتـدنـي أَجَـلِي

فبكى أبو العتاهية حتى جرت دموعه على لحيته، وجعل يردِّد البيت الأخيرَ منها وينتحب، وقام فخرج وهو يردِّده ويبكي، حتى خرج إلى الباب!

حَديثٌ عَن دِعْبِل(٢)

قال عمرو بن مَسْعَدة: حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون ـ وقد قال له: أيَّ شيء تَرْوِي لأخي خُزاعة؟ فقال: وأيّ خُزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال: ومَنْ تعرف فيهم شاعرًا؟ فقال: أمّا مِنْ أنفسهم؛ فأبو الشِّيص ودِعْبل وابن أبي الشِّيص، وداود ابن أبي رَزِين؛ وأمّا من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله.

---

(١) الأغاني: ١١ ـ ٣٠ (طبعة الساسي). (٢) الأغاني: ١٨ ـ ٤٤ (طبعة الساسي).

فقال: ومَنْ عسى في هؤلاء أن يُسأَل عن شعره سوى دعبل! هات؛ أي شيء عندك فيه؟ فقال: وأيّ شيء أقول في رجل لم يترك أهلَ بيته حتى هَجاهم، فَقَرَن إحسانَهم بالإساءة، وبذلَهم بالمنع، وجودَهم بالبخل، حتى جعل كل حسنةٍ منهم بإزاء سيئة! قال: حين يقول ماذا؟ قال: حين يقول في المطلب بن عبد الله بن مالك ـ وهو أصدقُ الناسِ له، وأقربُهم منه: وقد وفد إليه في مصر، فأعطاه الجزيل، وولّاه؛ ولم يمنعه ذلك أن قال فيه:

اضرِبْ نَدَى طَلْحَة الطَّلْحَات مُتَّئِدًا — بلؤم مُطَّلِبٍ فينا وكُنْ حَكما
تَخْرج خُزاعة من لؤم ومن كَرَم — فلا تحِسّ له لؤمًا ولا كرمَا

فقال المأمون: قاتله الله! ما أغْوَصَه وألطفه وأذهاه! وجعل يضحك.

ثم دخل عبدُ الله بن طاهر، فقال له: أيّ شيء تحفظ يا عبدَ الله لدِعبل؟ فقال: أحفظُ أبياتًا له في أهل بيت أمير المؤمنين، قال: هاتِها، ويحك! فأنشده عبد الله قولَه:

سَقْيًا وَرَعيًا لأيام الصبَّاباتِ — أيامَ أرْفُلُ في أثوابِ لذّاتي
أيام غُصْني رطِيبٌ من لَيَانَتِه — أَصْبو إلى غير جارات وكَنَّاتي(١)
دَعْ عنك ذكر زَمانٍ فَاتَ مطلبُه — واقذفْ برحْلِك عَنْ مَتن الجَهَالاتِ
واقْصِدْ بكل مديحٍ أنت قائلُه — نحو الهداة بنى بيت الكراماتِ

فقال المأمون: إنه قد وجد والله مقالًا فقال: ونال ببعيد ذكرهم ما لا ينالُه في وصف غيرهم.

ثم قال: لقد أحْسَنَ في وصف سفرٍ سافَرَه، فطال ذلك السفرُ عليه، فقال فيه:

ألم يَأْنِ(٢) للسَّفْرِ الذين تحمَّلوا — إلى وطن قبل المماتِ رجوعُ؟
فقلتُ ـ ولم أَمْلِكْ سوابِقَ عَبْرَةٍ: — نَطَقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضلوعُ(٣)
تَبَيَّنْ فكم دار تفرَّقَ شملُها — وشملٍ(٤) شتيتٍ عادَ وهو جميعُ

(١) الكنة: امرأة الابن أو الأخ. (٢) يأن: يقرب ويحضر. والسفر: المسافرون.
(٣) العبرة: الدمعة، وما ضمت عليه الضلوع: الحزن والشوق إلى الوطن والأهل.
(٤) الشمل: ما اجتمع من أمر أو ما تفرق منه، والشتيت: المتفرق، والجميع: المجتمع.

كذاكَ اللَّيَالي صَرْفُهنّ[1] كما ترى ... لكل إناس جَدْبةٌ وربيعُ[2]

ثم قال: ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهِجِّيراي ومسلِّيتي حتى أعودَ!

دِعْبِل عِندَ وَالي مصر[3]

قال دِعْبَل بن علي: حججتُ أنا وأخي رَزِين، وأخذنا كتبًا إلى المطَّلِب بن عبدِ الله بن مالك، وهو بمصر يتولّاها.

فصِرْنا من مكة إلى مصر، فصحبنا رجلٌ يعرف بأحمد بن السرّاح، فما زال يحدِّثُنا ويؤنسنا طولَ طريقنا، ويتولّى خِدْمَتنا، كما يتولّاها الرُّفقاء والأتباع، ورأيناه حَسَن الأدب ـ وكان شاعرًا ولم نعلم ـ وكتَمَنا نَفْسَهُ، وقد علم ما قصدنا له؛ فعرضنا عليه أن يقول في المطلب قصيدةً نَنْحَلُهُ إياها، فقال: إن شئتمْ، وأرانا بذلك سرورًا وتقبُّلًا له، فعملنا قصيدة، وقلنا له: تُنْشِدُها المطلب، وإنك تنتفع بها، قال: نعم.

وورَدْنا مِصْرَ به، فدخلنا إلى المطلب، وأوصلنا إليه كتبًا كانتْ معنا، وأنشدناه، فسُرَّ بموضعنا ووصفنا له أحمد بن السرّاج هذا، وذكرنا له أمره، فأذن له، فدخل عليه، ونحن نظنُّ أنه سيُنْشِدُه القصيدة التي نحلْناه إياها، فلما مَثَل بين يديه عَدَل عنها وأنشده:

لم آت مُطَّلِبًا إلّا بمطَّلب ... وهمةٍ بلغت بي غايةَ الرتب
أفردتُه برجاءٍ أن تشاركه ... فيَّ الوسائل أو ألقاه في الكتب
رحّلتُ عيسى إلى البيت الحرام على ... ما كان من وَصَبٍ فيها ومن نَصَبَ
ألقى بها وبوجهي كلَّ هاجرة[4] ... تكاد تَقْدَحُ بين الجلد والعَصَب
حتى إذا ما قضت نسكي ثنيتُ لها ... عَطْفَ[5] الزِّمام فأمّت سيدَ العرب
فأمَّمَتْكَ[6] وقد ذابتْ مفاصلُها ... من طول ما تعبٍ لاقت ومن نقَبِ[7]

---

(١) صرف الليالي: أحداثها.
(٢) جدبة وربيع: حالتا خير وشر.
(٣) الأغاني: ١٨ ـ ٤٧ (طبعة الساسي).
(٤) الهاجرة: إنما تكون في القيظ نصف النهار.
(٥) عطف الشيء: جانبه.
(٦) يقال: أمه وأممه يعني قصده.
(٧) نقب البعير: إذا حفى.

فصاح مُطّلب: لبيك لبيك! ثم قام إليه، فأخذه بيده وأجلسه معه، وقال: يا غلام؛ البِدَر[١] فأُحضرَت، ثم قال: الخلَع، فنشرتْ، ثم قال: الدوابّ، فقِيدَتْ، فأمر له من ذلك بما ملأ عينَه وأعيننا وصدورنا، وحسدناه عليه؛ وكان حسدُنا له بما اتَّفقَ له من القَبُول وجودة الشعر، وغيظُنا بكتمه إيانا نفسه واحتيالِه علينا أكثر وأعظم، فخرج بما أمر له، وخرجنا صِفْرًا.

قال الراوي: ومكث دعبل أيامًا، ثم ولّاه المطلب أسْوان، ولكن دعبلًا كان قد هجاه غيظًا منه فقال:

أمطَّلبٌ أنت مستعذبٌ ... حُمَيَّا[٢] الأفاعي ومستقتلُ
ستأتيك إمّا وَرَدْتَ العراق ... صحائفُ يأثِرُها دِعبِلُ
مُنَمَّقَةٌ بين أثنائها ... مخازٍ تُخَطُّ فلا ترحَلُ
وضعْتَ رجالًا فما ضرَّهُمْ ... وشرَّفتَ قومًا فلم ينبُلوا[٣]
إذا الحربُ كنْتَ أميرًا لها ... فحظّهمُ منك أن يُقْتَلُوا
شِعَارُك في الحرب يوم الوَغَى ... إذا انْهَزَمُوا: عجِّلوا عجِّلوا!
هزائِمُكَ الغُرُّ مشهورة ... يُقَرْطِسُ[٤] فيهنَّ مَنْ يَنْضِلُ
فأنْتَ إذا ما التقوا آخرٌ ... وأنت إذا انهزموا أولُ[٥]

وبلغ المطلبَ هجاؤه إياه بعد أن ولّاه؛ فعزله عن أسوان، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له، وقال: انتظره حتى يصعد المِنْبر يوم الجمعة، فإذا علاه فأَوْصل الكتابَ إليه، وامنعه من الخطبة وأنزِله عن المنبر، واصعد مكانه؛ فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب، فقال له دِعْبِل: دعني أخطب فإذا نزلتُ

(١) البدر: جمع بدرة (بفتح الباء) وهي عشرة آلاف.
(٢) الحميا من كل شيء: شدته.
(٣) روى هذا البيت:
وعاديت قومًا فما ضرهم ... وقدمت قومًا فلم ينبلوا
(٤) قرطس: أصاب القرطاس، أي الغرض.
(٥) قال دعبل: قال لي المطلب: ما تفكرت في قولك قط:
إن كاثرونا جئنا بأسرته ... أو واحدونا جئنا بمطلب
إلا كنت أحب إلي، ولا تفكرت والله في قولك لي:
وعاديت قومًا فما ضرهم ... وقدمت قومًا فلم ينبلوا
إلا كنت أبغض الناس إليّ.

قرأتُه، قال: لا، قد أمرني أن أمنعَكَ الخطبة حتى تقرأه. فقرأه، وأنزله عن المنبر معزولًا.

دَعْبِل وَعَليّ الرّضَا[1]

قال دِعْبِل بن علي: دخلتُ على عليّ بن موسى الرضا ـ عليه السلام فقال لي: أَنشِدْني شيئًا ممّا أحدثتَ، فأنشدته:

مـدارسُ آيـاتٍ خـلَتْ مـن تـلاوَةٍ ... ومـنـزل وَحْـيٍ مُـقْـفِـرِ الـعَـرَصَـاتِ
لآل رسول الله بالخَيْفِ من منًى ... وبالرُّكْنِ والتَّعْريف والجَمَرَاتِ
ديـارُ عـليٍّ والـحسـيـنِ وجـعـفـرٍ ... وحـمـزة والـسجّـاد ذي الـثّـفِـنَـات

حتى انتهيتُ إلى قولي:

بنفسيَ أنتمْ من كهولٍ وفتيةٍ ... لـفـكِّ عُـنَـاةٍ أو لـحَـمْـلِ دِيَـاتِ
أحبّ قصيّ الرّحم من أجل حبّكم ... وأهـجرُ فـيكـم أُسْـرَتـي وبـنـاتي
وأكـتُـمُ حُـبِّـيـكـمْ مـخـافـةَ كـاشـحٍ ... عـنـيدٍ لأهـل الـحقّ غـيْـرِ مُـؤَاتِ
لقدْ حَفَتِ الأيّامُ حولي بشرِّها ... وإنـي لأرجـو الأمْـنَ بعد وفـاتي
أَلَمْ تَـرَ أنّـي مـن ثـلاثـيـن حِـجّـةً ... أروحُ وأغـدو دائـم الـحـسـراتِ
أرى فيئَهُمْ في غيرِهم متقسّما ... وأيـديـهـمُ مـن فَـيْـئِـهـمْ صَـفِـراتِ
فآلُ رسول الله نحفٌ جسومُهمْ ... وآل زيـاد حُـفَّـلُ الـقَـصَـرَاتِ[2]
إذا وُتروا[3] مَدُّوا إلى أهل وِتْرِهِمْ ... أكـفًّـا عـن الأوتـار مـنـقـبـضـاتِ

فبكى حتى أغمي عليه، وأومأ إليّ خادم كان على رأسه: أن اسكت، فسكتُّ ساعة. ثم قال لي: أعِدْ، فأعدتُ حتى انتهيتُ إلى آخرها، فقال لي: أحسنتَ، ثلاث مرات، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم مما ضُرِب باسمه، ولم تكن وقعتْ لأحدٍ بعد، وأمر لي مَنْ في منزله بحلّي كثير أخرجه الخادمُ إليّ.

---

(١) الأغاني: ١٨ ـ ٤٢ (طبعة الساسي)، معجم الأدباء ١١، ١٠٨.
(٢) القصرات: جمع قصرة (بالتحريك) وهي أصل العنق، وحفل: ممتلئة، والمعنى أن أعناقهم مملوءة غلظة من طول النعيم.
(٣) الوتر: الثأر، أو الظلم فيه، والمقصود: أنهم إذا اعتدى عليهم لا يستطيعون رد الاعتداء.

فقدِمتُ العراق، فبعتُ كلّ درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها منّي الشيعة، فحصل لي مائة ألف درهم، فكان أول مالٍ اعتقدته[١].

قال حُذيفة بن محمد: ثم استوهب دِعْبل من الرضا ثوبًا قد لبسه ليجعلَه في أكفانه، فخلع جُبَّةً كانت عليه، فأعطاها إياها، وبلغ أهلَ قُمّ خبرُها، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم فلم يفعل، فخرجوا عليه في طريقه، فأخذوها منه غصْبًا، وقالوا له: إن شئتَ أن تأخذ المال فافعل، وإلا فأنت أعلم، فقال لهم: إني والله لا أعطيكم إياها طوعًا، ولا تنفعكم غصبًا، وأشكوكم إلى الرضا؛ فصالحوه على أن أعطَوْه ثلاثين ألف درهم، وفَرْدَ كُمٍّ من بِطانتها، فرضي بذلك!

سَجَدُوا لشِعْرِهِ[٢]

حدّث دِعْبِل الشاعر: أنه اجتمع هو ومُسْلِم وأبو الشِّيص وأبو نُواس في مجلس، فقال لهم أبو نواس: إن مجلسَنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده، فليأتِ كلٌّ واحدٍ منكم بأحسنِ ما قال فليُنْشِده، فأنشد أبو الشِّيص:

وَقَف الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي ... متأخَّر عنه ولا متقدَّمُ
أجد المَلامَةَ في هواكِ لذيذة ... حبًّا لذكرك فليَلُمْنِي اللُّوَّم
وأهنتِنِي فأهنتُ نفسي صاغرًا ... ما مَنْ يهون عليك ممن يُكْرَمُ!
أشبهت أعدائي فصرتُ أُحبُّهمْ ... إذا كان حظِّي منك حظِّيَ منهمُ

فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه، ثم أنشد مسلم أبياتًا من شعره الذي يقول فيه:

فأقْسَمْتُ أنْسَى الداعيات إلى الصبا ... وقد فاجأتها العينُ والستر واقِع
فغطَّت بأيديها ثمارَ نحورها ... كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

قال دِعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا علي، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة فأنشدته:

أينَ الشبابُ؟ وأيّةً سلَكا؟ ... أم أين يطلب؟ ضلّ بَلْ هلكا

(١) اعتقدته: اقتنيته.
(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٢، مهذب الأغاني: ٧ ـ ٢٢٤، ديوان مسلم: ٢٠٩ (طبعة أوربا).

لا تَعْجَبي يا سَلْمُ من رجلٍ ضحِكَ المشيبُ برأسه فبكى
يا ليت شعري كيف صَبْرُكما يا صاحبيْ إذا دَمِي سُفِكا!
لا تطلبا بظُلامتي[1] أحدًا قلبي وطَرْفي في دمي اشتركا

ثم سألنا أبا نواس أن يُنْشد، فأنشد:

لا تَبْكِ هندًا ولا تطرب إلى دَعْدِ
واشرب على الوِرْد[2] من حمراء كالوَرْدِ
كأسًا إذا انحدرتْ في كفّ شاربها
أخذت بحمرتها في العينِ والخدِّ
فالخمر ياقوتةٌ، والكأسُ لؤلؤةٌ
في كفّ جاريةٍ ممشوقةِ القدِّ
تَسقيك من عينها خمرًا ومن يدها
خمرًا، فما لك من سُكْرَيْنِ من بُدِّ
لي نشوتان وللنُّدمان واحدةٌ
شيء خصصت به من بينهم وَحْدي

فقاموا كلهم، فسجدوا! فقال: أفعلتموها أعجمية؟ لا كلمتكم ثلاثًا.

إنّما الدّنيا أبو دُلَف[3]

قال المأمون يومًا لبعض جلسائه: أُقسم على مَنْ حَضَرَ مِمَّن يحفظُ قصيدة عليّ بن جَبَلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلّا أنشدها؛ فقال بعضُ الجلساء: قد أقسم أميرُ المؤمنين، ولا بدّ من إبْرار قَسمه، وما أحفظها، ولكنها مكتوبة عندي. قال: قم فجئني بها. فمضى وأتاه بها، وأنشده:

ذادَ وِرْدَ الغَيِّ عن صَدَرِهْ وارْعَوَى واللهْوُ منْ وطَرِهْ
وأبَتْ إلا البكاء لَه ضحكات الشيب في شعرهْ
نَدمي أن الشباب مَضَى لم أبلّغه مَدَى أشَرِهْ

---

(١) الظلامة: ام احتمله من الظلم، والمراد هنا موته عشقًا من أثر النظر بعينه والحب بقلبه.
(٢) الورد: الماء الذي يورد.
(٣) الأغاني: ٨ ـ ٢٥٩ (طبعة دار الكتب).

حَسَرَتْ عنِّي بشاشته ... وذَوَى المحمودُ من ثمرهْ
ودمٍ أهدرتُ من رَشأٍ ... لم يُرِدْ عَقْلًا على هَدَرِهْ
دَعْ جَدًا قحطان أَوْ مُضرٍ ... في يمانِيهِ، وفي مُضرِهْ
وامتدِخ من وائلٍ رجلًا ... عُصُر الآفاق في عُصرِهْ
المَنَايَا في مَقَانِبِهِ[1] ... والعطايا في ذَرَا حُجَره
مَلكٌ تَندَى أنامِله ... كانبلاجِ النَّوْء عن مَطَرِهْ
مستهلٌ عن مواهِبِهِ ... كابتسام الرَّوْض عن زَهَرهْ
جَبَلٌ عزَّتْ مناكِبُه ... أمِنَتْ عَدْنانُ في نَفَرِهْ
إنما الدنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَبْدَاهُ ومحتضرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ ... ولَّتِ الدنيا على أثرهْ
كلُّ مَنْ في الأرض من عَرَبٍ ... بين باديهِ إلى حَضرِهْ
مستعير منه مكْرُمَةً ... يكتسيها يومَ مُفْتَخرهْ

فغضب المأمون واغتاظ، وقال: لستُ لأبي إن لم أقطعْ لسانه أو أسفك دمه. ثم قال: اطلبوه حيث كان؛ فطُلب فلم يقدر عليه. ولما اتّصلَ به الخبر هرَبَ إلى الجزيرة، فكتب إلى الآفاق في طلبه، فهرب من الجزيرة إلى الشام، وظفروا به هناك، وأُخِذَ وحُمِلَ إلى المأمون.

ولما وصل إليه سبّه، وقال له: أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كلُّ مَنْ في الأرض من عَرَبٍ ... بين باديه إلى حَضرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمة ... يكتسيها يوم مفتَخره

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ أنتم أهل بيت لا يُقَاس بكم أحدٌ؛ لأن الله جلّ وعزّ فضّلكم على خلقه، واختاركم لنفسه، وإنما عنيت بقولي في القاسم أشكالَ القاسمِ وأقرانَه، فقال: والله ما استثنيتَ أحدًا، ولست استحلّ دمك لذاك، ولكني أستحلّه بقولك وكفْرك في شعرك، حيث تقول

(١) المقانب: جمع مقنب؛ وهو جماعة الخيل تغير.

القول الذي أشركت فيه:

أنتَ الذي تُنْزل الأيام مَنزلها ... وتَنْقُلُ الدهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدَى طرْفٍ إلى أحدٍ ... إلا قضيْتَ بأرزاقٍ وآجالِ

كذبت... ما يقدر على ذلك أحدٌ إلا الله عزّ وجلّ، الملك الواحد القهار، ثم أمر بعقابة!

مِدحَة شاعِرٍ وَعَطِية أمير(١)

قال عليّ بن جَبَلة: زرتُ أبا دُلَفٍ بالجبل(٢)، فكان يُظْهِر من إكرامِي وبرِّي والتحفّي(٣) بي أمرًا مفرطًا، حتى تأخّرت عنه حينًا حياءً؛ فبعث إليّ مَعْقِلَ بن عيسى، فقال: يقول لك الأمير: قد انقطعت عنّي وأحسبك استقللتَ برِّي بك، فلا يغضبنّك ذلك فسأزيد فيه حتى ترضى. فقلت: والله ما قطعني إلا إفراطُه في البر، وكتبتُ إليه:

هجرتُكَ لم أهجُرْك من كفرِ نعمةٍ ... وهل يُرْتَجى نيلُ الزيادةِ بالكفرِ!
ولكنني لما أتيتُك زائرًا ... فأفرطتَ في برّي عجزتُ عن الشكر
فَمِلآنَ(٤) لا آتيك إلّا مسلّمًا ... أزورُك في الشهرين يومًا أو الشهرِ
فإن زدتَني برًّا تزايدتُ جفوةً ... ولم تلقني طولَ الحياةِ إلى الحشر!

فلما قرأها مَعقل استحسنها، وقال: أحسنتَ والله! أما إن الأمير لتعجبُه هذه المعاني.

فلما أوصلها إلى أبي دُلَف قال: قاتله الله! ما أشعره وأدقّ معانيَه! وأعجبتْه وأجابني لوقته ـ وكان حسن البديهة حاضر الجواب:

ألَا ربّ ضيفٍ طارقٍ قد بَسَطتُه ... وآنستُه قبل الضِّيافةِ بالبِشْرِ
أتاني يرجِّينِي فما حال دونه ... ودون القِرَى والعُرْف من نائلي سِتْرِي
وجدتُ له فضلًا عليَّ بقصْدِه ... إليَّ، وبرا زاد فيه على برِّي
فزوَّدته مالًا يقل بقاؤه ... وزوَّدني مدحًا يدوم على الدَّهرِ

(١) الأغاني: ٧ ـ ٢٥٦ (طبعة دار الكتب).
(٢) بلاد الجبل: مدن بين أذربيجان والعراق.
(٣) تحفّى به: بالغ في أكرامه.
(٤) يريد فمن الآن.

وبعث إليّ بالأبيات مع وصيف له، وبعث إليّ بألف دينار؛ فقلت حينئذٍ:

إنما الدنيا أبو دُلف ... بين مبداه ومحتضره

بَين أبي تَمام وَعَبد الله بن طَاهِر[١]

لما شَخص أبو تمام إلى عبدِ الله بن طاهر وهو بِخُراسان، أقبل الشتاء وهو هناك: فاستثْقَل البلد، وكان عبد الله وَجِد عليه، وأبطأ بجائزته؛ لأنه نثر عليه ألف دينار، فلم يمْسَسْها بيده ترفعًا عنها، فقال: يحتقر فعلي، ويترفَّع عليّ! فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء كالقوت. فقال أبو تمام:

لم يبْقَ للصَّيْفِ رسْمٌ ولا طَلَلُ ... ولا قشيبٌ فَيُسْتَكْسى ولا سَملُ
عدلٌ من الدمع أن يَبْكِي المصيفَ كما ... يُبكَى الشبابُ ويُبكَى اللَّهوُ والغَزَلُ
يمْنَى الزمانِ انْقضَى معروفُها وغَدَتْ ... يُسْراه وَهْيَ لنا من بعدها بَدَلُ

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعرَ آلِ طاهر، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله بن طاهر.

ثم دخل إلى عبد الله فقال: أيها الأمير؛ أتتهاون بمثل أبي تمام، وتجفوه! فوالله لو لم يكن له مَا لَه من النباهة في قَدْره، والإحسان في شعره، والشائع من ذكره، لكان الخوف من شره، والتَّوقِّي لذمّه يُوجبُ عليّ مثلك رعايتَه ومراقبتَه، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن، وفراقِه السكن الشفيع! وقد قصدك عاقدًا بك أمَلَه، مُعْمَلًا إليك ركابَه، متعبًا فيك فكره وجسمَه، وفي ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى يَنْصرف راضيًا، ولو لم يأت بفائدة، ولا سُمِع فيك منه ما سُمِع إلا قوله:

يَقولُ في قُومِسٍ[٢] صحبي وقد أخذت
مِنَّا السُّرى وخُطَا المَهْرِيَّة[٣] القُودِ[٤]
أمطلعَ الشمس تبغي أن تؤمَّ بنا؟
فقلت: كلَّا! ولكنْ مطلعَ الجودِ

---

(١) الأغاني: ١٥ ـ ١٠٢ (طبعة الساسي). (٢) قومس: إقليم في طبرستان.
(٣) الإبل المهرية: تنسب إلى مهرة: حي في العرب.
(٤) القود: جمع أقود وهو الطويل العنق.

لكفى! فقال له عبد الله: لقد نَبَّهتَ فأحسنت، وعاتَبْتَ فأوجعت، ولك ولأبي تمام العُتْبَى[١]. ادعه يا غلام فدعاه. فنادمه يومَه، وأمر له بألفي دينار وما يَحْمِله من الظَّهر، وخلع عليه خِلْعة تامة من ثيابه، وأمر ببَذْرَقَتِه[٢] إلى آخر عمله.

لا يعجبنَّك مَنْ يَصُونُ ثيابه خوفَ الغبار وَعِرْضه مبذول[٣]

ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر يومًا للمنادمة، وقد حضره ابنُ طالوت، وكان وزيرَه وأخصَّ الناسِ به وأحضرَهم لخَلَواته، فأقبل عليه، وقال: لا بد لنا اليومَ من ثالث تَطِيبُ لنا به المعاشرة، وتلذ بمُنَادمته المؤانسة؛ فَمَنْ ترى أن يكون؟ وأعفنا أن يكونَ شريرَ الأخلاق، أو دَنِس الأعراق، أو ظاهر الإملاق.

قال ابنُ طالوت: فأعملت الفِكْر، وقلت: أيها الأمير؛ خطَر ببالي رجلٌ ليس علينا من مجالسته مؤونة، وقد برِئ من إبرام المجالسين، وخلا من ثقل المؤانسين، خفيفُ الوطأة إذا أدنيته، سريع الوَثْبة إذا أمَرْته.

قال: ومَن ذلك؟ قلت: ماني المُوَسْوس. قال: أحسنته والله! فما [illegible] بأسرع من أن اقْتنصه صاحبُ الشُّرْطة؛ فصار به إلى الأمير، فأُخِذ [illegible] الحمام، وألبس ثيابًا نظافًا، وأُدخل عليه، فقال: السلام عا[illegible] محمد: وعليك السلام يا ماني. أما آن لك أنْ تزو[illegible] ومنازعة قلوب منا نحوك؟ فقال: الشوق [illegible] والحجاب صعب، والبوّاب فظٌّ؛ [illegible]

فقال: ألْطَفتَ في الاستئذان، فليلطفْ لك في الإذن؛ لا [illegible] من ليل أو نهار.

ثم أَذِن له في الجلوس فجلس، ودعا بالطعام فأكل، ثم غسل يديه، وأخذ مجلسه. وكان محمدٌ قد تشوّق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدي فأحضرت، فكان أول ما غنّت به:

ولست بناسٍ - إذ غدوا فتحملوا - دموعي على الخدين من شدة الوجد
وقولي وقد زالت بليلٍ حمولهم بواكر تُحدى: لا يكن آخر العهد

---

(١) أعتبه: سره بعد ما ساءه، والاسم العتـ[illegible]

(٣) الأغاني [illegible] ٢٠

فقال ماني: أحسنْتِ! وبحق الأمير إلا ما زدتِ فيه:

وقمت أناجي الفكرَ والدمعُ حائر ... بمقلة موقوف على الضُرّ والجَهْدِ[1]

ولـم يُـغـدِنـي هـذا الأمـيـرُ بـعَـذْلِهِ ... على ظالمٍ قد لج في الهجْرِ والصَّدّ

فاندفعت تغنيه، فقال له محمد: أعاشق أنت؟ فاستحيا، وغمزه ابن طالوت ألّا يبوح له بشيء فيسقط من عينيه، وقال: مَبْلغُ طرب وشوق كان كامنًا فظهر؛ وهل بعد الشيب صَبْوة!

ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت:

حـجَّـبُـوهـا عـن الـرِّيـاح لأنـي ... قلت: يا ريح بلغيها السلاما

لو رَضُوا بالحجاب هانَ ولكن ... مـنـعـوهـا عـن الـريـاح الـكَـلَامـا

فغنّته؛ فطرب محمد، ودعا برطل فشرب، فقال ماني: ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه:

فـتـنـفَّـسْـتُ، ثـم قـلـت لَطْـيـفِـي: ... آه إن زُرْتَ طـيـفَـهـا إلـمـامـا

خُـصّـه بـالـسـلام مـنـي فـأخـشـى ... يـمـنـعـوهـا لـشِـقْـوَتـي أن تـنـامـا

لكان أثقبَ[2] لزَنْدِ الصبابة بين الأحشاء، وأشد تغلغلًا إلى الكبد[3] الصادية من زلال الماء، مع حسن تأليف نظمه، والانتهاء بالمعنى إلى نهاية تمامه؛ فقال محمد: أحسنت! ثم أمر مؤنسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين، والغناء بهما، ففعلت. ثم غنّت بهذين البيتين:

يـا خـلـيـلـيّ سـاعـةً لا تَـريـمـا[4] ... وعـلـى ذي صـبـابـة فـأقـيـمـا

مـا مَـرَرْنـا بـدار زيـنـب إلّا ... هَـتَـك الـدمعُ سرَّنا الـمـكـتـومـا

فاستحسنه محمد، فقال ماني: لولا رهبةُ التَّعدي لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يَرِدَانِ على سَمْعَ ذي لُب فيصدران إلا عن استحسانٍ لهما، فقال محمد: يا ماني؛ الرغبة في حسنِ ما تأتي به [illegible] دون كل رهبة، فهات [illegible]

(١) [illegible] الجهد: المشقة.

[illegible] النار، وهو الأعلى.

ما عندك! فقال:

ظبيةٌ كالهلال لو تلحظ الصخـ ـرَ بطَرْفٍ لغادَرَتْهُ هشيما
وإذا ما تبسَّمَتْ خِلْتَ إيما ضَ بُروق أو لؤلؤًا منظوما

فقال: أحسنت يا ماني! فأجِز[1] هذا الشعر:

لم تطلب اللذات إلا بمن طابَتْ بها الذات ما نوسه
غنت بصوت أطلقت عَبْرةً كانت بسجن الصبر محبوسه

فقال ماني:

وكيف صبر النفس عن غادة أظلِمها إن قلتُ: طاوسه!
وجُرت إن شبهتُها بانةً[2] في جنة الفردوس مَغْروسه
وغيرُ عدل إن عدَلْنا بها جوهرةً في البحر مَغْموسة

ثم سكت، فقال محمد: ما عدا في وصفه لها، فقال ماني:

جلّت عن الوصف فما فكرة تُلحِقها بالنعت محسوسه

فقال محمد: أحسنت! فقالت مؤنسة: وجب شكرك يا ماني. نساعدَك الدهر، وعطف عليك إلْفك، وقارنك سرورك، وفارقك محذورك، والله يُديم لنا ذلك ببقاء مَن به اجتمع شملُنا، فقال لها ماني - عند قولها: «وعطف عليك إلفك» - مجيبًا:

ليس لي إلفٌ فيعطفني فارقَتْ نفسي الأباطيلُ
أنا موصول بنعمة من حَبْلُه بالمجدِ موصول
أنا مغبوط بنعمة من طبْعهُ بالمجد مأمول

فأومأ إليه ابن طالوت بالقيام فنهض، وهو يقول:

ملك قلَّ النظير له زانه الغُرّ البهاليل
طاهريٌّ في مواكبه عُرْفُه في الناس مبذول

(١) الإجازة في الشعر: أن تتم شعر غيرك. (٢) البان: ضرب من الشجر.

فقال محمد: وجب جزاؤك لشُكْرك على غير نعمةٍ سبقتْ، ثم أقبل على ابن طالوت، فقال: ليست خساسة المرء، ولا اتِّضاع دهره، ولا نُبُوّ العين عن الظاهر بمُذْهبٍ ما ركب فيه من الأدب، وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حين يقول:

لا يعجبنّك من يصونُ ثيابه ... خوفَ الغبارِ وعرضُه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيتَه ... دَنِس الثياب وعرضه مَغْسُول

فلم يزل محمد مُجْرِيًا عليه رزقه حتى توفي!

سِعَايَة(١)

سُعِي بأبي الحسن عليّ بن محمد العلويّ إلى المتوكل، وقيل له: إن في منزله سلاحًا وكُتُبًا وغيرَها من شيعته، فوجّه إليه ليلًا مَنْ هجم عليه في منزله على غفلة مِمَّن في داره، فوُجد في بيتٍ وحده، مغلقٍ عليه، وعليه مِدْرَعة من شعر، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وعلى رأسه مِلْحَفة من الصوف، متوجهًا إلى ربه يترنّم بآياتٍ من القرآن في الوَعْدِ والوعيد.

فأُخِذ على ما وُجِدَ عليه، وحُمل إلى المتوكل في جوفِ الليل؛ فَمَثَلَ بين يديه والمتوكلُ يشرب، وفي يده كأسٌ؛ فلما رآه أعظَمه وأجْلَسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه، ولا حالُه يُتَعَلَّلُ عليه بها؛ فناوله المتوكلُ الكأس التي في يده، فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما خامر لَحْمِي ودمي قط! فأعفني منه، فأعفاه، وقال: أنشدني شعرًا أستَحْسِنُه، فقال: إني لقليل الرِّواية للأشعار؛ فقال: لا بد أن تنشدني فأنشده:

باتوا على قُلَلِ الأجبال تحرسُهم ... غُلْبُ الرجال فما أغنتهم القُلَلُ
واستُنزلوا بعد عزٍّ من معاقلهم ... فأودعوا حُفَرًا، يا بئسَ ما نزلوا!
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِرُوا: ... أين الأسرّةُ والتيجانُ والحُللُ!
أين الوجوه التي كانت منعمةً ... من دونها تُضرَبُ الأستار والكِلَلُ!
فأفْصَح القبر عنهم حين ساءلهم: ... تلك الوجوهُ عليها الدودُ يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهرًا وما شَبِعُوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا
وطالما عَمَرُوا دُورًا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

(١) ابن خلكان: ١ ـ ٣٢٢.

وطالما كنزوا الأموالَ وادَّخَروا ... فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرًا معطلةً ... وساكنوها إلى الأجْدَاث قد رحلوا

فأشفَقَ مَنْ حضر على عليّ، وظنُّوا أن بادرةً تبدر منه إليه، ولكن المتوكل بكى بكاءً طويلًا، حتى بلّت دموعُه لحيته وبكى مَنْ حَضره، ثم أمر برفع الشراب، وقال: يا أبا الحسن؛ أعليك دين؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار! فأمر بدفعها إليه، وردّه إلى منزله من ساعته مكرّمًا.

ابن جَاخ ينشد المعتضد بن عباد شعره(١)

ورد ابن جاخ الشاعر على المعتضد بن عباد، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء فسألوه، فقال: إني شاعر! فقالوا: أنشدنا مِنْ شعرك؛ فأنشدهم شعرًا ضحكوا منه وازْدَرَوْه.

فقال بعض عقلائهم: دعوه، فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخلَ مع الشعراء ويندرجَ في سِلْكِهم؛ فلم يُبَالوا كلام الرجل.

فبقي معهم، وكان لهم في تلك الدولة يومٌ مخصوص، لا يدخلُ فيه على الملك غيرُهم، فقال بعضٌ لبعض: هذه شُنْعَةٌ بنا أن يكون مثلُ هذا البادي يُقَدَّم علينا، ويجترىء على الدخول.

فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقدَّروا أن يقول مثلَ ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسمًا لعلة إقدام مثله عليهم.

فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطانُ في مجلسه، ونُصِبَ الكرسي لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادمُ أولَ متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك فصعد الكرسي، وانتظرُوا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك، فقال:

قطَّعْتَ يا يومَ النوى أكبادِيَ ... وحرمت عن عيني لذيذ رُقَادِي
وتركتني أرعى النجوم مُسَهَّدًا ... والنارُ تُضرَمُ في صميم فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ أليَّةً ... لا ينجلي إلّا إلى ميعاد

(١) نفح الطيب: ٢ ـ ٤٦٨.

ولربّ خرْق[١] قد قطعت نياطه ... والليل يرفلُ في ثياب حداد
بِشِمِلَّة[٢] حَرْفٍ[٣] كأنّ ذَميلَها ... سَرْحُ[٤] الرياح، وكلُّ برق غادي
والنجمُ يحدوها وقد ناديتها: ... يا ناقتي عُوجي على عَبَّادِ
ملك إذا ما أُضرِمَت نار الوغى ... وتلاقت الأجناد بالأجناد
فترى الجسوم بلا رؤوس تنثني ... وترى الرؤوس لَقًى[٥] بلا أجساد
يا أيها الملك المؤمَّلُ والذي ... قُدُمًا سما شرفًا على الأنداد
إن القريض لكاسدٌ في أرضنا ... وله هنا سوقٌ بغير كساد
فجلبت من شعري إليك قوافيًا ... يَفْنَى الزمان وذكْرُها متمادي
مِنْ شاعرٍ لم يضطلع أدبًا ولا ... خَطَّتْ يداه صحيفةً بمداد

فقال له الملك: أنت ابن جاخ؟ فقال: نعم! فقال: اجلس، فقد وليتك رياسةَ الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك لأحدٍ بعده!

لَولَا فَصَاحَتُهم لضَربتُ أعنَاقهُم[٦]

أمر الحجاج صاحبَ حرَسِه أن يطوف بالليل؛ فمن رآه بعد العشاء سكران ضربَ عنقه؛ فطاف ليلةً من الليالي، فوجد ثلاثةَ فتيانٍ يتمايلون، وعليهم أمارات السكْر؛ فأحاطت بهم الغِلمان، وقال لهم صاحبُ الحرس: مَن أنتم حتى خالفتم أمر أمير المؤمنين، وخرجتم في مثل هذا الوقت! فقال أحدهم:

أنا ابنُ مَن دانتِ الرقابُ له ... ما بين مخزومِها وهاشِمِها
تأتيه بالرغْمِ وهي صاغرةٌ ... يأخذ من مالِها ومن دَمِها

فأمسك عنه، وقال: لعله من أقارب أميرِ المؤمنين! ثم قال للآخر: وأنت مَنْ تكون؟ فقال:

أنا ابنُ لمن لا تَنْزِلُ الدهرَ قِدْرُهُ ... وإن نزلت يومًا فسوف تعود
ترى الناس أفواجًا إلى ضوءِ ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ

---

(١) الخرق: القفر والأرض الواسعة.
(٢) الشملة: السريعة.
(٣) الحرف: الناقة الضامرة.
(٤) سرح الرياح: إرسالها.
(٥) اللقى: ما طرح.
(٦) مجاني الأدب: ٣ ـ ١٥.

فأمسك عنه، وقال: لعله ابن أشرف العرب. ثم قال للآخر: وأنت مَنْ تكون؟ فأنشد على البديهة:

أنا ابنُ لمن خاضَ الصفوف بعَزْمِهِ وقوّمها بالسَّيْفِ حتى استقامتِ
ورَكْبَاهُ لا ينفك رِجْلاَهُ منهما إذا الخيلُ في يوم الكريهة وَلَّتِ

فأمسك عنه أيضًا، وقال: لعله ابن أشجع العرب؛ واحتفظ عليهم.

فلما كان الصباح رفَع أمرهم إليه؛ فأحضرهم، وكشف عن حالهم؛ فإذا الأول ابن حجّام، والثاني ابن فوّال، والثالث، ابن حائك!

فتعجب من فصاحتهم، وقال لجلسائه: علّموا أولادكم الأدب، فوالله لولا فصاحتهم لضربْتُ أعناقهم.

الباب السابع

قصص الحِيَل والخداع

قصص اليقظة والتبصّر في الأمور

قصص الحِيَل والخداع

قال في المستطرف[1]:

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سُئِلَ بعض الفقهاء عن الحيلِ في الفقه فقال: علمكم الله ذلك فإنه قال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[2] فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ[3]﴾ [صَ: الآية ٤٤]. وكان ﷺ إذا أراد غزوة، ورَّى بغيرها، كان يقول: «الحرب خدعة».

عمر بن الخطاب والهرمزان

لما أراد عمر رضي الله عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدح فيه ماء، فأمسكه في يده واضطرب فقال له عمر لا بأس عليك حتى تشربه، فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله: فقال: أولَمْ تؤمني؟ قال: كيف أمنتك. قال: قلت لا بأسٍ عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه، فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أمانًا ولم أشعر.

وقيل: كان دهاة العرب أربعة، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال: ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم النصراني: لو أسلمت، فقال: ما زلت محبًا للإسلام إلا أنه يمنعني منه حبي للخمر، فقال: أسلم

---

(١) المستطرف: ص ٣٦٢ ـ ٣٦٧.

(٢) ضغثًا: العشب أو نحوه جمعه واختلط بعضه ببعض.

(٣) تحنث: من الحنث وهو عدم الوفاء بالقسم.

واشربها، فلما أسلم قال له: قد أسلمت، فإن شربتها حديناك وإن ارتددت قتلناك، فاختر لنفسك، فاختار الإسلام وحسن إسلامه، فأخذه بالحيلة.

سلسلة صخرة بيت المقدس

وقيل: دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومَن كان كاذبًا لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، فارتفعت، وذلك أن رجلًا أودع رجلًا جوهرة، فخبأها في مكانه في عكازة، ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة، فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقًا فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسّها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي وقال: اللهم إن كنت تعلم إني رددت الجوهرة إليه، فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسّها.

فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: (أن احكم بين الناس بالبينة واليمين). فبقي ذلك إلى قيام الساعة.

حيلة المختار بن أبي عبيدة

كان المختار بن أبي عبيدة الثقفي من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب، قيل: إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه، فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فارسلها، ثم قال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب، تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا، فانتصروا وقتلوا ابن زياد.

حنكة سليمان بن داود عليه السلام

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصما في الصبي الباقي

إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: ائتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى أتشقه يا نبيّ الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى، فقال: خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها.

وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وقال: يا نبيّ الله إن لي جيرانًا يسرقون أوزي، فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال في خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

زواج المغيرة بن شعبة

خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شابًا جميلًا، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه، فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالًا، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفى عليَّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكني أضع البدرة في بيتي، فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليَّ من هذا الذي يحصي عليَّ مثقال الذرة، فتزوجت المغيرة.

حيلة عضد الدولة

بلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلًا عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك، وسار أمام القافلة، فنزل القوم، فأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل، وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

اللص قوي القلب

أُتي لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دعى بشربة ماء، فجيء له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهدده فأقر، فسئل عن ذلك، فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه.

حيلة القاضي إياس

قصد رجل الحج، فاستودع إنسانًا مالًا، فلما عاد طلبه منه، فجحده المستودع، فأخبر بذلك القاضي أياسًا، فقال: أعلم بأنك جئتني قال: لا، قال: فعد إليَّ بعد يومين، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلى ذلك الرجل، فأحضره، ثم قال له: اعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك، فقال: حبًا وكرامة.

قال: فاذهب وهيىء موضعًا للمال وقومًا يحملونه، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة. فقال له القاضي إياس: امضِ إلى صاحبك، وقل له: ادفع إليَّ مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس، فلما جاء، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمّالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي ترك السفر امضِ لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

مقتول يأخذ بثأره من قاتله

ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله: إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقك عليَّ. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر، فأخرج الصندوق فإذا فيه حقّ فيه حب، ورقعة مكتوب فيها: مَن تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار وكان لشيرويه غرام في الباه، فتناول منه حبة فهلك من ساعته، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

بيعة في عنقي إلى قيام الساعة

لما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلّف رجل مذكور من الفقهاء، فقال له الرشيد: لِمَ تخلّفت؟ فقال: عاقني عائق، فقال: اقرؤوا عليه كتاب البيعة، فقال: يا أمير المؤمنين هذه البيعة في عنقي إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد، وظنّ أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس.

رأيت رجلًا يقبّلها

قال المغيرة بن شعبة: لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، فقلت: ولِمَ؟ قال: رأيت رجلًا يقبّلها، فاعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته، وقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلًا يقبّلها؟ قال: نعم رأيت أباها يقبّلها.

لطم سيد بني تميم

أتى رجل إلى الأحنف، فلطمه، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جُعِل لي جعل على أن ألطم سيد بني تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة، فإنه سيّدهم، فمضى إليه، فلطمه، فقطعت يده.

عبد الملك وملك الروم

قال الشعبي: وجهني عبد الملك إلى ملك الروم، فقال لي: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكني رجل من العرب، فكتب إلى عبد الملك رقعة ودفعها إليّ، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: «العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره». قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئًا إلا سألني عنه، وأنا أجيبه، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي. فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي.

بشر بن مروان ورَوح بن زنباع

لما ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة، وكان شابًا ظريفًا غزلًا، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورّعًا، فثقل على بشر مرافقته، فذكر ذلك

لندمائه، فتوصّل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلًا في خفية، فكتب على حائط قريب في مجلسه هذه الأبيات:

يا روحُ من لبنيّات وأرملة ... إذا نعاكَ لأهلِ المغرب الناعي
إن ابن مروان قد حانت منيّته ... فاحتلْ بنفسك يا روح بن زنباع

فتخوّف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك، قال: ثقلت على بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

حيلة الحجاج بن علاط السلمي

ومن الحيل الطريفة: ما حُكِي أن النبيّ ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي، وكان أول مَن أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال يا رسول الله: إن لي بمكة مالًا عند صاحبتي أم شيبة ولي مال متفرّق عند تجار مكة، فأذن لي يا رسول الله في العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه.

فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل، وأنت في حل، قال الحجاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى التثنية ثنية البيضاء وجدت بها رجالًا من قريش يتسمعون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمدًا ﷺ قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم، قال: فأحدقوا حول ناقتي يقولون: إنه يا حجاج؟ قال: فقلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وأسر محمد وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم. قال: فقلت أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فقاموا معي، فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب.

فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل عليَّ حتى وقف إلى جانبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: فقلت وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله قال: قلت استأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ عليَّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى أن يتبعوني، فاكتم عليَّ ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت. قال: لك عليَّ ذلك.

قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروسًا على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت: أي والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلمًا لآخذ مالي خوفًا من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة، فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب.

قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروسًا على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: مَن جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمدًا وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلّت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصّل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

الحرب خدعة

لما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب وبني النضير، وبني قريظة من اليهود، ونازلوا رسول الله ﷺ ومَن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١]. فجاء نُعيم بن مسعود بن عامر

الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديمًا لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاؤوا الحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وأموالهم، وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا.

قالوا: أشرت بالرأي، ثم أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومَن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودي لكم، وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموه عليَّ. قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إنّا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على مَن بقي منهم، فنستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بني قريظة يلتمسون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم: إنّا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنّا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجال في بلدنا ولا

طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنّا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا، فأبوا عليهم.

فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، فتفرّقوا وارتحلوا. وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التي عمّ نفعها وحسن وقعها.

إسلام الهرمزان(١)

محمد بن سعد قال: كان الهرمزان من أهل فارس، فلما انقضى أمر جلولاء خرج يزدجرد من حلوان إلى أصبهان، ثم أتى اصطخر، ووجهه الهرمزان إلى بلدة تستر، فضبطها وتحصّن في القلعة، وحاصرهم أبو موسى، ثم نزل أهل القلعة على حكم عمر، فبعث أبو موسى بالهرمزان ومعه اثنا عشر أسيرًا من العجم عليهم الديباج ومناطق الذهب وأسورة الذهب، فقدم بهم المدينة في زيِّهم ذلك، فجعل الناس يعجبون، فأتوا بهم منزل عمر، فلم يصادفوه فجعلوا يطلبونه، فقال الهرمزان بالفارسية: قد ضلّ ملككم، فقيل لهم: هو في المسجد، فدخلوا فوجدوه نائمًا متوسدًا رداءه، فقال الهرمزان: إن هذا ملككم قالوا: هذا الخليفة. قال: أما له حاجب ولا حارس؟ قالوا: الله حارسه حتى يأتي عليه أجله. فقال الهرمزان: هذا الملك الهني، فقال عمر: الحمد لله الذي أذل هذا وشيعته بالإسلام، فاستسقى الهرمزان، فقال عمر: لا يجمع عليك القتل والعطش، فدعا له بماء، فأمسك بيده، فقال عمر: اشرب لا بأس عليك إني غير قاتلك حتى تشربه، فرمى بالإناء من يده، فأمر عمر بقتله، فقال: أولَم تؤمني؟ قال: وكيف؟ قال: قلت لي لا بأس عليك، فقال الزبير وأبو سعيد: صدق. فقال عمر: قاتله الله أخذ أمانًا ولا أشعر، ثم أسلم بعد ذلك الهرمزان.

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٠.

رأيت رجلًا يقبّلها(١)

عن عبد الملك بن عمير قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: ما خدعني قط غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم وعندي شاب من بني الحرث، فقال: أيها الأمير إنه لا خير لك فيها. فقلت: ولِمَ؟ قال: رأيت رجلًا يقبّلها، فأقمت أيامًا، ثم بلغني أن الفتى تزوّج بها، فأرسلت إليه فقلت: ألم تعلمني أنك رأيت رجلًا يقبّلها؟ قال: بلى. رأيت أباها يقبّلها، فإذا ذكرت الفتى وما صنع غمني ذلك.

سعيد بن عثمان والمهدي(٢)

عن داود بن الرشيد، قال: قلت للهيثم بن عدي: بأي شيء استحق سعيد بن عثمان أن ولّاه المهدي القضاء، وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة؟ قال: إن خبره في اتصاله بالمهدي ظريف، فإن أحببت شرحته لك. قال: قلت: والله قد أحببت ذلك. قال: اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدي، فقال: استأذن على أمير المؤمنين، فقال له الربيع: مَن أنت وما حاجتك؟ قال: أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين رؤيا صالحة، وقد أحببت أن تذكروني له، فقال له الربيع: يا هذا، إن القوم لا يصدقون ما يرونه لأنفسهم، فكيف ما يراه لهم غيرهم، فاحتلّ بحيلة هي أرد عليك من هذه. فقال له: إن لم تخبره بمكاني سألت مَن يوصلني إليه، فأخبرته أني سألتك الإذن عليه، فلم تفعل، فدخل الربيع على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين: إنكم قد أطعمتم الناس في أنفسكم، فقد اختاروا لكم بكل ضرب. قال له: هكذا صنع الملوك فما ذاك؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه قد رأى لأمير المؤمنين رؤيا حسنة، وقد أحب أن يقصّها عليه، فقال له المهدي: ويحك يا ربيع إني والله أرى الرؤيا لنفسي، فلا تصح لي فكيف إذا ادعاها من لعله قد افتعلها؟ قال: والله قلت له مثل هذا، فلم يقبل. قال: هات الرجل، فأدخل إليه سعيد بن عبد الرحمٰن وكان له رؤية وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان، فقال له المهدي: هات بارك الله عليك. ماذا رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين آتيًا أتاني في منامي، فقال لي: أخبر أمير المؤمنين المهدي أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة، وآية ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه كأنه

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٠.
(٢) نفس المصدر ص ٩١.

يقلّب يواقيت، ثم يعدها، فيجدها ثلاثين ياقوتة، كأنها قد وهبت له، فقال المهدي: ما أحسن ما رأيت، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا به، فإن كان الأمر على ما ذكرته أعطيناك ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك، لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت وربما اختلفت. قال له سعيد: يا أمير المؤمنين، فما أنا أصنع الساعة إذا صرت إلى منزلي وعيالي، فأخبرتهم أني كنت عند أمير المؤمنين ثم رجعت صفرًا؟ قال له المهدي: فكيف نعمل؟ قال: يعجل لي أمير المؤمنين ما أحب وأحلف له بالطلاق إني قد صدقت، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وأمر أن يؤخذ منه كفيل ليحضره من غد ذلك اليوم، فقبض المال، وقيل: مَن يكفل بك، فمدّ عينيه إلى خادم فرآه حسن الوجه والزي، فقال: هذا يكفل بي، فقال له المهدي: أتكفل به؟ فاحمر وخجل وقال: نعم. وكفله وانصرف، فلما كان في تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفًا حرفًا وأصبح سعيد في الباب واستأذن فأذن له، فلما وقعت عين المهدي عليه قال: أين مصداق ما قلت لنا؟ قال له سعيد: وما رأى أمير المؤمنين شيئًا؟ فضجع في جوابه. فقال سعيد: امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئًا. قال له المهدي: ويحك ما أجرأك على الحلف بالطلاق. قال: لأنني أحلف على صدق. قال له المهدي: فقد والله رأيت ذلك مبينًا. فقال له سعيد: الله أكبر، فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني، قال له: حبًا وكرامة ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ثياب من كل صنف، وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة، فأخذ ذلك وانصرف، فلحق به الخادم الذي كان كفل به، وقال له: سألتك بالله هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتها من أصل؟ قال له سعيد: لا والله. قال الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له. قال: هذه من المخاريق الكبار التي لا يأبه لها أمثالكم، وذلك أني لما ألقيت إليه هذا الكلام خطر بباله، وحدَّث به نفسه، وأسرَّ به قلبه، وشغل به فكره، فساعة نام خيل له ما حلَّ في قلبه، وما كان شغل به فكره في المنام. قال له الخادم: فقد حلفت بالطلاق. قال: طلّقت واحدة، وبقيت معي على ثنتين فأرد في مهر عشرة دراهم، وأتخلّص وأتحصّل على عشرة آلاف درهم، وثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت من أصناف الثياب، وثلاثة مراكب. قال: فبهت الخادم في وجهه وتعجّب من ذلك، فقال له سعيد: قد صدقتك وجعلت صدقي لك مكافأتك على كفالتك بي، فاستر عليَّ ذلك، ففعل ذلك، فطلبه المهدي لمنادمته، فنادمه وحظي عنده وقلّده القضاء على عسكر المهدي، فلم يزل كذلك حتى مات المهدي.

حدّثني مائة حديث(١)

قال ابن أبي ذر: كان الحاج إذا ورد جلس سفيان بن عيينة بباب بني هاشم على موضع عالٍ ليرى الناس، فجاء رجل من أصحاب الحديث، فقعد بين يديه، فقال: يا أبا محمد، حدّثني فحدّثه أحاديث، فقال: زدني فزاده، فقال: زدني فزاده، فدفعه في صدره، فوقع إلى الوادي، فتفاشى ذلك، فاجتمع الحاج وقال: سفيان بن عيينة قتل رجلًا من الحاج، فلما كثر ذلك أشفق سفيان، فنزل إلى الرجل، فترك رأسه في حجره وقال: ما لك؟ أي شيء أصابك؟ فلم يزل يركض رجليه ويزبد من فيّه. قال: وكثر الضجيج، سفيان بن عيينة قتل رجلًا، فقال له: قم ويالك أما ترى الناس يقولون؟ فقال له وهو يخفي صوته: لا والله لا أقوم حتى تحدّثني مائة حديث عن الزهري وعمرو بن دينار ففعل فقام.

ردّ فضائل قريش عليها(١)

قال المحسن بن علي التنوخي، عن أبيه قال: حججت في موسم اثنين وأربعين، فرأيت مالًا عظيمًا وثيابًا كثيرة تفرق في المسجد الحرام، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: بخراسان رجل صالح عظيم النعمة والمال يقال له علي الزراد أنفذ عام أول مالًا وثيابًا إلى هٰهنا مع ثقة له، وأمره أن يعتبر قريشًا، فمن وجده منها حافظًا للقرآن دفع إليه كذا وكذا ثوبًا. قال: فحضر الرجل عام أول، فلم يجد في قريش البتة أحدًا يحفظ القرآن إلّا رجلًا واحدًا من بني هشام، فأعطاه قسطه، وتحدّث الناس بالحديث ورد باقي المال إلى صاحبه، فلما كان في هذه السنة عاد بالمال والثياب، فوجد خلقًا عظيمًا من جميع بطون قريش قد حفظوا القرآن، وتسابقوا إلى تلاوته بحضرته، وأخذوا الثياب والدراهم، فقد فنيت وبقيت منهم مَن لم يأخذ، وهم يطالبونه. قال: فقلت: لقد توصّل هذا الرجل إلى رد فضائل قريش عليها بما يشكره الله سبحانه له.

حيلة سائلين(٢)

عليّ بن المحسن، عن أبيه قال: أخبرني جماعة من شيوخ بغداد أنه كان بها في طرف الجسر سائلان أعميان. أحدهما يتوسّل بأمير المؤمنين علي، والآخر

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٣.
(٢) نفس المصدر ص ٩٤.

بمعاوية، ويتعصّب لهما الناس، ويجمعان القطع، فإذا انصرفا فيقتسمان القطع، وكانا يحتالان بذلك على الناس.

تــزويــر(١)

أبو الحسن بن عباس القاضي قال: رأيت صديقًا على بعض زوارق الجسر ببغداد جالسًا في يوم شديد الريح، وهو يكتب رقعة، فقلت: ويحك في هذا الموضع وهذا الوقت. قال: أريد أن أزور على رجل مرتعش ويدي لا تساعدني، فتعمدت الجلوس هٰهنا لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجيء خطي مرتعشًا فيشبه خطه.

دية قتيل لم يقتل(٢)

قال المحسن: وحدّثني أبو الطيب بن عبد المؤمن قال: خرج بعض حذاق المكيدين من بغداد إلى حمص ومعه امرأته، فلما حصل بها قال: إن هذا بلد حماقة وأريد أن أعمل حيلة فتساعديني، فقالت: شأنك. قال: كوني بموضعك ولا تجتازي بي البتة، فإذا كان كل يوم فخذي لي ثلثي رطل زبيب وثلثي رطل لوز آنيًا، فاعجنيه واجعليه وقت الهاجرة على آجرة جديدة نظيفة لأعرفها في الميضاة الفلانية، وكانت قريبة من الجامع. ولا تزيديني على هذا شيئًا ولا تمري بناحيتي، فقالت: أفعل وجاء هو فأخرج جبة صوف كانت معه، فلبسها وسراويل صوف ومئزر، وجعلها على رأسه، ولزم اسطوانة يمر الناس عليها، فصلّى نهاره أجمع وليلته أجمع لا يستريح إلّا في الأوقات المحظور فيها الصلاة، فإذا جلس فيها سبح ولم ينطق بلفظة، فتنبّه على مكانه، وروعي مدة، ووضعت العيون عليه، فإذا هو لا يقطع الصلاة ولا يذوق الطعام، فتحيّر أهل البلد في أمره، وكان لا يخرج من الجامع إلا في وقت الهاجرة في كل يوم دفعة إلى تلك الميضاة فيبول فيها، ويعد إلى الآجرة وقد عرفها وعليها ذاك المعجون، وقد صار منحلًا وصورته صورة الغائط. فمن يدخلها ويخرج لا يشك أنه غائط، فيأكله فيقيم أوده ويرجع، فإذا كان وقت صلاة العتمة أو في الليل شرب من الماء قدر كفايته، وأهل حمص يظنون أنه لا يطعم الطعام ولا يذوق الماء، فعظم شأنه

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٤.

(٢) نفس المصدر ص ٩٥.

عندهم فقصدوه وكلّموه فلم يجبهم، وأحاطوا به، فلم يلتفت، واجتهدوا في خطابه، فلزم الصمت، فزاد محلة عندهم حتى أنهم كانوا يتمسحون بمكانه، ويأخذون التراب من موضعه، ويحملون إليه المرضى والصبيان، فيمسح بيده عليهم، فلما رأى منزلته، وقد بلغت إلى ذلك، وكان قد مضى على هذا السمت سنة اجتمع مع امرأته في الميضاة وقال: إذا كان يوم الجمعة حين يصلي الناس فتعالي فاعلقي بي والطمي وجهي وقولي: يا عدو الله يا فاسق قتلت ابني ببغداد وهرب إلى هٰهنا تتعبد وعبادتك مضروب بها وجهك، ولا تفارقيني واظهري أنك تريدين قتلي بابنك، فإن الناس سيجتمعون إليك، وأمنعهم أنا من أذيّتك وأعترف بأني قتلته وتبت وجئت إلى هٰهنا للعبادة والتوبة والندم على ما كان مني، فاطلبي قودي بإقراري، وحملي إلى السلطان، فيعرضون عليك الديّة فلا تقبليها حتى يبذلوا لك عشر ديّات، أو ما استوى لك بحسب ما ترين من زيادتهم وحرصهم، فإذا تناهت أعطيتهم في افتدائي إلى حد يقع لك أنهم لا يزيدون بعده شيئًا، فاقبلي الفداء منهم، واجمعي المال وخذيه واخرجي من يومك إلى بغداد ولا تقيمي بالبلد، فإني سأهرب وأتبعك.

فلما كان من الغد جاءت المرأة فتعلّقت به وفعلت به ما قال، فقام أهل البلد ليقتلوها وقالوا: يا عدوة الله هذا من الأبدال، هذا قوّام العالم، هذا قطب الوقت، فأومأ إليهم أن اصبروا ولا تناولوها بشر فصبروا، وأوجز في صلاته ثم سلّم، وتمرّغ في الأرض طويلًا ثم قال: أيها الناس! هل سمعتم لي كلمة منذ أقمت عندكم؟ فاستبشروا بسماع كلامه وارتفعت ضجة عظيمة وقالوا: لا. قال: إني إنما أقمت عندكم تائبًا مما ذكرته، وقد كنت رجلًا في دفع وخسارة، فقتلت ابن هذه المرأة وتبت، وجئت إلى هٰهنا للعبادة، وكنت محدثًا نفسي بالرجوع لها لتقتلني خوفًا من أن تكون توبتي ما صحت، وما زلت أدعو الله أن يقبل توبتي ويسكنها مني إلى أن أجيبت دعوتي باجتماعي بها وتمكينها من قودي، فدعوها تقتلني وأستودعكم الله. قال: فارتفعت الضجة والبكاء، وهو سائر إلى والي البلد ليقتله بابنها. فقال الشيوخ: يا قوم، لقد ضل[illegible]تم عن مداواة هذه المحنة وحراسة بلدكم بهذا العبد الصالح، فارفقوا بالمرأة واسألوها قبول الديّة نجمعها من أموالنا، فطافوا بها وسألوها. فقالت: لا أفعل. فقالوا: خذي ديتين، فقالت: شعرة من ابني بألف ديّة، فما زالوا حتى بلغوا عشر ديّات، فقالت: اجمعوا المال، فإذا رأيته وطاب

قلبي بقبوله فعلت، وإلَّا قتلت القاتل، فجمعوا مائة ألف درهم وقالوا: خذيها. فقالت: لا أريد إلَّا قتل قاتل ابني في نفسي أثر، فأقبل الناس يرمون ثيابهم وأرديتهم وخواتيمهم والنساء حليهن، فأخذت ذلك وأبرأته من الدم وانصرفت، وأقام الرجل بعد ذلك في الجامع أيامًا يسيرة حتى علم أنها قد بعدت، ثم هرب في بعض الليالي وطلب فلم يوجد ولا عرف له خبر، حتى انكشف لهم أنه كان حيلة بعد مدة طويلة.

ناقة بدرهم(١)

قيل: كان بالكوفة امرأة قد ضاق بزوجها المعاش، فقالت له: لو خرجت فضربت في البلاد وطلبت من فضل الله تعالى، فخرج إلى الشام لكسب ثلاثمائة درهم، فاشترى بها ناقة فارهة وكانت زعرة، فأضجرته واغتاظ منها ومن زوجته حيث أمرته بالخروج، فحلف بالطلاق ليبيعها يوم يدخل الكوفة بدرهم، ثم ندم وأخبر زوجته، فعمدت إلى سنور فعلقتها في عنق الناقة وقالت: أدخلها السوق وناد عليها مَن يشتري هذا السنور بثلاثمائة درهم والناقة بدرهم ولا فرق بينهما، ففعل فجاء أعرابي يدور حول الناقة ويقول: ما أحسنك ما أفرهك لولا هذا السنور الذي في عنقك.

أبو دلامة والمهدي(١)

عن أبي دلامة أنه دخل على المهدي، فأنشده قصيدة فقال له: سلني حاجتك. فقال: يا أمير المؤمنين تهب لي كلبًا، فغضب وقال: أقول لك سلني حاجتك، فتقول: تهب لي كلبًا، فقال: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك؟ قال: لا بل لك. قال: فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد، فأمر له بكلب، فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت إلى الصيد أعدو على رجلي، فأمر له بدابة، فقال: يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها، فأمر له بغلام. فقال: يا أمير المؤمنين فهبني قصدت صيدًا وأتيت به المنزل، فمن يطبخه، فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء أين يبيتون فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صيّرت في عنقي كفًّا أي جمعًا من عيال، فمن أين ما يتقوّت به

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٦.

هؤلاء؟ قال: فإن أمير المؤمنين قد أقطعك ألف جريب عامرًا وألف جريب غامرًا، فقال: أما العامر فقد عرفته، فما الغامر؟ قال: الخراب الذي لا شيء فيه.

قال: فأنا أقطع أمير المؤمنين مائة ألف جريب بالدو، ولكنني أسأل أمير المؤمنين من ألفي جريب جريبًا واحدًا عامرًا. قال: من أين؟ قال: من بيت المال، فقال المهدي: حولوا المال وأعطوه جريبًا، فقال: يا أمير المؤمنين إذا حولوا منه المال صار غامر، فضحك منه وأرضاه.

خرج الجني منها(١)

عن عقبة الأزدي أنه أتي بجارية قد جنت في الليلة التي أراد أهلها أن يدخلوها إلى زوجها، فعزم عليها، فإذا هي قد سقطت، فقال لأهلها: أخلو بي بها، فقال لها: أصدقيني عن نفسك وعلى خلاصك، فقالت: إنه قد كان لي صديق وأنا في بيت أهلي، وأنهم أرادوا أن يدخلوا بي على زوجي ولست ببكر، فخفت الفضيحة. فهل عندك حيلة في أمري؟ فقال: نعم، ثم خرج إلى أهلها، فقال: إن الجني قد أجابني إلى الخروج منها، فاختاروا نم أي عضو تحبّون أن أخرجه من أعضائها، واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجني لا بد أن يهلك ويفسد، فإن خرج من عينها عميت وإن خرج من أذنها صمَّت، وإن خرج من فمها خرست، وإن خرج من يدها شلّت، وإن خرج من رجلها عرجت، وإن خرج من فرجها ذهبت عذرتها. فقال أهلها: ما نجد شيئًا أهون من ذهاب عذرتها، فأخرج الشيطان من فرجها، فأوهم أنه قد فعل، ودخلت المرأة على زوجها.

الحائك الطبيب(٢)

قال الشيخ: حكى لنا أبو محمد الخشاب النحوي قال: حاز بعض الحاكة على طبيب، فرآه يصف لهذا النقوع ولهذا التمر هندي، فقال: مَن لا يحسن مثل هذا؟ فرجع إلى زوجته فقال: اجعلي عمامتي كبيرة، فقالت: ويحك أي شيء قد طرأ لك؟ قال: أريد أن أكون طبيبًا. قالت: لا تفعل فإنك تقتل الناس فيقتلوك،

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٧.

(٢) نفس المصدر ص ٩٨.

قال: لا بد، فخرج أوّل يوم فقعد يصف للناس، فحصل قراريط، فجاء فقال لزوجته: أنا كنت أعمل كل يوم بحبة، فانظري ايش يحصل. فقالت: لا تفعل. قال: لا بد، فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية، فرأته فقالت لسيدتها، وكانت شديدة المرض، اشتهيت هذا الطبيب الجديد يداويك قالت: ابعثي إليه فجاء، وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضعف، فقال: عليَّ بدجاجة مطبوخة فجيء بها، فأكلت، فقويت، ثم استقامت، فبلغ هذا إلى السلطان، فجاء به فشكا إليه مرضًا يشتكيه، فاتفق أنه وصف له شيئًا أصلح به، فاجتمع إلى السلطان جماعة يعرفون ذاك الحائك، فقالوا له: هذا رجل حائك لا يدري شيئًا. فقال السلطان: هذا قد صلحت على يديه وصلحت الجارية على يديه، فلا أقبل قولكم. قالوا: فنجربه بمسائل قال: افعلوا، فوضعوا له سمائل وسألوه عنها، فقال: أن أجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها، لأن الجواب لهذه المسائل لا يعرفه إلا طبيب، ولكن أليس عندكم مارستان؟ قالوا: بلى، قال: أليس فيه مرضى لهم مدة؟ قالوا: بلى، قال: فأنا أدوايهم حتى ينهض الكل في عافية في ساعة واحدة، فهل يكون دليل على علمي أقوى من ذلك؟ قالوا: لا، فجاء إلى باب المارستان وقال: اقعدوا لا يدخل معي أحد، ثم دخل وحده وليس معه إلا قيّم المارستان، فقال للقيم: إنك والله إن تحدثت بما أعمل صلبتك، وإن سكت أغنيتك قال: ما أنطق. قال: فاحلفه بالطلاق، ثم قال: عندك في هذا المارستان زيت؟ قال: نعم. قال: هاته، فجاء منه بشيء كثير، فصبّه في قدر كبير، ثم أوقد تحته، فلما اشتد غليانه صاح بجماعة المرضى، فقال لأحدهم: إنه لا يصلح لمرضك إلا أن تنزل إلى هذا القدر، فتقعد في هذا الزيت فقال المريض: الله الله في أمري، قال: لا بد، قال: أنا قد شفيت، وإنما كان بي قليل من صداع، قال: ايش يقعدك في المارستان وأنت معافى؟ قال: لا شيء. قال: فاخرج وأخبرهم، فخرج وأخبرهم، فخرج يعدو ويقول: شفيت بإقبال هذا الحكيم، ثم جاء إلى آخر، فقال: لا يصلح لمضرك إلا أن تقعد في هذا الزيت، فقال: الله الله أنا في عافية. قال: لا بد، قال: لا تفعل فإني من أمس أردت أن أخرج. قال: فإن كنت في عافية فاخرج، وأخبر الناس بأنك في عافية، فخرج يعدو ويقول: شفيت ببركة الحكيم وما زال على هذا الوصف حتى أخرج الكل شاكرين له، والله الموفّق.

وطأها أمام زوجها(١)

قيل إن امرأة كان لها عشيق، فحلف عليها إن لم تحتالي حتى أطأك بمحضر من زوجك لم أكلمك، فوعدته أن تفعل ذلك، فواعدها يومًا وكان في دارهم نخلة طويلة، فقالت لزوجها: أشتهي اصعد هذه النخلة فأجتني من رطبها بيدي، فقال: افعلي، فلما صارت في رأس النخلة أشرفت على زوجها وقالت: يا فاعل مَن هذه المرأة التي معك؟ ويلك أما تستحي تجامعها بحضرتي، وأخذت تشتمه وتصيح وهو يحلف أنه وحده وما معه أحد، فنزلت فجعلت تخاصمه ويحلف بطلاقها أنه ما كان إلا وحده، ثم قال لها: اقعدي حتى أصعد أنا، فلما صار في رأس النخلة استدعت صاحبها، فوطئها فاطّلع الزوج، فرأى ذلك فقال لها: جعلت فداك لا يكون في نفسك شيء مما رميتيني به، فإن كل مَن يصعد هذه النخلة يرى مثل ما رأيت.

حيلة الفرزدق(١)

ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى: أن الفرزدق مرّ بامرأة وعليه ثوب وشيء فتعرّض لها، فقالت جاريتها: ما أحسن هذا البرد، فقال: هل لك أن أقبل مولاتك وأهب لها هذا البرد، فقالت الجارية لمولاتها: ماذا يضرّك من هذا الأعرابي الذي لا يعرفه الناس، فأذنت له فقبّلها وأعطاها البرد، ثم قال للجارية: اسقني ماء، فجاءته الجارية بماء في قدح زجاج ولما وضعته في يده ألقاه من يده، فانكسر، فقعد الفرزدق مكانه إلى أن جاء صاحب الدار فقال: يا أبا فراس ألك حاجة؟ قال: لا، ولكني استسقيت من هذه الدار ماء، فأتيت بقدح من زجاج، فوقع الإناء من يدي فانكسر، فأخذوا بردي رهنًا، فدخل الرجل فشتم أهله وقال: ردّوا على الفرزدق برده.

معاوية والنواقيس(٢)

قال إبراهيم: لما أسنّ معاوية اعتراه أرق وكان إذا هو نام أيقظته النواقيس، فلما أصبح ذات يوم ودخل الناس عليه، قال: يا معشر العرب! هل فيكم مَن يفعل ما آمره به وأعطيه ثلاث ديّات أعجلها له وديّتين إذا رجع؟ فقام فتى من غسان

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٩.
(٢) نفس المصدر ص ١٠٠.

فقال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: تذهب بكتابي إلى ملك الروم، فإذا صرت على بساطه أذنت قال: ثم ماذا؟ قال: فقط. قال: لقد كلّفت صغيرًا وأعطيت كثيرًا، فلما خرج وصار على بساط قيصر أذن، فحارت البطارقة واخترطوا سيوفهم، فسبق إليه ملك الروم، فجثى عليه وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقه عليهم حتى كفّوا، ثم ذهب إلى سريره حتى صعد به، ثم جعله بين رجليه، فقال: يا معشر البطارقة إن معاوية قد أسن ومن أسن أرق، وقد آذته النواقيس، فأراد أن يقتل هذا على الأذان فيقتل مَن ببلاده على ضرب النواقيس، وبالله ليرجعن إليه على خلاف ما ظن فكساه وجمله، فلما رجع إلى معاوية قال له: أوقد جئتني سالمًا؟ قال: أما من قبلك فلا.

ويقال: ما ولي المسلمين أحدًا إلا وملك الروم مثله إن حازمًا وإن عاجزًا، وكان الذي ملكه على عهد عمر بن الخطاب هو الذي دوّن لهم الدواوين ودوّخ لهم العدو، وكان الذي على عهد معاوية يشبه معاوية في حزمه وعمله.

الجندي والراهب(١)

قال رجل من الجند: خرجت من بعض بلدان الشام أريد قرية من قراها، فلما صرت في الطريق، وقد سرت عدة فراسخ تعبت وكنت على دابة وعليه خرجي ورحلي، وقد قرب المساء، فإذا بحصن عظيم وفيه راهب في صومعة، فنزل إليّ واستقبلني، وسألني المبيت عنده، وأن يضيفني ففعلت، فلما دخلت الدير لم أجد فيه غيري، فأخذ بدابتي وجعل رحلي في بيت وطرح للدابة الشعير، وجاءني بماء حار، وكان الزمان شديد البرد والثلج يسقط، وأوقد بين يدي نارًا عظيمة، وجاء بطعام طيب فأكلت، ومضت قطعة من الليل فأردت النوم، فسألته عن طريق النوم، ثم سألته عن طريق المستراح فدلّني على طريقه، وكان في غرفة فمشيت، فلما صرت على باب المستراح إذا بارية عظيمة، فلما صارت رجلاي عليها نزلت، فإذا أنا في الصحرة، وإذا البارية كانت مطروحة على غير سقف، وكان الثلج تلك الليلة يسقط سقوطًا عظيمًا، فصحت فما كلّمني، فقمت وقد تجرح بدني، إلا أني سالم، فجئت فاستظللت بطاق عند باب الحصن من الثلج، فإذا حجارة لو جاءتني وتمكنت من دماغي طحنته، فخرجت أعدو وأصيح،

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٠.

فشتمني فعلمت أن ذلك من جانبه، وطمع في رحلي، فلما خرجت وقع الثلج عليَّ وبلَّ ثيابي، ونظرت، فإذا أنا تالف بالبرد والثلج، فولد لي الفكر أن طلبت حجرًا فيه نحو ثلاثين رطلًا، فوضعته على عاتقي وأقبلت أعدو في الصحراء شوطًا طويلًا حتى أتعب، فإذا تعبت وحميت وعرقت طرحت الحجر، وجلست استريح، فإذا سكنت وأخذني البرد تناولت الحجر وسعيت كذلك إلى الغداة، فلما كان قبل طلوع الشمس، وأنا خلف الحصن إذ سمعت صوت باب الدير قد فتح، وإذا أنا بالراهب قد خرج وجاء إلى الموضع الذي قد سقطت منه، فلما لم يرني قال: يا قوم ما فعل؟ وأنا أسمعه وأظنه المشوم قد رأى بقربه قرية، فقام يمشي إليها كيف أعمل؟ قال: وأقبل يمشي، فخالفته أنا إلى البابَ ودخلت الحصن، وقد مشى هو من ذاك المكان يطلبني حوالي الحصن، فحصلت أنا خلف باب الحصن، وقد كان في وسطي سكين لم يعلم بها الراهب، فوقفت خلف الباب، فطاف الراهب، فلما لم يقف لي على أثر عاد ودخل وأغلق الباب، فحين خفت أن يراني آثرت إليه ووجأته بالسكين فصرعته وذبحته، وأغلقت باب الحصن، وصعدت إلى الغرفة واصطليت بنار كانت موقودة هناك، وطرحت علي من تلك الثياب، وفتحت خرجي ولبست منه ثيابًا، وأخذت كساء الراهب، فنمت فيه، فما أفقت إلا قريب العصر، ثم انتبهت فطفت الحصن حتى وقعت على طعام، فأكلت وسكنت نفسي، ووقعت بمفاتيح بيوت الحصن، وأقبلت أفتح بيتًا بيتًا، وإذا بأموال عظيمة من عين وورق وأمتعة. وثياب وآلات، ورحال قوم وأخراجهم وحمولاتهم، وإذا الراهب من عادته تلك الحال مع كل مَن يجتازه وحيدًا ويتمكن منه فلم أدر كيف أعمل في ثقل المال، فلبست من ثياب الراهب شيئًا ووقفت في صومعته أيامًا أترآى لمن يجتاز بي في الموضع من بعيد لئلا يشكُّوا فيَّ أني أنا هو، فإذا قربوا لم أبرز لهم وجهي إلى أن خفي خبري، ثم نزعت تلك الثياب وأخذت جوالقين مما كان في الدير من تلك الأمتعة وملأتها مالًا، وجعلتهما على الدابة وسقتها إلى أقرب قرية كانت، واكتريت فيها منزلًا ولم أزل أنقل منه الصامت حتى حملته كله، ثم ماخت وكثرت قيمته، حتى لم أدع إلا الأمتعة الثقيلة، واكتريت عدة أحمال وحمير ورجَّالة، وجئت بهم دفعة واحدة وحملت كل ما قدرت عليه وسرت في قافلة عظيمة لنفسي بغنيمة هائلة، حتى قدمت بلدي، وقد حصل لي عشرة آلاف درهم ودنانير كثيرة مع قيمة الأمتعة، وغصت في الأرض فما عرفت خبري.

انعكست الحيلة على نفسه(١)

عن عليّ بن الحسن عن أبيه حدّثنا جماعة من أهل جند نيسابور فيهم كتّاب وتجّار وغير ذلك أنه كان عندهم في سنة نيف وأربعين وثلاثمائة، شاب من كتّاب النصارى، وهو ابن أبي الطيب القلانسي، فخرج إلى بعض شأنه في الرستاق، فأخذته الأكراد وعذّبوه وطالبوه أن يشتري نفسه منهم، فلم يفعل، وكتب إلى أهله انفذوا لي أربعة دراهم أفيون واعلموا أني أشربها، فتلحقني سكتة، فلا تشك إلى الأكراد أني قد مت فيحملوني إليكم، فإذا حصلت عندكم، فادخلوني الحمام واضربوني ليحمي بدني وسوكوني بالأيارج، فإني أفيق.

وكان الفتى متخلقًا وقد سمع أنه مَن شرب أفيونًا أسكت، فإذا دخل الحمام وضرب وسوك بالأيارج برىء، فلم يعلم مقدار الشربة من ذلك، فشرب أربعة دراهم فلم يشك الأكراد في موته، فلفّوه في شيء وأنفذوه إلى أهله، فلما حصل عندهم أدخلوه الحمام وضربوه وسوكوه، فما تحرّك وأقام في الحمام أيامًا، ورآه أهل الطب، فقالوا: قد تلف. كم شرب أفيونًا؟ قالوا: وزن أربعة دراهم. فقالوا لهم: هذا الوشوي في جهنم ما عاش إنما يجوز أن يفعل هذا بمن شرب أربعة دوانيق أفيونًا أو وزن درهم أو حواليه، فأما هذا، فقد مات، فلم يقبل أهله ذلك فتركوه في الحمام حتى أراح وتغيّر فدفنوه، وانعكست الحيلة على نفسه.

بلال بن أبي بردة والحجاج(١)

قال المحسن: وقد رُوي قديمًا أن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان في حبس الحجاج، وكان يعذبه وكان كل مَن مات من الحبس رفع خبره إلى الحجاج، فيأمر بإخراجه وتسليمه إلى أهله، فقال بلال للسجّان: خذ مني عشرة آلاف درهم وأخرج اسمي إلى الحجاج في الموتى، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض، فلم يعرف الحجاج خبري، وإن شئت أن تهرب معي فافعل وعلي غناك أبدًا، فأخذ السجّان المال ورفع اسمه في الموتى، فقال الحجاج: مثل هذا لا يجوز أن يخرج إلى أهله حتى أراه هاته، فعاد إلى بلال فقال: اعهد. قال: وما الخبر؟ قال: إن الحجاج قال: كيت وكيت، فإن لم أحضرك إليه ميتًا قتلني،

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٢.

وعلم أني أردت الحيلة عليه، ولا بد أن أقتلك خنقًا فبكى بلال وسأله أن لا يفعل، فلم يكن إلى ذلك طريق فأوصى وصلّى، فأخذه السجّان وخنقه، وأخرجه إلى الحجاج، فلما رآه ميتًا قال: سلّمه إلى أهله فأخذوه، وقد اشترى القتل لنفسه بعشرة إلاف درهم ورجعت الحيلة عليه.

المنصور وعيسى بن موسى(١)

ذكر ابن جرير وغيره أن المنصور دفع عبد الله بن علي إلى عيسى بن موسى سرًّا بالليل قال: يا عيسى، إن هذا أراد أن يزيل نعمتي ونعمتك، وأنت ولي عهدي بعد المهدي، والخلافة صائرة إليك، فخذه فاضرب عنقه، وإياك أن تخور أو تضعف، ثم كتب إليه: ما فعلت فيما أمرتك به، فكتب إليه: قد أنفذت ما أمرتني به، فلم يشك في أنه قتله، وكان عيسى قد أخبر كاتبه بالحال، فقال: إنما أراد قتلك وقتله لأنه أمرك أن تقتله سرًّا ثم يدعيه عليك علانية فيقيدك به، قال: فما الرأي؟ قال: أن تستره في منزلك، فإن طلبه منك علانية أظهرته علانية.

ثم إن المنصور دسَّ على عمومته مَن يحركهم على مسألة عن عبد الله بن عليّ ويطمعهم في أنه سيفعل وكلّموه ورافعوه، فقال: عليَّ بعيسى بن موسى، فأتاه، فقال: يا عيسى، قد علمت أني دفعت إليك عبد الله بن عليّ، وقد كلّموني فيه فأتني به، فقال: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله؟ ثم قال لعمومته: قد أقرّ لكم بقتل ابن أخيكم فادّعى أني أمرته بقتله وكذب، قالوا: فادفعه إلينا نقيّده. قال: شأنكم به فخرجوه إلى الرحبة، واجتمع الناس، فشهر أحدهم سيفه، وتقدم إلى عيسى ليضربه، فقال له عيسى: أقاتلي أنت؟ قال: أي والله قال: ردّوني إلى أمير المؤمنين، فردّوه، فقال: إنما أردت بقتله أن تقتلني. هذا عمك حي سوي فأتاه به.

الحارثي والطبيب المحتال(١)

قال الحارثي: اجتزت ببغداد في أيام المقتدر، وأنا أحدث مع جماعة من مجان أصحاب الحديث، وإذا بخادم خصي جالس على دكة في الطريق وبين يديه أدوية ومكاحل ومباضع، وعلى رأسه مظلة خرق كما يكون الطبيب، فقلت

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٣.

لأصحابنا: ما هذا؟ فقالوا: خادم طبيب يصف للناس ويعالج ويأخذ الدراهم، وهذا من عجائب بغداد، فقلت: أنا أحب أن أخاطبه لأنظر كيف فهمه، فقال واحد منهم: فهمه لا أدري ولكن نحب أن تعبث به، فتقدّم إليه وتغاشى وتماوت وتمارض وقال: يا أستاذ يا أستاذ دفعات؛ فضجر الخادم وقال: قولي لا شفاك الله أيش أصابك أي طاعون ضربك؟ قال: فقال له: يا أستاذ؛ أجد ظلمة في أحشائي ومغصًا في أطراف شعري، وما آكله اليوم يخرج غدًا مثل الجيفة، فصف لي صفة لما أنا فيه، قال: وكان الخادم قد أعدّ الجواب، فقال أما ما تجدين من مغص في أطراف شعرك فاحلقي رأسك ولحيتك حتى يذهب مغصك، وأما ظلمة في أحشاك، فعلقي على باب حجرك قنديلًا يضيء مثل الساباط، وأما ما تأكيله اليوم يخرج غدًا مثل الجيفة فكلي خراك واربحي النفقة. قال: فعطعط بنا العامة القيام، وضحكوا بنا، وانقلب الطنز الذي أردنا بالخادم، وصار طنزًا بنا، فصار أقصى إرادتنا الهرب، فهربنا.

الباقلاني وملك الروم(١)

الحسين بن عثمان وغيره: أن عضد الدولة بعث القاضي أبا بكر الباقلاني في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره وبين له محله من العلم، فأفكر الملك في أمره، وعلم أنه لا يفكر له إذا دخل عليه كما جرى رسم الرعية أن يقبّل الأرض بين يدي الملك، فنتجت له الفكرة أن يضع سريره الذي يجلس عليه وراء باب لطيف لا يمكن أحد أن يدخل منه، إلا راكعًا ليدخل القاضي منه على تلك الحال عوضًا من تفكيره بين يديه، فلما وصل القاضي إلى المكان فطن بالقصة، فأدار ظهره وحنى رأسه، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، وقد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه، ثم رفع رأسه ونصب وجهه وأدار وجهه حينئذٍ إلى الملك، فعلم الملك من فطنته وهابه.

الألحى والكوسج(١)

كان مهيار الشاعر ألحى والمطرز الشاعر كوسجًا، فمرّا بأبي الحسن الجهرمي فقال:

اضرِطْ على الكَوْسَجِ والألحى ... وزِدْهُما إن غَضِبَا سِلْحا

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٤.

وأراد أن يتهماه، فقال له المطرّز: فكيف وقع لك أن تذكر عليّ بن أبي عليّ حاجب القادر بالله، والحسن بن أحمد صاحب القادر بعد عليّ بن أبي عليّ، وكان عليّ ألحى والحسن كوسجًا، فانزعج الجهرمي وخاف أن يبلغه ذلك، فيقابل عليه، فكتب إلى مهيار الديلمي يستعطفه:

أبا الحَسَن اصْفِحْ إنَّ مثلي مَنْ جَنَى ... ومِثْلكَ مَنْ أعفى من العدوِ أو عَفَا
أئِن طَوَّحَتْ بي هَفْوَةٌ قلت جَفْوةً ... وَحَمَّلْتُ سَمْعي مِن عِتَابك ما حَفَا

أبو بكر الخطاط(١)

أبو بكر الخطاط قال: كان رجل فقيه خطه في غاية الرداءة، فكان الفقهاء يعيبونه بخطه، ويقولون: لا يكون خط أردأ من خطك، فيضجر من عيبهم إياه، فمرّ يومًا بمجلد يباع فيه خط أردأ من خطه، فبالغ في ثمنه، فاشتراه بدينار وقيراط، وجاء به ليحتجّ عليهم إذا قرأوه فلما حضر معهم أخذوا يذكرون قبح خطه، فقال لهم: قد وجدت أقبح من خطي وبالغت في ثمنه، حتى أتخلّص من عيبكم، فأخرجه فتصفحوه، وإذا في آخره اسمه وأنه كتبه في شبابه، فخجل من ذلك.

عمر وشارب الخمر(٢)

ذكر أن عمر بن الخطاب رضيَ الله تعالى عنه استعمل رجلًا من قريش على عمل، فبلغه أنه قال:

اسْـقـنـي شُـربـةً ألـذّ عـليْـهـا ... واسـقِ بـالله مِـثْـلها ابـنَ هِـشَـامِ

فأشخصه إليه، وذكر أنه إنما أشخصه من أجل البيت، فضم إليه آخر فلما قدم عليه قال: ألست القائل:

اسـقـنـي شـربـةً ألـذّ عـليـهـا ... واسـق بـالله مـثـلها ابـن هـشـام

قال: نعم يا أمير المؤمنين:

لعلّه عسلًا باردًا بـماءِ سَحَاب ... إنَّـنـي لا أحـبّ شـربَ الـمَـدَام

قال: الله الله، قال: ارجع إلى عملك.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٤.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٦.

شقائق النعمان[١]

عن عبيد راوية الأعشى قال: خرج النعمان إلى ظهر الحيرة، وكان معشابًا، وكانت العرب تسميه خد العذراء فيه نبت الشيج والقيصوم والخزامي والزعفران وشقائق النعمان والأقحوان فمرّ بالشقائق، فأعجبته فقال: مَن نزع من هذا شيئًا فانزعوا كفه، قال: فسمّيت شقائق النعمان. قال: فإنه ليسير فيها يومًا فانتهى إلى وهدة في طرف النجف، وإذا شيخ يخصف نعلًا، فوقف عليه وقد سبق أصحابه، فقال: ممن أنت يا شيخ؟ قال: من بكر بن وائل، فقال: يا شيخ مالك هٰهنا؟ قال: طرد النعمان الرعاة فأخذوا يمينًا وشمالًا، ووجدت وهدة خالية فنتجت الإبل وولدت الغنم وسالت السمن، فقال: أو ما تخاف النعمان؟ قال: وما أخاف منه، والله لربما لمست بيدي هذه ما بين سرة أمه وعانتها، كأنه أرنب جاثم. قال: أنت أيها الشيخ؟ قال: نعم. قال: فهاج وجهه غضبًا وطلعت أوائل خيله، فقالوا: حييت أبيت اللعن قال: وحسر عن رأسه فإذا خرزات ملكه فقال النعمان: أيها الشيخ كيف قلت؟ قال: أبيت اللعن لا يهولَنَّكَ ذاك، والله لقد علمت العرب أنه ليس بين لابتيها أكذب مني فضحك ثم مضى.

الرجل المشؤوم[٢]

وعن الأصمعي عن أبيه قال: أتي عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض مَن خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك. قال: وما جزاؤك؟ قال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادّعيت وكنت لك خيرًا من مائة ألف معك، فضحك وخلى سبيله.

خالد بن صفوان والسفاح[٢]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي، قال شبيب بن شيبة: دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس وليس عنده أحد، فقال: يا أمير المؤمنين إني والله ما زلت منذ قلّدك الله خلافته أطلب أن أصير إلى مثل هذا الموقف في هذه الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ فعل. قال: فأمر

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٧.

الحاجب بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك وأجلت الفكر فيك، فلم أر أحدًا له مثل قدرك اتساعًا في الاستمتاع بالنساء منك، ولا بأضيق فيهن عيشًا، إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين، واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت وإن عركت عركت، وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك من التلذذ بأطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهم والتلذذ بما يشتهى منهم. إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة التي تُشتَهى لجسمها، والبيضاء التي تحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك، وما يشتهى من نظافتهن، وتخلل خالد بلسانه فأطنب في صفات ضروب الجواري وشوقه إليهن، فلما فرغ قال: ويحك والله ما سلك مسامعي كلام أحسن من هذا، فأعد عليَّ كلامك فقد وقع مني موقعًا فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم انصرف وبقي أبو العباس مفكرًا، فدخلت عليه أم سلمة، وكان قد حلف أن لا يتخذ عليها ووفى، فلما رأته مفكرًا قالت: إني لأذكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث شيء تكرهه وأتاك خبر أرتعت له؟ قال: لا، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد. قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ فقال لها: ينصحني وتشتميه، فخرجت إلى مواليها فأمرتهم بضرب خالد، فخرجت من الدار مسرورًا بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة، فبينما أنا واقف أقبلوا يسألون عني فحققت الجائزة، فقلت لهم: ها أناذا، فاستبق إليَّ أحدهم بخشبة، فغمزت برذوني ولحقني فضرب كفله، وركضت ففتهم واستخفيت في منزلي أيامًا، ووقع في قلبي أني أتيت من قبل أم سلمة، فما أشعر إلا بقوم قد هجموا عليَّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فسبق إلى قلبي أنه الموت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. لم أر دم شيخ أضيع من دمي، فركبت إلى دار أمير المؤمنين، فلقيته خاليًا، فنظرت في المجلس بينا عليه ستور رقاق، وسمعت حسًا خلف الستر، فقال: ويحك وصفت لأمير المؤمنين صفة فأعدها، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن النساء أكثر من واحدة إلا ضرر وتنغص، فقال له أبو العباس: لم يكن هذا للعرب إنما اشتقت اسم الضرتين من الضرر، وإن أحد لم يكن عنده من في الحديث. قال: بلى يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن في القدر يغلي عليهن، قال: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك ولا مرَّ في حديثك. قال: وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبه يشيبنه ويهرمنه. قال: لا والله

ما سمعت هذا منك. قلت: بلى والله. قال: أفتكذبني؟ قلت: أفتقتلني؟ نعم، والله يا أمير المؤمنين إن أبكار الأماء رجال إلا أنه ليست لهن خصي. قال خالد: فسمعت ضحكًا من خلف الستر، ثم قلت: نعم والله وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش، وأنت تطمح بعينك إلى النساء والجواري، قال: فقيل من وراء الستر: صدقت والله يا عمّاه بهذا حدثته، ولكنه غيَّر حديثك، ونطق من لسانك، فقال أبو العباس: ما لك قاتلك الله. قال: وانسللت، فبعثت إليَّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت وثياب.

نصيب والزوجة الثانية(١)

رجل من بني نوفل بن عبد مناف قال: لما أصاب نُصيب من المال ما أصاب، وكان عنده أم محجن وكانت سوداء اشتاق إلى البياض، فتزوج امرأة سرية بيضاء، فغضبت أم محجن وغارت عليه، فقال لها: والله يا أم محجن ما مثلي يغار عليه. إني شيخ كبير، وما مثلك يغار إنك لعجوز كبيرة، وما أحد أكرم عليَّ منك ولا أوجب حقًّا، فجوزي هذا الأمر ولا تكدريه عليَّ. فرضيت وقربت ثم قال لها بعد ذلك: هل لك أن أجمع إليك زوجتي الجديدة، فهو أصلح لذات البين، وألم للشعث وأبعد للشماتة؛ فقالت: نعم افعل وأعطاها دينار، وقال لها: إني أكره أن ترى بك خصاصة أن تفضل عليك، فاعملي لها إذا أصبحت عندك غدًا بهذا الدينار، ثم أتى زوجته الجديدة، فقال لها: إني أردت أن أجمعك إلى أم محجن غدًا، وهي مكرمتك وأكره أن تفضل عليك أم محجن، فخذي هذا الدينار فأعدي لها به إذا أصبحت عندها غدًا لئلا ترى بك خصاصة، ولا تذكري لها الدينار، ثم أتى صاحبًا له يستنصحه فقال: إني أريد أن أجمع زوجتي الجديدة إلى أم محجن غدًا، فأتني مسلمًا، فإني سأستجلسك للغداء، فإذا تغديت فسلني عن أحبهما إليَّ، فإني سأنفر وأعظم ذلك، فإذا أبيت عليك أن لا أخبرك فاحلف عليَّ، فلما كان الغد زارت زوجته الجديدة لأم محجن، ومرّ به صديقه، فاستجلسه، فلما تغديا أقبل الرجل عليه، فقال: يا أبا محجن أحب أن تخبرني عن أحب زوجتيك إليك. فقال: سبحان الله! أتسألني عن هذا، وهما يسمعان ما سأل عن مثل هذا أحد. قال: فإني أقسم عليك

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٨.

لتخبرني، فوالله لا عذرتك ولا أقبل إلا ذاك. قال: أما إذا فعلت فأحبهما إليَّ صاحبة الدينار والله لا أريد على هذا شيئًا، فأعرضت كل واحدة منهما تضحك ونفسها مسرورة، وهي تظن أنه عناها بذلك القول.

كل زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثًا(١)

القاضي أبو الحسين بن عتبة قال: كانت لي ابنة عم موسرة وتزوجتها، فلم أوثرها لشيء من الجمال، ولكني كنت أستعين بمالها وأتزوج سرًّا، فإذا فطنت بذلك هجرتني وطرحتني وضيّقت عليَّ إلى أن أطلّق من تزوجتها، ثم تعود إليَّ، فطال ذلك عليَّ، وتزوجت صبية حسناء موافقة لطباعي مساعدة على اختياري، فمكثت معي مدة يسيرة وسعي بها إلى ابنة عمي، فأخذت في المناكدة والتضييق عليَّ، فلم يسهل عليَّ فراق تلك الصبية فقلت لها: استعيري من كل جارة قطعة من أخر ثيابها، حتى يتكامل لك خلعة تامة الجمال. وتبخري بالعنبر واذهبي إلى ابنة عمي فابكي بين يديها، وأكثري من الدعاء لها والتضرّع إليها إلى أن تضجريها، فإذا سألتك عن حالك، فقولي لها: إن ابن عمي قد تزوجني، وفي كل وقت يتزوج عليَّ واحدة، وينفق مالي عليها، وأريد أن تسألي القاضي معونتي وإنصافي منه، فإني أقدمه إليه، فإنها سترفعك إليَّ ففعلت فلما دخلت عليها واتصل بكاؤها رحمتها، وقالت لها، فالقاضي شر من زوجك، وهكذا يفعل بي وقامت فدخلت علي، وأنا في مجلس لي وهي غضبى ويد الصبية في يدها، فقالت: هذه المشؤومة حالها مثل حالي، فاسمع مقالها واعتمد إنصافها، فقلت: ادخلا، فدخلتا جميعًا، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: فذكرت ما وافقتها عليه، فقلت لها: هل اعترف ابن عمك بأنه قد تزوج عليك؟ فقالت: لا، والله. وكيف يعترف بما يعلم إني لا أقاره عليه. قلت: فشاهدت أنت هذه المرأة وقفت على مكانها وصورتها، فقالت: لا والله. فقلت: يا هذه اتقي الله ولا تقبلي شيئًا سمعته، فإن الحساد كثير والطلاب لإفساد النساء كثير والحيل والتكذيب، فهذه زوجتي قد ذكر لها أني تزوجت عليها، وكل زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثًا، فقامت ابنة عمي فقبّلت رأسي وقالت: قد علمت أنه مكذوب عليك أيها القاضي، ولم يلزمني حنث لاجتماعهما بحضرتي.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٩.

سراقة بن مرداس والمختار(١)

عن أبي الحسن المدائني أن أحمد بن سميط أسر خمسمائة فأتى بهم المختار، فقتل مائتين وأربعين وحبس بعضًا، ومنَّ على بعض، فكان ممن حبس من الأسرى سراقة بن مرداس البارقي، ثم أمر بقتله فقال: لا والله لا تقتلني، حتى أنقض معك داري حجرًا حجرًا. قال: وما يدريك؟ قال: الأخبار الصادقة التي جاءت بها الكتب الناطقة، فأقبل المختار على عبد الله بن كامل وعلى أبي عمرة، فقال: مَن يظهر أسرارنا، فأمر بتخليته، فقالْ سراقة: إنا قد أسرنا قوم لا نراهم. قال: هم هؤلاء وهم شرط الله. قال: لا والله لقد أسرنا قوم عليهم عمائم حمر على خيل بلق تطير بين السماء والأرض. قال: هذه الملائكة، فاعلم الناس ذلك يا سراقة. قال: فصعدت منارة وأعلمت الناس وحلفت لهم، فخلّى سبيلي.

الأصمعي والرشيد(١)

عن عبد الرحمٰن ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: بعث إليَّ الرشيد، فدخلت فإذا صبية، فقال: مَن هذه الصبية؟ فقلت: لا أدري. قال: هذه مواسة بنت أمير المؤمنين، فدعوت لها وله. قال: نعم، فقبِّل رأسها، فقلت إن أطعته أدركته الغيرة، فقتلني، وإن أنا عصيته قتلني بمعصية، فوضعت كمي على رأسها وقبلت كمي، فقال: والله يا أصمعي لو أخطأتها لقتلتك. أعطوه عشرة آلاف درهم.

واصل بن عطاء والخوارج(٢)

عن ابن البهلول أن أبا حذيفة واصل بن عطاء خرج يريد سفرًا في رهط، فاعترضهم جيش من الخوارج فقال واصل: لا ينطقن أحد ودعوني معهم، فقصدهم واصل، فلما قربوا بدأ الخوارج ليوقعوا، فقال: كيف تستحلون هذا وما تدرون مَن نحن ولا لأي شيء جئنا؟ فقالوا: نعم. فما أنتم؟ قال: قوم من المشركين جئناكم لنسمع كلام الله. قال: فكفّوا عنهم، وبدأ رجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فلما أمسك قال واصل: قد سمعنا كلام الله، فأبلغنا مأمننا حتى ننظر فيه،

(١) كتاب الأذكياء ص ١١٠.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١١١.

وكيف ندخل في الدين، فقال: هذا واجب. سيروا، فسرنا والخوارج والله معناه يحمونا فراسخ، حتى قربنا إلى بلد لا سلطان لهم عليه. فانصرفوا.

الحجاج والمصروع(١)

قال أبو إسحٰق الجهمي: لما صرف الحجاج قال لغلام له: تعال نتنكر وننظر ما لنا عند الناس، فتنكروا وخرجا، فمرا على المطلب غلام أبي لهب، فقالا: يا هذا! أي شيء على الحجاج؟ قال: على الحجاج لعنة الله. قالا: فمتى يخرج؟ قال: أخرج الله روحه من بين جنبيه ما يدريني. قال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج بن يوسف. قال المطلب: أتعرفني أنت؟؟ قال: لا. قال: أنا المطلب غلام أبي لهب معروف أصرع في كل شهر ثلاثة أيام أولها اليوم، فتركه ومضى.

الحجاج والبستاني(١)

حكى أبو الحسن بن هلال الصابي أن الحجاج انفرد يومًا من عسكره، فمرّ ببستاني يسقي ضيعته، فقال: كيف حالكم مع الحجاج؟ فقال: لعنه الله المبيد البر، الحقود عجل الله الانتقام منه، فقال له: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج، فرأى أن دمه قد طاح، فرفع عصا كانت معه، فقال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي وأزبد وأرغى وهاج، وأراد أن يضرب رأسه بالعصى، فضحك منه وانصرف.

أبحث عن مفسّر لرؤياي(٢)

يُحكَى أن مزيدًا كان يدخل على بعض ولاة المدينة، فأبطأ عليه ذات يوم، ثم جاء، فقال: ما أبطأك عني؟ قال: جارة لي كنت أهواها منذ حين، فظفرت بها ليلتي وتمكنت منها، فغضب الوالي، وقال: والله لآخذنك بإقرار، فلما رأى الجد منه، قال: فاسمع تمام حديثي، قال: وما هو؟ فلما أصبحت خرجت أطلب مفسرًا يفسر لي رؤياي، فلم أقدر عليه إلى الساعة. قال: ذلك في المنام رأيت؟ قال: نعم. فسكن غضبه.

(١) كتاب الأذكياء ص ١١١.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٢.

أبو دلف والمأمون[١]

عن أبي الفضل الربعي عن أبيه قال: قال المأمون يومًا وهو مغضب لأبي دلف أنت الذي يقول فيك الشاعر:

إنَّما الدُّنيا أبو دلف ... بين باديه ومُحتضرِهِ
فإذا ولَّى أبو دلفِ ... ولَّتِ الدُّنيا على أثرِهِ

فقال: يا أمير المؤمنين، شهادة زور، وقول عزور وملق معتاف وطلب عرف، وأصدق منه ابن أخت لي حيث يقول:

دعيني أجوبُ الأرضَ في طَلَبِ الغِنَى ... فلَا الكرخ الدُّنيا ولا النَّاسُ قاسِمَ

فضحك المأمون وسكن غضبه.

عَـزَّة وبثينة[١]

رُوِيَ أن عزة وبثينة اجتمعتا فتحدثتا، فأقبل كثيِّر، فقالت بثينة: أتحبين أن أبين لك أن كثيِّرًا غير صادق في محبتك؟ قالت: نعم. قالت: ادخلي الخباء، فدخلت فدنا كثيِّر فوقف على بثينة، فسلَّم عليها فقالت له: ما تركت عزة فيك مستمعًا لأحد، فقال كثيِّر والله لو أن عزة أمة لوهبتها لك، فقالت: إن كنت صادقًا فقل في هذا شعرًا فأنشأ يقول:

رَمَتْني عَلى عَمْدٍ بثينة بعدَما ... تولَّى شبابي وارجحنَ شبابُها
بعينينِ نَجْلاوينِ لو رَقْرَقَتهما ... لنوء الثريَّا لاستهلَّ سَحَابُها

فبادرت عزة وكشفت الحجاب، وقالت له: يا فاسق! قد سمعت البيتين، فقال لها: فاسمعي الثالث. قالت: وما هو؟ قال:

ولكنَّما ترمين نفسًا سقيمةً ... لعزَّة مِنها صفوها ولبابُها

فاستحسنت عذره.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١١٢.

أبو العجب والبلبل الميت(١)

ذكر هلال بن المحسن أن رجلًا كان يقال له أبو العجب لم ير مثله فيما كان يعمل من الشعبذة(٢). دخل يومًا إلى دار المقتدر بالله، فرأى خادمًا من خواصه يبكي على بلبل مات له، فقال له: ما عليك أيها الأستاذ إن أحييته؟ فقال: ما تريد، فأخذ البلبل الميت، فأدخله كمه وأدخل رأسه، وأخرج بعد ساعة بلبلًا حيًا، فماجت الدار وعجب الحاضرون، فاستدعاه علي بن عيسى وقال: والله إن لم تصدقني عن حقيقة الأمر لأضربن عنقك، فقال: إني شاهدت الخادم يبكي على بلبله، فطمعت بما آخذه منه، مضيت في الحال إلى السوق، وابتعت بلبلًا وخبأته في كمي وعدت إلى الخادم، فقلت ما قلته، وأخذت البلبل الميت، وأدخلت رأسه في كمي وأكلته، وأخرجت الحي، فلم يشك أنه بلبله، وهذا رأس الميت.

ابن المعتز المؤدب(٣)

قال ابن عرابة المؤدب حكى لي محمد بن عمر الضبي أنه حفظ ابن المعتز وهو يؤدبه (والنازعات) وقال له: إذا سألك أمير المؤمنين أبوك في أي شيء أنت؟ فقل له: في السورة التي تلي (عبس) ولا تقل أنا في النازعات. قال: فسأله أبوه في أي شيء أنت؟ قال: في السورة التي تلي عبس، فقال: مَن علّمك هذا؟ قال: مؤدبي. قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم...

حيلة ناجحة(٣)

قال عبد الواحد بن نصر المخزومي قال: أخبرني مَن أثق به أنه خرج في طريق الشام مسافرًا يمشي وعليه مرقعة، وهو في جماعة نحو الثلاثين رجلًا كلهم على هذه الصفة، فصحبنا في بعض الطريق رجل شيخ حسن الهيئة ومعه حمار فاره يركبه، ومعه بغلام عليهما رجل وقماش ومتاع فاخر، فقلنا له: يا هذا إنك لا تفكر في خروج الأعراب علينا، فإنه لا شيء معنا يؤخذ وأنت لا تصلح لك صحبتنا مع ما معك، فقال: يكفينا الله، ثم سار ولم يقبل منا، وكان إذا نزل يأكل استدعى أكثرنا فأطعمه وسقاه، وإذا عيي الواحد منا أركبه على أحد بغليه، وكانت

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٢.

(٢) الشعبذة: أي الأعمال السحرية.

(٣) كتاب الأذكياء ص ١٣٧.

جماعة تخدمه وتكرمه وتتدبر برأيه إلى أن بلغنا موضعًا، فخرج علينا نحو ثلاثين فارسًا من الأعراب، فتفرقنا عليهم ومانعناهم، فقال الشيخ: لا تفعلوا، فتركناهم ونزل، فجلس وبين يديه سفرته، ففرشها وجلس يأكل، وأظلتنا الخيل، فلما رأوا الطعام دعاهم إليه، فجلسوا يأكلون، ثم حلّ رحله وأخرج منه حلوى كثيرة وتركها بين يدي الأعراب، فلما أكلوا وشبعوا جمدت أيديهم وخدرت أرجلهم ولم يتحركوا، فقال لنا: أن الحلو مبنج، أعددته لمثل هذا وقد تمكن منهم وتمت الحيلة. ولكن لا يفك البنج إلا أن تصفعوهم، فافعلوا فإنهم لا يقدرون لكم على ضرر ونسير، ففعلوا فما قدروا على الامتناع، فعلمنا صدق قوله، وأخذنا أسلحتهم وركبنا دوابهم وسرنا حواليه في موكب، ورماحهم على أكتافنا، وسلاحهم علينا، فما نجتاز بقوم إلا يظنونا من أهل البادية فيطلبون النجاة منا، حتى بلغنا ما مننا.

أعمى في يده سراج(١)

قال بعضهم: خرجت في الليل لحاجة، فإذا أعمى على عاتقه جرة، وفي يده سراج، فلم يزل يمشي حتى أتى النهر وملأ جرته وانصرف راجعًا، فقلت: يا هذا، أنت أعمى والليل والنهار عندك سواء، فقال: يا فضولي حملتها معي لأعمى القلب مثلك يستضيء بها، فلا يعثر بي في الظلمة فيقع علي فيكسر جرتي.

الرشيد وإبراهيم الموصلي(١)

روى أبو الحسن الأصفهاني أن إبراهيم الموصلي دخل على الرشيد وبين يديه جارية كأنها خوط بان، فقال لها الرشيد: غني فغنت:

تـوهّـمـه قـلبي فـأصْـبـح خـدّهُ   وفيه مكانُ الوهْم مِنْ نظري أثرُ
ومرّ بـوهـمي خـاطرًا فـجرحـتـه   ولـم أرَ جسمًا قط يَجْرحه الفِكْرُ

قال إبراهيم: فذهبت والله بعقلي حتى كدت افتضح، فقلت: مَن هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه التي يقول فيها الشاعر:

لـهـا قَـلبي الـغُـدَاة وقـلبُـهـا لـي   فَـنَـحْـنُ كَـذاكَ فـي جَـسَـديْـن روحُ

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٨.

ثم قال: غنّي يا إبراهيم فغنّيت:

تَشَرَّبَ قلبي حبّها ومشى بها ... تمشي حميّا الكأسِ في جِسْم شارِبِ
ودبّ هواها في عظامي فشفّها ... كما دبَّ الملسُوعِ سُمّ العَقَارِبِ

قال: ففطن بتعريضي، وكانت غلطة مني، فأمرني بالانصراف، ولم يدعني شهرًا، ثم دسّ إليّ خادمًا ومعه رقعة فيها مكتوب:

قد تخوّفت أن أموتَ من الوجْدِ ... ولم يدر من هويت بحالي
يا كتابي اقرأ السّلَام على مَنْ ... لا أسمي وقل له يا كتابي
إن كفا إليك قد كتبتني ... في شقاءِ مواصل وعذابِ

فأتاني الخادم بالرقعة، فقلت له: ما هذا؟ قال: رقعة من فلانة الجارية التي غنتك بين يدي أمير المؤمنين، فأحسست بالقصة، فشتمت الخادم وقمت إليه فضربته ضربًا شفيت منه نفسي، وركبت إلى الرشيد من فوري، فأخبرته بالقصة وأعطيته الرقعة، فضحك حتى كاد يستلقي وقال: على عمد فعلت ذاك لأمتحنك وأعرف مذهبك وطريقتك، ثم دعا لي الخادم، فخرج فلما رآني قال: قطع الله يديك ورجليك ويلك قتلتني، فقلت: القتل بعض حقك لما وردت به عليَّ ولكني أبقيت عليك، وأخبرت أمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك ما تستحقه، فأمر لي الرشيد بصلة سنية، والله يعلم أني ما فعلت ما فعلته عفافًا بل خوفًا.

عمر بن الخطاب والهرمزان(١)

حدّثنا زياد بن جبير رضي الله عنه قال: أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل من المشركين، يقال له الهرمزان، فأسلم، فقال: فإني مستشيرك في مغازي هذه فأشر عليّ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين: الأرض مثلها ومثل مَن فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له رأس وجناحان وله رجلان، فإن انكسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح وبالرأس، وإن انكسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس، فإن انشَج الرأس ذهبت الرجلان والجناحان، فالرأس كسرى والجناح قيصر والجناح الآخر فارس، فَمُرْ المسلمين، فلينفروا إلى كسرى.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٥.

من حِيَل الإسكندر(١)

رُوِيَ أن الإسكندر رأى في عسكره سميًّا له لا يزال ينهزم فقال له: أما أن تغيّر اسمك أو فعلك.

وخرج يومًا في الحرب من صف أصحابه وأمر مناديًا فنادى: يا معشر الفرس، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات، فمن كان على الوفاء فليعتزل عن العسكر، وله منا الوفاء بما ضمناه، فاتهمت الفرس بعضها بعضًا، وكان أول اضطراب حدث فيهم.

وفي رواية إنه لما صادف دارًا أمر مناديًا في عسكر دارا: أيها الناس أما نحن فقد فعلنا ما اتفقنا عليه، فكونوا من وراء ما ضمنتم فاستشعر دارًا أن عسكره قد عزموا على تسليمه إلى الإسكندر وكان ذلك سبب هزيمته.

ولمّا شخص عن فارس إلى الهند تلقاه ملكها في جمع عظيم، ومعه ألف فيل عليها السلاح والرجال، وفي خراطيمها السيوف والأغمدة، فلم تقف لها دواب الإسكندر، فهزم وعاد إلى مأمنه، فأمر باتخاذ فيلة من نحاس مجوفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها، ثم أمر فملئت نفطًا وكبريتًا وألبسها الدروع وجرت على العجل إلى المعركة، وبين تمثالين منها جماعة من أصحابه، فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النار في جوف التماثيل، فلما حميت انكشف أصحابه عنها وغشيتها الفيلة فضربتها بخراطيمها فتشيطت وولّت مدبرة راجعة على أصحابها وصارت الدائرة على ملك الهند.

قال: ونزل مرة على مدينة حصينة، فتحصّن أهلها منه، فأخبر أن عندهم من الميرة قدر كفايتهم، فدسّ تجارًا متنكرين وأمرهم بدخول المدينة، ورحل عنها وأمدهم بمال ومتاع، فباعوا ما معهم وابتاعوا الميرة، فلما أكنزوا كتب أن أحرقوا ما عندكم من الميرة واهربوا ففعلوا، فزحف إلى المدينة فحاصرها أيامًا يسيرة، فأخذها وكان إذا أراد محاصرة بلد شرد من حولها من القرى، فهربوا إليها فيسرعون في أكل الميرة، فتقل فيحاصرهم فيفتحها.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٥.

من حِيَل كسرى بن هرمز(١)

وحُكِيَ عن كسرى بن هرمز أنه كان بعث الأصبهبد إلى الروم في جيش عظيم، فأعطى من الظفر ما لم يعطه أحد قبله، وأخذ الأصبهبد خزائن الروم ووجهها على هيئتها إلى كسرى، ففطن كسرى أن مال الأصبهبد من الظفر، وأن هذا يغيره عليه، ويوجب له كبرًا، فبعث إليه رجلًا ليقتله وكان المبعوث عاقلًا، فلما رأى الأصبهبد وتدبيره وعقله قال: ما يصلح قتل هذا بغير جرم، ثم أخبره بالذي جاء له، فأرسل الأصبهبد إلى قيصر إني أريد أن ألقاك. قال: إذا شئت فنلتقيا. فقال لهم: إن هذا الخبيث قد همّ بقتلي ووجه إليَّ رجلًا بذلك، وإني أريد هلاكه كالذي أراد مني والبادي أظلم، فاجعل لي من نفسك ما أطمئن إليه وأعطيك من بيوت أمواله مثل الذي أصبت منك، ومثل الذي أنت منفقه في مسيرك هذا، فأعطاه من المواثيق ما اطمأن إليه، وسار قيصر في أربعين ألفًا، فنزل بكسرى، فعلم كسرى كيف جرى الأمر، فاحتال لفض جنود قيصر، فدعا قسًّا متنصر في دينه، فقال: إني كاتب معك كتابًا لطيفًا في حريرة لتبلغه الأصبهبد، فلا تطلعنّ على ذلك أحدًا وأعطاه ألف دينار، وقد علم كسرى أن القسّ يوصل كتابه إلى قيصر لأنه تحته هلاك الروم، وكان في الكتاب: إلى الأصبهبد، إني كتبت إليك وقد دنا مني قيصر، فقد أحسن الله إلينا وأمكن منهم بتدبيرك لا عدمت صواب الرأي، وقد فرّقت عليهم وأنا ممهله حتى يقرب من المدائن، ثم أغافله في يوم كذا فغره عليَّ من قتلك إياي، فإني أستأصلهم، فخرج القسّ بالكتاب، فأوصله إلى قيصر، فقال قيصر: هذا الحق وما أراد إلَّا هلاكنا، فتولّى منصرفًا وأتبعه كسرى إياس بن قبيصة الطائي، فقتل أصحابه ونجا قيصر في شرذمة قليلة.

جذيمة الأبرش والزبّاء(١)

قال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جذيمة بن مالك ملكًا على الحيرة وما حولها من السواد ملك ستين سنة، وكان به وضح، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فنهيت العرب أن يقولوا الأبرص، فقالوا: الأبرش فغزا مليح بن برء، وكان ملكًا على الحضر وهو الحاجز بين الروم

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٦.

والفرس، وهو الذي ذكره عدي بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخُو الحَضْرِ إذْ بَنَاهُ وإذْ دِجْلَة تُجْبى إليه والخَابُورُ

فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام، فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان، حسنة البيان، شديدة السلطان، كبيرة الهمة.

قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها، وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جللها، فسميت الزباء. قال الكلبي: وبعث عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها، فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها وملكتها، فأزالت جذيمة الأبرش عنها، وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه، وجعلت بينهما نفقًا تحت الفرات، وكان إذا راهقها الأعداء آوت إليه وتحصّنت به، وكانت قد اعتزلت الرجال، فهي عذراء وكان بينها وبين جذيمة بعد الرحب مهادنة، فحدث جذيمة نفسه بخطبتها، فجمع خاصته فشاورهم في ذلك وكان له عبد يقال له قصير بن سعد، وكان عاقلًا لبيبًا وكان خازنه وصاحب أمره وعميد دولته، فسكت القوم وتكلّم قصير، فقال: أبيت اللعن أيها الملك إن الزباء امرأة قد حرمت الرجال، فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال ولها عندك ثأر والدم لا ينام، وإنما هي تاركتك رهبة وحذار دولة، الحقد دفين في سويداء القلب له كمون ككمون النار في الحجر إن اقتدحته أورى، وإن تركته توارى، وللملك في بنات الملوك الأكفّاء متسع، ولهن فيه منتفع، وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظم شأنك فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير الرأي ما رأيت والحزم فيما قلته، ولكن النفس توّاقة إلى ما تحب وتهوى، ولكل امرىء قدر لا مفر له منه ولا وزر، فوجه إليها خاطبًا، وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغبها فيه وتصبو إليه، فجاءتها خطبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: أنعم بك عينًا وبما جئت به وله، وأظهرت له السرور به والرغبة فيه وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنت أضربت عن هذا الأمر خوفًا أن لا أجد كفؤًا، والملك فوق قدري وأنا دون قدره، وقد أجبت إلى ما سأل ورغبت فيما قال، ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرت إليه ونزلت عليه، وأهدت إليه هدية سنية ساقت العبيد والإماء والكراع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملت من الثياب والعين والورق، فلما رجع إلى خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى

من اللطف، وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصير خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي، وهو أول ملوك الحيرة من لخم، وكان ملكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي وردته، وقد شب ونبر، فقالت أمه: ألبسوه الطوق، فقال خاله جذيمة: شب عمرو على الطوق فصارت مثلًا فاستخلفه وسار إلى الزباء، فلما صار ببقة نزل وتصيّد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه، فسكت القوم وافتتح الكلام قصير بن سعد قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيد بحزم. قال لي: أف ما يكون كونه فلا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيفسد، ولا الحزم بالمنى فيبعد، والرأي عندي للملك أن يعتقب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزمًا بتًّا أن لا يفعل، فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقووا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر ولا يطاع لقصير أمر. فأرسلها مثلًا.

وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يحمل إليه الإنزال والعلوفات، وقالت لجندها: وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها تلقوا سيدكم وملك دولتكم.

وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا، فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم. قد زادت بصيرتي فيه، أفأنت على عزمك؟ قال: نعم وقد زادت رغبتي فيه. فقال قصير: ليس للأمور بصاحب، من لم ينظر في العواقب وقد يستدرك الأمر قبل فواته، وفي يد الملك بغية هو بها مسلط على استدراك الصواب، فإن وثقت بأنك ذو ملك وعشيرة ومكان، فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك، وألقيتها في يدي مَن لست آمن عليك مكره وغدره، فإن كنت ولا بدّ فاعلًا ولهواك تابعًا، فإن القوم إن تلقوك غدًا فرقًا وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم، فالأمر بعده في يدك والرأي فيه إليك، وإن تلقوك رزدقًا[1] واحدًا وأقاموا لك صفين حتى إذا توسطتهم انقضوا

(١) رزدقًا: أي جمعًا واحدًا.

عليك من كل جانب، فأحدقوا بك، فقد ملكوك وصرت في قبضتهم، وهذا العصا لا يشق غبارها، وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الرياح. يقال العصا، فإذا كان كذلك، فتملك ظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها، فسمع جذيمة كلامه ولم يرد جوابًا وسار، وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غدًا فتلقوه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم، فتعرضوا عليه. من كل جانب حتى تحدقوا به، وإياكم أن يفوتكم، وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأحدل على فريسته فأحدقوا به وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره فأقبل عليه، وقال: صدقت يا قصير، فقال قصير: أيها الملك! أبطأت بالجواب، حتى فات الصواب. فأرسله مثلًا. فقال: كيف الرأي الآن؟ قال: هذه العصا فدونكها لعلك تنجو بها، فأنف جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه، فصار على ظهر العصا وأعطاها عنانها وزجرها، فذهبت تهوي به هوى الريح، فنظر إليه جذيمة وهي تطاول به، وأشرفت الزباء من قصرها، فقالت: ما أحسنك من عروس تجلى عليَّ وتزف إليَّ، حتى دخلوا به إلى الزباء، ولم يكن معها في قصرها إلَّا جوارٍ أبكار أتراب.

وكانت جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفة كل واحدة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنها قمر قد حفت به النجوم تزهو، فأمرت بالأنطاع[1] فبسطت، وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيدكن وبعل مولاتكن، فأخذن بيده فأجلسنه على الأنطاع بحيث يراها وتراه، وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم أمرت الجواري فقطعن رواهشه[2]، ووضعت الطشت تحت يده، فجعلت تشخب في الطشت، فقطرت قطرة على النطع، فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله، فلما مات قالت: والله ما وفى دمك ولا شفى قتلك، ولكنه غيض من فيض، ثم أمرت به، فدفن.

وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر، ويقتفي الأثر عن خاله، فخرج ذات

(١) الأنطاع: مفردها نطع. وهو مصنوع من جلد الثور.

(٢) رواهشه: أي شرايينه.

يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هوى الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكالهيمة لأمر ما جاءت العصا، فأشرف عليهم قصير، فقالوا: ما وراءك؟ قال: سعى المقدر بالملك إلى حتفه على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب بثأرك من الزباء، فقال عمرو: وأي ثأر من الزباء، وهي أمنع من عقاب الجو، فقال قصير: قد علمت نصحي كان لخالك وكان الأجل رائده، والله لا أنا عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أدرك به ثأرًا أو تخترم نفسي فأعذر، ثم أنه عمد إلى أنفه فجدعه، ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي، فقيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك، فأذنت له، فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام! لقد أتيت فيما يؤتى مثلك في مثله، ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه وقد جئتك مستجيرًا بك من عمرو بن عدي فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه بالمسير إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي، وحال بيني وبين عيالي وتهددني بالقتل، وإني خشيت على نفسي، فهربت منه إليك، أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عزك، فقالت: أهلًا وسهلًا، لك حق الجوار وذمة المستجير وأمرت به فأنزل وأجرت له الإنزال ووصلته وكسته وأخدمته وزادت في إكرامه، وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصر مشيّد على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها، فقال لها قصير يومًا: إن لي بالعراق مالًا كثيرًا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك، وإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيتني شيئًا أتعلّل به في التجارة وأجعله سببًا للوصول إلى ما لي أتيتك بما قدرت عليه من ذلك، فأذنت له وأعطته مالًا، فقدم العراق وبلاد كسرى، فأطرفها من طرائفه وزادها مالًا إلى مالها كثيرًا وقدم عليها، فأعجبها ذلك وسرّها وترتب له عندها منزلة، وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك ظرفًا من الجواهر والبز والخز والديباج، فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه، ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه، ثم خرج ثالثة فقدم بأكثر من الأولتين ظرائف ولطائف، فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهماتها وملماتها، واسترسلت إليه وعولت في أمورها عليه، وكان قصير رجلًا حسن العقل والوجه حصيفًا لبيبًا أديبًا، فقالت له يومًا: أريد أن أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرج إلى العراق فأتني بكذا وكذا من السلاح والكراع والعبيد والثياب،

فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكراع والعبيد والثياب وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك، وكنت أتربص به المنون، وأنا أخرج متنكرًا من حيث لا يعلم، فآتيك بها مع الذي سألت، فأعطته من المال ما أراد. وقالت: يا قصير، الملك يحسن لمثلك وعلى يد مثلك يصلح أمره.

ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيراده وإصداره إليك وما تقصر يدك عن شيء تناله يدي، ولا يقعد بك حال ينهض بي، فسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسد خادر، وليث ثائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكنه من قلبها قال: الآن طاب المصاع وخرج من عندها، فأتى عمرو بن عدي، فقال: قد أصبت الفرصة من الزباء، فانهض فعجل الوثبة، فقال له عمرو: قل أسمع، ومُرْ أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة، فقال: الرجال والأموال. قال: حكمك فيما عندنا مسلط، فعمد إلى ألفي رجل من فتيان قومه وصناديد أهل مملكته، فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود، وألبسهم السلاح والسيوف والجحف، وأنزلهم في الغرائر، وجعل رؤوس المسوح من أسفالها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم، وساق الخيل والعبيد والكراع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والجحف، وقال: إذا توسطت الإبل المدينة، فالإمارة بيننا كذا وكذا فاخترطوا الربط. فلما قربت العير من مدينة الزباء في قصرها، فرأت الإبل تتهادى بأحمالها، فارتابت بها، وقد كان وُشي بقصير إليها وحذرت منه، فقالت للواشي به إليها: إن قصيرًا اليوم منا، وهو ربيب هذه النعمة وصنيعة هذه الدولة، وإنما يبعثكم على ذلك الحسد ليس فيكم مثله، فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها فقالت:

ما لِلْجِمَال مَشْيَها وئيدًا[1] أجَنْدَلًا يحمِلنَ أو حديدًا
أم صرفانًا باردًا شديدًا أم الرجال في المُسوح سُودًا

ثم أقبلت على جواريها، فقالت: أرى الموت الأحمر في الغرائر السود فذهبت مثلًا، حتى إذا توسطت الإبل المدينة وتكاملت ألقوا إليهم

---

(١) وئيدًا: على مهل. أي أن الجمال تتمايل في مشيها من ثقل حمولتها.

الأمارة(١) فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراع بألفي باتر(٢) طالب ثأر القتيل غدرًا، وخرجت الزباء تمصع(٣) تريد النفق، فسبقها إليه قصير، فحال بينها وبينه، فلما رأت أن قد أحيط بها ومُلِكت، التقمت خاتمًا في يدها تحت فصّه سمّ ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو، فأدركها عمرو وقصير، فضرباها بالسيف حتى هلكت وملكا مملكتها، واحتويا على نعمتها، وخطَّ قصير على جذيمة قبرًا، وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِكٌ تمتّع بالعَسَاكِرِ والقَنَا والمشرفيّة عزّه ما يوصفُ
فَسَعَتْ منيّته إلى أعدائه وهُو المتوّج والحُسَام المرهفُ

حيلة شمر ذي الجناح(٤)

قيل إن ملكًا كان يقال له شمر ذو الجناح سار إلى سمرقند، فحاصرها، فلم يظفر منها بشيء، فطاف حولها بالحرس، فأخذ رجلًا من أهلها، فاستمال قلبه وسأله عن المدينة، فقال: أما ملكها فأحمق الناس ليس له همّ إلّا الشراب والأكل والجماع، ولكن له بنت هي التي تقضي أمر الناس، فبعث منه هدية إليها، وقال: أخبرها إني لم أجيء لالتماس المال، فإن معي من المال أربعة آلاف تابوت ذهبًا وفضة، وأنا دافعها إليها وأمضي إلى الصين، فإن كانت لي الأرض كانت امرأتي، وإن هلكت كان المال لها، فلما بلغتها رسالته قالت: قد أجبته فليبعث بالمال، فأرسل إليها أربعة آلاف تابوت في كل تابوت فارس، وجعل شمر العلامة بينه وبينهم أن يضرب بالجلجل، فلما صاروا في المدينة ضرب بالجلجل، فخرجوا، فأخذوا الأبواب، ونهض شمر في الناس، فدخل المدينة، فقتل أهلها وحوى ما فيها، ثم سار إلى الصين.

حيلة كسرى(٤)

قد كان كسرى من الذكاء على غاية، فروينا عنه أنه نم إليه رجل بصديق له فكتب كسرى للنام قد اخترنا نصحك وذممنا صاحبك لسوء اختباره الإخوان.

---

(١) الأمارة: العلامة، أو الإشارة التي كانت بين قصير وجنوده.
(٢) باتر: أي السيف القاطع.
(٣) تمصع من الشيء؛ أراد الهروب منه.
(٤) كتاب الأذكياء ص ١٥٢.

قال منجِّمو كسرى: إنك تقتل، فقال: لأقتلن مَن يقتلني، فأمر بسم فخلط في أدوية، ثم كتب عليه دواء الجماع مجرب من أخذ منه وزن كذا جامع كذا وكذا مرة، فلما قتله ابنه شيرويه وفتش خزائنه مرّ به، فقال في نفسه هذا الدواء الذي كان يقوى به على السراري، فأخذ منه. فقتله وهو ميت.

إن شيرويه لما أراد قتل أبيه بعث إليه مَن يقتله، فلما دخل عليه قال: إني أدلّك على شيء لوجوب حقك يكون فيه غناك. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فذهب الرجل إلى شيرويه، فأخبره الخبر، فأخرج الصندوق وفيه حق فيه حب، وثَمَّ مكتوب من أخذ منه واحدة افتضّ عشرة أبكار، فطمع شيرويه في صحة ذلك، فأخذه وعوض الرجل منه، ثم أخذ منه حبة، فكان هلاكه، وكان كسرى أول ميت أخذ بثأره من حي.

حِيَل متفرقة(١)

هزم بعض الملوك، فنثر لطالبيه زجاجًا ملوّنًا شبيهًا بالجوهر الأحمر والأخضر، ودنانير صفرًا مطليّة بالذهب، فتشاغل طالبوه بلقطها، فنجا.

علم بعض الملوك بعسكر يطلبه، فأخذ شعيرًا فطبخه بالماء مع قضبان الدفلي، ثم جففه ثم جربه في دابة، فلما أكلته نفقت من يومها، فخرج هو وعسكره ناحية ونثر الشعير والميرة، فلما سار القوم إليه ترك ما في معسكره وتنحّى، فجاؤوا فأطلقوا دوابهم في الشعير، فهلكت كلها.

حارب قوم ومعهم فيلة، فقهروا عدوهم، فأشار على العدو رجل أن يحملوا خنزيرًا وأن يضربوه، فلما سمعت الفيلة صوته هربت.

جاء رجل معه هر تحت حضنه ومشى بسيفه إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه، فأدبر الفيل هاربًا، وتساقط مَن كان فوقه فكبّر المسلمون وكان سبب الهزيمة.

قيل لأسلم بن زراعة: إن انهزمت من أصحاب مرداس بن أدية يغضب عليك الأمير عبيد الله بن زياد، قال: يغضب علي وأنا حي أحب من أن يرضى عني وأنا ميت.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٣.

خرج أمير ومعه رجل فيه ذكاء، فبينما هم على الغداء قال للأمير: اركب فقد لحقنا العدو. قال: كيف وما يرى أحد؟ قال: اركب عاجلًا، فإن الأمر أسرع مما تحسب، فركب وركب الناس، فلاحت الغبرة وطلع عليهم سرعان الخيل، فعجب الأمير، وقال: كيف علمت؟ قال: أما رأيت الوحش مقبلة علينا، ومن شأن الوحوش الهرب منا، فعلمت أنها لم تدع عاداتها إلا لأمر قد دهمها. والله الموفق.

اللصّ الفقيه(١)

قال يموت بن المزرع، عن المبرد: حدّثني أحمد بن المعدل البصري قال: كنت جالسًا عند عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، فجاءه بعض جلسائه، فقال: أعجوبة. قال: ما هي؟ قال: خرجت إلى حائطي بالغابة، فلما أن أصحرت وبعدت عن البيوت بيوت المدينة تعرض لي رجل، فقال: اخلع ثيابك. فقلت: وما يدعوني إلى خلع ثيابي؟ قال: أنا أولى بها منك. قلت: ومن أين؟ قال: لأني أخوك وأنا عريان وأنت مكس. قلت: فالمواساة؟ قال: كلا قد لبستها برهة، وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها. قلت: فتعريني وتبدي عورتي. قال: لا بأس بذلك قد روينا عن مالك أنه قال: لا بأس للرجل أن يغتسل عريانًا. قلت: فيلقاني الناس فيرون عورتي؟ قال: لو كان الناس يرونك في هذه الطريق ما عرضت لك فيها، فقلت: أراك ظريفًا، فدعني حتى أمضي إلى حائطي وأنزع هذه الثياب، فأوجه بها إليك. قال: كلا أردت أن توجه إليَّ أربعة من عبيدك، فيحملوني إلى السلطان، فيحبسني، ويمزق جلدي، ويطرح في رجليَّ القيد، قلت: كلا. أحلف لك إيمانًا أني أوفي لك بما وعدتك ولا أسوءك. قال: كلا إنا روينا عن مالك أنه قال: لا تلتزم الإيمان التي يحلف بها اللصوص. قلت: فأحلف إني لا أحتال في إيماني هذه. قال: هذه يمين مركبة على اللصوص. قلت: فدع المناظرة بيننا، فوالله لأوجهن إليك هذه الثياب طيبة بها نفسي، فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: تدري فيم فكرت؟ قلت: لا، قال: تصفحت أمر اللصوص من عهد رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا، فلم أجد لصًا أخذ تسئمه، وأكره أن أبتدع في الإسلام بدعة يكون علي

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٦.

وزرها ووزر مَن عمل بها بعدي إلى يوم القيامة. اخلع ثيابك. قال: فخلعتها ودفعتها إليه، فأخذها وانصرف.

حيلة لصّ (١)

علي بن الحسن التنوخي، عن أبيه أن أبا القاسم عبيد الله بن محمد الخفاف حدّثه أنه شاهد لصًا قد أخذ، وأشهد عليه أنه كان يفتش الأقفال في الدور اللطاف التي لجيراننا، فإذا دخل حفر في الدار حفرة لطيفة، كأنها بئر النرد، وطرح فيها جوزات، كأن إنسانًا يلاعبه، وأخرج منديلًا فيه نحو مائتي جوزة، فتركه إلى جانبها، ثم حار، فكور كل ما في الدار مما يطيق حمله، فإن لم يفطن به أحد خرج من الدار، وحمل ذلك كله، وإن جاء صاحب الدار ترك عليه قماشه، وطلب المفالتة والخروج، وإن كان صاحب الدار جلدًا فواثبه ومانعه وهم بأخذه وصاح اللصوص، واجتمع الجيران أقبل عليه وقال: ما أبردك أنا أقامرك بالجور منك شهور قد أفقرتني، وأخذت مني كل ما أملكه وأهلكتني لأفضحك بين جيرانك لما قامرتك الآن تصيح فما يشك أحد في قوله وأنت تدعي علي باللصوصية بلعب بارد بيني وبينك دار القمار التي تعارفنا فيها قد صنعت هذا حتى أخرج وأدع عليك قماشك، وكلما قال الرجل: هذا لص. قال الجيران: إنما يريد أن لا يفضح نفسه بالقمار، فقد ادّعى عليه اللصوصية ولا يشكون في أنه صادق، وأن صاحب الدار مقامر، فيلعنوه ويحولون بينه وبين اللص حتى ينصرف ويأخذ الجوز ويفتح الباب وينصرف، ويفتضح الرجل بين جيرانه.

الجنيد واللصّ (١)

قال محمد بن عمر المتكلم ويلقب جنيد: حدّثني رجل من الدقاقين قال: أورد علي رجل غريب سفتجة بأجل، فكان يتردد عليَّ إلى أن حلّت السفتجة، ثم قال لي: أدعها عندك آخذها متفرقة، فكان يجيء كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفذت، فصارت بيننا معرفة، وألف الجلوس عندي، وكان يراني أخرج من صندوق لي، فأعطيته منه فقال لي يومًا: إن قفل الرجل صاحبه في سفره وأمينه في حضره وخليفته على حفظ ماله، والذي ينفي الظنة عن أهله وعياله، وإن لم يكن وثيقًا تطرقت الحيل إليه وأرى قفلك هذا وثيقًا، فقل لي: ممن ابتعته لأبتاع مثله

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٧.

لنفسي، فقلت: من فلان الأقفالي. قال فما شعرت يومًا وقد جئت إلى دكاني، فطلبت صندوقي لأخرج منه شيئًا من الدراهم، فحمل إليَّ ففتحه، وإذا ليس فيه شيء من الدراهم، وقلت لغلامي، وكان غير متهم عندي: هل انكسر من الدراب شيء؟ قال: لا. قلت: ففتش هل ترى في الدكان نقبًا؟ ففتش، فقال: لا، فقلت: فمن السقف حيلة؟ قال: لا، قلت: فاعلم أن دراهمي قد ذهبت، فقلق الغلام فسكته وأقمت من نومي لا أدري أي شيء أعمل، وتأخر الرجل عني، فاتهمته وتذكرت مسألته لي عن القفل، فقلت للغلام: أخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله. قال: أحمل الدراب من المسجد دفعتين ثلاثة، فأقفلها ثم هكذا أفتحها. قلت: فعلى من تخلي الدكان إذا حملت الدراب؟ قال: خاليًا. قلت: من هٰهنا دهيت، فذهبت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل، فقلت له: جاءك إنسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل؟ قال: نعم ورجل من صفته كيت وكيت فأعطاني صفة صاحبي، فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت أنا وبقي الغلام يحمل الدراب، فدخل هو إلى الدكان فاختبأ فيه ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه يقع على قفلي، وأنه أخذ الدراهم وجلس طول الليل خلف الدراب، فلما جاء الغلام ففتح داربين وحملها ليرفعها خرج، وأنه ما فعل ذلك إلا وقد خرج من بغداد، قال: فخرجت ومعي قفلي ومفتاحه، فقلت: ابتدىء بطلب الرجل بواسط، فلما صعدت من السميرية طلبت خانًا أنزله، فصعدت. فإذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت، فقلت لقيم الخان: هذا البيت من ينزله؟ قال: رجل قدم من البصرة أمس. قلت: ما صفته فوصف صفة صاحبي، فلم أشك أنه هو وإن الدراهم في بيته، فاكتريت بيتًا إلى جانبه ورصدت حتى انصرف قيم الخان، ففتحت القفل، ودخلت، فوجدت كيسي بعيد، فأخذته وخرجت، وأقفلت الباب ونزلت في الوقت، وانحدرت إلى البصرة، وما أقمت بواسط إلا ساعتين من النهار، ورجعت إلى منزلي بمالي بعينه.

ردّوا عليّ فوطتي (١)

قال علي بن الحسن، عن أبيه: حدّثني عبد الله بن محمد الصروي، حدّثني ابن الدنانير النمار، حدّثني غلام لي قال: كنت ناقدًا بالأبلة لرجل تاجر، فاقتضيت

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٨.

له من البصرة نحو خمسمائة دينار وورقًا ولففتهما في فوطة، وأمسيت عن المسير إلى الأبلة، فما زلت أطلب ملاحًا، فلا أجد إن رأيت ملاحًا مجتازًا في خيطية خفيفة فارغة، فسألته أن يحملني، فخفف علي الأجرة وقال: أنا أرجع إلى منزلي بالأبلة، فانزل فنزلت، وجعلت الفوطة بين يدي وسرنا، فإذا رجل ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون، فلما رآه الملاح كبر فصاح هو بالملاح، احملني، فقد جنني الليل، وأخاف على نفسي، فشتمه الملاح، فقلت له: احمله فدخل إلى الشط فحمله، فرجع إلى قراءته، فخلب عقلي بطيبها، فلما قربنا من الأبلة قطع القراءة، وقام ليخرج في بعض المشارع بالأبلة، فلم أر الفوطة، فاضطربت وصحت واستغاث الملاح، وقال: الساعة تنقلب الخيطية، وخاطبني خطاب مَن لا يعلم حالي، فقلت: يا هذا، كانت بين يدي فوطة فيها خمسمائة دينار، فلما سمع الملاح ذلك لطم وبكى وتعرّى من ثيابه وقال: لم أدخل الشط ولا لي موضع أخبأ فيه شيئًا فتتهمني بسرقة ولي أطفال وأنا ضعيف، فالله الله في أمري، وفعل الضرير مثل ذلك وفتشت السميرية فلم أجد فيها شيئًا، فرحمتهما وقلت: هذه محنة لا أدري كيف التخلّص منها، وخرجنا، فعملت على الهرب وأخذ كل واحد منا طريقًا، وبت في بيت ولم أمضِ إلى صاحبي، فلما أصبحت عملت على الرجوع إلى البصرة لأستخفي بها أيامًا، ثم أخرج إلى بلد شاسع، فانحدرت وخرجت في مشرعة بالبصرة، وأنا أمشي وأتعثر وأبكي قلقًا على فراق أهلي وولدي، وذهاب معيشتي وجاهي، فاعترضني رجل، فقال: ما لك؟ فأخبرته. فقال: أنا أرد عليك مالك. فقلت: يا هذا أنا في شغل عن طنزك بي. قال: ما أقول إلّا حقًا اَمْضِ إلى السجن ببني نمير، واشتر معك خبزًا كثيرًا وشواء جيدًا وحلوًا، وسل السجان أن يوصلك إلى رجل محبوس هناك يقال له: أبو بكر النقاش قل له أنا زائره، فإنك لا تمنع، فإن منعت فهب للسجان شيئًا يسيرًا يدخلك إليه، فإذا رأيته فسلِّم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك، فإذا أكل وغسل يديه، فإنه يسألك عن حاجتك، فأخبره خبركَ، فإنه سيدلك على مَن أخذ مالك ويرتجعه لك، ففعلت ذلك ووصلت إلى الرجل، فإذا شيخ مكبل بالحديد، فسلمت وطرحت ما معي بين يديه، فدعا رفقاء له، فأكلوا فلما غسل يديه قال: ما أنت وما حاجتك؟ فشرحت له قصتي، فقال: امضِ الساعة إلى بني هلال، فادخل الدرب الفلاني حتى تنتهي إلى آخره، فإنك تشاهد بابًا شعثًا، فافتحه وادخله بلا استئذان، فتجد دهليزًا طويلًا يؤدي إلى بابين، فادخل الأيمن منهما فسيدخلك إلى دار فيها بيت فيه أوتاد

وبواري، وكل وتد إزار ومئزر، فانزع ثيابك وألقها على الوتد وائتزر بالمئزر واتشح بالإزار واجلس، فسيجيء قوم يفعلون كما فعلت، ثم يؤتون بطعام فكل معهم، وتعمد موافقتهم في سائر أفعالهم، فإذا أتي بالنبيذ فاشرب، وخذ قدحًا كبيرًا واملأه وقم قائمًا وقل: هذا ساري لخالي أبي بكر النقاش، فسيفرحون ويقولون: أهو خالك؟ فقل: نعم، فيسقومون ويشربون لي، فإذا جلسوا فقل لهم: خالي يقرأ عليكم السلام ويقول: يا فتيان بحياتي ردوا على ابن أختي المئزر الذي أخذتموه بالأمس في السفينة بنهر الأبلة، فإنهم يردونه عليك، فخرجت من عنده ففعلت ما أمر، فردت الفوطة بعينها وما حل شدها، فلما حصلت لي قلت يا فتيان: هذا الذي فعلتموه معي هو قضاء لحق خالي، ولي أنا حاجة تخصني قالوا: مقضية. قلت: عرفوني كيف أخذتم الفوطة، فامتنعوا ساعة، فأقسمت عليهم بحياة أبي بكر النقاش، فقال لي واحد منهم: أتعرفني؟ فتأملته جدًا فإذا هو الضرير الذي كان يقرأ، وإنما كان متعاميًا، وأومأ آلى آخر فقال: أتعرف هذا؟ فتأملته فإذا هو الملاح، فقلت: كيف فعلتما؟ فقال الملاح: أنا أدور المشارع في أول أوقات المساء، وقد سبقت بهذا المتعامي، فأجلسته حيث رأيت، فإذا رأيت مَن معه شيء له قدر ناديته، وأرخصت له الأجرة وحملته، فإذا بلغت إلى القاري وصاح بي شتمته حتى لا يشك الراكب في براءة الساحة، فإن حمله الراكب فذاك وإلّا رفقته عليه حتى يحمله، فإذا حمله وجلس يقرأ ذهل الرجل كما ذهلت، فإذا بلغنا الموضع الفلاني، فإن فيه رجلًا متوقعًا لنا يسبح حتى يلاصق السفينة، وعلى رأسه قوصرة فلا يفطن الراكب به، فيسلب هذا المتعامي الشيء بخفية، فيليه إلى الرجل الذي عليه القوصرة، فيأخذه ويسبح إلى الشط، وإذا أراد الراكب الصعود وافتقد ما معه عملنا كما رأيت، فلا يتهمنا ونفترق، فإذا كان من غد اجتمعنا واقتسمناه، فلما جئت برسالة أستاذنا خالك سلمنا إليك الفوطة قال: فأخذتها ورجعت.

لصٌّ تائب(١)

قال لصٌّ تائب: دخلت مدينة، فجعلت أطلب شيئًا أسرقه، فوقعت عيني على صيرفي موسر، فما زلت أحتال حتى سرقت كيسًا له، وانسللت فما جزت

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٠.

غير بعيد إذا أنا بعجوز معها كلب قد وقعت في صدري تبوسني وتلزمني وتقول: يا بني، فديتك والكلب يبصبص ويلوذ بي، ووقف الناس ينظرون إلينا، وجعلت المرأة تقول: بالله انظروا إلى الكلب قد عرفه، فعجب الناس من ذلك وتشككت أنا في نفسي وقلت: لعلها أرضعتني، وأنا لا أعرفها. وقالت: معي إلى البيت أقم عندي اليوم، فلم تفارقني حتى مضيت معها إلى بيتها، وإذا عندها أحداث يشربون وبين أيديهم من جميع الفواكه والرياحين، فرحبوا بي وقربوني، وأجلسوني معهم، ورأيت لهم بزة حسنة، فوضعت عيني عليها، فجعلت أسقيهم وأرفق بنفسي إلى أن ناموا ونام كل مَن في الدار، فقمت وكورت ما عندهم وذهبت أخرج، فوثب عليَّ الكلب وثبة الأسد وصاح، وجعل يتراجع ويفج إلى أن انتبه كل نائم، فخجلت واستحييت، فلما كان النهار فعلوا مثل فعلهم أمس وفعلت أيضًا أنا بهم مثل ذلك، وجعلت أوقع الحيلة في أمر الكلب إلى الليل، فما أمكنني فيه حيلة، فلما ناموا رمت الذي رمته، فإذا الكلب عارضني بمثل ما عارضني به، فجعلت أحتال ثلاث ليال، فلما أيست طلبت الخلاص منهم بإذنهم، فقلت: أتأذنون لي فإني على وفز فقالوا: الأمر إلى العجوز فاستأذنتها فقالت: هات الذي أخذته من الصيرفي وامضِ حيث شئت ولا تقوم في هذه المدينة، فإنه لا يتهيأ لأحد فيها معي عمل، فأخذت الكيس وأخرجتني ووجدت مناي أن أسلم من يدها، وكان قصراي أن أطلب منها نفقة، فدفعت إليَّ وخرجت معي حتى أخرجتني عن المدينة والكلب معها حتى جزت حدود المدينة ووقفت ومضيت والكلب يتبعني حتى بعدت، ثم تراجع ينظر إليَّ ويلتفت وأنا أنظر إليه حتى غاب عني.

حمار بسمك(١)

قال سهل الخلاطي: بلغني أن محتالين سرقا حمارًا ومضى أحدهما ليبيعه، فلقيه رجل معه طبق فيه سمك، فقال له: تبيع هذا الحمار؟ قال: نعم، قال: امسك هذا الطبق حتى أركبه، وانظر إليه، فدفع إليه الطبق فيه السمك، فركبه ورجع ثم ركبه ودخل زقاقًا ففرّ به. فلم يدر أين ذهب، قال: فرجع المحتال فلقيه رفيقه، فقال: ما فعل الحمار؟ قال: بعناه بما اشتريناه وربحنا هذا الطبق من السمك.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧١.

لصٌّ يسرق لص(١)

كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حداثته، ثم تاب فصار بزازًا. قال: فانصرف ليلة من دكانه وقد غلقه، فجاء لص محتال متزي بزي صاحب الدكان في كمه شمعة صغيرة ومفاتيح، فصاح بالحارس، فأعطاه الشمعة في الظلمة، وقال: إشعلها وجئني بها، فإن لي الليلة بدكاني شغلًا فمضى الحارس يشعل الشمعة وركب اللص على الأقفال، ففتحها ودخل الدكان، وجاء الحارس بالشمعة، فأخذها من يده، فجعلها بين يديه، وفتح سفط الحساب، وأخرج ما فيه وجعل ينظر الدفاتر ويرى بيده أنه بحسب الحارس يتردد ويطالعه، ولا يشك في أنه صاحب الدكان إلى أن قارب السحر، فاستدعى اللص الحارس، وكلمه من بعيد، وقال: اطلب لي حمالًا، فجاء بحمال، فحمل عليه أربع رزم مثمنة، وقفل الدكان وانصرف معه الحمال وأعطى الحارس درهمين، فلما أصبح الناس جاء صاحب الدكان ليفتح دكانه، فقام إليه الحارس يدعو له ويقول: فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة الدرهمين، فأنكر الرجل ما سمعه وفتح دكانه، فوجد سيلان الشمعة وحسابه مطروحًا وفقد الأربع رزم، فاستدعى الحارس، وقال له: من كان حمل الرزم معي من دكاني قال: أما استدعيت مني حمالًا فجئتك به؟ قال: بلى، ولكن كنت ناعسًا وأريد الحمال، فجئني به، فمضى الحارس فجاء بالحمال وأغلق الرجل الدكان وأخذ الحمال معه ومضى، فقال له: إلى أين حملت الرزم معي البارحة، فإني كنت منقبذًا. قال: إلى المشرعة الفلانية، واستدعيت لك فلانًا الملاح، فركبت معه، فقصد الرجل المشرعة، وسأل عن الملاح، فحضر وركب معه، وقال: أين رقيت أخي الذي كان معه الأربع الرزم، قال: إلى المشرعة الفلانية. قال: اطرحني إليها فطرحه، قال: مَن حملها معه؟ قال: فلان الحمال، فدعا به، فقال له: امشِ بين يدي فمشى، فأعطاه شيئًا واستدله برفق إلى الموضع الذي حمل إليه الرزم، فجاء به إلى باب غرفة في موضع بعيد من الشط قريب من الصحراء، فوجد الباب مقفلًا، فاستوقف الحمال وفش القفل ودخل، فوجد الرزم بحالها، وإذا في البيت بركان معلق على حبل، فلفّ الرزم فيه ودعا بالحمال، فحملها عليه وقصد المشرعة، فحين خرج من الغرفة استقبله اللص، فرآه وما معه، فأبلس فاتبعه إلى الشط، فجاء إلى المشرعة ودعا الملاح ليعبر، فطلب الحمال مَن

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧١.

يحط عنه، فجاء اللص فحطّ الكساء كأنه مجتاز متطوع، فأدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، وجعل البركان على كتفه وقال له: يا أخي، استودعك الله قد ارتجعت رزمك، فدع كسائي فضحك. وقال: انزل فلا خوف عليك، فنزل معه واستتابه ووهب له شيئًا وصرفه ولم يسيء إليه.

أكل معهم وسرقهم[1]

عن أبي القاسم التنوخي، عن أبيه: أن رجلًا من بني عقيل مضى ليسرق دابة. قال: فدخلت الحي، فما زلت أتعرّف مكان الدابة فاحتلت حتى دخلت البيت، فجلس الرجل وامرأته يأكلان في الظلمة، فأهويت بيدي إلى القصعة وكنت جائعًا، فأنكر الرجل يدي وقبض عليها، فقبضت على يد المرأة بيدي الأخرى، فقالت المرأة: مالك ويدي؟ فظن أنه قابض على يد امرأته فخلى يدي، فخليت يد المرأة، وأكلنا، ثم أنكرت المرأة يدي فقبضت عليها، فقبضت على يد الرجل، فقال لها: ما لك ويدي، فخلت عن يدي، فخليت عن يده، ثم نام وقمت، فأخذت الفرس.

وقد رويت هذه الحكاية على صفة أخرى: فأنبأنا محمد بن أبي طاهر، أنبأنا التنوخي، عن أبيه، حدّثنا أبو الحسن محمد بن أحمد الكاتب، حدّثني محمد بن يزمع العقيلي أحد قوادهم ووجوههم في الحي، وكان ورد إلى معز الدولة، فأكرمه وأحسن إليه. قال: رأيت رجلًا من بني عقيل وظهره كله مشرطات الحجام، إلا أنها أكبر، فسألته عن ذلك، فقال إني كنت هويت ابنة عم لي، فخطبتها فقالوا: لا نزوجك إلا أن تجعل في الصداق «الشبكة»[2] فرس سابقة كانت لبعض بني أبي بكر، فتزوجتها على ذلك وخرجت في أن احتال أن أسل الفرس من صاحبه لأتمكن من الدخول بابنة عمي، فأتيت الحي الذي فيه الفرس وما زلت أداخلهم، فمرة أجيء إلى الخباء الذي فيه الرجل كأني سائل إلى أن عرفت بيت الفرس من الخباء الذي فيه الرجل وأخبئت حتى دخلت من خلفه، وحصلت خلف النضد نحت، وكانوا تفشوه ليغزل، فلما جاء الليل وافى صاحب البيت، وقد زاولت له المرأة عشاء وجلسا يأكلان، وقد استحكمت الظلمة ولا مصبح لهم، وكنت جائعًا فأخرجت يدي وأهويت إلى

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٢.

(٢) الشبكة: اسم الفرس.

القصعة[1]، فأكلت معهما وأحس الرجل بيدي فأنكرها، فقبض عليها فقبضت على يد المرأة، فقالت له المرأة: ما لك ويدي؟ فظن أنه قابض على يد امرأته فخلى يدي فخليت يد المرأة، وأكلنا ثم أنكرت المرأة يدي فقبضت عليها فقبضت على يد الرجل، فقال لها: ما لك ويدي؟ فخلت عن يدي فخليت عن يده، وانقضى الطعام واستلقى الرجل نائمًا، فلما استثقل وأنا مراصدهم والفرس مقيدة في جانب البيت والمفتاح تحت رأس المرأة، فوافى عبد له أسود فنبذ حصاة، فانتبهت المرأة، فقامت إليه وتركت المفتاح مكانه، وخرجت من الخباء إلى ظاهر البيت، فإذا هو قد علاها، فأخذت أنا المفتاح ففتحت القفل، وكان معي لجام شعر، فأجزته الفرس وركبتها، وخرجت عليها من الخباء، فقامت المرأة من تحت العبد، ودخلت الخباء وصاحت وذعر، الحي فأحسوا بي وركبوا في طلبي وأنا أكد الفرس وخلفي خلق منهم، فأصبحت وليس ورائي إلا فارس واحد برمح، فلحقني وقد طلعت الشمس، وأخذ يطعنني، فهذه آثار طعناته في جسدي لا فرسه يلحقه بي حتى يتمكن من طعنته إياي ولا فرسي ينجيني إلى حيث لا يمسني الرمح حتى وافينا إلى نهر عظيم، فصحت بالفرس، فوثبه وصاح الفارس بالتي تحته، فقصرت ولم تثب، فلما رأيته عاجزًا عن العبور وقفت لأريح الفرس وأستريح، فصاح بي، فأقبلت عليه بوجهي، فقال: يا هذا أنا صاحب الفرس التي تحتك، وهذه ابنتها .وإذ قد ملكتها، فلا تخدعن فيها، فإنها تساوي عشر ديّات، وما طلبت عليها شيئًا قط إلا لحقته، ولا طلبني عليها أحدًا إلّا فته، وإنما سميت الشبكة لأنها لم ترد شيئًا إلا أدركته، فكانت كالشبكة في صيدها، فقلت له: إذ نصحتني، فوالله لأنصحنك. كان من صورتي البارحة كيت وكيت، فقصصت عليه قصة امرأته والعبد وحيلتي في الفرس، فأطرق ثم رفع رأسه، فقال ما لك لا جزاك الله من طارق خير طلقت زوجتي وأخذت فرسي وقتلت عبدي.

سرق وهو في السجن[2]

قال أبو القاسم التنوخي، عن أبيه: حدّثني أبو الحسين عبد الله بن محمد البصري، حدّثني أبي قال: كان بالبصرة رجل من اللصوص يلص بالليل، فاره جدًّا مقدام. يقال له عباس بن الخياطة قد غلب الأمراء وأشجى أهل البلد، فلم يزالوا

(١) القصعة: وعاء يوضع فيه المرق من الطعام. (٢) كتاب الأذكياء ص ١٧٤.

يحتالون عليه إلى أن وقع وكبّل بمائة رطل حديد وحبس، فلما كان بعد سنة من حبسه أو أكثر دخل قوم بالأبلة على رجل تاجر كان عنده جوهر بعشرات ألوف الدنانير، وكان مستيقظًا جلدًا، فجاء إلى البصرة يتظلم وأعانه خلق من التجار وقال للأمير: أنت دست على جوهري وما خصمي سواك، فورد عليه أمر عظيم وخلا بالبوابين وتوعدهم، فاستنظروه فأنظرهم، وطلبوا واجتهدوا، فما عرفوا فاعل ذلك، فعنفهم الرجل فاستجابوا مدة أخرى، فجاء أحد البوابين إلى الحبس، فتخادم لابن الخياطة ولزمه نحو شهر، وتذلل له في الحبس فقال له: قد وجب حقك عليَّ. فما حاجتك؟ قال: جوهر فلان المأخوذ بالأبلة لا بد أن يكون عندك منه خبر، فإن دماءنا مرتهنة به، وحدّثه الحديث، فرفع ذيله، وإذا سفط الجوهر تحته، فسلّمه إليه وقال: قد وهبته لك، فاستعظم ذلك وجاء بالسفط إلى الأمير، فسأله عن القصة، فأخبره بها. فقال: عليَّ بعباس. فجاؤوا به، فأمر بالإفراج عنه وإزالة قيوده وإدخاله الحمام وخلع عليه وأجلسه في مجلسه مكرمًا واستدعى الطعام، فواكله وبيّته عنده، فلما كان من الغد خلا به، وقال: أنا أعلم أنك لو ضربت مائة ألف سوط ما أقررت كيف كانت صورة أخذ الجوهر، وقد عاملتك بالجميل ليجب حقي عليك من طريق الفتوة، وأريد أن تصدقني حديث هذا الجوهر. قال علي: إنني ومَن عاونني عليه آمنون، وإنك لا تطالبنا بالذين أخذوه؟ قال: نعم، فاستحلفه. فقال له: إن جماعة اللصوص جاؤوني الحبس، وذكروا حال هذا الجوهر، وإن دار هذا التاجر لا يجوز أن يتطرق عليها نقب ولا تسليق، وعليها باب حديد، والرجل متيقظ وقد راعوه سنة، فما أمكنهم وسألوني، فساعدتهم، فدفعت إلى السجان مائة دينار وحلفت له بالشطارة والإيمان الغليظة، أنه إن أطلقني عدت إليه من غد، وأنه إن لم يفعل ذلك اغتلته، فقتلته في الحبس، فأطلقني فنزعنا الحديد وتركته وخرجت المغرب، فوصلنا إلى الأبلة العتمة، وخرجنا إلى دار الرجل، فإذا هو في المسجد وبابه مغلق، فقلت لأحدهم: تصدق من الباب، فتصدق، فلما جاؤوا ليفتحوا قلت له: اختفي ففعل ذلك مرات، والجارية تخرج، فإذا لم تر أحدًا عادت إلى أن خرجت من الباب، ومشت خطوات تطلب السائل، فتشاغلت بدفع الصدقة إليه، فدخلت أنا إلى الدار، فإذا في الدهليز بيت فيه حمار، فدخلته. ووقفت تحت الحمار وطرحت الجل[1] عليّ وعليه، وجاء الرجل

---

(١) الجل: هو ما يوضع على ظهر الحمار للركوب عليه.

فغلق الأبواب وفتش ونام على سرير عال والجوهر تحته، فلما انتصف الليل قمت إلى شاة في الدار، فعركت أذنها فصاحت، فقال: ويلك أقول لك أفتقديها. قالت: قد فعلت. قال: كذبت، وقام بنفسه ليطرح لها علفًا، فجلست مكانه على السرير، وفتحت الخزانة، وأخذت السفط وعدت إلى موضعي وعاد الرجل، فنام. فاجتهدت أن أجد حيلة أن أنقب إلى دار بعض الجيران، فأخرج فما قدرت، لأن جميع الدار مؤزرة بالساج ورمت صعود السطح، فما قدرت، لأن الممارق مقفلة بثلاثة أقفال، فعملت على ذبح الرجل، ثم استقبحت ذلك، وقلت: هذا بين يدي إن لم أجد حيلة غيره، فلما كان السحر عدت إلى موضعي تحت الحمار وانتبه الرجل يريد الخروج، فقال للجارية: افتحي الأقفال من الباب ودعيه متربسًا، ففعلت وقربت من الحمار فرفس، فصاحت فخرجت أنا ففتحت المترس(١) وخرجت أعدو حتى جئت إلى المشرعة، فنزلت في الخيطية ووقعت الصيحة في دار الرجل، فطالبني أصحابي أن أعطيهم شيئًا منه، فقلت: لا. هذه قصة عظيمة، وأخاف أن يتنبه عليها، ولكن دعوه عندي فإن مضى على الحديث ثلاثة أشهر وافتكم، فصيروا إليَّ أعطيكم النصف، وإن ظهر خفت عليكم وعلى نفسي، وجعلته حقنًا لدمائكم، فرضوا بذلك، فأرسل الله هذا البواب بليلة يخدمني، فاستحييت منه وخفت أن يقتل هو أصحابه، وقد كنت وضعت في نفسي الصبر على كل عذاب، فدخلتم عليَّ من طريق أخرى لم أستحسن في الفتوة معها إلَّا الصدق، فقال له الأمير: جزاء هذا الفعل أن أطلقك، ولكن تتوب فتاب، وجعله الأمير من بعض أصحابه وأسنى له الرزق، فاستقامت طريقته.

يستدين سرقة(٢)

قال أبو الحسين: وحدّثني أبي عن طالوت بن عباد الصيرفي قال: كنت ليلة نائمًا بالبصرة في فراشي وأحراسي يحرسوني وأبوابي مقفلة، فإذا أنا بابن الخياطة ينبهني من فراشي، فانتبهت فزعًا. فقلت: مَن أنت؟ فقال: ابن الخياطة، فتلفت. فقال: لا تجزع قد قمرت الساعة خمسمائة دينار أقرضني إياها لأردها عليك،

(١) المترس: أي المزلاج وهو يستعمل في إغلاق الباب بدون القفل.
(٢) كتاب الأذكياء ص ١٧٥.

فأخرجت خمسمائة دينار، فدفعتها إليه، فقال: نم ولا تتبعني لأخرج من حيث جئت، وإلا قتلتك. قال: وأنا والله أسمع صوت حراسي ولا أدري من أين دخل، ولا من أين خرج، وكتمت الحديث خوفًا منه، وزدت في الحرس ومضت ليال، فإذا أنا به قد أنبهني على تلك الصورة، فقلت: مرحبًا ما تريد؟ قال: جئت بتلك الدنانير تأخذها مني، فقلت: أنت في حل منها، فإن أردت شيئًا آخر فخذ، فقال: لا أريد من نصح التجار أشاركهم في أموالهم، ولو كنت أردت أخذ مالك باللصوصية فعلت، ولكنك رئيس بلدك ولا أريد أذيتك، فإن ذلك يخرج عن الفتوة، ولكن خذها، فإن احتجت إلى شيء بعد هذا أخذت منك، فقلت: أن عودك لا يفزعني، ولكن إذا أردت شيئًا فتعال إليَّ نهارًا أو رسولك، فقال: افعل، فأخذت الدنانير منه وانصرف، وكان رسوله يجيئني بعلامة بعد ذلك، فيأخذ ما يريده بعد مدة، فما انكسر لي عنده شيء إلى أن قبض عليه.

قطعة صابون تتحول آجرًا(١)

حكى أبو محمد عبد الله بن علي بن الخشاب النحوي: أن رجلًا اشترى من مخاطي قطعة صابون ومضى إلى النهر لغسل ثيابه، فلما وصل أخرجها، فإذا هي قطعة آجر، فصعب الأمر عليه، وقال: هذا يبيع الناس آجرًا وصابونًا، فمضى إليه ليردها، فلما وصل قال: ويحك أتبيع الناس آجرًا وصابونًا قال: كيف أبيع آجرًا؟ فأخرجها من كمه، فإذا هي قطعة صابون، فاستحى ورجع إلى النهر، فأخرجها فإذا هي آجر، فعاد إليه ووبخه، وأخرجها فإذا هي قطعة صابون مرة أخرى كذلك حتى ضجر، فقال له المخاطي: لا يضيق صدرك، فإن لنا ولدًا قد أخرجناه نعلمه أن يبطأ ويحتال وأنك كلما مضيت فعل هذا، فإذا رآك قد عدت لردها أعادها في كمك وأنت لا تعلم.

ما أنحس هذه الليلة(١)

دخل لص بيت رجل، فأخذ متاعه وخرج، فصاح الرجل: ما أنحس هذه الليلة؟ فقال اللص: على كل أحد.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٦.

لصٌّ رحوم(١)

قال أبو الفتح البصري: اجتمع جماعة من اللصوص اجتاز عليهم شيخ صيرفي معه كيسه. فقال أحدهم: ما تقولون فيمن يأخذ كيس هذا؟ قالوا: كيف تفعل؟ قال: انظروا ثم تبعه إلى منزله، فدخل الشيخ، فرمى كيسه على الصفة(٢) وقال للجارية: أنا حاقن، فألحقيني بماء في الغرفة، وصعد فدخل اللص فأخذ الكيس، وجاء إلى أصحابه، فحدّثهم، فقالوا: ما علمت شيئًا. تركته يضرب الجارية ويعذبها وما ذا مليح؟ قال: فكيف تريدون؟ قالوا: تخلص الجارية من الضرب وتأخذ الكيس. قال: نعم، فمضى فطرق الباب، فإذا به يضرب الجارية، فقال: مَن قال: غلام جارك في الدكان، فخرج، فقال: ماذا تقول؟ فقال: سيدي يسلّم عليك ويقول لك قد تغيرت. ترمي كيسك في الدكان وتمضي، ولولا أننا رأيناه كان قد أُخذ، وأخرج الكيس، وقال: أليس هذا هو؟ قال: بلى والله صدق، ثم أخذه، فقال له: بل أعطنيه وادخل فاكتب في رقعة قد تسلمت الكيس، حتى أتخلص أنا ويرجع إليك ومالك، فناوله إياه ودخل ليكتب، فأخذه ومضى.

العجوز واللص(١)

قال أبو جعفر محمد بن الفضل الضميري: كان في بلدنا عجوز صالحة كثيرة الصيام والصلاة، وكان لها ابن صيرفي منهمك على الشرب واللعب، وكان يتشاغل بدكانه أكثر نهاره، ثم يعود إلى منزله، فيخبىء كيسه عند والدته، فدخل إلى الدار لص وهو لا يعلم، فاختبأ فيها، وسلم الابن كيسه إلى أمه وخرج وبقيت هي وحدها في الدار، وكان لها في دارها بيت مؤزر بالساج عليه باب من حديد تجعل قماشها فيه والكيس، فخبأت الكيس فيه خلف الباب وجلست فأفطرت بين يديه، فقال اللص: الساعة تقفله وتنام، وأنزل وأقلع الباب وآخذ الكيس، فلما أفطرت قامت تصلي ومدت الصلاة ومضى نصف الليل وتحير اللص، وخاف أن يدركه الصبح، فطاف في الدار فوجد إزارًا جديدًا وبخور فاتزر بالإزار، وأوقد البخور وأقبل ينزل على الدرجة، ويصيح بصوت غليظ ليفزع العجوز، وكانت جلدة، ففطنت أنه لصّ، فقالت: مَن هذا؟ بارتعاد وفزع. فقال: أنا جبريل رسول رب

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٧.

(٢) الصفة: أي المصطبة.

العالمين أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه وأعامله بما يمنعه عن ارتكاب المعاصي، فأظهرت أنها قد غشي عليها من الفزع، وأقبلت تقول: يا جبريل سألتك ألا رفقت به، فإنه وحيدي، فقال اللص: ما أرسلت لقتله. قالت: فبم أرسلت؟ قال: لآخذ كيسه وأؤلم قلبه بذلك، فإذا تاب رددته عليه، فقالت: يا جبريل، شأنك وما أمرت به، فقال: تنحي عن باب البيت، وفتح هو الباب ودخل ليأخذ الكيس والقماش، واشتغل في تكويره فمشت العجوز قليلًا قليلًا وجذبت الباب وجعلت الحلقة في الرزة، وجاءت بقفل فقفلته، فنظر اللص إلى الموت ورام حيلة، نقب أو منقذ، فلم يجد، فقال: افتحي لأخرج فقط اتعظ ابنك، فقالت: يا جبريل، أخاف أن أفتح الباب، فتذهب عيني من ملاحظة نورك، فقال: إني أطفىء نوري حتى لا يذهب بعينيك. فقالت: يا جبريل، ما يعوزك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك ولا تكلفني أنا لتغوير بصري، فأحس اللص أنها جلدة، فأخذ يرفق بها ويداريها ويبذل التوبة، فقالت: دع عنك هذا لا سبيل إلى الخروج إلَّا بالنهار، وقامت فصلّت، وهو يسألها حتى طلعت الشمس، وجاء ابنها وعرف خبرها، وحدثته الحديث، فأحضر صاحب الشرطة وفتح الباب وقبض على اللص.

حيلة أبي حنيفة(١)

قيل إن رجلًا ابتلي بمحبة امرأة، فأتى أبا حنيفة، فأخبره أن ماله قليل، وأنهم إن علموا بذلك لم يزوجوه، فقال له أبو حنيفة: أتبيعني أحليلك باثني عشر ألف درهم؟ قال: لا. قال: فأخبر القوم أني أعرفك، فمضى فخطبها، فقالوا: مَن يعرفك، فقال: أبو حنيفة، فسألوا أبا حنيفة عنه، فقال: ما أعرفه إلَّا أنه حضر عندي يومًا فساوم في سلعة له باثني عشر ألف درهم، فلم يبع، فقالوا: هذا يدل على أنه ذو مال، فزوجوه، فلما تيقنت المرأة حاله قالت: لا يضيق صدرك وهذا مالي بحكمك، ثم مضت إلى أبي حنيفة في حليها وحللها فقالت: فتوى، فدخلت فأسفرت عن وجهها، فقال: تستري، فقالت: ما يمكن قد وقعت في أمر لا يخلصني منه إلَّا أنت. أنا بنت هذا البقال الذي على رأس الدرب، وقد بلغت عمرًا واحتجت إلى الزوج وهو لا يزوجني، ويقول لمن يخطبني ابنتي عوراء قرعاء

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٣.

شلاء، ثم حسرت عن وجهها ورأسها ويديها. ويقول: ابنتي زمنة وكشفت عن ساقيها وأريد أن تدبرني، فقال: ترضين أن تكوني لي زوجة؟ فقبلت قدميه وقالت: من لي بغلامك، فقالت: امضي في دعة الله، فخرجت، فحضر البقال ودفع إليه خمسين دينارًا وقال: زوجني ابنتك، فكتب كتابًا بمائة دينار، فقال البقال: يا سيدي، استر ما ستر الله أنا لي بنت أزوجك. قال: دع هذا عنك رضيت بابنتك القرعاء الشلاء الزمنة، فزوجه على المائة والخمسين ومضى، فحدث زوجته فقالت: والله لا كان إلا يكون هذا إلا على يد أبي حنيفة، فلما كان عشية تلك الليلة أجلسها أبوها في صن وحملها بينه وبين غلامه، فلما رآها أبو حنيفة قال: ما هذا؟ فقال البقال: أشهد على أمها إن كانت لي بنت غيرها، فقال أبو حنيفة: هي طالق ثلاثًا أعد عليَّ الكتاب، ثم جاءت تلك المرأة إليه، فقال: ما حملك على ما فعلت؟ فقالت: وأنت ما حملك على أن غررتنا برجل فقير.

حيلة امرأة(١)

قال أبو الحَسن البيني مؤذن المسترشد بالله قال: حدّثني بعض التجار المسافرين قال: كنا نجتمع من بلاد شتى في جامع عمرو بن العاص نتحدث، فبينما نحن جلوس يومًا نتحدث، وإذا بامرأة بقربنا في أصل سارية، فقال لها رجل من التجار من البغداديين: ما شأنك؟ فقالت: أنا امرأة وحيدة غاب عني زوجي منذ عشر سنين، ولم أسمع له خبرًا، فقصدت القاضي ليزوجني، فامتنع وما ترك لي زوجي نفقة، وأريد رجلًا غريبًا يشهد لي هو وأصحابه أن زوجي مات أو طلقني لأتزوج أو يقول أنا زوجها، ويطلقني عند القاضي لأصبر مدة العدة، وأتزوج، فقال لها الرجل: تعطيني دينارًا حتى أصير معك إلى القاضي وأذكر له أني زوجك، وأطلقك، فبكت وقالت: والله ما أملك غير هذه، وأخرجت أربع رباعيات، فأخذها منها ومضى معها إلى القاضي، وأبطأ علينا، فلما كان من الغد لقيناه، فقلنا: ما أبطأك؟ فقال: دعوني فإني حصلت في أمر ذكره فضيحة. قلنا أخبرنا. قال: حضرت معها إلى القاضي فادعت عليَّ الزوجية والغيبة عشر سنين، وسألت أن أخلي سبيلها، فصدقتها على ذلك، فقال لها القاضي: أتبرئينه؟ قالت: لا. والله لي عليه صداق ونفقة عشر سنين، وأنا أحق بذلك، فقال لي القاضي:

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٣.

أديها حقها ولك الخيار في طلاقها أو إمساكها، فورد عليَّ ما بلسني، ولم أتجاسر أن أحكي صورتي معها، فلا أصدق، فتقدم القاضي بتسليمي، إلى صاحب الشرطة، فاستقر الأمر على عشرة دنانير أخذتها مني وغرمت للوكلاء وأعوان القاضي الأربع رباعيات التي أعطتني، ومثلها من عندي، فضحكنا منه، فخجل وخرج من مصر، فلم يعرف له خبر.

مســتحلة(١)

ونقل من خط الشيخ أبي الوفاء بن عقيل قال: حكى لي بعض الأصدقاء أن امرأة جلست على باب دكان بزار أعزب إلى أن أمست، فلما أراد غلق الدكان تراءت له، فقال لها: ما هذا المساء؟ فقالت: والله ما لي مكان أبيت فيه. فقال لها: تمضين معي إلى البيت؟ فقالت: نعم، فمضى بها إلى بيته، وعرض عليها التزويج، فأجابت فتزوجها، وبقيت عنده أيامًا، وإذا قد جاء في اليوم الرابع رجل ومعه نسوة، فطلبوها، فأدخلهم وأكرمهم، وقال: مَن أنتم منها؟ فقالوا: أقاربها ابن عم وبنات عم، وقد سررنا بما سمعنا من الوصلة غير أنا نسألك أن تتركها تزورنا لعرس بعض أقاربنا، فدخل إليها. فقالت: لا تجبهم إلى ذلك واحلف بطلاقي إنك لا خرجت من داري شهر ليمضي زمن العرس، فإنه أصلح لي ولك، وإلا أخذوني وأفسدوا قلبي عليك، فإني كنت غضبى وتزوجت إليك بغير مشاورتهم، ولا أدري مَن قد دلهم إليك، فخرج فحلف كما ذكرت له فخرجوا مأيوسين، وأغلق الباب وخرج إلى الدكان وقد علق قلبه بالمرأة، فخرجت ولم تستصحب من الدار شيئًا، فجاء فلم يجدها، فقال قائل: ترى ما الذي قصدت؟ قال أبو الوفاء لعلها مستحلة به لأجل زوج طلقها ثلاثًا، فليتخوف الإنسان من مثل هذا، وليطلع به على غوامض حيل الناس.

مِن حِيَل الكُرمَاء(٢)

أهدى معاوية إلى عُبيد الله بن العبّاس حُلَلًا كثيرة، ومُسْكًا وآنِيَةً من ذهبٍ وفِضّة، ووجَّهها إليه مع حاجِبِه؛ فلما وضَعَها بين يديه نظر إلى الحاجبِ ـ وهو يُطِيلُ النّظَرَ فيها ـ فقال: هل في نفسِك منها شيءٌ؟ قال: نعم، والله إنّ في نفسي منها ما كان في نَفْس يعقوبَ من يوسف!

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٤.

(٢) ثمرات الأوراق للحموي: ١ ـ ١٢٩.

فضحك عُبيد الله وقال: فشأنكَ بها؛ فهي لك! قال: جُعِلتُ فداك! أنا أخاف أنْ يبلغَ ذلك معاويةَ؛ فيغضبَ لذلك. قال: فاختمها بخاتمك، وادفعْها إلى الخازِن، وهو يحملُها إليك ليلًا. فقال الحاجب: واللهِ إنَّ هذه الحيلةَ في الكرماءِ أكثرُ من الكرمِ؛ ولَوَدِدْتُ أني لا أموت حتى أراكَ مكانَه - يعني معاوية.

فظنَّ عبيدُ الله أنها مَكِيدةٌ منه؛ فقال: دَعْ هذا الكلام؛ إنّا من قومٍ نَفِي بما عَقَدْنَا، ولا ننقضُ ما أكّدْنا!

دَهَاء عمَار بن تميم اللخمي(١)

كان الحجاج حسودًا لا تتمُّ له صنيعةٌ حتى يفسدَها، فوجّه عمارةَ بن تميم اللخمِي إلى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث؛ فظفر به، وصنع به ما صنع، ورجع إلى الحجّاج بالفتح، فلم ير منه ما أحبّ، وكره مُنَافرته، وكان عاقلًا رفيقًا، فجعل يترفّق به ويداريه، ويقول: أنت - أيها الأمير - أشرفُ العرب، فمن شرَّفْته شرف، ومَن وضَعتَه اتضع، ومَنْ ينكرُ ذلك، مع رفقك ويمْنِك ومشورتك ورأيك؟ وما كان هذا كلُّه إلا بصنع الله عزّ وجلّ وتدبيرك، وليس أحدٌ أحقَّ بشكر صنيعك مني، ومَن ابنُ الأشعث؟ وما خَطَرُه؟

ثم عزم الحجاج عَلَى المضيّ إلى عبد الملك فأخرج عمارةَ معه، فلم يزل يلطفه بالحجاج في مسيره، ويعظِّمه، حتى قدموا على عبد الملك.

فلما قامت الخطباءُ بين يديه، وأثنت على الحجاج، قام عُمارة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، سَل الحجّاجَ عن طاعتي ومُنَاصَحتي وبلائي! فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، صنع وصنع، ومن بأسه ونجدته وعقله ومكيدته كذا وكذا، هو أيمنُ الناس نقيبة، وأعلمهُم بتدبيرٍ وسياسة، ولم يُبْقِ غايةً في الثناء عليه.

فقال عُمارة: أرضيتَ يا أمير المؤمنين! قال: نعم! فرضي الله عنك، حتى قالها ثلاثًا، في كلها يقول: قد رضيت!

فقال عمارة: فلا رضى الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين، ولا حفظه ولا عافاه، فهو - والله - السيِّئُ التدبير، الذي قد أفسد عليك أهلَ العراق، وألَّبَ

(١) المحاسن والمساوىء: ١٤٩، طبع ليزج.

عليك الناس، وما أُوتيت إلا من قلة عقله، وضعف رأيه، وقلة بصره بالسياسة. ولك والله أمثالها، إن لم تَعزله.

فقال الحجاج: مَه يا عمارة! فقال: لا مَهْ ولا كرامة يا أميرَ المؤمنين! كلّ مملوكٍ له حرٌّ إن سار تحت راية الحجاج أبدًا! فقال عبدُ الملك: ما عندنا أَوْسَعُ لك!

فلما انصرف عُمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال له: أنا أعلم أنه ما خرج هذا عنك إلا عن مَعْتبة[1]، ولك عندي العُتْبى[2]، ولك ولك! فأرسل إليه: ما كنت أظنُّ أن عقلك على هذا! أرْجعُ إليك بعد الذي كان من طعني وقولي عند أمير المؤمنين! لا، ولا كرامة لك.

كَيفَ رَأيتم فِرَاستِي فِي الأعرابِي[3]

قدم على الحجاج ابنُ عم له من البادية، فنظر إليه يولّى الناس؛ فقال له: أيها الأمير؛ لم لا تُوَليني بعضَ هذا الحضر؟ فقال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبُون وأنت لا تحسُبُ ولا تكتب!

فغضب الأعرابي، وقال: بلى، إني لأَحْسب منهم حَسْبًا[4]، وأَكْتُبُ منهم كَتْبا! فقال الحجاج: فإن كان كما تزعمُ فاقْسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، فما زال يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة؛ ثلاثة بين أربعة، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء! كم هم أيُّها الأمير؟ قال: هم أربعة، قال: نعم! أيها الأمير، قد وقَفْتُ على الحساب، لكلِ واحد منهم درهم، وأنا أعطي الرابعَ منهم درهمًا من عندي! وضرب بيده إلى تِكّتِه[5]، فاستخرج منها درهمًا، وقال: أيكم الرابع؟ فوالله ما رأيت كاليوم زُورًا مثل حساب هؤلاء الحَضرِيين!

فضحك الحجاج ومَن معه، وذهب بهم الضحكُ كلّ مذهب، ثم قال الحجاج: إن أهل أصبهان أخروا خراجهم ثلاث سنين، كلما أتاهم والٍ أعجزوه، فلأرمينهم بهذا، فأَخْلق به أن يُنجب!

---

(١) المعتبة: العتاب.
(٢) العتبى: الرضا.
(٣) المسعودي: ٢ ـ ١٦٠.
(٤) حسابًا.
(٥) التكة: رباط السراويل.

فكتب له عَهْدَه على أصبهان!

فلما خرج استقبله أهل أصبهان واستبشروا به وأقبلوا عليه يقبِّلون يده ورجله وقالوا: أعرابي بدويّ! ما يكون منه!

فلما أكثروا عليه، قال: أما يَشْغَلكُم ما أَخْرَجني له الأمير؟

فلما استقرَّ في داره بأصْبَهان جمع أهلها، فقال: ما لكم تعصون ربكم وتُغْضبون أميرَكم، وتُنْقِصون خراجكم؟ فقال قائلهم: جَوْرُ مَن كان قبلك، وظلم مَن ظلم! قال: فما الأمر الذي فيه صلاحُكم؟ فقالوا: تؤخِّرُنا بالخراج ثمانية أشهر، ونجمعه لك! قال: لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمناء.

فأتَوْه بهم، فلما توثق منهم أمهلهم؛ وكلما قَرُب الوقت رآهم غيرَ مكترثين لما نُدِبوا[1] إليه من الأجل! وطال به ذلك، فجمع الضُّمنَاء؛ وقال لهم: المال! فقالوا: أصابنا من الآفة نقض ذلك!

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر ـ وكان في شهر رمضان ـ حتى يُجمَع مالُه أو يضربَ أعناقهم!

ثم قدَّم أحدهم وضرب عُنُقه، وكتب عليه. فلان ابن فلان أدَّى ما عليه! وجعل رأسه في بَدْرة[2]، وختم عليها! ثم قدَّم الثاني ففعل به مثل ذلك!

فلما رأى القوم الرؤوس تجزّ، وتجعل في الأكياس بدلًا من البِدَر، قالوا: أيها الأمير؛ توقف علينا حتى نحضر لك المال؛ ففعل، فأحضروه في أسرع وقت!

فبلغ ذلك الحجاج فقال: إنا معاشر آل محمد ـ يعني جدّه ـ ولدنا نجيب، فكيف رأيتم فراستي[3] في الأعرابي؟!

ولم يزل واليًا عليها حتى مات الحجاج!

من بَدَائه الشعَرَاء[4]

أُتِي سليمانُ بن عبد الملك بأسارى، وكان الفرزدق حاضرًا، فأمره سليمانُ بضَرْبِ واحدٍ منهم فاستعفاه فأبى، وقد أُشِير إلى سيفٍ غيرِ صالح للضرب

(١) ندب القوم إلى الأمر ندبًا: دعاهم وحثهم. (٢) البدرة: كيس يوضع فيه عشرة آلاف درهم.
(٣) الفراسة: البصر بالشيء والعلم به.
(٤) أدب الدنيا والدين: ٧، بلوغ الأرب: ١ ـ ٢٠.

ليستعملَه فقال الفرزدق: بل أضربُ بسيف أبي رَغْوَان[١] سيفِ مُجاشعٍ - يعني نفسه - وكأنه قال: لا يَسْتَعْمِل ذلك السيفَ إلا ظالم أو ابنُ ظالم، ثم ضرب بسيفه الأسيرَ، واتَّفق أن نبا السيف، فضحك سليمان ومَن حوله؛ فقال الفرزدق:

أيعجبُ الناسُ أن أضحكتُ سيّدهم خليفةَ اللهِ يُستَسقَى به المطرُ
لم ينبُ[٢] سيفيَ من رُعْب ولا دَهَش عن الأسير، ولكن أخّر القَدَرُ
ولن يقدّمَ نفسًا قبل ميتَتها جمعُ اليدين ولا الصَّمْصامة[٣] الذَّكَرُ

ثم أغمد سيفه وهو يقول:

ما إن يُعَاب سيدٌ إذا صَبَا ولا يُعَاب صارمٌ إذا نَبَا
ولا يعاب شاعرٌ إذا كبا

ثم جلس يقول: كأني بابن المَرَاغَةِ[٤] قد هجاني، فقال:

بسيْفِ أبي رَغوانَ سيفِ مُجَاشع ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالم

وقام وانصرف.

وحضر جرير، فخُبِّر الخبر، ولم يُنْشد الشعر، فأنشأ يقول:

بسيف أبي رغوانَ سيفِ مجاشع ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابن ظالم

فأعْجَب سليمان ما شاهد! ثم قال جرير: يا أمير المؤمنين، كأني بابن القَيْنِ[٥] قد أجابني فقال:

ولا نقتل الأسرى، ولكن نفكُّهم إذا أثقل الأعناق حملُ المغارمِ

ثم أخبر الفرزدق بالهَجْوِ دون ما عداه، فقال مجيبًا:

كذاك سيوفُ الهند تَنبُو ظُباتها[٦] وتقطعُ أحيانًا مَنَار التمائِم

---

(١) رغوان: لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة، لقب به لفصاحته وجهارة صوته، ويقال: قالت امرأة سمعته: ما هذا إلا يرغو، فلقب رغوان.
(٢) لم ينب: لم يكل عن الضريبة.
(٣) الصمصامة: السيف لا ينثني، والذكر أيبس الحديد وأجوده وأشده.
(٤) يريد جرير.
(٥) القين: العبد والحداد، وهو يريد الفرزدق.
(٦) الظباة: جمع ظبة، وهي حد السيف.

ولن نقتل الأسرى ولكن نفكّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارِمِ
وهل ضربةُ الروميِّ جاعلةً لكُمْ أَبًا عن كُلَيْب أو أخًا مثل دارم

وشاع حديثُ الفرزدق بهذا حتى كان زمان المهدي[١]، فأُتيَ بأسْرى من الروم، وأَمَر بقتلهم ـ وكان عنده شبيب[٢] بن شيبة ـ فقال له: اضرب عُنق هذا العلجِ[٣]، فقال: يا أمير المؤمنين، قد عَلِمْت ما ابْتلى به الفرزدق فعُيِّر به قومُه إلى اليوم. فقال: إنما أردتُ تشريفك وقد أعفيتُك. وكان شعر حاضرًا فقال:

جزِعتَ من الروميِّ وهو مقيَّدٌ فكيف ولو لا قَيْتَه وهو مُطْلَقُ
دعاك أميرُ المؤمنين لِقَتْلِهِ فكاد شبيبٌ عند ذلك يَفْرَقُ[٤]
فَنحِّ شبيبًا عن قِراع كتيبةٍ وأَدْنِ شبيبًا من كلام يُلَفَّقُ

قـــوة حجّة[٥]

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عديّ بن أَرْطاة: أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوْشَنيِّ، فولِّ القضاء أنْفَذهما.

فجمع بينهما، فقال له أياس: أيُّها الرجل سَلْ عني وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسنَ البَصْري، وابنَ سِيرين.

وكان القاسمُ يأتي الحسنَ وابن سيرين، وكان إياسٌ لا يأتيهما، فعلم القاسمُ أنه إن سألهما عنه أشارَا به؛ فقال: لا تسألْ عني ولا عنه؛ فوالله الذي لا إلـٰه إلا هو، إن إياس بن معاوية أفْقَهُ مني وأعلم بالقضاء. فإن كنتُ كاذبًا فما ينبغي أن توَليني، وإن كنتُ صادقًا فينبغي لك أن تقبلَ قولي!

فقال له إياس: إنك جئتَ برجلٍ فأوْقَفْتَه على شفير جهنّم، فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة، يستغفرُ الله منها، وينجو مما يخاف.

فقال له عديّ: أما إذا فهمتها فأنت لها، فاستَقْضَاه.

---

(١) انظر صفحة ٢٦٢.
(٢) خطيب البصرة في زمانه، كان في حاشية المهدي حينما كان واليًا للعهد وبقي كذلك حتى ولي الخلافة فكان من سماره المقربين، توفي سنة ١٧٠ هـ.
(٣) العلج: الواحد من كفار العجم.
(٤) يفرق: يخاف.
(٥) العقد الفريد: ١ ـ ١١.

أدبتني فتأذَّبْت(١)

كان أبو سلمة حفص بن سليمان وسليمان بن كثير - وهما سيّدا دعاة الدولة العباسية - يَفِدان كلّ عام على إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فيأتيانه بهذا يا أَهْلِ الدعوة، وكُتُبهم، ولم يكن أحد من آل إبراهيم يعرفُهما، ولا يعرف الأمرَ الذي يأتيانِ له، فقدِمَا سنةً من السنين فرأيَا العباس وأبا جعفر، فأعجباهما، وهما إذ ذاك غُلَامان، فقال سليمانُ بن كثير لأبي سَلَمة: إني مسرّ إليك مهما من أمر الدين والدنيا، فاحْلِفْ لي على كِتْمانه، فحلف له أبو سلمة بأيمان رضيها منه، فقال له سليمان: إني أرى عند هذين الصبيين من أمارات الاستقلال بالخلافة، ما لا كِفَاء له(٢)، فقال له أبو سلمة: هما والله أولى بالأمر من صاحبنا - يعني إبراهيم الإمام - فقال سليمان: ما منعني من ذكر هذا إلا التَّسَتُّر.

وبينا هما يتفاوضان في هذا الأمر إذ مرَّ أبو العباس وأبو جعفر وهما يضربان كُرة، فدعاهما أبو سَلَمة فأتياه، فقال لهما: إني أنشدت صاحبي هذا شعرًا أنا مُعْجَبٌ به، فلم يرضه، وقد رضينا بحكمكما فيه. فقالا: أنشده، فأنشدهما:

أمسلمُ إني يا ابْنَ كل خليفة ... ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض(٣)
شكرتك إن الشكرَ حَبْلٌ من التقى ... وما كل مَن أوليتَه نعمةً يَقْضِي(٤)
وشَيَّدت(٥) من ذكرى وما كان خاملًا ... ولكن بعض الذكر أنْبَه من بعض(٦)

فقال أبو جعفر: مَنْ قال هذا؟ فقال: قاله أبو نُخيلة، فعضّ أبو جعفر على إصبعه، ثم قال آآمِنٌ هذا العبدُ أن تَدُول(٧) لبني هاشم دولة فيُولِغُوا(٨) الكلابَ دمه؟ فقال له أبو العباس: مَهْ(٩) يا أخي، فإنه يقال: مَن ظَهَرَ غَضَبُه ضَعُفَ كيدُه.

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٩٥.
(٢) لا كفاء له: لا مثل له يكافئه.
(٣) أمسلم: يريد أمسلمة.
(٤) حبل من التقى: سبب منه وعهد، والعهد: الحبل.
(٥) شيدت: رفعت.
(٦) أنبه: أرفع.
(٧) الدولة: الانتقال من حال إلى حال.
(٨) أولغت الكلب: إذا جعلت له شيئًا يولغ فيه.
(٩) مه: اسم فعل، معناه: اكفف.

ثم أقبل أبو العباس على أبي سَلمة، وقال له: هذا شعرُ أحمق في أحمق! كيف يقول لرجل هو في سلطان غيره، وتابع له: يا جَبَلَ الأرض؟ أليس جبَلُ الأرض هو مُرْسِيها، ولا يصلح أن يخاطبَ بهذا من هو تابع لغيره، وأين تفخيمه وتعظيمه من نقص اسمه، إذ يُنَاديه: «أمسلم» وهو مسلمة؟

ثم إن العباس ولّى، فقال له أبو جعفر: هلمَّ يا أخي نلْعب، فقال له أبو العباس: هل أولغت[1] الكلابَ دم أبي نخيلة؟ فقال: لا، ولكنك أدَّبتني فتأدَّبت، وذهبا!

فقال أبو سلمة لسليمان بن كثير: بمثل هذا يُطْلب الملك، ويُدْرك الثأر!

حَذَرُ إبراهيم بن هَرْمة[2]

وجّه المنصورُ رسولًا إلى ابن هرْمة[3]، ودفع إليه ألفَ دينار وخِلعة، ووصفَه له وقال: امْضِ إليه، فإنك تراه جالسًا في موضِع كذا من المسجد، فانتسبْ له إلى بني أمية أو مَواليهم، وسَلْه أن يُنشدك قصيدته الحائية التي يقول فيها يمدح عبد الواحد بن سليمان:

وجدْنا غالبًا كانت جَنَاحًا وكان أبوك قادمة الجناح

فإذا أنشدكها فأخْرجه من المسجد واضربْ عُنقَه وجئني برأسه، وإن أنشدك قصيدتَه اللامية التي يَمْدَحُني فيها فادفعْ إليه الألف الدينار والخِلْعة؛ وما أراه يُنشدُك غيرَها ولا يعترفُ بالحائية.

فأتاه الرسولُ فوجده كما قال المنصور، فجلس إليه واستنشده قصيدته في عبد الواحد؛ فقال: ما قلتُ هذه القصيدة قط ولا أعرفها، وإنما نَحَلها إيّايَ منْ يُعَاديني، ولكنْ إن شئتَ أنشدتك أحسنَ منها قال: قد شئتُ فهاتِ، فأنشده:

سَرى ثوبَه عنك الصّبا المُتَخايل[4]

(١) معناه: هل شفيت غيظك حتى نلعب. (٢) الأغاني: ٦ ـ ١١٢.

(٣) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ـ شاعر غزل من سكان المدينة رحل إلى دمشق ومدح الوليد الأموي فأجازه.

(٤) سرى عنه الثوب: كشفه.

حتى أتى على آخرها[١]؛ ثم قال له هاتِ ما أمركَ أميرُ المؤمنين بدَفْعه إليّ؛ فقال: أيَّ شيء تقول يا هذا؟ وأي شيء دَفَع إلي؟ فقال: دَعْ ذا عنك، فوالله ما بعثك إلا أميرُ المؤمنين ومعك مالٌ وكسوة إلي، وأمرك أن تسألَني عن هذه القصيدة، فإن أنشدتُك إياها ضربتَ عُنُقي وحملتَ رأسي إليه، وإن أنشدتُك هذه اللاميَّة دفعتَ إليّ ما حمّلك إياه، فضحك الرسولُ، ثم قال: صدقتَ لعمري! ودَفع إليه الألف الدينار والخلْعة.

المنصور وَدَليلَة بالمدينَة[٢]

لما حجَّ أبو جعفر المنصور قال للربيع: ابْغِ لي فتًى من أهل المدينة أديبًا ظريفًا، عالمًا بقديم ديارها، ورُسُوم آثارها؛ فقد بَعُدَ عهدي بديار قومي، وأريدُ الوقوفَ عليها.

فالتَمَس له الربيعُ فتًى من أعلم الناس بالمدينة، وأعرفهم بظريف الأخبار، وشريف الأشعَار؛ فعجب المنصور منه؛ وكان يسايره أحسنَ مُسايرة، ويحَاضِرُه أزينَ محاضرة، ولا يَبْتَدِئهُ بخطاب إلا على وجه الجواب، فإذا سأله أتى بأوضح دَلَالة، وأفصح مَقَالة.

فأُعْجِب به المنصور غايةَ الإعجاب، وقال للربيع: ادفع إليه عشرة آلاف درهم، وكان الفتى مُمْلِقًا[٣] مضطَرًا. فتشاغل الربيع عنه، فاجتاز مع المنصور بدار عَاتِكة. فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا بيت عاتكةَ بنت يزيد بن معاوية الذي يقول فيه الأحوص بن محمد:

يا بيتَ عاتكة الذي أتَعَزَّلُ[٤] حذرَ العِدَا وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ

قال المنصور: ما هاج منه ما ليس هو طبعه؛ من أن يُخْبر بما لم يُسْتَخْبَر عنه ويجيب بما لم يُسأَل عنه؟ ثم أقبل يردِّدُ أبياتَ القصيدة في نفسه

---

(١) منها:

له لحظات عن حفافي سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل
فأم الذي أمنت آمنة الردى وأم الذي خوفت بالشكل ثاكل

وحفاف الشيء: جانبه.

(٢) ذيل زهر الآداب: ٥٨.

(٣) الإملاق: الافتقار.

(٤) تعزل الشيء وتعزل عنه: تنحى.

إلى أن بلغ إلى:

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ، وبعضُهم مَذِق اللسان يقولُ ما لا يفعل[١]

فدعا بالربيع وقال له: هل دفعتَ للمدنيّ[٢] ما أَمَرْنا به؟ فقال: أَخَّرَتْني عِلَّةٌ يا أمير المؤمنين. قال: أَضْعِفْها له وعجّلها.

فطنَة كَاتِب المنصُور[٣]

قال أبو جعفر المنصور للمهدي يومًا: قد عزمتُ على أن أوليك الأمرَ وأردّه إليك، فقد كبرتُ وعجَزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها، وأحببتُ الراحة والدَّعة. فخرج المهديّ إلى أبي عبيد الله[٤] مستبشرًا، وعرَّفه ما عرضه عليه أبو جعفر، فقال له أبو عبيد الله: اتّق الله ولا تظهِر لأمير المؤمنين قَبُولًا لما ذاكرك به، وإذا عاودكَ فقل له: لا والله، لا أتعرَّضُ لهذا الأمر ما أبقى اللهُ أمير المؤمنين؛ ولا أنهضُ له، فإنه إنما سَبَرك[٥] بما عَرَض عليك.

فلما دخل المهديّ على أبي جعفر قال له: يا أبا عبد الله، هل فكرتَ فيما قلتُه لك، أو شاورتَ أحدًا فيه؟ فقال: ما بي من قوة على ذلك، ويُبقي الله أمير المؤمنين، ويمتعنا بحياته. فقال له: سبحان الله! مَن صدّك عنه ومَن ناظرت فيه؟ فقال له: شاورتُ معاوية[٦]. قال: فأيّ شيء قال لك؟ فعرّفه ما قال له، فأطرق هُنيهة ثم قال: عليَّ بمعاوية.

فلما دخل عليه قال له: ما هذا الذي ناظَرَك[٧] فيه ابن عبد الله[٨]؟ وكيف رأيت ألا يَقْبل؟ قال: أأصدُقك وأنا آمن؟ فقال له: هات ولم لا تصدُقني؟ فقال له: إنه والله ما عرضتَ عليه ما عرضتَه وأنت تريدُ أن تولّيه، وإنما أردتَ أن تختبر عقله، وما كنتَ لتطيب نفسًا بتَرْكِ ما أنت فيه.

---

(١) رجل مذاق: كذوب.

(٢) النسبة إلى مدينة الرسول: مدني، وإلى مدينة المنصور مديني.

(٣) الوزراء والكتاب: ١٢٨.

(٤) هو أبو عبيد معاوية بن عبيد الله بن يسار من أهل فلسطين. كان كاتب أبي جعفر في الإنفاق والتصرف في بيت المال وقد ضمه إلى المهدي حين أنفذه إلى الري.

(٥) سبر الجرح: نظر ما غوره. (٦) هو أبو عبيد الله.

(٧) المناظرة: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه.

(٨) اسم المهدي محمد بن عبد الله.

فقال له: وكيف توهمتَ ذلك؟ قال: لأني سمعتك تقول: إني أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب، فأضعها بين يدي، وأدعو بوصيف فآمره أن يَمْرَخ[1] ظهري بالدّهن، فيفعلَ ذلك، وأنا مقبلٌ على كتبي وتدبيري، والنظرِ في أموري؛ فعلمتُ أنك لا تدعُ شيئًا يكون موقعهُ منك هذا الموقع وتُؤثِر به غيرك.

فقال: ما كنتُ أرى أن أحدًا يتفقّد ما تفقّدتَه، وقد أصبتَ الرأي وأحسنت. بارك الله عليك!

الأمينَ والمأمُون بَين يَديّ الرّشيد[2]

قال محدّث: إنّ الرشيد ناظر يحيىٰ بن خالد؛ أي ولديه يعهد إليه، وعلم يحيىٰ بن خالد ميله إلى أمّ جعفر وإيثاره هواها؛ فقال: أميرُ المؤمنين أعلم بولده، وكان المأمون والأمين حاضرين، فأغرى[3] كلَّ واحد منهما بالآخر، فأسرع[4] الأمين وحَلُم المأمون، ثم أمرهما بالمصارعة، فوثب الأمينُ، وثبت المأمونُ جالسًا. فقال له الرشيد: مالك اليوم يا عبد الله! أخِفتَ ابنَ الهاشميّة؟ أما إنه لأيّد[5]، فقال المأمون: هو كما ذكر أمير المؤمنين، ولكنني لم أخفْه، ولكن قبض يدي عنه ما قبض لساني حين نال مني. فقال الرّشيدُ: وما الذي قبض يدك ولسانك عنه؟ قال: قول الأمويّ لبنيه متمثّلًا[6]:

انفُوا الضَّغَائن[7] بينكم وتواصلوا ... عند الأباعد والحضور الشهّدِ
فصلاحُ ذات البين طولُ بقائكم ... وَدَمارُكم بتقطّع وتفرّد
إن القداحَ إذ جُمعنَ ورامها ... بالكسر ذو خَنقٍ وبَطْشٍ أيّدِ
عزّت ولم تُكسر وإن هي بددت ... فالوهن والتكسير للمتبدّدِ
فلمثل رَيْبِ الدهر ألف بينكم ... بتعاطفٍ وتراحُمٍ وتودّدِ
حتى تلينَ جلودُكم وقلوبكم ... لمسوّد منكم وغير مسوّدِ

فرّق الرشيد رقةً شديدة، واغرورقت عيناه بالدموع، ثم تشدّد وكَفْكَفَها[8] وأقبل عَلى الأمين، وقال: يا محمد؛ ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمرَ هذه

---

(١) يمرخ: يدهن.
(٢) أنباء نجباء الأبناء: ١١٣.
(٣) أغرى بينهم: سلط أحدهم على الآخر.
(٤) أسرع: أي أسمعه قولاً مكروهًا.
(٥) أيد: شديد. والأيد: القوة.
(٦) الأبيات أنشدها عبد الملك يوصي بها ولده.
(٧) الضغائن: الأحقاد.
(٨) كفكفها: كفها.

الأمة؟ قال: أكون مهديها يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد: إن تفعل فأنت أهلٌ لذلك.

ثم أقبل عَلى المأمون وقال له: يا عبد الله؛ ما أنت صانع إن صَرَفَ الله إليك أمرَ هذه الأمة؟ فابتدرت دموعُ المأمون، وفطَن الرشيد لما أبكاه، فلم يملك عينيه فأرسلهما، وبكى يحيىٰ؛ فلما قَضَوْا من البكاء أرَبًا[1] بكى الأمين لبكائهم، فأعاد الرشيدُ المسألة للمأمون. فقال: أعفِني يا أميرَ المؤمنين من ذلك. فقال: عزمتُ عليك لتقولنّ، فقال: إن قدَّر الله ذلك أجعل الحزن شعارًا[2]، والحزم دِثَارًا، وسيرة أمير المؤمنين مَشعرًا لا تستَحلّ حرماته، وكتابًا لا تبدَّل كلماته.

فأشار إليهما بالانصراف، فذهبا، ثم أقبل على يحيىٰ بن خالد فأنشد بيت صَخْر بن عمرو بن الشريد السُّلَمِيّ أخي الخنْسَاء، وهو قوله:

أَهُمُّ بأمر الحزْم لو أستطيعُهُ ... وقد حِيلَ بين العيرِ والنَّزَوانِ[3]

فقال يحيىٰ بن خالد: هيأ الله لأمير المؤمنين من أمره رَشدًا.

قَمَرَا مَجْدٍ فَرْعَا خِلَافه[4]

قال الكِسائيّ[5]: دخلتُ على الرشيد، فلما قضيتُ حقَّ التسليم والدعاء، وَثبْتُ للقيام، فقال: اقعُد، فلم أزل عنده حتى خف عامَّةُ منْ كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصَّتُه، فقال لي: يا عليُّ؛ ألا تحبُّ أن ترى محمدًا وعبد الله[6]! قلت: ما أشوَقني إليهما يا أميرَ المؤمنين، وأسرَّني بمعَاينة نعمة الله على أميرِ المؤمنين فيهما.

---

(١) الأرب: الحاجة.

(٢) الشعار: ما ولي الجسد من الثياب، والدثار: ما فوق ذلك.

(٣) العير: حمار الوحش. النزوان: الوثوب. والبيت مثل، وأول من قاله صخر.

(٤) المسعودي: ٢ ـ ٢٧١، معجم الأدباء: ١٣ ـ ١٧٣، المحاسن والمساوىء: ٤٤٠.

(٥) اسمه علي بن حمزة وأصله من فارس أشهر نحاة الكوفة وأحد القراء السبعة، استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم، وألف كثيرًا من الكتب في النحو والقراءات والأدب والنوادر، توفي سنة ١٨٩ هـ.

(٦) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد.

فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبلا كوكبيّ أُفُق، يزينهما هدوء ووقار، وقد غَضَّا أبصارَهما، وقاربا خطوَهما، حتى وقفا على باب المجلس، فسلّما على أبيهما بالخلافة؛ ثم قالا: تمّم الله على أمير المؤمنين نعمه، وشفعها بشكره، وجعل ما قلّده من هذا الأمر أحمد عاقبة، ولا كدَّر عليه ما صفا، فقد صرت للمسلمين ثقة؛ إليك يفزَعون في أمورهم، ويقصدون في حوائجهم.

فأمرهما بالدنوّ منه؛ فصيَّر محمدًا عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثُمَّ التفت إليّ فقال: يا عليّ؛ ما زلتُ ساهرًا مفكّرًا في معاني أبياتٍ قد خفيتْ عليّ! قلت: أن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها! فأنشدني:

قَدْ قُلْتُ قولًا للغراب إذا حَجَلْ عليك بالْقُودِ المسانيفِ الأوَلْ
تَغدَّ ما شئتَ على غيرِ عَجَلْ

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ إن العِير(1) إذا فَصَلْت من خَيْبر، وعليها التمرُ، يقع الغرابُ على آخر العِير فيطرُدُها السَّواق؛ يقول: تقدّم إلى أوائل العير؛ فكلْ على غير عجل. والقُود: الطّوال الأعناق. والمَسَانيف: المتقدّمة.

ثم أنشدني:

وإنّي وإنْ عشَّرْتُ من خَشيةِ الردَّى نُهَاقَ حمار إنّني لجزوعُ(2)

قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ كان الرجل من العرب إذا دخل خَيْبَر أكبَّ على أربع، وعشّر تعشيرَ الحمار؛ وهو أن يَنْهَق عشر نهقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حُمّى خيبر.

ثم أنشدني قول الآخر:

أجاعِلٌ أَنتَ بيقُورا مُضرَّمةً ذريعةً لك بينَ اللهِ والمطرِ(3)

قلت: نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدَّت العُشَر(4) والسَّلَع، وهما ضربان من النبت في أذناب البقر وألهبوا فيه النار، وشرَّدوا البقرة تفاؤلًا بالبرق والمطر.

---

(1) العير: الإبل التي تحمل الميرة. (2) البيت لعروة بن الورد.
(3) اسم جمع لبقرة، وفي اللسان: «مسلعة» بدل مضرمة، والبيت للورل الطائي.
(4) شجر لم يقتدح الناس في أجود منه.

ثم أنشدني لرجل آخر.

وسِرْبِ مِلاحٍ قد رأيتُ وجوهَهمْ   إنـاثٌ أَدَانِـيـهِ، ذُكـورٌ أواخِـرُهْ

فقلت: إنه يعني الأضراس.

ثم أنشدني قول الآخر:

فإني إذَن كالثور يُضرَبُ جَنْبُه   إذا لم يَعَفْ شرْبًا وعافَتْ صَواحِبُه

قلت: نعم، كانت العرب إذا أوردت البقرَ، فشربت الثيران وأبتِ البقر ضربت الثيران حتى تشربَ البقر، وهو كما قال: «كالثور يُضربُ لما عافت البقر».

ثم أنشدني:

بِمُنْحَدرٍ من رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطَّهُ   تَـذَكـرُ بَـيْـنٍ حـبـيـب مُـزَايـلِ

قلت: نعم، يعني الدموع. والبرقاء: العين؛ لأن فيها سوادًا وبياضًا. وحطّه: أساله، وحبيب: محبوب، ومزايل: مفارق.

فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره، وقال: لله درّ أهل الأدب! ثم دعا بجارية، فقال لها: احملي إلى منزل الكسائي خَمْسَ بِدَر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خِدْمته.

ثم قال لي: استنشدهما - يعني ابنيه - فأنشده محمد الأمين:

وإنّي لعَفُّ الفقْرِ مُشْتَرِكُ الغنَى   وَتَارِكُ شَكْلٍ لا يُوافِقُه شكْلِي
وَشَكْلِي شكلٌ لا يقُوم بمثْله   من الناس إلا كلُّ ذي نيقَة مِثلِي[1]
ولي نيقةٌ في المجد والبذْل لم يكن   تأنَّقَها فيما مضى أحدٌ قبْلِي
وأجعلُ مالي دُونَ عِرْضي جُنّةً   لنفسي وأسْتَغني بما كان من فضلي

وأنشدني عبد الله المأمون:

بكَرَتْ تلومُك مَطلعَ الفجرِ   ولقد تلُومُ بغيرِ ما تَدْرِي
ما إن ملكتُ مصيبةً نزلَتْ   إذ لا يُحكِّم طائعًا أمرِي[2]

(١) النيقة اسم من تنوق في الأمر: تجود وتأنق فيه.
(٢) حكم الأمر: أحكمه.

مَلكُ الملوكِ عليّ مُقتدِرٌ يعطي إذا ما شاء من يُسْرِ
فَلربَّ مُغتبطٍ بمَرزِئةٍ ومُفَجَّعٍ بنوائبِ الدهْرِ
ومُكاشِحٍ لي قد مَددت له نَحرًا بلا ضرَعٍ ولا غمرِ[1]
حتى يقول لنفسه لهفًا في أيّ مذْهبٍ غايةٍ أجري
وترى قَنَاتي حين يغمِزُها غَمْزَ الثِّقَاف بطيئةَ الكسرِ

ثم أمرني أن أسألهمَا، ففعلت؛ فما سألتُهما عن شيء إلا أحسنَا الجوابَ فيه والخروج منه، فسُرَّ بذلك الرشيد، حتى تبيَّنته فيه، ثم قال: يا عليُّ؛ كيف ترى مذهبَهما وجوابهما؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ هما كما قال الشاعر:

أرى قمريْ مجدٍ وفرعيْ خلافةٍ يزينهما عِرْقٌ كريم ومَحْتدُ
يَسُدّان آفاقَ السماءِ بِشيمةٍ يؤيّدُها حزْمٌ وعَضْبٌ مُهنَّدُ
سَليلي أمير المؤمنين وحائزَيْ مواريث ما أبقى النبيُّ محمدُ

يا أمير المؤمنين، هما فرعٌ زَكا أصله، وطاب مَغرِسه، وتمكنت في الثرى عرُوقه، وعذُبتْ مشاربه، أبوهما ملكٌ أغرّ، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، فهما يستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلّبان في سعادته، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما! فما رأيت أحدًا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذْرَبَ[2] منهما لسانًا، ولا أعذبَ كلامًا، ولا أحسنَ ألفاظًا، ولا أشدَّ اقتدارًا على تأدية ما حفظا ورويا؛ ودعوتُ لهما دعاء كثيرًا، وأمَّن الرشيد على دعائي، ثم ضمهما إليه، وجميع يدَيه عليهما فلم يبسطها حتى رأيتُ الدموع تنحدر على صدره؛ رقةً عليهما وإشفاقًا. ثم أمرهما بالخروج.

فلمّا خَرجا أقبل عليّ، فقال: كأنك بهما ـ وقد حُمَّ القضاءُ، ونزلت مقاديرُ السماء، وبلغ الكتابُ أجله، وانتهى الأمرُ إلى وقته المحدود، وحينه المسطور، الذي لا يدفعه دافع، ولا يمنع منه مانع ـ قد تشتَّت أمرهما، وافترقت كلمتهما، وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفكَ الدماء، وتكثر القتلى، وتُهتك

---

(١) الضرع: من ضرع: إذا ذل وخضع. والغمر: من لم يجرب الأمور، وبالتحريك: الحقد.

(٢) الذرب: الحديد اللسان.

سُتور النساء، ويتمنَّى كثيرٌ من الأحياء أنهم في عداد الموتى! قلت: أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رأيته، أو لرؤيا؛ أو لشيء تبيَّن لك في أصل مولدهما، أو لأثر وقع لأمير المؤمنين في أمرهما؟ فقال: لا؛ بل أثر صحيح؛ حملته العلماء، عن الأوصياء عن الأنبياء!

قَـرَّتَا عَيْـن[1]

قال محمد بن عبد الرحمٰن الهاشمي[2]: كانت أمُّ جعفر بن يحيىٰ تزورُ أمّي؛ وكانت لبيبةً من النساء، حازمة فصيحة بَرْزَةً[3] يُعجبني أن أجدَها عند أمّي فأستكثرَ من حديثها؛ فقلت لها يومًا: يا أمّ جعفر؛ إن بعضَ الناس يفضّل جعفرًا على الفضل، وبعضهم يفضّل الفضل على جعفر، فأخبريني. فقالت: ما زلنا نعرفُ الفضلَ للفضل. فقلت: إنّ أكثرَ الناس على خلاف هذا. فقالت: سأحدّثك واقضِ أنت ـ وكان ذلك الذي أردتُ منها.

قالت: كانا يومًا يلعبان في داري، فدخل أبوهما فدعا بالغِذاء وأحضرهما، فطعما معه، ثم آنسهُما بحديثه وقال لهما: أتلعبان بالشِّطْرَنج؟ فقال جعفر ـ وكان أجْرَأَهما: نعم! قال: فهل لاعبتَ أخاك بها! قال جعفر: لا. قال: فالعبا بها بين يديّ لأرى لمن الغَلَب، فقال جعفر: نعم! وكان الفضلُ أبصرَ منه بها، فجيء بالشِّطْرَنج، فصُفَّتْ بينهما، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل.

فقال له أبوه: ما لك لا تُلاعب أخاك؟ فقال: لا أحبُّ ذلك. فقال جعفر: إنه يرى أنه أعلم بها منّي فيأنف من مُلاعبتي؛ وأنا ألاعبه مُخاطرة[4].

فقال الفضل: لا أفعل. فقال أبوه: لاعبْه وأنا معك. فقال جعفر: رضيتُ، وأبى الفضل واستعفى أباه فأعفاه.

ثم قالت لي: قد حدّثتُك فاقضِ، فقلت: قد قضيتُ بالفضْل لجعفر على أخيه. فقالت: لو علمتُ أنك لا تحسن القضاء لما حكّمتك، أفلا ترى أن جعفرًا

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ١٣٠.
(٢) هو محمد بن عبد الرحمٰن صاحب صلاة الكوفة.
(٣) البرزة من النساء: التي تظهر للناس ويجلس إليها القوم، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة.
(٤) المخاطرة: المراهنة.

قد سقط أربع سقطات تنزّه الفضلُ عنهنّ. فسقط حين اعترفَ على نفسه بأنه يلعب بالشّطرنج، وكان أبوه صاحب جِدّ. وسقط في التزام مُلاعبة أخيه، وإظهار الشهوة لغلَبه، والتعرُّض لغضبه. وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرْص على مال أخيه. والرابعة قاصِمة الظَّهر حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعَم؛ فناصب[1] صفًّا فيه أبوه وأخوه.

فقلت: أحسنت والله، وإنك لأقضَى من الشَّعْبيّ[2]! ثم قلت لها: عزمت عليك أخبريني؛ هل خفِيَ مثل هذا على جعفر وقد فَطن له أخوه؟ فقالت: لولا العَزْمةُ[3] لما أخبرتك، إن أباهما لما خرج قلتُ للفضل خاليةً به: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك؟ فقال: أمران: أحدهما لوْ لاعبتُه لغلبتُه فأخجلتُه، والثاني قول أبي: لاعبه وأنا معك؛ فما يسرُّني أن يكون أبي معي على أخي. ثم خلوْت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشُّطرنج فيصمُتُ أخوك وتعترفُ، وأبوك صاحبُ جِدّ! فقال: إني سمعت أبي يقول: نعْم لَهْو البال المكدود[4]! وقد علم ما نلقاه منكدُ التعلّم والتأدُّب، ولم آمن أن يكون بلغه أنّا نلعبُ بها وأن يُبادر فينكر، فبادرتُ بالإقرار إشفاقًا على نفسي وعليه؛ وقلت: إن كان توبيخٌ فدَيْتُه من المواجهة به.

فقلت له: يا بُنيَّ؛ فلمَ تقول ألاعبه مخاطرة؟ كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله! فقال: كلّا، ولكنه يستحسن الدواة التي وَهبها لي أميرُ المؤمنين فعرضتُها عليه؛ فأبى قبولها، وطمِعتُ أن يلاعبني فأخاطره عليها، وهو يغلبني فتطيبُ نفسه بأخذها.

فقلت لها: يا أمّاه؛ ما كانتْ هذه الدواة؛ فقالت: إن جعفرًا دخل على أمير المؤمنين فرأى بين يديه دواةً من العقيق الأحمر محلاةً بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظرُ إليها فوهبها له. فقلت: إيهِ.

فقالت: ثم قلت لجعفر: هبك اعتذرتَ بما سمعتُ؛ فما عذرُك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال: لاعبه وأنا معك؟ فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا.

(١) ناصب الصف: وقف إزاءه وعاداه. (٢) الشعبي: أحد رجال الحديث والقضاء.
(٣) عزم عليه: أقسم، وعزمت عليك: أي أمرتك أمرًا جدًّا، وهي العزمة.
(٤) كده: أجهده وأتعبه.

فقال: عرفتُ أنه غالبي، ولو فتر لعبُه لتغالبتُ معه، مع ما له منَ الشرف والسرور بتحيُّز أبيه إليه.

قال محمد بن عبد الرحمٰن: فقلت: بخ بخٍ[١]! هذه والله السيادة! ثم قلت لها: يا أمّاه، أكان منهما مَن بلغَ الحُلُم؟ فقالت: يا بني، أين يُذهبُ بك؟ أخبرك عن صبيين يلعبان فتقول: أكان منهما مَن بلغ الحلم! لقد كنّا ننهي الصبيَّ إذا بلغ العشر وحضر مَن يُستحى منه أن يتبَسم!

حيـــلَة وَالٍ[٢]

بلغ الرشيد أن موسى بن عيسى[٣] ـ وكان أميرًا عَلَى مصر من قِبَله ـ عازم على خَلعه، فقال: والله لأعزلنّه بأخَسّ مَنْ على بابي! وقال ليحيىٰ بن خالد[٤]: اطلب لي كاتبًا عفيفًا يصلح لعمل مصر، واكتم خبره، فلا يشعر به موسى حتى يَفْجَأه، فقال: قد وجدته، قال: مَن هو؟ قال: عمر بن مهران[٥].

فكتب له بخطه كتابًا إلى موسى بتسليم العلم إليه، فسار وليس معه غيرُ غلام أسود على بغل استأجره؛ ومعه خُرجٌ فيه قميص وطَيْلسان[٦] وخُفّ!

فلمّا وصل إلى مصر نزل خانًا، فأقام فيه ثلاثةَ أيام يبحث عن أخْبار البلد، وعمَّن فيه من العمال؛ وأخبر مَن كانوا بجواره في الخان أنه قد وُلّي مصر؛ واستعمل منهم كاتبًا وحاجبًا وصاحبَ شرطة، وقلّد آخر بيت المال؛ وأمر مَن تبعه ووَثق به أن يدخلَ معه على موسى، فإذا سمعوا حركة في دار الإمارة قبضوا على الديوان.

فلما أبرمَ أمره بكر إلى دار الإمارة؛ فأذن موسى للناس إذنًا عامًا، فدخل في جملتهم ومَن اتّفق معهم، وموسى جالس في دَسْته[٧]، والقوّادُ بين يديه، وكلُّ منْ

(١) يقال: بخ بخ، إعجابًا بالشيء وإظهارًا للسرور به.
(٢) غرر الخصائص: ٤٤، النجوم الزاهرة: ٢ ـ ٧٨.
(٣) هو موسى بن عيسى الأمير العباسي، ولي إمرة مصر على الصلاة سنة ٢٧١ هـ، ثم عزله الرشيد وولاه ثانية سنة ١٧٤ هـ وعزل سنة ١٧٦ هـ، وكان عاقلًا جوّادًا ممدوحًا.
(٤) يحيىٰ بن خالد: وزير هارون الرشيد.
(٥) كان عمر قائدًا للجيش كاتبًا للخراج كما كان مديرًا لأملاك الدولة.
(٦) الطيلسان: نوع من الأكسية.
(٧) الدست: صدر البيت.

قُضِيتْ حاجتُه ينصرف. وعمرُ جالس، والحاجبُ ساعة بعد ساعة يسأله عن حاجته، وهو يَتَغَافَلُ، حتى خفّ الناس، فتقدَّم، وأخرج كتابَ الرشيد ودفعه لموسى؛ فقبّلَه ووضعه على رأسه، ثم فَتحه وقَرأه فانْتُقِعَ[١] لَوْنُه؛ وقال: السمع والطاعة.

ثم قال: أقرىء أبا حفص السلام، وقل له: كُنْ بموضعك حتى نتّخذَ لك منزلًا، ونأمر الجند يستقبلونك! أنا عمر بن مهران، وقد أمرني أميرُ المؤمنين أن أُقيمك للناس وأُنْصِف المظلوم منك، وأنا فاعل ما أمرني به أميرُ المؤمنين!

فقال له موسى: أنت عمر بن مهران! قال: نعم! قال: لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي ملكُ مصر؟ واضطرب المجلس.

فقَبض على الديوان؛ ونزل موسى عن فرشه، وقال: لا إلـٰه إلا الله! هكذا تقوم الساعة! ما ظننتُ أن أحدًا بلغ من الحيلة والحزم ما بلغت؛ تسلمت مني العمل، وأنت في مجلسي!

ثم نهض عمر إلى الديوان، ونظر فيه، وأمر ونهى، وعزل وولّى.

أعطِني على قَدرِي[٢]

دخل رجلٌ بدويٌّ عليه شَعَثُ السفر، على داود[٣] المهلبي ـ وكان إذا حضرَ الطّعَامُ يتقدّمُ بِصَرْف البوّابين، ولا يمنعُ من الوصول إلى طعامه ـ فلما فرغ من الطعام وثب قائمًا وأومى إليه، وقال: مَن أنتَ يا فتى؟ قال: شاعر قَصَدْتُك بأبياتٍ من الشعر. قال داود: مهلًا قليلًا، ثم دعا بقوس فأَوْتَرها[٤]، وأومى إليه، وقال له: قل، فإن أنت أحسنتَ خلعتُ وأَجزَلْتُ وإن أخطأتَ رميتُك بهذا السهم يقع في أي موضعٍ يقع فيه؛ فتبسّم البدوي، وقال:

أمِـنـتُ بـداودٍ وجُـودِ يـمـيـنـه ... من الحَدِث المرهوب والبؤسِ والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداود نَبْوَةً ... ولا حَدَثَانًا إن شَدَدْتُ به أَزْرِي

(١) انتقع لونه: تغير.
(٢) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.
(٣) هو داود بن يريد بن حاتم المهلبي أمير من الشجعان العقلاء، كان واليًا على إفريقية، وبقي في إمارتها تسعة أشهر، ثم ولّاه الرشيد السند، فاتسقت له أمورها، واستمر بها إلى أن توفي سنة ٢٠٥ هـ.
(٤) أوتر قوسه: جعل لها وترًا.

لـه حـكـمُ لُقْـمَـانٍ وصـورةُ يـوسـف ومُـلـكُ سـلـيـمـانٍ وصـدقُ أبـي ذَرِّ
فتى تهرُب الأموال من جُودِ كَفِّه كما يهرُب الشيطانُ من لَيْلَةِ القَدْرِ
فَقَوْسُك قوسُ الجود، والوترُ الندى وسَهْمُك فيه الموت، فاقتل به فَقْري

فضحِك داود ورمَى بسهمه مع القوس من يده، وقال: يا فتى العرب؛ بالله هل كان ذكرُ القوس في الأبيات؟ فقال: لا والله! ففرح بذلك، وقال: يا فتى العرب؛ بالله أيما أحبّ إليك: أُعطيك على قَدْرِك أم على قَدْرِي؟ قال: بل على قَدْري! قال: كم على قَدْرك؟ قال: مائة ألف درهم، فأمر له بها.

ثم قال: ما منعك أن تقولَ على قدري؟ فقال: أيها الأمير؛ أردتُ أن أقول ذلك، فإذا الأرض لم تُسَاوِ قَدْرَ الأمير، فطلبتُ على قدري! فقال: لله درُّك! والله إنَّ نَثْرَك لأحسنُ من نظْمِك! وأمر له بمائة ألفٍ ثانية، وأمره ألا يَنْقَطِعَ عنه.

طَاهِر بن الحسَين وَالمَأمُون(١)

لما انقبضَ طاهرُ(٢) بن الحسين بخراسان عن المأمون، وأخذ حِذره أدَّبَ له المأمون وَصيفًا(٣) بأحسنِ الآداب، وعلّمه فنونَ العلم، ثم أهداه إليه مع ألطاف كثير من طرائف العراق، وقد واطأه على أن يَسُمَّه، وأعطاه سُمّ ساعة، ووعده على ذلك بأموالٍ كثيرة.

فلما انتهى إلى خراسان، وأوصل الهديَّةَ قَبِل طاهر الهديّة، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأَجْرَى عليه ما يحتاجُ إليه من التَّوْسعة؛ وتركه أشهرًا.

فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه:

يا سيدي؛ إن كنتَ تقبلني فاقْبلني، وإلا فردَّني إلى أمير المؤمنين!

فأرسل إليه، وأمر بإدخاله؛ فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لِبْدٍ أبيض وقرَعَ(٤) رأسه، وبين يديه

---

(١) العقد الفريد: ١ ـ ٢٥٩.
(٢) كان طاهر بن الحسين أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة وبعد الصيت، وهو الذي قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ولاه المأمون خراسان، وكان مستقلّا بها، يؤدي الخراج عن عمله بها، وتغير عليه المأمون حينما بلغه أنه امتنع عن الدعاء له على المنبر، وتوفي بمرور سنة ٢٠٧ هـ.
(٣) الوصيف: الخادم والخادمة.
(٤) قرع رأسًا: ضربه بالعصا.

مصحفٌ منشور، وسيفٌ مسلول. فقال: لقد قبلنا ما بعثَ به أميرُ المؤمنين غيرَك؛ فإنا لا نقبلك، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، وليس عندي جوابٌ أكتُبه إلا ما ترى من حالي، فأبلغ أميرَ المؤمنين السلام؛ وأعلمه بالحال التي رأيتَني فيها.

فلمّا قدم الوصيف على المأمون، وكلّمه ما كان من أمره، ووصف له الحال التي رآه فيها شاور وزراءه في ذلك؛ وسألهم عن معناه فلم يعلَمْه واحدٌ منهم، فقال المأمون: لكني قد فهمت معناه: أمّا تقريعه رأسه جلوسه على اللِّبْدِ الأبيض فهو يخبرنا أنه عبد ذليل. وأما المصحفُ المنشور فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا، وأما السيفُ المسلول فإنه يقول: إن نكثتَ تلك العهود فهذا يحكم بيني وبينك. أغلقوا عنّا بابَ ذكره، ولا تهيجوه في شيءٍ؛ فلم يهجه المأمون حتى مات!

مَلك لَا تَعْتَصِم الطيُور مِنه[1]

قصد المنصورَ بن عامر رجل جوهريّ من تجّار المشرق من مدينة عَدَن، بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه؛ ودفع إلى التاجر الجوهري صُرَّته ـ وكانت قطعة يمانيَة ـ فأخذ التاجرُ في انصرافه طريقَ الرَّملَة على شطِّ النهر، فلمّا توسَّطها واليومُ قائظ؛ وعرقُه منصبّ، دعته نفسه إلى التَّبَرُّدِ في النهر، فوضع ثيابَه وتلك الصُّرَّةَ على الشطّ، فمرت حِدَأَة فاختطفت الصُّرّة، تحسبها لحمًا، وطارت في الأفق ذاهبةً بها.

فقامت قيامةُ التاجر؛ وعلم أنه لا يقدرُ أن يستدفعَ ذلك بحيلة، فأسرَّ الحزنَ في نفسه، ولحقه لأجل ذلك عِلةٌ اضطرب فيها، واستبان للمنصور ما بالرّجل مِن المهانة والكآبةِ، وفَقْد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة، فسأله المنصورُ عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هَلَّا أتيتَ إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظهرُ على ذلك بالحيلة! فهل هُديتَ إلى الناحية التي أخَذَ الطائرُ إليها! قال: مَرَّ شرقًا على سَمْت[2] هذا الجبل الذي يلي قصرَك ـ يعني الرّملة.

فدعا المنصورُ شرطيَّه الخاصّ به، فقال: جئني بمشيَخة أهل الرملة الساعة؛ فمضى وجاء بهم سريعًا. فأمرهم بالبحث عمن غيّر حالَ الإقْلال[3] منهم سريعًا،

(١) نفح الطيب: ١ ـ ١٩٢.
(٢) السمت: الطريق.
(٣) الإقلال: الفقر.

وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا؛ ما نعلم إلا رجلًا من ضعفائنا كان يعملُ هو وأولادُه بأيديهم، ويتناولون السّبق بأقدامهم؛ عَجْزًا عن شراء دابّة، فابتاع اليوم دابّةً واكتسى هو وولدُه كُسوةً متوسّطة.

فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجرَ بالعدوّ إلى الباب فحضر الرجلُ بين يدي المنصور فاستَدْناه، والتاجرُ حاضر. وقال له: سببٌ ضاع منا وسقَطَ إليك، ما فعلتَ به؟ قال: ها هو ذا يا مولاي - وضرب بيده إلى حُجْزَة[1] سراويله، فأخرج الصُّرة بعينها - فصاح التاجر طربًا، وكاد يطير فرحًا.

فقال له المنصور: صِفْ لي حديثها. فقال: بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتُها، وراقني منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقُرْبِ الجوار، فاجتزتُ بها، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل كانت معها مصرورة، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجِب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خُذْ صُرّتك، وانظرها، واصدقني عن عددها. ففعل، وقال: وحَقِّك يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتُها له.

فقال له المنصور: نحنُ أولى بذلك منك ولا نُنَغِّص عليك فرحَك، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا عن دنانيره، وللرّجل بعشرة دنانير ثوابًا له، وقال: لو بَدَأنا بالاعتراف قبل البحث لأوْسعْناهُ جزاءً!

فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطُه. وقال: لأبثنّ في الأقطار عِظَمَ ملكك، ولأبيّننّ أنك تملك الطير، فلا تعتصم منك، ولا تؤذي جارك!

فضحك المنصور، وقال: اقصِد في قولك يغفر الله لك! فعجب الناس من تلطُّف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كُرْبته!

صبيٌّ يَهجو صَبيًّا[2]

كان أبو بكر بن المنخّل وأبو بكر الملّاح متآخِيَيْن متصافِيَيْن، وكان لهما ابنان صَغيران قد بَرعَا في الطلب، وحازا قَصَب السَّبق في حَلْبَة الأدب؛ فتهاجَى الابنان

---

(١) الحجزة من السراويل: موضع التكة. (٢) نفح الطيب: ٢ ـ ٣٠١.

بأقذعِ الهجاء، فركب ابن المنخّل في سَحَر من الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يعتبِ عليه على هجاء الملّاح، ويقول له: قد قطعتَ ما بيني وبين صديقي وصفيِّي أبي بكر في إقْذاعك بابنه!

فقال له ابنه: إنه بدأني والبادِي أظلم، وإنما يجب أن يُلْحَى[1] مَنْ بالشرّ تَقَدَّم؛ فعذَره أبوه.

فبينما هما كذلك إذ أقبلا على واد تَنِقُّ فيه الضفادع، فقال أبو بكر لابنِه أجِزْ:

تــنّــق ضــفــادعُ الــوادِي

فقال ابنه:

بــصــوت غــيــرِ مــعــتــاد

فقال الشيخ:

كــأنَّ نَــقِــيــقَ مِــقــوَلِهــا

فقال ابنه:

بــنــو الــمَــلّاحِ فــي الــوادي

فلما أحسّتِ الضّفادع بهما صمتَتْ، فقال أبو بكر:

وَتَــصْــمُــتُ مــثــلَ صَــمْــتــهِــمْ

فقال ابنه:

إذا اجــتــمــعُــوا عــلـى زاد

فقال الشيخُ:

فــلا غــوث لِمَــلْهُــوفِ

فقال الابنُ:

ولا غــيــثٌ لــمــرتــاد!

(١) يلحى: يلام ويعنف.

رَسُـولَان(١)

أقبل المستكفي يومًا على محمد بن محمد بن يحيىٰ الكاتب، فقال له: أتعرِفُ خبر الحجّاج بن يوسف مع أهل الشام؟ قال: لا يا أمير المؤمنين! قال: ذَكَرُوا أنّ الحجاجَ كان قد اجْتَبى(٢) قومًا من أهلِ العراق وَجَدَ عندهم من الكِفَاية ما لم يَجِدْ عند مخْتَصِيِّه من الشاميّين؛ فشقَ ذلك على الشاميّين، وتكلّموا فيه.

فبلغ إليه كلامُهم؛ فركب في جماعة من الفريقين، وأوغَل بهم في الصحراء، فلاح لهم من يُعد قِطارُ(٣) إبل، فدعا برجلٍ من أهل الشام، فقال له: امضِ فاعرف ما هذه الأشباح؟ واستَقْصِ خَبَرها. فلم يلبَثْ أن جاء وأخبره أنها إبل، فقال: أمحمّلةٌ هي أم غيرُ محمّلة؟ قال: لا أدري؛ ولكنّي أعود وأتعرَّفُ ذلك!

وقد كان الحجّاج أَتْبعه برجلٍ آخر من أهل العراق، وأمره بمثل ما كان قد أمر به الشاميّ، فلمّا رجع العِرَاقيّ، أقبل عليه الحجّاجُ ـ وأهل الشام يسمعون ـ فقال: ما هي؟ قال: إبل، قال: وكم عددُها؟ قال: ثلاثون. قال: وما تحمل؟ قال: زَيْتًا. قال: من أين صَدَرتْ؟ قال: مِنْ موضع كذا. قال: ومَن رَبُّها! قال: فلان.

فالتفتَ إلى أهل الشام فقال:

أَلَامُ على عَمْرو ولو مات أوْ نأى   لَقَلّ الذي يُغْنِي غَناءك يا عَمْرو

فقال ابنُ يحيىٰ: قد قال يا أميرَ المؤمنين بعضُ أهل الأدب في هذا المعنى:

شرُّ الرسولين من يحتاجُ مُرْسِلُه   منه إلى العَوْدِ، والأمْران سِيَّانِ

كذاك ما قال أهل العلم في مَثَلٍ:   طريقُ كلِّ أخي جَهْلٍ طريقان

ثم قال المستكفي: ما أحسن ما وصف البحتريّ الرسولَ بالذكاء بقوله:

وكأنّ الذَّكاء يَبْعَثُ منه   في سَوَادِ الأمور شُعْلَةَ نار

---

(١) المسعودي: ٢ ـ ٥٤١.   (٢) اجتباه: اختاره.

(٣) القطار: أن تشد الإبل على حق، واحدًا حلف واحد.

أعجَب السَّرِقات(١)

قال أبو الهَيْثَم: اجتمع مالكُ بن(٢) الرَّيب وأَبُو حَرْدَبَة وشِظَاظ يومًا، فقالوا: تَعَالَوْا نتحدث بأعجب ما عمِلْنَاه في سرقتنا، فقال أبو حَرْدَبَة:

أعجبُ ما صنعتُ وأعجب ما سرقتُ أني صحِبْتُ رفقةً، فيها رجلٌ على رَحْلٍ فأعجبني، فقلت لصاحبي: والله لأسرقنَّ رَحْلَهُ، ثم لا رضيتُ أو آخذ عليه جِعَالَةً(٣).

فرمقْتُه حتى رأيته قد خَفَقَ برأسه، فأخذت بخطَام(٤) جمله فقُدْتُه، وعدلت به عن الطريق، حتى إذا صيَّرْته في مكان لا يغاث فيه إن استغاث أَنَخْتُ البعير وصرعتُه، فأوثقتُ يديه ورجليه وقدتُ الجمل فغيَّبته، ثم رجعتُ إلى الرُّفقة، وقد فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون(٥)، فقلت: ما لكم؟ فقالوا: صاحبٌ لنا فقدناه؛ فقلت: أنا أعلمُ الناس بأثره؛ فجعلوا لي جعالة، فخرجت بهمْ أتبع الأثر حتى وقفوا عليه فقالوا: ما لك؟ قال: لا أدري، نَعَسْتُ، فانتبهتُ لخمسين فارسًا قد أخذوني؛ فقاتلتُهم فغلبوني!

قال أبو حَرْدَبة: فجعلت أضحك من كذبه، وأعطوني جِعَالتي، وذهبوا بصاحبهم.

وأعجب ما سرقت: أنه مرّ بي رجلٌ معه ناقة وجمل وهو على الناقة، فقلت: لآخذنّهما جميعًا، فجعلت أُعارضه وقد رأيته قد خفَق برأسه، فدُرْت فأخذتُ الجمل فحللتُه وسقته، فغيبته في القَصيم(٦)، ثم انتبه فالتفتَ فلم ير

---

(١) الأغاني: ١٩ ـ ١٦٣ (طبعة الساسي).

(٢) هو مالك بن الريب كان من أجمل العرب وأبينهم، ومر به سعيد بن عثمان بن عفان ـ لما ولاه معاوية خراسان، ومالك في نفر من أصحابه ـ فقال له: ويحك يا مالك! ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق؟ قال: أصلح الله الأمير؛ العجز عن مكافأة الإخوان، قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل؟ قال: نعم أكف كأحسن ما كفّ أحد. فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار، وكان معه حتى قتل بخراسان، ثم مكث مالك بخراسان حتى مات هناك.

(٣) الجعالة: ما يفرض على العمل. (٤) الخطام: الزمام.

(٥) استرجع عند المصيبة: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) القصيم: الموضع الذي كانوا يسرقون فيه.

جمله، فنزل وعقل راحلته، ومضى في طلب الجمل، ودُرْتُ؛ فحللت عقال ناقته، وسُقتها!

فقالوا لأبي حردبة: ويحك! فحتَّام تكون هكذا؟ قال: اسكتوا فكأنكم بي قد تُبْتُ، واشتريت فرسًا وخرجتُ، فبينما أنا واقفٌ إذ جاءني سهمٌ كأنه قطعة رِشاء(١) فوقع في نحري فمتُّ شهيدًا.

قال الراوي: فكان كذلك؛ تاب وقدم البصرة، فاشترى فرسًا، وغزا الرومَ فأصابه سهمٌ في نحره؛ فاستشهد!

ثم قالوا لشِظَاظ: أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت في لصوصيتك ورأيت فيها؟ فقال: نعم، كان فلان (رجلٌ من أهل البصرة) له بنت عم ذاتُ مال كثير، وهو وليُّها، وكانت له نسوة، فأبت أن تتزوجَه، فحلف ألا يزوّجها من أحدٍ ضِرَارًا لها، وكان يخطبها رجلٌ غني من أهل البصرة، فأبى أن يزوجَها منه، ثم إن وليّ الأمر حجَّ، حتى إذا كان بالدوّ(٢) مات فدفن برابية وشيد على قبره، فتزوجت الرجل الذي كان يخطبها.

قال شظاظ: وخرجت رفقةٌ من البصرة معهم بُرٌّ ومتاع، فتبصرتهم وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا، فلما ناموا بيَّتُّهم(٣) وأخذتُ من متاعهم. ثم إن القوم أخذوني وضربوني ضربًا شديدًا وجرَّدوني، وذلك في ليلة قَرَّة(٤)، وسلبوني كل قليل وكثير؛ فتركوني عُريانًا وتماوتُّ لهم، وارتحل القوم، فقلت: كيف أصنع؟ ثم ذكرت قَبْر الرجل، فأتيتُه فنزعت لوحًا ثم احتفرتُ فيه سَرَبًا(٥)؛ فدخلت فيه؛ ثم سَدَدْتُ عليّ باللوح، وقلت: لعلّي الآن أدفأ فأتبعهم.

ومر الرجلُ الذي تزوج بالمرأة في الرُّفْقة. فمر بالقبر الذي أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه: والله لأنزلنَّ إلى قبر فلان، حتى أنظر هل يحمي الآن فلانة!

قال شظاظ: فعرفتُ صوته فقلعت اللوح، ثم خرجتُ عليه بالسيف من القبر، وقلتُ: بلى ورب الكعبة لأحمينَّها، فوقع والله مغشيًّا عليه لا يتحرك ولا يعْقِل، فجلستُ على راحلته، وعليها كل أداة وثياب ونَقْدٍ كان معه، ثم وجهتها

---

(١) الرشاء: رسن الدلو. (٢) الدو: مكان على مرحلة من البصرة.
(٣) بيت فلان بني فلان: إذا أتاهم ليلًا، فكبسهم وهم فارون.
(٤) ليلة قرة: باردة. (٥) السرب: بيت في الأرض.

قصد مطلع الشمس هاربًا من الناس فنجوتُ بها؛ فكنتُ بعد ذلك أسمعُه يحدّث الناس بالبصرة ويحلفُ لهم أن الميتَ الذي كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره، والناسُ يعجبون منه؛ فعاقِلُهم يكذّبه، والأحمق منهم يصدقه، وأنا أعرف القصةَ فأضحك منهم كالمتعجب!

قالوا: فزدنا. قال: فأن أزيدكم أعجب من هذا وأحمق من هذا: إني لأمشي في الطريق أبتغي شيئًا أسرقُه فلا والله ما وجدتُ شيئًا، وإذا أنا بشجرة ينام من تحتها الركبان في مكان ليس فيه ظلٌّ غيرها، وإذا أنا برجلٍ يسير على حمار له.

فقلت له: أتسمع! قال: نعم. قلت: إن المَقِيلَ الذي تريدُ أن تَقيله يُخْسَفُ بالدواب فيه، فاحذره. فلم يلتفت إلى قولي، ورمقتُه حتى إذا نام أقبلتُ على حماره فاستَقْتُه، حتى إذا برَّزْتُ به قطعت طَرَف ذنبه وأذنيه، وأخذت الحمار فخبأته وأبصرته حين استيقظ من نومه، فقام يطلب الحمار ويَقْفُو أثره؛ فبينما هو كذلك إذ نظر إلى طَرَف ذنبه وأذنيه، فقال: لَعمري لقد حُذِّرْتُ لو نفعني الحذر؛ واستمر هاربًا خوف أن يخسف به. فأخذت جميع ما بقي من رحله فحملته على الحمار!

حَدِيث عَن الغَرِيّين(١)

قال المهدي ذات ليلة ـ وكان أميرًا على الرَّي من قِبَل أبيه المنصور: يا شرقيّ(٢)، أرِحْ قلبي بشيء يُلهيه! قال: نعم أصلح الله الأمير: ذكروا أنه كان في ملوك(٣) الحيرة ملك له نديمان: قد نزلا من قلبه منزلة مكينةً، وكانا لا يفارقانه في لَهْوه ومنامه ويقظته، وكان لا يقطعُ أمرًا دونهما، ولا يصدرُ إلّا عن رأيهما، فغبر بذلك دهرًا طويلًا.

فبينما هو ذات ليلة في شُرْبه ولَهْوِه إذْ غلب عليه الشراب؛ فأزال عَقْلَه، فدعا بسيْفِه وانْتَضَاه، وشدّ عليهما فقتلهما، وغلبَتْه عيناه فنام.

---

(١) مروج الذهب: ٢ ـ ٢٥٢، معجم البلدان: ٦ ـ ٢٨٣.

(٢) هو الشرقي بن القطامي: شاعر كلبي، كان وافر الأدب، عالمًا بالنسب، وكان المنصور قد ضمه إلى المهدي حين خلفه بالري، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب، ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار، وقراءة الأشعار.

(٣) ذكروا أنه النعمان بن المنذر.

فلما أصبح سأل عنهما فأُخبر بما كان منه؛ فأكبَّ على الأرضِ؛ عاضًا لها؛ تأسُّفًا عليهما، وجزَعًا لفراقهما، وامتنع من الطعام والشراب، ثم حلف لا يشرب شرابًا يُزْعج قلبه ما عاش! وواراهما وبنى على قبريهما بناءين، وسماهما الغَرِيَّين[١]، وسنّ ألا يمرَّ بهما أحدٌ من الملِك فَمنْ دونه إلا سَجد لهما، وكان إذا سنَّ الملِكُ سنة توارثوها، وأحيَوْا ذكرها ولم يُميتوها، وجعلوها عليهم حكمًا واجبًا وفرضًا لازمًا، وأوصَى بها الآباءُ أعقابَهم.

فغَبر الناس بذلك دهرًا طويلًا، لا يمرُّ أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما؛ فصار ذلك سنّة لازمة كالشريعة والفريضة، وحُكِمَ فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يُحْكم له بخصلتين يُجاب إليهما كائنًا ما كان!

فمر يومًا قصّار[٢] معه كَارة[٣] ثياب، وفيها مِدَقتُه[٤]، فقال الموكلون بالغَرِيين للقصَّار: اسجد! فأبى أن يفعل. فقالوا له: إنك مقتول إن لم تفعل؛ فأبى.

فرفعوه إلى الملك، وأخبروه بقصته، فقال: ما منعك أن تسجد؟ قال: سجدت ولكن كذبوا عليّ! قال: الباطلَ قلتَ: فاحتَكِم في خصلتين؛ فأنت مجابٌ إليهما، وإني قاتلك! قال: لا بدَّ من قتلي بقول هؤلاء؟ قال: لا بد من ذلك، قال: فإني أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتي هذه! قال له الملك: يا جاهل؛ لو حكمت على أن أُجْرِي على مَن تُخلّف وراءك ما يعينهم كان أصلح لهم!

قال: ما أحْكم إلا بضَرْبةٍ لرقبة الملك! فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل؟ قالوا: نرى أن هذه سنة، وأنت أعلم بما في نَقْض السنن من العار والنار وعظم الإثم، وأيضًا إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى، ثم يكون ذلك لِمن بعدك كما كان لك، فتبطل السنن!

قال: فارغبوا إلى القَصَّار أن يحكم بما شاء ويعفيني من هذه؛ فإني أجيبه إلى ما شاء، ولو بلغ حكمه شَطْرَ ملكي! فرغبوا إليه، فقال: ما أحكم إلا بضربة في عنق الملك!

---

(١) الغريان: بناءان بالكوفة؛ قيل: سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بدم مَن يقتله.
(٢) قصر الثوب: صوره ودقه، وسمى القصار لأنه يدق الثياب بالقصرة، وهي قطعة من الخشب.
(٣) الكارة: ما يحمل على الظهر من الثياب. (٤) المدق: ما يدق به.

فلما رأى الملكُ ذلك وما عزم عليه القَصَّار، قعد مقعدًا عامًا، وأحضر القصَّار، فأبدى مِدَقَّته، وضرب بها عنق الملك؛ فأوهنه وخرَّ مغشيًّا عليه!

فأقام يشكو ما به سنة، فلما أفاق وتكلَّم، وأكل وشرب سألَ عن القصار، فقيل: إنه محبوس؛ فأمر بإحضاره فحضر؛ فقال: لقد بقيتْ لك خصلة فاحْكم بها، فإني قاتلك لا محالة؛ إقامةً للسنة! قال القصّار: فإذا كان لا بد من قتلي فإني أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى!

فلما سمع الملكُ ذلك خَرَّ على وجهه من الجزع، وقال: ذهبتْ[1] والله نفسي إذَن. ثم للقصار: ويلك دَعْ عنك ما لا ينفعك، فإنه لم ينفعك منه ما مضى، واحكُم بغيره وأنَفِّذه لك كائنًا ما كان! قال: ما أرى حقي إلا ضربة أخرى!

فقال الملك لوزرائه: ما ترون؟ قالوا: هذا حقه! قال: ويلكم! إن ضُرِب الجانب الآخر ما شربت الماءَ البارد أبدًا!؛ لأني أعلم ما قد نالني.

قالوا: فما عندنا حيلة!

فلما رأى ما قد أشرف عليه قال لِلْقصار: أخبرني. ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أَتَى بك الموكَّلون بالغريين: إنك قد سجدت، وإنهم كذبوا عليك؟ قال: قد كنتُ قلتُ ذلك فلم أصدَّق! قال: فكنت سجدت؟ قال: نعم! فوثب من مجلسه، وقبل رأسه، وقال: أشهد أنك صادق، وأنهم كذبوا عليك، وقد وليتك موضعهم، وجعلت إليك أمرهم.

فضحك المهدي حتى فحص برجليه، وقال: أحسنت! ووصله.

مسلم يَحتَال عَلى قُريش[2]

أسلم الحجاج[3] بن عِلاطٍ السَّلَمِي، ولم تعلم قريش بإسلامه؛ فاستأذن رسولَ الله ﷺ يوم خَيْبر في أن يصيرَ إلى مكة، فيأخذَ ما كان له من مال ـ وكانت له أموالٌ متفرقة هناك، وهو رجل غريب بينهم ـ فأذِن له النبيّ، فقال: يا رسول الله؛ إني أحتاجُ أن أقول[4]. قال: فقل؛ فصار إلى مكة.

---

(١) ذهبت نفسي، أي هلكت.
(٢) الكامل للمبرد: ١ ـ ٢٠٧.
(٣) وفد على النبيّ ﷺ وهو بخيبر، فأسلم.
(٤) يريد: أقول على جهة الاحتيال.

فقالت قريش: هذا لعمرُ الله عنده الخبر. قال: فقولوا. فقالوا: بلغنا أن القاطع[١] قد خرج إلى أهل خَيْبر. فقال الحجاج: نعم! فقتلوا أصحابه قتلًا لم يُسْمع بمثله، وأخذوه أسيرًا، وقالوا: نرى أن نُكارِم[٢] به قريشًا؛ فندفعه إليهم؛ فلا تزالُ لنا هذه اليدُ في رقابهم، وإنما بادرتُ لجمع مالي؛ لعلي أصيبُ به من فَلّ[٣] محمد وأصحابه قبل أن يسبقني إليه التجار، ويتصل بينهم الحديث.

فاجتهدوا في أن جمعوا إليه ماله أسرعَ جمع، وسُرُّوا أكثر السرور، وقالوا بلا رُغْم[٤]!

وأتاه العباس بن عبد المطلب وهو كالمرأة الوَالِه[٥]، فقال: وَيْحك يا حجاج! ما تقول؟ فقال: أكاتمٌ عليَّ خبري؟ فقال: إي والله. فقال: فالبَثْ[٦] عليّ شيئًا حتى يخفّ موضعي.

ثم سار إليه، فقال له: الخبرُ والله على خلاف ما قلتُ لهم؛ خلّفْتُ رسول الله ﷺ، وقد فتح خَيْبَر، وخلّفْتُه مُعْرِسًا بابنة ملكِهم[٧]، وما جئتك إلا مسلمًا؛ فاطْوِ الخبر ثلاثًا، حتى أُعْجِزَ[٨] القومَ، ثم أَشِعْهُ، فإنه والله الحق.

فقال العباس: ويحك! أحقٌّ ما تقول؟ قال: إي والله. فلما كان بعد ثلاثة تخلّق[٩] العباسُ وأخذ عصاه، وخرج يطوف بالبيت؟ فقالت قريش: يا أبا الفضل، هذا والله التجلدُ، فقال: كلا ومن حلفتم به، لقد فتح رسول الله خَيْبر، وأَعْرَسَ بابنة ملكهم! فقالوا: مَنْ أتاك بها الحديث؟ فقال: الذي أتاكم بخلافه، ولقد جاءنا مسلمًا.

ثم أتت الأخبار من النواحي بذلك! فقالوا: أفلتنا الخبيث، أولى له[١٠]!

---

(١) يريدون رسول الله ﷺ البار الواصل رحمه، وكانوا يرمونه - سفهًا - بالقاطع، أي القاطع رحمه.
(٢) كارمه: غلبه في الكرم.
(٣) يريد من غنائم ذلك الفل.
(٤) وقالوا بلا رغم: يريد وفعلوا ذلك بلا كره، العرب تجعل القول عبارة عن الفعل، وتطلقه على غير الكلام.
(٥) الوله: ذهاب العقل والتحيّر من شدة الوجد، ويقال امرأة واله ورجل واله.
(٦) امكث، وهو يريد اصبر.
(٧) يريد صفية بنت حي بن أخطب.
(٨) أعجز القوم: صيرهم عاجزين.
(٩) الخلوق: الطيب، وتخلق: طلى ثوبه به.
(١٠) أولى له: كلمة تهديد وتوعد.

دَهَاء عَمْرو بن العَاص(١)

لما نزل عليُّ بنُ أبي طالب الكوفةَ بعدَ فراغهِ من أَمْرِ البصرة كتب إلى معاويةَ كتابًا يدعوه إلى البيعة، وأرسلَ جريرَ بن عبد الله البَجلي، فقدم عليه به الشام، فقرأه فاغتمّ بما فيه وذهبت أفكارُه كلَّ مذهب؛ وطاول جريرًا بالجواب عن الكتاب، حتى كلَّمَ قومًا من أهلِ الشام في الطلب بدم عثمان بن عفّان فأجابوه ووثَّقُوا له.

وأحبّ الزيادة في الاستظهار، فاسْتَعَان بأخيه عُتْبَة بن أبي سُفْيان؛ فقال: استعن بعمرو بن العاص؛ فإنه مَن قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمانَ بن عفان في حياته، وهو لأمرك أشدُّ اعتزالًا، إلّا أن يُثَمِّنَ له دِينُه، فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية: أما بعد، فإنه كان من أمر عليٍّ وطلحة والزبير ما قد بلغَك، وقد سقط إلينا مَرْوَان بن الحكم في نفر من أهل البَصْرَة، وقِدمَ علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبستُ نفسي عليك، فأَقْبِلْ أذاكِرْك أمورًا لا تَعْدَمُ مَغَبَّتَها إن شاء الله.

فلما قدِم الكتاب على عمرو استشار ابنيه: عبد الله بن عمرو، ومحمد بن عمرو؛ فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أن رسولَ الله ﷺ قُبِضَ وهو عنك راضٍ، والخليفتان بعده، وقُتِل عثمان وأنت غائب عنه؛ فَقَرّ في منزلك فلستَ مجعولًا خليفة، ولا تزيدُ على أن تكون حاشيةً لمعاوية، على دنيا أوشكتما أن تهلكا وتفارقاها.

وقال محمدٌ: أرَى أنَّكَ شَيْخُ قريش وصاحبُ أمرِها، وإن تصرَّم هذا الأمرُ ـ وأنت فيه غافل ـ تَصَاغر أمرُك؛ فالحقّ بجماعة أهل الشام، وكُنْ يَدًا من أيديها، طالبًا بدمِ عثمان، فإنه سيقومُ بذلك بنو أمية.

فقال عمرو: أنت يا عبد الله قد أَمَرْتني بما هو خير لي في دِيني، وأمّا أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا أنظر.

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ١٣٥، رغبة الآمل من كتاب الكامل: ٣ ـ ٢٠٨.

ثم دعا عمرٌو غلامه وَرْدان ـ وكان داهيةً ماردًا ـ فقال: ارْحَلْ يا وَرْدان، ثم قال: احطط يا وَرْدان! ثم قال: ارحل يا وَرْدان، احطط يا وَرْدان. فقال له وَرْدان: خلطتَ أبا عبد الله، أما إنك إن شئت أنبأتُك بما في قلبك، قال: هاتِ، ويحك! قال: اعتركتِ الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: عليٌّ معه الآخرة في غيرِ دنيا، وفي الآخرة عوضٌ عن الدنيا ومعاويةُ معه الدنيا بغير آخرة، وليس في الدنيا عرضٌ من الآخرة، وأنت واقف بينهما.

قال: قاتلك اللهُ! ما أخطأتَ ما في قلبي، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيمَ في بيتك؛ فإن ظهر أهلُ الدين عشتَ في عَفْو دينهم، وإن ظهرَ أهلُ الدنيا لم يَسْتَغْنُوا عنك، قال: الآن لما شهرت العرب سَيْرِي إلى معاوية!

ثم ارتحل حتى قدم على معاوية، وعرف حاجته إليه، فباعده من نفسه، وكايد كل واحد منهما صاحبَه.

فقال له معاوية يوم دخل عليه: أبا عبد الله؛ طرقَتْنا في ليلتنا ثلاثةُ أخبار ليس فيها وِرْد ولا صدَر. قال: وما ذاك؟ قال: منها أن محمد بن أبي حذَيفة كسر سِجْنَ مصر، فخرج هو وأصحابه، وهو منْ آفات هذا الدين؛ ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروح ليغلبَ على الشام؛ ومنها أن عليًا نزل الكوفة؛ وتهيَّأ للمسير إلينا.

فقال عمرو: ليس كلُّ ما ذكرت عظيمًا؛ أما ابنُ أبي حُذَيفة فما يتعاظَمُك[١] من رجل خرج في أشباهه أنْ تبعثَ إليه رجلًا يقْتله، أو يأتيك به، وإن قاتلَ لم يضرك؛ وأما قيصر فأهْدِ له الوصائف وآنيةَ الذهب والفضة، وسَلْهُ الموادعةَ فإنه إليها سريع؛ وأما عليّ، فلا والله يا معاوية، ما يسوِّي العربيُّ بينك وبينه في شيء من الأشياء، وإن له في العرب لحظًّا، ما هو لأحدٍ من قريش، وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمَه.

قال معاوية: يا أبا عبد الله؛ إني أدعوك إلى جهادِ هذا الرجل الذي عصى الله وشقَّ عصا المسلمين، وقتل الخليفة وأَظْهرَ الفتنة، وفرق الجماعة وقطع الرحم.

(١) لا يعظم عليك.

فقال عمرو: والله يا معاوية، ما أنت وعليّ عِدْلَا بعير، ليس لك هِجْرته ولا سابقتُه، ولا صُحْبَتُه ولا جهاده، ولا فقههُ، ولا علمه؛ والله إن له مع ذلك لحظًّا في الحرب ليس لأحد غيره، ولكني قد تعوّدت من الله تعالى إحسانًا وبلاءً جميلًا، فما تجعل لي إن شايعتُك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغَرر والخطر؟ قال: حُكْمُكَ فقال: مصر طعمة، فتلكأ معاوية وقال: يا أبا عبد الله؛ إني أكْرَهُ لك أن تتحدثَ العربُ عنك أنك إنما دخلتَ في هذا الأمر لغَرَض الدنيا! قال عمرو: دَعْني عنك، فقال معاوية: إني شئتُ أن أمنّيَك وأَخْدَعك لفعلت. قالَ عمرو: لعمرُ الله ما مثلي يُخْدَع، لأنَا أكْيَسُ من ذلك، فقال معاوية: ادنُ مني أسارّك. فدنا منه عمرو ليساره، فعضَّ معاوية أذنه، وقال: هذه خدعة، هل ترى في البيت أحدًا غيري وغيرك! ثم تَلَكّأ عليه وانصرف عمرو.

فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمرًا بمصر؟ فقال معاوية: يا عتبة؛ بت عندنا الليلة. فلما جَنَّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية وقال:

أيها المانع سيفًا لم يهزّ	إنما ملت على خزٍّ وقزْ
أعط عمرًا إن عمرًا تاركٌ	دينَه اليوم لدنْيَا لم تُحز
أعط مصرَ وزِدْه مثلَها	إنما مصرٌ لمن عزّ فبزّ
واترك الحرص عليها ضلةً	واشبب النار لمقرور يُكَز
إن مصر لعليٍّ أو لنا	يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع معاوية قول عُتْبَة أرسل إلى عمرو فأعطاه مصر، وكتب له كتابًا بها.

خدْعَة لمعَاويَة(١)

سمع يزيدُ بن معاوية بن أبي سفيان بجمال زينب بنت إسحٰق زوج عبد الله بن سَلَام القرشي؛ وكانت من أجْمَلِ النساء في وقتها، وأحسنهِنَّ أدبًا، وأكثرِهنَّ مالًا؛ فَفُتِنَ بها؛ فلما عِيلَ صبرُه ذكر ذلك لبعض خاصَّةِ أبيه، واسمه رفيق، فذكر ذلك لمعاوية، وقال له: إنَّ يزيد قد ضاق ذَرْعُه بها.

---

(١) نهاية الأرب: ٦ ـ ١٨٠.

فبعث معاويةُ إلى يزيد، فاستفسره عن أمره؛ فبَثَّ له شأنَه؛ فقال: مهلًا يا يزيد؛ فقال له: عَلَام تأمرني بالمَهَل وقد انقطع منها الأمَلُ؟ فقال له معاوية: فأين مُرُوءتك وحِجَاك وتُقَاك؟ فقال: قَدْ عِيلَ الصبرُ، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يُبْتَلَى به من الهوى بتُقَاه، أو يَدْفَعُ ما أَقْصَدَهُ[١] بحِجَاه، لكان أَوْلَى الناس به داود[٢] حين ابْتُلِيَ به.

فقال: اكْتُم يا بُنَيّ أمرك؛ فإنّ البَوْحَ به غيرُ نافعك؛ والله بالغُ أمره فيك، ولا بُدَّ مما هو كائن.

وأخذ معاويةُ في الاحتيالِ في تَبْليغ يزيد مُنَاه؛ فكتب إلى زوجها عبدِ الله بن سلَام ـ وكان قد استعمله على العراق: أن أقبل حين تنظرُ كتابي لأمر فيه حَظُّك إن شاء الله تعالى، فلا تتأخر عنه.

فأَغَذَّ[٣] السيرَ وقَدِم؛ فأنزله معاوية منزِلًا كان قد هُيّيء له، وكان عند معاوية يومئذٍ بالشأم أبو هُرَيرة وأبو الدرْدَاء، فقال لهما معاوية: إن الله قد قَسَم بين عباده قسمًا، ووهبهم نِعمًا أوجب عليهم فيها شكره، وحتّم عليهم حفظَها، فحباني منها عزّ وجلّ بأتمّ الشرف وأفضلِ الذّكر، وأَوسعَ عليَّ الرزق، وجعلني راعِيَ خُلقه، وأمينَه في بلاده، والحاكِمَ في أمرِ عبادِهِ، لِيَبْلُوَنِي أَأَشكر أم أَكْفر! وأوّلُ ما ينبغي للمرء أن يتفقّدَ وينظرَ من استرعاه اللهُ أمْرَه، ومن لا غنى به عنه.

وقد بلغتْ لي ابنة أريد زواجها والنظر في اختيار مَن يُبَاعلها[٤]، ولعل مَن يكون بعدي يقتدي فيه بهَدْيِي، ويتّبع فيه أثري؛ فإنه قد يلي هذا الملكَ بعدي من يغلب عليه الشيطان، ويحمله على تعضيل البنات[٥]؛ فلا يرون لها كفئًا ولا نظيرًا. وقد رضيتُ لها ابن سلَام القرشي؛ لدينه وشرفه، وفضله ومروءته وأدبه؛ فقالا له: إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها، وطلب مرضاته فيما اختصه لأنت.

---

(١) أقصده: أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطىء مقاتله.
(٢) يشير إلى داود عليه السلام، حينما تزوج من خطيبة أحد جنوده، ولقد عاتبه الله في ذلك، فاستغفره، فغفر له.
(٣) أغذ السير وفيه: أسرع.
(٤) يباعلها: يتخذها زوجًا وبعلاً.
(٥) تعضيل البنات: حبسهن عن الزواج ظلمًا.

فقال لهما معاوية: فاذكُرَا له ذلك عني! وقد كنْتُ جعلتُ لها في نفسي شُورَى، غير أني أرجو ألا تخرج مِنْ رأيـي إن شاء الله.

فخرجا من عنده، وأتيا عبد الله بن سلَام، وذكَرَا لَهُ القصة.

ثم دخل معاويةُ على ابنته، وقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلَام، وحضّاك على المسارعة إلى اتباع رأيـي فيه؛ فقولي لهما: إنه كفء كريم، وقريب حميم، غير أن تحته زينب بنت إسحٰق، وأخاف أن يعرض لي من الغَيرة ما يعرض للنساء؛ فأتناول منه ما يسخَط الله تعالى فيه، فيعذبني عليه، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقَها.

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله، وأعلماه بقول معاوية، ردهما إليه يخطُبان له منه، فأتياه؛ فقال: قد علمتما رضائي به، وحِرْصي عليه، وكنت قد أعلمتكما الذي جعلتُ لها في نفسها من الشورى؛ فاذْخُلَا عليها، واعْرِضا عليها الذي رأيتُ لها.

فدخلا عليها وأعلماها، فقالت لهما ما قاله معاوية لها؛ فرجعا إلى ابن سلَام، وأعلماه بما قالته.

فلما ظنّ أنه لا يمنعها منه إلا فراقُ زينب أشهدهما بطلاقها، وأعادهما إلى ابنة معاوية.

فأَتَيَا معاوية، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجتَه؛ رغبةً في الاتصال بابنته؛ فأظهر معاويةُ كراهةَ فعله، وفراقَه لزينب، وقال: ما اسْتَحْسَنْتُ له طلاقَ امرأته، ولا أحببتُه؛ فانصَرِفا في عافية، ثم عودا إليها، وخُذا رضاها.

فقاما ثم عادا إليه؛ فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها؛ وقال: لم يكن لي أن أُكرِهَها، وقد جعلْتُ لها الشُّورَى في نفسها.

فدخلا عليها فأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأتَه ليَسُرَّها؛ وذكرا من فضله وكمال مروءته وكرم مَحْتِدِه؛ فقالت لهما: إنه في قريش لرفيعُ القدر، وقد تعرفان أنَّ الأناةَ في الأمور أرفق لما يُخَافُ من المحذور؛ وإني سائلة عنه حتى أعرفَ دِخْلَة أمره، وأعلمكما بالذي يُزِيِّنه الله لي، ولا قوة إلا بالله، فقالا: وفّقك الله، وخَارَ لك: وانصرَفَا عنها، وأعلما عبد الله بقولها، فأنشد:

فـإن يـك صـدرُ هـذا اليـوم ولّى فــإنَّ غــدًا لــنــاظـرِه قــريــبُ

وتحدّث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب، وخِطبَته ابنة معاوية، وَلامُوهُ على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه.

ثم استحثّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء؛ فأتياها وقالا لها: اصنعي ما أنتِ صانعة واستخيري الله، فإنَّهُ يهدي مَن استهداه؛ فقالت: أرجو أن يكونَ الله قد خارَ لي، وقد استبرأتُ[١] أمره، وسألتُ عنه فوجدتُه غيرَ ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي.

ولقد اختلف مَن استشرته فيه، فمنهم الناهي عنه، ومنهم الآمر به، واختلافهم أولُ ما كرهت.

فلما بلّغاه كلامَها علم أنه مَخْدوع، وقال: ليس لأمر الله رَادٌّ، ولا لما لا بدَّ منه صادٌّ؛ فإن المرءَ وإن كَمُلَ حِلْمُه، واجتمع له عقله، واستدّ رأيه، ليس بدافع عن نفسه قَدَرًا برأيٍ ولا كيد، ولعل ما سُرّوا به واستجذلوا له لا يدوم لهم سرُوره، ولا يصرف عنهم محذوره.

وذاع أمره، وفشا في الناس. وقالوا: خَدَعه معاوية حتى طلق امرأته! وإنما أرادها لابنه، وقبحوا فعله.

فتمت مكيدته تلك، لكن المقادير أتَتْ بخلافِ تدبيره؛ وذلك أنه لما انقضت أقْرَاء[٢] زينب، وجه معاويةُ أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد؛ فخرج حتى قدم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن عليّ رضي الله عنهما؛ فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فسلّم عليه الحسين، وسأله عن سبب مقدمه؛ فقال:

وجّهني معاويةُ خاطبًا على ابنه يزيد زينبَ بنت إسحٰق؛ فقال له الحسين: لقد كنت أردتُ نكاحها، وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعني من ذلك إلا تخيّر[٣] مثلك؛ فقد أتى الله بك؛ فاخطب ـ رحمك الله ـ عليّ وعليه، لتتخير من اختاره الله لها، وهي أمانةٌ في عُنقك حتى تؤديَها إليها، وأعطيها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه؛ فقال: أفعلُ إن شاء الله.

(١) المعنى أنها استقصت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة.
(٢) المراد عدتها. (٣) التخير: الانتقاء.

فلما دخل عليها أبو الدرداء، قال: أيتها المرأة؛ إن الله خلق الأمور بقدرته، وكوّنها بعزّته، فجعل لكل أمر قدَرًا، ولكل قدَرٍ سببًا؛ فليس لأحدٍ عن قدَرِ الله مَحِيص، ولا للخروج عن أمره مَهْرب؛ فكان مما سبق لكِ، وقُدّر عليك، الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إياك، ولعل ذلك لا يضرّك، ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا؛ وقد خطبكِ أميرُ هذه الأمة وابنُ ملكها، ووليّ عهده والخليفةُ من بعده: يزيد بن معاوية، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، وسيِّدُ شباب أهل الجنة، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما، وقد جئتك خاطِبًا عليهما فاختاري أيّهما شئت.

فسكتت طويلًا، ثم قالت: يا أبا الدرداء؛ لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشْخَصْتُ فيه الرسل إليكَ، واتبعتُ فيه رأيك، ولم أقتطعه دونك؛ فأما إذ كنتَ أنت المرسل؛ فقد فوّضتُ أمري بعد الله إليك وجعلتُه في يديك؛ فاخْتَرْ لي أَرْضاهما لديك، والله شاهد عليك، فاقْضِ في أمري بالتحرّي، ولا يصدنَّك عن ذلك اتباعُ هوى، فليس أمرهما عليك خفيًّا، ولا أنت عما طوّقتك غبيًّا.

فقال أيتها المرأة؛ إنما عليّ إعلامُك، وعليك الاختيار لنفسك. قالت: عفا الله عنك! إنما أنا ابنة أخيك، ولا غِنى لي عنك، فلا تمنعْك رهبةُ أحدٍ عن قَوْل الحق فيما طوّقتك، فقد وجب عليك أداءُ الأمانة فيما حمّلتك؛ والله خير مَن رُوعِي وخِيف، إنه بنا خبير لَطِيف.

فلما لم يجد بُدًّا من القول والإشارة قال: أي بنية؛ إن ابنَ بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ وأَرْضَى عندي، والله أعلم بخيرهما لكِ.

قالت: قد اخترتُه وأردتُه ورضيتُه.

فتزوَّجها الحسين، وساق لها مهرًا عظيمًا. فبلغ ذلك معاوية، فتعاظَمه ولام أبا الدرداء لومًا شديدًا، وقال: مَن يرسل ذا بَلَهٍ وعمًى يركب خلاف ما يهوَى.

ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام، وقطع عنه جميع رَوَافِده، لسوءِ قوله فيه، وتهمته أنه خدعه، ولم يزل يَجْفُوه حتى عِيلَ صبره، وقلَّ ما في يده.

فرجع إلى العراق، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالًا عظيمًا، ودُرًّا كثيرًا؛ فظن أنها تَجْحَده؛ لسوء فِعْله بها، وطلاقها من غير شيء كان منها.

فلقي حسينًا فسلّم عليه، ثم قال: قد علمتَ ما كان من خبري وخبر زينب، وإني كنتُ قد استودعتها مالًا، ولم أقبضه ـ وأثنى عليها ـ وقال له: ذَاكِرْها أمري، واحضـضْها على ردّ مالي.

فلما انصرف الحسين إليها، قال لها: قد قَدِم عبد الله بنُ سلام، وهو يُحْسِن الثناء عليك، ويحمل النَّشرَ عنك في حسن صحبتك، وما آنسَه قديمًا من أمانتك؛ فسرَّني ذلك وأعجبني، وذكر أنه كان قد استودعكِ مالًا، فأدّي إليه أمانته، ورُدي عليه ماله، فإنه لم يقل إلا صدقًا، ولم يطلب إلا حقًّا.

فقالت: صدق، اسْتَوْدَعني مالًا لا أدري ما هو، فافدفعه إليه بطابَعه، فأثنى عليها حسين خيرًا، وقال: ألا أُدْخله إليكِ حتى تَتَبَرَّئي إليه منه كما دفعه إليك؟

ثم لقي عبد الله وقال: ما أنكرتْ مالَكَ، وإنها زعمتْ أنه بطابَعك فادْخُلْ إليها، وتسلم مالك منها.

فقال: أوَ ما تأمر مَن يدفعه إليَّ؟ قال: لا؛ بل تقبضه منها كما دفعته إليها.

ودخل عليها حسين، وقال: هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته؛ فأخرجت إليه البِدَر، فوضَعَتْها بين يديه، وقالت: هذا مالك، فشكر وأثنى.

وخرج حسين عنهما، وفضَّ عبد الله بن سلام خواتم بدرَة[1]، وحثى لها من ذلك، وقال: خُذِي فهو قليل مني؛ فاستَعْبَرَا جميعًا، حتى عَلَتْ أصواتهما أسفًا على ما ابتُلِيَا به، فدخل الحسين عليهما، وقد رقَّ لهما، فقال:

أشهد الله أني طلقتها؛ اللهم إنك تعلم أني لم أتزوجها رغبة في مالها ولا جمالها، ولكني أردت إحلالها لبَعْلِها.

فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساقه إليها من مهر؛ فأجابته إلى ذلك؛ فلم يقبله الحسين، وقال: الذي أرجوه من الثواب خيرٌ لي.

فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله، وحرمَها الله يزيدَ بن معاوية.

(١) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف.

مِن حِيَلِ الحَجّاج[١]

دخل عمرُ بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن عندي نصيحةً، فإذا خلا لك عقلُك، واجتمع فهمُك فسلْني عنها؛ قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنتَ أعلم أنه إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم.

فمكث أيامًا ثم قال: يا غلامُ؛ مَنْ بالباب؟ فقال له: ناسٌ وفيهم عمرُ بن عبد العزيز، فقال: أَدْخِلْهُ، فدخل عليه فقال: نصيحَتَكَ يا أبا حفص، فقال عمر: إنه ليس بعد الشِّرْك إثمٌ أعظمُ عند الله من الدم وإن عمَّالَك يقتلون، ويكتبون: إن ذنبَ المقتول كذا وكذا، وأنتَ المسؤول عنه والمأخوذُ به، فاكتب إليهم: ألّا يَقْتُل أحدٌ منهم أحدًا حتى يكتب إليكَ بذَنْبِهِ، ثم يُشهد عليه، ثم تأمر بأَمْرِكَ على أمرٍ قد وضح لك. قال: بارك الله فيك يا أبا حفص.

فكتب إلى الأمصار فلم يَحْرَج[٢] من ذلك إلا الحجاج، فإنه أَمَضَّه[٣]، وشقَّ عليه وأقلقَه، وظن أنه لم يُكتب به إلى أحدٍ غيره، فبحث عن ذلك فقال: من أين دُهِينا؟ ومَنْ أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأُخْبِرَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز هو الذي فعل ذلك، فقال: هيهات! إن كان عمر فلا نقضَ لأمره.

ثم إن الحجاجَ أرسل إلى أعرابي حَرُورِيّ[٤] جافٍ من بكر بن وائل، ثم قال له: ما تقول في معاوية؟ فنالَ مِنه. قال له: ما تقول في يزيد؟ فسبّه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلّمه[٥]. قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أَجْوَرُهم حين وَلّاك، وهو يعلم عَدَاءك[٦] وظُلْمَكَ. فسكت عنه الحجاج، وافترصها[٧] منه.

ثم بعث إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوَط لديني وأرعى لما استرْعيتَني، وأحفظُ له من أن أَقْتُل أحدًا لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنتُ أقتلُ على هذا الرأي، فشأنك وإياه.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٣٩.
(٢) حرج: ضاق.
(٣) أمضه: آلمه وأوجعه.
(٤) الحرورية: فرقة من الخوارج؛ ينسبون إلى حروراء، موضع بظاهر الكوفة، كان به أول اجتماعهم.
(٥) ظلمه: نسب إليه الظلم.
(٦) العداء: تجاوز الحد في الظلم.
(٧) افترصها: انتهزها.

فدخل الحَرُورِيّ على الوليد، وعنده أشرافُ أهل الشام وعُمَرُ فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فيّ؟ قال: ظالم جائر جبَّار! قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبّار عَاتٍ، قال: فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم.

قال الوليد لابن الريّان: اضرب عنقه، فضرب عنقَه، ثم قام فدخل منزله، وخرج الناسُ من عنده، فقال: يا غلام: اردد عليّ عمر، فردّه عليه فقال: يا أبا حفص: ما تقول في هذا؟ أَصَبْنَا فيه أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبتَ بقتله، ولَغَيْرُ ذلك كان أرشد وأَصْوَب، كنتَ تسجُنه حتى يراجعَ الله عزّ وجلْ، أوتدركه منيتهُ. فقال: شَتَمَنِي وشتم عبد الملك، وهو حَرُورِي؛ أفتستحلُّ ذلك؟ قال: لعمري ما أستحلُّه؛ لو كنتَ سجنتَه - إن بَدا لك - أو عفوت عنه كان أرشد! فقام الوليد مغضَبًا، فقال ابنُ الريان لعمر: يغفرُ الله لك يا أبا حفص، لقد رادتَ أمير المؤمنين حتى ظننتُ أنه سيأمرني بضرب عنقك! فقال عمر: ولو أمرك كنتَ تفعل؟ قال: إي لعمري!

خــدْعَــةٌ[١]

لما ذهب الرشيد لغَزْوِ الروم أخذ يفتحُ المدن والحصون ويخربها، حتى أناخ على هرِقْلَة[٢]، وهي أوثقُ حصن وأعزُّه جانبًا، وأمنعُه رُكْنًا، فتحصَّن أَهْلُها - وكان بَابُها يُطِلُّ على وادٍ، ولها خندق يُطيفُ بها - ولما ألَحَّ عليهمْ بالمجَانِيق والسّهام والعرَّادات[٣] فُتِح الباب، وإذا برجل من أهلها كأكمل الرجال، قد خرج في أكمل السّلاح فنادى: قد طالت مُوَاقَعتكم إيَّانا، فلْيبْرز إليّ منكم رجلان. ثم لم يزل يَزِيدُ حتى بلغ عشرين رجلًا، فلم يجبه أحد؛ فدخل وأغلق باب الْحِصْن.

وكان الرّشيدُ نائمًا فلم يعلم بخبره إلا بعدَ انصرافه؛ فغضب ولام خَدمَهُ وغِلمانه على تَرْكهم إنباهه[٤]، وتأسف لفَوْته. فقيل له: إن امتناع الناس منه سيُقَوِّيه ويطغيه، وأخرِ به أن يخرجَ في غد، فيطلبَ مثل ما طلبَ؛ فطالت على الرشيد ليلتُه، وأصبح كالمنتظر له، ثم إذا هو بالباب قد فُتح، وخرج طالبًا للمبارزة، وذلك في يوم شديد الحر، وجعل يدعو بأنه يثبت لعشرين منهم.

---

(١) الأغاني: ١٧ - ٤٦.
(٢) مدينة ببلاد الروم.
(٣) المنجنيق والعرادة: آلتان من آلات الحروب ترمى بها الحجارة.
(٤) أنبهه: أيقظه من النوم.

فقال الرشيد: مَنْ له؟ فابتدره جملةُ القوّاد كَهرْثمة، ويزيد بن مزْيَد، وعبد اللهبن مالك وغيرهم؛ فعزم على إخراج بعضهم؛ فضجَّت المطَّوِّعة[1] حتى سَمع ضجيجهم، فأَذِنَ لعشرين منهم، فاستأذنوا في المشورة، فأَذِن لهم، فقال قائلهم: يا أمير المؤمنين؛ قوادُك مشهورون بالبَأس والنَّجْدة وعلوِّ الصيت ومُدَارَسة الحروب، ومتى خرج واحد منهم فقَتلَ هذا العِلج[2] لم يكبر ذلك. وإن قَتَلَهُ العِلْج كانت وضيعة على العسكر عجيبة، وثُلْمة لا تسد. فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يخلّينا نختارُ رجلًا فنخرجُه إليه! فإن ظفر عِلم أهلُ الحصن أن أميرَ المؤمنين قد ظفِر بأعزِّهم على يدِ رجلٍ من العامَّة ومن أَفْناء[3] الناس، ليس ممن يُوهِنُ قتلُه ولا يُؤَثّر، وإن قُتِلَ الرجلُ فإنما استشهد رجل، ولم يؤثِّر ذهابُه في العسكر، ولم يَثْلِمْه، وخرج إليه رجل بعده مثله حتى يمضيَ إليه ما شاء.

قال الرشيد: لقد استصوبتُ رأيكم هذا؛ فاختاروا رجلًا منهم يعرف بابن الْجزَرِي، وكان معروفًا في الثغْرِ بالبَأس والنَّجْدة، فقال الرشيد: أتخرج؟ قال: نعم! وأستعينُ الله. فقال: أَعْطُوه فرسًا ورُمْحًا وسيفًا وتُرْسًا. فقال: يا أمير المؤمنين: أنا بفرسي أوثقُ، ورمحي بيدي أشدّ؛ ولكني قد قبلتُ السيفَ والتُّرس.

فلبِسَ سلاحَه، واستدنَاهُ الرشيدُ فودَّعه واستَتْبَعَهُ الدعاء، وخرج معه عشرون رجلًا من المطَّوِّعة: فلما انقضَّ في الوادي، قال لهم العِلْج وهو يعدُّهم: إنما كان الشرْط عشرين وقد زدتُم رجلًا. ولكن لا بأس، فنادَوْه: ليس يخرج إليك منا إلا رجل واحد. فلما فَصَلَ منهم ابن الجزري تأمّله الرُّومي، وقد أشرف أكثرُ الروم من الحصن، يتأمّلون صاحبَهم والقِرْن، حتى ظنوا أنه لم يبقَ في الحصن أحدٌ إلا أشرف. ثم أَخَذَا في شأنهما فاطَّعَنَا[4] حتى طال الأمرُ بينهما، وليس يخدِشُ واحدٌ منهما صاحبه.

ثم تحاجزا بشيء فزجَّ كل منهما برُمْحِه، وأُصْلَتَ[5] سَيْفَه، فتَجَالدا مَليًّا، واشتد الحرُّ عليهما وتبلَّدَ[6] الفَرَسان، وجعل ابن الجزري يضرب الرومي الضربَةَ التي يرى أنه قد بلغ فيها فيتَّقيها الرومي، وكان ترْسُه حديدًا، فيسمع لذلك صوت مُنْكر.

---

(١) المطوعة: الذين يتطوعون بالجهاد.
(٢) العلج: الرجل من كفار العجم.
(٣) لا يعلم مَن هو.
(٤) تطاعنا.
(٥) أصلت السيف: جرده من غمده.
(٦) التبلد: ضد التجلد.

فلما يئس كلٌّ واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابنُ الجزري فدخلت المسلمين كآبةٌ لم يكتئبوا مثلَها قط، وعَطْعَطَ الروم[1] اختيالًا وتطاولًا، وإنما كانت هزيمتُه حيلةً منه. فاتَّبَعَه العِلْج وتمكّن منه ابنُ الجزريَ فرماه بوَهَق[2]، فوقع في عنقه وما أخطأه، ورَكَضَ فألقاه عن فرسه، ثم عطف عليه، فما وصل إلى الأرض حيًّا حتى فارقه رأسه. فكبَّر المسلمون أعلى تكبير، وانْخَذَلَ الروم، وبادروا الباب يُغْلقونه، واتَّصل الخبرُ بالرشيد فصاح بالقوَّاد: اجعلوا النار في المجَانِيق، وارمُوها فليس عنْد القوم دَفْع. ففعلوا وجعلوا الكتان والنِّفط على الحجارة وأضرموا فيها النار، ورمَوْا بها السُّور فكانت النار تلصق به، وتأخذ الحجارة وقد تصدعت فتهافتت. فلما أحاطت بها النيران فتحوا الباب مستأمنين ومستقبلين.

(١) العطعطة: تتابع الأصوات واختلاطها في الحرب وغيرها.
(٢) الوهق بفتح الهاء وإسكانها: الحبل يرمى أنشوطة، فتؤخذ به الدابة.

ما جاء في التيقّظ
والتبصّــر في الأمــور

قالت الحكماء: مَن أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفّظ أيس عدوه من كيده له وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشي، فمن تدرّع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر. وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعًا في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصًا وبحثًا عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس في البلاد ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه الإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيبته.

تيقّظ وتبصّر عمر بن الخطاب

رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتًا من الشعر مضروبًا، فلم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلًا قاعدًا، فدنا منه وقال له: مَن الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق. قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا.

فانطلق عمر لرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنهما: هل لك في أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن

شئت، قال: فخذي معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، وائتني بقدر وشحم وحبوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى أتى البيت.

فقال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لي نارًا، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها: بشِّر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: مَن ولي شيئًا من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسؤول ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة.

ثم قام عمر رضي الله عنه، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم، وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضي الله عنه للرجل: قم إلى بيتك وكُل ما في البرمة، وفي غدٍ ائت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان رضي الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس بنفسه، ويباشر أمور الرعية سرًّا في كثير من الليالي، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثًا، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبدًا أسود قدامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهمّ بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رأوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له يا أمير المؤمنين: قد أخطأت وإني تائب، فاقبل توبتي، فقال: أريد أن أضربك على خطيئتك. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة، فأنت قد أخطأت في ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢] وأنت تجسست، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النُّور: الآية ٢٧]، وأنت دخلت وما سلّمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود، فاستتوبه، فاستحسن كلامه.

وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك، وكان زياد ابن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلًا كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زيادًا لا يعرفه، فقال: أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له: أتتعرف إليَّ، وأنا أعرَفُ بك منك بنفسك؟. والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان، وقد أعارك إياها، فبهت الرجل وارتعد، حتى كاد يغشى عليه.

ثم جاء بعدهم مَن اقتدى بهم وهو: عبد الملك بن مروان، والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق، واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس ولي الخلافة بعد أخيه السفاح، وهي في غاية الاضطراب فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث في البلاد والنواحي مَن يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور، ودانت له الجهات ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه، وأرادوا خلعه، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف مَن انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقط رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلّت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

تيقّظ وفطنة المنصور

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي: مَن أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إني لأرى لك هيبة وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معني، فإن كفيتنيه رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين.

فقال: أخف نفسك واحضر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضرت، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لي: اعلمْ أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم

بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم، فخذ معك عينًا[١] من عندي، وألطافًا[٢]، وكتبًا، واذهب حتى تأتي عبد اللهبن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فأقدم عليه متخشعًا، والكتب على ألسنة أهل تلك القرية والألطاف من عندهم إليه، فإذا رآك، فإنه سيردك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده وقل له: قد سيروني سرًا، وسيروا معي ألطافًا وعينًا، وكلما جبهك وأنكر اصبر عليه، وعاوده، واكشف باطن أمره.

قال عقبة: فأخذت كتبه والعين والألطاف، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب، فأنكرها ونهرني وقال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقبة: فلم أنصرف، وعاودته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأن معي ألطافًا، وعينًا، فأنس بي، وأخذ الكتب وما كان معي.

قال عقبة: فتركته ذلك اليوم، ثم سألته الجواب، فقال: أما كتاب، فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فاقرئهم السلام واخبرهم أن ابنيّ محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا.

قال عقبة: فخرجت من عنده، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لي المنصور: إني أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن وفيهم عبد الله، فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه، وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرت إليه، فتمثل بين يدي، ووقف قدامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه وحادثه، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطانًا، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين.

قال عقبة: فلحظني المنصور بعينه، فقمت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرض عني، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي، فرفع رأسه وملأ عينيه مني ثم وثب حتى جثى بين يدي المنصور وقال: أقلني يا أمير المؤمنين

---

(١) عينًا: جاسوسًا وحارسًا.

(٢) ألطافًا: هدايا وطعام وحسنات.

أقالك الله. فقال له المنصور: لا أقالني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمد وإبراهيم ويستعلم أخبارهما.

قال علي الهاشمي صاحب غدائه، دعاني المنصور يومًا فإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقيني، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتيني لأصلن رحمه ولأتبعن البر إليه. وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهي تقول: لا أعرف له مكانًا، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها، فقال: كفّوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شم الطيب وصب الماء البارد على وجهها وأن تسقى السويق، ففعلوا بها ذلك، وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألها عنه، فقالت: لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بني سليم قال: صدقت. هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندي سيرتها، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم.

ثم قال لها: أتعرفين فلانًا البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان، قال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالًا، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائج، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب. فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكل ما أراد.

فهرس المحتويات

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع